صدمة المستقبل

المتغيّرات في عالم الغد



تأليف : ألفين توفلر

ترجمة : محمد علي ناصف

تقديم : الدكتور أحمد كمال أبو المجد

نشر هذا الكتاب بالاشتراك
مع
الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية
القاهرة
الطبعة الأولى : يولية سنة ١٩٧٤
الطبعة الثانية : يناير سنة ١٩٩٠

بسم الله الرحمن الرحيم

المشتركون فى هذا الكتاب

المؤلف : آلفين توفلر : رئيس التحرير المساعد لمجلة « فورتشن » . كان أستاذاً زائراً بجامعة كورنيل ، وعالماً زائراً فى مؤسسة راسل سيدج . نشرت له كتب كثيرة من بينها « مستهلكو الثقافة » ، و « المدرسة فى المدينة » . له مقالات نشرت فى المجلات العلمية المتخصصة وغيرها .

المترجم : محمد على ناصف : صحفى سابق . مؤلف مسرحى وسينمائى . حائز على جائزة الدولة الأولى للصحافة فى المقال السياسى ، وعلى الجائزة الأولى لوزارة التربية والتعليم فى المسرحية الإذاعية ، وعلى الجائزة الثانية فى القصة القصيرة والمسرحية ذات الفصل الواحد . درس السينما والعلاقات العامة فى جامعة كاليفورنيا (UCLA) . ترجم عدة كتب لوزارة الثقافة فى الفنون . مدير عام الرقابة على المصنفات الفنية سابقاً ، وحالياً مستشار البرنامج الثقافى بسفارة الولايات المتحدة الأمريكية .

صاحب التقديم : الدكتور أحمد كمال أبو المجد : وزير الإعلام

مصمم الغلاف : محمد سليمان التهامى : يعمل رساما فى دار الهلال . تخصص فى رسوم الأطفال ، صمم الكثير من أغلفة كتب المؤسسة .

محتويات الكتاب

صفحة

تقديم بقلم الدكتور أحمد كمال أبو المجد ... ... م
مقدمة المؤلف ١
القسم الأول : نهاية الثبات ٧

الفصل الأول – العمر رقم ٨٠٠ ٩
الزائر غير المستعد ١٠
الانفصال عن الماضى ١٢

الفصل الثانى – الانطلاق المتسارع ١٩
الزمن والتغيير ٢٠
مدن تحت الأرض ٢٢
المحرك التكنولوجى ٢٥
المعرفة كوقود ٣١
تدفق المواقف ٣٣

الفصل الثالث – سرعة الحياة ٣٧
إنسان المستقبل ٣٨
توقعاتنا عن دوامية الأشياء ٤٣
مفهوم الزوال ٤٦

القسم الثانى : الزوال ٤٩
الفصل الرابع – الأشياء : مجتمع التخلص من الأشياء ٥١
فستان زفاف من الورق ٥٢
المتجر الضائع... ... ... ٥٥
اقتصاديات اللادوام ٥٦
الملعب النقالى ٥٨
قصر الملاهى « المضمن » ٦٠
الثورة الإيجارية ٦٣
احتياجات مؤقتة ٦٨
ماكينة التقاليع ٧٢

الفصل الخامس – الأمكنة : البدو الجدد ٧٥
نادى الثلاثة ملايين ميل ٧٦

صفحة

الفلامنكو فى السويد ٧٨
الهجرة إلى المستقبل ٨١
متحرون ، ورحالة ٨٤
المتنقلون الحزانى ٨٩
غريزة حب البيت ٩١
العوامل الجغرافية تفقد مكانتها ٩٣

الفصل السادس - الناس : الإنسان المضمن ٩٧

ثمن « الارتباط » ٩٨
دوامية العلاقات الإنسانية ١٠١
الترحيب السريع ١٠٤
الصداقات فى المستقبل ١٠٩
صداقات محدودة بإطار الوظيفة ١١١
مجندون وهاربون ١١٤
رجال للإيجار... ... ... ١١٧
كيف تفقد الأصدقاء ١١٩
كم من الأصدقاء ؟ ١٢٢
تربية الأطفال على فصم العلاقات ١٢٤

الفصل السابع : المنظمات : الأدهوقراطية القادمة ١٢٧

كاثوليك ، وطوائف ، ورفاق مقصف ١٢٩
الهزات التنظيمية ١٣١
الأدهوقراطية الجديدة ١٣٦
سقوط سلم المراتب ١٤١
ما وراء البيروقراطية ١٤٧

الفصل الثامن - المعلومات : الصورة المتحركة ١٥٧

تويجى والميزونات ١٦٠
الموجة الفرويدية ١٦٣
عاصفة الكتب الرائجة ١٦٧
الرسالة المصممة ١٦٨
موزار على متن السرعة ١٧٢
شيكسبير شبه الأمى... ... ... ١٧٥
الفن : تكعيبيون وحركيون ١٧٩
الاستثمار العصبى ١٨٣

صفحة

القسم الثالث : الجدة ١٨٩

الفصل التاسع – المسار العلمى ١٩١

الأطلانتيس الجديدة ١٩٤
أشعة الشمس والشخصية ١٩٧
صوت الدرفيل ١٩٩
المصنع البيولوجي ٢٠١
الجسم المصمم سلفاً ٢٠٣
أعضاء الجسم الزوالية ٢١٣
السيبورجات بين ظهرانينا ٢١٧
إنكار التغيير ٢٢٤

الفصل العاشر – صناع الخبرة ٢٢٩

خليط كعكة بإضافات نفسية ٢٣١
« فتيات خدمة » فى الجو ٢٣٤
صناعات للخبرة ٢٣٦
بيئات مزيفة ٢٣٨
وبيئات حية ٢٤٠
اقتصاديات الصحة العقلية ٢٤٥

الفصل الحادى عشر – الأسرة الممزقة ٢٤٩

أسطورة الأمومة ٢٥٠
الأسرة المشذبة ٢٥٣
والدان بالنسب ، ووالدان بالمهنة ٢٥٤
كوميونات ٢٥٦
المرجحات ضد الحب ٢٦١
الزواج المؤقت ٢٦٣
المسار الزواجى ٢٦٥
مطالب الحرية ٢٦٧

القسم الرابع : التنوع ٢٧١

الفصل الثانى عشر – أصول فائض الاختيار ٢٧٣

سيارة تفصيل ٢٧٤
الكومبيوتر وحجرة الدرس ٢٨٠
أفلام حسب الطلب ٢٨٧

صفحة

الفصل الثالث عشر – طوفان من الطوائف ٢٩٥

علماء وسماسرة ... ٢٩٧

أخصائيون فى اللهو... ٢٩٩

« جيتو » الشباب ... ٣٠٢

قبائل مؤسسة على الحالة الزوجية ... ٣٠٥

هيبيون وشركات كبرى... ٣٠٦

دورة التغيير بين القبائل ... ٣٠٩

الهمجى ينخلع من أصوله ... ٣١٢

الفصل الرابع عشر – تنوع فى أساليب الحياة ٣١٧

مثقفون وراكبو موتوسيكلات ... ٣١٩

خالقو نماذج وأنصاف أبطال ... ٣٢٢

مصانع لأساليب الحياة ... ٣٢٤

سلطان الأسلوب ... ٣٢٧

وفرة وافرة من صور الذات ... ٣٣١

المجتمع الحر ... ٣٣٧

القسم الخامس : حدود القدرة على التكيف ٣٣٩

الفصل الخامس عشر – صدمة المستقبل : الأبعاد البدنية ٣٤١

تغييرات الحياة والمرض ... ٣٤٣

الاستجابة للجدة ... ٣٥٠

رد الفعل التكييفى ... ٣٥٤

الفصل السادس عشر – صدمة المستقبل : الأبعاد النفسية ٣٦١

عندما يتعرض الفرد لفرط التنبيه ... ٣٦٢

الهجوم على الحواس... ٣٦٦

زيادة التحميل بالمعلومات ... ٣٦٩

الإرهاق بالقرارات ... ٣٧٤

ضحايا صدمة المستقبل ... ٣٧٨

صدمة المستقبل على مستوى المجتمع ... ٣٨٤

القسم السادس : استراتيجيات من أجل البقاء ٣٨٧

الفصل السابع عشر – فى مواجهة الغد ٣٨٩

المواجهة المباشرة ... ٣٩٢

مناطق الاستقرار الشخصى ... ٣٩٥

صفحة

التصنيف المرحلى ٤٠٢
خدمات استشارية للأزمات ٤٠٥
المنازل الوسيطة ٤٠٨
بؤر من الماضى ٤١٠
وبؤر مستقبلة ٤١١
مهرجانات فضاء عالمية ٤١٣

الفصل الثامن عشر – التعليم فى صيغة المستقبل ٤١٩

مدرسة عصر التصنيع ٤٢٠
الثورة التعليمية الجديدة ٤٢٣
الهجوم التنظيمى ٤٢٦
مناهج الأمس اليوم... ... ... ٤٣٠
التنوع فى المعطيات ٤٣٣
نظام من المهارات ٤٣٥
استراتيجية المستقبلية ٤٤٠

الفصل التاسع عشر – ترويض التكنولوجيا ٤٥١

الارتكاس التكنولوجى ٤٥٣
انتقاء الأساليب الثقافية ٤٥٥
الترانزستور والجنس ٤٦٠
مجلس الحسبة التكنولوجى ٤٦٤
الغربال البيئى ٤٦٦

الفصل العشرون – استراتيجية المستقبلية الاجتماعية ٤٧١

نهاية التكنوقراطية ٤٧٢
إنسانية المخططين ٤٧٧
الآفاق الزمنية ٤٨٤
الديموقراطية التوقعية ٤٩٧

تقدير وعرفان ٥١٥



تقديم

بقلم

الدكتور أحمد كمال أبو المجد

وزير الأعلام

ترى ما الذى يحدث لسكان هذا العالم لو أن الأرض زادت فجأة من سرعة دورانها حول نفسها وحول الشمس ، فاذا بالليل والنهار يتعاقبان مرات عديدة كل ساعة ، واذا بالفصول الأربعة تتداخل بكل ما يحمله ذلك التداخل على الناس وعلى البيئة من نتائج ... وما الذى يحدث مثلا لو أن درجات الحرارة على هذا الكوكب أخذت تبلغ قمتها ثم تهبط الى أدنى درجاتها خلال دقائق معدودة .. كل ذلك والانسان هو هو بتكوينه العضوى ، وجهازه العصبى والنفسى ؟

أغلب الظن أن دوارا هائلا شاملا سوف يستولى عليه ، وأن أجهزته العضوية والعصبية سوف تعجز عن استقبال هذه « الصدمة الكونية » بما تحمله من تزايد مفاجىء وحاد فى معدلات التغير من ظاهرة الى ظاهرة ، وأن كيانه كله سيعجز عن التكيف مع الظروف الجديدة ، وعن ملاحقة هذه الثورة فى معدلات الحركة والتغيير .

وترى ما الذى يقع للمسافر — فجأة وبلا تمهيد — الى بلد غير بلده ، ومجتمع غير مجتمعه ، وحضارة غير حضارته ، وعادات مناقضة تماما للعادات التى نشأ عليها ، ورتب حياته كلها على أساس التعامل معها ، فاذا به يلقى كل يوم — بل كل ساعة — وجوها جديدة ، ويواجه حاجات جديدة ، ومواقف يومية متكررة لم يعرف لها شبيها من قبل ، واذا بكل ما اختزنه من عادات وأنماط للسلوك قد تحول فى لحظات الى سلعة غير معترف بها فى الدنيا الجديدة التى يواجهها .. وهو مطالب — مع ذلك كله ودون امهال — أن يقف على قدميه ، وأن يدخل على حياته وسلوكه ومعاملاته كلها ألوانا لا آخر لها من التكيف العاجل الذى يتواءم به مع هذا المجتمع الجديد .. ان العبء الذى تفرضه محاولة التكيف فى مثل هذه الظروف كثيرا ما يصيب صاحبه — هو الآخر — بنوع من الدوار النفسى والعصبى ، وقد يفقد توازنه ويقع ضحية لهذا الذى يسميه علماء النفس والاجتماع « بالصدمة الحضارية » .

وجوهر الصدمة فى الحالين واحد .. وهو أن تغيرات حادة ومفاجئة

وعديدة وسريعة التلاحق قد أحاطت « بالانسان » ، فعجزت أجهزة التكيف والتلاؤم فى بنيانه العضوى أو النفسى عن ملاحقتها والاستجابة لها .. واذا كان التغير والتطور قانونا من قوانين الحياة ، وسنة من سنن الله فى كونه وخلقه ، فان المعدلات التى يتم بها هذا التغير ظلت سرعتها تتزايد تدريجيا حتى أخذت أخيرا شكل الظاهرة الجديدة ، فالعصر الذى نعيش فيه تشهد مجتمعاته الصناعية — والعالم كله من حولها — ثورة شاملة ، صنعها تراكم الكشوف العلمية ، واستخدام الجديد منها فى اكتشاف المزيد .. فأخذت صورة الحياة كلها تتغير بمعدلات سرعة هائلة ، وامتـــد التغير الى كل شىء .. الى الأشياء المـــادية من حولنا ، والى العلاقات التى تربط الانسان بالبيئة ، وبالناس ، وبالأفكار ، وبالمعتقدات .. وبلغت معدلات سرعة هذا التغير الشامل مبلغا نستطيع أن نقول معه ان الانسان المعاصر يصبح كل يوم ليجد نفسه أمام عالم غير الذى نام عنه بالأمس ، وهو مطالب — مع ذلك — بأن يتكيف مع هذه التغيرات ، وأن يرتب حياته كل يوم على أساس العالم الجديد الذى تمر معالمهوظواهره وكل ما فيه مر السحاب ، بل مر البرق الخاطف أو الشهاب الثاقب ، أو الصاروخ .. وحين تجاوز معدلات سرعة هذا التغير كله الحد الأقصى لمعدلات القدرة الانسانية على التكيف مع عناصر الواقع الجديد فان الانسان يصاب بنوع من الدوار واختلال التوازن هو الذى يسميه آلفين توفلر : « صـــدمة المستقبل » .. وحول صدمة المستقبل هذه ينسج المؤلف عالمـــا كاملا يصف ويحلل مظاهر وظواهر التغيير الذى يقع حاليا والذى يوشك أن يقتحم علينا حياتنا ، وهو عالم تكفى قراءته وحدها لاصابة القارىء بصدمة ، ولكنها صدمة علاجية جديرة بأن تفتح العقول والقلوب الى حقيقة العصر الذى نعيش فيه ، والى طبيعة المشكلات التى تنتظر الانسان فى ظل الحركة المذهلة التى يدخل منها الحاضر دخولا مفاجئا الى المستقبل ، بل التى يقتحم منها المستقبل على الحاضر كل مافيه كاسرا بذلك خط الفصل التقليدى بين اليوم والغد ، وبين الحاضر والمستقبل .

والكتاب نموذج فذ للاحاطة المدهشة الدقيقة بمعالم التغير الذى ينتاب حياة الانسان المعاصر فى المجتمعات المتقدمة التى يمكن أن نسميها مجتمعات الثورة الصناعية الثـــانية ، أو « المجتمعات فوق الصناعية » Super Industrial Societies ، وهو مذهل كذلك فى تصور — وأكاد أقول تخيل — وتشخيص الآثار الاجتماعية والفكرية والنفسية لآثار هذه الصدمة فى كيان الانسان . وميزته الكبرى أنه يضع القارىء — رغما عنه — على أعتاب المستقبل فى اطار بالغ التشويق والاثارة يمزج فيه المؤلف بين الوصف العلمى الدقيق وبين التخيل الذى لا يخلو أحيانا من المبالغات المقصودة . واذا كان الكاتب يستمد كثيرا من المـــادة الخام لكتابه ، ومن الأمثلة التى يسوقها فى وصفه وتحليله من البيئة الأمريكية الصناعية البالغة التقدم ، والتى يحكمها بطبيعة الحال اطار النظام السياسى والاجتماعى والاقتصادى السائد فى الولايات المتحدة ، فان قيمته الحقيقية تكمن — مع ذلك — فى أن كثيرا من الظواهر التى يتعرض لها بالوصف والتحليل ظواهر عامة تنتظر البشرية كلها مع انهيار الحواجز بين المجتمعات ، نتيجة تزايد معدلات السرعة التى تتم بها الكشوف العلمية وانتشار ثمرات تلك الكشوف فى العالم كله .

والعالم العربى الذى ظل سنوات طوالا يعيش فى رتابة واستقرار ، معزولا — بارادته أو بغير ارادته — عن الحركة السريعة للمجتمعات الصناعية ، يحتاج اليوم الى مثل هذا الكتاب حاجة حقيقية ، وذلك بما يولده التأمل فى « صدمة المستقبل » من احساس أكثر ارهافا بحركة العالم من حوله .. وبارتباطه .. وباستحالة العزلة فيه . وما يخلقه وينميه من احساس بالمستقبل بصفة عامة .

ان تقدم المجتمعات الانسانية المعاصرة وقدرتها على معالجة المشكلات العامة المصاحبة للتطور الاقتصادى والاجتماعى السريع والمعقد ، رهين بمدى قدرة تلك المجتمعات على تصور المستقبل ، والاعداد له ، والتخطيط للقائه والتعامل معه .. ذلك أن الفاصل الزمنى بين الحاضر والمستقبل اوشك أن يكون فاصلا افتراضيا ، ومالم يضع الانسان العربى احدى قدميه فى المستقبل فان قدرته على اجتياز هذه الصدمة حين تدق عليه ابوابه تغدو أمرا محفوفا بأشد المخاطر .

على أن قراءة هذا الكتاب تضع القارىء العربى فى موقع أفضل من القارىء الغربى ، ذلك انها تتيح له أن يتأمل وأن يتفهم ظواهر « صدمة المستقبل » وهى تحل — بعيدا عنه — بمجتمعات غير مجتمعه ، فيتهيأ لها ، ويعد نفسه لملاقاتها ، ويطرح — وهو لا يزال فى سعة من أمره — عديدا من الأسئلة التى تتصل بمشكلات الحفاظ على قيمه الانسانية والفكرية والاعتقادية وسط هذه الثورة الصاخبة التى تموج بها الحياة وهى تندفع الى المستقبل اندفاع الاعصار الذى يجتث القواعد ويقتلع الجذور .

وبعـــد ..

فهذه كلمات حول الكتاب ، حاولت بها تقديم الظاهرة التى يتحدث عنها ، وبيان قيمة هذا الحديث بالنسبة للانسان العربى .. ولكن شيئا من ذلك كله لن يفلح فى أن يضع القارىء بعقله وحواسه واعصابه وخيـــاله وسط دوامة الحركة الهائلة التى ينبغى أن يتهيأ لها الآن وهو ينتقل بين فصول هذا الكتاب الممتع .

مقدمة المؤلف

موضوع هذا الكتاب هو عما سيحدث للناس عندما تغمرهم أمواج التغيير ، وعن السبل التى سنستطيع بها أن نتكيف ، أو نخفق فى التكيف ، مع المستقبل .

لقد كتب الكثيرون عن المستقبل ، ولكن معظم الكتب التى تحدثت عن عالم المستقبل كان لحديثها ضجيج معدنى مزعج ، وعلى عكس تلك الكتب ، فإن هذه الصفحات التى أقدمها للقارئ تعنى بالجانب « الأرق » أو الإنسانى للغد . وفوق ذلك فقد عنيت هذه الصفحات أيضاً بالخطوات التى سنخطوها فى طريقنا إلى ذلك الغد . إنها تعالج أمور الحياة اليومية : المنتجات التى سنشتريها وتلك التى سنطرحها جانباً ، الأماكن التى سنخلفها وراءنا ، الأحياء التى سنسكنها ، الناس الذين يهرولون بخطوات حثيثة عبر حياتنا . إنها تسبر غور الصداقة والحياة الأسرية فى المستقبل ، وتتحرى كنه العديد من الثقافات الفرعية وأساليب الحياة المستجدة ، وبالإضافة إلى ذلك ، قائمة طويلة من الموضوعات ، من السياسة إلى الملاعب ، ومن القفز الجوى إلى الجنس .

والذى يجمع كل هذا الشتات – فى الكتاب كما فى الحياة – هو تيار التغيير المدوى ؛ ذلك التيار الذى صار من القوة فى وقتنا الحاضر بحيث راح يقوض مؤسساتنا ، ويغير من قيمنا ، ويهز جذورنا . إن التغيير هو العملية التى يغزو بها المستقبل حياتنا ، *وإنه لأمر بالغ الأهمية ، أن ننعم النظر* ، وعن قرب ، فى هذه العملية ، ليس فقط من الجانب العريض لمسيرة التاريخ ، ولكن أيضاً من خلال الأفراد الأحياء الذين يعانون هذه المسيرة .

إن التسارع الرهيب ، الذى أصبح الصفة اللاصقة بعملية التغيير فى وقتنا الحاضر ، قد أصبح فى حد ذاته قوة أساسية . فلهذا الاندفاع المتسارع تأثيراته الذاتية ومعقباته الخطيرة فى النواحى النفسية والاجتماعية . والصفحات

التالية تقدم أول محاولة منهجية لاستكشاف هذه التأثيرات . إن الكتاب يطرح بقوة قضية خلاصتها : أننا « نحن البشر » إذا لم نستطع أن نتحكم فى معدلات التغيير فى شئوننا الخاصة ، وفى المجتمع ككل ، فإنه مقضى علينا لا محالة بالتعرض للانهيار الجماعى كنتيجة لعجزنا عن التكيف مع عملية التغيير .

فى مقال نشرته سنة ١٩٦٥ فى مجلة « هورايزون » صنعت تعبير « صدمة المستقبل » لأصف به ذلك الإعنات الذى يصيب الأفراد بالتشتت والتمزق عندما يفرض عليهم الكثير جداً من التغيير خلال الوجيز جداً من الزمن ، ولقد استهوانى هذا المفهوم حتى اقتنعت به فأنفقت السنوات الخمس التالية فى ارتياد عشرات من الجامعات ، ومراكز البحث ، والمعامل والمؤسسات الحكومية ، وقرأت أعداداً لا حصر لها من المقالات والأوراق العلمية ، وقابلت مئات من الخبراء فى مختلف النواحى المتفرعة على عملية التغيير التى تعالج مسائل السلوك وموضوعات المستقبل . وكان من بين من قابلت علماء حائزون لجائزة نوبل ، وهيبيون ، ومتخصصون نفسيون ، وأطباء ، ورجال أعمال ، ومستقبليون محترفون ، وفلاسفة ، ومعلمون . ولقد أدلى كل من هؤلاء برأيه فيما يهمه من جوانب التغيير ، وكشف كل منهم عما يحسه من هواجس فيما يتصل بالتكيف ، ومخاوف تجاه المستقبل . ولقد خرجت من هذه التجربة بحقيقتين مزعجتين للغاية :

فأولا : اتضح لى أن صدمة المستقبل لم تعد بعد ذلك الخطر البعيد المنتظر ، بل أصبحت بالفعل مرضاً حاداً تعانى منه أعداد متزايدة كل يوم ؛ مرضاً يتخذ شكل حالة سيكوبيولوجية يمكن أن نصفها – إذا استخدمنا لغة الطب أو الطب النفسى – بأنها « مرض التغيير » .

ثانياً : لقد أذهلتنى ضآلة ما نعرفه فعلا عن القدرة على التكيف ، سواء من جانب هؤلاء الذين يروجون للتغييرات الكبيرة فى المجتمع ، أو من جانب أولئك المفروض فيهم أن يعدونا للتلاؤم مع هذه التغييرات . إن الكثيرين من المثقفين يتكلمون بشجاعة عن « التعلم من أجل التغيير » أو عن « إعداد الناس للمستقبل » . ولكننا لا نعرف فى الحقيقة ماذا نفعل حيال

ذلك ؟ وهكذا ، وفى نفس البيئة التى تعرض فيها الإنسان لأسرع التغيرات التى مر بها على هدى تاريخه كله ، نعانى جهلا مثيراً للإشفاق بالوسائل التى تمكن المخلوقات البشرية من التلاؤم والتكيف مع هذه التغييرات .

إن أخصائيينا النفسيين ورجال السياسة على السواء ، يعانون من الحيرة إزاء ما يبديه أفراد بعينهم ، وجماعات معينة ، من مقاومة تبدو وكأنها غير معقولة للتغيير . مثل هذه المقاومة تعترض طريق كل رئيس شركة يريد أن يعيد تنظيم إدارة من إداراتها ، ورجل التعليم الذى يريد إدخال منهج جديد فى التعليم ، والعمدة الذى يريد تحقيق المساواة السلمية بين الأجناس فى مدينته ؛ فليس بين هؤلاء وغيرهم إلا من ووجه مرة أو أكثر من مرة بمثل هذه المقاومة العمياء المجهولة المنابع . وجدير بالمرء أن يتساءل : لماذا يتحرق رجال ، بل يحترقون ، شوقاً إلى التغيير ، ويبذلون كل ما يملكون من طاقات من أجل أن يتحقق ؟ فى حين أن آخرين يفرون منه وكأنه وباء أو وحش مفترس ؟! إننى لم اكتشف فحسب أننى عاجز عن تقديم إجابات حاضرة على مثل هذه التساؤلات ؛ بل اكتشفت أيضاً أننا لا نملك أية نظرية مقنعة عن التكيف ، وبدون مثل هذه النظرية يصبح احتمال معرفتنا لمثل هذه الإجابات احتمالا بعيداً ممعنا فى البعد .

إن هدف هذا الكتاب — من ثم — هو المعاونة على أن نتوافق مع المستقبل ، وأن نتكيف بفعالية أكثر مع التغييرات التى تواجه الفرد والمجتمع عن طريق تعميق فهمنا لكيفية تجاوب الإنسان معها . هذه هى الغاية التى يقدم هذا الكتاب من أجلها نظرية جديدة عن التكيف .

ويلفت هذا الكتاب النظر إلى أمر بالغ الأهمية ، مع الأسف ، كثيراً ما نتخطاه ونتجاوزه . . فى الغالب الأعم من الدراسات التى أجريت عن التغيير كان البحث فى تأثيرات التغيير يركز على الوجهة التى يقودنا إليها التغيير أكثر من تركيزه على السرعة التى يحملنا بها إلى هذه الوجهة . ولكننى فى هذا الكتاب أحاول أن أوضح أن معدل التغيير له فى حد ذاته مضموناته المتميزة ، والتى قد تفوق فى أهميتها اتجاهات التغيير نفسها ، وأى محاولة لفهم القدرة على التكيف لن يكتب لها النجاح دون الوعى بهذه الحقيقة ،

ومن ثم فأى محاولة لتعريف « محتوى » التغيير يجب أن تتناول آثار السرعة التى يسير بها هذا التغيير كجزء لا يتجزأ من محتواه .

لقد أوضح وليام أوجبورن فى نظريته الهامة عن « الهوة الثقافية » كيف تنشأ المتاعب الاجتماعية من عدم انتظام معدلات التغيير فى القطاعات المختلفة من المجتمع ؟ ومفهوم صدمة المستقبل ونظرية التكيف التى تنبع منه ينادى بضرورة وجود التوازن ، ليس فقط بين معدلات التغيير فى القطاعات المختلفة ولكن أيضاً بين سرعة التغيير فى البيئة وسرعة الإنسان المحدودة فى التجاوب معها . حيث إن صدمة المستقبل تنشأ فى الواقع من الهوة المطردة الاتساع بينهما .

ولا يقتصر هدف هذا الكتاب على مجرد تقديم نظرية ، بل إنه أيضاً يستهدف عرض منهج . لقد درس الإنسان الماضى ليلقى الضوء على الحاضر ، ولكنى قلبت مرآة الزمن مقتنعاً بأن صورة واضحة للمستقبل يمكن أيضاً أن تمد حاضرنا بعديد من البصائر التى لا غنى عنها . إننا سنواجه مصاعب متزايدة فى فهم مشكلاتنا الشخصية والعامة إذا لم نستعن بالمستقبل كأداة للفهم والإدراك . ولقد استخدمت هذه الأداة فيما سيتتابع من صفحات هذا الكتاب لأبين مدى ما يمكن أن تفعله .

وأخيراً وليس آخراً ، فإن الكتاب سيشرع فى تغيير القارئ إلى حد ما ، بأسلوب لين ولكنه واضح المغزى ، ولأسباب ستتضح فى الصفحات التالية ، فإن التلاؤم مع التغيير السريع سوف يتطلب من معظمنا أن يتبنى موقفاً جديداً حيال المستقبل ، أو بعبارة أخرى ، وعياً جديداً بالدور الذى يلعبه المستقبل فى حاضرنا ، هذا الكتاب مصمم لينمى الوعى المستقبلى لدى القارئ ومدى تأثير هذا الكتاب فى القارئ بعد أن ينتهى منه سيكشف عنه مدى ما سيجد القارئ نفسه مفكراً فى المستقبل ، أو متأملا فيه ، أو حاسباً لتوقعاته .

ولكن ، إلى جانب هذه الأهداف ، التى أعلناها للكتاب ، فإن هناك بعض التحفظات التى ينبغى أن نشير إليها . وأحد هذه التحفظات هو زوالية أو عدم ثبات الحقيقة . إن كل صحفى مخضرم لابد قد مر بتجربة

الكتابة عن قصة سريعة التذبذب من ذلك النوع الذى يتغير فى معناه ومبناه حتى قبل أن يضع الكاتب كلماته على الورق . وفى أيامنا هذه يمكن أن نصف العالم الذى نعيش فيه بأنه قصة سريعة التذبذب ، ولذا فإنه من المحتم بالنسبة لكتاب استغرق وضعه سنوات عديدة ، أن تختفى بعض الحقائق الواردة فيه ، أولا بين زمن البحث ووقت الكتابة ، وثانياً بين وقت الكتابة والنشر ، وعلى سبيل المثال ستجد أساتذة منسوبين إلى جامعة (أ) قد انتقلوا خلال ذلك الوقت إلى جامعة (ب) ، وسياسيين مشاراً إلى وجودهم بالموقع (حـ) قد انتقلوا فى نفس الوقت إلى الموقع (د) .

وبرغم كل الجهود المخلصة التى بذلت فى أثناء كتابة « صدمة المستقبل » ليخرج معاصراً فى حقائقه إلى أقصى حد ممكن ، فإن بعض هذه الحقائق بلا شك قد عفى عليها الزمن . (وبالطبع فإن هذا يصدق على كثير من الكتب وإن كان المؤلفون عادة لايحبون أن يعترفوا بذلك) . وزوال الحقائق هنا له مغزى خاص . إنه يؤكد صحة الفرضية التى يقدمها هذا الكتاب عن سرعة التغيير . إن الكتاب يعانون معاناة شديدة فى سبيل ملازمة الواقع ، ولكننا لم نتعلم بعد كيف نتلقى ، ثم نبحث ، ثم نكتب ، ثم ننشر فى «الوقت الحقيقى» . من أجل ذلك فإنه ينبغى للقارئ أن يوجه اهتمامه أكثر فأكثر إلى الفكرة الرئيسية دون التفصيلات الصغيرة .

أما التحفظ الثانى فيتصل بكلمة « سوف » ؛ فالباحث الجاد فى المستقبل لا يمكن أن يلجأ إلى تكهنات من ذلك النوع الذى يقدمه المنجمون فى الصحف وبرامج التليفزيون . فليس هناك إنسان على دراية ولو بسيطة بتعقيدات عملية التنبؤ يستطيع أن يدعى العلم التام بما سوف يحدث غداً . وتذكرنى هذه الحقيقة بالمثل الصينى الساخر الذى يقول : « إن التنبؤ عملية صعبة للغاية — خصوصاً فيما يتصل بالمستقبل » .

وهذا يعنى أن أى مقولة عن المستقبل لابد أن تكون مصحوبة بسلسلة من الكلمات المقيدة من نوع : « لو » و « ثمة » و « لكن » و « من الناحية الأخرى » ، وأخيراً فإنه قبل أن تدخل إلى أى عملية تقدير فى كتاب من هذا النوع ينبغى أن تغرق القارئ بطوفان من كلمة « يحتمل » . ولكنى بدلا

من أن أفعل ذلك فإنى أعطيت لنفسى الحرية فى أن أخاطب القارئ بصيغة التأكيد ، وبلا تردد ، واثقاً من أن القارئ الحصيف سيتفهم مشكلة الأسلوب . فكلمة « سوف » يجب أن تقرأ وكأنها مسبوقة بعبارة « على الأرجح » ، أو « فى رأيى » ، وبنفس الدرجة فإن أى تواريخ تتعلق بأحداث المستقبل ينبغى أن تؤخذ بروح بعيدة عن التعسف .

وعلى أية حال فإن استحالة التحدث بمنتهى الدقة والوثوق عن المستقبل ليست مبرراً للسكوت ، فحيثما توجد « حقائق صلبة » فلابد بطبيعة الحال أن تؤخذ فى الاعتبار . ولكن حيث لا تتوافر مثل هذه الحقائق الصلبة فإن من حق الكاتب — وحتى العالم — وبحكم مسئوليتهما ، أن يعتمدا على أنواع أخرى من الأدلة بما فى ذلك الحقائق الانطباعية أو المتخيلة وآراء أولى الذكر ، وعن نفسى فلقد فعلت ذلك ولا أقدم اعتذاراً عما فعلت . .

وفى معالجة أمور المستقبل ، على الأقل فيما يتصل بالغرض الذى بين أيدينا ، فإن القدرة على التخيل ونفاذ البصيرة قد يكونان أهم من الدقة المطلقة . إن النظريات لا تحتاج إلى أن تكون صحيحة مائة فى المائة لتكون مفيدة إلى أبعد الحدود ، حتى الأخطاء لها فوائدها . . إن الخرائط التى رسمها للعالم جغرافيو العصور الوسطى كانت أبعد ما تكون عن الدقة ، وكانت مليئة بالأخطاء لدرجة تثير ابتسامات الإشفاق عندما ننظر إليها الآن ، بالمقارنة بالخرائط الحديثة ، ولكن بدون تلك الخرائط المليئة بالأخطاء لم يكن من الممكن لعظماء المستكشفين أن يكتشفوا الدنيا الجديدة ، بل لم يكن من الممكن أن ترسم الخرائط الحديثة والأكثر دقة لو أن أولئك الرجال ، الذين كانوا يعملون بما لديهم من براهين محدودة ، لم يضعوا على الورق مفهومهم عن عوالم لم ترها أعينهم .

ونحن الذين نستكشف المستقبل ، مثلنا مثل راسمى الخرائط القدماء ، وبمثل روحهم ، نقدم هنا مفهومنا عن صدمة المستقبل ونظريتنا عن التكيف — ليس كآخر كلمة تقال — ولكن كأول تقدير تقريبى للحقائق الجديدة المليئة بالخطر وبالأمل ، والتى خلقتها دفعة التطور المتسارعة .

القسم الأول

نهاية الشباب

الفصل الأول

العمر رقم ٨٠٠

فى خلال العقود الثلاثة الباقية على بداية القرن الحادى والعشرين ، سوف يصطدم الكثير من عقلاء الناس بالمستقبل ، وسيجد الكثيرون من أبناء أغنى الأمم وأكثرها تقدما عناء أكثر فأكثر فى الوفاء بمتطلبات التغيير المستمر الذى أصبح علامة مميزة لعصرنا ، أو بعبارة أخرى ، فإنه بالنسبة لهؤلاء ، سيصل المستقبل بأسرع مما كان منتظرا .

والحديث الذى نسوقه على صفحات هذا الكتاب هو عن التغيير وكيف نتكيف معه ، وعن أولئك الذين يستقبلون أمواجه المتدافعة بالحماسة والفرحة ، وأيضا عن أولئك الذين يقفون منه مواقف تتراوح بين المقاومة والرفض والفرار . وعن مدى قدرتنا على التكيف معه ، وعن المستقبل والصدمة التى سيحملها معه عند تقدمه .

لقد عاش المجتمع الغربى خلال القرون الثلاثة الماضية وسط عاصفة نارية من التغيير . هذه العاصفة ، بدلا من أن تهدأ ، تلوح وكأنها تجمع قواها لهبة أشد عنفوانا ، ان موجات التغيير تكتسح المجتمعات المتقدمة صناعيا بعنف متفاقم وسرعة متزايدة ، وهى تحمل فى براثنها كل أنواع البيئات الغربية المستحدثة من كنائس السيكوديليك ، والجامعات الحرة ، إلى المدن العلمية فى القطب ، إلى نوادى تبادل الزوجات فى كاليفورنيا .

إنها أيضا تستولد شخصيات شاذة : أطفالا فى الثانية عشرة لا يبدون كأطفال ، ورجالا فى الخمسين يبدون كأطفال فى الثانية عشرة ، فهناك رجال أثرياء يجدون متعتهم فى انتحال صفة الفقر ، ومبرمجو عقول إليكترونية يتعاطون عقار الهلوسة ، وهناك فوضويون هم تحت قمصانهم القطنية

القذرة محافظون لدرجة التنطع ، ومحافظون هم تحت بنائقهم « ياقاتهم » العالية فوضويون حتى النخاع ، هناك كهنة متزوجون ، وقساوسة ملحدون ، ويهوذ بوذيون ، ولدينا أغانى البوت ، إلى جانب أغانى الاوب ، ونوادى البلاى بوى ، ودور سينما للشواذ . . . والمنبهات والمهدئات والغضب والوفرة ، والنسيان . . . كثيرا من النسيان .

هل هناك من سبيل إلى تفسير مثل هذا المشهد دون اللجوء إلى غياهب التحليل النفسى ، أو إلى الصيغ المصطنعة المظلمة للوجودية ؟ إن مجتمعا غريبا ينبثق بين ظهرانينا ، فهل من سبيل إلى فهمه ، أو إلى صياغة تطوره ؟ كيف يمكن أن نتوافق معه ؟

إن الكثير مما يبدو لنا الآن مستعصيا على الإدراك سيغدو أقل غموضا إذا ما نظرنا نظرة جديدة إلى معدل التغيير الذى يجعل الواقع يبدو أحيانا كالخيال المجنون ، فالتغيير المتسارع لا يقرع أبواب الصناعات والشعوب فحسب ، ولكنه يتغلغل فى أعماق حياتنا الشخصية ، ويرغمنا على أن نلعب أدوارا جديدة ويواجهنا بأخطار مرض نفسى جديد عنيف مدمر ، هذا المرض يمكن أن نسميه « صدمة المستقبل » وبعض المعرفة بمسبباته وأعراضه تساعد ، بلا شك ، على تفسير بعض الأشياء التى ستبدو دون ذلك وكأنها تتحدى أى تحليل عقلانى .

الزائر غير المستعد

لقد أصبح تعبير « صدمة الثقافة » تعبيرا شائعا لدى الكافة . وصدمة الثقافة تعنى ذلك التأثير الذى يحدث للغريب عندما يجد نفسه فجأة ، وبلا استعداد سابق ، وسط ثقافة غريبة عليه . مثل هذه الصدمة يعانى منها ، على سبيل المثال متطوعو فيلق السلام فى بورنيو والبرازيل ، ولا شك أن ماركو بولو أيضا قد واجه مثل هذه الحالة فى كاثاى . صدمة الثقافة هى ما يحدث لمسافر يجد نفسه فى مكان حيث كلمة « لا » تعنى « نعم » ، وحيث يكون « السعر المحدد » محل مساومة ، وحيث لا ينطوى الانتظار الطويل فى المكتب الخارجى على أى قصد للإهانة والتحقير ، أو حيث يكون الضحك هو التعبير المصطلح

عليه للغضب . هى ما يحدث للفرد عندما يجد أن المحركات النفسية المعتادة التى تساعده على معايشة المجتمع قد أبطلت فجأة واستبدلت بها أخرى غريبة وغير مفهومة .

وإلى ظاهرة صدمة الثقافة يرجع الكثير من الحيرة والجمود والعجز عن التكيف التى يصاب بها الأمريكيون فى تعاملهم مع المجتمعات الأخرى . إنها تسبب القطيعة والإدراك الخاطئ للواقع وعدم القدرة على المواجهة . ومع كل ذلك فصدمة الثقافة تعتبر شيئاً هيناً إذا ما قورنت بذلك المرض الأحدث والأخطر ، صدمة المستقبل ؛ فصدمة المستقبل هى العجز المذهل عن التكيف الذى يأتى فى ركاب الميلاد المبتسم للمستقبل . ومن ثم فقد تكون هذه الصدمة هى أخطر أمراض الغد .

وصدمة المستقبل مرض لن تجد له ذكراً فى أى معجم « قاموس » طبى ، أو أية قائمة للأمراض النفسية ، ومع ذلك ، فما لم تتخذ خطوات واعية لمواجهته فسيجد ملايين الناس أنفسهم تحت وطأة العجز المتزايد عن التكيف مع بيئتهم . إن ظواهر الانحراف ، والعصاب الوبائى ، والهوس ، والعنف ، التى تبدو واضحة فى حياتنا المعاصرة ما هى إلا عينة متواضعة لما ينتظرنا فى المستقبل ما لم نفهم ذلك المرض ونعالجه .

إن صدمة المستقبل ظاهرة زمنية من نتاج المعدل المطرد السرعة للتغيير فى المجتمع ، وهى تنشأ من عملية التركيب لثقافة جديدة فوق أخرى قديمة . إنها صدمة الثقافة للفرد فى نفس مجتمعه وليس فى مجتمع أجنبى ، ومن ثم فإن آثارها أخطر وأسوأ ، فالمسافر يجد سلواه فى علمه بأنه عائد إلى ثقافة مجتمعه التى تركها خلفه . ولكن ضحية صدمة المستقبل لا سلوى له ، حيث لا عودة هناك . .

انتزع فرداً من بيئته الثقافية وألق به فجأة إلى بيئة حادة الاختلاف عن بيئته ، وبمجموعة مختلفة من المحركات النفسية ليتعامل بها ، ومفهومات مختلفة عن الزمان ، والمكان ، والعمل ، والحب ، والدين ، والجنس ، وغير أولئك ، واقض على أى أمل لديه فى العودة إلى بيئة تشابه بيئته المعتادة ، وانظر كم ستكون

معاناته من التمزق مضاعفة وقاسية . ولسوف يزداد الطين بلة إذا ما كانت البيئة الجديدة نفسها عرضة للتغيرات المستمرة ، فإذا ما كان ذلك الفرد التعس - بالإضافة إلى ذلك - لا يملك إلا أقل القليل من الإرشادات عن كيفية السلوك الراشد تجاه الظروف الجديدة ، فسيصبح هو ذاته كارثة يصيب بها نفسه ومن حوله .

والآن تخيل وقوع تلك الحالة ، ليس لفرد ، ولكن لأمة بأسرها ، ولجيل كامل - بما فى ذلك أكثر أفراده ضعفاً وأقلهم ذكاء ، وأكثرهم افتقاراً إلى الرشد - ينتقل فجأة إلى هذا العالم الجديد . . إن النتيجة الحتمية لذلك هى حالة من العجز الجماعى ، أى صدمة المستقبل على أوسع قياس .

هذا هو ما ينتظرنا ، وما بدأنا بالفعل نحسه ، طوفان التغيير ينحدر بسرعة مخيفة فوق رؤوسنا ، والغريب أن معظم الناس غافلون عنه وغير مهيئين لملاقاته .

الانفصال عن الماضى

هل كل هذا مبالغة ؟ لا أعتقد ذلك . لقد شاع التعبير عما نعيش فيه الآن بأنه : « ثورة صناعية ثانية » وهى عبارة قصد بها أن تصور لنا سرعة وضخامة التغيير الذى يحدث فيما حولنا ، ولكن هذه العبارة ليست فقط نوعاً من شقشقة اللسان ، بل إنها أيضاً مضللة . . فالذى يحدث الآن هو ، بأى معيار ، أكبر وأعمق وأهم من الثورة الصناعية ، وثمة وجهة نظر يتزايد مؤيدوها كل يوم تؤكد أن التغيير المعاصر لا يمكن تعريفه بأقل من أنه يمثل ثانى الانقسامات العظمى فى تاريخ البشرية ؛ وهو انقسام أكبر من أن يقارن فى ضخامته بأول هذه الانقسامات العظمى فى مسار التاريخ ، ونعنى به انتقال الجنس البشرى من البربرية إلى المدنية .

والواقع أن هذه الفكرة أخذت تتردد بشكل متزايد فى كتابات العلماء والتكنولوجيين ؛ فمثلا فى رأى السير جورج طومسون ، عالم الفيزياء البريطانى الشهير والحائز على جائزة نوبل ، أن أكثر تغييرات الماضى موازاة لما يحدث اليوم ليس الثورة الصناعية ، ولكن « اختراع الزراعة فى العصر النيوليثى » . وجون دايبولد خبير الأتومبشن الأمريكى يحذر من « أن تأثيرات الثورة

التكنولوجية التى نعيشها الآن سوف تكون أعمق من أى تغييرات اجتماعية عهدناها من قبل » . أما السير ليون باجريت منتج الكمبيوتر البريطانى المعروف فمصر على أن الأتوميشن فى حد ذاته يمثل «أعظم تغيير فى تاريخ البشرية بأكمله».

ولا تنحصر وجهة النظر هذه فى رجال العلم والتكنولوجيا وحدهم ؛ فالسير هوبرت ريد فيلسوف الفنون يحدثنا عن أننا نعيش خلال « ثورة من العمق بحيث إننا لابد أن نبحث عبر العديد من القرون الماضية لنعثر لها على شبيه . ومن الممكن أن يكون أقرب تغييرات الماضى شبها بها هو ما حدث بين العصر الحجرى القديم والعصر الحجرى الجديد » .

وكورت . و . ماريك — وهو أكثر اشتهارا باسمه المستعار س . و . سيرام C.W.Ceram الذى وضعه على كتابه الشهير « آلهة وقبور ومعلمون » — «يلاحظ أننا فى القرن العشرين نختتم فترة من تاريخ البشرية طولها خمسة آلاف عام ؛ إننا لسنا ، كما يقول شبنجلر ، فى وضع يشبه وضع روما لدى قيام المسيحية فى الغرب . . إننا فى وضع شبيه بإنسان ما قبل التاريخ عندما فتح عينيه منذ خمسة آلاف سنة على دنيا جديدة تماما » .

ومن أروع ما قيل فى هذا المجال ، ما عبر به الاقتصادى الكبير كينيث بولدنج عن وجهة نظره فى أن وقتنا الحاضر يشكل نقطة تحول خطير فى تاريخ الجنس البشرى ؛ إذ يرى بولدنج أنه « على قدر ماتقرره الإحصاءات الاقتصادية العديدة المتصلة بجهود الجنس البشرى ، فإن الزمن الذى يقسم تاريخ الجنس البشرى إلى قسمين متساويين ، زمن ماثل فى الذاكرة الحية ؛ فالقرن الحالى يمثل خط الوسط الذى يقسم تاريخ الجنس البشرى » وهو يؤكد ذلك بقوله : « إن عالم اليوم يختلف عن العالم الذى ولدت فيه بقدر اختلاف الأخير عن عالم يوليوس قيصر . لقد ولدت فى منتصف التاريخ البشرى ، لأن ما حدث منذ ولدت حتى الآن يماثل تقريبا كل ما حدث قبل أن أولد . . » .

مثل هذا القول المروع يمكن أن نصوره بأكثر من وسيلة . . فمثلا لوحظ أن الخمسين ألف سنة الأخيرة من عمر الإنسان لو قسمت إلى أعمار طول كل

منها ٦٢ سنة ، فإن ناتج القسمة يكون حوالى ٨٠٠ عمر ، أنفق الإنسان ٦٥٠ منها داخل الكهوف .

وخلال الأعمار ، السبعين الأخيرة فقط ، أمكن التواصل بين عمر وعمر عن طريق الكتابة . فى حين لم يتح لجماهير الناس أن يطلعوا على الكلمة المطبوعة إلا خلال الأعمار الستة الأخيرة فقط ، ولم تتوافر للإنسان أية وسيلة دقيقة لقياس الوقت إلا فى الأربعة الأخيرة منها ، أما المحرك الكهربى فلم يعرف قط قبل العمرين الأخيرين . وأما الأغلبية الساحقة من الأدوات والأجهزة الموجودة حاليا فقد برزت إلى الوجود خلال العمر الحالى فقط ، العمر رقم ٨٠٠.

هذا العمر رقم ٨٠٠ يمثل علامة افتراق حاد عن ماضى الخبرة الإنسانية ؛ لأنه خلال هذا العمر حدث انقلاب جذرى فى علاقة الإنسان بالموارد ، ويبدو هذا أوضح ما يكون فى مجالات التنمية الاقتصادية ، ففى خلال هـــذا العمر وحده أخذت الزراعة — وهى القاعدة الأصيلة للمدنية — تفقد سيطرتها فى أمة بعد أخرى . واليوم ، وفى حوالى اثنتى عشرة من الدول المتقدمة ، تقل نسبة القوى العاملة فى الزراعة عن ١٥٪ من مجموع القوى العاملة ، وفى الولايات المتحدة تطعم مزارعها ٢٠٠مليون أمريكى ، بالإضافة إلى ١٦٠مليوناً آخرين فى أنحاء شتى من العالم ، تراجعت هذه النسبة إلى أقل من ٦٪ ومازالت تتضاءل بسرعة .

وفضلا عن ذلك ، فإنه لو كانت الزراعـــة هى أولى مراحـــل التنمية الاقتصادية ، والتصنيع هو المرحلة الثانية — فإننا نستطيع الآن أن نشهد مرحلة ثالثة وقد أقبلت فجأة ، فحوالى سنة ١٩٥٦ أصبحت الولايات المتحدة أول قوة كبرى يتحول أكثر من ٥٠٪ من العاملين بها خارج مجال الزراعة عن العمل اليدوى . لقد فاق عدد من اصطلح على تسميتهم بذوى البنائق « الياقات » البيضاء من العاملين فى مجالات تجارة التجزئة ، والإدارة ، والمواصلات والبحوث والتعليم وغيرها من الخدمات ، أصحاب البنائق « الياقات » الزرقاء من عمال المصانع والحرفيين ، ها هو ذا مجتمع لم يكتف خلال بضعة عقود قليلة بالتخلص من سيطرة الزراعة ، بل اطرح أيضا سيطرة العمل اليدوى ، وهكذا ولد أول اقتصاد خدمات فى العـــالم .

ومنذ ذلك الوقت ودول العالم المتقدمة تكنولوجيا تسير فى نفس الاتجاه ، واليوم نجد أن الدول التى وصلت نسبة قواها العاملة فى الزراعة إلى ١٥٪ فأقل مثل السويد وبريطانيا وبلجيكا وكندا وهولندا ، قد فاق فيها أيضا ذوو البنائق « الياقات » البيضاء ذوى البنائق « الياقات » الزرقاء عددا . لقد سادت الزراعة المجتمعات البشرية لمدة عشرة آلاف سنة ، واحتاجت هذه المجتمعات إلى قرن واحد أو قرنين لتحقق تفوق الصناعة ، والآن تنفتح أمام المجتمعات البشرية أبواب عصر جديد ، هو عصر ما فوق التصنيع .

لقد أعلن جان فوراستيه ، المخطط والفيلسوف الاجتماعى الفرنسى ، أنه « لن يكون هناك شئ أقل تصنيعا من المدنية المتولدة عن الثورة الصناعية » . وإن المعنى الكامل لمثل هذه الحقيقة المربكة ليس من السهل هضمه . وربما استطاع يوثانت السكرتير العام السابق للأمم المتحدة أن يقرب معنى الانتقال إلى ما فوق التصنيع ويلخصه بقوله : « إن الحقيقة الأساسية والمذهلة اليوم بالنسبة للمجتمعات المتقدمة اقتصاديا ، هى أنها تستطيع أن تحصل فى أقصر وقت على الموارد التى تقرر الحصول عليها . . فلم تعد الموارد هى التى تحكم القرارات . بل أصبحت القرارات هى التى تخلق الموارد . . هذا هو جوهر التغيير الثورى — ربما أعظم ما عرفه الإنسان ثورية » . ومرة أخرى نلفت نظر القارئ إلى أن هذا الانقلاب التاريخى قد حدث خلال العمر رقم ٨٠٠ .

هذا العمر يختلف أيضا عن غيره فى الاتساع المذهل لآفاق التغيير وأبعاده ، حقيقة أنه قد حدثت فى غيره من الأعمار ومن وقت لآخر ، فورات عنيفة كالحروب والأوبئة والزلازل والمجاعات التى هزت كيان الكثير من المجتمعات فى الماضى ، ولكن تلك الصدمات والهزات وآثارها ظلت منحصرة داخل مجتمع واحد أو مجموعة من المجتمعات المتجاورة ، بحيث كانت تمر أجيال ، وأحيانا قرون ، قبل أن يتخطى أى أثر من آثارها حدود المجتمعات.

ولكن فى زمننا الحالى ، حيث تلاشت الحدود والمسافات ، وحيث اشتد تشابك أنسجة العلاقات الاجتماعية ، أصبح لكل حدث معاصر انعكاساته الفورية فى العالم أجمع ؛ فقيام حرب فى فيتنام يفرض تعديلات على

الخطوط السياسية فى بكين وموسكو وواشنطن ، ويثير مظاهرات احتجاج فى ستوكهولم ، ويؤثر فى المعاملات المالية فى زيوريخ ، ويحدث تحركات دبلوماسية سرية فى الجزائر .

والحقيقة أنه ليست الأحداث المعاصرة وحدها هى التى تعكس آثارها الفورية علينا ، بل إنه يمكن القول بأننا اليوم نحس أيضا بتأثيرات كل أحداث الماضى تفرض نفسها علينا بشكل جديد . إن ماضينا يرتد إلينا ، ونحن نبدو اليوم وكأنما قد أمسك بتلابيبنا كن أن نسميه « وثبة الزمن » .

إن حادثا وقع فى الماضى وم يتعد أثره وقت حدوثه سوى فئة قليلة من البشر يمكن أن يكون له تأثيرات واسعة المدى فى وقتنا الحاضر ، خذ مثلا حرب البليبونيز ، إن هذه الحرب لم تعد أن تكون مناوشة صغيرة إذا قسناها بمقياس الحروب فى عصرنا ، وعندما اشتبك أهل أثينا واسبرطة وعديد من دول المدن المجاورة فى هذه الحروب ، لم يكن يحس بها أو يعلم بوقوعها باقى سكان الكرة الأرضية ؛ فمثلا لم يحس هذه الحرب من قريب أو بعيد الهنود الزابوتيك الذين كانوا يسكنون المكسيك فى ذلك الزمان ، ولا شعر بأى أثر من آثارها قدماء اليابانيين .

ولكن حرب البليبونيز قد عدلت إلى حد كبير من مسيرة التاريخ اليونانى . . فعن طريق التغيرات التى أحدثتها فى تحركات الناس ، وفى التوزيع الجغرافى للسلالات والقيم ، والأفكار ، وصلت تأثيراتها فيما بعد إلى روما ، ومن روما إلى أوربا كلها . ونستطيع القول بأن سكان أوربا اليوم هم ، إلى حد ما ، أناس مختلفون بسبب حدوث تلك الحرب .

وبالتالى فإنه فى عالم اليوم المتشابك العلاقات أصبح لهؤلاء الأوربيين تأثير فى كل من المكسيكيين واليابانيين . وأياً كان التأثير الذى أحدثته حرب البليبونيز فى البناء السلالى ، أو القيم والأفكار لدى الأوروبيين المعاصرين ، فإنهم يصدرونه إلى أنحاء العالم كافة . ومن ثم فإن المكسيكيين واليابانيين المعاصرين يحسون ذلك التأثير البعيد المنتقل على مرحلتين لتلك الحرب التى لم يحس بها أسلافهم الذين عاشوا وقت وقوعها . وهكذا فإن أحداث الماضى تقفز فوق أجيال وقرون وتتخطاها لتحاصرنا اليوم وتعمل على تغييرنا .

وعندما نفكر ، لا فى حرب البليبونيز وحدها ، بل أيضاً فى بناء سور الصين العظيم ، وفى الطاعون الأسود ، وفى معركة البانتو ضد الحاميين — بل فى كل أحداث الماضى — فإننا سنحس بوطأة المضمونات التراكمية لمبدأ « وثبة الزمن » . فكل ماحدث فى الماضى لبعض الناس يؤثر اليوم فى كل الناس ، وإن كان ذلك ليس صحيحاً دائماً . وباختصار فإن التاريخ بأكمله يلاحقنا . هذا الفارق ذاته وإن بدا الأمر متناقضاً ظاهرياً هو الذى يؤكد انفصالنا عن الماضى ، وبالتالى فقد تعدل مدى التغيير جوهرياً ، وعبرالزمان والمكان ظل تيار التغيير يكتسب قوة حتى بلغ فى العمر الحالى ، العمر رقم ٨٠٠ مالم يبلغه من قبل .

ولكن الفارق الكيفى الحاسم بين هذا العمر وما سبقه من أعمار هو أكثر الاختلافات عرضة لأن تخطئه الأبصار ، لأننا لم نوسع مجال التغيير ونمد أبعاده فقط ، بل غيرنا جذرياً من معدل سرعته ، لقد أطلقنا فى عصرنا قوة اجتماعية جديدة تماماً— أطلقنا تيار التغيير بسرعته جعلته يفرض وجوده على إحساسنا بالزمن ، ويحدث ثورة فى إيقاع حياتنا اليومية ، ويترك آثاره فى ذات الكيفية التى « نحس » بها العالم فيما حولنا . إننا لم نعد « نحس » الحياة كما كان يحسها الناس فى الماضى . هذا هو الفارق الجوهرى ، المميز حقاً للإنسان المعاصر عن كل سابقيه ؛ لأن هذا التسارع هو القوة الكامنة خلف اللاثبات ، خلف الزوال الذى يتغلغل فى شعورنا ويصبغه ، ويؤثر جذرياً فى علاقاتنا بالآخرين ، وبالأشياء ، وبعالم الأفكار والقيم .

وحتى نفهم ماذا يحدث ونحن ننتقل إلى عصر ما فوق التصنيع ، ينبغى أن نحلل عمليات التسارع ونواجه مفهوم الزوال ، فإن كان التسارع هو القوة الاجتماعية الجديدة فإن الزوال هو المقابل السيكولوجى له . وبدون فهم للدور الذى يلعبه فى سلوك الإنسان المعاصر ، فستظل كل نظرياتنا عن الشخصية ، وكل علومنا النفسية متخلفة . فعلم النفس بدون مفهوم الزوال سيظل عاجزاً عن فهم تلك الظواهر التى تتميز بأنها ، على وجه الخصوص معاصرة . .

وبتغير علاقاتنا مع الموارد المحيطة بنا ، وبالتوسع العنيف فى مجال

التغيير ، وأخطر من هذا ، بارتفاع معدل سرعته ، فإننا نكون قد انفصلنا وبلا عودة ، عن الماضي ، وقطعنا ما بيننا وبين أساليب الماضي في التفكير والإحساس والتكيف . ونكون قد هيأنا المسرح لمجتمع جديد تماماً نسارع في خطونا إليه . هذه هي النقط الحاسمة للعمر رقم ٨٠٠ ، وهذا أيضاً هو ما يثير التساؤل عن مدى قدرة الإنسان على التكيف – كيف سيسلك في هذا المجتمع الجديد ؟ هل سيستطيع أن يتكيف مع معطياته ؟ وإن لم يستطع ، هل يمكنه أن يغير من هذه المعطيات ؟

وحتى قبل أن نحاول الإجابة عن مثل هذه التساؤلات ، ينبغي أن نركز أبصارنا على القوتين التوأمتين : التسارع والزوال ، وأن نتعلم كيف يغيران من نسيج الوجود ، وكيف يصوغان حياتنا وعقولنا في صيغ جديدة وغير مألوفة . يجب أن نفهم لماذا – وكيف – يواجهاننا لأول مرة بالشحنة المتفجرة لصدمة المستقبل .

الفصل الثاني

الانطلاق المتسارع

فى أوائل مارس سنة ١٩٦٧ ، وفى شرقى كندا ، توفى طفل فى الحادية عشرة ، وكان سبب الوفاة هو الشيخوخة .

لقد كان ريكى جالانت فى الحادية عشرة بحساب السنين والأيام ، ولكنه كان يعانى من مرض غريب اسمه بروجيريا ، أى التقدم فى السن ، وكانت الخصائص المميزة لرجل فى التسعين من عمره وكل أعراض البروجيريا تبدو واضحة على ذلك الطفل المسكين ، مثل : عته الشيخوخة ، وتصلب الشرايين ، والصلع ، والخمود ، وتجاعيد الجلد . كان ريكى فى الحقيقة رجلا هرماً عندما مات ؛ لقد تركزت التغيرات البيولوجية لعمر مديد وضغطت فى أعوامه الأحد عشر القصيرة .

وحالات البروجيريا نادرة جداً ، ولكن بمعنى مجازى فإن المجتمعات المتقدمة تكنولوجياً تعانى من مثل هذا المرض ، ولسنا نعنى بذلك أنها تشيخ أو تصاب بالعته ، ولكن الذى نعنيه أنها تعانى من ارتفاع غير عادى فى سرعة التغير .

كثير منا يعتريهم « إحساس » مبهم بأن كل شئ يتحرك بسرعة أكبر ؛ الأطباء والمديرون على حد سواء ، يشكون دائماً من أنهم لا يستطيعون مواكبة آخر التطورات فى مجالات اختصاصهم ، ولا يكاد يخلو اجتماع أو مؤتمر من الخطب التى يتردد فيها الحديث عن « التحدى الذى يمثله التغيير » . وكثيرون جداً هم الذين أخذت تعتريهم حالة من القلق والشك فى أن التغيير قد أصبح خارج نطاق التحكم .

ولكن ليس كل إنسان بمشارك فى مثل هذا القلق ، فهناك ملايين من السائرين نياماً ، الذين يسلكون سبيل الحياة وكأن شيئاً لم يتغير منذ الثلاثينيات ،

وأيضاً كأن شيئاً لن يتغير . إنهم وهم يعيشون فترة من أحفل فترات التاريخ البشرى بالقلق والإثارة ، يحاولون الفرار من تيار التغيير ، أو سد طريقه ، متوهمين أنهم قادرون على طرده بمجرد تجاهلهم لوجوده ، وكل منهم يسعى إلى ما يشبه « الصلح المنفرد » أو « الحصانة الدبلوماسية » ضد التغيير .

وإنك لترى أمثال هؤلاء فى كل مكان ، كهولاً بحكم السن مصممين على قضاء مابقى من أيامهم متجنبين ، بأى ثمن ، أى جديد دخيل على حياتهم. وكهولاً بحكم الواقع لم يتجاوز أحدهم الخامسة والثلاثين أو الخامسة والأربعين ينظرون بعصبية إلى مظاهرات الطلبة ، والجنس ، وعقار الهلوسة ، والمينى جيب ، وأخيراً يحاولون إقناع أنفسهم بأن الشباب هو هكذا دائماً متمرد ، وأن ما يفعله شباب اليوم لا يختلف عما كان يفعله شباب الأمس ، وحتى بين الشباب فإننا نجد من لا يستوعبون التغيير مثل بعض الطلبة الذين بلغ من جهلهم بالماضى أنهم لا يحسون شيئاً غير عادى فى الحاضر .

أما الحقيقة المزعجة فتتمثل فى أن الغالبية العظمى من الناس بما فيهم المتعلمون والمثقفون يرون أن فكرة التغيير فكرة مزعجة لدرجة أنهم يحاولون إنكار وجودها . وحتى الكثيرون ممن أدركوا عقلياً أن تيار التغيير يتسارع بمعدلات متزايدة لم تستوعب ذواتهم ما أدركته عقولهم ولم يضعوا حقيقة ما أدركوه فى اعتبارهم عند التخطيط لحياتهم الشخصية .

الزمن والتغيير

كيف يتأتى لنا معرفة أن التغيير يتسارع ؟ ليس ثمة بعد وسيلة مطلقة أو معيار قاطع لقياس التغيير ، ففى المنظومة الكونية كما فى أى مجتمع ، يحدث التغيير ويسير متزامنا فى عدد لا نهائى من الروافد . إن كل « الأشياء » ، من أدق الفيروسات إلى أضخم المجرات ، ليس فى الحقيقة أشياء على الإطلاق وإنما هى فى الواقع « عمليات» ليست هناك نقطة إثبات ولا بقاء يشبه الخلود لنقيس عليه التغيير . فالتغيير من ثم وبالضرورة نسبى !

وفضلا عن ذلك فإن التغيير متفاوت وغير منتظم ، وحتى لو فرضنا أن كل عملياته تحدث بنفس السرعة ، وأنها تتسارع وتتباطأ فى توحد تام ،

لظل مستحيلا أن نرصد التغيير رصداً دقيقاً ، ومن ناحية أخرى فإن المستقبل يغزو الحاضر بسرعات متفاوتة . وإذن فإنه من المستطاع مقارنة سرعات العمليات المختلفة عندما تكشف عن نفسها . فنحن نعلم ، على سبيل المثال ، أن التطور الثقافى والاجتماعى يعتبر فائق السرعة ، إذا ما قورن بالتطور البيولوجى للأنواع . ونحن نعلم أيضاً أن هناك مجتمعات حققت تطوراً اقتصادياً وتكنولوجيا أسرع من غيرها . كما أنه داخل المجتمع الواحد ، تعطى القطاعات المختلفة معدلات مختلفة فى التغيير . إن هذا التفاوت فى معدلات التغيير هو على وجه التحديد ما جعل من الممكن قياس ما سماه وليام أوجبورن بالتخلف الثقافى .

ولكننا مع ذلك لن نستغنى عن أداة قياس تمكننا من المقارنة بين العمليات المختلفة والمتعددة . أداة القياس هذه هى الزمن . فبدون الزمن يصبح التغيير بلا معنى ،وبدون تغيير سوف يتوقف مسار الزمن . فالزمن يمكن إدراكه من حيث إنه فواصل تقع خلالها أحداث . وكما هيأت لنا النقود أن نحدد قيمة معينة لكل من التفاح والبرتقال ، فإن الزمن هو الذى يهيئ لنا أن نقارن بين عمليات مختلفة . . فعندما نقول إن بناء سد يحتاج إلى ثلاث سنوات ، فإننا فى الحقيقة نقول إن بناء السد يحتاج إلى ثلاثةأمثال الوقت الذى تستغرقه الأرض فى دورة كاملة حول الشمس ، أو ٣١,٠٠٠,٠٠٠ مثل الوقت اللازم لبرى قلم الرصاص . فالزمن هو العملة التبادلية التى تجعل من الممكن مقارنة المعدلات التى تستطيع بها العمليات المختلفة أن تستنفد نفسها .

وحتى مع التسليم بتفاوت التغيير ، والتسلح بالزمن كأداة قياس ، فإنه تبقى بعد كل ذلك أمامنا صعوبات جمة ومرهقة فى سبيل قياس التغيير .فعندما نتحدث عن معدل التغيير فإننا نشير إلى عدد من الأحداث المجمعة فى إطار فترة زمنية محددة اعتباطاً . ومن ثم فإننا نحتاج إلى أن نحدد تلك « الأحداث » وأن نتخير بدقة تلك الفترات الزمنية . ونحتاج إلى منتهى العناية والحذر فى استخلاص النتائج من الفوارق التى نرصدها . وفوق ذلك فإنه بالنسبة لقياس التغيير ينبغى أن يوضع فى الاعتبار أننا اليوم أكثر تقدماً بالنسبة للعمليات المادية منا بالنسبة للعمليات الاجتماعية . إننا نستطيع أن نقيس معدل

سريان الدم فى الجسم بدقة تفوق كثيراً قدرتنا على قياس معدل انتشار اشاعة فى المجتمع .

وحتى مع كل هذه الصلاحيات فثمة وجهة نظر ذائعة ومتفق عليها من كثير ممن تعددت مجالات تخصصهم : من مؤرخين ، وأثريين ، إلى علماء ، واقتصاديين ، وأخصائيين فى الاجتماع وفى علم النفس . مؤداها أن عديداً من العمليات الاجتماعية تتسارع بشكل أخاذ ومثير للدهشة .

مدن تحت الأرض

يخبرنا البيولوجى الشهير جوليان هكسلى – مستخدماً أعرض الخطوط فى إيضاح وجهة نظره – أن إيقاع التطور البشرى خلال التاريخ المسجل أسرع ١٠٠,٠٠٠ مرة من التطور فى مرحلة ما قبل البشرية . فالاختراعات والتحسينات ذات الأثر الفعال فى حياة البشر والتى كان تحقيقها يستغرق ٥٠,٠٠٠ سنة فى العصر الباليوليثى الأول ، تضاءل الزمن اللازم لتحقيقها إلى ألف سنة قرب نهاية ذلك العصر . وباستقرار الحياة المدنية تضاءلت الوحدة الزمنية للتغير إلى قرن واحد . ومن واقع كلمات هكسلى ، فإن معدل التغيير المتسارع خلال الخمسة آلاف عام الماضية : « قد صار ملحوظاً بشكل خاص خلال الأعوام الثلاثمائة الأخيرة » .

ويعلق الروائى والعالم س.ب.سنو على الرؤية الجديدة للتغيير بقوله : « قبل القرن الحالى كان التغير الاجتماعى بطيئاً لدرجة أنه كان يمر خلال عمر كامل دون أن يلحظ » . أما فى أيامنا فلم يعد الأمر كذلك ، فقد ارتفع معدل التغيير لدرجة أنه لم يعد فى استطاعة الخيال أن يلاحقه . ويعبر وارين بينيس الاخصائى فى علم النفس الاجتماعى عن هذه الظاهرة بقوله : « لقد انفتح الصمام خلال السنوات الأخيرة ، لدرجة أنه لا المبالغة ، ولا الغلو ، ولا الإفراط ، بقادر على أن يصف مدى وسرعة التغيير . والواقع أن المبالغات وحدها هى التى تبدو قريبة من الحقيقة » .

أى تغيرات يمكن أن تبرر استخدام هذه الكلمات الضخمة ؟ دعنا نلق نظرة على قليل منها ، ولنأخذ على سبيل المثال : التغيير الذى طرأ على

عملية عمارة الإنسان للمدن . إننا نعانى فى وقتنا الحاضر أضخم وأسرع عملية توسع فى المدن عرفها العالم . فنى سنة ١٨٥٠ لم يكن على سطح الأرض سوى أربع مدن فقط بلغ تعداد سكانها المليون فأكثر . وفى سنة ١٩٠٠ ارتفع العدد إلى تسع عشرة ، ولكن فى سنة ١٩٦٠ وصل عدد هذه المدن إلى ١٤١ . وفى وقتنا الحاضر يتزايد سكان المدن بمعدل ٦,٥٪ سنوياً . وطبقاً لتقدير إدجار دى فرايز وج.ب.تايس من معهد العلوم الاجتماعية بلاهاى . فإن هذا الرقم وحده يعنى تضاعف عدد سكان المدن خلال ١١ سنة .

وكسبيل لإدراك معنى التغيير بالنسبة لظاهرة فى مثل هذا الحجم يمكن أن نتخيل أن المدن الحالية بدلا من أن تتسع قد احتفظت بحجمها الحالى . فسيعنى ذلك بالضرورة أن نبنى مدينة أخرى مماثلة لكل واحد من مئات المدن المنتشرة على سطح الكرة الأرضية ، فتكون هناك طوكيو جديدة ، وهامبورج جديدة ، وروما جديدة ، ورانجون جديدة ، وأن يتم كل ذلك خلال أحد عشر عاماً فقط ؛ وهذا يفسر لماذا شرع مخططو المدن الرئسية فى وضع تصميمات لمدن تحت الأرض بمحلاتها ومتاحفها ومخازنها ومصانعها ، ولماذا وضع مهندس يابانى تصميما لمدينة تبنى على دعامات داخل المحيط .

وتظهر نفس النزعة التسارعية بوضوح فى استهلاك الإنسان للطاقة ، ويعطينا المرحوم الدكتور هومى بهابها عالم الذرة الهندى الذى رأس أول مؤتمر دولى لاستخدام الذرة فى الأغراض السلمية ، تحليلا لهذه النزعة بقوله : « كى نتصور تطور استهلاك الإنسان للطاقة ، دعنا نستخدم حرف «ك» كرمز للطاقة المستمدة من إحراق ٣٣ مليون طن من الفحم ، فسنجد أنه خلال القرون الثمانية عشرة ونصف القرن بعد ميلاد المسيح ، كان متوسط الاستهلاك العالمى أقل من نصف «ك» فى القرن الواحد . ولكن فى سنة ١٨٥٠ ارتفع المعدل إلى «ك» واحدة فى كل قرن ، واليوم وصل هذا المعدل إلى ١٠ ك فى كل قرن » . ويعنى هذا بالتقريب أن نصف الطاقة

التى استهلكها الإنسان خلال ألفى السنة الماضية قد استهلك خلال القرن الأخير وحده .

والنمو الاقتصادى المتسارع للأمم التى تعدو نحو مجتمع ما فوق التصنيع ، يقدم لنا مثالا آخر واضحاً جلياً بقدر ما هو مثير . فعلى الرغم من أنها بدأت بالفعل من قاعدة اقتصادية ضخمة ، فإن النسبة السنوية لزيادة الإنتاج فى هذه الأمم هائلة حقاً ، بالإضافة إلى أن معدل الزيادة نفسه فى تزايد مستمر.

ففى فرنسا ، على سبيل المثال ، لم تتعد الزيادة الكلية فى الإنتاج تسعة وعشرين عاماً امتدت من سنة ١٩١٠ إلى بداية الحرب العالمية الثانية ٥٪ ولكن خلال سبعة عشر عاماً من سنة ١٩٤٨ إلى سنة ١٩٦٥ بلغت هذه الزيادة حوالى ٢٢٠٪ ، واليوم قد أصبح تحقيق زيادة سنوية من ٥ إلى ١٠٪ أمراً مألوفاً بالنسبة لمعظم الدول المتقدمة صناعياً ، وبالطبع لا يخلو الأمر من تذبذب بين الزيادة والنقصان ، ولكن اتجاه التغيير أصبح بشكل عام واضحاً ، وفوق كل شك ، وهكذا ، بالنسبة للدول الواحدة والعشرين المشتركة فى المنظمة الدولية للتعاون والتنمية ، وبعبارة أخرى الدول الغنية ، بلغ المتوسط العام للزيادة السنوية فى الإنتاج فى السنوات من ١٩٦٠ إلى ١٩٦٨ من ٤,٥ إلى ٥٪ وكان معدل النمو السنوى للولايات المتحدة ٤,٥٪ فى حين تقدمت اليابان كل دول المنظمة بتحقيق متوسط نمو بلغ ٩,٨٪ سنوياً .

إن هذه الأرقام بمعدلاتها الحالية لا تعنى شيئاً أقل ثورية من مضاعفة المنتج من السلع والخدمات فى المجتمعات المتقدمة مرة كل خمسة عشر عاماً . وإن الزمن اللازم للمضاعفة يتقلص باستمرار نتيجة لاتجاه معدلات الزيادة السنوية إلى الارتفاع ، ويعنى هذا بشكل عام أن الصبى المراهق فى أى من هذه المجتمعات محاط اليوم بضعف المنتجات الحديثة الإنتاج التى كانت تحيط بوالديه عندما كان طفلا صغيراً ، ويعنى هذا بالتالى أنه عندما يصل هذا الصبى إلى سن الثلاثين أو أقل سيكون محاطاً بضعف ما يحيط به الآن من هذه المنتجات ، وأنه خلال عمر طوله سبعون عاماً ستحدث خمس مضاعفات متوالية . ولما كانت هذه المضاعفات ازدواجية فإن الحاصل النهائى يعنى أن هذا الصبى عندما يصل إلى سن السبعين ستكون قدرة

المجتمع الذى يعيش فيه على الإنتاج قد وصلت إلى ٣٢ مثل ما كانت عليه عند ولادته .

مثل هذا التغيير فى النسبة بين القديم والجديد ، كما سوف نرى ، له تأثيراته العنيفة فى العادات والمعتقدات ومفهوم الذات لدى الملايين ، ولم يحدث فيما مضى من تاريخ البشرية أن تغيرت مثل هذه النسبة ، وبمثل هذه الجذرية فى مثل هذه الفترة القصيرة من الزمن .

المحرك التكنولوجى

خلف هذه الحقائق الاقتصادية المذهلة تكمن آلة التغيير الهادرة ــ التكنولوجيا ــ ولسنا نعنى بذلك أن التكنولوجا هى المنبع الوحيد للتغيير فى المجتمع ، فالهزات الاجتماعية يمكن أن يحركها تغير فى التركيب الكيميائى للجو ، أو تغير فى المناخ ، أو فى خصب الأرض ، وغير ذلك كثير من العوامل . ولكن التكنولوجيا ، بلا نزاع ، تمثل قوة دفع كبرى وراء عجلة التغيير المتسارع .

واصطلاح التكنولوجيا يعكس فى ذهن غالبية الناس صورة مصانع الصلب بمداخنها العالية وقعقعة الماكينات . أو ربما مازال الرمز الكلاسيكى للتكنولوجيا فى أذهان الناس هو خط التجميع الذى ابتكره هنرى فورد منذ نصف قرن ،وجعل منه شارلى شابلن صورة اجتماعيةحية فى فيلمه «العصور الحديثة» ، لقد كان هذا الرمز فى الحقيقة قاصراً ومضللا ، لأن التكنولوجيا كانت دائماً ومازالت شيئاً أكبر وأوسع من مجرد مصانع وماكينات . إن اختراع طوق الحصان فى العصور الوسطى قاد إلى تغيرات عظمى فى أساليب الزراعة ، وكان بمثابة تقدم تكنولوجى يوازى اختراع فرن بيسمر بعد ذلك بقرون عديدة ، وفوق ذلك فالتكنولوجيا تشمل التكنيك والآلات اللازمة أو غير اللازمة لتطبيقه . إنها تشمل أساليب إحداث رد الفعل الكيميائى ، وطرق تربية الأسماك ، وزراعة الغابات ، وإضاءة المسارح ، وإحصاء الأصوات ، وتعليم التاريخ . . . إلخ .

واليوم فإن الرموز القديمة للتكنولوجيا أكثر تضليلا مما كانت عليه فى الماضى ،حيث أصبحت أكثر العمليات التكنولوجية تقدماً تتم بعيداً عن خطوط التجميع والأفران المفتوحة . ففى الصناعات الإلكترونية وتكنولوجيا الفضاء ، وفى معظم الصناعات الحديثة ، أصبح السكون النسبى ونظافة المحيط خصائص مميزة وأحياناً ضرورية لهذه الصناعات . وحيث أصبح خط التجمع حيث تصطف جيوش من الرجال لتؤدى عملا مكرراً بسيطاً ، نوعاً من المفارقة التاريخية وشيئاً يحدث فى غير زمانه . لقد آن الأوان لتغيير رموزنا عن التكنولوجيا لنلحق بالتغيرات السريعة فى التكنولوجيا ذاتها .

ويستطيع بيان بسيط للتقدم فى وسائل النقل أن يعطينا صورة درامية لهذا التسارع . وعلى سبيل المثال ففى سنة ٦٠٠٠ قبل الميلاد كانت أسرع وسيلة نقل للمدى البعيد متوافرة لدى الإنسان هى قافلة الجمال التى كانت تسير بمتوسط ثمانية أميال فى الساعة . وظل هذا المستوى بلا تعديل إلى حوالى سنة ١٦٠٠ قبل الميلاد حيث اخترعت العربة ذات العجلات ، وارتفع معدل السرعة إلى حوالى عشرين ميلا فى الساعة كحد أقصى .

كان اختراعاً مدهشاً حقاً بقدر ما كان من الصعب العسير تجاوز حد السرعة الذى قدمه ، حتى إنه بعد ذلك بثلاثة آلاف وخمسمائة سنة ، وعند تسيير أول خط لعربات البريد فى إنجلترا ، لم يتجاوز متوسط سرعة هذه العربات عشرة أميال فى الساعة . وعندما صنعت أول قاطرة بخارية فى سنة ١٨٢٥ لم تزد سرعتها على ١٣ ميلا فى الساعة ، فى حين لم تصل سرعة السفن الشراعية الضخمة المستخدمة فى ذلك الحين إلى نصف هذا الحد . وفى الثامنينيات من القرن الماضى ، وبفضل القاطرات البخارية المتطورة ، استطاع الإنسان أن يصل لأول مرة فى تاريخه إلى سرعة قدرها مائة ميل فى الساعة . لقد احتاج الجنس البشرى إلى ملايين السنين ليسجل هذا الرقم فى سرعة الانتقال .

ولكنه احتاج إلى ثمانية وخمسين عاماً فقط ليصل بهذا الحد إلى أربعة

أمثاله ، حيث استطاع فى سنة ١٩٣٨ أن يطير بسرعة ٤٠٠ ميل فى الساعة ، ثم اقتضاه الأمر عشرين عاماً فقط لمضاعفة هذا الحد . وفى الستينيات من هذا القرن وصلت سرعة الطائرات الصاروخية إلى ٤٠٠٠ ميل فى الساعة ، واستطاع الإنسان أن يدور حول الأرض فى كبسولات الفضاء التى تسير بسرعة ١٨,٠٠٠ ميل فى الساعة . تصور رسماً بيانياً بمثل هذا التقدم ، وسترى بعين الخيال الخط التى يمثل التقدم الذى حققه الجيل الأخير وهو يقفز عالياً إلى خارج الصفحة .

وأيما شيء فحصناه فى المسافات التى قطعناها ، الارتفاعات التى وصلناها ، المعادن التى استخرجناها ، قوى التدمير التى ملكناها ، فإننا سنجد دائماً الاتجاه إلى التسارع واضحاً بيناً ، والنمط هنا كما فى ألف سلسلة أخرى من الإحصاءات ظاهراً لا يخطأ . مئات وآلاف من السنين تمر ، ثم فجأة فى عصرنا تتحطم الحدود وتحدث الانطلاقة المذهلة إلى الأمام .

والسر فى هذا هو أن التكنولوجيا تغذى وتنمى نفسها ؛ فاستخدام التكنولوجيا يجعل من الممكن استخدام تكنولوجيا أكثر ، ويبدو هذا واضحاً عندما ننعم النظر فى عملية التجديد.فالتجديد التكنولوجى يتألف من ثلاث مراحل ملتحمة فى دائرة واحدة ذاتية الدعم ، فهناك أولا الفكرة العملية الخلاقة ، وثانياً التطبيق العملى لها ، وثالثاً انتشارها فى المجتمع .

فإذا ما تمت العملية واكتملت الدائرة ، وأصبحت الفكرة واقعاً يعيش فى المجتمع ، ساعد ذلك على توليد أفكار جديدة خلاقة . واليوم تقوم الشواهد على أن الفترة بين كل مرحلة من هذه المراحل أخذت تختصر بشكل واضح . ليس هذا صحيحاً فقط ، بل صحيح أيضاً أن تسعين فى المائة ممن أنجبت البشرية من العلماء يعيشون الآن ، وأن الأفكار الجديدة تدخل مجال التطبيق بأسرع مما كان يحدث فى أى فترة سابقة من الزمان ، لقد اختصر الوقت بين ميلاد الفكرة واستخدامها العملى بشكل ثورى ، وهذا هو أحد الفروق المدهشة بيننا وبين أسلافنا . لقد انقضى ألفان من الأعوام بين اكتشاف أبوللونيوس من بيرجا للقطاعات المخروطية وبين استخدامها تطبيقياً

فى المسائل الهندسية . وانصرمت قرون عدة منذ قال براسيلسوس بإمكان استخدام الأثير فى التخدير إلى أن تم استخدامه الفعلى لهذا الغرض .

وحتى فى أزمنة قريبة نسبياً ، نجد نفس النمط من التوانى يفرض نفسه . ففى سنة ١٨٣٦ اخترعت ماكينة تحصد القمح وتدرسه وتحزم القش فى بالات وتصب الحبوب فى أكياس ، وكانت الماكينة نفسها مؤسسة على تكنولوجيا عمرها عشرون عاماً على الأقل ، ولكن مضى قرن كامل قبل أن تطرح فى الأسواق ماكينات على هذا النمط ،أى فى الثلاثينيات من القرن العشرين، وفى سنة ١٧١٤ سجل أول اختراع لآلة كاتبة إنجليزية ، ولكن مضى قرن ونصف قرن من الزمان قبل أن تتوافر هذه الآلات تجارياً . ومضى قرن كامل أيضاً بين اكتشاف نيكولاس ابيرت لطريقة تعليب الطعام قبل أن يصبح لعملية التعليب أى أهمية فى الصناعات الغذائية .

واليوم لا يكاد يكون هناك وجود لمثل هذا التوانى بين الفكرة والتطبيق، ليس لأننا أكثر حماسة أو أقل تكاسلا من أسلافنا . ولكن لأننا بمرور الزمن اخترعنا كل أنواع الحيل الاجتماعية للإسراع بالعملية . وهكذا أمكن اختصار الوقت بين المرحلة الأولى والثانية ، أى بين الفكرة والتطبيق إلى حد كبير ، وعلى سبيل المثال فإن فرانك لين فى دراسة أجراها على عشرين ابتكارا من الابتكارات الهامة مثل الأطعمة المجمدة والمضادات الحيوية والدوائر الكاملة والجلد الصناعى وجد أنه منذ بداية القرن الحالى حتى الآن تقلص متوسط الوقت اللازم لتحول اكتشاف علمى هام إلى صيغة تكنولوجية صالحة للاستخدام بمقدار ستين فى المائة ومازالت البحوث والتجارب تجرى على أوسع وأكبر نطاق ، وبهمة لا تعرف الكلل من أجل تحقيق اختصار أكثر فأكثر .

ومادام الوقت بين المرحلة الأولى والمرحلة الثانية، أى بين ميلاد الفكرة وتحولها إلى سلعة،قد اختصر إلى هذا الحد ، فطبيعى أن يختصر بالتالى الوقت بين المرحلة الثانية والثالثة ، أى بين خروج السلعة إلى السوق وانتشارها فى المجتمع . والواقع أن سرعة انتشار المنتجات الجديدة تتزايد بدرجة مذهلة ،

وهذه الحقيقة مستمدة من تاريخ العديد من الأدوات المنزلية المعروفة . لقد أجرى روبرت . ب . يونج من معهد ستانفورد للبحوث دراسة عن امتداد الوقت بين أول ظهور تجارى لمنتج كهربى جديد ووصول إنتاجه إلى الذروة .

ووجد يونج بالنسبة لمجموعة من المنتجات الكهربية التى ظهرت فى أمريكا قبل سنة ١٩٢٠ — تشمل المكنسة الكهربية والفرن الكهربى والثلاجة الكهربية — أن متوسط امتداد الوقت بين الظهور وذروة الإنتاج كان أربعة وثلاثين عاماً . ولكن بالنسبة لمجموعة أخرى ظهرت فيما بين عامى ١٩٣٩ و١٩٥٩ — وتشمل الشواية الكهربية والتليفزيون والغسالة المزدوجة الوظيفة (غسيل — تجفيف) — كان هذا الامتداد ثمانى سنوات فقط . أى أن الوقت بين المرحلتين قد اختصر بمقدار ٧٦٪ . أما مجموعة ما بعد الحرب فقد أعلن يونج أنها كانت « برهاناً حياً على الطبيعة المطردة التسارع لعصرنا الحاضر » .

إن السرعة المطردة التصاعد للاختراع والاستغلال والانتشار تدفع بدورها الدائرة الكاملة للتجديد نحو تسارع أكثر فى عملية التجديد والابتكار . فالماكينات والتكنيكات الجديدة ليست مجرد منتجات ، ولكنها أيضاً مصدر لأفكار خلاقة جديدة .

إن كل ماكينة أو تكتيك جديد تغير بمعنى ما كل الماكينات والتكتيكات الموجودة . لأنها تتيح لنا بضم الجديد إلى القديم ، الحصول على تجمعات جديدة ، والعدد الممكن الحصول عليه من هذه التجمعات الجديدة يتزايد ، فى حين يتزايد عدد الماكينات والتكتيكات الجديدة حسابياً . والواقع أن كل تجمع جديد يمكن أن يعتبر فى حد ذاته (ماكينة — فائقة) جديدة .

فالكومبيوتر ، على سبيل المثال ، جعل من الممكن بذل جهود معقدة فى مجال الفضاء . وبربطه مع أجهزة القياس ومعدات الاتصال ومصادر الطاقة ، أصبح الكومبيوتر جزءاً من هيئة تشكل فى إجمالها (ماكينة — فائقة) فريدة وجديدة — ماكينة وظيفتها الوصول إلى الفضاء الخارجى

وسبر أغواره . ولكن حتى يمكن الجمع بين الماكينات أو التكتيكات فإنه ينبغي أن تعدل وتكيف ، وتهذب أو تغير . ومن ثم فإن ذات الجهد الذى يبذل من أجل تكامل الماكينات فى « ماكينة » فائقة يدفعنا دفعاً إلى ابتكارات تكنولوجية جديدة .

ومع ذلك فينبغى ألا يغيب عن الذهن أن التجديدات التكنولوجية ليست مجرد أداة لتجميع الماكينات والتكتيكات . فالماكينات الجديدة الهامة تفعل أكثر من مجرد الإيحاء بإدخال التغيير على الماكينات الأخرى أو فرض هذا التغيير . إنها توحى أيضاً بحلول جديدة لمشكلات اجتماعية وفلسفية ، وحتى شخصية ، إنها تغير من البيئة الفكرية للإنسان ــ من طريقة تفكيره ونظرته إلى العالم .

إننا جميعاً نتعلم من بيئتنا ونفتش خلالها باستمرار ــ وربما بلا وعى ــ عن نماذج لنحاكيها . هذه النماذج ليست فقط ماثلة فى غيرنا من الناس ، ولكنها ماثلة أيضاً وبشكل متزايد، فى الماكينات . وبوجود الماكينات فإننا نتكيف من حيث لا نشعر ،ونفكر بأساليب معينة . لقد لوحظ على سبيل المثال ، أن الساعة قد ظهرت قبل الصورة النيوتونية للعالم والتى تصوره على هيئة آلة عظمى شبيهة بالساعة . تلك الصورة التى كانت بمثابة انطباع فلسفى ، أحدثت أعظم الآثار فى التطور الفكرى للإنسان . لقد تضمنت هذه الصورة للعالم،كساعة عظمى ، أفكاراً عن السبب والأثر ، وعن أهمية المنبه الخارجى فى مقابل المنبه الداخلى . والتى تصوغ سلوكنا اليومى جميعاً فى وقتنا الحاضر . ولقد أثرت الساعة أيضا فى مفهومنا عن الزمن حتى أصبحت فكرة أن اليوم مقسم إلى ٢٤ ساعة متساوية ، كل منها ستون دقيقة ، جزءاً لا يتجزأ من ذواتنا .

ومؤخراً أثار الكومبيوتر عاصفة من الأفكار عن الإنسان كجزء متفاعل من نظام أكبر ، وعن تكوينه النفسى ، وكيف يتعلم ، وكيف يتذكر ، وكيف يتخذ القرارات . وفى الواقع لم يعد هناك مجال فكرى ــ من علم السياسة إلى سيكلوجية الأسرة ــ لم تمسه موجة من الفرضيات المتخيلة التى

فجرها اختراع وانتشار الكومبيوتر . بالرغم من أن تأثيراتهـا لم تبلغ مداها بعد . . هكذا فإن دائرة التجديد ، مغذية نفسهـا ، تغذ الخطى مسرعة إلى الأمام .

فإذا كانت التكنولوجيا هى المحرك الضخم وأداة التسارع العظيمة فإن المعرفة هى وقود هذا المحرك . وهكذا نأتى إلى النقطة الجوهرية لعملية التسارع فى المجتمع لأن هذا المحرك يتلقى كل يوم غذاء أفضل وأغنى .

المعرفة كوقود

من عشرة آلاف سنة ومعدل اختزان الإنسان للمعرفة النافعة ، بنفسه وبالكون ، يتزايد . ثم حقق هذا المعدل قفزة عالية باختراع الكتابة . ولكن برغم ذلك ظل هذا المعدل منخفضاً بشكل مؤلم طوال قرون عدة . وكانت القفزة العظيمة التالية فى القرن الخامس عشر عندما اخترع جوتنبرج وآخرون أول ماكينة طباعة . وقبل سنة ١٥٠٠ ، وطبقاً لأكثر التقديرات تفاؤلا ، فإن إنتاج أوروبا من الكتب لم يتجاوز ألف عنوان سنوياً . ويعنى هذا أن تكوين مكتبة تحتوى على ١٠٠ ألف عنوان كان يحتاج إلى ما يقرب من مائة عام . وفى سنة ١٩٥٠ ، أى بعد أربعة قرون ونصف قرن ، قفز الرقم إلى ١٢٠,٠٠٠ عنوان تنتجها أوروبا سنوياً . أى إن ما كان يحتاج إلى مائة عام بمعدلات سنة ١٥٠٠ ، أصبح لا يحتاج إلى أكثر من عشرة أشهر فقط بمعدلات سنة ١٩٥٠ . ولكن فى سنة ١٩٦٠ أى بعد عشرة أعوام فقط حقق المعدل قفزة هائلة أخرى بحيث أصبح من الممكن إتمام عمل المائة عام فى سبعة أشهر ونصف شهر لا غير . وفى منتصف الستينيات وصل إنتاج الكتب على مستوى العالم بما فيه أوروبا إلى رقم مذهل ، ١٠٠٠ عنوان فى اليوم . . . !

ولا يستطيع الإنسان الادعاء بأن كل كتاب كان يمثل كسباً صافياً لتقدم المعرفة . ولكن على أية حال ، فالثابت هو أن الارتفاع المتسارع فى معدل نشر الكتب يوازى بشكل عام معدل اكتشاف الإنسان للجديد

من المعرفة . وعلى سبيل المثال فإنه قبل زمن جوتنبرج كان عدد العناصر الكيمائية المعروفة ١١ عنصراً ، واكتشف العنصر الثانى عشر (الإثمد Antimony) فى حوالى الوقت الذى كان منهمكاً خلاله فى صنع ماكينته ، وكان قد مضى فى ذلك الوقت مائتا عام كاملة على اكتشاف العنصر الحادى عشر وهو (الزرنيخ) ، فلو فرضنا أن هذا المعدل استمر لما استطعنا خلال الأربعمائة سنة التى انقضت منذ زمن جوتنبرج أن نضيف أكثر من عنصرين أو ثلاثة عناصر إلى القائمة . ولكن الذى حدث بالفعل هو أننا اكتشفنا خلال هذه الفترة حوالى سبعين عنصراً جديداً . ومنذ سنة ١٩٠٠ ونحن نفصل هذه العناصر ، ليس بمعدل واحد كل مائتى عام . ولكن بمعدل واحد كل ثلاثة أعوام فقط .

وفوق ذلك ، فهناك ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن المعدل لا يزال يحقق ارتفاعاً حاداً ، وعلى سبيل المثال ، فإن عدد المقالات والمجلات العلمية يتضاعف مرة كل خمسة عشر عاماً فى الدول المتقدمة . أى فى نفس الفترة التى يتضاعف فيها إنتاجها الصناعى . وعلى حد قول البيوكيميائى فليب زيكوفيتش : « إن ما عرف خلال الأعوام الثلاثين الأخيرة عن طبيعة الكائنات الحية لا يمكن أن يقارن بضآلة ما اكتشف خلال أى مدة مماثلة طوال تاريخ الجنس البشرى » . واليوم تنتج حكومة الولايات وحدها ١٠٠ ألف تقرير فى السنة بالإضافة إلى ٤٥٠,٠٠٠ مقالة وكتاب ، ودراسة . وعلى مستوى العالم فإن ما يكتب من الأوراق العلمية والفنية يصل إلى ما يقرب من ٦٠,٠٠٠,٠٠٠ صفحة فى العام .

ثم دخل الكومبيوتر إلى المشهد حوالى سنة ١٩٥٠ بقدرته التى لم يسبق لها مثيل على تحليل وتوزيع أنواع فائقة التعدد والاختلاف من البيانات والمعلومات وبكميات غير معقولة ، وبسرعة كبيرة محيرة للعقول . ومن ثم فقد أصبح الكومبيوتر قوة عظمى تقف من وراء آخر موجات التسارع فى تحصيل المعرفة ، ثم بالجمع بينه وبين غيره من أدوات التحليل المتزايدة

القوة فى رصد ومراقبة الكون الغامض فيما حولنا ، ارتفعت معدلات السرعة فى الحصول على المعرفة إلى درجة مذهلة .

لقد قال فرانسيس باكون إن « المعرفة . . . هى القوة » ويمكننا الآن أن نترجم هذا القول إلى لغة العصر ليصبح : « المعرفة . . . هى التغيير » فالتحصيل المتسارع للمعرفة التى تغذى محرك التكنولوجيا الهائل يعنى تسارع التغيير .

تدفق المواقف

الاكتشاف . التطبيق . التأثير . الاكتشاف . هذه هى سلسلة ردود الفعل للتغيير والمنحنى الطويل المرتفع بحدة للتسارع فى التطور الاجتماعى للإنسان . هذه الدفعة التسارعية قد وصلت الآن إلى الحد الذى لا يمكن معه بأى شكل من أشكال التخيل ، أن تعتبر « طبيعية » ،ولم يعد فى وسع المؤسسات المألوفة للمجتمع الصناعى أن تحتويها . بل إن تأثيرها أخذ يهز كل مؤسساتنا الاجتماعية من الأعماق . إن التسارع هو واحد من أهم قوانا الاجتماعية وأقلها منا فهما واستيعاباً .

ولكن ليست هذه سوى نصف القصة . فالتغيير المتسارع هو أيضاً قوى سيكولوجية كبرى ، بالرغم من أن علم النفس يكاد يتجاهله تجاهلا تاماً ، فمعدل التغيير الذى يجرى فى العالم حولنا ، يزعزع من توازننا الداخلى ، ويعدل من نفس المنهج الذى نسير عليه فى حياتنا . فالتسارع فى خارجنا يترجم إلى تسارع فى داخلنا .

ويمكن أن نعطى لهذا صورة مبسطة ، بل فى الواقع مبسطة إلى أقصى حد. فلو تصورنا حياة الفرد وكأنها قناة تتدفق خلالها الخبرة ، وأن تدفق الخبرة هذا يتألف ــ أو المفهوم أنه يتألف ــ من عدد لا يحصى من « المواقف » ، فإن تسارع التغيير فى المجتمع المحيط بنا يعدل بشكل عنيف من معدل تدفق المواقف خلال هذه القناة .

وليس هناك تعريف قاطع للموقف ، ولكننا سنجد أنه من المستحيل علينا أن نواجه التجربة ما لم نجزئها ذهنياً إلى هذه الوحدات المقدور عليها . وفوق ذلك فإنه وإن صح أن الحدود بين المواقف قد تكون مبهمة ، إلا أن لكل موقف معيناً من « الكلية » أو « التكامل » .

ولكل موقف أيضاً محتويات يمكن تمييزها. وتشمل هذه المحتويات « الأشياء »–المحيط المادى من الأشياء الطبيعية والمصنوعة . وكل موقف يحدث فى « مكان » – أى الساحة التى يقع عليها الفعل (وليس من قبيل المصادفة أن الأصل اللاتينى لكلمتى موقف ومكان ، واحد) . وأيضاً فإن لأى موقف اجتماعى ، بطبيعته ، هيئته من الشخصيات – من الناس . وللمواقف أيضا موضع داخل شبكة التنظيمات الاجتماعية ، ومحتوى من الأفكار والمعلومات . إن أى موقف يمكن تحليله إلى حدود تنتمى إلى هذه المكونات الخمسة .

ولكن المواقف تتضمن أيضاً بعداً منفصلا لا يلتفت إليه كثيرا ، لأنه يمر عبر باقى الأبعاد كلها ، هذا هو الأمد – البعد الزمنى الذى يحدث خلاله الموقف . فإذا كان ثمة موقفان متشابهان من جميع الوجوه فإنهما يكونان فى نفس الوقت موقفين مختلفين إذا امتد أحدهما زمنيا أكثر من الآخر . فالزمن يدخل إلى لب الموقف ويمتزج به مغيرا من معناه أو محتواه تماما ، كما لو عزفنا لحنا جنائزيا بسرعة أكبر ، فإننا حينئذ سنسمع نغما مرحا بدلا من النغم الحزين. كذلك فإن الموقف الذى يمر بطيئا متئدا إلى نهايته يختلف فى مذاقه أو معناه عن ذلك الذى ينفذ إلينا بشكل متقطع . يبرز فجأة ثم يختفى بنفس السرعة .

وهنا نصل إلى أولى النقط الحساسة التى تصطدم عندها الدفعة التصارعية فى المجتمعات الكبيرة بخبرات الحياة اليومية المعتادة للفرد المعاصر . فتسارع التغيير ، كما سنوضح ، يختزل أمد الكثير من المواقف ، وهذا الاختزال لا يغير فقط من « مذاق » هذه المواقف ، بل يعجل أيضا بمروروها خلال قناة الخبرة والتجربة ، وبالمقارنة مع الحياة فى مجتمع يتغير بسرعة أقل خلال أى فترة زمنية معينة ، فسنجد أنه فى المجتمع الأسرع تغيرا تتدفق المواقف

خلال قناة الخبرة للفرد بمعدل أكبر ، وهذا ينطوى فى حدذاته على تغييرات هامة فى التكوين النفسى للإنسان .

لأننا بينما نميل بطبيعتنا إلى التركيز على موقف واحد فى الوقت الواحد ، سنجد أن ارتفاع معدل المواقف التى تمر بنا وقد عقد إلى حد كبير من بناء حياتنا بأكمله ، وضاعف من عدد المهام التى ينبغى لنا أن نؤديها وعدد الاختبارات التى لابد وأن نحسمها . وهذا بدوره سيزيد من إحساسنا المضطرب بتعقد الحياة المعاصرة .

وبالإضافة إلى ذلك فإن التدفق السريع للمواقف يتطلب عملا أكثر من أجهزة التنبيه المعقدة المركبة فينا والتى تمكننا من الانتقال بالتركيز من موقف إلى موقف ، فالانتقالات المفروضة عليها تزداد ، والوقت المتاح للنظرة الهادئة المتئدة إلى مشكلة أو موقف واحد فى الوقت الواحد يتقلص أكثر فأكثر . وهنا يكمن السر فى ذلك الشعور المبهم الذى أشرنا إليه من قبل بأن «الأشياء تتحرك بسرعة أكبر» وذلك حق . إنها فعلا تتحرك بسرعة أكبر ، من حولنا ، ومن خلالنا .

وما زال ثمة سبيل من أهم وأقوى السبل التى يسلكها التغيير المتسارع فى المجتمع لجعل قدرتنا على مواجهة الحياة أصعب . ونعنى به ذلك الأسلوب المدهش الذى تقتحم به الجدة كل شئ فى حياتنا . فنحن نعلم أن المواقف تتميز ، ولكنها غالبا ما تتشابه وإلى حد ما ، وهذا مايجعل تعلمنا من التجربة ممكنا . ولكن عندما يكون الموقف جديدا تماما وليس ثمة علاقة شبه بينه وبين ما سبقه من مواقف ، فإن قدرتنا على مواجهته ستصاب بالشلل .

إن تسارع التغيير يعدل بشكل ما من التوازن بين الجديد والمألوف من المواقف ، ومن ثم فإن ارتفاع معدلات التغيير لا تضطرنا فقط إلى مواجهة تدفق أسرع للمواقف ، ولكن أيضا إلى أن نواجه أكثر فأكثر ، مواقف لا تجدى حيالها تجاربنا الشخصية السابقة . إن المضامين السيكولوجية لهذه الحقيقة البسيطة ، والتى سنتعرض لها بالبحث فى جزء قادم من هذا الكتاب لا يمكن أن توصف بأقل من أنها شحنة متفجرات .

« عندما تتغير الأشياء من حولك ، فإن تغيرا موازيا يحدث في داخلك » .
هكذا يقول كريستوفر رايت من معهد دراسات (العلم في النواحي الإنسانية) هذه التغيرات الداخلية من العمق لدرجة أنها تمتحن قدرتنا على الحياة في إطار المعايير التي كانت وما زالت حتى الآن تعرف الإنسان والمجتمع . وطبقا لكلمات المحلل النفسي إيريك إيريكسون : « إن المسار الطبيعي للأحداث في مجتمعنا في الوقت الحاضر ينبئ ، على وجه التحديد ، بأن معدل التغيير سوف يتسارع إلى حدود لم تصل إليها حتى الآن من الضغط على قدرات الإنسان والمؤسسات على التكيف » .

ومن أجل البقاء ، ومن أجل أن نتفادى ما سميناه صدمة المستقبل . لابد وأن يصبح الفرد أكثر قدرة على التكيف منه في أي وقت مضى . ولابد من أن يبحث عن مسالك جديدة تماما توصله إلى بر الأمان ، حيث إن كل الجذور القديمة الثابتة : الدين ، والأمة ، والمجتمع والأسرة ، والمهنة تهتز الآن كلها بقوة تحت التأثير العاصف لدفعة التغيير المتسارعة . وهو لن يستطيع أن يفعل ذلك ما لم يفهم بتفصيل أكثر كيف تتغلغل تأثيرات التسارع إلى حياته الخاصة ، وكيف تتسلل إلى سلوكه وتغير من قيمة وجوده . وبعبارة أخرى : فإنه ينبغي أن يفهم معنى الزوال .

الفصل الثالث

سرعة الحياة

إلى عهد قريب كانت تطالعك صورته فى كل مكان . على شاشة التليفزيون ، على لوحات الإعلان التى تتطلع إليك فى المطارات ، ومحطات السكك الحديدية ، وفى المنشورات وعلى علب الثقاب « الكبريت » وصفحات المجلات . كان واحدا من المخلوقات التى ابتكرها شارع ماديسون — شخصية خيالية وإن كان من الممكن للملايين أن يروا فيها صورة لأنفسهم .. شاب أنيق يحمل حقيبة أوراق ، يتطلع إلى ساعته ويبدو كرجل أعمال عادى ينطلق مسرعا إلى مهمته التالية . ولكن كان لهذا الشاب الأنيق نتوء ضخم فى ظهره ، فقد برز من بين عظمتى كتفيه مفتاح ضخم على هيئة فراشة ، من نفس نوع المفاتيح التى تستخدم فى ملء لعب الأطفال الميكانيكية . وكانت الكلمات المصاحبة لصورته تستحث رجال الأعمال« المتوترين » ، أن يخففوا من شحنتهم ، وأن يتريثوا قليلا عند فنادق شيراتون . هذا الرجل المشحون المنطلق بسرعة كان ولا يزال مثالا حيا لما سيكون عليه الناس فى المستقبل . حيث سيشعر الملايين وكأنهم مسوقون إلى الأمام ، وكأن كلا منهم يحمل مثل ذلك المفتاح الضخم بين عظمتى كتفيه .

إن الفرد العادى لا يعرف إلا القليل — ولا يهتم إلا فى الأقل — عن دائرة التجدد التكنولوجى ومعدل التغيير . ولكنه من ناحية أخرى واع تماما بسرعة الخطو فى حياته هو ، أيا كانت سرعة ذلك الخطو .

وسرعة الخطو فى الحياة كثيرا ما كانت محل الملاحظة والتعليق من عامة الناس . ولكن الغريب أنها لا تكاد تحتل أى مكان من اهتمام أخصائى علم النفس أو علم الاجتماع . وهذا قصور لا شك فيه فى العلوم السلوكية ؛ لأن سرعة الخطو فى الحياة تؤثر فى السلوك وتحدث ردود فعل قوية ومتباينة لدى مختلف الناس .

وليس من قبيل المبالغة أن نقول إن سرعة الخطو فى الحياة ترسم خطوطا فاصلة داخل المجتمع البشرى وتقسمه إلى معسكرات .. إنها تفجر سوء الفهم المرير بين الآباء والأبناء ، بين شارع ماديسون وشارع ماين ، بين الرجال والنساء ، بين الأمريكيين والأوروبيين ، بين الشرق والغرب .

انسان المستقبل

ينقسم سكان الكرة الأرضية لا على أساس من العنصر والقومية والدين والأيديولوجية فقط ، ولكن أيضا على أساس وضعهم من الزمن . إننا لو نظرنا إلى سكان عالمنا فى الوقت الحاضر لوجدنا أن هناك فئة قليلة جدا من هؤلاء السكان مازالت تعيش على الصيد وجمع الطعام ، كما كان الإنسان يفعل منذ آلاف السنين ، وأن الغالبية العظمى من هؤلاء السكان تعتمد فى حياتها على الزراعة وتعيش كما كان يعيش أسلافها منذ قرون مضت . وتشكل هاتان الفئتان معا ٧٠٪ من سكان العالم حاليا ، هؤلاء هم الذين يمثلون إنسان الماضى .

وبالمقارنة نجد أن أكثر من ٢٥٪ من سكان العالم يعيشون فى المجتمعات الصناعية ، معيشة حديثة ، إنهم نتاج النصف الأول من القرن العشرين الذين صاغتهم الميكنة والتعليم العام ، ونشأوا وفى أذهانهم ذكريات ملتبثة عن ماضى بلادهم الزراعى ، هؤلاء هم فى الواقع الذين يمثلون إنسان الحاضر .

أما الاثنان أو الثلاثة فى المائة المتبقون من سكان العالم ، فهؤلاء لم يعودوا ينتسبون إلى أى من إنسان الماضى أو إنسان الحاضر ، لأنه داخل المراكز الرئيسية للتغيير التكنولوجى والثقافى فى سانتا مونيكا وفى كاليفورنيا . وفى كمبردج وفى ماساشوستس ، وفى نيويورك ولندن وطوكيو ، يوجد ملايين من الرجال والنساء الذين يمكن القول بأنهم يعيشون فى المستقبل .. إنهم يعيشون اليوم كما سيعيش ملايين آخرون فى المستقبل الذى يصنعون اتجاهاته غالبا دون انتباه إلى أنهم كذلك يفعلون . وبينما لا تمثل هذه النسبة إلا نسبة ضئيلة من سكان الأرض فإنهم أصبحوا بالفعل يشكلون بين ظهرانينا نوعا من الأمة الدولية للمستقبل . إنهم طليعة التقدم للجنس البشرى والمواطنين الرواد لمجتمع ما فوق التصنيع العالمى الذى ظهرت بشائر ميلاده .

ما الذى يجعل هؤلاء الناس مختلفين عن سائر أفراد الجنس البشرى ؟ حقا إنهم أغنى وأحسن تعليما ، وأقدر على الحركة من غالبية الناس . ولكن الذى يميزهم بنوع خاص هو أنهم قد أدركتهم بالفعل سرعة جديدة مرتفعة للخطو فى الحياة . إنهم « يعيشون أسرع » ممن حولهم من الناس .

إن بعض الناس ينجذبون بشدة نحو هذا الخطو السريع للحياة — مبتعدين قدر ما يستطيعون عن أسلوب حياتهم المعتاد . ومحاولين اكتساب هذا الأسلوب الجديد ، ويشعرون بالضيق والقلق عندما يبطئ الخطو . إنهم يرغبون بأى ثمن فى أن يكونوا : « حيث يقع الفعل » (والواقع أن قليلا منهم من يعنى بطبيعة الحدث ما دام يقع بالسرعة « المناسبة ») . على سبيل المثال فقد وجد جيمس أ. ويلسون أن الانجذاب إلى خطو أسرع للحياة هو أمر المحركات الخفية لظاهرة « نزح العقول » ، وهو الاسم الذى أطلق على عملية الهجرة الجماعية لعلماء أوروبا إلى الولايات المتحدة وكندا . فبعد دراسة أجراها ويلسون على ٥١٧ من العلماء والمهندسين الإنجليز المهاجرين اكتشف أن دوافعهم إلى الهجرة لم تكن فقط المرتبات العالية ، أو إمكانيات البحث العلمى الأفضل ، وإنما أيضا الإيقاع الأسرع للحياة فى أمريكا الشمالية . وعلى حد تعبير ويلسون فإن هؤلاء المهاجرين : « لم يبعدهم أو ينفرهم ما سموه « الخطو الأسرع » للحياة فى أمريكا الشمالية ، فقد بدا واضحا أنهم يفضلون هذا الخطو على غيره » . ونفس المعنى نجده فى تقرير أحد المناضلين البيض فى حركة الحقوق المدنية فى المسيسيبى الذى كتب يقول : « إن الناس الذين اعتادوا على الحياة السريعة بالمدن الكبيرة لا يستطيعون أن يتحملوا طويلا حياة الجنوب الزراعى . . وهذا هو السبب فى أنهم ينتقلون من مكان إلى مكان لغير ما سبب واضح . إن الانتقال أصبح بمثابة الدواء الذى يساعدهم على حياة أسرع » هذا الانتقال الذى يبدو بلا هدف هو فى الحقيقة نوع من التعويض . وفهمنا لقوة الجذب الذى يفرضه إيقاع معين للحياة على سلوك الأفراد ، يساعد بلا شك على تفهم ما قد يبدو لنا وكأنه سلوك بلا معنى أو هدف .

ولكن إذا كان بعض الناس يرون النجاح والازدهار مع هذا الإيقاع الجديد لخطو الحياة ، فإن أناسا آخرين ينفرون منه أشد النفور ويذهبون إلى أبعد المدى فى الهروب من الوقوع فى « دوامته » كما يسمونها ، إن الارتباط بمجتمع مافوق التصنيع ، يعنى الارتباط بعالم يتحرك بسرعة لم يعرف لها مثيل من قبل ، وهؤلاء لا يرغبون فى مثل هذا الارتباط ويفضلون الخطو المتئد الذى ألفوه ، وليس من قبيل المصادفة ذلك النجاح الساحق الذى حققته منذ بضع سنوات مسرحية موسيقية اسمها « أوقفوا العالم — فإننى أريد أن أنزل » عند عرضها فى لندن ونيويورك .

إن حياة الزهد والبحث الدائم عن سبل جديدة « للرفض » التى يتسم بها بعض الهيبيين (وليس كلهم) قد لا يكون المحرك الأكبر وراءها هو ما يقولون به من بغضهم لقيم الحضارة التكنولوجية ، وإنما النزعة الخفية إلى الهروب من إيقاع سريع لخطو الحياة يراه الكثيرون فوق الاحتمال . وليس من قبيل المصادفة أن نراهم يصفون المجتمع بأنه عبارة عن « سباق جرذان » وهو تعبير فى حد ذاته يعكس معنى الخطو المتسارع .

والمتقدمون فى السن هم أكثر من غيرهم مقاومة لتسارع التغيير . والواقع أن هناك قاعدة حسابية صلبة لما لوحظ من أن ثمة علاقة بين السن والمحافظة . فالزمن يمر أسرع بالنسبة لكبار السن .

فعندما يقول أب فى الخمسين لابنه البالغ خمسة عشر عاما إنه لابد من أن ينتظر عامين كاملين قبل أن تكون له سيارته الخاصة ، فإن فترة الـ ٧٣٠ يوما هذه تمثل بالنسبة للأب ٤٪ مما مضى من عمره ، فى حين أن هذه الفترة بالنسبة للابن تساوى ١٣٪ . فليس من المستغرب إذن أن تبدو نفس الفترة فى نظر الصبى ثلاثة أو أربعة أمثال طولها فى نظر الأب .

وبنفس القياس فإن ساعتين بالنسبة لطفل فى الرابعة من عمره تساوى اثنتى عشرة ساعة بالنسبة لأمه التى بلغت الرابعة والعشرين ، ولذا فإنها

عندما تطلب من الطفل الانتظار ساعتين قبل أن تعطيه قطعة من الحلوى . فإن رد فعل الصبي قد يساوى رد الفعل عند أمه عندما يطلب منها الانتظار اثنتى عشرة ساعة قبل أن تحصل على قدح من القهوة .

وقد تكون هناك أيضا قاعدة بيولوجية لمثل هذه الفروق فى الاستجابة الذاتية للزمن . ويقول الأخصائى النفسى جون كوهن من جامعة مانشستر : « مع تقدم السن تبدو السنون الشمسية وكأنها فى تقلص مطرد ، وبالتأمل تبدو كل سنة وكأنها أقصر من السنة التى مضت ، ويحتمل أن يكون هذا نتيجة للإبطاء التدريجى فى عمليات التمثيل الداخلى «أى إنه كلما ازدادت إيقاعاتهم البيولوجية بطئا بدا العالم فى نظر كبار السن وكأنه يتحرك أسرع ، حتى عندما لا يكون ذلك صحيحا فى الواقع » .

وأيا كانت الأسباب ، فإن أى تسارع فى التغيير ينتج عنه حشد مواقف أكثر داخل قناة الخبرة خلال فترة معينة ، فإنه يتعاظم فى إدراك الشخص الأكبر سنا ، وكلما تسارعت معدلات التغيير فى المجتمع تزايد عدد المسنين الذين يحسون بالفارق إحساسا عميقا ، وبالتالى سينسحبون إلى بيئة خاصة حيث يقطعون قدر ما يستطيعون من صلاتهم بالعالم المتحرك بسرعة فيما حولهم ، متنسكين فى عزلتهم حتى يأتيهم الموت . وقد لا نستطيع مطلقا حل المشاكل السيكولوجية لكبار السن إلا إذا تمكنا بواسطة الكيمياء البيولوجية – وعن طريق تعليمهم – أن نجد الوسائل التى تعدل من إحساسهم بالزمن ، أو بأن نبنى لهم مناطق معزولة يخضع فيها خطو الحياة للتحكم . أو يقوم فيها الوقت طبقا لتقويم خاص ذى مقياس انزلاقى يعكس إدراكهم الذاتى للزمن .

إن كثيرا من الصراعات غير المفهومة كالصراع بين الأجيال ، وبين الأبناء والآباء ، والأزواج والزوجات ، يمكن تعقب أصولها إلى الاستجابات المتفاوتة للإيقاع المتسارع فى خطو الحياة . ويصدق هذا أيضا على التصادم بين الثقافات المختلفة .

إن لكل ثقافة خطوها المميز – ويخبرنا الروائى والكاتب الإيرانى

ف . م . أصفندياري عن مثال للتصادم بين نظامين مختلفين عندما كانت مجموعة من المهندسين الألمـــان تساعد قبل الحرب العالمية الثانية فى إقامة خط حديدى فى بلاده . فالإيرانيون وسكان الشرق الأوسط بوجه عام يتميزون بنظرة إلى الوقت أكثر استرخاء من مثيلتها لدى الأمريكيين وسكان أوروبا الغربية . فعندما وجد الألمـــان — وهم المعروفون بالدقة المتناهية وسرعة الحركة — أن العمال الإيرانيين بالمشروع يحضرون باستمرار إلى العمل متأخرين عشر دقائق ، صار المشرفون الألمـــان يفصلونهم بالجملة ، ولقد لقى المهندسون الإيرانيون أشد العناء فى إقناع زملائهم الألمـــان بأن هؤلاء العمال يعتبرون بمقاييس الشرق الأوسط دقيقين لدرجة بطولية ، وأن عملية الفصل لمثل هذا التأخير لو استمرت فلن يتبقى بعد قليـــل لإتمام العمل غير النساء والأطفال .

مثل هذه اللامبالاة بالوقت قد تثير جنون أولئك الذين اعتادوا الإيقاع السريع والاحترام الفائق للوقت . وهكذا نجد الإيطاليين من مدن الشمال الصناعية كميلانو وتورين ينظرون بامتعاض إلى الإيطاليين الأقل سرعة نسبيا من سكان صقلية الذين ما زالـــو مكيفين طبقا لإيقاعات المجتمع الزراعى البطيئة . ونفس الشعور تجده لدى السويديين من سكان ستوكهولم أو جوتبرج حيال السويديين من سكان لابلاندر . وفى الولايات المتحدة نفسها من الشماليين حيال المكسيكيين والجنوبيين ومن زنوج الطبقة الوسطى حيال العمال الزنوج الذين وصلوا لتوهم من الجنوب . وبالمقارنة إلى غيرهم فإن الأمريكيين البيض والكنديين يعتبرون أكثر انطلاقا واندفاعا وسرعة حركة .

وتغير سرعة الإيقاع فى خطو الحياة يلقى من الشعوب ، فى بعض الأحيان ، مقاومة نشطة . إن هذا يفسر موجة العداء التى قوبل بهـــا ما سمى بأمركة أوروبا .

فالتكنولوجيا الجديدة التى يرتكز عليها مجتمع ما فوق التصنيع ، والتى خرج الكثير من تصميماتها من معامل البحث الأمريكية ، تأتى معها بتسارع

حتمى فى تغير المجتمع يلازمه بالضرورة تسارع فى إيقاع الخطو بالنسبة لحياة الفرد . وبالرغم من أن الخطباء المعادين لأمريكا كانوا عادة يختارون الكومبيوتر أو الكوكا كولا كهدف لهجومهم ، فربما كان مبعث اعتراضهم الحقيقى هو غزو أوروبا بمفهوم غريب عن الزمن ، فأمريكا – باعتبارها رأس الحربة فى حركة ما فوق التصنيع – تمثل ذلك الإيقاع الجديد السريع ، غير المرغوب إلى حد كبير .

ويمكن أن نأخذ الضجة الكبرى التى أثارها انتشار الطراز الأمريكى لمخازن الأدوية فى باريس كنموذج دقيق لهذه الحملة بالنسبة لكثير من الفرنسيين ، يعتبر وجود هذه المخازن دلالة مثيرة ودامغة « للاستعمار الثقافى » المشؤوم من جانب الولايات المتحدة الأمريكية . إن من الصعب على الأمريكيين أن يتفهموا كيف تثير نافورة الصودا البريئة كل هذا الانفعال الجامح . ولكن ثمة تفسيرا قد يساعدنا على تفهم الأسباب الحقيقية لكل هذه الضجة ، فالحقيقة أن الرجل الفرنسى الذى اعتاد أن يجلس متلبثا ساعة أو ساعتين بإحدى الحانات ليروى ظمأه بكأس من الشراب المنعش ، أصبح الآن يتجه إلى مخزن الأدوية ليروى ظمأه فى لحظات بكأس من اللبن المخفوق ، أو الآيس كريم . وجدير بالملاحظة أن انتشار هذا الأسلوب قد أدى خلال السنوات الأخيرة إلى أن تغلق حوالى ٣٠ ألفا من الحانات أبوابها ، هذه الحانات التى نعتتها مجلة « تايم » بأنها ضحايا « ثقافة الخدمة السريعة » (وربما كانت كراهية الأوروبيين المتزايدة لمجلة تايم نفسها ليست لأسباب سياسية خاصة ، وإنما تنبثق بلا وعى مما يوحى به اسمها نفسه . فالتايم – بأسلوبها المختزل اللاهث – تصدر أكثر من مجرد أسلوب الحياة الأمريكى . . إنها تصدر فى نفس الوقت الإيقاع الأمريكى لخطوة الحياة) .

توقعاتنا عن دوامية الأشياء

حتى نستطيع أن نتفهم احتمالات التمزق والاضطراب التى قد تنجم عن التسارع فى خطوة الحياة ، لابد وأن نستوعب فكرة « توقعات الدوامية » .

إن مفهوم الإنسان عن الوقت مرتبط أشد الارتباط بإيقاعاته الداخلية ، ولكن استجاباته للوقت تتكيف ثقافيا . وجزء من هذ التكيف يرجع إلى مرحلة الطفولة عندما تبدأ تتكون لدى الطفل سلسلة من التوقعات المتعلقة بدوامية الأحداث والعمليات والعلاقات . والواقع أن معرفة الطفل بمدى دوامية الأشياء تمثل واحداً من أهم أشكال المعرفة لدى الطفل . وتكتسب هذه المعرفة بسبل متعددة تلقائية أحيانا ، ومن وراء الوعى غالبا ، ولطيفة المدخل دائما ، وبدون مجـــموعة غنية وملائمة اجتماعيا من هذه التوقعات الدوامية لا يستطيع الفرد أن يؤدى دوره فى الحياة بنجاح .

وكما قلنا فإن اكتساب هذه المعرفة يبدأ من مرحلة الطفولة ثم يستمر ، فالطفل – على سبيل المثال – يتعلم أنه عندما يخرج أبوه إلى عمله فإن ذلك يعنى أنه لن يعود قبل مضى بضع ساعات (فإن حدث العكس فسيشعر الطفل بأن ثمة شيئا غير عادى ، وأن الجدول قد اضطرب – وحتى كلب الأسرة الذى تعلم بدوره شيئا عن التوقعات الدوامية – سيشعر باختلال (الروتين) ، ويتعلم الطفل بسرعة أن الوقت الذى تستغرقه الوجبة ليس دقيقة واحدة ولا خمس ساعات ، ولكنه عادة يكون بين ربع ساعة وساعة كاملة . إنه يتعلم أيضا أن الذهاب إلى السينما يستغرق وقتا يتراوح بين ساعتين وأربع ساعات . ولكن زيارة لطبيب الأطفال لا تستغرق عادة أكثر من ساعة . وهو يتعلم أن يوم المدرسة يمتد إلى ما يقرب من ست ساعات ، وأن صلته بمدرسته تمتد عادة بطول السنة الدراسية ، ولكن بالنسبة لعلاقته بجديه فالمفروض أنها ستمتد إلى أبعد من ذلك بكثير . والحقيقة أن هناك علاقات المفروض فيها أن تستمر طول العمر . وبالنسبة لسلوك البالغين ، فإن كل شئ نفعله فى الواقع ، من إرسال خطاب البريد إلى المطارحة الغرامية مسبوق دائما بفرضية معلنة ، أو غير معلنة عن دواميتـــه .

هذه التوقعات الدوامية المكتسبة مبكرا ، والمستقرة فى أعماق الأفراد ، وإن كانت تختلف من مجتمع لآخر – هى التى تهتز عندما يتعدل إيقاع خطو الحياة .

وهذا يوضح الفارق الحاسم بين أولئك الذين يعانون بشدة من تسارع خطو الحياة ، وأولئك الذين يرحبون بهذا التسارع ويجدون فيه نجاحهم وازدهارهم . وما لم يعدل الفرد من توقعاته الدوامية ، واضعا فى حسابه استمرار التسارع ، فإنه حرى بأن يفترض تماثل موقفين فى دواميتهما لأنهما متماثلان فى باقى عناصرهما ، بالرغم من أن دفعة التسارع تفرض اختزال الزمن بالنسبة – على الأقل – لبعض أنواع من المواقف .

إن الفرد الذى استوعب مبدأ التسارع وأصبح يحس بعظامه ، كما يدرك بعقله ، أن الأشياء تتحـــرك بسرعة أكبر فيما حوله ، حـــرى بأن يحقق أتوماتيكيا ، وباللاوعى ، التعويض المناسب لضغط الوقت . فبإدراكه المسبق أن المواقف سوف تدوم أقل فأقل . سيكون أقل تعرضا للمفاجأة والارتباك من الشخص الذى تجمدت توقعـــاته ، أى الشخص الذى لا يتوقع بصفة منتظمة حدوث تقلص متكرر فى دوامية المواقف .

وباختصار فإن خطو الحياة شئ أكبر من أن ينظر إليه كعبارة عامة أو مصدر للفكاهات ، والتنهدات والشكاوى ، أو كتصنيف أخلاقى . إنه متغير سيكلوجى من الخطورة والأهمية بحيث يستحيل تجاهله . ففى المـــاضى ، عندما كان التغير الخارجى للمجتمع بطيئا كان فى استطاعة الإنسان ألا يتنبه إلى هذا المتغير ، فعلى امتداد عمـــر الفرد لم يكن خطو الحياة يتغير إلا قليلا . ولـكن دفعة التسارع قد غيرت من ذلك بشكل عنيف . لأنه عن طريق تسارع خطو الحياة يمكن للتغييرات السريعة والواسعة فى المجالات العلمية والتكنولوجية أن تصبح محسوسة فى حياة الفرد . إن جانبا هاما من السلوك الإنسانى يتأثر بالانجذاب أو العداء حيال سرعة الحياة التى تفرض على الفرد بواسطة المجتمع أو المجموعة التى يعيش وسطها . إن الإخفاق فى استيعاب هذا المبدأ يكمن خلف العجز الخطير للتعليم وعلم النفس فى إعداد الفرد لأداء دور مثمر فى مجتمع ما فوق التصنيع .

مفهوم الزوال

إن كثيرا من تنظيراتنا المتعلقة بالتغير الاجتماعى والسيكولوجى تعطينا صورة صادقة للإنسان فى المجتمعات الثابتة نسبيا – ولكن صورة مشوهة وناقصة للإنسان المعاصر حقا . إنها تفتقر إلى الفرق الخطير بين إنسان الماضى أو الحاضر – وإنسان المستقبل . هذا الفرق الذى يمكن تلخيصه فى كلمة « الزوال » .

إن مفهوم الزوال يمدنا بالحلقة التى طال افتقادها بين نظريات التغير الاجتماعية وعلم النفس الفردى . إنه بتحقيقه للتكامل بينهما يعطينا القدرة على تحليل مشكلات التغير السريع بأسلوب جديد . وأيضا كما سوف ترى فإنه يمدنا بطريقة – قد تكون فجة ولكنها فعالة – لقياس معدل تدفق المواقف قياسا استدلاليا .

إن الزوال هو « الموقوتية » الجديدة فى الحياة اليومية التى ينجم عنها مزاج أو شعور اللاثبات . وبالطبع فإن الفلاسفة واللاهوتيين كانوا ينظرون إلى الإنسان دائما ككائن زائل . وبهذا المعنى العام فإن الزوال كان دائما جزءا من الحياة . ولكن الشعور باللاثبات أصبح – فى أيامنا هذه – أكثر قربا وأشد حدة . وهكذا نجد الكاتب إدوارد ألبى يصور لنا شخصية جيرى فى روايته « قصة حديقة الحيوان » فى صورة (الزائل دائما) ثم يكتب الناقد هارولد كلورمان معلقا على رواية ألبى قائلا : « ليس منا من يسكن منازل أمن حقيقية . إننا جميعا نفس هؤلاء الناس الذين يشغلون مساكن مؤقتة ويحاولون بيأس ووحشية أن يخلقوا روابط مطمئنة للروح مع جيرانهم . إننا جميعا فى الحقيقة مواطنو عصر الزوال » .

ومع ذلك فليست علاقاتنا بالناس هى وحدها التى تبدو أكثر فأكثر هشة وغير ثابتة ، فلو قسمنا خبرات الفرد خارج نفسه فإننا نستطيع أن نصنف نوعيات معينة من العلاقات . فإلى جانب ارتباطات الفرد بغيره من الناس نستطيع أن نتحدث عن علاقته بالأشياء . نستطيع على سبيل المثال أن نختار للفحص علاقته بالأمكنة ، أو نحلل روابطه بمنظمات ومؤسسات

البيئة التى يعيش فيها . بل إن من الممكن أن تدرس علاقته بأفكار معينة أو بتدفق المعلومات فى المجتمع .

هذه العلاقات الخمس - بالإضافة إلى الزمن - تشكل صيغة الخبرة الإجتماعية ، وهذا هو ما دعانا - فى فصل سابق - إلى افتراض أن الأشياء والأمكنة والناس والمؤسسات والأفكار هي المكونات الأساسية لجميع المواقف . إن علاقة الفرد المتميز بكل من هذه المكونات هى التى ينبنى عليها الموقف .

وهذه هى بالذات العلاقات التى تبدأ فى التقلص والتناقص عندما يقع التسارع فى المجتمع . فالعلاقات التى كانت من قبل تمتد على فترة طويلة من الزمن . أصبحت الآن قصيرة العمر . إن هذا الاختزال ، هذا الضغط هو الذى يثير ذلك الشعور الذى يكاد يكون حقيقيا بأننا نعيش بلا جذور . وبلا ثقة ، وسط كثبان من الرمال المتحركة .

والواقع أننا نستطيع أن نعرف الزوال تعريفا دقيقا باصطلاحات تنتمى إلى المعدلات التى تتحرك بها علاقاتنا . إنه قد يكون من الصعب إقامة البرهان على أن المواقف أصبحت تستغرق فى المرور خلال خبراتنا وقتا أقل من ذى قبل . ولكن من الممكن أن نفكك هذه المواقف إلى مكوناتها الأساسية ، وأن نقيس المعدل الذى يتحرك به أى من هذه المكونات إلى داخل أو خارج حياتنا ، أو بعبارة أخرى ، أن نقيس دوامية العلاقات .

وسوف يساعدنا على استيعاب مفهوم الزوال أن نفكر فيه باصطلاحات تنتمى إلى فكرة « حركة التغير » . فى محل بقالة على سبيل المثال تكون حركة اللبن أسرع بكثير من حركة الأسبرج المعلب . أى إنه يباع ويستعوض بشكل أسرع . ورجل الأعمال اليقظ يعرف تماما معدل حركة كل صنف من الأصناف التى يبيعها والمعدل العام لحركة مخزنه كله ، إنه يعرف فى الحقيقة أن معدل هذه الحركة هو مؤشر النجاح لمشروعه .

ونستطيع بالتشبيه أن نفكر فى الزوال كمعدل حركة التغير بالنسبة لأنواع العلاقات المختلفة فى حياة الفرد . وفوق ذلك فإن من الممكن أن تتحدد سمات

كل منا فى اصطلاحات تنتمى إلى هذا المعدل . فبالنسبة للبعض تتسم الحياة بمعدل تحرك فى العلاقات أكثر بطئا من مثيله لدى الآخرين . وإنسان الماضى والحاضر يعيش حياة ذات « زوال أقل » نسبيا — أى إن علاقاته تدوم أطول . ولكن إنسان المستقبل يعيش حياة ذات « زوال أعلى » — أى إن علاقاته تدوم أقل ، وبعبارة أخرى فإنه فى حياته تصير الأشياء والأمكنة والناس والأفكار ، والأبنية التنظيمية « مستهلكة » بشكل أسرع .

إن هذا يؤثر أبلغ الأثر فى إدراك الناس للواقع وفى إحساسهم بالانتماء ، وفى قدرتهم أو عجزهم على المواجهة . إنه ذلك الاستهلاك السريع للمواقف مضافا إلى التمدد والتغيير المتزايد للبيئة ، هو الذى يرهقهم من أمرهم عسرا ويحد من قدرتهم على التكيف ، وبالتالى يعرضهم لأخطار صدمة المستقبل .

إذا استطعنا أن ندلل على أن علاقتنا بالعالم من حولنا قد أخذت ، بشكل مطرد ، تصبح أكثر زوالية ، فإننا نكون قد ملكنا البرهان القوى على ما افترضناه من أن تدفق المواقف يتسارع أكثر فأكثر . ويكون قد أصبح لدينا طريق جديد واضح المعالم للنظر فى أنفسنا وفى الآخرين ، ومن ثم فهلم بنا نستكشف الحياة فى مجتمع عالى الزوالية .

القسم الثانى

الزوال



الفصل الرابع

الأشياء : مجتمع التخلص من الأشياء

« باربى » عروسة من البلاستيك طولها تسع بوصات ، هذه العروسة التى تمثل فتاة دون العشرين هى أشهر وأروج عروسة فى التاريخ ، فقد وصل عدد المبيع منها منذ ظهورها سنة ١٩٥٩ حتى الآن ١٢ مليونا أى أكثر من سكان لوس انجليس ، أو لندن ، أوباريس ، والفتيات الصغيرات يعبدن باربى لقربها من الحقيقة ، ولأناقتها الفائقة . وشركة ماتل صانعة هذه العروسة تبيع معها صوان « دولاب » ملابس كامل يحتوى على ملابس لكل المناسبات : للنهار ، وللسهرة ، وللسباحة ، وللتزحلق على الجليد . . إلخ .

ومن وقت قريب أعلنت شركة ماتل عن عروسة جديدة محسنة ذات قوامأرشق ، وأهداب « رموش »حقيقيةوخصر يتحرك وينثنى بشكل أقرب إلى الآدمية منه فى العروسة القديمة ، وفوق ذلك فقد أعلنت الشركة أن كل فتاة تستطيع أن تستبدل عروستها القديمة بعروسة جديدة مع دفع الفرق .

ولكن الذى لم تعلنه الشركة هو أن فتاة اليوم الصغيرة ومواطنة عالم ما فوق التصنيع غدا ، عندما تستبدل عروستها بأخرى محسنة تكنولوجيا . فإنها تتعلم درسا من الدروس الأساسية عن المجتمع الجديد : وهو أن علاقة الإنسان بالأشياء أصبحت تدوم أقل .

إن الحضم الهائل من الأشياء المادية المصنوعة الذى يحيط بنا اليوم مستقر وسط خضم أعظم من الأشياء الطبيعية ، ولكن البيئة التى تصنعها التكنولوجيا هى التى تثير اهتمام الفرد بشكل متزايد : بنية البلاستيك أو الخراسانة ، البريق القزحى لسيارة تحت أضواء الشارع ، منظر مدينة من نافذة طائرة نفاثة . هذه هى الحقائق القريبة من وجوده . إن الأشياء

التى صنعها الإنسان تدخل إلى وعيه وتلونه بألوانها : وعدد هذه الأشياء يتزايد بقوة مدمرة ، بشكل نسبى أو مطلق ، للبيئة الطبيعية ، ولسوف يكون هذا صحيحا أكثر بالنسبةلعالمِمافوقالتصنيع أكثر مماهو بالنسبة لعالمنا الحاضر .

إن خصوم المادية يحاولون أن يهونوا من شأن « الأشياء » ، ومع ذلك فإن لهذه الأشياء أهمية كبرى ، ليس فقط بسبب الوظائف التى تؤديها فى المجتمع ، ولكن أيضا لتأثيراتها السيكولوجية . إننا نفشى علاقات مع الأشياء ، والأشياء تؤثر فى إحساسنا بالاستمرار أو بالتوقف ، إنهاأيضاتلعب دورا هاما فى بناء المواقف ، واختزال علاقاتنا بها يسارع من خطو الحياة .

وفوق ذلك فإن نظرتنا إلى الأشياء تعكس حكمنا على القيم . ولعل أبلغ مثل على ذلك هو الفارق بين الجيل الجديد من صغار الفتيات فى تخليهن بمثل هذه السهولة عن عرائسهن مقابل أخرى من طراز أحسن ، وبين أمهاتهن وجداتهن من قبل ، حيث كانت إحداهن تتشبث بحب بنفس العروسة حتى تتهرأ من القدم . فى مثل هذا الفارق يكمن التمايز بين الماضى والمستقبل بين مجتمعات ارتكزت على مفهوم البقاء . والمجتمع السريع التشكل ، المرتكز على مفهوم الزوال .

فستان زفاف من الورق

نستطيع أن نصور اتجاه العلاقة بين الإنسان والأشياء إلى التقاصر المستمر بفحص نوع الثقافة المحيطة بالفتاة التى تستبدل عروستها ، فهذه الطفلة تتعلم أن عرائس « باربى » ليست هى الشىء المادى الوحيد الذى يدخل إلى حياتها ثم يخرج منها بسرعة . فالمحارم والصدارات ، والمناشف والمناديل الورقية ، وزجاجات الصودا التى لا تعاد فوارغها ، كلها تستهلك يوميا ، وبسرعة فى منزلها ثم يتم التخلص منها فورا . والكعك يخبز فى صوان من الصفيح لا تستعمل غير مرة واحدة ثم يلقى بها ، والسبانخ يؤتى بها فى أكياس من البلاستيك توضع فى إناء ماء مغلى للتسخين ثم تنبذ ، والوجبات الخفيفة تطهى وتقدم فى صوان لا تستعمل إلا مرة واحدة . إن منزل هذه الطفلة يكاد يكون ماكينة ضخمة تتدفق خلالها الأشياء التى تلتقمها ثم تنبذها بسرعة متزايدة ، ومن ثم فإن هذه الطفلة تلقن منذ المهد ثقافة التخلص من الأشياء .

إن فكرة استخدام السلعة مرة واحدة أو لفترة قصيرة ، ثم إحلال أخرى محلها ، تتصادم مع مزاج المجتمعات أو الأفراد ممن وراءهم تراث طويل من الفقر والحاجة . ومنذ وقت قريب أخبرنى أورييل رون خبير بحوث التسويق بوكالة الإعلان الفرنسية « بوبليسس » : « أن ربة البيت الفرنسية غير معتادة المنتجات السريعة الاستبدال . . إنها تحب أن تحتفظ بالأشياء ، حتى القديم منها ، لقد عهدت إلينا إحدى الشركات بعمل دراسة عن نوع من ستائر البلاستيك نريد أن ننتجه ، وتبين لنا من دراسة إمكانيات تسويق هذه الستائر أن هناك مقاومة شديدة لهذه الستائر السريعة الاستبدال » . ولكن مثل هذه المقاومة أخذت تتلاشى فى جميع الدول المتقدمة .

لقد أشار الكاتب إدوارد ماز : إلى « أن كثيرا من الأمريكيين ممن زاروا السويد فى أوائل الخمسينيات قد أخذوا لما رأوه من نظافتها ، فلم تكن هناك زجاجات بيرة أو مشروبات خفيفة ملقاة إلى جانب الطريق ، الأمر الذى جعلهم يشعرون بالخجل ؛ لأن منظر الزجاجات الفارغة الملقاة على جانب الطريق منظر مألوف فى الولايات المتحدة . ولكن فى الستينيات ويالللأسف ، بدأت الزجاجات الفارغة تظهر بكثرة على جوانب الطرق فى السويد . . فماذا حدث ؟ الذى حدث أن السويد أصبحت مجتمعا من مجتمعات : اشتر ، واستعمل ، ثم ألق جانبا . على نفس المنهج الأمريكى . « وحاليا فى اليابان ، انتشر استعمال المناديل الورق لدرجة أن أصبحت المناديل القماش ينظر إليها « كموضة » قديمة غير صحيحة ، وفى انجلترا انتشر استعمال نوع من فرجون «فرش» الأسنان المجهزة بالمعجون ، والتى تستعمل مرة واحدة ، وحتى فى فرنسا أصبح النوع الغالب الاستعمال من قداحات «ولاعات» السجاير هو النوع الذى لايعاد ملؤه ، بل يلقى به بمجرد أن تفرغ شحنته من الغاز . لقد أخذت المنتجات المصنوعة للاستخدام مرة واحدة ، أو لفترة قصيرة – من علب اللبن الكرتون إلى الصواريخ الحاملة لسفن الفضاء – تتكاثر وتتعدد لدرجة بعيدة التأثير فى أسلوب حياتنا .

ولقد عزز من الاتجاه إلى الاستبدالية أن ظهرت مؤخرا الملابس المصنوعة من الورق والمواد الشبيهة به ؛ ففى محلات راقية ، كما فى محلات ملابس

الطبقة العاملة ، بدأت تخصص أقسام برمتها لملابس زاهية الألوان ، خيالية التصميم ، ومصنوعة من الورق . كما أخذت مجلات الموضة تعرض نماذج أخاذة من الفساتين والمعاطف والبيجامات ، وحتى فساتين الزفاف ، المصنوعة من الورق . ولقد علق المحرر على صورة لعروس ترتدى ثوبا من هذا النوع له ذيل طويل من الورق الشبيه بالدانتلا ، بأنه سيفيد فى عمل ستائر رائعة للمطبخ بعد حفل الزفاف .

وفى رأى أحد خبراء « الموضة » أن الملابس المصنوعة من الورق ملائمة بنوع خاص للأطفال : « تقريبا سيصبح فى وسع البنات الصغار أن يرقن الآيس كريم على « فساتينهن » أو يرسمن عليها صورا ويقطعن منها أشكالا جميلة ، فى حين تبتسم أمهاتهن إعجابا بمواهبهن الخلاقة » . أما بالنسبة للبالغات ممن يردن بدورهن إثبات مواهبهن الخلاقة فهناك طاقم : « ارسمى ثوبك بنفسك » ، كامل بالفرش والألوان والثمن : دولاران فقط .

وطبيعى أن الأسعار تمثل عاملا هاماً وراء موضة الورق ، فقد عرض أحد المحلات أثوابا بسيطة مصنوعة من ألياف السيليلوز والنايلون بسعر دولار واحد وتسعة وعشرين سنتاً للثوب . ويكاد يكون ثمن الثوب كله أرخص مما يتكلفه تنظيف وكى الثوب العادى . ولكن عما قريب سيصبح الأمر أكثر من مجرد العامل الاقتصادى الذى يتضمنه ، فانتشار ثقافة التخلص من الأشياء لها فى حد ذاتها معقباتها السيكولوجية الهامة .

إن عقلية التخلص من الأشياء تتكون لدينا لتتلاءم مع منتجاتنا السريعة الاستهلاك . هذه العقلية تخلق ، من بين أشياء أخرى ، مجموعة من القيم المعبرة عن تغير جذرى فى النظرة إلى الملكية . ولكن انتشار الاستبدالية فى المجتمع يتضمن أيضا تقاصرا فى علاقة الإنسان بالأشياء . فبدلا من أن نظل مرتبطين بشىء واحد لمدة طويلة نسبيا فإننا بدلا من ذلك نرتبط لمدد قصيرة بعدد متتابع من الأشياء البديلة له .

حتى المبانى ، ذلك الجزء من البيئة المادية الذى طالما أسهم أكثر من غيره فى تكوين فكرة البقاء لدى الإنسان . قد جرفته بدوره موجة الزوال . إن الطفلة التى تستبدل عروستها لا تملك إلا أن تلاحظ أيضا زوال المبانى وغيرها من الإنشاءات الضخمة فى البيئة التى تعيش فيها . إننا نمسح معالم الأرض ونهدم شوارع ومدناً بأكملها ، ونقيم أخرى جديدة بسرعة تدير الرأس .

لقد كتب أ.ف . كارتر من معهد بحوث ستانفورد يقول : « إن عمر المساكن يتقلص بشكل مستمر : من عمر غير محدود فى زمن الكهوف ، إلى مائة سنة تقريبا ، للمنازل التى بنيت فى أمريكا على عهد الاحتلال ، إلى حوالى أربعين سنة فى وقتنا الحاضر » ويقول الكاتب البريطانى مايكل وود « لقد بنى الأمريكى عالمه بالأمس ، وهو يعلم تماما كم هو هش ومتغير ، فى نيويورك تختفى المبانى بين يوم وليلة ، ومن الممكن أن يتغير وجه المدينة بأكمله خلال سنة . . . »

أما الروائى لويس اوكنكلوس فلا يخفى سخطه عندما يقول : « إن ما يجعل الحياة رهيبة فى مدينة نيويورك هو أنك تعيش فى مدينة بلا تاريخ.. لقد عاش فى نفس المدينة ثمانية من أجدادى . . . ولم يتبق من المنازل التى عاشوا بها سوى منزل واحد . وهذا هو ما أعنيه بقولى إن الماضى يتلاشى ويختفى » . وقد يعبر سكان نيويورك الأحدث ارتباطا بالمدينة — ممن هبط أسلافهم أمريكا منذ عهد قريب قادمين من بورتوريكو ، أو قرى شرق أوروبا ، أو من مزارع الجنوب — عن شعورهم بأسلوب مختلف عن هذا تماما . ولكن الأمر الذى لا محل للاختلاف عليه هو أن ظاهرة « الماضى المتلاشى » أصبحت حقيقة واقعة ، وأن من المرجح أن يتسع انتشارها لتحتوى حتى الكثير من مدن أوروبا المشبعة بعبق التاريخ .

أما المصمم الفيلسوف بكمينستر فوللر فقد وصف مرة مدينة نيويورك بأنها : « عملية تطور مستمرة ومتكررة من الإخلاء ، والنسف ، والإزاحة ،

والمساحات الخالية مؤقتا ، ثم الإنشاءات الجديدة . . وهكذا دواليك . إن هذه العملية شبيهة من حيث الأساس بعملية زراعة المحصولات : حرث الأرض ، وبذر الحب ، وحصاد المحصول ، ثم حرث الأرض لزراعة محصول آخر ، وهكذا . . . إن كثيرا من الناس الذين ينظرون إلى عمليات البناء التى تسد شوارع نيويورك ، باعتبارها إزعاجا مؤقتاً ما يلبث أن يتحول إلى هدوء مستقر ، هؤلاء لا يزالون يفكرون فى الثبات كشئ طبيعى ، وتلك فى الحقيقة نظرة عتيقة متخلفة مترسبة من الفكرة النيوتونية عن الكون . أما أولئك الذين عاشوا فى نيويورك ومعها منذ مطلع هذا القرن فقد عايشوا بحق النسبية الاينشتاينية » .

لقد واتتنى فكرة اعتناق الأطفال للنسبية الاينشتاينية من تجربة ذاتية مررت بها : فذات يوم أرسلت ابنتى كارين البالغة من العمر اثنتى عشرة سنة لتبتاع شيئا من متجر قريب من مسكننا بمنهاتن ، ولم تكن قد ذهبت إلى هذا المتجر قبل ذلك سوى مرة واحدة أو مرتين . وبعد حوالى نصف ساعة عادت وقد بدت مرتبكة وقالت : « لم أستطع أن أجد المتجر ، لابد أنه قد هدم : « ولم يكن المتجر قد هدم فى الواقع وإنما الذى حدث أنها أخطأت الطريق إليه ، ولكنها طفلة من عصر الزوال ، ومن ثم فإن أول ما تبادر إلى ذهنها عندما لم تجد المتجر هو أن المبنى الذى يقع به المتجر قد هدم وأقيم مكانه مبنى آخر . وهذا أمر طبيعى جدا بالنسبة لطفلة نشأت فى أمريكا المعاصرة . وإنه لأمر بعيد الاحتمال أن تتبادر مثل هذه الفكرة لطفلة عاشت منذ نصف قرن وواجهت ظرفا مشابها ، حيث كانت البيئة المادية أكثر ثباتا ، وعلاقاتنا بها أقل زوالا .

اقتصاديات اللادوام

فى الماضى كان الدوام هو المثال ، وسواء كان العمل المطلوب هو صناعة زوج من الأحذية أو بناء كاتدرائية ، فإن طاقات الإنسان الخلاقة والمنتجة كانت توجه نحو تحقيق أقصى حد ممكن من الدوامية للشئ المنتج ولم يكن أمامه إلا أن يفعل ، مادام المجتمع لا يميل إلى تغيير أى شئ

يؤدى وظيفة واضحة ومحددة ، وما دام المنطق الاقتصادى يملى سياسة الدوام ، لقد كان زوج الأحذية الذى يتكلف خمسين دولار ويعيش عشر سنوات ، حتى ولو احتاج إلى الإصلاح من وقت لآخر ، أرخص من الزوج الذى يتكلف عشرة دولارات ويعيش سنة واحدة .

وعندما أخذ المعدل العام للتغير فى المجتمع يتسارع ، فقد أصبح من المحتم أن تحل اقتصاديات الزوال محل اقتصاديات الدوام .

فأولا ، كان من نتائج استخدام التكنولوجيا المتقدمة ، أن أخذت تكاليف التشغيل تتناقص بسرعة أكبر من تكاليف الإصلاح ، وبينما وصلت الأولى إلى مرحلة الاتوميشن ، ظلت الثانية ، كما كانت من قبل ، عملا يدويا فى الغالب . وهذا يعنى أنه غالبا ما يكون الاستبدل أرخص من الإصلاح . ومن ثم فإنه من المعقول ، اقتصاديا ، أن يكون الاتجاه إلى إنتاج أشياء أرخص ، تستهلك ولا تصلح ، حتى ولو كانت أقصر عمراً من الأشياء القابلة للإصلاح .

وثانيا ، فإن التقدم المستمر للتكنولوجيا جعل من الممكن إدخال تحسينات مستمرة على المنتجات ، فالجيل الأول من الحاسبات الإليكترونية أقل كفاءة من الجيل الثانى ، والجيل الثالث أفضل من الجيل الثانى . ومادام فى استطاعتنا دائما أن نتوقع تقدما تكنولوجيا أكبر ، وتحسينات أكثر تتوالى بفواصل زمنية تتقاصر باستمرار ، فإن المعقول اقتصاديا هو أن ننتج أشياء تعيش لفترات أقصر وليس لفترات أطول . ويحدثنا دافيد لويس المهندس الأخصائى فى تخطيط المدن ، من اتحاد تخطيط المدن ببتسبرج ، عن عمارات سكنية فى ميامى هدمت بعد عشر سنوات فقط من بنائها . لأن أجهزة التكييف المحسنة فى العمارات الأحدث قد أثرت تأثيرا سيئا فى « إيجارية » هذه العمارات « القديمة» . وهكذا فمن كل الوجوه ، أصبح هدمها وإحلال عمارات أحدث مكانها أرخص من إدخال تعديلات عليها .

ثالثا : مع تسارع التغيير ووصوله إلى أبعد أرجاء المجتمع تتضاءل فرص الرؤية ، الواثقة لاحتياجات المستقبل . فمع إدراكنا لحتمية التغيير ،

إلا أنه نظرا لعدم وثوقنا مما سيفرضه علينا من متطلبات ، فإننا نتردد فى توجيه موارد ضخمة إلى أشياء ثابتة تخدم أغراضا غير متغيرة . وتفاديا للارتباط بأشكال ووظائف ثابتة ، فإننا نتجه إلى إنتاج أشياء تخدم لفترة قصيرة ، أو أن نجعل هذه الأشياء قابلة للتكيف .

إن انتشار ثقافة التخلص من الأشياء كان استجابة طبيعية لهذه الضغوط . ومع تسارع التغيير وتضاعف التعقيدات ، فإننا نتوقع انتشاراً أوسع لهذه الثقافة ، أى اختزالا أكثر لعلاقة الإنسان بالأشياء .

الملعب المتنقل « النقالى »

وإلى جانب ثقافة التخلص من الأشياء فإن هناك عدداً آخر من الاستجابات السيكلوجية . وعلى سبيل المثال ، فإننا نشهد فى الوقت الحاضر اتجاها متزايدا إلى صنع أشياء مصممة بحيث يخدم الواحد منها سلسلة من الأغراض القصيرة الأمد بدلا من غرض واحد ، هذه ليست أشياء للرمى بعد الاستعمال ، لأنها غالبا ما تكون ضخمة وعالية التكاليف ، ولكنها مبنية بحيث يمكن عند اللزوم فكها وإعادة تركيبها فى مكان آخر .

وهكذا نجد أن المجلس التعليمى للوس انجليس قد قرر بالفعل أن تكون ٢٥٪ من حجرات الدراسة فى المستقبل من النوع الذى يمكن نقله وتركيبه من مكان لآخر حسب الحاجة . ولا تكاد تخلو منطقة تعليمية بالولايات المتحدة حاليا من حجرات دراسة من هذا النوع وما زال الكثير والأكثر منها فى الطريق إلى الوجود . والواقع أن حجرات الدراسة المؤقتة بالنسبة للمدارس مثلها فى ذلك مثل الثياب الورق بالنسبة لصناعة الملابس: باكورة من بواكير المستقبل .

والهدف من وراء بناء حجرات دراسة مؤقتة وصالحة للنقل ، من مكان لآخر هو مساعدة المدارس على مواجهة التقلبات السريعة فى الكثافات السكانية . ولكن هذه الحجرات تؤدى وظيفة أخرى . إنها — مثلها فى ذلك مثل الثياب الورقية — تعبير عملى عن تقاصر علاقة الإنسان بالأشياء .

ومن ثم فإنها تعطى التلميذ درسا بدون مدرس . درسا على اللادوام الذى أصبح صفة كل ما فى البيئة المحيطة به . فهو لا يكاد يتأقلم مع حجرة الدرس ويتعرفها – على موقعها وسط ما يحيط بها من إنشاءات ، على ملمس التخت فى يوم حار ، على رجع الأصوات فيها ، وعلى كل الروائح والأنسجة التى تميز شخصية أى بناء وتهبه جوه الحقيقى – لا يكاد التلميذ يدرك كل ذلك حتى ينقل البناء نفسه من بيته ليخدم تلاميذ آخرين فى مكان آخر .

وليست حجرات الدرس المتنقلة ظاهرة أمريكية خالصة ، ففى انجلترا مثلا ، وضع المهندس المعمارى سيدريك بريس تصميما لجامعة متنقلة ستستوعب ٢٠ ألف طالب ، وستقام فى ستافورد شاير ، وحسبما قاله بريس – فإن هذه الجامعة « ستعتمد أساسا على المبانى المؤقتة أكثر منها على المبانى الثابتة » وأنها سوف « تستخدم بشكل واسع البنى المتحركة والمتغيرة » فعلى سبيل المثال ستكون هناك حجرات درس داخل عربات سكة حديد يمكن أن تتحرك من مكان إلى مكان آخر داخل الحرم الجامعى الذى تبلغ مساحته أربعة أميال .

ومن القباب الجيوديسية ، إلى المعارض ، إلى الفقاعات البلاستيكية المنفوخة بالهواء والتى تستخدم كنقط قيادة أو إدارة للمنشآت : تتدفق من مناضد الرسم للمهندسين والمعماريين ، أنساق كاملة من تصميمات المبانى المتنقلة . وفى نيويورك قررت إدارة المتنزهات أن تبنى اثنى عشر من « الملاعب النقالى » الصغيرة لتركيبها فى المساحات الخالية حتى يبدأ استغلالها لغرض آخر ، فتفك الملاعب وتنقل إلى مساحات خالية أخرى . لقد كانت الملاعب فى الماضى من أكثر المنشآت اتساما بصفة الدوام والاستمرار ، حتى لقد كان الرجل وأبناؤه وأحفاده يتعاقبون جيلا بعد جيل على نفس الملعب ، وبصورة لا تكاد تختلف من جيل لآخر . ولكن ملاعب عصر ما فوق التصنيع ترفض أن تستقر فى مكان واحد . إنها بطبيعة تصميمها نفسه ، مؤقتة .

قصر الملاهى « المضمن »

إن تقاصر أمد العلاقة بين الإنسان والأشياء الذى نجم عن انتشار السلع القصيرة الأجل والأبنية المؤقتة قد ازداد حدة بالانتشار السريع لأسلوب « التضمينية » ويمكن أن تعرف التضمينية بأنها محاولة لإعطاء بناية ما دواما أكثر ككل، بجعل أجزائها ومكوناتها أقل دواما . وهكذا نجد أن مشروع سيدريك بريس للجامعة المتنقلة يقترح أن تتكون مبانيها الداخلية من أجزاء من الصلب المضغوط يمكن رفعها وتثبيتها فى إطارات المبنى ، بحيث تصبح هذه الإطارات هى الأجزاء الوحيدة الدائمة نسبيا فى المبنى كله . أما الأجراء الداخلية كلها فتكون قابلة لأن ترفع وتركب حسب الطلب ، أو حتى تنبذ وتحل محلها أجزاء أخرى .

وهنا ينبغى أن نلفت النظر إلى أنه من وجهة نظر الدوامية ، فإن الفرق بين حركية الشئ واستبداليته فرق دقيق لا يكاد يبين ، فحتى إذا لم تستبدل هذه الأجزاء فإن مجرد إعادة ترتيبها ينتج عنه شئ جديد فى مبناه وفى معناه ؛ تماما كما لو أن مبنى قد أزيل وحل محله مبنى جديد ، حتى ولو دخلت فى تكوينه مكونات القديم كلها أو بعضها .

وحتى بعض المنشآت المفروض فيها صفة الدوام ، أصبحت اليوم تبنى طبقا لخطة « تضمينية » يمكن بمقتضاها تحريك ونقل الجدران والفواصل الداخلية لإعادة تشكيل التقسيمات الداخلية للمبنى . إن هذه الفواصل والجدران المتحركة يمكن أن تمثل نموذجا للمجتمع الزوالى : لقد أصبح من النادر فى أيامنا هذه أن يدخل أحد إلى مكتب كبير دون أن يلتقى بمجموعات من العمال تعمل بجد فى تحريك المكاتب وإعادة ترتيب المساحات الداخلية بنقل وتعديل فواصلها . وفى السويد تحقق مؤخرا نصر كبير لأسلوب « التضمينية » ؛ فقد بنيت فى ابسولا عمارة سكنية نموذجية كل جدرانها الداخلية وحجراتها قابلة للنقل . ولا يحتاج الساكن إلى أكثر من مفك ليغير كيف يشاء من التقسيمات الداخلية لشقته ، بحيث يخلق شقة جديدة تماما .

وفى بعض الأحيان تتحد التضمينية مباشرة مع الاستبدالية . ويعطينا القلم الجاف البسيط مثالا لذلك . لقد كانت ريشة الأوزة القديمة تتمتع بدوامية كبيرة . وما لم تتعرض لحادث فقد كانت تعيش عمرا طويلا خصوصا إذا أعيد بريها « أى إصلاحها » من وقت لآخر . ثم جاء القلم الحبر معبرا عن تقدم تكنولوجى هام لإمكانية حمله والتنقل به ، بالإضافة إلى أنه كان يحمل مداده بداخله،مما أعطاه مجالا أوسع فى الاستخدام . ثم جاء اختراع القلم الجاف ليعزز هذا التقدم وينميه . فالقلم الجديد لا يحمل مداده بداخله فحسب ، ولكنه من الرخص بحيث يمكن أن يرمى بعد أن يفرغ مداده ، فكان بذلك أول وحدة تضم القلم والحبر قابلة للرمى – أي استبدالية – تخرج إلى الوجود .

ولكننا مع ذلك لم نتخط بعد موقفنا السيكلوجى الملازم للندرة . وهكذا نجد أنه مازال هناك الكثيرون ممن ينتابهم شعور بالذنب ندما عندما يلقون بقلم جاف مستهلك ، الأمر الذى حدا بالشركات المنتجة للأقلام الجافة أن تدفع إلى السوق بأقلام جافة صنعت على أساس من أسلوب التضمينية ، أى أقلام يمكن للمستهلك الاحتفاظ بإطارها الخارجى بعد إلقاء « خرطوشة » الحبر الفارغة،وإحلال « خرطوشة جديدة محلها » أو بعبارة أخرى الإبقاء على القلم ككل على حساب الجزء الداخلى منه .

ومع ذلك فأجزاء الأشياء أكثر من كلياتها عددا . وسواء كان المستخدم يغير من وضع هذه الأجزاء ليحصل من ذلك على أشياء جديدة ، أو كان يلقى بهذه الأشياء بعد استعمالها،فالنتيجة فى كلتا الحالتين هى التزايد السريع فى عدد الأشياء التى يستهلكها الإنسان خلال حياته . وهذا يعنى أن هناك اضمحلالا مستمرا فى دوامية علاقة الإنسان بالأشياء . والنتيجة المحصلة فى النهاية هى حالة جديدة من الانسيابية والحركية والزوال .

ولعل من أكثر النماذج تمثلا لمبدأ التضمينية هو ذلك المشروع الذى اشترك فى وضعه كل من : جوان ليتلوود المنتجة المسرحية الإنجليزية

ومهندس الإنشاءات فرانك نيوبى ، والمستشار جوردون باسيك والمهندس المعمارى سيدريك بريس مصمم الجامعة المتنقلة .

فقد أبدت مس ليتلوود رغبتها فى بناء مسرح يتوافر فيه أقصى حد ممكن من تعدد الاستخدامات بحيث تستطيع أن تقدم فيه أى شئ ابتداء من مسرحية عادية إلى مؤتمر سياسى . ومن استعراض راقص إلى مباراة فى المصارعة . وفى نفس الوقت إذا أمكن - كما قال الناقد راينر بانهام - لقد أرادت شيئا يشبه « منطقة لجميع الاحتمالات » . وكانت النتيجة تصميما مدهشا لـ « قصر الملاهى » الذى أطلق عليه أيضا صفة «أول بناء عملاق متغير المساحات فى العالم » . فهو ليس تصميما لمبنى متعدد الأغراض ، وإنما أكبر من ذلك بكثير . إنه عبارة عن مجموعة ضخمة من الأجزاء المتحركة التى يمكن أن تجمع فى عدد يكاد يكون لا نهائيا من الأشكال . فهو يتكون من مجموعة من الأبراج الرأسية الثابتة والمؤقتة تحتوى على الخدمات المختلفة كدورات المياه ، ووحدات التحكم الإلكترونى ، تعلوها مجموعة من الروافع القنطرية المتحركة التى ترفع الأجزاء المختلفة لتجمعها فى أى شكل مطلوب والتى تستطيع فى نهاية كل سهرة أن تفك كل ما ركب من مسارح وأبهاء « صالات » عرض ومطاعم وغيرها لتعيد أجزاءها إلى المخازن .

وإليك وصف الناقد راينر بانهام لهذا المشروع : « يوما بعد يوم سوف تحرك هذه الآلة المستقبلية العملاقة أجزاءها المتحركة وتعيد ترتيبها : الجدران ، والسقوف ، والمنحدرات ، والممرات ، والسلالم المتحركة ، المقاعد ومسارح العرض ، وشاشات السينما ، وأجهزة الإضاءة والصوت ، فى حين يتسكع الجمهور فى الممرات وعلى السلالم الظاهرة ، ولكن بمجرد الضغط على الأزرار سيتم كل المطلوب تلقائيا » .

وعندما يتم ذلك (وكل الدلائل تشير ، إلى أنه سيتم حتما فى القريب) فسيكون بمثابة دفعة قوية للادوامية . فلن تكون هناك قاعات داخلية تذكارية دائمة تطل فيها تماثيل وصور الأبطال من عليائها على الأجيال

المتعاقبة ، حيث سيكون الجزء الوحيد الباقى ظاهريا من قصر الملاهى هو الإطار — الذى ستتعلق به « الأبنية الزوالية » .

إن أنصار فن العمارة الجديدة الذى أصبح معروفا باسم « عمارة التعشيق » و « التثبيت » وضعوا تصميما لمدن كاملة مبنية على أساس من فكرة « العمارة الزوالية »،وهى نفس فكرة « قصر الملاهى » موسعة ، وقد اقترحوا بناء أشكال مختلفة من الأجزاء التضمينية ذات دواميات متفاوتة ، كأن يبنى هيكل البناية ليعيش خمسة وعشرين عاما ، فى حين تكون أجزاء الحجرات داخل نفس البناية مصنوعة لتدوم ثلاث سنوات فقط ، بل إنهم شطحوا بخيالهم لأبعد من هذا بكثير ليتصوروا عمارات متحركة ، أى ليست مشيدة على أساسات ثابتة وإنما على نوع من « التأثيرات» الأرضية « ماكينات أو حوامات هوائية » . وكان آخر ما وصلت إليه تصوراتهم هو تكوين عمرانى ضخم متحرر من المواقع الثابتة . دعائم على مخدة هوائية هائلة مولدة باستخدام الطاقة الذرية يتغير تقسيمه الداخلى بأسرع مما يتغير به شكل مدينة نيويورك حاليا .

وسواء تحققت هذه التخيلات أم لم تتحقق كاملة ، فإن الحقيقة الثابتة هى أن المجتمع يتحرك فى هذا الاتجاه : انتشار ثقافة التخلص من الأشياء ، والتوسع فى ابتكار الأبنية غير الدائمة ، والانتشار السريع للتضمينية . وكلها تقود إلى نفس الغاية السيكلوجية : توهين عرى الروابط بين الإنسان وما يحيط به من الأشياء .

الثورة الايجابيـــة

ثمة تطور آخر يدلل بقوة على وهن الصلة التى تربط الإنسان بالأشياء ، ونعنى به الثورة الإيجارية التى أصبحت من السمات البارزة للمجتمعات المندفعة نحو عصر ما فوق التصنيع . قد تبدو الصلة بين عربات هرتز والمناشف الورق : « وقصر الملاهى » غامضة للوهلة الأولى ، ولكن النظرة الفاحصة فى أعماقنا ستكشف لنا عن ظواهر قوية تؤكد الصبغة الزوالية لمجتمعنا .وإحدى هذه الظواهر هى الانتشار المتصاعد للإيجارية .

فنى خلال الأزمة الكبرى عندما كان الملايين بلا عمل ولا بيوت كانت الرغبة فى امتلاك منزل خاص من أقوى الدوافع الاقتصادية فى المجتمعات الرأسمالية ، وما زالت هذه الرغبة قوية بشكل ملحوظ فى الولايات المتحدة . ولكن منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بدأت ترتفع بشكل واضح نسبة المساكن المبنية بغرض التأجير . وفيما بين سنة ١٩٥٥ وسنة ١٩٦١ ارتفعت نسبة الشقق فى المبانى الجديدة من ٨٪ إلى ٢٤٪ وفى سنة ١٩٦٩ ولأول مرة فى تاريخ الولايات المتحدة ، تعدت نسبة تراخيص البناء الخاصة بالعمارات نسبة تراخيص بناء المنازل الخاصة . إن المعيشة فى شقة ولأسباب متعددة ، هى معيشة الوافد ، وخاصة بين الشباب الذين – حسب قول البروفسور برنهام كيلى من جامعة ميتشجان – لا يرغبون إلا فى أقل القليل من الارتباط بمسكن ما .

وأقل القليل من الارتباط هو بالضبط ما يحصل عليه مستخدم السلع القصيرة العمر لقاء نقوده ، وهو أيضا الدافع وراء المبانى المؤقتة والمضمنة – والارتباط بشقة مؤجرة هو بطبيعته أقصر من الارتباط بمنزل خاص ، وإن الاتجاه إلى الإيجارية هو فى الحقيقة أحد روافد الاتجاه العام إلى تقصير مدى العلاقة بين الإنسان وبيئته المادية .

والأروع من هذا أن ظاهرة الإيجارية بدأت مؤخرا تغزو ميادين لم تكن معروفة فيها من قبل . لقد كتب دافيد ويزمان يقول : « إن الناس عادة ما يكونون مشغوفين بسياراتهم . وفى جميع المقابلات ، كان يبدو واضحا أنهم يحبون أن يتحدثوا عنها . ولكنى وجدت من النادر أن يستمر

---

* يجب أن نلاحظ هنا أن الملايين من « ملاك » المنازل الخاصة بالولايات المتحدة الذين اشتروا منازلهم بعد دفع عشرة فى المائة أو أقل ، ليسوا فى الحقيقة أكثر من وكلاء للبنوك وغيرها من الشركات المقرضة . فبالنسبة لهذه الأسر ، لا فارق بين القسط الشهرى الذى يدفعونه للبنوك والإيجار الذى يدفعه المستأجر للمالك . فهم فى الواقع ملاك على سبيل المجاز . ولما كانت ملكيتهم لا تتضمن فى الحقيقة أى حافز مالى قوى ، فإنهم فى الغالب يفتقرون إلى ذلك الرابط النفسى الذى يربط بين الإنسان وما يملك .

هذا الشغف بسيارة بعينها لمدة طويلة » . وينعكس هذا فى حقيقة أن متوسط احتفاظ مالك السيارة الأمريكى بسيارته لا يزيد على ثلاث سنوات ونصف سنة ، وبينهم نسبة كبيرة ممن يستبدلون سياراتهم كل سنة أو سنتين ، وهذا هو السبب فى أن حجم تجارة السيارات المستعملة فى الولايات المتحدة قد بلغ عشرين بليون دولار . ولقد كانت الشركات المنتجة للسيارات نفسها هى التى حطمت النظرية التقليدية التى تقول بأن شراء شئ مرتفع الثمن يعنى الارتباط الدائم به . فتغيير « الموديلات » كل سنة ، وحملة الإعلانات القوية وإغراء الشركات لحائزى الموديلات القديمة ، باستبدالها بالجديدة مع دفع الفرق . كل هذا جعل شراء سيارة (سواء جديدة أو مستعملة) حادثاً كثير التكرار فى حياة الرجل الأمريكى . وكانت النتيجة هى التقاصر المستمر فى العلاقة بينه وبين أى سيارة بعينها .

ولكن فى السنوات الأخيرة برزت ظاهرة مثيرة صارت تتحدى كثيراً من أعمق الأنماط استقراراً فى صناعة السيارات . تلك هى صناعة تأجير السيارات . واليوم يفضل ملايين من سكان الولايات المتحدة أن يؤجروا السيارات بدلا من أن يشتروها . وتتراوح مدة الإيجار بين بضع ساعات وعدة أشهر . وتبدو هذه الظاهرة أوضح ما تكون فى نيويورك حيث تفاقمت مشكلة أماكن انتظار السيارات مما جعل الكثيرين يقتصرون على تأجير سيارة لرحلة العطلة الأسبوعية أو حتى للانتقال داخل المدينة ، إذا لم تتيسر وسيلة مواصلات عامة . واليوم فى الولايات المتحدة تستطيع أن أن تؤجر سيارة فى أى مطار أو محطة سكة حديد ، أو فندق .

بل أكثر من هذا ، أن الأمريكيين قد نقلوا عادة تأجير السيارات إلى ما وراء البحار ، ففى كل سنة يستأجر حوالى نصف مليون منهم سيارات فى أثناء وجودهم بالخارج ، وينتظر أن يصل هذا الرقم سنة ١٩٧٥ إلى مليون . وقد بدأت الشركات الأمريكية لتأجير السيارات ، والتى امتد نشاطها إلى خمسين دولة ، بدأت تواجه المنافسة الأجنبية ، فقد أخذ الأوروبيون يحذون حذو الأمريكيين فى هذا المجال ، ويعكس الإحساس بانتشار هذه الظاهرة فى أوروبا ذلك « الكاريكاتير » الذى نشرته مجلة « بارى ماتش »

الفرنسية ، والذى يمثل مخلوقاً من الفضاء الخارجى واقفاً بجانب طبقه الطائر وهو يسأل أحد رجال الشرطة أين يجد سيارة للإيجار ؟ ؟

ولقد صاحب انتشار ظاهرة تأجير السيارات فى الولايات المتحدة ظاهرة إيجارية أخرى ، وهى انتشار المحلات التى لا تبيع شيئاً ، وإنما كل ما فيها للإيجار . وقد وصل عدد هذه المحلات فى الوقت الحالى إلى تسعة آلاف محل ، وبلغ حجم التعامل بالإيجار فيها بليون دولار فى السنة ، مع ارتفاع مستمر بنسبة من ١٠ إلى ٢٠ ٪ سنويا . ونصف هذه المحلات أنشئ خلال السنوات الخمس الأخيرة فقط . واليوم لا تكاد توجد سلعة لا يمكن استئجارها ؛ من السلالم ، ومعدات قص الحشائش ، إلى فراء المنك ، ورسوم رووالت الأصلية .

وفى لوس انجليس تؤجر بعض هذه المحلات الأشجار والشجيرات الحية لشركات الإسكان لاستخدامها فى نماذج البيوت التى تعرضها للمشترين . ولقد رأيت سيارة نقل تسير فى شوارع سان فرانسيسكو وقد كتبت على جانبها العبارة التالية : « التجميل بالنباتات..استأجر نباتاتٌ حية » . وفى فيلاديلفيا يستطيع الإنسان أن يؤجر حتى القمصان . وفى مدن أخرى يستأجر الأمريكيون : الفساتين ، والعصى ، والمجوهرات ، وأجهزة التليفزيون ، ومعدات المعسكرات ، وأجهزة التكييف ، والمقاعد ذات العجلات ، وأغطية الفرش ، « البياضات» ، وأحذية التزحلق على الجليد ، وأجهزة التسجيل ، وسيفونات الشمبانيا ، والفضيات . وقد استأجر أحد نوادى الشاطئ الغربى هيكلا عظمياً لإنسان لاستخدامه فى مظاهرة . بل لقد ظهر إعلان فى صحيفة « وال ستريت جورنال » يحث القارئ على أن « يستأجر بقرة » ! !

منذ وقت قريب نشرت المجلة النسائية السويدية سلسلة من خمس حلقات عن الحياة سنة ١٩٨٥ ، تنبأت فيه بأن الأثاث سيكون حينئذ إما مبيتاً داخل جدران الشقق يبرز منها عند الحاجة إلى استعماله بالضغط على الأزرار ، أو سيكون مؤجراً بالكامل .

ولكن المتعجلين من الأمريكيين لم ينتظروا سنة ١٩٨٥ . والواقع أن انتشار ظاهرة تأجير الأثاث يعتبر من أبرز ملامح الثورة الإيجارية فى الولايات المتحدة . وهناك شركات تؤجر أثاث شقة صغيرة كاملا حتى منافض السجاير بمبلغ يتراوح بين عشرين وخمسين دولاراً فى الشهر . لقد صورت مضيفة طيران هذه الظاهرة بقولها : « إنك تصل إلى المدينة فى الصباح،وقبل أن يحل المساء تكون لديك شقة لا ينقصها أى شئ من حاجات المعيشة ». أما الموظف الكندى الذى نقل إلى نيويورك فقد علق على هذه الظاهرة قائلا : « إنه حقاً شئ جديد ورائع ، فلم أعد أحمل هم نقل أثاث منزلى حيثما انتقلت » .

لقد كتب وليم جيمس ذات مرة يقول : « إن الحياة المبنية على الملكية أقل تحرراً من الحياة المبنية على الفعل أو الكينونة » . وانتشار الإيجارية هو فى الواقع خطوة واسعة فى الابتعاد بالحياة عن الملكية واقترابها أكثر من الفعل والكينونة . ومادام إنسان المستقبل سيعيش حياة أسرع من إنسان الحاضر فطبيعى أن يكون أكثر خفة ومرونة . إنه أشبه بعداء يقطع أرضاً غير مستوية ، ومن ثم فإنه لن يستطيع تجاوز ما يعترضه من عقبات إذا كان محملا بأثقال من الممتلكات . إنه يريد أن يستمتع بكل ما تقدمه التكنولوجيا الحديثة دون التحمل بما يفرضه التملك من أعباء إنه يدرك أن قدرته على البقاء وسط ريب التغير تتوقف إلى حد كبير على التخفف من الأثقال التى تقيد حركته .

وأياً كانت التأثيرات المترتبة على اتساع نطاق الإيجارية — وهى كثيرة — فالذى يعنينا هنا بوجه خاص أنها تمثل أحد العوامل الهامة فى اختزال علاقة الإنسان بالأشياء التى يستعملها ، ويمكن أن تتضح لنا هذه الحقيقة بجلاء من واقع الإجابة على هذا السؤال : كم عدد السيارات التى تمر بحيازة كل من مالك ومستأجر للسيارة الأمريكى طوال حياته ؟ والجواب أن هذا العدد بالنسبة للمالك يتراوح بين ٢٠ و ٥٠ سيارة ، على حين يرتفع بالنسبة للمستأجر إلى ما يقرب من ٢٠٠ أو أكثر . ومعنى هذا أن علاقة المستأجر بسيارة معينة تدوم أقل بكثير من علاقة المشترى .

إن انتشار الإيجارية معناه بعبارة أخرى مضاعفة عدد الأشخاص الذين يتعاقبون على حيازة الشئ الواحد . وبتطبيق هذه القاعدة على عدد كبير من المنتجات يتضح لنا أن انتشار الإيجارية يوازى ويعزز من ظواهر الزوالية الأخرى التى سبق أن عرضنا لها فى مجال علاقة الإنسان بالأشياء .

احتياجات مؤقتة

من المهم هنا أن نقف لحظة إزاء فكرة التقادم ، فالخوف من تقادم المنتج هو الذى يدفع بالمنتجين إلى التجديد المستمر ، كما يدفع بالمستهلك إلى استخدام المنتجات القصيرة العمر أو إلى الإيجار . وفكرة التقادم ذاتها تسبب إزعاجاً كبيراً لأولئك الذين تربوا على النظرة إلى الدوام والثبات كمثال ، وهى بالتأكيد أكثر إزعاجاً عندما يعتقد بأنها شئ مخطط ومقصود . ولقد ثار مؤخرا الكثير من النقد الاجتماعى الموجه إلى التقادم المخطط بشكل قد يدفع بالقارئ غير الحذر إلى الاعتقاد بأن ذلك التقادم المخطط هو السبب الرئيسى أو الوحيد وراء الاتجاه إلى اختزال دوامية العلاقة بين الإنسان والأشياء .

ومما لاشك فيه أن بعض المنتجين يتجهون عمداً إلى تقصير العمر الاستخدامى لمنتجاتهم كضمان لاستمرار مبيعاتهم . وأيضاً لا مجال للشك فى أن كثيراً من التغييرات السنوية للموديلات التى ألفها المستهلكون الأمريكيون أو غيرهم لا تتضمن أى تطورات تكنولوجية هامة . فالموديلات الحالية من السيارات الأمريكية لا تحقق أى وفر فى الوقود مما كانت عليه منذ عشر سنوات . وشركات البترول بالرغم من كل الدعاية الضخمة عن الإضافات الجديدة لا تزال تضع فى خزانات الوقود شيئاً أقرب إلى السلحفاة منه إلى النمر . وأكثر من هذا فإن السمة البارزة لدعايات وكالات الإعلان بشارع ماديسون هى المبالغة فى مزايا الموديلات الجديدة ، فى محاولة مستميتة لحمل المستهلك على نبذ ما يحتازه من سلع ، وشراء السلع الجديدة .

ومن ثم فإن المستهلك ، حقيقة ، يجد نفسه فى بعض الأحيان وقد وقع فى أسر فخ نصب له بدقة وإحكام — بين سلعة قديمة قصد منتجوها عن عمد

إلى تقصير عمرها ، وسلعة جديدة تبدو فى الظاهر كأنها « نموذج محسن » وتصورها الدعايات كهبة من السماء ونصر كبير للتكنولوجيا المتقدمة .

وبالرغم من ذلك فإن هذه الأسباب لا تكفى وحدها لتفسير ظاهرة الارتفاع المذهل فى معدل تداول المنتجات فى حياتنا . فالتقادم السريع جزء لا يتجزأ من عملية التسارع التى تكتنف حياة المجتمع ككل . تلك العملية الناتجة عن التقدم العلمى والسرعة المتزايدة فى اكتساب المعرفة . ومثل هذه العملية التاريخية لا يعقل أن نعزوها إلى تخطيط قلة من « الدلالين » المعاصرين .

والواضح أن التقادم يحدث نتيجة للتخطيط وبدونه أيضاً ؛ فبالنسبة للأشياء يحدث التقادم فى حالات ثلاث : الحالة الأولى عندما يتدهور المنتج نفسه إلى درجة يعجز معها عن أداء وظيفته ـ كأن تحترق تحميلاته ، وتتمزق أنسجته ، وتصدأ أنابيبه ـ مع افتراض أن وظيفة هذا المنتج ما زالت لازمة للمستهلك ، فعجز المنتج عن أداء هذه الوظيفة يحدد النقطة التى يجب عندها استبداله . وهذا هو التقادم بفعل العجز عن الأداء .

وفى الحالة الثانية يحدث التقادم عندما يظهر منتج جديد يستطيع أن يؤدى هذه الوظيفة بكفاية أعلى مما يؤديها بها المنتج القديم . فالمضادات الحيوية الجديدة مثلا ، مفعولها فى الشفاء أقوى وأسرع من المضادات القديمة ، والحاسبات الإليكترونية الجديدة أسرع وأرخص فى أداء العمليات عن موديلات الستينيات العتيقة . وهذا هو التقادم بفعل التقدم التكنولوجى الجوهرى .

أما الحالة الثالثة فيحدث فيها التقادم عندما تتغير احتياجات المستهلك نفسها . عندما تتغير الوظائف المطلوب من المنتج أداؤها . هذه الاحتياجات ليست بهذه الدرجة من البساطة التى يصورها بها أحياناً منتقدو التقادم المخطط . فالشئ ، سواء أكان سيارة أم فتاحة علب ، يمكن أن « يقوم » على أساس من قياسات متعددة . فالسيارة ، على سبيل المثال ، ليست مجرد وسيلة للانتقال . إنها تعبير عن شخصية مستعملها ، ورمز لوضعيته .

ومصدر للمتعة المصاحبة للسرعة . ومنبع لعديد من المثيرات الحسية : اللمس ، والشم . والنظر . وغير ذلك . . . إن الإشباع الذى يحصل عليه المستهلك من مثل هذه العوامل التى تعتمد على قيمه ، يمكن أن يفوق ما يحصل عليه من تحسين فى استهلاك الوقود ، أو فى قوة الالتقاط .

إن الفكرة التقليدية القائلة بأن لكل شىء وظيفة واحدة محددة ، هى فكرة تتصادم مع كل ما نعرفه عن سيكولوجية الإنسان ، وعن الدور الذى تلعبه القيم فى صنع القرارات ، وأيضا مع المألوف من المفهومات عن الوظيفية ، فلكل منتج فى الواقع أكثر من وظيفة .

ولعل فى الواقعة البسيطة التى عرضت لى منذ وقت قريب ما يصور هذه الحقيقة تصويرا رائعا : فقد لاحظت صبيا صغيرا وهو يشترى نصف «دستة» من ممحاة وردية اللون من أحد مخازن الأدوات الكتابية : وقد أثار فضولى أن يشترى الصبى هذه الكمية ، دفعة واحدة ، ومن نوع واحـــد ! فسألته : « هل هذا النوع يمحو جيدا ؟ » فأجاب الصبى : « لا أعرف ولكنها ذات رائحة طيبة ! » والواقع أنها فعلا كانت مشبعة بعطر قوى ، ربما أضافه إليها المنتج اليابانى لإخفاء رائحة كيماوية كريهة . وباختصار فإن الاحتياجات التى تفى بها المنتجات — تتعدد وتختلف تبعا للمستهلك ذاته . ومع مرور الزمن .

فى مجتمع الندرة ، تكون الاحتياجات عامة وغير متغيرة نسبيا ؛ لأنها مرتبطة بالوظائف « الحيوية » . وعندما تتحقق الوفرة فإن الاحتياجات الإنسانية تصبح أقل ارتباطا بمجرد الحفاظ على البقاء وتصبح أكثر اتساما بالفردية . أما فى مجتمع لحقته تيارات التغيير السريع والمعقد ، فإن احتياجات الفرد المنبثقة من تفاعله مع البيئة الخارجية ، تتغير أيضا بسرعة أكبر نسبيا . فكلما كان التغير فى المجتمع أسرع ، أصبحت احتياجات الفرد أكثر عرضة ، وأتاحت له الوفرة العامة فى المجتمع الجديد أن يشبع الكثير من مثل هذه الرغبات العارضة .

غالبا ما يحس المستهلك برغبة خفية فى التغيير . حتى ولو لم تكن لديه

صورة واضحة عما يريد . وصناعة الإعلان تشجع هذا الإحساس وتستغله إلى أبعد الحدود . وإن كان من العسير أن نلقى عليها وحدها مسئولية خلق هذا الإحساس . فظاهرة الاتجاه إلى اختزال دوامية علاقة الإنسان بالأشياء أعمق غرسا فى بناء المجتمع من كل ما يدور من نقاش حول التقادم المخطط . وعن تأثيرات دعايات شارع ماديسون .

إن السرعة التى تتبدل بها رغبات المستهلك يمكن أن نجدها فى الخفة التى يبديها المستهلكون فى التخلص من ولائهم للمنتجات والأصناف . ولو صحت نظرية دونالد ف. تيرنر مساعد النائب العام — وهو من الناقدين البارزين للإعلان — فى أن هدف الإعلان هو خلق « اختبارات قوية التحمل » — إن صحت هذه النظرية فإن الإعلان يكون قد أخفق فى تحقيق هدفه ؛ لأن تبديل الأصناف قد صار مألوفا ومتكررا لدرجة — على حد قول إحدى شركات الصناعات الغذائية — أصبح معها من أكبر مسببات الصداع للمعلن .

لقد اختفت أصناف كثيرة من السوق ، فى حين أن الأصناف الباقية تتبادل مواقعها من نسبة إقبال المستهلكين عليها بصفة مستمرة . وطبقا لما يقرره هنرى م . شافت : « فلا يكاد يوجد بين أصناف السلع الاستهلاكية الهامة التى تحتل موقع القمة حاليا صنف واحد كان يحتل نفس الموقع منذ عشر سنوات » . وهكذا فإن من بين أصناف السجاير الأمريكية العشرة الرائدة فى سنة ١٩٦٦ احتفظت سيجارة « بول مول » وحدها بنفس الموقع الذى كان تحتله فى سنة ١٩٥٦ ، فى حين هبطت سيجارة « كامل » من ١٨٪ إلى ٩٪ ، وسيجارة « لكى ستريك » — من ١٤٪ إلى ٦٪ وفى نفس الوقت ارتفع توزيع أصناف أخرى : فمثلا صعدت سيجارة « سالم » من ١٪ إلى ٩٪ وبالقطع فقد طرأت تغييرات جديدة منذ عملت هذه الدراسة .

ومهما تضاءلت دلالات هذه التبدلات من وجهة نظر المؤرخ : فإن استمرار هذه التبدلات التى تتأثر حقا بالإعلان ، ولكن ليس به وحده ، يدخل إلى حياة الفرد اليومية نوعا من الدينامية المبهرة . إنه يزيد من الإحساس بسرعة ، واهتياج وعدم ثبات المجتمع .

ماكينة التقاليع

إن التبدل السريع فى الاختبارات النابع من التغيرات التكنولوجية السريعة والمتفاعل معها فى نفس الوقت ، لا يؤدى فقط إلى التغير المتكرر فى أفضلية المنتجات والأصناف ، وإنما أيضاً إلى اختزال عمر هذه المنتجات . إن چون ديبولد خبير الاتوميشن ، لا يمل من دعوة رجال الأعمال إلى ضرورة التفكير فى جعل منتجاتهم أقل عمرا . إن بعض المنتجات مثل نقط علاج السعال «سميث برووزرز» وبودرة الخبيز «كالوميت» وصابون «ايفورى» قد أصبحت نوعا من المؤسسات الأمريكية بحكم سيادتها الطويلة المدى للسوق ، ولكن فى السنوات القليلة المقبلة سيصبح من النادر أن يتمتع أى منتج بمثل هذا البقاء . لقد مر كل مستهلك أمريكى بتجربة الذهاب إلى مخزن البقالة ليشترى صنفا معينا فلا يجده . وفى عام ١٩٦٦ وحده عرفت محلات البقالة سبعة آلاف منتج جديد . و ٥٥٪ من الأصناف التى تباع فى هذه المحلات حاليا لم يكن لها وجود منذ عشر سنوات وقد اختفت نهائيا ٤٢٪ من الأصناف التى كانت موجودة فى ذلك الحين . وفى كل عام تكرر العملية نفسها بعنف أكبر . فقد شهد عام ١٩٦٨ : ٩,٥٠٠ صنف جديد فى ميدان السلع الاستهلاكية المغلفة وحدها . لم يحقق سوى واحد من بين كل خمسة منها هدف مبيعاته . إن هناك نوعا من التآكل الصامت والسريع فى نفس الوقت يفترس المنتجات القديمة ، فى حين تتدفق المنتجات الجديدة على السوق كالطوفان .

لقد كتب الاقتصادى روبرت ثيوبالد يقول : « لم يتبق من المنتجات التى عمرت فى السوق لأكثر من خمس وعشرين سنة سوى خمسة منتجات فقط . على حين أنه فى مجال صناعة الأدوية والاليكترونات فإن بعض المنتجات لا تعمر لأكثر من ستة أشهر » ومع تسارع التغيير فلم يعد من المستبعد أن تدفع الشركات المنتجة إلى السوق بمنتجات تعرف مقدما أن بقاءها لن يتجاوز بضعة أسابيع .

وهنا أيضا يمدنا الحاضر ، ومن حيث لا نتوقع ، بباكورة من بواكير المستقبل . . وتتمثل هذه الباكورة فى موجة البدع التى اجتاحت المجتمعات

المتقدمة تكنولوجيا فى السنين الأخيرة. فى الولايات المتحدة وغرب أوروبا واليابان ، شهدنا ذلك الارتفاع والسقوط السريع لـ « تسريحة باردو » و « موضة كليوباترا » وجيمس بوند ، وباتمان ، وناهيك عن « أباجورات» تيفانى ، وكرات السوبربول .. والصلبان الحديدية ، ونظارات البوب الشمسية . « والأزرار والأنواط التى تحمل شعارات الاحتجاج والملصقات التى تحمل صور الين جينسبرج وهمفرى بوجارت ، والأهداب « الرموش » الصناعية ، وعدد آخر لا يحصى من مثل هذه البدع التى تعكس التغير السريع لثقافة البوب .

وبفضل وسائل الإعلام والتسويق المحنك أصبحت مثل هذه البدع تظهر فى حياتنا بين يوم وليلة وتختفى أيضا بنفس السرعة . والعاملون فى هذا الميدان يعدون مقدما لتقديم منتجات قصيرة العمر . فمثلا هناك شركة فى سان جابرييل بكاليفورنيا هى شركة (هوام - أو) الصناعية ، وهى شركة متخصصة فى إنتاج البدع . فهى التى قدمت الهولاهوب فى الخمسينيات ، ثم ، من وقت غير بعيد ، كرات السوبربول . والأخير عبارة عن كرة من المطاط عالية المرونة ، سرعان ما صارت مألوفة لدى الكبار والصغار على حد سواء لدرجة أذهلت الزائرين الذين شاهدوا الكثيرين منهم وهم يلعبون بهذه الكرة فى ساحة بورصة شاطئ الباسفيك للأوراق المالية ، كما أصبحت من بين الهدايا التى يبعث بها المديرون بوال ستريت إلى أصدقائهم . ولقد اشتكى مرة مسئول كبير فى إحدى شركات الإذاعة من أن كل مديريه قد خرجوا إلى القاعة ليلعبوا بهذه الكرة . وشركة هوام - أو وغيرها من الشركات المماثلة - لا يصيبها الجزع لما يصيب منتجاتها من موت مفاجئ ، فذلك ما كانت تتوقعه سلفا ، فهم أخصائيون فى إنتاج الأشياء القصيرة العمر .

وكون هذه البدع تتوالد إلى حد كبير ، بطرق مفتعلة ، لا ينفى دلالتها ؛ فالبدع المفتعلة ليست جديدة على التاريخ . وإنما الذى لم يحدث من قبل هو هذه السرعة الرهيبة التى أخذت تزحف بها على وعى الناس وتنتشر بينهم

انتشار النار فى الهشيم . كما لم يحدث من قبل مثل هذا التحالف المنسجم بين مبتكرى البدع وأجهزة الإعلام التى تروج لها ، والشركات التى تبادر إلى استغلالها الفورى .

لقد أصبحت صناعة خلق البدع والعمل على انتشارها جزءاً لا يتجزأ من اقتصاديات المجتمع الحديث ، وستتبنى وسائلها صناعات أخرى تدرك حتمية الاختزال المستمر فى عمر المنتجات . وشيئا فشيئا سيتلاشى الفرق بين المنتج العادى والبدعة . إننا نسير فى اتجاه عصر المنتج المؤقت بوسائل مؤقتة لخدمة احتياجات مؤقتة .

وهكذا تتزايد حركة الأشياء فى حياتنا بتسارع مسعور . ونواجه بفيضان متصاعد من الأصناف القصيرة العمر ، والمبانى غير الثابتة ، والمنتجات المتغيرة والمتضمنة والسلع المؤجرة وسلع مصممة لتموت فور استعمالها . ومن كل هذه الاتجاهات تأتى الضغوط التى تؤدى إلى نفس الغاية : التوهين الذى لا مفر منه للصلة بين الإنسان والأشياء .

ومع ذلك فإن اختزال روابطنا بالبيئة المادية وتزايد حركة الأشياء ، لا يمثلان سوى جزء ضئيل من محيط أكبر . فهلم بنا نخط خطوة أخرى نحو استكشاف الحياة فى مجتمع الزوال .

الفصل الخامس

الأمكنة : البدو الجدد

فى الساعة الرابعة والنصف من بعد ظهر كل يوم جمعة ، يتناول بروس روب — وهو رجل مديد القامة ، أشيب الشعر ، يعمل مديراً بوال ستريت — يتناول حقيبة أوراقه الجلدية السوداء ويدس بها كمية من الأوراق ، ويأخذ معطفه المعلق على المشجب خارج المكتب ، ثم يبدأ رحلته طبقا لنفس الروتين الذى استمر لأكثر من ثلاث سنوات ونصف سنة . فأولا يستقل المصعد من الطابق التاسع والعشرين إلى الطابق الأرضى ، ثم يسير فى الشوارع المزدحمة لمدة عشر دقائق يصل بعدها إلى مطار وال ستريت للهليوكوبتر ، حيث يستقل إحدى طائرات الهليوكوبتر التى تهبط به بعد ثمانى دقائق فى مطار جون . ف . كنيدى ، وهناك ينتقل إلى إحدى نفاثات شركة الخطوط الجوية العالمية حيث يجلس لتناول عشائه، فى حين أن الطائرة الضخمة تشق الهواء بسرعة فى اتجاه الغرب . وبعد ساعة وعشر دقائق يغادر المستر روب مطار كولومبس بولاية أوهيو حيث يجد سيارة فى انتظاره. وبعد ثلاثين دقيقة أخرى يصل المستر روب إلى غايته .. إلى منزله .

والمستر روب يقضى أربع ليال من كل أسبوع فى أحد فنادق مانهاتن ، أما الليالى الثلاث الباقيات فيمضيها مع زوجته وأولاده فى كولومبس على بعد خمسمائة ميل . وهكذا يجمع بين ميزة العمل فى نيويورك ، حيث مركز النشاط المالى الصاخب لأمريكا ، وبين السكن فى وسط غرب أمريكا، حيث يتوافر الهدوء النسبى ، ويقطع فى الذهاب والإياب بين سكنه وعمله ٥٠,٠٠٠ ميل سنويا .

وحالة روب ليست عادية ولكنها ليست شاذة ؛ فملاك المزارع الذين يقطنون ساحل الباسيفيك ، أو وادى سان بيرناردينو ، يطيرون كل صباح لمسافة ١٢٠ ميلا لزيارة مزارعهم فى وادى امبريال ومثلها فى العودة إلى

منازلهم . وثمة صبى ، ابن مهندس فى بنسيلفانيا ، يطير بانتظام لعيادة أخصائى تقويم أسنان فى مدينة فرانكفورت بألمانيا . والدكتور ريتشارد ماكوين ، أستاذ الفلسفة بجامعة شيكاغو يقطع كل أسبوع ، وعلى امتداد نصف السنة الدراسية ألف ميل ، ومثلها فى العودة ، ليلقى محاضرات فى مدرسة البحوث الاجتماعية الجديدة فى نيويورك . وثمة شاب من سان فرنسيسكو يتناوب كل أسبوع مع صديقته فى هونولولو قطع الرحلة البالغ طولها ٢٠٠٠ ميل ليرى كل منهما الآخر . بل هناك سيدات يقطن فى نيوانجلند ويتعاملن مع حلاقين فى نيويورك .

مثل هذا الاستخفاف بالمسافات لم يسبق له نظير فى التاريخ . كما لم يحدث من قبل أن كانت علاقات الإنسان بالمكان بمثل ما هى عليه الآن من تعدد ، ووهن ، وزوال . فى كل المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا – وخاصة بين من نعتناهم بأنهم يمثلون « إنسان المستقبل » – أصبح التنقل والانتقال بأسرهم من مكان لمكان بمثابة طبيعة ثانية ، أى إننا – بمعنى ما « نستهلك » الأمكنة ونستبدلها بأسلوب يشبه استهلاكنا للمناشف بالورق وعلب البيرة . إننا نشهد فى الواقع اضمحلالا تاريخيا لقيمة المكان فى حياة الإنسان ، إننا نربى سلالة جديدة من البدو ، وقليلون هم الذين يعنون تماما مدى ما وصل إليه ترحالهم من ضخامة وانتشار ، وما يحمله ذلك من دلالات :

نادى ثلاثة الملايين ميل

طبقا لتقديرات بكمنستر فوللر ، كان الأمريكى فى سنة ١٩١٤ يقطع فى أسفاره ما متوسطه حوالى ١,٦٤٠ ميلا فى السنة ، منها ما يقرب من ١,٣٠٠ ميل فى تنقلاته اليومية بين العمل والمنزل والسوق . أى إنه لم يكن يقطع فى السفر الفعلى أكثر من ٣٤٠ ميلا فى السنة ، سواء على ظهور الخيل ، أو بوسائل النقل الميكانيكية . فإذا ما أخذنا المتوسط العام ١,٦٤٠ ميلا ، كقاعدة ، فمعنى هذا أن متوسط ما كان يقطعه الفرد الأمريكى طوال حياته هو ٨٨,٥٦٠ ميلا . أما الآن فإن مالك السيارة الأمريكى يقطع ١٠,٠٠٠ ميل فى السنة ، ثم إنه يعيش أطول مما عاش أبوه أو جده . لقد كتب فوللر يقول :

« إنني .. وقد بلغت التاسعة والستين ، أنتمي إلى طبقة من البشر تضم الملايين ممن غطوا فى أسفارهم مسافة ٣,٠٠٠,٠٠٠ ميل فأكثر . أى أكثر من ثلاثين مثل ماكان يقطعه الأمريكى طول حياته سنة ١٩١٤ » .

إن الأرقام التى تقدمها إلينا الإحصاءات فى هذا المجال مذهلة حقا . فنى سنة ١٩٦٧ على سبيل المثال ، بلغ عدد الأمريكيين الذين قاموا برحلات تزيد على مائة ميل ، وتتضمن إقامة ليلة فأكثر ١٠٨,٠٠٠,٠٠٠ ، وبلغ الطول الكلى لمجموع هذه الرحلات ٣١٢,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ ميل — راكب .

وحتى إذا أغفلنا إدخال أساطيل طائرات « الجامبو » النفاثة ، والمركبات والعربات والقطارات والطرق الفرعية وما إليها ، فإن استثمارات الأمريكيين الاجتماعية فى مجال الانتقال تبدو مدهشة . فنى خلال العشرين السنة الماضية بلغ متوسط طول الطرق والشوارع المرصوفة جديدا فى الولايات المتحدة ٢٠٠ ميل يوميا ، أى بمعدل ٧٥,٠٠٠ ميل سنويا ، وهى مسافة كافية للإحاطة بالكرة الأرضية ثلاث مرات . لقد بلغت نسبة الزيادة فى الطرق والشوارع المرصوفة خلال هذه السنوات العشرين ١٠٠٪ فى حين لم تتجاوز نسبة زيادة عدد السكان فى نفس المدة ٣٨,٥٪ ، ومن ناحية أخرى فقد زاد حجم السفريات داخل الولايات المتحدة خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية بحساب الميل — راكب ، بنسبة ستة أمثال تزايد حجم السكان فى نفس المدة .

وهذا الارتفاع الثورى فى حجم التنقلات بالنسبة للفرد ليس مقصوراً على الولايات المتحدة ، بل إنه أصبح ظاهرة عامة فى كل البلاد المتقدمة . إن المشاهد لا يتمالك أن يصاب بالذهول لمرأى السيارات وهى تكاد تسد شارع ستراندفيج فى استكهولم ، ذلك الشارع الذى كان العهد به أنه شارع هادئ ، وفى روتردام شوارع لم يمض على إنشائها أكثر من خمس سنوات ، ومع ذلك أصبحت مزدحمة بحركة السيارات لدرجة مرعبة . لقد تضاعف عدد السيارات بمعدلات لم يكن ليتصورها خيال أى إنسان .

وبالإضافة إلى الزيادة المستمرة فى التنقلات اليومية توجد زيادة لافتة

للنظر فى رحلات الأعمال والإجازات التى تتضمن إقامة ليلة فأكثر ، وعلى سبيل المثال فإنه من المقرر أن يقضى حوالى ١,٥٠٠,٠٠٠ ألمانى إجازاتهم فى صيف هذا العام (١٩٧٠) فى أسبانيا ، بالإضافة إلى مئات ألوف أخرى سيذهبون إلى شواطئ هولندا وإيطاليا ، وتستقبل السويد سنويا أكثر من ١,٢٠٠,٠٠٠ زائر من خارج الدول الاسكندنافية ، ويزور الولايات المتحدة سنويا أكثر من مليونى أجنبى ، فى حين يصل عدد الأمريكيين المسافرين إلى الخارج حوالى ٤,٠٠٠,٠٠٠ سنويا .

هذه الحركة الدائبة للإنسان جيئة وذهابا عبر سطح الأرض (وأحيانا تحت هذا السطح) هى من الملامح المميزة لمجتمعات ما فوق التصنيع . وبالمقارنة مع الدول المتخلفة صناعيا تبدو شعوب هذه الأخيرة وكأنها ملتصقة بالأرض لا تكاد تتحرك . ولا عجب أن نجد خبير النقل ويلفريد اوين يتحدث عن « الهوة بين الأمم المتحركة والأمم غير المتحركة » ، وهو يقدر احتياجات دول آسيا وأفريقيا ، وأمريكا اللاتينية لتصل إلى المعدل الحالى لمجتمع أوروبا الصناعى بحوالى ٤٠,٠٠٠,٠٠٠ ميل من الطرق المرصوفة . إن لمثل هذه المقابلة إلى جانب ما تتضمنه من عوامل اقتصادية، عوامل أخرى ثقافية وسيكولوجية كثيرا ما يتجاوزها النظر . فالرحالون الجوابون الدائمو الانتقال قوم يختلفون من نواح كثيرة عن أولئك التابعين حيث هم لا يكادون يريمون .

الفلامنكو فى السويد

ربما كانت أعمق ألوان التنقل دلالة من الناحية السيكولوجية هو ذلك النوع الذى يتضمن التغيير الجغرافى للموطن . هذا النوع من الانتقال أصبح ظاهرة ملحوظة فى الولايات المتحدة وغيرها من الدول المتقدمة . فبالنسبة للولايات المتحدة يقول بيتر دراكر : « إن أعظم وأكبر حركة هجرة فى تاريخنا هى تلك التى بدأت فى أثناء الحرب العالمية الثانية وما زالت مستمرة حتى الآن » . ويصف أستاذ العلوم السياسية دانييل ايلازار أولئك الأمريكيين الذين بدأوا بالانتقال من مكان إلى مكان فى حدود نطاق المدن ..

بأنهم يتبعون فى حياتهم أسلوبا شبيها بحياة البدو الرحل مع فارق ، هو أن هؤلاء البدو الجدد ينتقلون من مدينة إلى مدينة .

فى مدى عام واحد من مارس ١٩٦٧ إلى مارس ١٩٦٨ بلغ عـــدد الأمريكان الذين غيروا مواطن سكنهم ٣٦,٦٠٠,٠٠٠ (لا يدخل فيهم الأطفال أقل من سنة) وهو عدد يفوق مجموع سكان كمبـــوديا وغانا وجواتيمالا . وهندوراس ، والعراق ، وإسرائيل،ومنغوليا ،ونيكارجوا ، وتونس مجتمعة . ويكفى لتصور ضخامته أن نتخيل جميع سكان هذه الدول وقد قرروا فجأة خلال عام واحد أن يغيروا مواطن مسكنهم . ومثل هذه الحركة الضخمة تحدث فى الولايات المتحدة سنويا . فمنذ سنة ١٩٤٨ حتى الآن يغير واحد من كل خمسة أمريكيين عنوانه كل عام . إنه بمنتهى البساطة يحمل أطفاله وبعض المتاع الخفيف ليبدأ الحياة فى مكان آخر جديد . إن مثل هذه الحركة تتضاءل أمامها — بالمقارنة الإحصائية — كل الهجرات الكبرى فى التاريخ،ابتداء من زحف قبائل المغول إلى الهجرة الأوروبية إلى أمريكا فى القرن التاسع عشر .

وبالرغم من أنه لا يوجد فى أى مكان آخر فى العالم نظير لحركة الانتقال الجغرافى الأمريكية فى ضخامتها ، إلا أنه حتى فى الدول المتقدمة التى عرف عن أهلهـــا تشبثهم بالتقاليد . نلاحظ أن الروابط شبه الأزلية التى كانت تربط الإنسان بالمكان قد بليت وأصابها التمزق . لقد كتبت مجلة « المجتمع الجديد » وهى مجلة لندنية للعلوم الاجتماعية تقول : « إن الإنجليز هم فى الحقيقة شعب أكثر تحركا مما يظنون . . فى سنة ١٩٦١ بلغت نسبة سكان إنجلترا وويلز الذين لم يمض على وجودهم فى مواطن إقامتهم الحالية عام كامل ١١٪ على الأقل من مجموع السكان ، وفى مناطق معينة ارتفعت نسبة الهجرة ارتفاعا محموما . . فقد وصلت نسبة السكان الذين لم يمض على إقامتهم عام كامل فى كينجستون ٢٥٪ وفى هامبستيد ٢٠٪ وفى شلسى ١٩٪ وفى نفس المجلـــة كتبت آن لابينج مقالا تقول فيه : « إن ملاك المنازل الجدد يتوقعون أن يبدلوا منازلهم أكثر مما كان يفعل آباؤهم . فقد

وصل المتوسط الحالى لمدة الرهنية على المنازل الجديدة إلى ثمان أو تسع سنوات » . والفرق بين هذا المتوسط والمتوسط الحالى فى أمريكا ضئيل جدا .

وفى فرنسا يشكل النقص الدائم فى المساكن عائقا فى سبيل تزايد التنقلات الداخلية ، وبالرغم من ذلك فقد بلغت نسبة من يغيرون مساكنهم فى كل عام من ٨ إلى ١٠ فى المائة من مجموع السكان . وفى السويد وهولندا وألمانيا وإيطاليا تتزايد أيضا باستمرار نسبة التنقلات الداخلية . وفى أوروبا كلها يتوقعون أن تصل نسبة التنقلات إلى حد لم يسبق له نظير منذ التشتت الذى أحدثته الحرب العالمية الثانية . وفى أوروبا الشمالية (فيما عدا بريطانيا) أحدث الرخاء الاقتصادى أزمة فى الأيدى العاملة اجتذبت جموعا هائلة من العمال الزراعيين من دول البحر الأبيض والشرق الأوسط للعمل فى شمال أوروبا .

إنهم يأتون بالألوف من الجزائر وإسبانيا والبرتغال ويوغوسلافيا ، وتركيا ، وفى يوم الجمعة من كل أسبوع يستقل ألف عامل تركى جديد القطار من أستانبول إلى الأرض الموعودة . وقد أصبحت ميونيخ بمثابة نقطة تجمع هائلة للعمال الأتراك ، لدرجة أنه تصدر فيها اليوم صحيفة يومية باللغة التركية . وفى مصانع فورد الضخمة بمدينة كولونيا وصل عدد العمال الأتراك إلى ربع مجموع العمال . ويعمل حالياً فى سويسرا وفرنسا وإنجلترا والدانمارك والسويد أعداد هائلة من العمال الأجانب . ومنذ وقت قريب تناولت مع زوجتى الغداء فى مطعم بمدينة بانجبورن الإنجليزية التى يرجع تاريخها إلى القرن الثانى عشر ، حيث فوجئت بأن القائمين على الخدمة بالمطعم ليسوا إنجليز ولكن من الإسبان . أما فى استوكهولم فقد زرنا مطعم فيفيل فى وسط المدينة ، الذى يعد بمثابة ملتقى للمهاجرين الاسبان الذين يحبون الاستماع إلى موسيقى الفلامنكو فى أثناء تناولهم للأطباق الاسبانية ، ولم نجد بالمطعم سويديا واحدا . وباستثناء بعض الجزائريين بالإضافة إلينا ، كان كل الحاضرين يتكلمون الإسبانية . ولم يكن غريبا بعد ما شهدنا أن نعلم بالمناقشات الحادة الدائرة بين علماء الاجتماع السويديين حول ما إذا كان من الأفضل

العمل على امتصاص جماهير العمال الأجانب إلى الثقافة السويدية أم تشجيعهم على الحفاظ على ثقافاتهم الخاصة ؟ نفس قضية « بوتقة الصهر » التى أثارت أعنف الجدل بين علماء الاجتماع فى أمريكا خلال فترة الهجرة المفتوحة إلى الولايات المتحدة .

الهجرة الى المستقبل

ولكن هناك بعض الفروق الهـامة بين نوعية الناس الذين يندفعون فى غمار حركة التنقل المحسوبة فى الولايات المتحدة وأولئك الذين أدركتهم حركة الهجرة الأوروبيـة .

فى أوروبا يرجع الجزء الأكبر من الحركة إلى عملية التحول المستمرة من الزراعة إلى الصناعة ، أى من المـاضى إلى الحاضر . ومن ثم فإن جزءاً صغيراً من هذه الحركة هو الذى يرتبط بعملية التحول من التصنيع إلى ما فوق التصنيع — أما فى الولايات المتحدة فالأمر يختلف ؛ إذ أن عملية إعادة توزيع السكان المستمرة لم تعد ترتبط فى الأساس بعملية التحول عن الزراعة إلى الصناعة ، وإنما يرجع الفضل فى نموها المتزايد إلى انتشار الأتوميشن وأسلوب الحياة الجديد لمجتمع ما فوق التصنيع — أسلوب حياة المستقبل .

ويتضح هذا بجلاء من التعرف إلى نوعيات أولئك الذين يشملهم الجزء الأكبر من هذه الحركة فى الولايات المتحدة . صحيح أن بعض الجماعات المتخلفة تكنولوجيا ، مثل سكان المدن من الزنوج ، تتميز بارتفاع فى حركة انتقالهـا الجغرافى — إلى مناطق قريبة فى الغالب — ولكن هذه الجماعات لا تمثل سوى نسبة ضئيلة جدا من مجموع السكان ، ومن الخطأ الفاحش أن نربط بين ارتفاع معدلات الإنتاج الجغرافى وبين الفقر والبطالة والجهل . فالحقيقة أن نسبة الانتقال بين أولئك الذين تلقوا سنة على الأقل من التعليم العالى أكبر بكثير منها بين أولئك الذين لم يتلقوا التعليم العالى . ومن ثم فإن المهنيين والفنيين هم أكثر فئات الأمريكيين حركة وانتقالا . كما يلاحظ التزايد المستمر فى تنقلات المديرين ذوى الكفاية . وهذه الفئات بالذات من المهنيين والفنيين والمديريين هى التى يتميز مجتمع ما فوق التصنيع

بالتزايد المستمر فى عددها المطلق ، وأيضا فى نسبتها إلى مجموع القوى العاملة . كما أن هذه الفئات هى التى تعطى مجتمع ما فوق التصنيع طابعه المميز ونكهته . تماماً مثل ما كان يفعل العمال ذوو البدل الزرقاء بالنسبة للمجتمع الصناعى .

وكما يهرب الملايين من العمال الزراعيين والمتعطلين من الماضى الزراعى إلى الحاضر الصناعى لأوروبا . فإن الألوف من العلماء والمهندسين والفنيين والأوروبيين يتدفقون على الولايات المتحدة وكندا وهما أكثر الأمم إيغالا فى عصر ما فوق التصنيع . لقد صرح البروفيسور رودولف موسباور عالم الطبيعيات الشهير فى ألمانيا الغربية والحائز على جائزة نوبل بأنه يفكر فى الهجرة إلى أمريكا لعدم رضاه عن السياسات الإدارية والتحويلية فى بلده . وينظر الوزراء الأوروبيون بعين القلق والشعور بالعجز إزاء : « الهوة التكنولوجية » الناجمة عن نشاط « متصيدى المواهب » من وكلاء شركات ويستنجهاوس واللايد كيميكالز ، ودوجلاس إير كرافت ، وجنرال ديناميكس ، وغيرها الذين ينتشرون فى العواصم والمدن الأوروبية لاقتناص كل ذوى الكفايات من علماء الفيزياء الفلكية إلى مهندسى التوربينات وإقناعهم بالهجرة للعمل فى مؤسساتهم بأمريكا .

بيد أن هناك « هجرة عقول » أخرى تتم باستمرار داخل الولايات المتحدة نفسها ، وتشمل ألوفا من العلماء والمهندسين الذين يتحركون جيئة وذهابا مثل جزيئات الذرة . بل إن هذا التحرك قد تبلور فى أنماط وأشكال أصبحت معروفة وواضحة : فهناك تياران رئيسيان ينبع أحدهما من الشمال والآخر من الجنوب ويصبان فى كاليفورنيا وغيرها من ولايات شاطئ الباسيفيك مرورا بدنفر . وتيار رئيسى آخر ينبع من الجنوب فى اتجاه شيكاغو وكيمبردج وبرنستون ولونج أيلاند ، يقابله تيار عكسى يحمل الرجال إلى صناعات الفضاء والإليكترونات فى فلوريدا .

إننى أعرف شخصياً مهندس فضاء شاباً يمكن أن يقدم لنا نموذجاً على هذه الحركة الدائبة ؛ لقد ترك عمله مؤخراً فى شركة أر.س.آ. ليعمل فى

شركة جنرال إليكتريك وباع منزله الذى لم يمض على شرائه له عامان ، وانتقل مع أسرته إلى منزل مؤجر فى ضواحى فيلادلفيا ريثما يتم بناء منزل جديد لهم هو رابع منزل لهم خلال خمس سنوات فقط . وهو نفسه ليس واثقاً من انتقاله إلى المنزل الجديد ، فاحتمال نقله أو قبوله لعمل أفضل فى مكان آخر قائم فى كل لحظة .

أما نمط الانتقال الجغرافى لرجال الإدارة فقد يكون أقل وضوحاً ، ولكن معدلاته على وجه التأكيد أكبر . منذ عشر سنوات مضت أعلن وليام هيث فى كتابه : « رجل المنظمة » « أن الرجل الذى يترك موطنه ليس استثناء فى المجتمع الأمريكى ، ولكنه فى الواقع مفتاح هذا المجتمع ، وأن رجل الإدارة هو على وجه التحديد ذلك الذى يترك موطنه ويتحرك دائماً » . لقد كان هذا التشخيص صادقاً ولا شك فى حينه ، وهو على وجه التأكيد أكثر صدقاً فى وقتنا الراهن . وفى مقال نشر بجريدة « وال ستريت جورنال » تحت عنوان : « كيف تتكيف أسرة المدير مع تحركها الدائم فى طول البلاد وعرضها » شبه الكاتب أسر المديرين بأنهم « غجر الشركات » ، ووصف حياة أسرة م.أ.جاكوبسون المدير بشركة مونتجومرى وارد التى تملك شبكة كبيرة من محلات البيع بالتجزئة ، بأن هذا المدير وزوجته — وكلاهما فى السادسة والأربعين وقت كتابة المقال — قد انتقلا ثمانياً وعشرين مرة خلال ستة وعشرين عاماً فقط من حياتهما الزوجية . وتصف الزوجة شعورها إزاء هذه الحالة بقولها : « إننى لا أحس بأننا نسكن، وإنما فقط نعسكر من مكان إلى آخر » . وقد تكون حالة المستر ومسزجاكوبسون حالة متميزة . ولكن آلافاً آخرين ينتقلون بمعدل مرة كل عامين ، وعدد هؤلاء يتضاعف بصفة مستمرة . ولا يرجع السبب فى هذه التنقلات المستمرة إلى حاجة العمل فقط ، ولكن أيضاً لأن الإدارة العليا ترى فى عملية التنقل ذاتها خطوة هامة فى تدريب موظفيها ذوى الكفاية .

مثل هذا التنقل المستمر للمديرين ، وكأنهم أحجار شطرنج بحجم الإنسان ، تتحرك على رقعة مساحتها قارة بأكملها جعلت أحد الإخصائيين

النفسيين يقترح ساخراً إنشاء نظام « الأسر الاستبدالية » توفيراً للنفقات ، وبمقتضى هذا النظام لا يترك المدير المنقول منزله فقط ، ولكن أسرته أيضاً ، على أن تهيئ له الشركة فى موقع عمله الجديد أسرة ملائمة (شخصيات مختارة بدقة لتماثل الزوجة والأطفال الذين تركهم وراءه) على أن يحل المدير الذى سيخلفه فى عمله محله فى أسرته التى تركها . ولكن يبدو أن أحداً لم يأخذ هذا الاقتراح مأخذاً جدياً حتى الآن .

وإلى جانب العدد الهائل من المهنيين والفنيين والمديرين الدائرين باستمرار فى لعبة « المنازل الموسيقية » هذه ، يوجد بالمجتمع الكثير من المجموعات الأخرى التى تتميز بالحركة المستمرة . فهناك المنشآت العسكرية التى تضم عشرات الألوف من الأسر التى لا تكف عن التنقل من موقع لآخر ، سواء فى زمن السلم أو الحرب ، مما جعل زوجة كولونيل فى الجيش تقول : « لن أشغل نفسى بتزيين أى منزل بعد الآن . فالستائر دائماً لا تصلح من منزل لآخر . والسجاجيد دائماً ليست من الحجم أو اللون المناسب . ثم تضيف ساخرة : « من الآن فصاعداً لن أزين سوى سيارتى ». كما أن عشرات الألوف من عمال الإنشاء المهرة فى حركة تنقل دائمة من مكان إلى مكان . ومن بين طلبة الكليات والمعاهد العليا فى الولايات المتحدة يوجد ما يقرب من ٧٥٠,٠٠٠ طالب يتلقون العلم بعيداً عن ولاياتهم ، إلى جانب عشرات الألوف من الآخرين يتلقون العلم فى حدود ولاياتهم ، ولكن بعيداً جداً عن مواطن سكنهم . لم يعد « البيت » بالنسبة للملايين — خصوصاً بالنسبة لهؤلاء الذين ينتمون إلى « إنسان المستقبل » — مكاناً معيناً ، ولكن أينما استطعت أن تجده .

منتحرون ، ورحالة

هذا المد المستمر لحركة الآدميين تنتج عنه كل أنواع التأثيرات الجانبية التى كثيراً مالا يلتفت إليها . فالمؤسسات التجارية التى تتعامل مع زبائنها بواسطة البريد تنفق مبالغ طائلة فى جعل قوائم عناوينها مطابقة للواقع ، ونفس الشئ بالنسبة لشركات التليفونات ، فمن بين قوائم المشتركين فى

مدينة واشنطن ، والبالغ عددهم فى دليل سنة ١٩٦٩ : ٨٨٥,٠٠٠ ، كان عنوان أكثر من نصفهم مختلفاً عما كان عليه فى العام السابق . وأيضاً فإن المنظمات والجمعيات تجد صعوبة بالغة فى معرفة مواقع أعضائها ؛ ففى خلال عام واحد تغيرت عناوين ثلث أعضاء الجمعية القومية للتعليم المبرمج ، وهى جمعية للباحثين فى مسائل التعليم . حتى الأصدقاء أصبحوا يعانون من عدم معرفتهم لعناوين أصدقائهم . إن الإنسان لا يملك إلا أن يتعاطف مع الكونت لانفرانكو راسبونى المسكين الذى يشكو مر الشكوى من أن الأسفار والتنقلات قد دمرت « المجتمع » . ويقول : « لم يعد هناك أى مواسم اجتماعية، لأنه أصبح من الصعب أن يجتمع من تريد فى نفس الزمان والمكان . فقبل ذلك كان يكفى للحصول على عشرين لحفلة عشاء أن تدعو أربعين ، أما الآن فلابد أن تدعو مائتى شخص لتضمن حضور عشرين » .

وبالرغم من هذه المتاعب فإن التخلص من سلطان المكان يفتح آفاقاً من التحرر تستهوى الملايين ممن تجتذبهم السرعة والحركة والتنقل . ويرجع هذا إلى التعلق النفسى الذى يبديه الأمريكيون والأوروبيون نحو السيارات - التجسيد التكنولوجى للحرية المكانية . إن أرنست ديشتر ، الباحث فى الدوافع السلوكية ، قد اطرح عن كاهله الكثير من الترهات الفرويدية فى الوقت المناسب ، ولكنه كان ثاقب البصيرة حقاً عندما عرف السيارة بأنها « أقوى أداة للسيادة » متاحة للرجل الغربى العادى . إنه يقول : « لقد أصبحت السيارة هى الرمز العصرى لاستهلال مرحلة جديدة فى حياة الفرد . إن رخصة القيادة بالنسبة لمن بلغ السادسة عشرة هى بمثابة جواز لقبوله فى مجتمع البالغين . ففى الأمم الغنية تتوافر لمعظم الناس حاجاتهم من المأكل والمسكن المناسبين . وهم - وقد تحقق لهم أخيراً حلم البشرية منذ آلاف السنين - يتطلعون إلى السفر والاكتشاف ، أو على الأقل التحرر البدنى ، والسيارة هى الرمز المتحرك للحركة ... » . والواقع أن السيارة أصبحت آخر شئ تفكر الأسرة فى التضحية به عندما تواجهها ضائقة مالية ، كما أصبحت أقسى عقوبة يوقعها الآباء على الأبناء المراهقين هى حرمانهم من استعمال السيارة .

إن الفتيات الأمريكيات عندما يسألن عما يعتبرنه هاماً بالنسبة للشاب يسارعن إلى إدراج السيارة ضمن المزايا التى يجب أن يتمتع بها الشاب . وفى استطلاع تم مؤخراً أصر ٦٧٪ من الفتيات اللائى شملهن الاستطلاع على أن السيارة شئ « ضرورى » ، فى حين أكد ألفريد أورانجا ، من البوكرك بولاية نيومكسيكو ، بنبرة حزينة أنه : « لا فتاة لمن ليس عنده سيارة » ! ! إن الحادث المؤسف الذى نورده هنا يصور مدى عمق مشاعر شباب اليوم تجاه السيارة : لقد انتحر وليم نيبل وهو فتى فى السابعة عشرة من ويسكونسن ، لأن والده حرمه من استعمال السيارة بعد أن سحبت منه رخصة القيادة ، لارتكابه مخالفة تجاوز السرعة . وقبل أن يفرغ الفتى رصاصة البندقية عيار ٢٢ فى رأسه كتب رسالة جاء فى نهايتها هذه العبارة : « بدون رخصة قيادة لن تكون لى سيارة ، ولا عمل ، ولا حياة اجتماعية ! ! لذا فإنى أعتقد أنه من الخير لى أن أضع حداً لحياتى الآن » . إنه من الواضح أن الملايين من شباب الدول المتقدمة تكنولوجياً يتفقون فى الرأى مع الشاعر مارينيتى فى الصيحة التى أطلقها منذ أكثر من نصف قرن قائلا : « إن سيارة السباق الهادرة أكثر جمالا من النصر المجنح » .

إن هناك علاقة وثيقة بين التحرر من الوضع الاجتماعى الثابت والموقع الجغرافى الثابت . فإنسان عصر ما فوق التصنيع ، عندما يحس بنوع من الحصر الاجتماعى ، فإن أول ما يفكر فيه هو تغيير موقعه . ومثل هذه الفكرة نادراً ما تطرأ للفلاح الذى نشأ فى قريته ، أو للعامل فى أعماق منجم فحم . لقد قال لى أحد تلاميذى — قبل أن يهرع إلى الانضمام إلى فيلق السلام — : « إن الهجرة تحل الكثير من المشكلات » . ولكن التنقل قد أوشك أن يصبح فى حد ذاته قيمة إيجابية ، وتأكيداً للحرية ، وليس فقط مجرد رد فعل للهروب من الضغوط الخارجية . ففى استطلاع أجرته مجلة ردبوك على ٥٣٩ من مشتركيها الذين غيروا عناوينهم خلال العام الماضى ، كان هناك إلى جانب الإجابات المألوفة من مثل : « إن الأسرة قد تضخم حجمها

بالنسبة للبيت القديم » . و « من أجل موقع أفضل » إجابة أخرى قدمها عشرة فى المائة ممن سئلوا وكانت « لمجرد الرغبة فى التغيير » .

ونجد مثالا صارخاً على الاستجابة لدافع التنقل فى الفتيات الرحالة بواسطة الأوتو–ستوب ، واللاتى كدن يصبحن فئة اجتماعية متميزة . وهكذا فإن جاكى – وهى فتاة إنجليزية كاثوليكية شابة – تترك عملها فى بيع المساحات الإعلانية لإحدى المجلات ، وتبدأ مع إحدى صديقاتها فى رحلة بواسطة الأوتو–ستوب إلى تركيا . وفى هامبورج تفترق الفتاتان وتستمر جاكى فى رحلتها إلى أن تعبر الجزر اليونانية وتصل إلى استامبول ، ثم تعود إلى إنجلترا لتعمل بمجلة أخرى حتى تقتصد ما يكفى لتمويل رحلتها التالية التى تعود منها ، ستعمل كجرسونة وترفض الترقية إلى درجة مضيفة قائلة : « لا أعتقد أننى سأبقى طويلا فى إنجلترا » – لقد صارت جاكى – التى لم تتجاوز الثالثة والعشرين – رحالة أوتو – ستوب مدمنة لا تكل من التجوال فى طول أوروبا وعرضها ، وكل سلاحها مسدس هوائى تضعه فى كنانتها « جربنديتها » . وبعد كل رحلة تعود إلى إنجلترا لتبقى ستة أو ثمانية أشهر ، ثم تبدأ من جديد . أما روث التى بلغت الثامنة والعشرين فقد عاشت سنين طويلة على مثل هذه الحال . ولم تزد أطول فترة عاشتها فى مكان واحد على ثلاث سنوات . وتقول روث : « إن الترحال بالأوتو–ستوب أسلوب جميل للحياة . فبينما يتيح ذلك فرصة لك أكبر فى التعرف إلى الناس ، فإنه يعفيك أيضاً من الارتباطات الوثيقة » .

إن الفتيات المراهقات – ربما بدافع الرغبة فى الهروب من قيود البيئة – هن بنوع خاص من أكثر الفتيات إقبالا وحماسة للسفر والترحال . فعلى سبيل المثال ، تبين من استطلاع لقارئات مجلة « سفنتين » أن ٤٠,٢٪ منهن قد قمن برحلة « كبيرة » واحدة على الأقل خلال الصيف السابق لإجراء الاستطلاع . وفى تسعة وستين فى المائة من هذه الرحلات خرجت الفتاة من حدود ولايتها ، فى حين بلغت نسبة الرحلات إلى خارج البلاد تسعة فى المائة . إن الرغبة الملحة فى السفر تبدأ عند الفتيات حتى قبل أن يصلن

إلى سن العاشرة . لقد أجهشت بيت – وهى ابنة أحد الأطباء النفسيين فى نيويورك – بالبكاء عندما علمت أن صديقة لها قد زارت أوروبا، وقالت: « لقد بلغت التاسعة من عمرى ولم أزر أوروبا حتى الآن ! ! »

مثل هذا الموقف الإيجابى تجاه السفر والتنقل تعكسه نتائج كل الاستطلاعات والبحوث التى تؤكد ما يكنه الأمريكيون من إعجاب بالرحالة . . لقد لاحظ باحثو جامعة ميتشجان تكرر وصفهم للرحالة بأنهم « سعداء » و « محظوظون » فى إجابات من شملتهم الاستطلاعات . إن السفر قد أصبح بالنسبة للأمريكين بمثابة وسيلة إلى اكتساب المكانة . وهذا يفسر إلى حد كبير ظاهرة تمسك الأمريكيين بالاحتفاظ ببطاقات شركات الخطوط الجوية على حقائبهم لفترة طويلة بعد عودتهم من رحلاتهم ، لدرجة أن أحد الكتاب الساخرين قد اقترح أن ينشئ أحد ما عملا يختص بغسل وكى هذه البطاقات لأولئك الباحثين عن المكانة من خلال السفر .

ومن ناحية أخرى فإن انتقال الإنسان بأمتعته شئ يدعو إلى الرثاء أكثر منه إلى التهنئة . فليس هناك من لا يردد العبارات المألوفة عن المتاعب التى يتضمنها مثل هذا الانتقال . ولكن الواقع يؤكد أن أولئك الذين انتقلوا مرة هم أكثر استعداداً للانتقال مرة أخرى من أولئك الذين لم يسبق لهم الانتقال . ويفسر عالم الاجتماع الفرنسى الين تورين هذه الظاهرة بقوله : « إن أولئك الذين قاموا بالتغيير مرة قد وهنت لديهم قوة الارتباط بالجماعة والمكان ، ومن ثم فهم أكثر قابلية للتغيير مرة أخرى » . وفى مؤتمر دولى للقوى العاملة ، عقد منذ وقت قريب ، تحدث ر. كلارك – وهو أحد المسئولين فى اتحاد عمال بريطانيا – إلى المؤتمر ، فأوضح أن التنقل قد يكون عادة تكونت فى أيام الدراسة . ودلل على ذلك بأن أولئك الذين تلقوا دراساتهم العالية بعيداً عن مواطنهم يتنقلون فى دوائر أوسع من تلك التى يتحرك فيها العمال غير المتعلمين والأكثر التصاقاً بمواطنهم . وإن أولئك المتعلمين لا يزداد فقط تنقلهم كلما تقدم بهم العمر ، بل إن أطفالهم أيضاً يأخذون عنهم نفس النظرة إلى التنقل كشئ سهل ويسير . وبينما نجد أن عملية

الانتقال تشكل بالنسبة للكثير من أسر العمال أمراً فظيعاً يأتى عادة كنتيجة للبطالة أو لغيرها من المصاعب ، نجد أن الانتقال بالنسبة للفئات الوسطى والعليا يأتى غالباً فى شكل الانتقال إلى حياة أفضل . إن السفر بالنسبة لهؤلاء نوع من المتعة ، والابتعاد يعنى فى نفس الوقت ارتقاء إلى أعلى .

وباختصار فإنه فى جميع الأمم التى تخطو إلى عصر ما فوق التصنيع وبين رجال المستقبل أصبح التنقل أسلوباً للحياة ، وتحرراً من قيود الماضى ، وخطوة إلى المستقبل أكثر رخاء .

المنتقلون الحزانى

وعلى العكس من ذلك تماماً نجد مواقف صارخة الاختلاف إزاء التنقل من قبل « القاعدين » . والقاعدون هنا ليسوا هم فقط فلاحى القرى فى الهند وإيران الذين يقضون معظم حياتهم حيث ولدوا . ولكنهم أيضاً أولئك الملايين من العمال من ذوى الأردية الزرقاء ، خصوصاً من يعملون منهم فى صناعات متخلفة . إن التغيير التكنولوجى يمضى مدوياً فى البلاد المتقدمة اقتصادياً ؛ مبطلا صناعات بأسرها ليحل محلها صناعات أكثر تقدماً . ويجد ملايين من العمال غير المهرة ونصف المهرة أنفسهم مضطرين إلى الانتقال . إن النمو الاقتصادى يتطلب التنقل والحركة ، وحكومات الدول الغربية ، وخاصة : السويد ، والنرويج ، والدانيمارك ، والولايات المتحدة ، تنفق مبالغ طائلة لتشجيع العمال على ترك مواطنهم والالتحاق بالأعمال الجديدة ، إن الاضطرار إلى الانتقال يمثل حادثاً محزناً بالنسبة لعمال مناجم الفحم فى ابالاشيا ، أو عمال النسيج فى أقاليم فرنسا ، وحتى بالنسبة لعمال المدن الكبيرة الذين تضطرهم عمليات تجديد المدن إلى الانتقال إلى مساكن ليست ببعيدة عن مساكنهم السابقة يجدون معاناة شديدة فى الامتثال لهذه الضرورة . ويشير الدكتور مارك فرايد بمركز الدراسات الاجتماعية بمستشفى ماساشوستس العام قائلا : « مثل هذا النوع من ردود الأفعال يمكن وصفه بدقة بأنه حالة حزن تأخذ صورة الإحساس بخسارة مؤلمة ، والحنين الدائم ، والنبرة الحزينة ، والأعراض النفسية والاجتماعية والجسدية الناتجة عن الأسى . . .

والشعور بالعجز ، وحالات الغضب المفاجئ بسبب أو بلا سبب . نفس الأعراض الناتجة عن فقد إنسان عزيز » .

أما مونيك فيو – الاخصائى الاجتماعى بوزارة الشئون الاجتماعية فى فرنسا فيقول : « إن الفرنسيين شديدو التعلق بمواطنهم الجغرافية ، ويتردد الواحد منهم كثيراً فى قبول عمل يبعد ثلاثين أو أربعين كيلومتراً ، ونقابات العمال تسمى مثل هذا النقل « نفياً » .

وحتى بعض المتعلمين الميسورين يعانون من مشاعر الأسى عندما تدعوهم الظروف إلى الانتقال . إن المؤلف كليفتون فاديمان يحدثنا عن معاناته إثر انتقاله من مدينة هادئة بكونيكتكت إلى لوس أنجليس فيقول : « لقد تفجر فى كيانى كله شعور غريب بالإعياء البدنى والذهنى ، ومضت ستة أشهر قبل أن أبل من مرضى الذى شخصه طبيب الأعصاب بأنه « صدمة ثقافة ... » . إن انتقال الإنسان من موطنه ، حتى فى ظل أحسن الظروف يتطلب سلسلة من التغيرات النفسية المرهقة .

ويقول عالما الاجتماع ج.ر.سيلى و أ.و.لوسلى فى دراسة شهيرة أجرياها على ضاحية كندية تسمى كريستوود هايتس : « إن السرعة التى تم بها الانتقال وعمق التغيير الذى تطلب الانتقال تغلغله فى كيان المنتقلين اقتضيا أكبر قدر من المرونة فى السلوك والتوازن فى الشخصية . إن التغيرات المفاجئة نسبياً فى الأيديولوجية ، وأحياناً فى الكلام ، وفى أنماط الطعام والديكور ، قد حدثت فى غيبة واضحة للقرائن السلوكية التى كان ينبغى تمثلها » .

لقد أوضح العالم النفسى چيمس تايهرست من جامعة كولومبيا البريطانية الخطوات التى يخطوها الناس نحو إحداث مثل هذه التغيرات فيمايلى : « إن الدراسات الميدانية التى أجريت على الأفراد فى أعقاب الهجرة قد أسفرت عن وجود نمط شبه ثابت يمكن تحديده . . إن هم الشخص المهاجر ينحصر ابتداء فى حاضره الماثل ، مع محاولة العثور على عمل

واكتساب المال وتوفير المأوى . . وهذه الاهتمامات تكون مصحوبة فى الغالب بالقلق مع تزايد فى نشاط الانفعالات النفسية والبدنية . . . » .

ومع تزايد إحساس الشخص بالغربة وعدم الألفة تجاه ما يحيط به تنشأ لديه مرحلة ثانية هى مرحلة « القدوم النفسى » ، وتتميز هذه المرحلة بتزايد الاضطراب والكآبة ، والانشغال الذاتى المصحوب غالباً بأعراض بدنية . والابتعاد عن المجتمع بالمقارنة إلى سابق نشاطه فى هذا المجال ، وقدر معين من مشاعر الشك والعداء . وتتزايد حدة الشعور بالاختلاف والعجز ، وتتميز هذه الفترة عموماً بالتوتر وعدم الاستقرار . وتستمر هذه الحالة ما بين شهر واحد وعدة أشهر . . . » .

وهنا تبدأ المرحلة الثالثة وتأخذ شكل التلاؤم النسبى مع البيئة الجديدة مع نوع من الاستقرار ، أو فى بعض الحالات القصوى . ونشوء حالة أشد من الاضطراب ، وازدياد الحالة توتراً ، وظهور أعراض ذهنية شاذة . واتجاه إلى الهروب من الواقع . وباختصار فإن بعض الناس لا يستطيعون مطلقاً التكيف لدرجة ملائمة » . .

غريزة حب البيت

وحتى أولئك الذين ينجحون فى التكيف مع البيئة الجديدة لا يعودون إلى ما كانوا عليه من قبل . إن الانتقال بدافع الضرورة يتضمن تمزيق نسيج العلاقات القديمة ليحل محلها نسيج آخر لعلاقات جديدة . مثل هذا الانفصال خصوصاً إذا ما تكرر ، هو الذى ينمى حالة « عدم الانتماء » التى لاحظها الكثير من الكتاب على الأشخاص الكثيرى التنقل . إن الرجل المتحرك دائماً فى عجلة من أمره لا تمكنه من إرساء جذوره فى مكان ما . ويشرح أحد مديرى الخطوط الجوية سبب تجنبه للاشتراك فى الحياة السياسية لمجتمعه بقوله : « فى خلال سنوات قليلة لن أكون هنا . إنك تغرس شجرة ثم لا تتمكن مطلقاً من رؤيتها وقد نمت » .

هذا التجنب ، أو فى أحسن الحالات ، المساهمة المحدودة كان ولا يزال محل انتقاد حاد من أولئك الذين يرون فيه تهديداً لمثل الديموقراطية العتيدة .

إن هؤلاء المنتقدين قد تغافلوا فى الواقع عن حقيقة هامة ، وهى أن أولئك الذين يرفضون الانغماس فى شئون المجتمع هم أكثر التزاماً بالمسئولية الأخلاقية من أولئك الذين ينغمسون ثم يرحلون فجأة . إن المنتقلين يرفعون معدل الضرائب . ولكنهم يتفادون دفع ثمن انغماسهم لأنهم لم يعودوا هناك . إنهم يساعدون على إخفاق مشروع سندات من أجل المدارس ويدعون أطفال الآخرين يقاسون العواقب . أليس من الأفضل إذن ، وأكثر تعبيراً عن الشعور بالمسئولية ، أن يجرد الإنسان نفسه مقدماً من الأهلية ؟ ولكن إذا ما ابتعد الإنسان عن المساهمة ورفض الانضمام إلى المنظمات ، ورفض إقامة أى علاقات وثيقة مع جيرانه ، أو باختصار رفض الالتزام ، فماذا يحدث للمجتمع وللنفس ؟ هل يمكن أن يتهيأ للمجتمع وللأفراد البقاء بدون التزام ؟

إن الالتزام يأخذ أشكالا عديدة . وأحد هذه الأشكال هو الانتماء إلى المكان . إننا لن نستطيع أن نفهم دلالة التنقل إذا لم ندرك أولا تمركز المكان الثابت فى البنية النفسية للرجل التقليدى . هذا التمركز الذى ينعكس فى ثقافتنا بطريق عدة . فالحقيقة أن المدنية نفسها بدأت بالزراعة — التى تعنى الاستقرار — وانتهت أخيراً حالة الترحال والهجرة المضنية التى كان يعانيها بصفة دائمة إنسان العصر الحجرى القديم . إن كلمة « الجذورية » ذاتها والتى تحظى بالكثير من اهتمامنا فى الوقت الحاضر هى كلمة زراعية الأصل . فإنسان عصور البداوة السابقة على المدنية ، إذا ما سمع مناقشة حول « الجذور » فإنه لا يكاد يدرك لها معنى .

إن معنى الجذور يرتبط فى أذهاننا بمكان محدد ؛ أى « بيت » دائم . وفى عالم قاس يظله شبح الجوع وتحف به المخاطر يصبح البيت ، حتى ولو كان مجرد كوخ ، هو المثابة الآمنة الضاربة بجذورها فى الأرض . والتى يتوارثها جيل عن جيل ، ورابطة الوصل بين الإنسان والطبيعة والماضى . ومن ثم فقد أصبح الثبات بالنسبة للبيت أمراً مسلماً ، وطفحت سطور الأدبيات بالتنويه بأهميه البيت . ففى كتاب « إرشاد الزوجات » الذى كتبه توماس توسر فى القرن السادس عشر جملة تقول : « اطلب البيت للاستقرار .

فالبيت نعم القرار » . وهناك عشرات من مثل هذه المقولات التى يزخر بها تراثنا الثقافى مثل «بيت الرجل هو قلعته» و « ليس هناك مكان مثل البيت » و « بيتى الجميل يا بيتى » ولقد وصل تمجيد البيت إلى ذروته فى القرن التاسع عشر فى إنجلترا عندما اكتسح التصنيع سكان القرى وحولهم إلى كتل تسكن المدن . فنجد توماس هود شاعر الفقراء يحدثنا عن أن : « كل قلب يهمس قائلا . . . البيت أخيراً . . البيت » كما يرسم لنا تينيسون صورة كلاسيكية متخمة بهذه المعانى يقول فيها :

البيت الإنجليزى

هو ضوء الفجر الشاحب على الأعشاب والغصون الندية

هو حيث كل شئ مستقر فى مكانه

هو مثوى السلام القديم

فى عالم الثورة الصناعية المضطرب ، حيث لم يكن كل شئ «مستقراً فى مكانه » كان البيت هو الملجأ ، وهو شاطئ الأمان وسط العاصفة ، كان على الأقل شيئاً يعتمد عليه فى البقاء فى مكان واحد . ولكن لم يكن كل ذلك سوى خيال شعراء لم يقو على كبح جماح القوى التى كانت فى الواقع تنتزع الإنسان من مواقعه الثابتة .

العوامل الجغرافية تفقد مكانتها

كان البدوى القديم يتحرك تحت الرياح الباردة وحرارة الشمس المحرقة يطارده الجوع ، ولكنه كان يحمل معه خيمته وأسرته وباقى القبيلة . كان يحمل بيئته الاجتماعية معه . وغالباً البنية المادية لما يسميه بيته . وعلى العكس من ذلك فإن الرحالة المعاصرين يتركون هذه البنية المادية خلفهم (لتصبح مجرد بند فى قائمة الأشياء المتداولة فى حياتهم) . وهم أيضاً يتركون الكل وراءهم فيما عدا أسرهم ، وهى ألصق أشكال خلفياتهم الاجتماعية بهم .

إن التعبير عن تدهور أهمية المكان واضمحلال الالتزام قبله يتم فى عشرات من السبل . وكمثل على هذه السبل ما أعلنته مؤخراً كليات « ايفى

ليج » فى الولايات المتحدة عن عدم الاعتداد بالاعتبارات الجغرافية فى سياسات القبول بها . هذه الكليات الراقية كانت قد جرت على عادة تضمين طلبات الالتحاق بها بعض البيانات الجغرافية ، وكانت تفضل عن عمد الشبان الذين يقطنون بعيداً عن مبانيها . قاصدة من وراء ذلك أن تكون قوة الطلبة بها على أعلى درجة ممكنة من التنوع . وعلى سبيل المثال فإن جامعة هارفارد كانت فيما بين الثلاثينيات والخمسينيات من هذا القرن تخصص نصف أماكنها للطلبة القاطنين فى نيوانجلند ونيويورك . أما الآن فقد تخلت الجامعة عن هذا التوزيع الجغرافى .

والسر فى ذلك أن المكان لم يعد مصدراً أساسياً للتنوع . فالفوارق بين الأشخاص لم تعد اليوم قائمة على الخلفيات الجغرافية . وعلى أى حال فإن هناك دائماً احتمالا أن يكون العنوان المدون بطلب الالتحاق مجرد عنوان مؤقت . فكثير من الناس لم يعودوا بعد يقيمون فى مكان واحد لفترة تكفى لاعتبارهم منتمين إليه . ويقول العميد المسئول عن القبول بجامعة ييل : « بالطبع مازلنا نرسل مندوبينا لاختيار الطلبة إلى الأماكن النائية مثل نيفادا . ولكن هناك تنوعاً كافياً فى قبول القاطنين فى هارلم وبارك افنيو وكوينز . وطبقاً لما صرح به هذا المسئول فإن جامعة ييل قد أسقطت بالفعل من حسابها العوامل الجغرافية فى اختيار طلبتها . ويقول زميله فى جامعة برنستون : « لم نعد نبحث فى المكان القادمين منه . ولكن ما نبحث عنه فى الحقيقة هو معنى مختلف لتنوع الخلفيات » .

لقد تضاءلت إلى حد بعيد قيمة المكان فى تحديد الفروق بين الناس وذلك نتيجة لتزايد الحركة والتنقل . كما اضمحلت فى نفس الوقت روح الانتماء إلى مكان ما لدرجة بلغت على حد يعبر عنه البروفيسور جون ديكمان من جامعة بنسلفانيا قائلا : « إن الولاء لمدينة أو ولاية قد أصبح الآن لدى الكثير أضعف من الولاء لشركة أو مهنة أو منظمة تطوعية » . وهكذا يمكن القول بأن الولاء ينتقل من البنى الاجتماعية ذات الطبيعة المكانية (المدينة ، والولاية ، الأمة ، الجيرة) إلى (الشركة والمهنة ، الصداقة وشبكة الأعمال) وهذه الأخيرة متحركة بطبيعتها ويمكن لأسباب عملية أن نعتبرها لا مكانية .

لقد أصبح الانتماء فيما يبدو ، مرتبطاً بدوامية العلاقة . إننا بمجموعة توقعات الدوامية التى حصلناها من واقعنا الثقافى قد تعلمنا أن نعطى ما يبدو لنا منها أنه « دائم » أو طويل الأمد محتوى عاطفياً ، فى حين حجبنا عواطفنا على قدر الاستطاعة عن علاقاتنا القصيرة المدى ، وهناك بطبيعة الحال استثناءات على هذه القاعدة كما هى الحال مثلا بالنسبة لغراميات الصيف الخاطفة . ولكن بوجه عام وبالنسبة للقائمة الأكبر من العلاقات المتنوعة تظل قاعدة الارتباط بين شعور الانتماء ودوامية العلاقة قائمة . ومن ثم فإن اضمحلال شعور الانتماء إلى مكان لا يرجع إلى الحركة فى ذاتها ، ولكن إلى شيء آخر ملازم للحركة — هو تقاصر دوامية العلاقة بالمكان .

وعلى سبيل المثال فإن متوسط مدة الإقامة فى مكان واحد بالنسبة لسبعين مدينة أمريكية كبيرة ، من ضمنها مدينة نيويورك ، أقل من أربع سنوات. وهو متوسط يمكن إدراك مدى ضآلته إذا ما قورن بالإقامة فى القرى الزراعية التى تمتد بطول العمر . وبالإضافة إلى ذلك فإن تغيير محل الإقامة يلعب دوراً هاماً فى تحديد دوامية العلاقة بأكثر من مكان ، فعندما ينهى الفرد علاقته ببيت ما فإنه فى العادة ينهى علاقته بجميع الأمكنة « التابعة » المجاورة ، إنه يغير مخزن البقالة ، ومحطة البنزين ، ومحطة الأتوبيس ، والحلاق ، أى إنه يقطع العديد من العلاقات المكانية عندما يغير من محل إقامته ، والنتيجة الإجمالية هى أننا لسنا فقط نمر بأماكن أكثر خلال حياتنا ، بل أيضاً نختصر باستمرار من دوامية علاقتنا بأى منها .

وهكذا نستطيع أن نرى بوضوح مدى التأثير الذى أحدثته دفعة التغيير المتسارعة للمجتمع فى حياة الفرد . وإن هذا التغيير الذى عرضناه فى علاقة الإنسان بالمكان مواز للتغير الذى سبق أن عرضناه فى علاقة الإنسان بالأشياء. ففى كلتا الحالتين نرى الفرد مدفوعاً بقوة لا تقهر إلى إقامة ونقض روابطه بسرعة متزايدة . وفى كلتا الحالتين أيضاً نرى معدل الزوالية يرتفع . وفى كلتا الحالتين أخيراً نستطيع أن نلمس معاناته للتسارع المتزايد فى خطو الحياة .

* * *



الفصل السادس

الناس : الإنسان المضمن

فى الربيع من كل عام يبدأ فى شرق الولايات نوع من الهجرة شبيه بهجرة حيوان اللاموس القارض ، عندما يطرح ما يقرب من ١٥ ألفا من طلبة الجامعات كتبهم جانباً ويحملون البطاطين ، وأكياس النوم ، وملابس الاستحمام ، ويتجهون جماعات وأفراداً ، كأنما تقودهم غريزة لا تخطئ إلى مكان بعينه ، هو شاطئ فورت لاوديرديل المشمس على سواحل فلوريدا. وعلى مدى أسبوع تظل أفراد هذه الكتلة الصخابة العجاجة من عابدى الشمس والجنس ، يسبحون ، وينامون ، ويتغازلون ، ويتجرعون البيرة ، ويتقلبون ويتمرغون على الرمال . وفى نهاية المدة تبدأ هذه الكتلة الهائلة من لابسات البيكينى ورفاقهن ذوى الأجسام البرونزية فى حزم أمتعتهم استعداداً للرحيل . ويستطيع من يقف قريباً من « الكشك » الذى أقامته المدينة لاستقبال هذا الجيش الصاخب أن يسمع النداءات التى ترددها مكبرات الصوت : « سيارة بها راكبان مستعدة لحمل راكب ثالث إلى اتلانتا . . هل أجد مكاناً فى سيارة متجهة إلى واشنطون ؟ ... » . وفى خلال ساعات قليلة يكون الشاطئ قد خلا تماماً إلا من أعقاب السجاير وعلب البيرة الفارغة ، بالإضافة إلى ما يقرب من مليون ونصف مليون دولار استقرت فى خزائن التجار المحليين الذين يعتبرون هذا الغزو السنوى نعمة كبرى ، قد تشكل تهديداً للصحة العقلية ، ولكنها فى نفس الوقت تحمل لهم معها الكثير من الربح الشخصى .

إن ما يجتذب الشباب إلى مثل هذه الرحلة ليس مجرد حبهم لأشعة الشمس أو الجنس ، فهاتان متعتان متوافرتان فى أماكن كثيرة. . ولكنها بالأحرى الرغبة فى الشعور بالتحرر دون مسئولية . هذا الشعور الذى عبرت عنه

إحدى المشتركات فى هذه الرحلة – وهى طالبة من نيويورك فى التاسعة عشرة – عندما قالت : « إنك هنا لا يساورك القلق نحو ما تقول أو تفعل ، لأنك – بصراحة – لن ترى هؤلاء الناس مرة أخرى . . . » .

إن ما تمنحه طقوس فورت لاوديردال هو تكتل بشرى زائل يتيح الفرصة لإقامة علاقات شخصية متنوعة ومؤقتة . وعلى وجه التحديد فإن هذا الطابع المؤقت هو الذى أصبح يميز العلاقات الإنسانية فى المجتمعات الصاعدة إلى عصر ما فوق التصنيع . وكما أصبحت الأشياء والأمكنة تمر فى حياتنا بسرعة أكبر – فكذلك الأمر بالنسبة للناس .

ثمن « الارتباط »

منذ بداية هذا القرن وأسلوب الحياة فى المدن يشغل الحيز الأكبر من اهتمامات علم الاجتماع . لقد أشار ماكس ويبر إلى حقيقة واضحة هى أن ساكن المدينة لا يستطيع أن يقيم علاقة وثيقة مع كل جيرانه كما يفعل سكان المجتمعات الصغيرة . وحمل جورج سيميل هذه الحقيقة إلى أبعد من ذلك عندما أعلن ، بشكل أكثر طرافة ، أن ساكن المدينة إذا ما استجاب عاطفياً مع كل إنسان يتصل به ، أو كدس فى ذهنه المعلومات المتعلقة بهم ، فإنه « سوف يترذذ داخلياً تماماً ، ويصاب بحالة من التشتت الذهنى لا يمكن تصورها » .

وقد لاحظ لويس ويرث بدوره الطبيعة المتفسخة للعلاقات بين سكان المدن فكتب يقول : « تتميز لقاءات سكان المدن بأنها تتم فى صورة متقطعة . كما ينحصر اعتماد أحدهم على الآخرين فى إطار جزئيات من ألوان النشاط التى يمارسها كل منهم . أى إننا بدلا من أن نرتبط بالشخصية الكاملة لكل فرد نلتقى به ، فإننا نقتصر فقط على مجرد اتصال سطحى وجزئى بالبعض ممن نلتقى بهم . إننا مثلا لا يهمنا من بائع الأحذية سوى ما يبذله لتلبية طلباتنا ولا نهتم من قريب أو بعيد بما إذا كانت زوجته مريضة ، أو مدمنة للكحول . . . » .

إن هذا يعنى أننا لا نمارس فى الواقع سوى أقل قدر من الارتباط فى

علاقاتنا مع من حولنا من الناس . شعورياً أو لا شعورياً ، نحصر علاقاتنا بالناس فى حدود وظيفية . فمادمنا لم نبد أى اهتمام بمشكلات بائع الأحذية المنزلية ، ولا بآماله وأحلامه ومخاوفه ، فإنه بالنسبة لنا إنسان قابل للاستبدال فى أى وقت بأى بائع آخر له نفس قدرته على تلبية طلباتنا . ونكون بذلك قد قبلنا فى الواقع تطبيق مبدأ الاستبدالية على العلاقات الإنسانية . وخلقنا الشخص القابل للتبديل والتغيير . أى الإنسان المضمن .

إننا بدلا من أن نتعرف إلى الرجل ككل نكتفى بالاتصال بجزء محدود من شخصيته . ويمكننا أن نتصور كل شخصية وهى مقسمة إلى آلاف من هذه الأجزاء لندرك أن الذى يعنينا ليس استبدال الشخص ككل بشخص آخر ، ولكن أجزاء معينة فقط منه . فمادام أن ما نسعى إليه لدى بائع الأحذية هو شراء الحذاء ، وليس اكتساب صداقته — أو محبته أو كراهيته — فإنه ليست هناك ضرورة إذن لأن نتقصى أو نشغل أنفسنا بالنواحى الأخرى المكونة لشخصيته . . ومن ثم فإننا نحصر علاقاتنا داخل حدود آمنة ، ومسئولية محدودة لكل من الطرفين بالنسبة للطرف الآخر . علاقة تتضمن القبول بأشكال معينة من السلوك والتواصل . وكلا الطرفين متفهم ، بالوعى أو باللاوعى ، لحدود هذه العلاقة وقوانينها . وتنشأ المشكلات والصعوبات عندما يتعدى طرف أو آخر الحدود المصطلح عليها لهذه العلاقة ، أى عندما يحاول الاتصال ببعض الأجزاء التى لا علاقة لها بالمناسبة المائلة .

لقد كرس حيز كبير من الكتابات الاجتماعية والسيكولوجية المعاصرة لتناول مشكلة الاغتراب الناشئة عن تفسخ العلاقات . ويبدو هذا بشكل أوضح فى كتابات الوجوديين ، وبيانات الطلاب الثائرين ، التى تشجب بشدة هذا التفسخ ، وتنادى بأننا فى حاجة إلى ارتباط أكثر بإخوتنا من بنى الإنسان . ويندفع ملايين من الشباب فى طلب تحقيق « الارتباط الكامل » .

وقبل أن نقفز إلى تبنى الحكم الشائع على التضمينية بأنها كلها شر . قد يكون من الأفضل أن ننعم النظر عن قرب فى المسألة . . لقد ردد العالم

اللاهوتى هارفى كوكس ما سبق أن أعلنه عالم الاجتماع جورج سيميل من أن محاولة ساكن المدينة الارتباط بكل من يلتقى بهم يمكن أن تؤدى إلى تحطيم الذات والفراغ العاطفى . ويزيد على ذلك قائلا : « يجب على ساكن المدينة أن يجعل علاقته مع معظم من يلتقى بهم من الناس علاقة غير شخصية حتى يستطيع أن ينتقى صداقات معينة ليغذيها وينميها . . . إن حياته تمثل طرفاً يحتك بعشرات من المؤسسات والنظم ومئات من الناس . وقدرته على تحقيق تعارف أكثر مع بعضهم تفرض بالضرورة تسطيح علاقته بالكثيرين غيرهم . إن إصغاء ساكن المدينة إلى ثرثرة ساعى البريد لا يمكن إلا أن يكون عملا خالصاً من أعمال التسامح والكياسة ، لأنه — قطعاً — لا يمكن أن يكون مهتما بالناس الذين يريد ساعى البريد أن يتحدث عنهم ».

وفضلا عن ذلك ، فإنه قبل أن نصدر حكمنا على التضمينية ينبغى أن نسائل أنفسنا عما إذا كنا نفضل حقيقة أن نعود إلى الوضع التقليدى للرجل حيث كان الفرد يرتبط بالشخصية الكاملة لأفراد قلائل ؟ أم نرتبط بدلا من ذلك بأجزاء من شخصيات العديد من الأفراد ؟ إن الرجل التقليدى قد أحيط بالكثير من التعاطف وأفعمت صورته بالمعانى الدرامية لدرجة جعلتنا نتغافل عن معقبات مثل هذه الرجعة . إن نفس الكتاب الذين ينعون تفسخ العلاقات يطالبون أيضاً بالحرية ، ويغفلون القيود التى تكبل حرية أولئك الذين تجمع بينهم روابط كلية . إن أى علاقة تفرض على أطرافها مطالب وتوقعات متبادلة . وكلما زادت العلاقة وثوقاً تزايد ضغط كل من أطرافها على الآخر للوفاء بهذه المطالب والتوقعات . وكلما زادت العلاقة الكلية وثوقاً زاد عدد الأجزاء المكونة لشخصيات أطرافها المدعوة للتعامل فى إطار هذه العلاقات ، وبالتالى تزايد عدد المطالب المفروضة .

أما فى العلاقة الاستبدالية فإن المطالب تتحدد بشكل حازم . فمادام بائع الأحذية يؤدى لنا ما نطلبه منه من خدمة محدودة ، ومن ثم يفى بتوقعاتنا المحدودة قبله ، فإننا لا نصر على أن يكون مؤمنا بنفس الإله الذى نؤمن به ، أو أن يكون مرتباً فى بيته ، أو أن يكون مشاركاً لنا فى معتقداتنا

السياسية ، أو أنه يفضل نفس أنواع الطعام والموسيقى التى نفضلها . إننا ندع له الحرية الكاملة فى كل الأمور الأخرى ما دام هو الآخر يدعنا أحراراً فى أن نكون ملحدين أو يهوداً ، طبيعيين فى علاقاتنا الجنسية أو شواذ ، عنصريين متعصبين أو شيوعيين . أما الأمر بالنسبة للعلاقة الكلية فيختلف، ومن ثم فإنه ، إلى حد ما ، يمكن أن نقول بأن تفسخ العلاقات والحرية صنوان.

إن كل فرد منا يحتاج فى حياته إلى قدر ما من العلاقات الكلية . ولكن شجب الحقيقة الصارخة بأننا لا نستطيع أن يكون لنا سوى مثل هذا النوع من العلاقات فأمر غير مفهوم . والدعوة إلى أن يكون للفرد علاقات كلية بعدد محدود من الأفراد بدلا من علاقات استبدالية مع الكثيرين ، إنما هو دعوة للرجوع إلى سجن الماضى عندما كان الأفراد أكثر ارتباطاً ، ولكنهم كانوا أيضاً أكثر خضوعاً للقيود الاجتماعية والأخلاقيات الجنسية والمحظورات السياسية والدينية .

وليس معنى هذا أن العلاقات الاستبدالية لا تشتمل على أى مخاطر . . أو أن العالم الذى تسوده مثل هذه العلاقات هو أفضل الممكن . . فهناك فى الحقيقة مخاطر جمة يمكن أنتنجم عن هذه الحالة . وفضلا عن ذلك فإن كل المناقشات العامة والمتخصصة التى أديرت حول هذه الموضوعات كانت بعيدة بدرجـــة مؤسفة عن الرؤية الواضحة لها ، ذلك أنها قد اغفلت بعداً هاماً من أبعاد كل العلاقات الشخصية المتبادلة . ذلك البعد هو : دواميتها .

دوامية العلاقات الانسانية

إن كثيراً من علماء الاجتماع ، أمثال ويرث ، قد أشاروا إشارة عابرة إلى ضآلة الروابط بين سكان المدن . ولكنهم لم يبذلوا أى محاولة منهجية للربط بين تقاصر دوامية الروابط الإنسانية وتقاصر دوامية غيرها من العلاقات . وأيضاً فإنهم لم يحاولوا إثبات الاضمحلال المستمر لهذه الدواميات. إننا ما لم نحلل الصفة الزمنية لارتباطات الإنسان فإننا سوف نعجز تماماً عن فهم الاتجاه إلى عصر ما فوق التصنيع .

إن الاضمحلال فى متوسط دوامية علاقات الإنسان يقابله تزايد فى عدد هذه العلاقات . . إن ساكن المدينة فى وقتنا الحاضر يلتقى فى اليوم الواحد بعدد من الناس يفوق عدد من كان يلتقى بهم فلاح عصر الإقطاع فى عام كامل ، وربما طول حياته . إن روابط ساكن القرية بغيره من الناس تتضمن بلاشك بعض العلاقات المؤقتة الزائلة ، ولكن معظم من يعرفهم من الناس تستمر معرفته بهم طول العمر . أما ساكن المدينة فربما كان يتعامل مع مجموعة أساسية من الناس الذين تستمر علاقته بهم لمدد طويلة ، ولكنه إلى جانب ذلك يتعامل مع المئات ، وأحياناً الآلاف ، ممن قد لا يلتقى بأحدهم سوى مرة واحدة ثم يتلاشون فى زوايا النسيان .

إننا جميعاً نقترب من العلاقات الإنسانية ، كما نقترب من غيرها من العلاقات بمجموعة مكتسبة من التوقعات الدوامية . . إننا نتوقع لعلاقات معينة أن تدوم أكثر من غيرها . والواقع أنه من الممكن ترتيب علاقاتنا بالآخرين على أساس توقعاتنا لدواميتها . وهى بالطبع تختلف من ثقافة إلى ثقافة ، وأيضاً من شخص لآخر . ومع ذلك فإنه من الممكن من خلال الدراسة لقطاعات عريضة من سكان البلاد المتقدمة تكنولوجيا أن نرتب هذه العلاقات على النحو التالى :

علاقات طويلة المدى : إننا نتوقع لروابطنا مع أسرنا المباشرة ، وبدرجة أقل مع أقاربنا الآخرين ، أن تمتد بطول عمر الأفراد الذين تشملهم هذه العلاقة . وهذه التوقعات لا تتحقق كلها بصفة دائمة نظراً لارتفاع معدلات الطلاق وتمزق الروابط الأسرية بالرغم من أننا مازلنا ، نظرياً ، نتزوج : « حتى يفرق بيننا الموت » . وإن الزواج المثالى فى نظر المجتمع هو الذى يدوم طول الحياة . أما كون مثل هذا التوقع صحيحاً أو متسما بالواقعية فى مجتمع ذى طبيعة زوالية عالية ، فأمر قابل للمناقشة . وعلى أى حال فإن توقع طول المدى ، إن لم يكن طول الحياة ، بالنسبة للروابط العائلية مازال حقيقة باقية ، وإن الشخص الذى يفصم مثل هذه الروابط مازال عرضة للإحساس بالذنب ، أو الاتهام به .

علاقات متوسطة المدى : يضم هذا المستوى أربع فئات من العلاقات هى ، حسب ترتيبها التنازلى من حيث الدوامية : **العلاقات مع الأصدقاء** ، الجيران ، زملاء العمل ، زملاء النادى أو الكنيسة وغيرها من المنظمات التطوعية .

والمفروض فى الصداقات أن تدوم لمدى يقرب من دوام الروابط العائلية ، إن لم يكن يماثله . وثقافاتنا تضفى قيمة كبرى على « الأصدقاء القدامى » وتنحى باللوم على أولئك الذين يفصمون علاقات الصداقة . أما العلاقات بين المعارف فالمصطلح عليه أنها تدوم أقل من العلاقات بين الأصدقاء .

وعلاقات الجيرة لم يعد ينظر إليها كعلاقات انتماء طويل ، نظراً للارتفاع المستمر فى معدل الانتقال الجغرافى . وغاية ما ينتظر لمثل هذه العلاقات هو أن تستمر بطول فترة بقاء الإنسان فى مسكن واحد ، وهى فترة تتقاصر بشكل مطرد . إن الافتراق عن جار قد يترتب عليه بعض الصعوبات ولكنه لا يشتمل على شعور كبير بالذنب .

وزمالة العمل قد تتداخل مع علاقات الصداقة وبدرجة أقل ، علاقات الجيرة . وعادة كان المفروض لعلاقات العمل أن تستمر لفترة طويلة نسبيا ، وبوجه خاص بين ذوى البنائق « الياقات » البيضاء من المهنيين والفنيين . ولكن هذا الفرض أيضا يتغير بسرعة كما سوف نرى .

أما علاقات العضوية المشتركة — تلك التى تربط الناس بالكنيسة والمنظمات المدنية والأحزاب السياسية وغيرها — فإنها أحيانا تنمو حتى ترتفع إلى مستوى الصداقة ، وإلى أن يحدث هذا ، تظل هذه العلاقات أقل دواما من علاقات : الصداقة ، والجوار ، والعمل .

علاقات قصيرة المدى : يشمل هذا المستوى معظم ، إن لم يكن كل ، علاقات الخدمة مع أشخاص من أمثال باعة المحلات ، وعمال التوصيل ،

وعمال محطات البنزين ، واللبانين ، والحلاقين . . . إلى آخره . فالصلة بهؤلاء تتغير بشكل أسرع نسبيا ، ولايترتب على فصمها شعور كبير بالحرج . ويستثنى من هذه القاعدة أنماط معينة من علاقات الخدمة، هي تلك العلاقات التي تتصل بالمهنيين كالأطباء ، والمحامين ، والمحاسبين ، فإنها تكون عادة أكثر دوامية .

ولكن ينبغى أن نشير إلى أن هذا الترتيب الذى أوردناه لا يمثل بأى حال من الأحوال قاعدة محكمة . فمعظمنا قد عاين حالات من علاقات « الخدمة » استمرت أكثر من بعض علاقات الصداقة والجوار . وأكثر من هذا فإن معظمنا قد مرت فى حياته علاقات طويلة المدى ؛ كأن يكون قد ظل سنوات طويلة يتردد على نفس الطبيب ، أو احتفظ بعلاقة شديدة الوثوق مع زميل من أيام الدراسة . مثل هذه الحالات ليست غريبة ، ولكنها قليلة العدد نسبيا فى حياتنا . إنها أشبه بزهرات طويلة الأعناق تشرف من عليائها على حقل من الحشائش التى يمثل كل نصل من أنصالها علاقة قصيرة المدى ، أى احتكاكاً زائلاً . إن دوامية هذه العلاقات الطويلة المدى هى بذاتها التى تجعلها تستلفت الأنظار . إنها مجرد استثناءات لا تنقض القاعدة الأصلية . إنها لا تغير من الحقيقة الأساسية الصارخة بأن المتوسط العام لدوامية العلاقات فى حياتنا يتقاصر بشكل مطرد .

الترحيب السريع

إن النمو المستمر لنسبة قاطنى المدن بين مجموع السكان ليس إلا واحدا من عديد من الضغوط التى تدفع بعلاقتنا الإنسانية نحو المزيد من الزوالية . إنه يؤدى — كما أشرنا من قبل — إلى حشد عدد أكبر من الناس داخل حيز أضيق من المكان ، وبالتالى يزيد من عدد الاحتكاكات التى تقع بين الأفراد . وهذه العملية يعززها تصاعد حركة الانتقال الجغرافى التى وصفناها فى الفصل السابق . إن التنقل الجغرافى لا يزيد فقط من معدل الأماكن التى نمر بها فى حياتنا ، ولكن أيضا من عدد الأشخاص الذين نحتك بهم .

إن تزايد حركة السفر والترحال يأتى معه تزايد حاد فى عدد العلاقات

الزوالية العابرة مع رفاق السفر ، وكتبة الفنادق ، والخادمات ، والجرسونات ، وموظفى الحجز فى مكاتب شركات الطيران ، والحمالين ، والزملاء ، وأصدقاء الأصدقاء ، وموظفى الجمارك ، وغير أولئك مما لا يقع تحت الحصر . وكلما زادت تنقلات الفرد زاد بالتالى عدد اللقاءات والاحتكاكات العابرة التى تعتبر نوعا ما من العلاقات الإنسانية يتميز بالجزئية ، ولكنه يتميز قبل كل شئ بقصر مداه الزمنى . (مثل هذه الاتصالات تبدو لنا طبيعية وغير هامة . ونادرا ما يتوقف أحدنا ليتساءل : كم من البلايين الستة والستين من البشر الذين عاشوا من قبلنا على سطح هذا الكوكب قد عرفوا مثل هذا المعدل المرتفع من الزوالية فى علاقاتهم الإنسانية) .

وإذا كان السفر يرفع من عدد الاتصالات – فى الغالب بمن يتولون نوعا أو آخر من الخدمات – وكان تغيير محل الإقامة يرفع أيضا من عـــدد الأشخاص الذين يمرون أو نمر بهم فى حياتنا ، فإن التنقل ينهى أيضا الكثير من شتى أنواع العلاقات . إن مهندس الغواصات الشاب الذى ينقل من قاعدة مير ايلاند بكاليفورنيا إلى قاعدة نيوبورت نيوز فى فيرجينيا لا يصطحب معه سوى أسرته المباشرة ويترك خلفه والديه وأصهاره وجيرانه والعاملين فى الخدمات المختلفة وزملائه فى العمل وغيرهم . إنه يقطع ارتباطاته السابقة لينشئ هو وزوجته وأطفاله فى مستقرهم الجديد مجموعة كاملة من مختلف العلاقات هى أيضا بدورها علاقات مؤقتة .

وإليك وصفاً لهذه العملية ، كما جاء على لسان زوجة شابة مرت بتجربة الانتقال إحدى عشرة مرة خلال سبعة عشر عاما : « عندما تستقر فى مكان ما فإنك تلاحظ حدوث سلسلة من التغييرات التى تحدث على فترات . فيوما ما يقبل ساعى بريد جديد ليسلمك بريدك ، وبعد بضعة أسابيع تختفى الفتاة التى كنت تدفع لها حساب مشترياتك فى مخزن البقالة لتجد مكانها فتاة أخرى . وبعد قليل تكتشف أن الميكانيكى الذى كان يتولى ضبط سيارتك فى محطة الخدمة قد تغير ، فى حين انتقلت الأسرة التى كانت تسكن فى المنزل المجاور وحلت محلها أسرة جديدة . مثل هذه التغييرات تحدث باستمرار ،

ولكنها تحدث تدريجيا . أما عندما تنتقل أنت فإنك تقطع جميع الارتباطات لتبدأ من جديد تماما . تبدأ فى البحث عن طبيب أطفال جديد ، وطبيب أسنان جديد ، وميكانيكى سيارات جديد لا يخدعك . وأيضا فإنك تترك كل المنظمات التى كنت مشتركا فيها لتبدأ نشاطا جديدا فى منظمات أخرى . . إن مثل هذا الفصم لنسيج كامل من العلاقات فى وقت واحد هو الذى يسبب ذلك الإرهاق النفسى الذى يصاحب عادة عملية الانتقال . وكلما تكررت مثل هذه الدورة فى حياة الفرد تقاصرت بالتالى دوامية العلاقات التى تشملها . وبالنسبة لقطاعات بارزة من السكان ، فإن هذه العملية تحدث الآن بسرعة أدخلت تغييرات جذرية على المفهوم التقليدى لعامل الزمن فى العلاقات الإنسانية . إن القصة التالية والتى وردت فى جريدة نيويورك تايمز تقدم لنا الدلالة الواضحة على هذه التغييرات : « أقيمت أمس حفلة كوكتيل فى فروجتون رود ، وجرى الحديث حول مدة إقامة كل من الحاضرين فى نيوكانان . ولم يدهش أحد عندما تبين أن أقدم زوجين من الحاضرين إقامة بالمنطقة لم تتجاوز إقامتهما خمس سنوات » . إن هذه السنوات الخمس من وجهة نظر أزمان وأمكنة أقل تحركا ، لم تكن تزيد على كونها « فترة اقتحام » تحتاج إليها الأسرة الوافدة على مجتمع ما قبل أن « يتقبلها » هذا المجتمع . أما بالنسبة لوقتنا الحاضر فقد أصبح من المحتم أن تضغط « فترات الاقتحام » هذه إلى أقصى حد .

من أجل ذلك نشأت فى ضواحى العديد من المدن الأمريكية خدمات تجارية مهمتها تعريف الوافدين الجدد بالمنطقة ، وبأهم المحلات ، والوكالات الموجودة بها . وتستخدم من أجل هذا الغرض عربات تسمى : « عربة الترحيب » ، يعمل عليها موظف ، غالبا ما يكون سيدة متوسطة السن ، تقوم بزيارة الوافدين الجدد . وتتولى الرد على كل ما يعن لهم من أسئلة خاصة بالمجتمع المحلى ، وتمدهم ببعض الكتيبات ، وأحيانا بشهادات يمكنهم بموجبها الحصول على هدايا ضئيلة الثمن من المخازن المحلية . ولما كان تأثير عربة الترحيب منحصرا فى نطاق نوع معين من العلاقات ، هو العلاقة بالخدمات ، فإنه من ثم لا يعدو أن يكون تأثيرا سطحيا .

إن سرعة الاتصال بالجيران والأصدقاء الجدد غالبا ما تتحقق بفضل وجود أشخاص معينين – غالبا سيدات متقدمات فى السن ، مطلقات ، أو وحيدات – يتولين بصفة غير رسمية عملية إدماج الوافدين فى المجتمعات المحلية . مثل هؤلاء تجدهم فى كثير من الضواحى ومناطق الإسكان الجديدة . وقد عرض عالم الاجتماع روبرت جتمان من جامعة روتجرز ، وصفا لوظيفة هؤلاء لاحظ فيه أن الواحدة منهن كثيرا ما تكون هى نفسها بمعزل عن التيار الرئيسى للحياة الاجتماعية ، ولكنها تجد متعة فى القيام بدور القنطرة التى يعبرها الوافدون الجدد إلى المجتمع . إنها تأخذ المبادرة بدعوتهم إلى الحفلات وغيرها من التجمعات ، الأمر الذى يطرى هؤلاء الوافدين وهم يرون : « عضوا قديما » بالمجتمع يبادر إلى دعوتهم – مع ملاحظة أنه بالنسبة لكثير من المجتمعات المحلية قد لا تزيد فترة إقامة هذا « العضو القديم » به على عامين . وللأسف فإن الوافدين الجدد سرعان ما يكتشفون أنها نفسها تعتبر « لا منتمية » ، ومن ثم فإنهم غالبا ما يقطعون صلتهم بها . ويعلق « جتمان » على هذه الحقيقة بقوله : « من حسن حظ أولئك الذين يتولون عملية دمج الوافدين الجدد فى المجتمع أنه فيما بين الوقت الذين يبدأون فيه أداء هذه الخدمة للوافدين والوقت الذى يتخلى فيه هؤلاء عنهم ، يكون وافدون آخرون قد وصلوا ، ومن ثم فإنهم يجدون دائما من يرحب بيد الصداقة التى يمدونها إليه . . » .

وإلى جانب هؤلاء يوجد أشخاص آخرون بهذه المجتمعات يساعدون على الإسراع بعمليات التعارف ، ويقول « جتمان » : « إن بعض من سألناهم قرروا أن وكيل شركة الإسكان هو الذى تولى تقديمهم إلى جيرانهم قبل أن يتعاقدوا معه على المنزل. وفى بعض الحالات يتم التعارف عن طريق زيارات فردية ، أو فى جماعات تقوم بها زوجات السكان القدامى إلى زوجات السكان الوافدين . وفى حالات أخرى يتم التعارف مصادفة فى أثناء العمل فى الحديقة ، أو فى أثناء مراقبة الأطفال فى لعبهم . وبالطبع هناك أيضا اللقاءات التى يكون الفضل فى إتمامها للأطفال ، فهم بطبيعتهم يكونون عادة أسرع الجميع فى إقامة الاتصال بالمجتمع البشرى لبيئتهم الجديدة » .

وتقوم المنظمات المحلية أيضا بدور هام فى مساعدة الفرد على الاندماج فى المجتمع ويتحقق هذا بنسبة أعلى بين ملاك المنازل فى الضواحى منه بين سكان مناطق الإسكان الجديدة . إن الكنائس والأحزاب السياسية والمنظمات النسائية تتيح الكثير من العلاقات الإنسانية التى يسعى إليها الوافدون الجدد ، وطبقا لمـــا قرره « جتمان » فإنه :. « أحيانا يقوم أحد الجيران بتعريف القادم بالمنظمات التطوعية الموجودة . وقد يصحبه إلى أول لقاءاته بتلك المنظمات ، ولكن حتى فى مثل هذه الحالات فإن على الوافد الجديد أن يهتدى بنفسه إلى جماعته الخاصة ، داخل هذه المنظمة أو تلك » .

إن الإدراك المسبق لحقيقة أن أى انتقال ليس بأى حال آخر الانتقالات ، وإن ثمة موضعا ما على امتداد الطريق سيتعين على بدو العصر الجديد عندما يبلغونه أن يحزموا أمتعتهم مرة أخرى من أجل هجرة جديدة . . هذا الإدراك يعمل بشدة ضد تكوين علاقات دائمة . كما يعنى أيضا أنه إن كان ولابد من أن تنشأ أى علاقات أصلا ، فمن الأفضل أن نبعث فيها الحياة بأسرع ما يمكن .

إن الوجه الآخر لضغط زمن « فترة الاقتحام » هو تقارب زمن «الإفلات». وتبدو هذه الحقيقة أكثر وضوحا فى حالات العلاقات المتصلة بالخدمات ، فكونها غير متعددة الأبعاد يجعلها تبدأ وتنتهى سريعا . ويعبر عن ذلك مدير مخزن أطعمة فى إحدى الضواحى بقوله : « إنهم يجيئون ويذهبون ، فإذا ما افتقدتهم يوما فسرعان ما ستعرف أنهم انتقلوا إلى دالاس . . » ويلاحظ أحد كتاب مجلة بيزنيس ويك : « أنه من النادر فى واشنطن أن تقوم علاقة طويلة بين أى من تجار التجزئة وزبائنه » . أما ذلك المحصل الذى يعمل على خط نيوهافن فيقول : « إنها دائما وجوه مختلفة ، تلك التى تطالعنى يوما بعد آخـــر » .

حتى الأطفال الصغار أصبحوا يحسون زوالية الروابط الإنسانية . . لقد اختفت « الدادة » من حياة الطفل وحلت محلها خدمات « جليسات الأطفال » التى ترسل فى كل مرة شخصا مختلفا ليعنى بالطفل . كما انعكست نفس النزعة إلى العلاقات المتقطعة فى زوال طبيب الأسرة . إن المـأسوف عليه طبيب

الأسرة ، الممارس العام ، لم يكن يتمتع بدرجة الكفاية العالية التى يتمتع بها الاخصائيون كل فى مجاله المحدود . ولكن كانت لديه على الأقل ميزة ملاحظة نفس المريض أحيانا من المهد إلى اللحد. أما اليوم فإن المريض لم يعد ذلك القاعد القانع بعلاقة طويلة المدى بطبيب واحد . . وإنما هو المتنقل بين طائفة متنوعة من ذوى التخصصات المختلفة مغيرا إياها كلما انتقل من مكان إلى آخر . وحتى فى أى علاقة مفردة فإن الاتصالات قد أصبحت أقصر فأقصر . وهكذا نجد مؤلفى كتاب « كريستودد هايتس » فى مناقشتهم لموضوع التفاعل بين الخبراء والأشخاص العاديين يشيرون إلى : « قصر أمد اتصال كل منهما بالآخر . . طبيعة اتصالاتهم التى تمثل بدورها دالة من دلالات الانشغال وضغط الوقت بالنسبة للجانبين ، والتى تعنى أن أى رسالة متبادلة لابد أن تختزل إلى بلاغ قصير ، أيضا مع مراعاة ألا يكون هناك الكثير من هذه البلاغات القصيرة . . » إن تأثير مثل هذا التفسخ والتقلص فى العلاقة بين الطبيب والمريض على الرعاية الصحية ينبغى أن يكون محل استطلاع أكثر جدية .

الصداقات فى المستقبل

فى كل مرة تنتقل فيها الأسرة فإنها أيضا تنسلخ عن عدد معين من الأصدقاء والمعارف . وبمفارقتهم فإنهم فى النهاية يتوارون فى زوايا النسيان . ولكننا لا ننهى كل علاقاتنا دفعة واحدة بمجرد الافتراق . . إننا نستمر فى الاتصال بصديق أو أكثر من الموضع القديم ، كما نداوم على الاتصال من حين لآخر بأقاربنا . ولكن هذه الاتصالات ماتلبث أن تتآكل مع كل انتقال جديد . ففى البداية يكون هناك سيل من الخطابات المتبادلة ، وربما الاتصال بالتليفون من حين لآخر : ثم تظل الخطابات تتناقص تدريجيا حتى تنقطع فى النهاية : يقول واحد ممن يعتبرون نموذجا لسكان الضواحى الانجليز : « إنك لا تستطيع أن تنسى لندن حيث لا تزال تقطن كل أسرتك . كما أن لنا أصدقاء يعيشون فى بلمستيد وايلثام . لقد اعتدنا أن نعود إلى لندن فى نهاية كل أسبوع . ولكن من المستحيل أن تستمر هكذا إلى ما لا نهاية » .

لقد اقتنص جون بارث معنى التقلب بين الصداقات فى مقطع من روايته : « الأوبرا العائمة » يقول فيه : « يرحل أصدقاؤنا بعيداً فنظل على اتصالنا بهم . ثم يستمرون فى الرحيل ، ويتعين علينا الاعتماد على السماع حتى لا نفقد أثرهم تماما ، ثم يعودون فنجد أننا إما أن نجدد صداقتنا أو نكتشف أن أحدنا لم يعد يفهم الآخر » . إن الخطأ الوحيد فى هذا الكلام يتمثل فيما احتواه من افتراض ضمنى بأن التيار الذى تطفو الصداقات عليه وتعوم ، تيار هادئ بطئ . . فالحقيقة أن التيار اليوم يكتسب سرعة متزايدة . والصداقة تقترب باطراد من اليوم الذى ستصبح فيه بمثابة قارب صغير يصارع شلالات نهر التغيير . يقول البروفيسور ايلى جينزبرج من جامعة كولومبيا ، والخبير فى حركة القوى البشرية : « قريبا جداً سنصنع جميعا فى هذه البلاد شعبا من طراز سكان العواصم بلا روابط طويلة الأجل بالأصدقاء أو الجيران » .

فى مقال رائع عن « الصداقات فى المستقبل » يقول العالم النفسى كورتنى تول : « إن الاستقرار المرتكز على علاقات وثيقة مع عدد قليل من الناس سوف يثبت عدم صلاحيته ، وتبعا لتزايد الحركية ، واتساع مجال الاهتمامات ، وتنوع القدرة على التكيف بين أفراد مجتمع الاتوميشن . . سوف تنمو لدى الأفراد القدرة على تكوين علاقات وثيقة من طراز « الزمالة » على أساس من الاهتمامات والمصالح المشتركة أو الانتساب إلى طائفة فرعية . ثم فصم هذه الصداقات بسهولة ، إما بالانتقال إلى موقع آخر ، وإما بالانضمام إلى طائفة أخرى مماثلة أو مختلفة فى نفس الموقع . . فالاهتمامات والمصالح نفسها ستتغير بسرعة . . . » .

هذه القدرة على تكوين الصداقات ثم التخلى عنها ، أو النزول بها إلى مستوى التعارف ، والتكوين السريع للعلاقات الوثيقة مصحوبة بتزايد الحركية ، سوف تتيح لأى فرد أن ينشئ عددا من الصداقات أكثر مما هو متاح له فى الوقت الحاضر . . إن أنماط الصداقات فى المستقبل ستكون بالنسبة للغالبية مصدر ارتياح عميق . فإنها ستعوض صداقات الماضى القليلة العدد الطويلة الأجل ، بصداقات أكثر عدداً وأقصر أجلا .

صداقات محدودة بإطار الوظيفة

إن أحد الأسباب التى تعزز الاعتقاد باستمرار الاتجاه نحو العلاقات المؤقتة هو تأثير التكنولوجيا الحديثة على المهن . فحتى لو افترضنا أن الدفعة نحو المدن العظمى قد توقفت ، وأن الناس قد جمدوا فى مواقعهم الجغرافية . فإن التزايد فى عدد العلاقات سيستمر ، كما سيستمر التناقص فى دواميتها كنتيجة لتغير المهن والوظائف . لأن استخدام التكنولوجيا المتقدمة ، سواء سميناها أم لم نسمها بالاتوميشن ، سوف يواكبه بالضرورة تغيرات جذرية فى أنماط المهارات والأشخاص التى يتطلبها النشاط الاقتصادى للمجتمع .

إن التخصص يزيد من عـــدد المهن المختلفة ، وفى نفس الوقت فإن الاستحداثات التكنولوجية تنقص من الأجـــل المتوقع لأى مهنة . يقول الاقتصادى نورمان أنون الخبير فى مشكلات القوى البشرية : « إن ظهور واختفاء المهن سيحدث بسرعة فائقة بحيث سيجعل الناس دائما فى حيرة من أمرهم » . ويضرب المثل على ذلك بمهنة المهندس المرافق للطائرة التى ظهرت ثم بدأت تختفى فى غضون فترة قصيرة لم تتعد خمسة عشر عاما .

إن نظرة فاحصة إلى صفحات الإعلان عن الوظائف الخالية بأى صحيفة كبرى يمكن أن تقربنا من حقيقة التزايد المذهل فى عدد المهن الجديدة . وإن مهن : محلل برامج ، ومشغل كونسول ، وكاتب شفرة ، وأمين مكتبة شرائط ، وعامل شرائط ، ليست إلا نموذجا لقليل من كثير من المهن التى تتصل بعمليات الكومبيوتر . . وأيضا فإن استرداد المعلومات ، والمسح البصرى ، وتكنولوجيا الأغشية الرقيقة ، تحتاج كلها إلى أنواع جديدة من التخصص والخبرة . عندما قامت مجلة « فورتشن » فى أواسط الستينيات بعملية مسح على ١٠٠٣ من الموظفين الشباب المعينين حديثا بإحدى الشركات الكبرى ، اكتشفت أن واحدا من بين كل ثلاثة منهم يشغل وظيفة لم يكن لهـا وجود بالشركة من قبل . وحتى عندما يظل اسم المهنة بلا تغيير فإن محتوى العمل بها نفسه يتغير باستمرار ، وبالتالى تتغير مهارات الأشخاص الذين يشغلون وظائفها .

إن تغير الوظائف ليس فقط نتيجة مباشرة للتغيرات التكنولوجية ، ولكنه يعكس أيضا عمليات الدمج والضم التى تحدث عندما تأخذ الصناعات فى كل مكان فى تنظيم وإعادة تنظيم نفسها لتتكيف مع البيئة السريعة التغير ، ولتقابل التقلبات الهائلة فى مطالب المستهلكين . وثمة ضغوط أخرى معقدة تتكاتف لتجعل من عملية تقليب ومزج الوظائف عملية مستمرة بلا توقف . وهكذا فإن آخر مسح قامت به وزارة العمل الأمريكية على قوة العمل البالغ عددها ٧١,٠٠٠,٠٠٠ ظهر منه أن المتوسط العام لمدة خدمة العاملين فى وظائفهم الحالية ٤,٢ سنوات ، على حين كان نفس المتوسط منذ ثلاث سنوات فقط هو ٤,٦ سنوات . . أى إن التقاصر فى دوامية العمل خلال هذه السنوات الثلاث قد بلغ ٩٪ تقريبا .

وجاء فى تقرير آخر لوزارة العمل : « إنه نظرا للظروف التى جدت منذ أوائل الستينيات . فإنه من المتوقع بالنسبة للشاب البالغ عشرين عاما أن يغير عمله ست أو سبع مرات » . ومعنى هذا أن مواطن مجتمع ما فوق التصنيع سيتحتم عليه بدلا من أن يفكر فى اكتساب «مهنة» ، أن يفكر فى اكتساب : « سلسلة من المهن » .

فى الوقت الحاضر ، ولأسباب تتصل بحسابات قوة العمل ، يرتب العاملون طبقا للوظائف التى يشغلونها حاليا . . فهـــذا « عامل ماكينة » ، وذاك « كاتب مبيعات » ، والآخر « مبرمج كومبيوتر » . . وهكذا . . ولكن هذا النظام الذى وضع فى زمن أقل ديناميكية لم يعد صالحا من وجهة نظر العديد من خبراء القوى البشرية . وتبذل حاليا جهود ضخمة من أجل توصيف كل عامل ، لا على أساس عمله الحالى ، ولكن على أساس من « المسار » الذى سارت فيه مهنته . وبالطبع ستختلف المسارات بالنسبة للأشخاص وإن كانت بعض أنماط المسارات سوف تتكرر . وعندما يسأل إنسان عصر مافوق التصنيع : « ماذا تعمل ؟ » فإنه لن يقدم نفسه باعتبار ما يشغله حاليا من وظيفة (زائلة) . ولكن على أساس مساره المهنى . أى نمط حياته العملية بأكملها . وإن مثل هذا النظام سيكون ، يقينا ، أكثر ملاءمة لسوق العمل

فى مجتمع ما فوق التصنيع من نظام التوصيف الحالى الذى لا يدخل فى حسابه ماذا كان الفرد يعمل من قبله . أو ماذا يمكن أن يؤهل لعمله فى المستقبل .

والارتفاع المستمر فى معدل تغيير الوظائف ليس ظاهرة تنفرد بها الولايات المتحدة ، بل تشاركها فيها أيضا دول أوروبا الغربية ؛ ففى انجلترا قدر معدل تغير الوظائف فى الصناعات الإنتاجية ما بين ٣٠ و ٤٠ فى المائة سنويا ، وفى فرنسا بلغ المعدل السنوى بالنسبة لكل القوى العاملة ٢٠ فى المائة . وطبقا لما قرره مونيك فيو فإن هذا المعدل فى ارتفاع مستمر . أما فى السويد ، فيقول أولف جوستافسون مدير اتحاد الصناعات السويدى : « فى تقديرنا أن معدل تغيير الوظائف فى السويد بلغ ما بين ٢٥ ، ٣٠ فى المائة سنويا . ويحتمل أن يكون قد وصل فى بلاد أخرى إلى مابين ٣٥، ٤٠ فى المائة من قوه العمل » .

ومع ذلك فلا يغير من الصورة كثيرا كون القياسات الإحصائية تؤكد ارتفاع معدل تغيير الوظائف أو عدم تغيرها . لأن هذه القياسات ليست سوى جزء من القصة ، لأن هذه الإحصاءات لاتدخل فى حسابها تغييرات الوظائف داخل نفس الشركة أو المصنع ، أو النقل من قسم إلى آخر ، والتى يصفها أ . ك . رايس من معهد تافيستوك بلندن بقوله : « إن النقل من قسم لآخر يبدو وكأنه بدء لحياة جديدة داخل المصنع » . إن الإحصاءات العامة ، بإغفالها إدخال مثل هذه التغييرات فى حسابها ، تبخس بشكل خطير من تقديراتها للحجم الفعلى للتغييرات التى تحدث . إن كل عملية نقل تنطوى على إنهاء علاقات إنسانية قديمة وإنشاء أخرى جديدة .

إن أى تغيير فى العمل يوقر الفرد بقدر معين من الأعباء والتوترات الجديدة . فهو مطالب بأن ينسلخ من عاداته القديمة ، ومن أساليبه القديمة فى التصدى للمشكلات ، كما أنه مطالب أيضا بتعلم أساليب جديدة للعمل . وحتى عندما يكون محتوى العمل الجديد هو نفس محتوى العمل القديم فإن بيئته تختلف عن بيئة العمل القديم . وكما يحدث بالنسبة للمنتقل إلى مجتمع جديد ، فإن العامل المنقول إلى عمل جديد يجد نفسه واقعا تحت ضغط ضرورة الإسراع

بتكوين علاقات إنسانية جديدة . وهنا أيضا يوجد الأشخاص الذين يساعدون بصفة غير رسمية على الإسراع بعملية إدماج الوافد فى بيئته الجديدة . وهنا أيضا يسعى الوافد إلى إنشاء علاقات إنسانية من خلال انضمامه إلى المنظمات — والتى تكون فى العادة منظمات غير رسمية وفئوية خارج إطار التنظيم العام للشركة . وهنا أيضا ، تنعكس المعرفة المسبقة بأنه ليس هناك فى الحقيقة عمل « دائم » على طبيعة العلاقات التى تنشأ فى إطاره فتكون بدورها مشروطة « ومتغيرة » ، وعلى وجه التحديد . . مؤقتة.

مجندون وهاربون

لقد تبين لنا من مناقشتنا لظاهرة التنقـــل الجغرافى أن بعض الأفراد والجماعات أكثر حركية من غيرهم . وأيضا بالنسبة للتنقل المهنى فإننا نجد بعض الأفراد والجماعات يغيرون وظائفهم بمعدل أعلى مما يفعل الآخرون . ونستطيع — بمعنى متناهى البساطة — أن نقول إن أولئك الأكثر تنقلا جغرافيا ، هم أيضا الأكثر تنقلا مهنيا ، وهكذا نجد مرة أخرى أن هناك ارتفاعا ملحوظا فى معدلات تغيير العمل بين الفئات الأقل دخلا ومهارة فى المجتمع . أولئك المعرضون دائما لأسوأ الصدمات فى اقتصاد يتزايد طلبه باستمرار للمتعلمين والعمال والمهرة . . أولئك المساكين الذين يقفزون من عمل إلى عمل وكأنهم رأس دبوس وسط مطارق عملاقة هائلة . إنهم دائماً آخر من يستؤجر ، وأول من يطرد .

أما بين ذوى المستوى المتوسط من التعليم والدخل فإننا نجد الناس ، وإن كانوا حقيقة أكثر تحركا من العاملين فى الزراعة ، إلا أنهم فى نفس الوقت مستقرون نسبيا . وهنا أيضا نجد مرة أخرى أن أعلى معدلات تغيير الوظائف وأسرعها ارتفاعا توجد بين تلك الفئات التى تتميز بانتسابها أكثر من غيرها إلى المستقبل — العلماء والمهندسين ، والمؤهلين عاليا من المهنيين والفنيين وعناصر الإدارة العليا والوسطى .

لقد اتضح من دراسة أجريت حديثا ، أن معدل تغيير الوظائف بين العلماء والمهندسين العاملين فى نواحى البحث وتطوير الصناعة فى الولايات

المتحدة يساوى ضعف المعدل العام فى الصناعة الأمريكية . وليس من العسير أن ندرك السبب . . إنهم على وجه التحديد فى سن حربة التغيير التكنولوجى – السن التى تتساقط من حولها بسرعة ضروب المعرفة القديمة لتؤول إلى الزوال . وعلى سبيل المثال فإن من المصطلح عليه فى مصانع وستنجهاوس أن ما يسمى : « نصف عمر » المهندس المؤهل لا يزيد على عشر سنوات – ويعنى هذا أن نصف ما تعلمه المهندس سيعفى عليه الزمن خلال عشر سنوات فقط .

وتتميز الصناعات الإعلامية الكبرى أيضا بمعدل شديد الارتفاع فى تغيير الوظائف – وخاصة صناعة الإعلان – لقد تبين من مسح أجرى حديثا على ٤٥٠ من الأمريكيين العاملين فى الإعلان أن ٧٠٪ منهم قد غيروا وظائفهم خلال العامين الأخيرين . وكانعكاس للتغيرات السريعة فى أفضليات السلع لدى المستهلكين ، وفى أساليب الإخراج الفنى للإعلان ، وفى أشكال السلع ذاتها ، فإن نفس لعبة الكراسى الموسيقية تجرى على أشدها فى انجلترا بين العاملين فى صناعة الإعلان . إن حركة تنقل الأفراد بين مختلف الوكالات قد تزايد إلى الحد الذى جعل صيحات التحذير تتصاعد من داخل الصناعة نفسها . وجعل كثيراً من الوكالات ترفض إدراج اسم الموظف فى قوائم العاملين بها قبل أن يقضى فى الخدمة عاما كاملا .

ولكن ربما كانت أكثر صور التغيير درامية هى تلك الصورة التى يجرى بها التغيير والتبديل فى وظائف المديرين . تلك الطبقة التى كانت تبدو فى الماضى وكأنها محصنة ضد هزات المصير التى تصيب من هم أقل منها حظا . إن الدكتور هارولد لافيت ، أستاذ الإدارة وعلم النفس الصناعى ، يلقى أكثر من ضوء على أبعاد هذه الظاهرة عندما يقول : « لأول مرة فى تاريخنا يبدو التخلف كإحدى المشكلات الهامة بالنسبة للإدارة ، فلأول مرة يتراجع بسرعة ما كان يعد تميزا نسبيا للخبرة على المعرفة » . ولأن التدريب على الإدارة الحديثة يستغرق وقتا طويلا ليصبح هذا التدريب نفسه بعد عشر سنوات متخلفا يفترض لافيت : « أننا قد نضطر إلى التخطيط لمهن تأخذ اتجاها هابطا مع

مرور الزمن بدلا من الاتجاه الصاعد كما كان يحدث من قبل . . وربما يصل الرجل إلى ذروة المسئولية فى المرحلة المبكرة من حياته ، ثم بعد ذلك يتحرك إلى أسفل أو إلى الخارج ليتولى وظائف مريحة وأكثر بساطة »

وسواء أكان الاتجاه المتوقع سيأخذ مسارا صاعدا أو هابطا أو جانبيا فإن الأمر المؤكد هو أن المستقبل يحمل فى ثناياه معدلات تغيير أكثر ، وليست أقل ، بالنسبة للوظائف . هذه الحقيقة التى يظهرها ما طرأ من تغير فعلى على نظرة أولئك المسئولين عن التوظيف تجاه المتقدمين لشغل الوظائف . وكمثال على هذه الحقيقة يقول مسئول فى شركة سيلانيز : « لقد كنت من قبل أحس بنوع من القلق عندما يذكر المتقدم للوظيفة قائمة الوظائف العديدة التى شغلها من قبل خوفا من أن يكون الرجل انتهازيا ، أو من هواة التنقل بين الوظائف . أما الآن فلم يعد هذا الأمر يقلقنى مطلقا . . وأصبح كل مايعنينى هو أن أعرف سبب تنقله من وظيفة إلى أخرى . بل ربما كان تنقله بين خمس أو ست وظائف خلال عشرين سنة نقطة تحسب له بدلا من أن تحسب عليه . وفى الحقيقة فإنه عندما يكون أمامى رجلان متساويان فى الكفاية فإنى أفضل من تنقل منهما أكثر ، لأسباب معقولة ، على ذلك الذى ظل قابعا فى مكانه . . لمـــاذا ؟ لأننى أعرف أن الأول أكثر قدرة على التكيف » . ويقول الدكتور فرانك ماك كيب مدير المستخدمين التنفيذيين فى الشركة الدولية للتليفون والتلغراف : « كلما ارتفع معدل تغييرك للوظائف، نجحت فى اجتذاب القادمين ؛ لأن القادمين بطبيعتهم متحركون » .

إن معدل التغيير المرتفع فى سوق الوظائف التنفيذية يتبع فى مساره نمطا متميزا ؛ ذلك النمط الذى أشار إليه تقرير نشرته مجلة فورتشن وجاء به : « إن ترك أحد المديرين التنفيذيين لوظيفته حادث لا يقتصر أثره على مجرد البدء فى سلسلة التغييرات فى الوظائف التى لابد وأن تترتب على خروجه ، ولكنه يثير عادة سلسلة موازية من التحركات . فعندما ينتقل الرئيس ينهال عليه سيل الطلبات من مرؤوسيه الذين يرغبون فى اللحاق به ، فإذا لم يأخذهم فإنهم يتجهون فوراً إلى البحث عن عمل فى مكان آخر »، فلا غرو إذن إذا

ماوجدنا معهد ستانفورد للبحوث يقرر فى تنبؤاته عن بيئة العمل فى سنة ١٩٧٥ ، فيقول : « يبـــدو واضحا أن المستوى الأعلى من ذوى البنائق « الياقات » البيضاء سيكون عرضة لقدر كبير من الاضطراب وستتسم بيئة العمل الإدارى بالبعد عن الاستقرار ، أو القدرة على توفيره » .

إن القوة الدافعة وراء كل هذا التقلب فى الوظائف ليست مجرد آلة التجديد التكنولوجى . ولكن أيضا الرخاء الجديد ، الذى يتيح فرصا جديدة وإمكانيات أكبر لتحقيق الذات . وحسب تعبير نائب مدير العلاقات الصناعية لشركة فيلكو التابعة لشركة فورد : « منذ ثلاثين عاماً كان الرجل يتشبث بأى عمل حتى يرى إلى أين سيفضى به مصيره ، أما رجال اليوم فيبدون وكأنهم يشعرون دائماً بأن هناك عملا آخر ينتظرهم عند البوابة » .

وفى حالات ليست بالقليلة لا تعنى الوظيفة الجديدة مجرد الانتقال إلى منشأة جديدة وموقع سكنى جديد ، ومجموعة جديدة من زملاء العمل فقط ، وإنما تعنى حياة جديدة تماما . وهكذا فإن نمط « سلسلة المهن » يتأكد بتزايد عدد الأشخاص الذين ما إن يستشعرون القدر المعقول من الرخاء الذى يضمنه لهم اقتصاد الوفرة حتى يقرروا أن يجعلوا من خط مستقبلهم دائرة كاملة ، فى حين ينظر غيرهم إلى المستقبل فى خط مستقيم نهايته التقاعد . لقد سمعنا عن محام بإحدى شركات الإسكان ترك عمله ليدرس العلوم الاجتماعية . وعن تلك المشرفة بإحدى شركات الإعلان ، والتى اتخذت قرارا بعد خمسة وعشرين عاما من الخدمة أن تترك عملها قائلة : « لقد سئمت هذا الجو العطن وبريقه الكاذب ، وقررت أن أنجو بنفسى منه . . » وفعلا تركته واشتغلت أمينة مكتبة . كما سمعنا عن مدير المبيعات فى لونج ايلند ومهندس فى الينوى تركا عملهما ليعملا مدرسين . وعن مهندس من كبار مهندسى الديكورات الداخلية عاد إلى المدرسة ثم التحق بعمل فى برنامج مكافحة الفقر .

رجال للايجار

إن كل تغير فى الوظيفة ينطوى على دفعة إلى أعلى لمعدل الناس الذين يمرون فى حياتنا . ومع تزايد المعدل تتقاصر بالتالى دوامية العلاقات . إن هذه

الحقيقة تبدو كأوضح ما تكون فى تزايد دور وكالات التشغيل المؤقت والتى تمثل المقابل البشرى للثورة الإيجارية التى تحدثنا عنها فى فصل سابق . إن عاملا من بين كل مائة عامل أمريكى يستخدم لفترة ما خلال كل سنة بواسطة ما يدعى : « وكالات التشغيل المؤقت » والتى تؤجره ، أو تؤجرها ، بدورها إلى الشركات لسد احتياجات مؤقتة .

واليوم يوجد بالولايات المتحدة ما يقرب من خمسمائة من هذه الوكالات التى تمد الصناعة بما يقرب من ٧٥٠,٠٠٠ عامل مؤقت سنويا من مختلف المهن ، من السكرتيرات وعاملات الاستقبال إلى مهندسات الصناعات الحربية ، فعندما احتاجت شركة افكو إلى ١٥٠ مهندس تصميمات لتنفيذ عقود حكومية عاجلة حصلت عليهم من هذه الوكالات ؛ وبدلا من أن تنفق شهورا فى تعيينهم استطاعت أن تحصل على حاجتها كاملة خلال فترة قصيرة . وتستخدم الحملات الانتخابية موظفين مؤقتين لتشغيل التليفونات وآلات النسخ . وكثيرا ما تطلب المستشفيات والمطابع والمصانع خدمات العمال المؤقتين لمواجهة الضغوط الطارئة . كما يستخدمون فى مناشط الدعاية والخدمات العامة (فى أورلاندو بولاية فلوريدا استأجر مركز تسويق جديد عمالا مؤقتين لتوزيع أوراق مالية من فئة الدولار كنوع من الدعاية للمركز) . وأكثر ابتذالا من كل ما سبق أن عشرات الألوف من هؤلاء تستأجرهم الشركات الكبرى للقيام بأعمال مكتبية « روتينية » ، كمساعدة للموظفين الدائمين فى أوقات الضغط . إن إحدى هذه الوكالات التى تؤجر الناس وهى وكالة أرثر تريتشر تذكر فى إعلاناتها أنها مستعدة لتأجير الخادمات ، والسائقين ، ورؤساء الخدم ، والطهاة ، والعمال اليدويين ، وجليسات الأطفـــال ، والممرضات ، والسباكين ، والكهربائيين ، وغيرهم ممن تتطلبهم الخدمات المنزلية ، ثم تضيف إلى الإعلان : « تماما كما يؤجر هرتز وايفيس السيارات » .

إن ظاهرة تأجير الموظفين والعمال المؤقتين كما تؤجر الأشياء المـادية ظاهرة تنتشر بسرعة فى معظم البلاد الصناعية . ففى فرنسا مثلا تؤجر حوالى ٢٥٠ وكالة تقوم بهذا العمل أكبرها الشركة المتحدة للقوى البشرية التى بدأت سنة ١٩٥٦ ، ومنذ ذلك الحين وحجم عملها يتضاعف بمعدل مرة فى كل عام .

إن هؤلاء الذين تستخدمهم وكالات التشغيل المؤقت يقدمون أسبابا متنوعة لتفضيلهم هذا الطراز من العمل . فمثلا يقول هوك هارجيت — وهو مهندس اليكترو ميكانيكى : « إن كل عمل أقوم به هو بالضرورة عمل مستعجل . وعندما يكون الضغط على أشده فإننى أشتغل أحسن » . لقد خدم هارجيت فى إحدى عشرة شركة مختلفة خلال ثمان سنوات . والتقى بمئات من زملاء العمل ثم فارقهم . ومن وجهة نظر بعض العمال المهرة ، فإن التشغيل المؤقت المنظم يوفر لهم فعليا ضمانات عمل أكثر مما هو متاح لأولئك المفروض فيهم أنهم مستخدمون دائمون فى الصناعات الكثيرة التقلب . فالتوقف ، والخفض المفاجئ فى الإنتاج ، أمور مألوفة فى الصناعات الحربية ، ومن ثم يجد الموظف « الدائم » نفسه فجأة وقد ألقى به إلى الشارع دون إنذار . أما المهندس الذى يقوم بأعمال مؤقتة فما إن ينتهى من أداء مهمته حتى يتجه إلى مهمة أخرى .

وأهم من هذا — بالنسبة لمعظم العمال المؤقتين — أنهم يستطيعون بذلك أن يحددوا لأنفسهم ما يريدون ، وأنهم إلى حد كبير يستطيعون أن يحددوا متى وأين سيعملون . وبالنسبة للبعض فإنهم يجدون فى مثل هذا العمل سبيلا واعيا إلى توسيع دائرة اتصالاتهم الاجتماعية . إن أما شابة اضطرت بسبب نقل زوجها أن تنتقل معه إلى مدينة جديدة . ووجدت نفسها وحيدة خلال الساعات الطويلة التى يقضيها طفلاها فى المدرسة ، فوقعت عقدا مع إحدى وكالات التشغيل المؤقت ، ومنذ ذلك الوقت وهى تعمل بمعدل ثمانية أو تسعة أشهر فى السنة . وبالانتقال من شركة إلى أخرى وجدت فرصة الاتصال بعدد كبير من الناس ، واستطاعت أن تنتقى من بينهم بعض الأصدقاء .

كيف تفقد الأصدقاء

إن ارتفاع معدلات التغيير فى الوظائف وانتشار الإيجارية فى علاقات العمل سيزيدان بالضرورة من سرعة إنشاء العلاقات الإنسانية وفصمها ؛ الأمر الذى سيحدث بلا شك تأثيرات شتى بالنسبة لفئات اجتماعية مختلفة. فبالنسبة لأفراد الطبقة العاملة فإنهم بشكل عام أكثر ميلا إلى الحفاظ على

صلات القربى والعيش بجوار أقاربهم أكثر مما يفعل أفراد الطبقات الوسطى والعليا من المجتمع ، وكما يقول العالم النفسى ليونارد دول : « إن الروابط العائلية تعنى الكثير بالنسبة لهم ، ومع ضعف مواردهم المالية فإن الارتحال من وجهة نظرهم أمر عسير » . وأفراد الطبقة العاملة أقل من غيرهم استعداداً لإنشاء العلاقات المؤقتة . إنهم يستغرقون وقتا أطول فى إنشاء الروابط ويترددون أكثر فى فصمها . فليس من الغريب إذن أن نراهم أكثر ترددا فى تغيير وظائفهم ، فإن فعلوا فغالبا عن اضطرار ونادرا عن رغبة .

وعلى النقيض من ذلك يقول ليونارد دول : « إن المهنيين والأكاديميين وطبقة الإدارة العليا فى الولايات المتحدة مرتبطون أساسا بمصالح واهتمامات ممتدة عبر مسافات واسعة . ومن ثم فيمكن القول حقيقة بأن روابطهم ذات طابع عملى . ويمكن أن نصف هذه الفئة بأن أفرادها كثيرو الحركة ، وأن علاقاتهم ذات طابع مصلحى وتتضاعف بسهولة » .

إن تزايد عدد الأشخاص الذين يمرون فى حياة الفرد لا ينطوى فحسب على القدرة على إنشاء العلاقات ، ولكن أيضا على فصمها ، وأيضاً قدرة على الانسلاخ موازية للقدرة على الانتماء . ويبدو أن أكثر الناس استعداداً لاكتساب هذه القدرة على التكيف هم فى نفس الوقت من بين أوفر فئات المجتمع نصيبا من الرخاء . إن سيمور لبست وراينهارد بندكس يقولان فى كتابيهما : « الحركية الاجتماعية فى المجتمع الصناعى » : « إن الرجل الكثير التحرك اجتماعيا من بين قادة الأعمال يبدى قدرة غير عادية على الانفصال عن هؤلاء الذين يعتمدون عليه وإنشاء علاقات مع أولئك الذين يستطيعون أن يساعدوه » .

وهما بهذا يؤيدان ويؤكدان ما توصل إليه عالم الاجتماع لويد وارنر الذى يقول : « إن أهم مكونات شخصية أصحاب ومديرى الشركات الكبرى هو تحلل ارتباطهم العاطفى بأصولهم العائلية . لقد خلصوا أنفسهم من شباك الماضى ، ومن ثم أصبحوا أكثر قدرة على الانتماء إلى الحاضر والمستقبل . إنهم أناس قد تركوا بيوتهم لفظا ومعنى . . إنهم قادرون على الارتباط بالآخرين بسهولة ، والانفصال عنهم بنفس السهولة » .

ومرة أخرى يكتب وارنر فى دراسة قام بها بالاشتراك مع جيمس ابيجلن عن (كبار قادة الأعمال فى أمريكا) فيقول : « هؤلاء هم ، قبل كل شئ ، رجال فى حركة دائبة . لقد تركوا بيوتهم وكل ما يمت إليها بصلة . لقد خلفوا وراءهم مستوى فى المعيشة والدخل ، وأسلوبا فى الحياة ، ليتبنوا أسلوبا للحياة مختلفا كل الاختلاف عن ذلك الذى ولدوا فيه . إن الرجل المتحرك يترك أول ما يترك البيئة المادية لمولده ، بما فيها المنزل الذى عاش فيه والجيرة التى عهدها ، وفى كثير من الحالات المدينة والولاية والمنطقة التى ولد بها .

« وهذا الرحيل الجسدى ليس سوى جزء ضئيل من عملية انفصال كاملة لابد وأن يقوم بها الرجل المتحرك . فينبغى له أن يترك الناس كما ترك الأمكنة ، أن يترك أصدقاء السنين الغابرة ؛ لأن صداقات الماضى المتواضع لا تصلح للحاضر الناجح . إنه غالبا ينفصل أيضا عن الكنيسة التى عمد بها إلى جانب النوادى والجماعات التى كان ينتمى إليها فى أثناء وجوده مع أسرته وفى أيام شبابه . ولكن أهم من هذا كله . وأكبر مشكلة تواجهه أن عليه بشكل ما أن يترك والديه وإخوته ضمن ما يترك من علاقات ماضيه الإنسانية » .

أغلب الظن أننا إذن لن نشده كثيرا إذا ما رأينا إحدى مجلات الأعمال وهى تقدم مجموعة من النصائح ، المتسمة بالسماجة والإغراب ، إلى أولئك الذين رقوا حديثا إلى مراكز كبيرة وزوجاتهم ؛ نصائح من نوع : « اقطع صلتك بقدامى الأصدقاء والمرؤوسين تدريجيا ، حتى لا تثير إلا أقل امتعاض ممكن » . كما تنصحه بأن : « ينتحل دائما أسبابا وجيهة لعدم الانضمام إلى الجماعة فى أوقات تناول القهوة والغداء » . وأيضا بأن : « يتعمد التخلف عن حفلات البولينج ولعب الورق التى يقيمها الموظفون ، أحيانا فى بداية الأمر ، ثم غالبا بعد ذلك » . ثم تحذرهم من : « أن دعوة إلى منزل مرؤوس يمكن أن تقبل ، ولكن لا ينبغى أن ترد إلا فى شكل دعوة لمجموعة كبيرة من المرؤوسين معا » . ثم تؤكد على ضرورة أن تتوقف مثل كل هذه المجاملات المتبادلة نهائيا بعد فترة من الوقت .

ثم نعلم أن الزوجات يسببن مشكلات من نوع خاص لأزواجهن الناجحين ،

لأنهن كما يقال : « لا يعرفن البروتوكول الذى تفرضه مراكز أزواجهن . » ولذا ينصح الرجل الناجح بأن يتذرع بالصبر على زوجته التى قد تتمسك بالعلاقات القديمة بأكثر مما يفعل هو . ولكن ، وحسب تعبير أحد المديرين : « إن الزوجة يمكن أن تصبح مصدر خطر فادح ، إذا ما أصرت على إبقاء روابط وثيقة مع زوجات مرؤوسى زوجها . إن صداقاتها يمكن أن تؤثر فيه ، وأن تلون أحكامه على من يعملون تحت رئاسته ، وأن تعوق عمله ، وأكثر من ذلك نجد أحد المسئولين عن إدارة الأفراد يقول : « عندما ينفصل الوالدان عن أصدقائهما القدامى ، فكذلك يفعل الأولاد » .

كم من الأصـــدقاء ؟

مثل هذه التعليمات الصارمة عن كيف تقطع علاقاتك ، كفيلة دون شك بأن ترسل رعشة باردة فى عظام أولئك الذين نشأوا على النظرة التقليدية للصداقة باعتبارها علاقة ممتدة الأجل . ولكن ينبغى قبل أن نتسرع فى اتهام دنيا الأعمال بالقسوة ، أن ننعم النظر والفكر لنكتشف أن مثل هذا النمط مستخدم ، غالبا ، تحت ستار من الرياء الزائف ، فى كثير من قطاعات المجتمع . إن أستاذ الجامعة الذى يولى منصب العميد ، وضابط الجيش الذى يرقى إلى رتبة أعلى ، والمهندس الذى يعين مديرا للمشروع ، غالبا ما يمارسون نفس هذه اللعبة الاجتماعية. بل أكثر من ذلك فإنه من المتوقع أن يمتد مثل هذا النمط فى القريب العاجل إلى ما وراء دنيا الأعمال والمنظمات الرسمية . فلما كانت الصداقة ترتكز على أساس من الاهتمامات والأهليات المشتركة ، فإن علاقات الصداقة حرية بأن تتغير عندما تتغير الاهتمامات حتى ولو لم يترتب على التغير أى نوع من التمايز الطبقى . وفى مجتمع يجتاز أسرع مراحل التغيير فى التاريخ يكون الأمر المستغرب حقا هو ألا تتغير اهتمامات الأفراد وتتبدل بسرعة واطراد .

والواقع أن جانبا كبيرا من النشاط الاجتماعى للأفراد فى وقتنا الراهن يأخذ مسلك البحث المستمر — عملية استكشاف لا تتوقف يبحث الفرد من خلالها عن أصدقاء جدد ليحلوا محل أولئك الذين هم ، إما أن يكونوا قد رحلوا ،

أو لم يعد تربط بينه وبينهم نفس الاهتمامات . هذا التقلب هو الذى يجذب الناس ، وخاصة المتعلمين منهم ، إلى المدن ويجتذبهم إلى الأنماط المختلفة للوظائف المؤقتة . فالتعرف إلى الناس الذين يشاركونك فى نفس الاهتمامات والأهليات ليس بالعملية اليسيرة فى مجتمع ينمو فيه الاتجاه إلى التخصص بسرعة مذهلة . هذا الاتجاه نحو المزيد من التخصص الذى لم يعد مقصوراً على مجالات العمل بعد ، تعداه إلى مجالات الترفيه وتزجية الفراغ . فمن النادر أن يكون قد توافر لأى مجتمع ما قد توافر لمجتمعنا الراهن من الوسائل المقبولة والمتاحة دائما لتزجية أوقات الفراغ . وكلما زاد التنوع فى مجال العمل ومجال الترفيه على حد سواء ، تزايد بالتالى الاتجاه إلى التخصص ، ونجمت عن ذلك صعوبة أكبر فى العثور على الأصدقاء المناسبين .

وحسب تقدير البروفيسور سارجانت فلورنس ، فإنه فى بريطانيا يحتاج المهنى المتخصص إلى مليون من السكان كحد أدنى للعدد الذى يستطيع أن يعثر من خلاله على عشرين من الأصدقاء المناسبين .

إن المرأة التى اتجهت إلى الأعمال المؤقتة ، كخطة للعثور على أصدقاء ، امرأة ذكية حقا . فكلما تزايد عدد الأشخاص الذين تحتك بهم من خلال العمل زادت احتمالات عثورها على القليل الذى تبحث عنه ممن يشاركونها فى نفس الاهتمامات والأهليات .

إننا ننتقى أصدقاءنا من بين عدد ضخم من المعارف . لقد أجرى مايكل جيرفيتش من معهد مساشوستس للتكنولوجيا دراسة طلب فيها من مجموعة مختلفة النوعيات أن يسجل كل منهم عدد من يتعارفون بهم خلال فترة مائة يوم ، فبلغ متوسط ما سجله الواحد منهم خلال هذه الفترة حوالى خمسمائة اسم . أما أخصائى علم النفس الاجتماعى شتانلى ميلجرام ، والذى أشرف على عدد من التجارب المثيرة المتعلقة بالتواصل من خلال التعارف ، فيقرر أن نصيب الفرد الأمريكى من المعارف يتراوح بين ٥٠٠ و ٢٥٠٠ .

ومع ذلك فالواقع أن معظم الناس لم يصل عدد أصدقائهم إلى العشرين الذين افترضهم البروفيسور فلورنس ، وربما كان فى تقديره من السخاء أكثر

مما هو واقع بالفعل فى الحياة اليومية . لقد أجريت دراسة شملت تسعا وثلاثين أسرة (الزوج والزوجة) من الطبقة الوسطى بمدينة لنكولن بولاية نبراسكا ، طلب منهم أن يضعوا قوائم بأصدقائهم . وكان هدف الدراسة هو معرفة أى الزوجين أكثر تأثيرا فى اختيار أصدقاء الأسرة . وقد أظهرت الدراسة أن متوسط ما سجله كل زوجين لم يزد على سبع « وحدات صداقة » — والوحدة هنا تمثل إما صديقا فردا أو زوجين صديقين. ومعنى هذا أن عدد الأصدقاء بالنسبة لكل زوجين يتراوح بين سبعة أوأربعة عشر . ومن بين هؤلاء الأصدقاء كان هناك عدد لا يستهان به من الأصدقاء غير المحليين . كما تبين أن الزوجات كن أكثر من أزواجهن ذكراً للأصدقاء غير المحليين ، مما يثبت أن الزوجات عادة أقل من أزواجهن رغبة فى فصم الصداقات بعد الانتقال . وباختصار فإنه يبدو أن الرجال أكثر من النساء قدرة على فصم العلاقات .

تربية الأطفال على فصم العلاقات

ومن ناحية أخرى فإن الإعداد والتدريب على فصم العلاقات يبدأ بالنسبة لوقتنا الحاضر فى مرحلة مبكرة من حياة الأفراد . تلك حقيقة تمثل أحد الفروق الهامة بين الأجيال . . فالأطفال بمدارس اليوم يتعرضون لمعدلات شديدة الارتفاع من التغييرات داخل الفصول . وطبقا لما جاء بتقديرات « هيئة التسهيلات الدراسية والمعامل » المتفرعة على مؤسسة فورد : « إنه مما يعد من الأمور العادية بالنسبة لمدارس المدن أن يشمل التغيير نصف عدد تلاميذها خلال عام دراسى واحد » . إن مثل هذا المعدل فى التغيير لابد وأن يكون له تأثيره فى هؤلاء الأطفال .

لقد أشار وليم هويت فى كتابه : « رجل المنظمة » إلى أن تأثير مثل هذا التحرك « شديد الوطأة على المدرسين مثلهم فى ذلك مثل التلاميذ أنفسهم . إنه يسلب المدرسين قدراً كبيراً من شعور الرضا الذى يثلج صدورهم وهم يرقبون ثمار جهدهم تتجسد فى نمو تلاميذهم » . ولقد زادت المشكلة تعقيدا بارتفاع معدل التغيير بين المدرسين أنفسهم . وما يصح على الولايات المتحدة فى هذا الشأن ، يصح أيضا على كثير غيرها من البلاد . فقد ورد بتقرير

عن التعليم فى انجلترا الفقرة التالية : « واليوم لم يعد أمراً فريداً ، حتى بالنسبة للمدارس الابتدائية ، أن يتلقى الطفل مادة واحدة من مدرسين أو ثلاثة مدرسين مختلفين خلال عام دراسى واحد . إن تقلص ولاء المدرس نحو المدرسة إلى مثل هذا الحد لا يمكن إلا أن يترتب عليه تقلص مماثل فى ولاء الطفل نحو مدرسته . وعندما تكون هناك باستمرار نسبة كبيرة من المدرسين يعدون أنفسهم للانتقال إلى أعمال أفضل ، أو إلى مناطق أحسن ، فسيكون هؤلاء بالضرورة أقل عناية واهتماما وأقل شعورا بالانتماء » . إننا نستطيع أن نتصور مدى مايمكن أن يحدثه هذا من تأثير فى حياة الأطفال .

فنى دراسة أجراها مؤخرا هارى . ر . مور من جامعة دنفر على تلاميذ المدارس الثانوية أشار إلى أن الدرجات التى حصل عليها فى الامتحان التلاميذ الذين تنقلوا عبر خطوط الولاية أو البلاد من مرة إلى عشر مرات لا تختلف كثيرا عن الدرجات التى حصل عليها التلاميذ الذين لم يتنقلوا . ولكن ظهر بوضوح ميل التلاميذ المتنقلين إلى عدم المشاركة فى الجانب التطوعى من الحياة المدرسية — مثل النوادى والألعاب الرياضية والحكم الذاتى ، وغيرها من ألوان النشاط الخارجة على المنهج الدراسى . كما لو كانوا يريدون قدر الاستطاعة أن يتحاشوا إقامة روابط إنسانية جديدة قد يقدر لها أن تنفصم مرة أخرى بعد قليل ، أو باختصار ، كما لو كانوا يريدون أن يقللوا من تدفق الناس فى حياتهم .

ترى — والحال هكذا — إلى أى حد ستصل قدرة الأطفال والبالغين فى المستقبل على إنشاء وفصم علاقاتهم الإنسانية ؟ هل هناك حد معلوم إذا تجاوزناه تعرضنا للخطر ؟ لا أحد يعلم . ومع ذلك فإننا إذا ما أضفنا إلى الصورة الماثلة لتدهور دوامية العلاقات عامل التنوع والاختلاف — أى معرفة أن كل علاقة إنسانية جديدة تستلزم نمطا سلوكيا مختلفا من جانبنا — فإن الأمر الذى يبرز أمامنا واضحا جليا هو : أننا لكى نستطيع أن نقوم بمثل هذا العدد المتزايد من التقلبات والتحولات فى علاقاتنا المشتركة، فإننا نحتاج إلى مستوى من القدرة على التكيف لم تطالب بمثله الكائنات البشرية من قبل .

فإذا ما جمعنا بين المعدلات المتسارعة التزايد فى إعداد الأشياء، والأمكنة، والناس، مما يمر بالفرد المعاصر خلال حياته، وأبصرنا مدى التعقيد فى السلوك الذى يطالب به هذا الفرد حتى يستطيع مواجهة كل هذا، فإننا سنجد بطبيعة الحال أن الغاية التى سيفضى إليها الاتجاه الذى تسير فيه حاليا ستكون مجتمعا مرتكزا على نظام من العلاقات المؤقتة، وفكرية جديدة تماما مؤسسة على مثل العقيدة التى عبرت عنها تلك الطالبة فى فورت لاوديرديل عندما قالت: « بصراحة، إنك لن ترى هؤلاء الناس مرة أخرى ». من السخف حقا أن نفترض أن المستقبل لن يكون سوى امتداد للنزعات الشائعة فى الحاضر. أو إننا لامناص منتهون إلى مثل هذه النهاية من الزوال فى العلاقات الإنسانية. ولكن من السخف أيضا أن ندس رؤوسنا فى التراب حتى لا نرى فى أى اتجاه نحن سائرون.

إن معظمنا حتى الآن ما زال يفترض فى العلاقات المؤقتة أنها لابد، وبالضرورة، من أن تكون علاقات سطحية، وأن العلاقات الطويلة المدى هى وحدها التى يمكن أن تزدهر وتثمر فى ارتباطاتنا الشخصية. ربما كانت هذه فرضية زائفة. وربما كان بالمستطاع أن تزدهر العلاقات الكلية فى مجتمع سريع التحول. وربما ثبت أنه من الممكن إيجاد وسائل فعالة للإسراع بعملية تكوين العلاقات وعملية « الارتباط » أيضا. ولكن حتى يثبت هذا أو ذاك سيظل يؤرقنا هذا السؤال:

« هل فورت لاوديرديل هى المستقبل؟ »

لقد رأينا كيف أن معدل التغيير بالنسبة لكل المكونات الثلاثة الملموسة للمواقف وهى — الناس والأمكنة والأشياء — فى ارتفاع مطرد. وحان الوقت الآن لننظر فى تلك المكونات غير الملموسة، والتى لا تقل أهمية من حيث تكوين الخبرة، ونعنى بها المعلومات التى نستخدمها، والأطر التنظيمية التى نعيش بداخلها.

* * *

الفصل السابع

المنظمات : الأدهوقراطية القادمة (*)

من بين أكثر الأساطير شيوعا وانتشاراً تلك الأسطورة التى تصور إنسان المستقبل كمجرد سن أو مسمار ضئيل ضمن آلة تنظيمية هائلة . يمثل هذا التصور المزعج يرى الرجل نفسه وقد احتوته كوة ضيقة محدودة من كوى التنظيم البيروقراطى ليتجمد بداخلها كما يتجمد الأرنب داخل الكوة المخصصة له ضمن مطردة تدجين الأرانب البرية . ويتصور الرجل نفسه وقد أطبقت عليه جدران الكوة تعتصر فرديته وتسحق شخصيته وتضطره فى النهاية إلى أحد أمرين : إما أن يتقولب معها ، وإما أن يموت .

ولما كانت المنظمات تبدو ، وكأنها فى تضخم مستمر ، وأنها تكتسب كل يوم قوة جديدة ، فإن المستقبل — تبعا لهذه النظرة — يهدد بأننا سنتحول إلى مجموعة زرية من مخلوقات لافقارية ضعيفة شوهاء ، أى إلى ما يسمى بإنسان المنظمة .

من الصعب أن نبالغ فى مدى القوة التى تستولى بها هذه النبوءة المتشائمة على عقول الناس ، وخاصة الشباب منهم . ولكنها تقرع أذهانهم بلا توقف من خلال سيل من الأفلام والمسرحيات والكتب وراءها قائمة طويلة من المؤلفين ذوى المكانة المرموقة ، تمتد من كافكا وأورويل إلى هويت

---

* لم نجد مقابلا عربيا دقيقا للاصطلاح الوارد فى الأصل الإنجليزى AD-HOCRACY الذى يستخدم لأول مرة ، والمبنى على بادئة لاتينية AD HOC وتعنى : من أجل هذا الغرض بالذات ، أو : فيما يتعلق بهذا الموضوع فقط . ولذا فقد فضلنا التعبير عنه بلفظ اصطلاحى مشابه فى اشتقاقه للفظ « البيروقراطية » الذى شاع استخدامه فى العربية ، خصوصا وأن المؤلف قد استخدم اصطلاح AD-HOCRACY للمقابلة والمقارنة بين مايعنيه من بنية مستحدثة للعملية الإدارية وما يعنيه اصطلاح BUREAUCRACY فى هذا المجال .

وماريكيوز وايلويل، والذين يتخلل فكرهم تخوف واضح من طغيان البيروقراطية. ففى الولايات المتحدة « يعلم » كل إنسان أن مثل تلك المخلوقات البروقراطية الشائهة هى التى اخترعت كل أرقام التليفون « تحت العشرة » ، وأنها هى التى ترسل تلك البطاقات المتوجة بعبارة : « لا تتضخم ولا تخف أو تتشوه » ، وأنها هى التى تحط بقسوة من آدمية الطلبة ، وأنهم هم أولئك الذين لا تستطيع أن تصارعهم داخل مجلس المدينة . إن الخوف من الابتلاع بواسطة هذا الوحش الآلى هو الذى يدفع بالمسئولين التنفيذيين إلى الإفراط المرهق فى امتحان الذات ، وبالطلبة إلى انفجارات الاحتجاج .

والذى يثير كل هذا الانفعال حول الموضوع ككل هو أن التنظيم جزء لا يتجزأ من حياتنا . فالروابط التنظيمية تمثل أحد المكونات لموقف الإنسان، مثلها فى ذلك مثل روابطه بالأشياء والأمكنة والناس . وكما يقع كل فعل فى حياة الرجل فى موقع جغرافى محدد ، كذلك فإنه يحدث فى نفس الوقت داخل موضع معين ضمن الإطار الخفى للمنظمة الإنسانية .

وهكذا لو صحت نبوءات النقاد التقليديين عما ينتظر الإنسان من مستقبل يتقولب فيه داخل جهاز بيروقراطى فائق التضخم ، لوجب علينا إذن أن نبادر من الآن بالقفز فوق المتاريس ، وأن نثقب بطاقات الكومبيوتر بطريقة اعتباطية ، وباختصار أن ننتهز كل فرصة لنحطم آلة التنظيم هذه قبل أن تبتلعنا . أما إذا اطرحنا جانبا ما اعتنقناه من شعارات مصكوكة ، والتفتنا بدلا من ذلك إلى الحقائق لاكتشفنا أن البيروقراطية، أى نفس النظام المفروض أنه سيسحقنا جميعا تحت وطأة ، قد بات بدوره يئن تحت عجلة التغيير التى أدركته .

إن أنماط المنظمات التى يتخيل أولئك النقاد أنها ستهجم على المستقبل هى فى الواقع أبعد الأنماط احتمالا عن أن يكون لها الهيمنة على المستقبل . إن ما نشهده فى وقتنا الراهن ليس انتصار البيروقراطية ، وإنما انكسارها . إننا نشهد فى الحقيقة مقدم نمط تنظيمى جديد سوف يتحدى البيروقراطية ويحل محلها فى النهاية . تلك هى منظمة المستقبل والتى أسميها : « الادهوقراطية » .

ولسوف تصادف الإنسان صعاب جمة فى محاولته التكيف مع هذا النمط التنظيمى الجديد . ولكنه مقابل هذا سيجد نفسه وقد أيقن بالنجاة من ذلك المصير الذى تنبأ له به المتشائمون من انسحاق شخصيته داخل آلة البيروقراطية المتضخمة . إنه سيجد نفسه بدلا من ذلك متحررا وسط دنيا كاملة من المنظمات الديناميكية النشطة . ووسط هذه الطبيعة المتغيرة سيكون موقعه بدوره دائم التغير والتنوع والانسياب . وإن روابطه التنظيمية ، مثلها فى ذلك مثل روابطه بالناس والأمكنة والأشياء ، سوف تتغير وتتبدل بمعدل مسعور .

كاثوليك ، وطوائف ، ورفاق مقصف

قبل أن نحيط بالمعنى المقصود من هذا الاصطلاح الغريب الذى استحدثناه : الادهوقراطية ، ينبغى أن نعرف أن صفة البيروقراطية تنطبق على كل المنظمات . فهناك طرق متعددة لتنظيم الناس . وحسبما يقرره ماكس ويبر ، فإن البيروقراطية لم تكن هى الشكل التنظيمى السائد فى الغرب حتى مقدم عصر التصنيع .

وبطبيعة الحال فليس هنا مجال التعرض بالوصف التفصيلى لكل خصائص البيروقراطية ، ولكن من المهم جدا أن نشير إلى ثلاث حقائق أساسية : فأولا ، فى مثل هذا النوع المتميز من التنظيمات ، يحتل الفرد عادة حيزا صارم التحديد داخل الإطار العام لتقسيم العمل . وثانيا : أنه يمثل حلقة ضمن تسلسل رأسى تجرى به الأوامر من أعلى إلى أسفل ، من الرئيس إلى أصغر المرؤوسين . وثالثا : أن علاقاته التنظيمية كما يؤكد ويبر تنزع نحو الثبات .

ومن هنا فإن كل فرد داخل الجهاز البيروقراطى يملأ حيزا دقيق التحديد ، أى موقعا ثابتا داخل بيئة ثابتة تقريبا . وهو يعلم تماما أين ينتهى اختصاص وحدته التنظيمية ليبدأ اختصاص وحدة أخرى — فالحدود بين المنظمات البيروقراطية وبين فروعها مرسومة بدقة وراسخة دائما حيث يجب أن تكون . وبالانضمام إلى المنظمة يقبل الفرد القيام بمجموعة محددة من الواجبات مقابل مجموعة مقابلة من الحقوق . وهاتان المجموعاتان من الواجبات والحقوق تظلان

بدون تغيير لفترة طويلة نسبيا . وهكذا يدخل الفرد إلى شبكة من العلاقات الثابتة نسبيا — ليس فقط مع غيره من الأشخاص (الذين يظلون عادة داخل الحيز المحدد لكل منهم لفترة طويلة) — ولكن مع إطارات العمل التنظيمية ، أى مع البنية ذاتها .

وبعض البنى التنظيمية أكثر دوامية من البعض الآخر . . فالكنيسة الكاثوليكية تمثل إطارا فولاذيا استمر حتى الآن ما يقرب من ألفى عام ، وبعض بناها الداخلية لم يطرأ عليه أى تغيير لقرون طويلة . وبالمقارنة فإن حزب النازى الألمانى الذى أغرق أوربا فى بحر من الدماء لم يعش كحزب رسمى غير فترة تقل عن ربع قرن من الزمان .

وكما أن حياة المنظمات تطول وتقصر ، كذلك أيضا علاقة الفرد بأى بنية تنظيمية بعينها ، وبالتالى فإن علاقة الفرد بإدارة معينة ، أو قسم ، أو حزب سياسى ، أو كتيبة ، أو ناد ، أو أى وحدات تنظيمية أخرى من هذا القبيل لها بداية ونهاية بينهما فترة زمنية تطول أو تقصر . ونفس الشئ بالنسبة لعضويته بالمنظمات غير الرسمية كالطوائف والزمر و« شلل » اللقاءات الخاطفة فى المقصف فى أثناء أوقات الراحة التى تتخلل العمل . ويبدأ ارتباطه بالمنظمة عندما يقبل التزامات العضوية أو يلتحق بها . وينتهى هذا الارتباط عندما يستقيل أو يطرد منها ، أو عندما تصبح المنظمة نفسها لا وجود لها .

هذا هو ما يحدث بالطبع عندما تنحل المنظمة بصفة رسمية . ويحدث عندما يفقد الأعضاء أى اهتمام بها ويكفون عن أى نشاط فى إطارها . ولكن المنظمة يمكن أيضا أن تصبح « غير موجودة » بمعنى آخر . إن المنظمة لا تعدو أن تكون فى النهاية مجموعة من الأهداف والتوقعات ، والالتزامات الإنسانية . إنها — بعبارة أخرى — بنية من المهام والأدوار التى يقوم عليها أفراد من بنى الإنسان ، وعندما يطرأ على بنية منظمة ما تعديل حاد يترتب عليه إعادة تحديد وتوزيع هذه المهام والأدوار ، فإنه يمكننا عندئذ القول بأن المنظمة القديمة قد ماتت وانبعثت مكانها منظمة جديدة . وهذا صحيح حتى فى حالة

احتفاظ المنظمة الجديدة بنفس الاسم والأعضاء القدامى . إن إعادة ترتيب الأدوار يخلق بنية جديدة كما يحدث بالنسبة للجدران المتحركة فى المبانى عندما يعاد ترتيبها فينتج عن ذلك بنية جديدة فى أشكالها وأبعادها .

وإذن فإن العلاقة بين الفرد والمنظمة تنفصم ، إما بتركها ، وإما بحل المنظمة نفسها ، أو إعادة تنظيمها . وفى الحالة الأخيرة — أى فى حالة إعادة التنظيم — فإن الفرد يقطع فى الواقع روابطه بالبنية القديمة التى لم يعد لها وجود ، وينشئ علاقات جديدة بالبنية الجديدة التى حلت محلها .

وتتوافر فى وقتنا الراهن دلائل كثيرة على أن دوامية علاقات الإنسان التنظيمية فى تقلص مستمر ، وأن هذه العلاقات تتغير وتتبدل بمعدلات مطردة التزايد . ولسوف نرى أن هناك كثيرا من القوى العارمة ، من بينها هذه الحقيقية التى تبدو بسيطة ، هذه القوى تدفع بالبيروقراطية إلى مصيرها المحتوم ، إلى التحطم .

الهزات التنظيمية

ليس هناك ، فى تصورى ، من لا يعرف ماذا تعنى كلمة الخريطة التنظيمية . إنها تلك اللوحة التى تنتظمها مجموعة من المربعات والمستطيلات الموزعة بدقة وعناية ، والتى يحمل كل منها اسم المسئول والوحدات الفرعية التى تقع تحت إشرافه . وليس هناك تنظيم إدارى أياً كان حجمه ، وسواء كان شركة ، أو جامعة ، أو مصلحة حكومية ، إلا وله خريطته التنظيمية التى تمد مديريه بصورة مفصلة للأوضاع التنظيمية فيه . وكانت مثل هذه الخريطة ما إن ترسم حتى تصبح جزءا لا يتجزأ من كتاب القواعد التى تسير عليها المنظمة ، والتى كان يستمر العمل بها لسنين عدة . أما اليوم فإن الخطوط التنظيمية للمنظمات تتغير وتتبدل بصورة متكررة ، لدرجة أن خريطة تنظيمية عمرها ثلاثة أشهر يمكن أن تعتبر من المخلفات التاريخية ، مثلها مثل مخطوطات البحر الميت .

إن المنظمات فى الوقت الحاضر تغير من تركيبها الداخلى بسرعة ، وأحيانا باندفاع يدير الرأس . فالألقاب تتغير من أسبوع لأسبوع ،

والوظائف تتحول ، والمسئوليات تنتقل ، وبنية تنظيمية تفك ثم يعاد تركيبها فى شكل جديد ، ثم يعود تنظيمها مرة أخرى . إدارات وأقسام تنبثق بين يوم وليلة ، ثم تختفى لتظهر فى صورة ثانية ثم ثالثة . وإنها إعادة التنظيم .

وإلى حد ما ، يرجع السر فى هذه العملية المستمرة من الخلط والترتيب ، ثم إعادة الخلط والترتيب إلى تيار الدمج والتعرية الذى يغمر حاليا الصناعات فى الولايات المتحدة و أوروبا الغربية . لقد شهدت السنون الأخيرة من الستينيات موجة هائلة من التعريات ، ونمو تكتلات عملاقة . ومن المنتظر أن تشهد السبعينيات موجة فى نفس القوة عندما تستمر الشركات فى عمليات التدعيم وهضم منشآتها الجديدة ، وفى نفس الوقت التخلص من الأجزاء المزعجة . ففيما بين سنة ١٩٦٧ و ١٩٦٩ اشترت شركة كويستر « التى كانت تعرف من قبل باسم شركة (دنهيل الدولية) » ثمانى شركات وباعت خمساً . وهناك عشرات غيرها من الشركات التى قامت بعمليات بيع وشراء مماثلة . وطبقا لما يقرره المستشار الإدارى آلان . ج. زاكون : « إنه سوف تحدث حركة اندماجات ضخمة » . فكلما تقلبت اتجاهات سوق الاستهلاك وجدت الشركات نفسها مضطرة إلى إعادة ترتيب أوضاعها لتتلاءم مع هذه التقلبات » .

مثل هذه التغيرات فى أوضاع الشركات يتبعه بالضرورة إعادة تنظيمها الداخلى والذى يحدث أيضا لجملة أسباب مختلفة : فى خلال ثلاث سنوات فقط أعلنت ستون من بين أكبر مائة شركة فى الولايات المتحدة عن حدوث تغييرات رئيسية فى تنظيمها . والواقع أن هذا لا يعدو أن يكون القمة الطافية فقط من جبل الثلج الضخم . فإعادة التنظيمات تقع أكثر بكثير مما يعلن عنه . فمعظم الشركات تفضل عدم الإعلان عما تجريه من إعادة لتنظيماتها الداخلية . وبالإضافة إلى ذلك فهناك تلك الحالات المستمرة من إعادة التنظيم والتى تتم على نطاق أصغر أو جزئى ، أى على مستوى الإدارات والأقسام التى تعتبر أصغر من أن يعلن عنها .

يقول الدكتور د .ر. دانييل – وهو أحد المسئولين فى شركة كبرى من شركات الاستثمارات الإدارية، هى شركة ماكينزى وشركاه : « إننى كمستشار فى التنظيم والإدارة أستطيع أن أؤكد من واقع تجاربى وملاحظاتى ، أن متوسط عامين لكل عملية إعادة تنظيم رئيسية بين كبرى الشركات الصناعية يعتبر فى الواقع تقديرا متسما بالتحفظ . لقد أشرفت شركتنا على مائتى دراسة تنظيمية لزبائننا من الشركات المحلية خلال العام الماضى ، كما تمثل المشكلات التنظيمية الجزء الأكبر من نشاطنا خارج الولايات المتحدة » . ثم يضيف قائلا : « وفضلا عن ذلك فإنه ليس هناك ما يدل على أن تكرار هذه العمليات سيتناقص ، وإنما العكس هو الصحيح . فإن الهزات التنظيمية فى تزايد مستمر » .

هذه التغييرات ، بالإضافة إلى كثرتها ، صارت تأخذ ، وبشكل متزايد ، سمة بعد المدى والشمول ، يقول البروفيسور ل. أ. جراينر من المدرسة الألمانية العليا لإدارة الأعمال بجامعة هارفارد : « بينما نجد أن هدف التغيير التنظيمى كان منذ سنوات قليلة مضت منحصراً فى مجموعة عمل صغيرة أو إدارة واحدة . . . نجد الآن أن مداه يتسع ليشمل المنظمة ككل ، ويصل إلى إدارات وأقسام ومستويات متعددة فى وقت واحد ، حتى المديرين الكبار أنفسهم » . ثم يشير البروفيسور جراينر إلى ما سماه : « محاولات ثورية لإحداث تحولات فى المنظمة فى كل مستويات الإدارة » .

وإذا كانت الخريطة التنظيمية بالنسبة للشركات لم تعد بأى حال من الأحوال تتصف بما كانت عليه من ثبات نسبي من قبل ، فإن نفس الشىء يصدق أيضا على المنظمات الحكومية الكبرى . فلا تكاد تكون هناك وزارة أو مصلحة كبيرة فى البلاد المتقدمة تكنولوجيا لم تتعرض لأكثر من عملية إعادة تنظيم خلال السنوات الأخيرة . فى الولايات المتحدة ، وخلال فترة الأعوام الأربعين التى انقضت بين سنة ١٩١٣ و ١٩٥٣ ، وبرغم الأزمة الاقتصادية والحرب وغيرها من الهزات الاجتماعية، لم تستجد منظمة واحدة على مستوى الوزارة . ولكن فى سنة ١٩٥٣ قرر الكونجرس :

إنشاء وزارة الصحة والتعليم والرعاية الاجتماعية ، وفى سنة ١٩٥٦ إنشاء وزارة الإسكان وتطوير المدن ، وفى سنة ١٩٥٧ وزارة النقل (التى وحدت كل أنواع النشاط ، وكانت تتولاها من قبل ثلاثون مصلحة مختلفة ، وفى نفس الوقت طلب رئيس الجمهورية الموافقة على دمج وزارتى العمل والتجارة .

مثل هذه التغييرات فى بنية الحكومة ليست سوى التغييرات الأكثر بروزا ، إذ أن الهزات التنظيمية تسرى فى كل مستويات التنظيمات الحكومية . فى سنة ١٩٥٦ عندما عين جون جاردنر وزيرا للصحة والتعليم والرعاية الاجتماعية أجرى هزة تنظيمية فى جميع أجهزة الوزارة من أعلاها إلى أدناها . فقد أعيد تنظيم جميع المصالح والإدارات والوكالات والمكاتب بمعدل سبب للموظفين القدامى حالة من الإجهاد الذهنى (خلال الفترة التى وصلت فيها هذه العملية إلى ذروتها كانت إحدى الموظفات ، وهى من أصدقائى ، تترك لزوجها صباح كل يوم قبل ذهابها إلى العمل مذكرة برقم تليفونها لهذا اليوم فقط . كانت التغيرات تجرى بسرعة جعلت من غير الممكن أن يبقى لها رقم تليفون فترة كافية لإدراجه فى دليل أرقام التليفونات الخاصة بالمصلحة التى تعمل بها) . وعندما تولى روبرت فينش هذه الوزارة خلفا لمستر جاردنر استأنف عمليات إعادة التنظيم . وبعد أن قضى بالوزارة أحد عشر شهرا أصر على إجراء تغيير شامل فى تنظيماتها ، مؤكدا أن الوزارة لا يمكن عمليا أن تدار مع بقاء الأوضاع فيها على الحالة التى تسلمها عليها .

فى كتاب بعنوان « التجديد الذاتى » ، وهو كتاب بالغ الأهمية بالرغم من صغر حجمه ، كتبه المستر جاردنر قبل دخوله الوزارة ، يقول المستر جاردنر : « إن المدير البعيد النظر . . . هو الذى يعيد التنظيم ليزيل الخطوط التنظيمية المتكلسة ويغير مواقع الموظفين . ويعيد توصيف الوظائف ليخرج بها من حالة الجمود » . وفى موضع آخر من الكتاب يشير مستر جاردنر إلى : « أزمات التنظيم » ، ويرى أنه بالنسبة للقطاعين الحكومى والخاص على حد سواء : « معظم المنظمات ذات بنى صممت لحل مشكلات لم يعد لها وجود » . ويعرف المنظمة التى تتجدد ذاتيا « بأنها تلك التى تغير باستمرار من بنيتها لتستطيع أن تستجيب للاحتياجات المتغيرة » .

إن رسالة جاردنر ترتفع إلى مستوى الدعوة إلى ثورة دائمة فى الحياة التنظيمية ، ويوما بعد يوم يرتفع عدد المديرين الأذكياء الذين يقتنعون بأنه فى مجتمع متسارع التغيير ، ينبغى أن تكون عملية إعادة التنظيم عملية مستمرة ، وليست مجرد انتفاضة تحدث مرة ثم لا تتكرر . إن هذا الاقتناع ينتشر بسرعة أيضا خارج دوائر الشركات والمنظمات الحكومية . إن جريدة نيويورك تايمز ، فى نفس اليوم التى نشرت فيه أنباء اندماج صناعة البلاستيك والأبلكاج والورق ، نشرت أيضا أنباء تصف ملامح هزة إدارة كبرى فى اتحاد الإذاعة البريطانية ، وأنباء عن تجديد شامل فى البنية التنظيمية لجامعة كولومبيا ، وحتى عن إعادة تنظيم كاملة لمؤسسة تعتبر من أكثر المؤسسات محافظة ، وهى متحف المتروبوليتان فى نيويورك . إن العامل المحرك لكل هذا النشاط لا يمكن أن يكون مجرد اتجاه عفوى ، وإنما هو فى الواقع حركة تاريخية . . إن التغير التنظيمى أو التجديد الذاتى كما يسميه جاردنر ، ضرورة حتمية واستجابة لا محيد عنها لتيار التغير المتسارع .

وبالنسبة للفرد داخل هذه المنظمات ، فإن هذه التغييرات تخلق مناخا جديدا تماماً ، وأيضا مشكلات جديدة . إن تغير بنى التنظيم يعنى أن علاقة الفرد بأى بنية تنظيمية معينة (والتى تتضمن مجموعة معينة من الحقوق والواجبات) سوف تتقطع ويتقاصر مداها الزمنى . ومع كل تغيير سيكون عليه أن يعيد تكييف ذاته بما يتلاءم مع هذا التغيير . فى وقتنا الحاضر يتعرض الفرد الحالى للتقلب بين وظيفة وأخرى ، والتنقل من بنية تنظيمية فرعية إلى أخرى . ولكن حتى فى حالة بقائه فى نفس البنية الفرعية فإنه سيجد البنية نفسها ، وهى تنتقل من موقع لآخر على الخريطة التنظيمية للمنظمة الرئيسية . وفى كلتا الحالتين فإن موقعه وسط الشبكة المعقدة ككل لا يثبت على ما هو عليه .

والنتيجة المحصلة هى أن علاقات الإنسان التنظيمية تنزع حاليا إلى التغير بمعدل لم يعرف لسرعته مثيل من قبل ، أى إن هذه العلاقة أصبحت أقل

ثباتا وتتسم فى متوسطها العام بأنها مؤقتة بأكثر مما كانت عليه فى أى وقت مضى .

الأدهوقراطيــة الجــديدة

إن المعدل المرتفع للتغيير فى المجال التنظيمى يتمثل بصورة أكثر درامية فى ظهور وانتشار نمط من التنظيم الإدارى اصطلح المسئولون التنفيذيون على تسميته بإدارة « المشروع » أو « الحملة » . هنا تكون فرق للعمل من أجل حل مشكلة محددة ، أو إتمام مهمة معينة ، ما إن تنتهى منها حتى يحل الفريق ويعاد توزيع أفراده على أعمال أخرى ، تماما مثل الملاعب المتنقلة . وأحيانا لا تستغرق المهمة المكلف بها الفريق أكثر من بضعة أيام ، وأحيانا أخرى تمتد لتستغرق بضع سنوات . ولكنها — أى هذه الفرق — أبعد ما تكون فى طبيعتها عن الإدارات والأقسام العاملة التقليدية للمنظمة البيروقراطية . إن فريق المشروع أو الحملة هو بطبيعة تكوينه ذاتها فريق ذو صفــة مؤقتة .

عندما حصلت شركة لوكهيد للطيران على عقد ضخم لبناء ثمان وخمسين طائرة نقل حربية عملاقة من طراز س — ٥ أ . كونت منظمة ضمت ١١,٠٠٠ رجل ، خصيصا لهذا الغرض . ومن أجل إتمام هــذا العمل الذى بلغت قيمته عدة بلايين من الدولارات ، اضطرت شركة لوكهيد إلى تنسيق العمل ليس بين رجالها فحسب ، ولكن مع فئات من المقاولين من الباطن . لقد تطلب الأمر اشتراك ٦٠٠٠ شركة مختلفة فى إنتاج القطع اللازمة لبناء كل طائرة من هذه الطائرات الجبارة ، والبالغ عددها أكثر من ١٢٠,٠٠٠ قطعة لكل طائرة . وكان للمنظمة التى أنشأتها لوكهيد من أجل هذا الغرض إدارتها الخاصة ، وكياناتها الداخلية المتعددة .

وفى مارس ١٩٦٩ ، وطبقا للبرنامج الموضوع ، خرجت أولى الطائرات من الورشة ، أى بعد تسعة وعشرين شهرا من توقيع العقد ، أما باقى الطائرات الثمان والخمسين فالمفروض أن يستغرق إتمامها عامين آخرين . ومعنى هذا أن المنظمة الضخمة التى خلقت من أجل هذا العمل قد

قدر لها سلفاً ألا تعيش أكثر من خمس سنوات . أليس هذا الذى نحن بصدده نوعا من المنظمات التى يلقى بها بعد الاستعمال ؟ وهل تختلف من حيث الجوهر عن الملابس والمناشف المصنوعة من الورق ؟

إن فرق المشروعات منتشرة حاليا بشكل واسع فى الصناعات المتصلة بالطيران والفضاء . فعندما تخطط إحدى الشركات الكبرى للحصول على عقد كبير من الوكالة القومية للطيران والفضاء ، فإنها تكون فريقا يتألف من حوالى مائة شخص مستعارين من الإدارات والأقسام العاملة بالشركة . وتعمل هذه الفرق لما يقرب من سنة ونصف سنة فى جمع البيانات وتحليل العمل ، حتى قبل أن تطلب الحكومة رسميا من الشركة التقدم بعرض . وعندما يحين الوقت للتقدم بعرض رسمى ، فإن الفريق المذكور والذى اصطلح على تسميته . « فريق ما قبل العرض » يحل ويعاد أفراده إلى إداراتهم العاملة ، ثم يكون فريق جديد يتولى كتابة العرض الفعلى .

وفرق كتابة العروض تعمل عادة لمدة أسابيع قليلة . وبمجرد أن يقدم العرض يحل هذا الفريق بدوره . وفى حالة الفوز بالعقد ، تكون فرق جديدة متوالية لتنفيذه وإنتاج المواد اللازمة له . وقد يستمر بعض الأفراد فى العمل على امتداد تنفيذ المشروع بالانتقال من فريق عمل إلى الفريق الذى يخلفه . ولكن فى أغلب الحالات يستدعى الفرد للعمل فى مرحلة واحدة من مراحله .

وبينما ينتشر هذا النمط من التنظيم بنوع خاص فى الشركات العاملة فى صناعات الطيران والفضاء ، فإنه أيضا قد أخذ يزحف إلى مجالات الصناعات التقليدية . والواقع أن إدارة المشروع صارت معترفا بها كفن من فنون الإدارة المتخصصة ، وتوجد الآن فئة ، لا تزال صغيرة الحجم ولكنها تنمو باطراد ، من المديرين فى كل من الولايات المتحدة وأوروبا يتنقلون من مشروع إلى مشروع ، ومن شركة إلى شركة ، ولا يستقرون مطلقا فى عمل روتينى أو طويل الأجل . وبدأت تظهر فى السوق الكتب التى تعالج هذا النوع من فنون الإدارة . وقد أنشأت قيادة السلاح الجوى

الأمريكى فى دايتون بولاية أوهيو مدرسة للتدريب على هذا النوع من الإدارة .

إن فرق المشروع والحملة وغيرها من المجموعات ذات الطابع الأدهوقراطى قد تغلغلت بالفعل فى بيروقراطيات الحكومة وإدارة الأعمال على حد سواء ، فى الولايات المتحدة وخارجها أيضا . هذه الفرق الزوالية ، التى يتجمع أفرادها لحل مشكلة معينة ثم يتفرقون ، هى أحد الشواهد التى تتميز بها المجتمعات المتقدمة علميا من ديناميكية نشطة فى مجالات البحث العلمى والتنفيذ على حد سواء ، وأفراد هذه الفرق يتميزون بأنهم فى حركة وتنقل دائبين ، إن لم يكن جغرافيا ، فعلى الأقل تنظيميا .

إن جورج كوزميتسكى ــ أحد مؤسسى شركة تيليدين المتحدة ، وحاليا عميد مدرسة إدارة الأعمال بجامعة تكساس ــ يفرق بين المنظمات « الروتينية» و « اللاروتينية » بأن الأخيرة تتميز بأنها تلك التى تعالج فى الغالب الأعم مشكلات تنتمى كلها إلى نفس النوع . وهو يقدم إحصائيات يدلل بها على أن القطاع اللاروتينى فى الحكومة وفى الشركات المتقدمة تكنولوجيا ينمو بسرعة يتوقع معها أن يستخدم هذا القطاع ، فى سنة ٢٠٠١ ، ٦٥٪ من مجموع القوى العاملة فى الولايات المتحدة . والمنظمات التى تنتمى إلى هـــذا القطاع هى ، على وجه التحديد ، التى تستخدم أكثر من غيرها فرق المشروع والحملة .

من الواضح أن فكرة تكوين فريق للعمل فى حل مشكلة معينة ثم حله بعد إتمام العمل المطلوب منه ليست فى حد ذاتها بالشىء الجديد ، وإنما الجديد فى الأمر هو تكرار التجاء المنظمات إلى مثل هذه التنظيمات المؤقتة .إن البنى التنظيمية ــ التى تبدو وكأنها شبه ثابتة للكثير من المنظمات الكبرى ، وغالبا بسبب مقاومة هذه المنظمات للتغيير ــ قد أخذت تتغلغل فيها الآن ، وبفعل الضرورة ، مثل هذه الخلايا الزوالية :

وقد يبدو على السطح أن ارتفاع معدل استخدام هذا النمط من التنظيمات المؤقتة لا يحمل فى ذاته أى دلالة خاصة . ولـكن الواقع أنه يفعل فعله فى

تحطيم المفهوم التقليدى للمنظمة كبنية ثابتة بشكل أو بآخر . إن المنظمات الأدهوقراطية ، من قبيل فرق ولجان المشروع ، لا تحل بالضرورة البنى ذات الوظيفة الدائمة ، ولكنها تغير بالفعل من طبيعة هذه الأخيرة لدرجة بعيدة عن التصور . إنها تستنزف قواها من الرجال كما تسلبها الكثير من سلطاتها . واليوم ، بينما لا تزال الإدارات ذات الوظيفة الدائمة باقية ، نجد أعدادا أكثر فأكثر من فرق المشروعات والحملات وغيرها من المنظمات المؤقتة تنبثق من بينها ثم تختفى . ونجد الذين كان العهد بهم أنهم مستقرون داخل الشقوق المحددة لهم فى إطار المنظمة ، وقد صاروا يتحركون ذهابا وإيابا بسرعة عالية . إنهم غالبا ما يعودون من حين لآخر إلى « قواعدهم » داخل الإدارات الوظيفية الثابتة ، ولكنهم ما يلبثون أن ينطلقوا مرة أخرى للعمل ضمن فريق مؤقت .

ولسوف ترى بعد قليل كيف يؤثر تكرار هذه العملية فى ولاء من تشملهم من الأفراد ، وكيف يهز خطوط السلطة ، ويسارع بدفع الأفراد نحو النقطة التى يجدون أنفسهم عندها مجبرين على التكيف مع التغيير التنظيمى . ومع ذلك وحتى يحين موعد الحديث عن كل هذا ينبغى أن ندرك أن انتشار ظاهرة المنظمات الأدهوقراطية هو أحد الآثار المباشرة لتسارع التغيير فى المجتمع ككل .

فما دام المجتمع مستقرا نسبيا وغير متغير ، كانت المشكلات التى تواجه أفراده مشكلات روتينية يمكن توقعها مسبقا . والمنظمات فى مثل هذه البيئة يمكن أن تكون ثابتة نسبيا . ولكن عندما يتسارع التغيير يتزايد ظهور المشكلات الجديدة التى تعجز المنظمات بشكلها القديم عن حلها ، وتجد نفسها أكثر فأكثر غير قادرة على مواجهتها : وما دام هذا هو الحال — كما يقول الدكتور دونالد أ . سكون رئيس منظمة التجديد الاجتماعى والتكنولوجى — فإننا فى حاجة إلى خلق « منظمات من النوع الذى يحطم نفسه بنفسه . . وإلى الكثير من الوحدات الذاتية وشبه المرتبطة التى يمكن أن تفك خيوطها . . ثم يزال وجودها ، ونقول لها وداعا عندما تنقضى الحاجة إليها » .

إن البنى التنظيمية التقليدية التي خلقت لتواجه ظروفا غير متغيرة ولا متجددة ، لا يمكن أن تتجاوب بفاعلية مع التغييرات الثورية فى البيئة . ومن ثم فإن البنى المؤقتة تخلق ، فى حين أن المنظمة ككل تناضل من أجل بقائها واستمرار نموها . هذه العملية تكاد تطابق الاتجاه نحو التضمينية فى فن العمارة الذى تحدثنا عنه فى فصل سابق ، وعرفنا فيه التضمينية بأنها محاولة لمنح دوامية أكبر للبنية ككل باختزال عمر مكوناتها . إن هذا ينطبق أيضا على المنظمات ، ويساعد على تفسير ظاهرة تقاصر بقاء الأجزاء المكونة لبنية المنظمة الداخلية .

ومع تسارع التغيير تصبح عملية إعادة التنظيم عملية دائمة ومستمرة . وكما يرى برنارد موللر – ثيم المستشار الإدارى ، فإن التكنولوجيا الحديثة متحدة مع التكنيك الإدارى المتقدم ، تخلق موقفا جديدا تماما . يقول موللر : « إن مافى متناول أيدينا اليوم هو نوع من القدرة المنتجة التى تحيا بالذكاء وتحيا بالمعلومات ، حتى إذا ما وصلت إلى أقصى مدى كانت كاملة المرونة . إن الإنسان يستطيع أن يعيد تنظيم مصنع بين ساعة وأخرى إذا أراد . إن ما يصدق على المصنع يصدق أيضا على المنظمة ككل » .

وباختصار فإن جغرافية التنظيم فى مجتمع ما فوق التصنيع ستكون جغرافيا ديناميكية نشطة دائمة التحرك . وكلما زادت سرعة التغيير فى المجتمع ، تقاصرت أعمار أشكاله التنظيمية . إننا ننتقل بسرعة من الأشكال الثابتة إلى الأشكال المؤقتة فى مجال التنظيم كما فى مجال العمارة ، من الدوام إلى الزوال ، إننا ننتقل من البيروقراطية إلى الأدهوقراطية .

وهكذا تترجم دفعة التغيير المتسارع نفسها فى شكل تنظيم . إن الثبات الذى كان أحد الملامح الأساسية للبيروقراطية قد تزعزع . ويقودنا هذا إلى نتيجة تعبر عن الحقيقة مهما كانت قاسية هى : أن روابط الفرد مع الجغرافيا غير المرئية للمنظمة تتغير وتتبدل بسرعة متزايدة تماما ، كما يحدث بالنسبة لعلاقاته بالأشياء والأمكنة ، وبالأشخاص الذين تضمهم الكيانات التنظيمية

الدائمة التغير . ومثل ما ينتقل البدو الجدد من مكان إلى مكان ، ينتقل الإنسان من بنية تنظيمية إلى أخرى .

سقوط سلم المراتب

ثمة شيء آخر يحدث حاليا : نقلة ثورية فى علاقات السلطة ، إن المنظمات الكبيرة لم ترغم فقط على تغيير بنيتها الداخلية وخلق الوحدات المؤقتة ، ولكنها أيضا أصبحت تجد صعوبة متزايدة فى الحفاظ على الأشكال التقليدية لسلم المراتب .

إننا نكون حقا مفرطين فى التفاؤل إذا تصورنا أن العمال ، سواء فى الصناعة أو فى الحكومة ، أصبحوا اليوم « مشاركين » حقا فى إدارة مؤسساتهم ، سواء فى البلاد الرأسمالية أو فى البلاد الاشتراكية والشيوعية . ومع ذلك فإن هناك ما يدل على أن النظم البيروقراطية لسلم المراتب ، تلك التى تفصل بين أولئك الذين « يصنعون القرارات » وأولئك الذين ينفذونها فقط ، قد أخذت تتعدل وتتغير مساراتها ، أو تتحطم .

وتلاحظ هذه العملية بشكل أكثر فى الصناعة . وطبقا لما يقول به البروفيسور وليام . هـ ريد من المدرسة العليا لإدارة الأعمال بجامعة ماكجيل فإن هناك « ضغوطا لا تقاوم » تستحق ترتيبات سلم المراتب . إنه يعلن : « إن أهم وأخطر أعمال المنظمة تنتقل بشكل متزايد من الاتجاه الرأسى إلى (اتجاهات أفقية) » . إن مثل هذه النقلة تتضمن ثورة حقيقية فى البنية التنظيمية ، وفى العلاقات الإنسانية ، لأن الناس الذين يتواصلون عبر « خطوط أفقية » مع آخرين على نفس المستوى التنظيمى — تقريبا — يتصرفون بشكل مختلف ، ويعملون تحت ضغوط مختلفة عن أولئك الذين يجب عليهم أن يتواصلوا عبر الخطوط الصاعدة النازلة لسلم المراتب .

وحتى نقرب الصورة ، تعالوا نلق نظرة على نموذج لعمل يدار بواسطة سلم المراتب البيروقراطى التقليدى ، فعندما كنت شابا عملت لمدة عامين مساعدا ميكانيكيا للآلات فى مسبك ، حيث تجمع آلاف الرجال فى مبنى

مظلم كالكهف ليعملوا فى صب علب عمود الكرنك الخاصة بالسيارات . لقد كان المشهد شبيها بتلك المشاهد التى رسمها دانتى فى جحيمه — كان الدخان والهباب يصبغان وجوهنا ، والوسخ الأسود يغطى الأرض ويملأ الهواء ، والروائح الكريهة الخانقة للكبريت والزمل المحروق تزكم أنوفنا . وفوق رؤوسنا يقعقع الناقل الذى يحمل كتلا من الزهر المحمى حتى الاحمرار ، وينثر ما علق بها من رمال ساخنة على من تحته من الرجال . كان هناك أيضا وميض الحديد المصهور ولهب النيران ، وخليط جنونى من الضجيج والصخب : رجال يصرخون ، وسلاسل تقعقع ، وخلاطات الطفل تدق ، والهواء المضغوط يدوى .

مثل هذا المنظر فى نظر الغريب يبدو فوضويا مضطربا . ولكن أولئك الذين هم بداخله كانوا يعلمون أن كل شىء فيه منظم ومرتب بمنتهى العناية ، ومحكوم بنظام بيروقراطى دقيق . الرجال يؤدون باستمرار نفس الأعمال ، والقواعد الموضوعة تتحكم فى كل موقف ، وكل رجل يعرف على وجه التحديد أين مكانه فى السلسلة الرأسية التى تصل بين أقل العمال أجرا و « هؤلاء » الذين لا نراهم ، والذين يحتلون مكاتب الإدارة الواقعة فى مبنى آخر .

وفى السقيفة الهائلة التى كنا نعمل فيها ، كانت تحدث دائما بعض الأعطال رولمان بلى يحترق ، سير ينقطع ، ترس ينكسر . وعندما كان يحدث شىء من هذا القبيل فى قسم من الأقسام يتوقف العمل وتبدأ الرسائل المحمومة تتناقل صعودا ونزولا عبر خليط التسلسل المرسوم . فأقرب العمال من مكان العطل يخبر الملاحظ ، والملاحظ بدوره يخطر مراقب الإنتاج ، ومراقب الإنتاج يبعث برسالة إلى مراقب الصيانة ، ومراقب الصيانة يرسل مجموعة صيانة لإصلاح العطل ...

إن المعلومات حسب هذا النظام تمر فى خط يبدأ من العامل « صعودا » إلى الملاحظ ، إلى مراقب الإنتاج . ومراقب الإنتاج يمررها « أفقيا »

إلى رجل يحتل شقا فى التسلل القيادى يوازى فى مستواه تقريبا مستوى مراقب الإنتاج ، هو : مراقب الصيانة ، الذى يمررها بدوره ، نزولا إلى الميكانيكيين . وهكذا تمر المعلومات بأربع خطوات صعودا ونزولا بالإضافة إلى خطوة واحدة أفقية قبل أن تبدأ عملية إصلاح العطب .

مثل هذا النظام مبنى على افتراض غير معلن بأن الرجال العاملين فى المستويات الأدنى ، أولئك الغارقين فى العرق ، الملطخين بالغبار والهباب ، لا يستطيعون أن يصنعوا قرارات صائبة . وأن أولئك الذين يحتلون مراكز أعلى فى التسلسل القيادى هم وحدهم الذين يمكن أن يوكل إليهم صنع القرارات ، فالمسئولون فى المستويات الأعلى يصنعون القرارات ، والعاملون عند القاع هم الذين ينفذونها . . مجموعة تمثل عقل المنظمة ، ومجموعة تمثل يديها .

مثل هذه الترتيبات البيروقراطية تناسب تماما حل المشكلات الروتينية الوئيدة الخطى . أما عندما تتسارع المشكلات أو تفقد سمتها الروتينية تنطلق الفوضى من عقالها . ومن السهل أن ترى كيف يحدث ذلك .

أولا : لأن تسارع الحياة (خصوصا فى مجال الإنتاج عندما يدخل إليه الاتوميشن) يعنى أن كل دقيقة من « الوقت الضائع » تسبب فقدا فى الإنتاج يفوق بكثير ما كان يمكن أن تسببه فى أى وقت مضى . إن تكاليف التأخير فى تصاعد مستمر . ومن ثم فإن المعلومات يجب أن تتدفق بسرعة أكبر مما كانت تسير به من قبل . وفى نفس الوقت فإن سرعة التغيير بما تستحدثه من مشكلات طارئة ترفع باستمرار من كمية المعلومات المطلوبة . إن مواجهة مشكلة مستحدثة تحتاج لحلها إلى معلومات أكثر من تلك التى عالجناها من قبل عشرات المرات . إن ذلك المطلب المركب لمعلومات أكثر وسرعة أكبر هو الذى يزعزع مكانة التسلسل الرأسى اللصيق بالبيروقراطية .

لقد كان من الممكن أن تتحقق سرعة أكبر فى المسبك الذى وصفت ، إذا ما سمح للعامل بأن يخطر مراقب الصيانة مباشرة بالعطل الذى حدث ،

أو حتى يخطر طاقم الصيانة به ، بدلا من أن يمرر المعلومات خلال الملاحظ ومراقب الإنتاج . . لقد كان فى المستطاع توفير خطوة أو خطوتين من الخطوات الأربع لعملية التواصل ، أى من ٢٥ إلى ٥٠ فى المائة . وجدير بالملاحظة هنا أن الخطوات التى كان من الممكن إلغاؤها هى من النوع الصاعد الهابط ، أى النوع الرأسى .

واليوم فإن مثل هذه الوفورات أصبحت هدف البحث الدائم للمديرين الذين يريدون أن يواكبوا التغيير . إن الخطوات المباشرة الذى تتجاوز التسلسل التقليدى أصبحت أسلوبا للعمل يتزايد استخدامه اليوم فى آلاف المصانع والمكاتب والمعامل ، وحتى فى القوات المسلحة . إن الحصيلة المتراكمة من مثل هذا التغيير الضئيل تعتبر نقلة كبرى من نظم التواصل الرأسية إلى نظم التواصل الأفقية . إن النتيجة المقصودة هى التواصل الأسرع . وعملية تسطيح مستويات التواصل هذه تمثل ضربة كبرى إلى ما كان يعتبر من المقدسات البيروقراطية . ونعنى بذلك خط التسلسل الرأسى ، كما أنها تفتح ثغرة متسعة فى مفهوم التناظر الوظيفى بين « العقل واليد » ، لأنه كلما زاد تجاوز التسلسل الرأسى وجدنا هذه « الأيدى » وقد بدأت هى أيضا تصنع قرارات. فعندما يتخطى العامل الملاحظ أو المراقب ويستدعى طاقم الصيانة مباشرة فإنه يكون بذلك قد صنع قرارا كان من قبل من اختصاص « المستويات الأعلى » فقط .

إن التدهور الصامت ؛ البالغ فى نفس الوقت؛ لخط التسلسل الذى يحدث الآن أيضا فى أجنحة الإدارة كما يحدث عند المستوى الأدنى فى المصانع ، قد زاد من حدته دخول أفواج من الخبراء إلى المشهد ــ أولئك المتخصصين فى فروع حيوية وضيقة إلى الحد الذى يتعذر غالبا على أولئك الموجودين فى القمة أن يفهموها . وبالتالى فإن اعتماد المديرين على أحكام مثل هؤلاء الخبراء فى تزايد مطرد . إن الخبراء من المتخصصين فى فيزياء الأجسام الصلبة ووضع برامج الكومبيوتر ، وتصميم النظم وبحوث التشغيل ، والتخصصات الهندسية ، يتولون الآن مهمة صنع القرارات . لقد كانوا من قبل يستشارون

فقط من جانب المديرين الذين قصروا حق صنع القرارات على أنفسهم . أما اليوم فإن المديرين يفقدون احتكارهم لصنع القرارات .

يقول البروفيسور ريد من جامعة ماكجيل : « يوما بعد يوم يتضح عدم ملاءمة نظام التسلسل القيادى بالنسبة للخبراء ، إنهم لا يستطيعون انتظار موافقة المستويات الإدارية العليا على مقترحاتهم المتصلة بالنواحى الفنية المتخصصة » . ومع قيمة الوقت الأغلى من أن تضيعه مقترحاتهم ، وهى تسير الهوينا عبر خط التسلسل القيادى صعودا وهبوطا ، بدا الخبراء يتحولون عن كونهم « مستشارين » فقط إلى صنع القرارات بأنفسهم . وهم يفعلون ذلك فى أغلب الأحوال بالتشاور مباشرة مع العمال والفنيين العاملين فى المستوى الأدنى .

وكنتيجة لذلك ، يقول فرانك ميتزجر مدير تخطيط القوى العاملة فى الشركة الدولية للتليفون والتلغراف : « إنك لم تعد تجد من الممكن التمسك بالولاء لنظام سلم المراتب . إنك قد تجمع ممثلين لخمسة أو ستة مستويات فى اجتماع واحد . إنك تحاول أن تتجاهل مستوى المرتب والوظيفة فى سبيل تيسير إنجاز العمل المطلوب » .

مثل هذه الحقائق ، كما يقول البروفيسور ريد : « تعبر عن تغير مذهل فى التفكير والتصرف ، وصنع القرارات بالنسبة للمنظمات » ثم يعلن : « قد يكون السبيل الوحيد لتفادى ، أو مواجهة ، مشكلات الربط والتواصل الناتجة من التغير السريع للتكنولوجيا ، هو أن نجد ترتيبات جديدة للأفراد والمهام . ترتيبا متحررا تماما من البيروقراطية التقليدية » .

ولسوف يمر زمن طويل قبل أن يختفى التسلسل البيروقراطى تماما . فالبيروقراطيات مهيأة للقيام على عديد من المهام التى تحتاج إلى أعداد غفيرة من متوسطى التعليم لأداء أعمال روتينية . وبلا شك فإن مثل هذه الأعمال ستستمر فى المستقبل ، وسيكون هنالك دائما أشخاص لأدائها . ومع ذلك فإن مثل هذه الأعمال بالذات هى التى يستطيع الكومبيوتر أن يؤديها بطريقة

أفضل من الطريقة التى يؤديها بها الأفراد . ومن الواضح أنه فى مجتمع ما فوق التصنيع سيوكل العديد من مثل هذه الأعمال إلى نظم ذاتية التنظيم ، ويستغنى بالنسبة لها عن المنظمة البيروقراطية . إن الأوتوميشن بدلا من أن يساعد على تشديد قبضة البيروقراطية على المدنية سيساعد ، بعكس ذلك ، على التخلص من نير سيطرتها .

وعندما تزحف الآلات على الأعمال الروتينية وتستولى عليها ، وتزيد دفعة التغيير المتسارع من حجم المستحدثات فى البيئة ، سيحتاج المجتمع (ومنظماته) إلى تكريس جانب متزايد من طاقته أيضا لحل المشكلات اللاروتينية . مثل هذه المشكلات تحتاج إلى قدرة على التخيل والخلق لا يمكن أن تتوافر لدى البيروقراطية ببناها الثابتة ، ورجالها المتجمدين داخل شقوقهم ، ونظامها القائم على التسلسل القيادى المحكم . ومن ثم فلا وجه للدهشة . إذا ما وجدنا اليوم أنه حيثما أدرك تيـار التغيير التكنولوجى والاجتماعى المنظمات ، وحيثما اكتسب البحث والتطوير أهمية أكبر ، وحيثما كان على الأفراد أن يواجهوا باستمرار مشكلات مستحدثة – فإننا نسمع أكثر باضمحلال الأشكال البيروقراطية . فى مثل هذه المنظمات الطليعية ينبثق الآن نظام جديد للعلاقات الإنسانية .

وحتى تعيش المنظمات ينبغى أن تطرح عن كاهلها الإجراءات البيروقراطية التى تعوق من حركتها وتجعلها أقل حساسية ، وأقل استجابة لدواعى التغيير . والنتيجة – كما يقول جوزيف . أ . رافاييل أستاذ الاقتصاد بمعهد دريكسل للتكنولوجيا – هى أننا نسير نحو « مجتمع عامل من المتساوين الفنيين سيكون فيه « الخط الفاصل بين القائد والمقرد خطا ضبابيا » .

إن إنسان عصر ما فوق التصنيع سيجد نفسه ، بدلا من التقوقع داخل شق محدود فى آلة البيروقراطية وأداء أعمال روتينية مجردة عن التفكير ، فإنه سيجد نفسه وقد صار يتخذ القرارات ويتحمل المسئوليات – وأنه ينبغى له أن يفعل ذلك فى إطار تنظيم يغير من بناه بسرعة تخطف الأبصار . وينبنى على علاقات إنسانية زوالية . ويبقى بعد ذلك أن نقول إن منظمة عصر ما فوق

التصنيع سوف تكون أبعد ما تكون عن تلك البيروقراطية التي ما زال الكثيرون من روائيينا ومن نقادنا الاجتماعيين يقذفونها برماحهم الصدئة .

ماوراء البيروقراطية

إذا كان ماكس ويبر هو أول من عرف البيروقراطية وتنبأ بانتصارها ، فإن وارين بينيس هو الرجل الذي يمكن أن يذكر في كتب علم الاجتماع بأنه أول من تنبأ باندحارها ، مؤيداً نبوءته بالبراهين المقنعة ، ورسم الخطوط العريضة لأنماط المنظمات التي ستحل محلها . ففي نفس الوقت الذي ارتفعت فيه الصيحات الشاجبة للبيروقراطية إلى ذروتها بين طلبة الجامعات الأمريكية وغيرها ، أعلن بينيس ، أخصائي علم النفس الاجتماعي وأستاذ الإدارة الصناعية ، أعلن نبوءته التي تقول بمنتهى الوضوح : « إننا في خلال فترة ما بين الخمس والعشرين والخمسين السنة القادمة سنسهم جميعا في نهاية البيروقراطية » . ثم حثنا على أن ننظر بإمعان إلى « ما وراء البيروقراطية » .

وهكذا فإن بينيس يرى أنه : « بينما كان المطالبون بعلاقات إنسانية أفضل يحاربون البيروقراطية لدواع إنسانية ، ومن أجل قيم مسيحية ، كان يبدو واضحا أن البيروقراطية تنهار في غالب الأمر ؛ لعدم قدرتها على التكيف مع التغيير السريع .. » .

ثم يقول : « إن البيروقراطية تزدهر في بيئة تعلو فيها حدة المنافسة مع ميل شديد إلى استقرار الأوضاع كمناخ الثورة الصناعية التي عاشت فيه فترة شبابها . إن البناء الهرمي للسلطة المتركزة في أيدي القلة . . كان ولا يزال هو أكثر الظروف الاجتماعية ملاءمة للمهام والأعمال الروتينية . ولكن البيئة قد تغيرت في نفس الاتجاهات التي تجعل من استمرار مثل هذا التنظيم مشكلة بالغة التعقيد . لقد اختفى الاستقرار » .

إن كل عصر من العصور ينتج الشكل الذي يوافق إيقاعه من المنظمات ، فخلال عصر المدنية الزراعية الطويل تميزت المجتمعات بذلك البطء الشديد في التحول والتغير . لقد أدى بطء وسائل النقل والاتصال إلى انخفاض

معدل السرعة الذى تنتقل به المعلومات . كما اتسمت حياة الأفراد ببطء نسبي فى خطوها وإيقاعها . وكان من النادر أن تواجه المنظمات بضرورة اتخاذ ما نسميه الآن بالقرارات العاجلة .

ثم جاء عصر التصنيع ليسرع من إيقاع الحياة الفردية والتنظيمية على حد سواء ، وكان ذلك على وجه التحديد ، هو السبب الذى جعل من إنشاء الأشكال البيروقراطية ضرورة لازمة . ومهما بدت لنا التنظيمات البيروقراطية فى الوقت الحاضر معوقة ومعطلة ، فقد كانت فى ذلك الزمن قادرة على أن تصنع قرارات أفضل وأسرع مما كانت عليه المنظمات المتسببة المتداعية التى سبقتها ، لقد ساعدت القواعد المحددة ، والمبادئ المقررة لمعالجة كل مشكلات العمل المختلفة ، على الإسراع بتدفق القرارات بمعدل ملائم لما أحدثه التصنيع من إسراع فى خطو الحياة .

لقد كان ويبر لماحا بحيث لم تغب عنه هذه الحقيقة ، فهو يقول : « لقد كان للزيادة غير العادية فى السرعة التى تصدر بها البيانات العامة ، وفى التحولات السياسية والاقتصادية ، أثرها البالغ فى إحداث رد فعل مماثل فى اتجاه سرعة إيقاع العمليات الإدارية ، ولكنه كان مخطئا عندما قال : « إن المنظمة ذات الطبيعة البيروقراطية الصارمة هى التى تستطيع أن تمارس أسرع استجابة لمثل هذه التغيرات » . فقد أصبح من الواضح الآن أن التغيير يتسارع بمعدل لم تستطع ، حتى المنظمات البيروقراطية ، أن تلاحقه . إن المعلومات تنتقل خلال المجتمع بسرعة فائقة . والتغييرات التكنولوجية تتوالى بشكل جعل من الضرورى استحداث أشكال من المنظمات تستطيع الاستجابة الفورية لتغيرات المستقبل .

كيف إذن ستكون الأنماط المميزة لمنظمات مجتمع ما فوق التصنيع ؟ إن كلمة « موقت » — كما يقول بينيس — ستكون بمثابة « الصفة العامة » لكل ما ستتميز به هذه المنظمات . إنها ستكون نظما مؤقتة سريعة التكيف والتغير ، وسوف تحل المشكلات بواسطة مجموعات عمل مؤقتة

مكونة من « أشخاص غرباء بعضهم عن بعض نسبيا ، ويمثلون قطاعات متنوعة من الخبرات والمهارات » .

وسوف تكون وظيفة المديرين والمسئولين التنفيذيين فى هذا النظام هى التنسيق بين فرق العمل المؤقتة المختلفة ، مهرة فى فهم رطانة المجموعات المختلفة من المتخصصين ، وترجمة ونقل لغة مجموعة ما إلى لغة مجموعة أخرى . إن الأشخاص فى هذا النظام ، كما يقول بينيس : « سوف لا يكون طابع الاختلاف بينهم رأسيا على أساس المرتبة والدور ، ولكن وظيفيا ومرنا على أساس المهارة والخبرة المهنية » .

ثم يستطرد بينيس موضحا أنه نظراً لارتفاع معدل تنقل الأفراد بين مجموعة وأخرى من هذه المجموعات المؤقتة : « سوف يتقلص شعور الانتماء إلى مجموعة بعينها .. ولسوف يلازم تزايد أهمية دون المهارات فى التفاعل الإنسانى — بمقتضى تزايد الحاجة إلى التعاون فى إنجاز المهام المعقدة — تناقص فى تماسك المجموعة .. وسيكون على الأفراد أن يتعلموا كيف ينشئون علاقات سريعة ووثيقة فى أثناء العمل ، وأن يتعلموا فى نفس الوقت كيف يحتملون فقد علاقات العمل الطويلة المدى » .

هذه هى صورة الأدهوقراطية القادمة ، منظمة المستقبل الديناميكية النشطة ، السريعة الحركة ، الغنية الحركة ، ونستطيع من واقع هذه الصورة أن نستنتج بعض الملامح التى سيتميز بها الأشخاص الذين سيعملون فى إطار هذه المنظمات الجديدة ، والذين تستطيع أن تجدهم إلى حد ما فى البواكير الحالية لهذه المنظمات . إنهم يختلفون بدرجة واضحة عن تلك النماذج التقليدية لرجل المنظمة . فكما يتطلب تسارع التغيير والتزايد المطرد فى تجدد البيئة نمطا جديدا من المنظمات فإنه يتطلب أيضا نماذج جديدة من الرجال .

إن الملامح الأساسية للبيروقراطية هى ، كما سبق أن قلنا : الثبات ، والتسلسل القيادى ، والتقسيم الصارم للعمل . ولقد انعكست هذه الملامح نفسها على تكوين نمط الرجال العاملين فى إطار هذه المنظمة .

فالثبات – أى الإحساس باستمرار الرابطة بين الفرد والمنظمة على مر الزمان – قد ولد شعورا قويا بالانتماء إلى المنظمة . وكلما طال بقاء الفرد فى أحضانها رأى فى ماضيه نوعا من الاستثمار فى المنظمة . ورأى مستقبله مربوطا إلى مستقبل المنظمة ذاتها . فطول العشرة ينمى الولاء . ولقد قوى من هذا الميل – بالنسبة لمنظمات العمل – إدراك الفرد أن قطع صلته بالمنظمة يعنى ، فى أغلب الأحوال ، فقده لأسباب بقائه اقتصاديا . فالوظيفة شئ ثمين فى عالم يئن بالحاجة ويعج بالمحتاجين . ومن ثم فإن البيروقراطى كان دائما أميل إلى البقاء حيث هو تشبثا بالأمن الاقتصادى . وفى سبيل الحفاظ على وظيفته أخضع اهتماماته وقناعاته الشخصية لاهتمامات وقناعات المنظمة .

لقد كان سلم المراتب – القناة التى يمر منها النفوذ والسلطة – بمثابة السوط الذى يكفل بقاء البيروقراطى فى مكانه بالصف . ولعلمه بأن علاقته بالمنظمة ثابتة نسبيا (أو على الأقل آملا أن تكون كذلك) كان رجل المنظمة يتطلع إليها طلبا للقبول والرضا . فالمكافأة والعقوبة تأتيان عبر خط التسلسل القيادى ، ومن ثم فإن الفرد قد اعتاد أن يتعلق نظره دائما بالمرتبة التى تعلوه فى سلم التسلسل . وتربى على الخضوع لما تمليه المراتب الأعلى . وهكذا : بين الخوف والرجاء أصبح رجل المنظمة إنسانا بلا قناعات شخصية (أو مفتقرا إلى الشجاعة اللازمة لإظهار هذه القناعات) . فطريق الخضوع هو بالنسبة له طريق السلامة .

وأخيرا ، فقد كان على رجل المنظمة . أن يفهم جيدا وضعه بالنسبة لكل شئ فى إطار المنظمة . إنه يحتل شقا محددا داخل هذا الإطار . ويؤدى أعمالا محددة أيضا بمقتضى القواعد التى وضعتها المنظمة ، وتقديره متوقف على مدى الدقة التى يلتزم بها بالتعليمات واللوائح ، وعندما كانت تواجهه مشكلات روتينية نسبيا كان يشجع على البحث عن إجابات روتينية لها . فالتجديد والخلق والإقدام لم تكن موضع ترحيب ، لأنها تتنافس مع ما تتوقعه المنظمة من الأجزاء المكونة لها .

أما الأدهوقراطية التى ما زالت حتى الآن جنينا يتخلق ، فإنها تتطلب إنسانا ذا شخصية مختلفة جذريا عن تلك الصورة التى رسمناها لإنسان المنظمة التقليدى . فعلى العكس من حالة الثبات التى كانت تميز المنظمة البيروقراطية التقليدية ، نجد أن الصفة التى تميز المنظمة الجديدة هى التحول والزوال- سرعة الحركة بين المنظمات وعمليات إعادة التنظيم التى لا تنتهى داخل المنظمة الواحدة . وتكوين ثم فك فرق العمل المؤقتة بصفة مستمرة . فلا عجب إذن أن نشهد اضمحلال « الولاء » القـــديم بين المنظمة وبناها التحتية .

لقد كتب والتر جوزاردى (الابن) عن مسئولى التنفيذ الشبان فى الصناعة الأمريكية اليوم يقول : « إن الاتفاقات بين الرجل العصرى والمنظمة العصرية ليست من نوع قوانين الميديين أو الفرس .. إنها لم توضع لتبقى إلى ما لانهاية . . لقد أصبح الرجل بين الوقت والآخر يعيد تقدير موقفه من المنظمة وموقف المنظمة حياله .. فإن لم يعجبه ما يرى فإنه يحاول تغييره .. فإن لم يستطع التغيير ترك المنظمة » .

ويقول المدير جورج بيك : « لو أحصينا عدد المديرين الذين يحتفظون باستقالاتهم جاهزة فى أدراج مكاتبهم لوجدنا الرقم مذهلا حقا !! »

إن الولاء القديم للمنظمة قد أخذ - فيما يبدو - يتبخر مفسحا المجال لولاء جديد صاعد هو الولاء المهنى . إن عدد المهنيين والفنيين والمتخصصين يتزايد فى الدول المتقدمة تكنولوجيا بمعدلات تفوق تزايد أى فئة أخرى من القوى العاملة . وعلى سبيل المثال ، فقد تضاعف عددهم فى الولايات المتحدة خلال الفترة من سنة ١٩٥٠ إلى ١٩٦٩ وبدلا من أن يعملوا كمقاولين أو مستشارين أحرار دخلوا بالملايين إلى صفوف المنظمات ، وكانت النتيجة هى نقيض جدلى كامل للصورة التى رسمها فيبلين من قبل عندما تحدث عن « تصنيع المهنيين » ، فالذى تشهده اليوم هو « تمهين الصناعة » .

وهكذا نجد جون جاردنر يقول : « إن ولاء المهنى هو لمهنته وليس

للمنظمة التى قد تؤويه فى أى وقت . قارن الكيميائى أو مهندس الإلكترونات فى أى مصنع قريب برجل المنظمة غير المهنى فى نفس المصنع ، وستجد أن الكيميائى لا يعتبر أن زملاءه هم أولئك الذين يحتلون المكتب المجاور ، ولكن زملاءه فى المهنة أينما كانوا فى أى بقعة من البلاد ، بل فى العالم . وبسبب روابط الزمالة التى تربطه بهذا الشتيت المبعثر فى كل مكان فإنه هو نفسه كثير التحرك . وحتى لو ظل فى مكان واحد فإن ولاءه للمنظمة ليس هو نفس ولاء رجل المنظمة الحقيقى .. إنه لا يؤمن مطلقا بمثل هذا الولاء ...

« إن النمو الصاعد للمهنيين يعنى فى نفس الوقت أن المنظمات الكبيرة الحديثة قد أصبحت تغص بالعديد المتزايد ممن يعتنقون مفاهيم مختلفة تماما عن المفهوم التقليدى للمنظمة » . ومن الناحية العملية يمكن أن نعتبر هؤلاء « لا منتمين » إلى المنظمة ، وإنما فقط يعملون بها » .

وفى نفس الوقت فإن كلمة « مهنة » بدأت تكتسب معنى جديدا . فكما بدأت خطوط التسلسل الرأسى للبيروقراطية تنهار تحت وطأة التأثير المشترك للتكنولوجيا الحديثة ، والمعرفة الجديدة ، والتغيير الاجتماعى ، كذلك أيضا بدأ نفس الشئ يحدث للتقسيم الأفقى الذى يفصل بين الناس على أساس من تخصصاتهم . إن الحدود القديمة بين المتخصصين بدأت تنهار . لقد بدأ الرجال يدركون أن المشكلات الجديدة لا يمكن حلها إلا بتخطى حدود هذا التقسيم الضيقة .

لقد كان البيروقراطى التقليدى يضع المهندسين الكهربيين فى حيز ، ويضع الأخصائيين السيكولوجيين فى حيز منفصل . والواقع أن كلا من المهندسين والسيكولوجيين ينتمى إلى منظمة مهنية لها تميزها الشديد عن غيرها بالنسبة لمجالس المعرفة والممارسة . وبالرغم من ذلك فإننا نرى اليوم فى صناعة الطيران والفضاء ، وفى مجالات التعليم وغيرها ، عمليات مزج بين المهندسين والسيكولوجيين فى فرق العمل المؤقتة . إن المنظمات الجديدة كثيرا ما تعكس ألوانا من هذا الدمج المثير بين مناشط العديد من المهن

الأساسية . وبدأنا نرى مجموعات عمل فرعية يمتزج فيها عمل البيولوجيين مع الرياضيين والمهندسين مع أخصائى المكتبات ، والموسيقيين مع خبراء الكومبيوتر . إن التميز بين المهن لم يختف تماما ، ولكنه أخذ يرق ويهن عما كان عليه من قبل .

وفى مثل هذه الحالة فإن الولاء المهنى ذاته قد بدأ يتحول إلى انتماءات قصيرة المدى ، وبدأ العمل نفسه ، المهمة الماثلة ، والمشكلة التى تتطلب الحل يستلب ذلك النوع من الانتماء الذى كان من قبل مقصوراً على المنظمات . يقول بينيس : « يبدو أن المتخصصين المهنيين قد أصبحوا يستمدون أغلى جوائزهم من شعور داخلى بالمستوى الممتاز ، ومن مجتمعاتهم المهنية ، ومن إحساس الرضا عما يعملون . إن انتماءهم فى الحقيقة قد أصبح للمهمة وليس للوظيفة ، لمستوياتهم وليس للرئيس . ولأنهم مؤهلون فهم بالتالى كثيرو التنقل . إنهم ليسوا « رجال شركة » جيدين ، إن انتماءهم الوحيد قد أصبح إلى حيث يستطيعون « أن يعالجوا المشكلات » .

مثل هؤلاء الأفراد الذين يمثلون إنسان المستقبل هم الذين تنبنى عليهم المنظمات الأدهوقراطية الموجودة حاليا . إنهم يجدون الإثارة وفرصة العمل الخلاق فى مجالات من مثل صناعة الكومبيوتر . والتكنولوجيا التعليمية وتطبيق تكتيكات النظم ومشكلات تطوير المدن ، وفى الصناعة الأقيانوجرافية الجديدة ، وفى الوكالات الحكومية المشتغلة بالصحة البيئية ، وغيرها . وفى كل من هذه المجالات يتزايد ممثلو إنسان المستقبل ، فى حين يتناقص أولئك المنتمون إلى إنسان الماضى ، وتنتشر روح الإقدام المناقضة تماما لروح طلب الأمن عن طريق الجمود والتقولب التى تميز رجل المنظمة التقليدى .

إن الروح الجديدة التى تنتشر فى هذه المنظمات الزوالية هى فى حقيقتها أقرب إلى روح المقاولين منها إلى رجال المنظمات . لقد كان المقاول الحر الذى يقتحم ميدان المشروعات الكبيرة غير هياب للإخفاق ، أو عابئ بآراء المخالفين ، هو البطل الشعبى لعصر التصنيع ، وبنوع خاص فى الولايات

المتحدة . لقد وصف باريتو هؤلاء المقاولين بأنهم « أناس مغامرون متعطشون دائما إلى التجديد .. لا يزعجهم التغيير على الإطلاق » .

من الحكمة أن نسلم بما جرى عليه العرف من أن عصر المقاولين قد انقضى ، وأخلوا مكانهم فى عصرنا الحاضر لرجال المنظمات والبيروقراطيين. ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نتجاهل ما نشهده اليوم من عودة الروح التى كانت تميزهم إلى الظهور . إن سر عودة الروح ماثل فى الزوالية الحديثة ، واختفاء الشعور بعدم الأمن بالنسبة لكتل كبيرة من المتعلمين ، فمع تزايد الرخاء والوفرة ازدادت الرغبة فى المخاطرة . إن مثل هؤلاء الرجال لا يخشون الإخفاق حين يخاطرون ؛ لأنهم لا يمكن أن يتصوروا التعرض للجوع على أية حال . لذا نجد رجلا مثل شارلز ايلويل مدير العلاقات الصناعية فى شركة هنت للصناعات الغذائية يصف المديرين ومسئولى التنفيذ بأنهم : « يعتبرون أنفسهم مقاولين مستقلين يبيعون معارفهم ومهاراتهم . كما يقول ما كس وايز فى مقال بمجلة فورتشن : « الواقع أن الرجل المهنى فى الإدارة قد أصبح يتمتع بقاعدة من الاستقلال ، قد تكون أمتن مما أتيح لأى رجل أعمال صغير من حقوق ملكيته » .

وهكذا فإننا نشهد فى وقتنا الراهن ظهور نمط جديد من رجال المنظمات – رجل بالرغم من ارتباطاته العديدة ، لا ينتمى إلى أى منظمة ، إنه يرغب فى استخدام مهاراته وقدراته الخلاقة فى حل المشكلات من خلال الإمكانيات التى توفرها المنظمة ، وضمن مجموعات عمل مؤقتة تكونها هذه المنظمة . ولكنه يفعل ذلك فقط ما دامت المشكلات تستحوذ على اهتمامه . فهو منتم فقط إلى مهنته ، وملتزم قبل كل شئ بتحقيق ذاته .

فليس إذن من قبيل المصادفة ، وفى ضوء كل ما ذكرناه آنفا ، أن يصبح استخدام تعبير « مساعد » مألوفا فى المنظمات الكبيرة حيث نجد الآن : «مديرين مساعدين للتسويق» ، و«باحثين مساعدين» ، وحتى المصالح الحكومية قد أصبحت ممتلئة « بمديرى العموم المساعدين » و « مديرى الإدارات المساعدين » . إن كلمة : « مساعد » هنا تتضمن معنى الزميل المساوى

أكثر من معنى المرؤوس . وانتشار استخدامها يعكس النقلة الجديدة من حصر الاتصال فى خط التسلسل الرأسى إلى التوسع فى الاتصالات المتوازية .

فحيثما وجدنا رجل المنظمة خاضعا لها ، نجد أن هذا المساعد لا يكاد يبالى بها . وحيثما وجدنا رجل المنظمة مقيداً بالقلق على أمنه الاقتصادى نجد هذا المساعد ينظر إلى أمنه الاقتصادى كأمر مفروغ منه . وحيثما وجدنا رجل المنظمة يخشى المخاطرة ، نجد هذا المساعد مرحبا بها (لأنه يعلم أنه فى مجتمع الوفرة السريع التغير يصبح الإخفاق ذاته مجرد حالة زائلة) . وحيثما وجدنا رجل المنظمة قوى الشعور تجاه مراتب المنظمة باحثا عن وضعه ومكانته داخل إطارها ، نجد هذا المساعد باحثا عن وضعه ومكانته خارج هذا الإطار . وحيثما وجدنا رجل المنظمة قابعا داخل الشق المحدد له سلفا بالمنظمة ، نجد هذا المساعد وهو يتنقل من شق إلى شق ، وبشكل أصبحت تحركه أكثر فأكثر دوافعه الذاتية . وحيثما وجدنا رجل المنظمة وقد كرس نفسه لحل مشكلات روتينية طبقا لقواعد محددة ، متفاديا الإقدام على أى بادرة من تطوير خلاق ، نجد هذا المساعد مبادرا إلى التجديد إزاء المشكلات الجديدة التى تواجهه . وحيثما وجدنا رجل المنظمة مخضعا فرديته للدور الذى « يلعبه ضمن الفريق » ، نجد هذا المساعد مدركا لأن الفريق نفسه صائر إلى زوال . إنه قد يخضع فرديته لفترة ما ، وطبقا لشروط قائمة على اختياره ، ولكنه لا يمكن على الإطلاق أن ينظر إلى مثل هذا الاندماج على أنه اندماج له صفة البقاء والدوام .

ومع ذلك فهناك الوجه الآخر للعملة وهو يعرفه أيضا .. إن تغير العلاقات مع المنظمات التقليدية يجلب فى أعقابه تغيرا أكثر فى العلاقات مع المنظمات غير التقليدية ، وفصما أسرع لروابط الفرد بغيره من الأفراد . ومع كل تغيير تأتى ضرورة تعلم شئ جديد . إنه مطالب بأن يتعلم قواعد اللعبة . ولكن القواعد نفسها تتغير باستمرار . إن ظهور الادهوقراطية يزيد من قدرة المنظمات على التكيف . ولكنه فى نفس الوقت يرهق هذه القدرة لدى الأفراد . لقد توصل توم بيرنز من خلال دراسة أجراها على صناعة

الإليكترونات فى بريطانيا ، إلى نتائج أسفرت عن وجود تباين مزعج بين المديرين العاملين فى منظمات مستقرة ، وأولئك الذين وجدوا أنفسهم حيث وصل تيار التغيير إلى أقصى مداه . فهو يقول : « إن تكرار عملية التكيف يتم على حساب شعور الفرد بالرضا ، فلقد لوحظ فرق فى التوتر الشخصى بين هؤلاء ونظرائهم فى السن ممن وصلوا إلى نفس المستوى من المركز بشكل أكثر استقرارا » . ويقول بينيس : « إن مواجهة التغيرات السريعة ، والعيش ضمن مجموعات العمل المؤقتة ، وإنشاء علاقات معقولة (خلال فترة وجيزة) ثم فصمها — ينطوى على أعباء اجتماعية مرهقة وتوترات نفسية » .

ربما كان المستقبل . بالنسبة للكثيرين فى مجال علاقاتهم التنظيمية — كما فى غيره من المجالات — قد أقبل بأسرع مما كان منتظرا . فالاتجاه إلى الأدهوقراطية يعنى بالنسبة للفرد تسارعا حادا فى معدل تغيير علاقاته التنظيمية. وهكذا يستقر فى مكانه جزء آخر من دراساتنا للمجتمع ذى الطبيعة الزوالية العالية . ويصبح واضحا أن تسارع التغيير قد أوهى من روابطنا التنظيمية بمثل ما فعل بعلاقاتنا بالأشياء ، وبالأمكنة ، وبالناس . إن تزايد التغيير فى كل هذه العلاقات يلقى عبئا ثقيلا من مطالب التكيف على الأفراد الذين نشأوا وتربوا ليعيشوا ضمن نظم اجتماعية أبطأ خطوا ، وأهدأ إيقاعا .

وهنا يكمن الخطر من صدمة المستقبل . هذا الخطر الذى يزيد من حدته ، كما سوف نرى ، تأثير الدفعة المتسارعة فى دنيا المعلومات .

الفصل الثامن

المعلومات : الصورة المتحركة

فى مجتمع تتسم حياته اليومية بظاهرة الفورية . من الطعام الجاهز ، إلى برامج التعليم الجاهزة ، إلى المدن الجاهزة ، ليس هناك شئ أسرع صنعا ثم زوالا من الشهرة . إن الأمم التى تتقدم نحو عصر ما فوق التصنيع تتميز بتزايد إنتاجها من هذه السلعة السيكولوجية ، وبالسرعة الفائقة التى تدفع بها هذه الشهرات إلى عقول ووعى الملايين .

فقبل مضى سنة على اليوم الذى وقفت فيه لأول مرة كموديل للمصورين فتاة لندنية تجمع بين ملامح الطفولة والصبا ، أطلق عليها اسم مستعار هو «تويجى» ، كان الملايين من البشر حول العالم قد اختزنوا لها صورة ذهنية فى عقولهم . لقد انطلقت تلك الفتاة ذات العيون الندية ، والشعر الأشقر ، والصدر الضامر ، والسيقان النحيلة ، انطلقت إلى عالم الشهرة كالقنبلة فى سنة ١٩٦٧ . وفجأة بدأ وجهها الساحر وجسمها النحيل يظهران على أغلفة المجلات فى بريطانيا وأمريكا وفرنسا وإيطاليا وغيرها من البلاد . وما بين يوم وليلة بدأت مصانع البدع « التقاليع »تغرق السوق بالسلع التى تحمل اسم « تويجى » : رموش تويجى ، عطور تويجى ، مانيكانات تويجى ، ملابس تويجى ، وبدأ النقاد يتحدثون عن مغزاها الاجتماعى ، والصحفيون يخصصون للحديث عنها مساحات تساوى تلك التى كانت تخصص لمعاهدة السلام ، أو الانتخابات البابوية .

أما الآن فقد أوشكت الصور الذهنية المختزنة لتويجى على أن تنمحى وتختنى تماما من عقول الملايين . لقد كانت تويجى نفسها ذكية فى تقديرها عندما قالت : « ليس من المستبعد أن أختنى بعد ستة أشهر » . فالصور بدورها قد أصبحت سريعة الزوال ، ليس فقط صور الموديلات والرياضيين

والفنانين ، ولكن غيرهم أيضا . فمنذ وقت غير بعيد كنت أسأل طالبة تتمتع بقدر كبير من الذكاء عمن هم الأبطال فى نظرها ونظر زملائها ؟ وكان من بين الأسئلة التى وجهتها إليها : « هل يعتبر جون جلين ، مثلا ، فى نظركم بطلا » . وكان رد الفتاة : « لا ، هذا شئ قديم جدا . » وكانت الفتاة تعنى أن الرحلة المثيرة التى قام بها جون جلين (أول رائد فضاء أمريكى) قد مضى عليها زمن كاف أفقدها اهتمام الناس بها (قام جلين برحلته فى فبراير سنة ١٩٦٢) . لقد تراجعت صورة جلين عن المكان الذى كان تحتله فى المقدمة من اهتمام الجماهير وبهتت حتى كادت تنمحى .

إن تويجى ، والخنافس ، وجون جلين ، وبيلى سول ايستس ، وبوب ديلان ، وجاك روبى ، ونورمان ميلر ، وإيخمان ، وجان بول سارتر ، وجيورجى مالنكوف ، وجاكلين كنيدى وغيرهم من آلاف « الشخصيات » التى ظهرت على مسرح التاريخ المعاصر ، وكلهم أشخاص حقيقيون ، ضخمت صورهم ونشرتها وسائل الأعلام العام ، حتى انطبعت صورهم فى أذهان الملايين ممن لم يلتقوا بهم قط « شخصيا » بقوة تكاد تساوى — وأحيانا تفوق — قوة انطباع صورة الكثير ممن تربطنا بهم علاقات « شخصية » .

إننا ننشئ علاقات مع هؤلاء الأشخاص « المعنويين » ، كما ننشئ علاقاتنا بأصدقائنا وجيراننا وزملائنا . وتماما كما يتزايد عدد من نرتبط بهم فى حياتنا من الأشخاص « الحقيقيين » ونتلقى تبعا لذلك دوامية علاقاتنا بهم ، فإن نفس الشئ يصدق أيضا بالنسبة للأشخاص « المعنويين » الذين تتعاقب صورهم على أذهاننا .

إن معدل ظهور واختفاء مثل هذه الشخصيات يتأثر أيضا بمعدل التغيير الحقيقى الجارى فى العالم . وهكذا فإننا نجد ، على سبيل المثال ، أن معدل تغير رؤساء الحكومة فى بريطانيا فى الفترة من سنة ١٩٢٢ حتى الآن قد زاد بما يقرب من ١٣ فى المائة عن نفس المعدل فى الفترة ما بين سنة ١٧٢١ وسنة ١٩٢٢ . وفى الرياضة أيضا نجد مثلا أن بطولة العالم للملاكمة فى الوزن

الثقيل تنتقل فى أيامنا بضعف سرعة تنقلها عندما كان آباؤنا شبابا . لقد أصبحت الأحداث تتحرك بسرعة أكبر . وتدفع باستمرار بأشخاص جدد إلى دائرة الشهرة ، وبالتالى جعلت الصور المختزنة فى أذهاننا تبهت وتنمحى لتفسح مكانا للصور الجديدة .

ونفس الشئ يمكن أن يقال عن الشخصيات الخيالية التى تبرز من بين صفحات الكتب وعلى شاشة التليفزيون . وعلى المسارح ،وفى الأفلام السينمائية وعلى صفحات المجلات ، فلم يسبق لأى جيل من الأجيال . أن شهد مثل ما يشهد جيلنا الحالى من تعدد هذه الشخصيات . وفى تعليق له عن أثر وسائل الإعلام العام ، يقول المؤرخ مارشال فيشويك رايلى : « إننا حتى قد لا نجد المهلة الكافية لنألف شخصيات من مثل : سوبر – هيرو وكابتن نيس ، ومستر تيريفيك قبل أن تختفى إلى الأبد من على شاشة التليفزيون » .

هذه الشخصيات ، الحى منها والخيالى أيضا ، تلعب دورا هاما فى حياتنا . فنحن نأخذ عنها أنماطا فى السلوك ، وهى تقوم نيابة عنا بأدوار ومواقف نخرج منها بنتائج نربط بينها وبين حياتنا نحن . وبالوعى أو باللاوعى نستنتج دروسا مما تقوم به من أعمال . إننا نعلم من انتصاراتهم وعثراتهم ، أنهم يوحون إلينا بأن من الممكن أن « نجرب » القيام بأدوار ما ، أو أن نعيش بأسلوب معين ، دون أن نخشى العواقب التى قد تترتب على مثل هذه التجارب عندما تحدث فى واقع الحياة . إن التزايد المتسارع لمعدل ظهور مثل هذه الشخصيات فى حياتنا لا يمكن أن يؤدى إلا إلى مزيد من الاهتزاز فى نماذج الشخصية بين الكثيرين ممن يجدون صعوبة فى الاستقرار على أسلوب مناسب للحياة .

وقد تبدو لنا هذه الشخصيات ، وقد وقف كل منها وحده بمعزل عن الآخرين . ولكن الواقع أنهم مشتركون جميعا ، كل بأداء دوره الخاص ضمن نوع معقد من « الدراما العامة » . والتى يقول عنها العالم السيكولوجى أورين كلاب مؤلف كتاب (الزعماء الرمزيين) إنها ، إلى حد كبير من

صنع تكنولوجيا الاتصال الحديثة . هذه الدراما العامة التى يتوالى فيها بسرعة متزايدة ظهور شخصيات جديدة على مسرحها واختفاء أخرى من فوق هذا المسرح تساعد كما يقول كلاب : « على اهتزاز الزعامة أكثر مما تساعد على استقرارها . حوادث مؤسفة ، اضطرابات ، حماقات ، منافسات فضائح ، تصنع وجبة دسمة من التسلية أو تسرع بدوران عجلة الروليت السياسية . وتقاليع تظهر وتختفى بسرعة تدير الرؤوس .. إن الدراما العامة فى بلد مثل الولايات المتحدة هى درامة مفتوحة تظهر فيها وجوه جديدة كل يوم ، والكل فى تنافس مستمر على سرقة انتباه المشاهدين،وكل شئ يمكن أن يحدث وغالبا ما يحدث فعلا . « إن ما نشاهده على مسرح هذه الدراما العامة كما يقول كلاب : « إن هو إلا تغيير سريع للزعماء الرمزيين » .

إننا نستطيع أن نوسع من معنى هذا الكلام إذا ما صغناه فى عبارات أقوى وأشد وهى : إن ما يحدث بالفعل ليس مجرد تغيير فى شخصيات حقيقية أو حتى خيالية . وإنما تغيير سريع فى الصور وبناياتها المنطبعة داخل عقولنا . إن علاقاتنا بهذه الصور التى نبنى عليها سلوكنا وتصرفاتنا قد أصبحت تتجه بشكل عام نحو زوالية أسرع ودوامية أقصر . إن نسق المعرفة فى المجتمع بأكمله يعانى من هزة عنيفة . إن مفهوماتنا ذاتها وطرق تفكيرنا تتغير بسرعة رهيبة . إننا نزيد باستمرار من المعدل الذى نتبنى به ثم ننسى تصوراتنا للواقع .

تويجى والميزونات

إن كل شخص يحمل داخل رأسه نموذجا ذهنيا للعالم . أى تصورا ذاتيا للعالم الخارجى . هذا النموذج يتكون من عشرات فوق عشرات من ألوف الصور . هذه الصور قد تكون فى مثل بساطة صورة للسحب وهى تمر عبر السماء . وقد تكون فى مثل تعقيد الاستدلالات الموجودة عن الأسلوب الذى ينتظم كل شىء فى المجتمع ، ونستطيع أن نتصور هذا النموذج فى شكل مخزن داخلى عجيب ، أو محل كبير من محلات كل شئ مكتظة رفوفه بصورنا الداخلية لتويجى ، وشارل ديجول ، ومحمد على كلاى

جنبا إلى جنب مع المقولات الشاملة عن مثل : « إن الإنسان خير بفطرته » أو « إن الإله قد مات » .

وكل نموذج ذهنى لأى شخص سيحتوى بالضرورة على صور قريبة من الحقيقة وأخرى مشوهة أو غير دقيقة . ولكنه من الضرورى للإنسان – حتى يستطيع أن يؤدى دوره فى الحياة – أو حتى لمجرد بقائه ، أن يحتفظ بعدد من الصور المطابقة للواقع . وكما يقول : ف . جوردون تشايلد فى (المجتمع والمعرفة) : « إن أى انطباع عن العالم الخارجى مبنى ومستخدم كدليل للعمل بواسطة مجتمع تاريخى لابد وأن يتطابق لدرجة ما مع هذا الواقع . وبدون ذلك لا يستطيع المجتمع أن يحافظ على بقائه . وإذا ما تصرف أفراد طبقا لافتراضات غير صحيحة مطلقا ، فإنهم سيعجزون من ثم عن صنع أبسط الأدوات اللازمة لحياتهم . وبالتالى عن توفير الطعام والمأوى الذى يحميهم من العالم الخارجى » .

والنموذج الذهنى لكل فرد ليس من صنعه هو وحده . فبينما تكون بعض الصور مبنية على أساس من الملاحظة المباشرة نجد أن جانبا آخر متزايدا من الصور ينبنى فى وقتنا الحاضر على أساس مما تبثه فى عقولنا وسائل الإعلام العام والأشخاص ممن حولنا ، ومن ثم فإن مستوى الدقة فى نموذجه يعكس إلى حد ما مستوى المعرفة السائد فى مجتمعه ، وأنه كلما صبت الخبرة والبحث العلمى فى المجتمع معرفة أكثر دقة ونقاء ، فإن مفهومات جديدة ، وأساليب تفكير جديدة ، تنبثق لتناقض الأفكار والتصورات القديمة عن العالم ، ثم تنسخها وتحكم عليها بالبطلان .

ولو كان المجتمع نفسه ساكنا ، لما كان هناك ضغط كبير على الفرد ليجدد مدده الخاص من الصور ، ليجعلها على مستوى آخر ما وصلت إليه المعرفة المتاحة فى المجتمع ، فما دام المجتمع الذى يعيش فى كنفه ساكنا ، أو بطىء التغيير ، فإن الصور التى يبنى عليها سلوكه يمكن أن تكون بدورها بطيئة التغيير . ولكنه حتى يستطيع أن يؤدى دوره فى مجتمع سريع التغيير ،

وحتى يستطيع أن يواجه التغير السريع والمعقد فإن على الفرد أن يغير من مخزونه من تلك الصور بمعدل متناسب بدرجة ما مع المعدل الذى يجرى به التغيير فى المجتمع . إن نموذجه لابد وأن يتجدد باستمرار . وعلى قدر تلكئه فى ذلك يكون عجزه عن الاستجابة للتغيير . إنه سيكون آنذاك عرضة لمزيد من الإحباط وعدم الفعالية . ومن ثم فإن الفرد يعانى ضغطا شديداً ومستمراً ليلاحق المعدل العام لسرعة التغيير .

إن التغيير يجرى اليوم فى المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا بسرعة وبلا توقف لدرجة أن ما كانت تعتبر حقائق بالأمس قد أصبحت اليوم مختلقات ، وبات من العسير على أكثر أفراد هذه المجتمعات ذكاء ومهارة أن يلاحقوا طوفان المعرفة الجديدة حتى فى أضيق المجالات .

إن الدكتور رودولف ستوهلر ، أستاذ علم الحيوان بجامعة كاليفورنيا ببيركلى ، يشكو من أنه لم يعد فى إمكان المرء أن يدرك كل ما يريد معرفته . ويقول الدكتور ا . والين رئيس قسم علم المحيطات بمؤسسة سميثسونيان بواشنطن : « إننى أنفق ما بين ٢٥ و ٥٠ فى المائة من وقت عملى فى محاولة اللحاق بما يجرى » . أما الدكتور اميليو سيرجر الحائز على جائزة نوبل فى الفيزياء فيقول : « من المستحيل أن تراجع كل ما يكتب عن الميزونات (جزيئات نووية متوسطة الحجم بين الاليكترون والبروتون) وحدها » . ويعترف الدكتور آرثر ستامب عالم المحيطات بأنه : « حتى تستطيع أن تجد إجابة ما ، لابد من فرض حظر على المطبوعات الجديدة حول موضوعها لمدة عشر سنوات » .

إن المعرفة الجديدة ، إما أن توسع من سابقتها أو تنسخها . وفى كلتا الحالتين فإنها تفرض على المعنيين أن يعيدوا ترتيب مخزونهم من الصور . إنها تضطرهم إلى أن يتعلموا اليوم ما كانوا يعتقدون أنهم تعلموه بالأمس . وهكذا نجد لورد جيمس ، نائب مستشار جامعة يورك يقول : « لقد حصلت على أولى درجاتى العلمية فى الكيمياء من جامعة أوكسفورد سنة ١٩٣١ واليوم

عندما أنظر إلى أسئلة امتحانات الكيمياء بجامعة أوكسفورد فإننى لا أكتشف أنه ليس باستطاعتى الإجابة عليها فحسب ، وإنما أكتشف أيضا أن ثلثى المدركات التى تتضمنها لم يكن لها وجود عندما تخرجت فى الجامعة » .
أما الدكتور روبرت هيليارد كبير أخصائى برامج التعليم الإذاعية فى اللجنة الاتحادية لوسائل الاتصال فيزيد المسألة إيضاحا بقوله : « إذا ما أخذنا فى الاعتبار المعدل الذى تنمو به المعرفة لوجدنا أن الطفل الذى يولد اليوم سوف يتخرج فى الكلية فى وقت تكون المعرفة فيه قد وصلت إلى أربعة أمثال حجمها اليوم . أما عندما يصل نفس الطفل إلى سن الخمسين فسيكون حجمها قد تضخم إلى اثنين وثلاثين مثلا مما هو عليه حاليا — وسيكون ٩٧ فى المائة من كل ما يعرفه العالم قد اكتسب خلال الأعوام الخمسين التى مضت على يوم مولده » .

ومع التسليم بأن تعريف « المعرفة » شىء مبهم ، وأن مثل هذه الإحصاءات هى من المسائل الاجتهادية المحتملة الخطأ . فإن الأمر الذى لاشك فيه هو أن المد المرتفع للمعرفة الجديدة يدفع بنا نحو مجالات من التخصص أكثر ضيقا وتحديدا . وإلى مراجعة مستمرة ومتزايدة السرعة لمخزوننا الداخلى من تصوراتنا للحقيقة . ليس فقط فيما يتصل بالنواحى العلمية العويصة التى تتناول الجزئيات الطبيعية أو التركيب الوراثى ، ولكن أيضا وبنفس القوة فى كل مستويات المعرفة المختلفة التى تتأثر بها الحياة اليومية للملايين .

الموجة الفرويدية

مما لا جدال فيه أن كثيراً من نواحى المعرفة الجديدة بعيدة عن الاهتمامات المباشرة لرجل الشارع العادى . فهو لا يهتم كثيرا بالحقيقة القائلة بإمكانية تكوين مركبات من غاز الزينون — وهى الحقيقة التى كان معظم الكيميائيين إلى عهد قريب يؤكدون استحالتها — إنه يستطيع أن يتجاهلها حتى عندما تؤثر فيه تأثيرا مباشرا من خلال تضمينها فى تكنولوجيا جديدة . ولكننا نجد من الناحية الأخرى أن كثيرا من المعارف الجديدة تتصل اتصالا وثيقا

باهتماماته المباشرة ، بعمله ، باتجاهاته السياسية ، بأسرته ، وحتى بسلوكه الجنسى .

وأحد الأمثلة الصارخة على ذلك هو المأزق الذى يجد الآباء اليوم أنفسهم متورطين فيه إزاء التغييرات الجذرية التى طرأت على صورة الطفل فى المجتمع ، وعلى نظرياتنا فيما يتعلق بتنشئة الطفل . فعند مطلع القرن الحالى ، على سبيل المثال ، كانت النظرية السائدة يغلب عليها الاعتقاد العلمى بأولوية الوراثة بين العوامل المؤثرة فى السلوك . وكانت الأمهات ، ممن لم يسمعن باسم داروين أو سبنسر ، ينشئن أطفالهن بأساليب تتفق مع نظرات هذين المفكرين إلى العالم . هذه النظرات التى ابتذلت وبسطت ثم صارت تنتقل من شخص إلى آخر إلى أن انعكست فى شكل الاعتقاد الذى تبناه ملايين البشر من أن « الأطفال السيئين هم نتاج سلالة سيئة » وأن « الجريمة شىء وراثى » إلى آخر مثل هذه المعتقدات .

وخلال العقود الأولى من هذا القرن بدأت هذه المعتقدات تتراجع إزاء نمو وانتشار النظريات القائلة بتأثير البيئة فى تكوين الشخصية ، وأن السنوات الأولى هى أهم المراحل فى هذا التكوين . وهكذا نشأت صور جديدة للطفل فى المجتمع . وبدأت نظريات واطسون وبافلوف تزحف إلى معتقدات عامة الناس . وانعكست النظريات السلوكية الجديدة على معاملة الأمهات لأطفالهن . فصرن لا يطعمنهم كلما طلبوا ، أو يحملنهم إذا بكوا ، ويفطمنهم مبكراً حتى لا يطول اعتمادهم على الغير .

فى سبع طبعات متتالية من كتاب : « العناية بالطفل » ، وهو كتاب ظل يصدر عن مكتب أطفال الولايات المتحدة باستمرار خلال الفترة من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩٥١ ظهرت دراسة لمارثا ولفينشتاين تضمنت مقارنة بين النصائح المختلفة التى كانت تقدم للوالدين فوجدت أن هناك تغيراً واضحاً فى الأساليب المفضلة لمعالجة حالات الفطام ، ومص الأصابع ، والاستمناء ، و (تمرينات الأمعاء الغليظة والمثانة) ..ويتضح من هذه الدراسة أن ثمة صورة جديدة قد برزت للطفل فى أواخر الثلاثينيات . فقد انتشرت

المفهومات الفرويدية كالموجة المكتسحة حاملة معها تغييرات ثورية فى أساليب تنشئة الأطفال وبدأت الأمهات فجأة يسمعن عن « حقوق الأطفال » وعن الحاجة إلى « الإشباع الفمى» . لقد أصبح التسامح والتساهل مع الأطفال هو الاتجاه السائد .

وفى نفس الوقت الذى بدأت فيه الصور الفرويدية تعدل من مسلك الوالدين حيال أطفالهما ، بدأت أيضاً صورة المحلل النفسى تتغير . لقد أصبح المحللون النفسيون هم أبطال الثقافة الجدد . ووضعتهم أفلام السينما والتليفزيون والروايات والقصص والمجلات فى هالة الحكماء القادرين على صنع العجائب وإعادة الحياة إلى النفوس المحطمة . ومنذ ظهور فيلم « المأخوذ » فى سنة ١٩٤٥ حتى أواخر الخمسينيات كانت الصورة التى رسمتها وسائل الإعلام العام للمحلل النفسى صورة تتسم ملامحها بأكبر قدر من الجدية .

ولكن ما إن حلت أواسط الستينيات حتى كانت صورة المحلل النفسى قد تحولت إلى صورة هزلية ، فى فيلم « ما هو الجديد يا قطتى الجميلة ؟ » قام بيتر سيلار بدور محلل نفسى أكثر جنوناً من معظم مرضاه . وبدأت تنتشر على نطاق واسع النكت التى تتناول المحللين النفسيين ، وأسهمت فى نشرها نفس وسائل الإعلام العام التى خلقت فى المقام الأول أسطورة المحلل النفسى .

هذا التحول الحاد فى الصورة العامة للمحلل النفسى (والصورة العامة ليست فى الواقع سوى تجسيد للصورة الخاصة لدى أفراد المجتمع) قد جاء انعكاساً لما توصلت إليه البحوث الجديدة . لقد كانت القرائن تتراكم على أن العلاج بالتحليل النفسى غير أهل لكل ما أنيط به . كما جعلت المكتشفات الجديدة فى ميدان العلوم السلوكية ، وخاصة فى مجال العقاقير النفسية ، وسائل العلاج الفرويدية تبدو وكأنها أطلال بالية . وفى نفس الوقت كانت تنفجر بحوث جديدة حول نظرية التعلم . كما بدأ تحول جديد فى نظريات تنشئة الطفل أخذ فى هذه المرة اتجاهاً نحو نوع من السلوكية الجديدة .

فى كل مرحلة من مراحل هذا التطور كانت مجموعة الصور المكتسبة تتعرض لهجوم مجموعة جديدة من الصور المضادة . كان الأفراد المحتفظون

فى أذهانهم بهذه الصور المكتسبة يجدون أنفسهم تحت وطأة هجوم متواصل بواسطة التقارير والمقالات والوثائق ، ونصائح المسئولين ، والأصدقاء والأقارب ، وحتى المعارف العرضيين ، ممن يعتنقون أفكاراً معارضة . وكان الهدف الموحد لهذا الهجوم الشامل هو نزع مجموعة الصور القديمة وإحلال مجموعة جديدة محلها . ووجدت الأم خلال مرحلة تنشئة طفلها نفسها وهى تتجه مرتين إلى الثقات لتتلقى فى كل مرة توجيهات متعارضة بشكل ما ، ومرتكزة فى كل مرة على تصور مختلف للحقيقة . وبينما كانت أنماط تنشئة الأطفال فى الماضى تستمر قروناً طويلة دون أن يطرأ عليها تغيير ، أصبح إنسان الحاضر والمستقبل يشهد هذا الميدان وقد تحول إلى حلبة صراع تتدافع إليها أمواج متعاقبة ومتقاتلة من الصور التى تولد الكثير منها من نتائج البحث العلمى .

وهكذا تعدل المعرفة الجديدة من القديمة وتتلقفها وسائل الإعلام العام على الفور لتعمل ، فى دأب وإصرار ، على تكوين صور جديدة ، ولا يملك الأفراد العاديون فى سعيهم الدائم إلى ما يعينهم على محاولة التلاؤم مع ظروف البيئة الاجتماعية المتزايدة التعقيد إلا أن يستجيبوا . وفى نفس الوقت فإن أحداثاً — متميزة عن مثل ما أشرنا إليه من البحوث العلمية — تساعد بدورها على تمزيق أوصال صورنا الذهنية المكتسبة . إنها تتعاقب على صفحة وعينا لتمحو فى أثناء عبورها ملامح الصور القديمة ، وترسم فى نفس الوقت ملامح لصورة جديدة . فبعد صرخات الحرية وأحداث العنف التى تفجرت فى أحياء الزنوج من غير المتشبثين بالنظرة البالية القديمة إلى الأجناس من يستطيع اليوم أن يحتفظ بالصورة القديمة للزنوج على أنهم : « أطفال سعداء » قانعون بفقرهم ؛ أو بعد حرب ١٩٦٧ بالصورة القديمة لليهودى على أنه ذلك المسالم المتسامح غير المقاتل ؟

إن أمواجاً تلو أمواج من الصور الجديدة لاتنى تهاجم دفاعاتنا وتهز من تصوراتنا للحقيقة فى مختلف مجالات الحياة : فى التعليم ، وفى السياسة وفى النظرية الاقتصادية ، وفى الطب ، وفى العلاقات الدولية . وكنتيجة لهذا

الغزو المتواصل فإن معدل تآكل الصور القديمة يرتفع باطراد ، وبالتالى يرتفع معدل الصور الذهنية المارة بعقل الفرد خلال حياته . ويقوى لديه الإحساس بأن المعرفة ذاتها قابلة للتحول والزوال .

عاصفة الكتب الرائجة

هذا التحول واللاثبات فى المعرفة ينعكس فى المجتمع بأشكال متعددة سنجتزىء منها هنا بمثل واحد، هو تأثير تفجر المعرفة على أعرق حوافظها ، أى الكتاب .

لقد شهدنا مع تراكم المعرفة ومع ميلها المتزايد نحو اللاثبات الاختفاء الفعلى للطبعات القديمة المتينة القوية الاحتمال والمغلفة بالجلد لتحل محلها أولا الطبعات المغلفة بالقماش ، ثم مؤخراً الطبعات المغلفة بالورق . إن الكتاب نفسه شأنه فى ذلك شأن ما يتضمنه من معلومات قد أصبح أكثر زوالية مما كان .

منذ نحو عشر سنوات تنبأ مصمم وسائل الاتصال سول كورنبرج – وهو من رواد التطور البارزين فى مجال تكنولوجيا المكتبات – بأن القراءة سوف تفقد عما قريب مكان الصدارة كمصدر للمعلومات . لقد أعلن أن : « الكتابة والقراءة سوف تصبحان من الوسائل العتيقة البالية (وبالمناسبة فإن زوجة مستر كورنبرج نفسه كاتبة روائية) .

وسواء أكان المستر كورنبرج مصيباً أم مخطئاً فى تقديره ؛ فإن هناك حقيقة واضحة هى : أن النمو غير المعقول للمعرفة يفرض تناقصاً مستمراً فى حجم الجزء الضئيل الذى يحتويه أى كتاب (وللأسف هذا الكتاب أيضاً) من المعرفة بالنسبة لحجم المعرفة ككل . ومن ثم فإن ثورة الطباعة المتمثلة فى الكتب المغلفة بالورق تضائل من قيمة الكتاب من حيث الندرة فى نفس الوقت الذى يقلل فيه تقادم المعرفة من قيمتها من حيث البقاء . وهكذا فإننا فى الولايات المتحدة ، على سبيل المثال ، نرى موجة من الكتب المغلفة بالورق تظهر فى وقت واحد على واجهات ١٠٠,٠٠٠ من أكشاك بيع الصحف لتختفى خلال شهر واحد وتظهر محلها موجة جديدة . أى إن الكتاب أصبح

يقترب من حيث زواليته من مستوى المجلات الشهرية . والواقع أن الكثير من الكتب لا يعدو من حيث عمره أن يكون مجلة شهرية ذات عدد واحد .

وفى نفس الوقت فإن فترة استمرار اهتمام الجمهور بكتاب ما — حتى أكثر الكتب شعبية — تتقلص باطراد . ونستطيع أن نرى ذلك بوضوح من تتبع القوائم التى تظهر فى جريدة النيويورك تايمز لأكثر الكتب رواجاً. فقد تبين من مراجعة أول فترة أربع سنوات توافرت عنها بيانات كاملة وهى السنوات من ١٩٥٣ إلى ١٩٥٦ مقارنة إلى فترة السنوات الأربع التى تلتها بعد عشر سنوات أى من ١٩٦٣ إلى ١٩٦٦ أن متوسط بقاء الكتاب ضمن قائمة أكثر الكتب رواجاً خلال الفترة الأولى كان ١٨,٨ أسبوعاً،فى حين تناقص خلال الفترة الثانية إلى ١٥,٧ أسبوعاً . أى إن عمر الرواج للكتاب قد تناقص خلال عشر سنوات فقط بمقدار السدس .

إننا لن نستطيع تفهم الدلالات الحقيقية لمثل هذه الاتجاهات مالم نضع أيدينا على حقيقة أساسية هى : أننا نشهد الآن عملية تاريخية ستغير بالحتم من ذهنية الإنسان . فعلى المدى الكامل لاهتمامات الإنسان ، من مستحضرات التجميل إلى العلوم الكونية ، ومن تقاليع تويجى إلى الانتصارات التكنولوجية الكبرى ، تتجه الصور المختزنة للحقيقة داخل أذهاننا نحو تغير أسرع ودوامية أقصر — وذلك كاستجابة حتمية لمعدل التغيير المتسارع الذى يجرى خارج ذواتنا . لقد أصبحنا نخلق ونستخدم الصور والأفكار بسرعة أكبر فأكبر . وأصبحت المعرفة ، شأنها فى ذلك شأن الأشياء ، والأمكنة ، والناس ، والمنظمات ، أكثر تغييراً وتبديلا . .

الرسالة المصممة

إذا كانت صور انطباعاتنا الداخلية تتغير بمعدلات متزايدة السرعة فلا شك أن أحد العوامل المسببة لذلك هو زيادة المعدل الذى تنطلق به الرسائل المحملة بهذه الصور إلى حواسنا . وبرغم قلة الجهود التى بذلت فى بحث هذه النقطة علميا إلا أن هناك شواهد عديدة على أننا نزيد باستمرار من تعرض الفرد للمنبهات المشحونة بهذه الرسائل الصورية .

وحتى نعرف كيف فإننا نحتاج أولا إلى فحص المنابع الأساسية للتصور . من أين تأتى تلك الآلاف من الصور التى نختزنها فى نماذجنا الذهنية للحقيقة ؟ إن البيئة الخارجية تمطرنا بالمنبهات بإشارات نابعة من خارج ذواتنا — موجات من الصور والضوء .. إلى آخره — تقرع حواسنا . وما إن نستوعب هذه الإشارات حتى نحولها من خلال عملية لا تزال سراً غامضا إلى رموز للحقيقة ، إلى انطباعات وصور .

هذه الإشارات التى نلتقطها تنقسم إلى أنواع عدة . بعضها يمكن أن تسميه إشارات « غير مصبوغة » ، ونضرب على ذلك مثلا برجل يسير فى الطريق فيلحظ ورقة شجرة تسقط على جانب الطريق ، إنه يسمع صوت خشخشة ويرى حركة وخضرة ويحس هبة الريح .فمن مجموع هذه المحسوسات يشكل صورة ذهنية . إننا يمكن أن نعتبر هذه الإشارات الحسية رسالة . ولكنها رسالة لا يمكن بأى معنى من معانى الكلمة أن تعتبر رسالة من صنع الإنسان . فلم يخطط أى إنسان لإرسالها . وفهم الرجل لها لا يعتمد بشكل مباشر على صيغة اجتماعية — أى على مجموعة من العلامات والتعاريف المتفق عليها اجتماعيا . إننا جميعا محاطون ومشاركون فى مثل هذه الأحداث . وعندما تقع فى دائرة حواسنا فإننا نلتقط منها رسائل غير مصوغة نحولها إلى صور ذهنية . والواقع أن جانبا من الصور المكونة للنموذج الذهنى لدى كل فرد مستمد من مثل هذه الرسائل غير المصوغة .

ولكننا أيضا نتلقى رسائل مصوغة من خارج ذواتنا . والرسائل المصوغة هى تلك التى تعتمد فى معناها على عرف اجتماعى ما . إن اللغات سواء كانت مركبة من كلمات أو حركات ، أو دقات طبول ، أو خطوات رقص أو صور أو رموز ، كلها صيغ موضوعة ومن ثم فإن أى رسالة توجه بهذه اللغات تكون رسائل مصوغة .

ونستطيع أن نستنتج بقدر من الثقة أنه مع نمو المجتمعات وتعقدها ، وتكاثر الصيغ التى تنتقل بها الصور من شخص إلى آخر ، تضاءلت نسبة

الرسائل غير المصوغة التى يتلقاها الرجل العادى ، فى حين زادت نسبة ما يتلقاه من الرسائل المصوغة . أو بعبارة أخرى – فإننا نستطيع أن نستنتج أننا اليوم نستمد تصوراتنا من رسائل من صنع الإنسان بأكثر مما نستمدها من الملاحظة الشخصية للأحداث الطبيعية « غير المصوغة » .

وفضلا عن ذلك فإننا نستطيع أن ندرك ما طرأ من تحول ملحوظ فى نوعية الرسائل المصوغة نفسها . فبالنسبة للفلاح الأمى فى مجتمعات الماضى الزراعية كانت معظم الرسائل المصوغة التى يتلقاها من نوع نستطيع أن نسميه عرضيا أنه من نوع « اصنعها بنفسك » . كان ذلك الفلاح يتلقى الرسائل المصوغة من أحاديثه مع أفراد أسرته . ومن جلسات الحانة مع أقرانه وما يتخللها من ممازحات وشكوى وتفاخر ، وأحاديث ساذجة .. إلى آخره .. كانت تلك هى طبيعة معظم الرسائل المصوغة التى يتلقاها ،والتى كان الطابع المميز لها أنها غير متماسكة ، مفتقرة إلى البناء ، مهوشة وأبعد ما تكون من الترتيب .

فإذا ما قارنا هذا بما يتلقاه إنسان المجتمع الصناعى المعاصر من رسائل مصوغة لوجدنا أنه ، بالإضافة إلى كل ما كان يتلقاه سلفه الفلاح من هذه الرسائل ، فإنه أيضا يتلقى أنماطا من الرسائل – معظمها من خلال وسائل الإعلام العام – صممها بإتقان خبراء الاتصال . إنه يستمع إلى الأخبار ، ويشاهد المسرحيات المحبوكة البناء ، والأفلام ، والتمثيليات التليفزيونية والإذاعية ، التى كتبت سناريوهاتها بدقة . ويستمع إلى موسيقى أكثر (والموسيقى وسيلة عالية الانضباط من وسائل الاتصال) ، إنه يستمع إلى خطب وأحاديث أكثر . وفوق كل ذلك فإنه يفعل ما لم يكن يستطيع سلفه الفلاح أن يفعله . إنه يقرأ آلافا من الكلمات كل يوم ، كلها محرر سلفا بعناية .

لقد صحب الثورة الصناعية تطور هائل فى وسائل الإعلام العام . ومن ثم تغير كبير فى طبيعة الرسائل التى يتلقاها الفرد . فبالإضافة إلى

ما يتلقاه من رسائل غير مصوغة من البيئة ومن الرسائل المصوغة — وإن كانت عرضية — التى يتلقاها ممن حوله من الناس ، صار الفرد يتلقى قدرا متزايداً كل يوم من الرسائل المصوغة التى خطط لها وصممت سلفا .

هذه الرسائل المصممة تختلف عن تلك الرسائل العرضية فى نقطة حيوية ، فى مقابل تفكك الثانية وتشويشها نجد أن الأولى تتميز بالإحكام والتركيز والبعد عن الإسهاب ، محددة الهدف ، مراجعة بعناية لحذف التكرار ، مصممة بحيث تحتوى على الحد الأقصى الذى يسعه إطارها من المعلومات . إنها حسب وصف خبراء الاتصال . « غنية بالمعلومات » .

هذه الحقيقة البالغة الدلالة ، بالرغم من أنه كثيراً ما لا يلتفت إليها أحد ، يمكن لأى إنسان أن يتأكد منها إذا ما كلف نفسه مشقة إجراء مقارنة بين شريط مسجل لخمسمائة كلمة من الأحاديث المنزلية العادية (وهى رسائل مصوغة ولكنها عرضية) بعدد مماثل من مقال صحفى أو حوار فى فيلم سينمائى (وهى رسائل مصوغة ولكنها مصممة) ، ولسوف يجد أن الرسائل العرضية مليئة بالتكرار والوقفات ، وأن نفس الأفكار تتكرر عدة مرات وغالبا بنفس الكلمات أو باختلاف يسير .

وعلى العكس من ذلك سيجد أن الكلمات الخمسمائة المأخوذة من المقال الصحفى ، أو الحوار السينمائى ، محررة بعناية وسلسة وحاملة لأفكار غير متكررة نسبيا ، وأنها أصح لغويا من الأحاديث العادية وأوضح نطقا (إذا قدمت شفويا) . إن المحرر أو الكاتب أو المخرج وكل من يشترك فى صياغة الرسائل المصممة يبذل غاية جهده فى استبعاد كل ما ليس له لزوم ، ومن أجل « الحفاظ على سياق القصة » أو تقديم شىء « مفعم بالحركة السريعة » . وليس من قبيل المصادفة أن تطالعنا كثيرا إعلانات عن كتب وأفلام ، وتمثيليات تليفزيونية تصفها بأنها : « مغامرة سريعة الأحداث » ، أو « سريعة القراءة » ، أو « آخذة بالأنفاس » ، فليس هناك ناشر أو منتج سينمائى يجرؤ على الإعلان عن عمله بأنه « تكرارى » أو « مسهب » .

وهكذا ، فكلما ارتفع مد أمواج الصحف والإذاعات والسينما

والتليفزيون والكتب والمجلات ليغمر المجتمع . وكلما زادت نسبة ما يتلقاه الفرد من رسائلها المصممة (وبالتالى تناقصت نسبة الرسائل غير المصوغة والرسائل العرضية) ، فإننا نشهد تبعاً لذلك تغيراً هائلا : تزايداً مستمراً فى معدل السرعة التى تقدم بها الرسائل المشحونة بالصور إلى الفرد ، وخضما من المعلومات المصممة يغمره ويقرع حواسه بمزيد من الإلحاح .

قد يكون فى هذا ما يساعد على المواءمة مع طابع السرعة الذى تتسم به الأحداث اليومية . ولكن إذا كان عصر التصنيع قد تميز بسرعة الاتصال ، فإن الانتقال إلى عصر ما فوق التصنيع يتميز بما يبذل من جهود ضخمة نحو تحقيق تسارع أكبر فأكبر . إن أمواج الرسائل المصممة قد تحولت إلى أمواج كاسرة عنيفة ، لا تكف عن ملاحقتنا ، وقرع حواسنا بإصرار مستميت على اختراق دفاعاتنا والنفوذ إلى أعماق جهازنا العصبى .

موزار على متن السرعة

يبلغ متوسط ما ينفقه الشخص البالغ فى الولايات المتحدة اليوم من وقت فى قراءة الصحف ٥٢ دقيقة يوميا . ونفس هذا الشخص الذى ينفق حوالى ساعة يوميا فى قراءة الصحف يقرأ أيضا مجلات وكتبا ، ولافتات ، ولوحات إعلان ، ووصفات وتعاليم ، والبيانات والإعلانات المطبوعة على المعلبات وغيرها . ومن بين ما يحيط به من مواد مطبوعة مختلفة ، فإنه يلتهم يوميا ما بين ١٠,٠٠٠ و ٢٠,٠٠٠ من الكلمات المحررة . ونفس الشخص أيضا يقضى ساعة وربع الساعة ، وربما أكثر ، يوميا مستمعا إلى الراديو . فإن كان يقضى هذه الفترة فى سماع نشرات الأخبار والبرامج التجارية والتعليقات وما شابهها من برامج ، فإنه سيسمع خلال هذه الفترة إلى ما يقرب من ١١,٠٠٠ كلمة محررة ومختارة بعناية . وهو بالإضافة إلى ذلك ينفق عدة ساعات فى مشاهدة التليفزيون مضيفا إلى ما سبق نحو ١٠,٠٠٠ كلمة أخرى وسلسلة طويلة من المشاهد المرئية المعدة بعناية من أجل أهداف محددة (*) .

(*) ليس معنى هذا أن الكلمات والصور هى وحدها التى تستحضر الصور الذهنية، بل إن الموسيقى أيضا تحرك آلة التصور الداخلى إلى العمل منتجة صورا ، وان كانت صورا غير حرفية.

وليس من بين أشكال الرسائل المصممة ما يفوق الإعلان من حيث غرضيته ، وتحديد هدفه . وفى وقتنا الحاضر يتعرض الأمريكى البالغ فى المتوسط إلى هجوم إعلانى لا يقل متوسطه عن ٥٦٠ رسالة إعلانية فى اليوم . ومن بين هذه الكمية التى يتعرض لها لا يحظى بانتباهه سوى ٧٦ فقط ، أما الباقى وهو ٤٨٤ فيخرجه عمليا من دائرة انتباهه الذى يركزه على مسائل أخرى .

كل هذا يعطينا صورة عن مدى الضغط الذى تمارسه الرسائل المصممة على حواس الفرد . ومع ذلك فإن هذا الضغط يتزايد . ومن أجل نقل عدد أكبر من الرسائل فى مدى أقصر من الوقت ، يبذل رجال الإعلام وغيرهم جهودا مستمرة من أجل شحن كل لحظة من وقت عروض وسائل الإعلام العام بحمولة أكبر من المعلومات والإثارة .

ومن أجل هذا فإننا نشهد الآن زيادة وانتشاراً فى استخدام الرمزية لضغط شحنة المعلومات فى أضيق حيز ممكن . فإن رجال الإعلان اليوم يلجأون إلى الأساليب الرمزية للفنون من أجل هدف مقصود هو شحن عقل الفرد بعدد أكبر من الرسائل فى حدود وقت معين . وخذ مثلا : إعلان عن نوع من الوقود يصورك وأنت تضع « نمرا » فى خزان سيارتك . إنه هناك وبكلمة مفردة هى كلمة (النمر) قد نقل إلى المشاهدين صورة ارتبطت فى أذهانهم منذ عهد الطفـــولة بالقوة والسرعة والجبروت . إن صفحات المجلات الخاصة بمهنة الإعـــلان مثل مجلة (برينتر إنك) ممتلئة بالمقالات الفنية التى تدور حول الاستخدامات الرمزية للكلمات من أجل زيادة سرعة تدفق الصور الذهنية إلى مخيلة المشاهد . والواقـــع أن كثيرا من الفنانين يمكن أن يتعلموا اليوم الكثير من أساليب الإسراع بتدفق الصور من رجال الإعلان .

وإذا كان رجال الإعلان الذين يجب أن يدفعـــوا مقابلا لكل جزء من أجزاء الثانية تستغرقه إعلاناتهم فى الراديو والتليفزيون ، والذين يقاتلون

من أجل جذب انتباه القارىء فى أثناء نظراته العابرة إلى صفحات المجلات والجرائد ، يحاولون باستمرار أن ينقلوا إليه الحد الأقصى من الصور خلال الحد الأدنى من الوقت ، فإن هناك أيضا أكثر من دليل على أن بعض أفراد الجمهور يرغبون فى زيادة المعدل الذى يتلقون به الرسائل ويصنعون الصور : ولعل مثل هذه الرغبة تفسر سر ظاهرة النجاح الذى تحققه برامج التدريب على القراءة السريعة التى ينتظم فيها العديد من طلاب الجامعات ورجال الأعمال والمديرين والسياسيين وغيرهم ، إن إحدى المدارس الهامة للتدريب على القراءة السريعة تعلن بثقة عن قدرتها على رفع معدل سرعة القراءة لأى فرد تقريبا إلى ثلاثة أمثال ما هى عليه ، وبعض القراء يدعى القدرة على قراءة عشرات الألوف من الكلمات فى الدقيقة — وإن كان هذا الادعاء محل مناقشة من خبراء القراءة — وسواء أكان ممكنا أم من غير الممكن الوصول إلى مثل هذه السرعات فى القراءة ، فإن الحقيقة الواضحة أن سرعة الاتصال فى تزايد مطرد . فالأشخاص الكثيرو المشاغل يجهدون أنفسهم من أجل التهام أكبر قدر ممكن من المعلومات يوميا . ولا شك أن القراءة السريعة جديرة بأن تساعدهم على ذلك .

إن الاندفاع نحو تحقيق تسارع أكبر فى الاتصال ليس مقصورا بأى حال على الإعلانات أو الكلمة المطبوعة . إن الرغبة فى الوصول إلى الحد الأقصى من محتوى الرسائل خلال الحد الأدنى من الوقت هو الذى يفسر لنا ، على سبيل المثال ، تلك التجارب التى تجرى فى معاهد البحث الأمريكية ، والتى تتلخص فى إدارة أشرطة مسجل عليها محاضرات بسرعة أعلى من السرعة العادية ، ثم اختبار مدى استيعاب المستمعين لهذه المحاضرات . والغرض من هذه التجارب هو معرفة ما إذا كان الطالب يمكن أن يتعلم أسرع إذا ما ألقيت المحاضرات بسرعة أكبر .

ونفس الاتجاه نحو تسارع الاتصال هو الذى يفسر أيضا بروز فكرة استخدام الشاشة المقسمة والشاشات المتعددة فى العرض السينمائى . إن العروض السينمائية التى شهدها زوار معرض مونتريال الدولى فى أقسامه

المختلفة كانت شيئا مخالفا تماما لما ألفوه من عروض سينمائية . فبدلا من شاشة واحدة يتتابع عليها نسق رتيب من الصور ، كانت هناك شاشتان أو ثلاث أو خمس شاشات تجرى على كل منها ، وفى نفس الوقت ، قصة مختلفة . وكان المطلوب من المشاهد أن تكون لديه القدرة على أن يتلقى ويستوعب آنيا عددا من الرسائل أكبر مما طلب من أى مشاهد للسينما فى الماضى ، أو أن يحذف ويختار من بين هذه الرسائل المتزامنة بحيث يحفظ معدل الاستيعاب عند حد معقول .

وفى مقال نشر بمجلة لايف تحت عنوان : « ثورة سينمائية هدفها اكتساح عقل الإنسان » يصف الكاتب هذه التجربة بقوله : « عندما يكون عليك أن تنظر إلى ست صور مختلفة فى وقت واحد ، فمعنى ذلك أن المطلوب منك هو أن تستوعب فى عشرين دقيقة فيلما طويلا بأكمله ، الأمر الذى ولا شك يزحم العقل ويربكه » . وفى موضع آخر من المقال يقترح نوعا آخر من الأفلام هو الفيلم الواحد المجزأ على عدة شاشات بحيث « تحتشد فى اللحظة الواحدة أحداث أكثر ، أى تكثيف للزمن » .

وحتى فى الموسيقى ، يبدو مثل هذا الاتجاه إلى التسارع واضحا . فمنذ غير بعيد عقد بسان فرنسيسكو مؤتمر مشترك من الموسيقيين وخبراء الكومبيوتر وضح للمشتركين فيه أن الموسيقى ظلت عبر عدة قرون تحمل زيادة مطردة « فى حجم المعلومات السمعية المنقولة فى حدود فترة معينة من الوقت » ، وأن هناك قرائن تدل على أن الموسيقيين يعزفون اليوم ألحان موزار وباخ وهايدن بإيقاع أسرع من ذلك الذى كانت تعزف به وقت تأليفها . أى إننا وضعنا موزار على متن السرعة .

شيكسبير شبه الأمى

إذا كانت تصوراتنا للحقيقة تتغير بسرعة أكبر ، وإذا كانت ميكانيكية نقل الصور قد اكتسبت سرعة متزايدة . فإن هناك أيضا تغيرا موازيا يأخذ مجراه بالنسبة لنفس الصيغ التى نستخدمها . إن اللغة تختلج بالتغييرات

المستمرة . يقول العالم اللغوى ستيوارت بيرج فليكسنر ، كبير المشرفين على إعداد معجم « قاموس » راندوم هاوس للغة الإنجليزية : « إن الكلمات التى نستخدمها تتغير اليوم بسرعة أكبر – ليس فقط بالنسبة للكلمات الدارجة ، ولكن أيضا بالنسبة لكل مستويات استخدام اللغة . إن السرعة التى أصبحت تظهر بها الكلمات وتختفى قد زادت بشكل حاد . وما يصدق على اللغة الإنجليزية فى هذا الشأن يصـــدق أيضا على الفرنسية والروسية واليـــابانية » .

ويعطينا فليكسنر صور مثيرة لهذه الحقيقة عندما يقول : إن من بين الـــ ٤٥٠,٠٠٠ كلمة « المستخدمة » فى اللغة الإنجليزية اليوم ، ربما لا يزيد عدد المفهوم منها لدى وليام شيكسبير على ٢٥٠,٠٠٠ كلمة . وإذن فلو افترضنا أن شيكسبير قد بعث اليوم فجأة فى لندن أو نيويورك فإنه لن يستطيع أن يفهم سوى خمس كلمات من بين كل تسع كلمات يسمعها أو يقرؤها . إنه سيبدو عندئذ وكأنه نصف أمى .

ومعنى هذا أننا لو افترضنا أن اللغة الإنجليزية كانت تشتمل فى أيام شيكسبير على نفس العدد من الكلمات « المستخدمة » التى تشتمل عليها اليوم ، فإن ٢٠٠,٠٠٠ كلمة – وربما أضعاف هذا العدد من الكلمـــات – قد سقطت واستبدلت عبر القرون الأربعة المـــاضية . وأكثر من هذا فإن فليكسنر يشير إلى أن ثلث هذه التغيرات قد حدث خلال الأعوام الخمسين الأخيرة وحدها . ولو صح هذا فإن معناه أن الكلمات تتساقط حاليـــا من اللغة بمعدل يصل على الأقل إلى ثلاثة أمثال المعدل الذى كانت تتساقط به خلال الفترة من سنة ١٥٦٤ إلى سنة ١٩١٤ .

هذا التغيير فى اللغة إنما يعكس فى الواقع التغييرات التى طرأت على البيئة نفسها ، فى الأشياء ، وفى ألوان النشاط ، وفى النوعيات . إن بعض الكلمات الجديدة ينبثق مباشرة من دنيا السلع الاستهلاكية وتكنولوجيتها . كما أن الحركات الجماهيرية مثل حركة الحقوق المدنية وحركة المعارضة لحرب

فيتنـــام تستحدث كلماتها المعبرة والجديدة تماما على اللغة . كما أن لكل من فئة الهيبيين ، ومدمنى عقار الهلـــوسة ، تعبيراتهم التى خلقوها خلقا .

أما بالنسبة للعامية فإن معدل التغيير أسرع لدرجة جعلت كتاب معاجم « قواميس » العامية يغيرون من المعايير الموضوعة لتضمين الكلمات فى المعاجم « القواميس » . يقول فليكسنر : « عندما بدأت سنة ١٩٥٤ فى وضع معجم « قاموس » العامية الأمريكية « اعتبرت الحد الأدنى لاعتماد الكلمة هو أن أجد لها ثلاثة استخدامات عبر سنوات خمس . أما اليوم فقد أصبح تطبيق مثل هذه القاعدة مستحيلا . إن الكلمات ، مثلها فى ذلك مثل الفن ، قد أصبحت ميدانا للتقاليع . إن كثيرا من الكلمات العامية تظهر ثم تختفى فى بحر سنة واحدة . لقد أصبح من المستحيل وضع قياس زمنى لاعتماد الكلمة العامية » .

ولقد ساعد على سرعة انتشار الكلمات الجديدة واختفاء الكلمات التى عفى عليها تلك السرعة الفائقة التى توافرت لوسائل بثها بين الجماهير . فحتى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات كان من الممكن تعقب خط سير التعبيرات العلمية الجديدة المبهمة منذ نشأتها حتى انتشارها . كانت عادة تبدأ ظهورها فى أحد المطبوعات العلمية ، وتظل هناك حتى تلتقطها إحدى المجلات الثقافية المحدودة الانتشار كمجلة « سكوير » أو « نيويورك بوك ريفيو » أو « كومينتارى » ثم تنتقل من هذه الى المجلات الواسعة الانتشار كمجلة « تايم » و « نيوزويك » وغيرها . أما اليوم فإن العملية اختصرت وأصبحت المجلات الواسعة الانتشار تسعى مباشرة إلى التقاط تلك الكلمات فور ظهورها فى المطبوعات العلمية دون اعتماد على المجلات الثقافية الوسيطة .

إن التغيير لم يقتصر على حروف الكلمات فقط ، بل تعداه إلى مدلولاتها . فكثير من الكلمات التى بقيت بتركيبها الحرفى قد تعرضت لتغيير مفاجئ فى مدلول استخدامها وكمثال على ذلك كلمة « أسود » . فلسنوات طويلة كان الأمريكيون من ذوى البشرة الداكنة يعتبرون استخدام كلمة « أسود » لوصفهم دلالة على شعور التمييز العنصرى لدى مستخدميها . وكان المحررون

من البيض يعلمون أولادهم أن يستخدموا بدلا منها كلمة « زنجى » . ولكن لم يكد يمضى قليل من الوقت على إعلان ستوكلى كارمايكل لمذهب « القوة السوداء » فى جرينوود بالمسيسبى فى يونيو ١٩٦٦ حتى أصبحت كلمة « أسود » محل اعتزاز وفخر من كل السود — وأيضا البيض من المساهمين فى حركة محاربة التميز العنصرى . وظل المتحررون البيض لفترة ما فى حيرة من أمرهم بين استخدام كلمة « أسود » وكلمة « زنجى » ، ولكن لم تمض بضعة أشهر حتى استقر الأمر لكلمة « أسود » بمعناها الجديد ، وبدأت كلمة «زنجى» تختفى بسرعة من كل كتابات وأحاديث المتحررين .

بل إن هناك حالات يتم فيها انتشار الكلمات الجديدة بسرعة أكبر . يقول العالم اللغوى فليكسنر : « إن فرقة الخنافس كانت وهى فى ذروة شهرتها تستطيع أن تبتدع أى كلمة تروقها تسجلها ضمن أسطوانة من أسطواناتها لتصبح فى ظرف شهر واحد كلمة من كلمات اللغة الانجليزية . كما أن هناك كلمات اكتسبت شرعيتها فى يوم واحد ، لأن أحد رواد الفضاء استخدمها فى إذاعة تليفزيونية من الفضاء الخارجى » .

ويبدو أن التغيير قد تعدى لغة الكلام إلى لغة الإشارات . فقد لاحظ الخبراء أن هذه بدورها قد أصبحت أسرع تغيرا وخاصة فى مدلولاتها عما كانت عليه من قبل .

فبعض الإشارات التى كانت تعتبر شبه بذيئة أصبحت أكثر تقبلا بعد أن تغيرت نظرة المجتمع إلى القيم الجنسية. وإشارات أخرى اتسع نطاق استخدامها بعد أن كان مقصوراً على قلة ضئيلة . لقد لاحظ فليكسنر مثلا انتشار استخدام حركة القبضة المرفوعة ولفها — والتى تشير إلى الاحتقار والتحدى — فى الولايات المتحدة كنتيجة لغزوة الأفلام الإيطالية لأمريكا فى الخمسينيات والستينيات . وأيضا فإن حركة الإصبع المرفوعة قد بدأت تكتسب من الاحترام أكثر مما تهيأ لها فى الماضى . وفى الوقت ذاته فإن كثيرا من الإشارات العتيدة بدأت تختفى ويبطل استخدامها أو تستخدم لمغزى مختلف تماما عما كانت تدل عليه من قبل . فمثلا لم يعد هناك من يستعمل الدائرة المكونة من الإبهام

والسبابة للتعبير على أن كل شئ على ما يرام . أما علامة ٧ التى ابتكرها تشرتشل أيام الحرب العالمية الثانية كإشارة إلى « النصر » فقد أصبحت اليوم تستخدم بواسطة المحتجين على الحرب كإشارة إلى « السلام » .

فى الماضى كان الإنسان يتعلم لغة مجتمعه ليظل يستخدمها طوال حياته دون تغيير يذكر ، كانت علاقته بكل كلمة تعلمها علاقة مستمرة وباقية ، أما اليوم فإن علاقته بالكثير مما تعلم من الكلمات قد تقاصرت إلى حد بعيد .

الفن : تكعيبيون وحركيون

إن الفن مثله فى ذلك مثل الإشارات ، لغة من لغات التعبير غير المنطوقة ، وواحد من أهم القنوات التى تنتقل عبرها الصور ، وهنا نجد التغييرات أشمل وأعمق مما يحدث للغة المنطوقة . فلو اعتبرنا كل مدرسة من المدارس الفنية وكأنها لغة مبنية على كلمات منطوقة لوجدنا أن التغيير بالنسبة لها لا يقتصر على مفردات اللغة، وإنما يشمل اللغة بأكملها . فى الماضى كان من النادر أن يشهد الرجل خلال حياته تغييراً جذريا فى أسلوبٍ من أساليب الفن . كانت القاعدة العامة هى استمرار أى أسلوب أو أى مدرسة لعدة أجيال متعاقبة . أما اليوم فإن المشاهد لا يكاد يجد الوقت الكافى ليرى مدرسة ما من مدارس الفن وهى تنمو ، أو أن يتعلم « لغتها » فى التعبير قبل أن تختفى .

إن الظهور المدوى للمدرسة التأثيرية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر لم يكن سوى الحلقة الأولى فى سلسلة متتابعة من التغيرات المذهلة . لقد ظهرت فى الوقت الذى بدأت فيه الثورة الصناعية مرحلة الانطلاق الكبير الذى جاء معه بتسارع ملحوظ فى إيقاع الحياة اليومية . يقول مؤرخ الفن أرنولد هاوزر فى وصفه للتغير فى أساليب الفن : « إنه فوق كل شئ ذلك التطور التكنولوجى الهادر ، وما فرضه من سرعة فى إيقاع الحياة ، هو الذى يبدو وكأنه حالة مرضية خصوصا إذا ما قورن بمعدل التقدم المزامن للمراحل المبكرة من تاريخ الفن والثقافة . فالتطور السريع للتكنولوجيا لا يسارع من التغير فى الشكل ، ولكنه يعدل أيضا من معايير التذوق الجمالى . . . إن الاستبدال المستمر

والسريع للأدوات المستخدمة فى الحياة اليومية يعدل من السرعة التى تحدث بها التغييرات فى القيم الفلسفية والفنية . . » .

إننا لو قدرنا فترة سيادة المدرسة التأثيرية على وجه التقريب بأنها استمرت من سنة ١٨٧٥ إلى سنة ١٩١٠ لوجدنا أن مدة هذه السيادة قد استمرت حوالى خمسة وثلاثين عاما . ولكن لم يقدر لأى مدرسة من المدارس التى أعقبتها كالمستقبلية ، والتكعيبية ، والفوقية ، والسيريالية ، أن تسمح حتى بمثل هـــذه الفترة القصيرة نسبيا من السيادة . إن أطول فترة سيادة أتيحت لمدرسة من مدارس القرن العشرين هى فترة العشرين عاما من ١٩٤٠ إلى ١٩٦٠ التى استأثرت بها المدرسة التعبيرية التجريدية . ثم بدأت بعد ذلك تتعاقب مدارس جديدة بسرعة مجنونة فظهرت مدرسة « البوب » لتستمر حوالى خمس سنوات ، ثم أعقبتها مدرسة « الأوب » لتستأثر باهتمام الناس ما بين سنتين أو ثلاث سنوات . ثم بعد ذلك انبثاق مدرسة « الفن الحركى » الذى تعتبر الزوالية جوهر وجوده .

هذا التغير الخيالى السرعة لا نلحظه فى نيويورك أو سان فرانسيسكو فقط ، ولكن أيضا فى باريس، وروما ، وستوكهولم ، ولندن ، وحيثما وجد الرسامون . لقد كتب روبرت هيوز فى مجلة « نيوسوسيتى » يقول : « إن تمجيد الرسامين الجدد أصبح الآن نوعا من الرياضيات السنوية فى انجلترا . . لقد أصبح تشجيع اكتشاف اتجاه جديد فى الفن الانجليزى مرة كل سنة نوعا من الأفكار الجنونية المتسلطة على عقول الناس والتى تكاد تعكس إيمانا هستيريا بالتجديد . . والحقيقة أن التطلع إلى أن يأتى كل عام فى ركابه بشكل جديد فى الفن وجيش جديد من الفنانين لهو فى حد ذاته إمعان فى السخرية بموقف هو نفسه بالغ السخرية — ونعنى به هذا التسارع فى تتابع الاتجاهات الطليعية التى تتسم به الحركة الفنية فى وقتنا الراهن » .

إننا لو قارنا مدارس الفن باللغات فإننا يمكن أن نقارن الأعمال الفردية فى الأولى بالكلمات فى الأخيرة . ولأمكننا أن نلحظ من هذه المقارنة أن هناك عملية تجرى على الأعمال الفردية لمدارس الفن شبيهة بتلك التى تجرى على

الكلمات فى اللغة المنطوقة . فالكلمات أيضا تعتبر بهذا المقياس « أعمالا فردية » تظهر فى مجال الاستخدام ثم تختفى بسرعة متزايدة . وأيضا فإن الأعمال الفردية فى الفن تومض فى أذهاننا عندما نشهدها على جدران المعارض أو صفحات المجلات ثم تنزوى . . وفى بعض الأحيان فإن العمل ذاته يختفى بالمعنى الحرفى لكلمة الاختفاء – فكثير من الأعمال الفنية الحديثة ما هو إلا تجميع أو بناء مكون من مواد هشة ما تلبث أن تتفكك وتتحطم بعد مرور زمن وجيز .

إن الكثير من الارتباك والفوضى الذى يعانى منهما عالم الفن فى وقتنا الراهن إنما يرجع إلى عجز مؤسساتنا الفنية عن أن تدرك وتعترف بأن فن الصفوة والأعمال الخالدة فى الفن أصبحت أشياء لا وجود لها فى الفن المعاصر – أو هكذا على الأقل – ما يقول به جون ماكهيل الفنان وعالم الاجتماع الاسكتلندى الذى يرأس مركز البحوث التكاملية فى جامعة نيويورك ببرمنجهام . ففى مقال قوى له بعنوان : « البارثينون البلاستيك » يوضح ماكهيل : « إن القواعد التقليدية للحكم على الأعمال الفنية والأدبية . . تميل إلى إضفاء قيمة كبرى على البقاء والتفرد ، ودوامية التقدير العالمى للأعمال الفنية المختارة » . إن مثل هذه المعايير الجمالية من وجهة نظر ماكهيل كانت صالحة تماما لعالم الصناعات اليدوية والنخبة القليلة من متذوقى الفن . أما مثل هذه المعايير فإنها : « لا يمكن بأى حال أن تلائم وضعنا الراهن الذى تنتج فيه الأعمال الفنية وتوزع وتستهلك بأرقام فلكية . إن هذه الأعمال قد تكون متشابهة أو مختلفة اختلافا طفيفا . ولكنها ، وبدرجات متفاوتة ، قابلة للاستهلاك والاستبدال وتفتقر إلى أى « قيمة » متفردة أو « حقيقة جرهرية » .

ويقول ماكهيل إن فنان اليوم لا يعمل من أجل النخبة القليلة ولا ينظر فى جدية إلى البقاء كفضيلة يتسم بها العمل الفنى . ويقول أيضا : « إن مستقبل الفن يبدو وكأنه لم يعد فى خلق الروائع الباقية ، بل الأحرى أن يتجه الفنانون إلى الأعمال القصيرة البقاء » . وينتهى ماكهيل إلى : « أن التغييرات المتسارعة فى وضع الإنسان تتطلب سلسلة من الصور الرمزية للإنسان تلائم متطلبات التغيير المستمر ، وتتميز بالانطباع المتغير . وبدرجة

عالية من التلاشى . إننا نحتاج إلى متتابعة من الصور القابلة للإحلال والاستبدال » .

إننا قد نعارض بشدة وجهة نظر ماكهيل فى أن الزوالية فى الفن شئ مرغوب فيه . وربما كان الهروب من الدوامية فى الفن خطأ تكتيكيا . إننا قد نصل حتى إلى القول بأن فنانينا يستخدمون نوعا من السحر القبلى ويتصرفون تصرف البدائيين الذين راحوا ، تحت وطأة الإحساس بأن هناك قوة مبهمة تسيطر عليهم ، يحاولون التحكم فيها بالتقليد الساذج لها : ولكن أيا كان موقف الفرد من الفن المعاصر ، فإنه لا مناص من الاعتراف بأن الزوالية قد أصبحت حقيقة تفرض نفسها، ونزعة اجتماعية وتاريخية تحتل مكانا من عصرنا لا يمكن تجاهله . وإن من الواضح أن الفنانين يتصرفون استجابة لإدراك هذه الحقيقة الواقعة .

إن الدافع نحو الزوالية فى الفن يفسر ظهور ونمو أكثر أشكال الأعمال الفنية زوالية وهو « الحدوث » . إن آلان كابراو الذى ينسب إليه ابتداع هذا الشكل الفنى قد أشار بوضوح إلى العلاقة بينه وبين ثقافة التخلص من الأشياء التى نعيشها. إن أمثل أشكال « الحدوث » طبقا لما يقول به أنصاره هى تلك التى تعرض مرة واحدة فقط . إن « الحدوث » هو المقابل الفنى للمناشف الورق .

إن هذا الفن العالى الحركة هو التعبير الجمالى للتضمينية . فهناك تماثيل وتركيبات تزحف وتصفر وتنتحب وتلف وتختلج وتهتز وتنبض وتومض أنوارها وتدور أشرطتها المغنطة ، فى حين أن أجزاءها البلاستيكية والفولاذية والزجاجية والنحاسية ترتب ثم تعيد ترتيب نفسها فى أشكال لا تنتهى ضمن إطار محدد وإن كان فى بعض الأحيان غير واضح الحدود . وهنا تمثل الأسلاك والوصلات أقل مكونات العمل زوالية تماما مثل الرافعات وأبراج الخدمات فى « قصر الملاهى » المضمن ، والتى صممت لتعيش أكثر من أى الأجزاء التى تضمنها مكوناته . إن الهدف من وراء هذا الفن الحركى هو توفير الحد الأقصى من التنوع والحد الأعلى من الزوالية . وحسب ما أشار إليه جان كلاى فإنه فى الأعمال

الفنية التقليدية : « تظل صلة الأجزاء بالكل باقية إلى ما لانهاية » . أما فى الفن الحركى : « فإن ميزان الأشكال فى حالة تذبذب مستمر » .

إن كثيرا من الفنانين يعملون اليوم بمعاونة المهندسين والعلماء على أمل استغلال أحدث العمليات التكنيكية فى الوصول إلى هدفهم: العمل الفنى الذى يرمز إلى دفعة التغيير المتسارعة فى المجتمع . إن « السرعة » — كما يقول الناقد الفنى الفرنسى فرانكاستال : « قد وصلت إلى آفاق لم يحلم بها أحد . وأحدثت نوعا من الحركة الدائمة فى التجربة الخاصة لكل فرد » . إن الفن الآن يعكس هذه الحقيقة .

وهكذا فإننا نجد فنانين من بلاد عديدة عاكفين على خلق هذه الصورة المتحركة . والمحصلة النهائية لهذه الجهود هى بالطبع انتشار ذلك النوع الجديد من « قصور الملاهى » ، والذى يسميه البعض بالنوادى الليلية ذات البيئة الكلية ، حيث يجد الباحث عن التسرية نفسه وسط ساحة تتغير أضواؤها وألوانها وأشكالها بصفة مستمرة . أى وسط عمل من أعمال الفن الحركى حيث تتبدل وتتغير أوضاع الأجزاء الداخلية مع ثبات الإطار الخارجى . وسواء اعتبرنا هذا مجرد لهو ، أو شيئا غير معتمد على موقف الفرد ، فإن الاتجاه العام واضح لا يمكن تجاهله . إننا فى الفن ، كما فى اللغة ، نندفع نحو اللاثبات : إن صلة الإنسان بالتصورات الرمزية تتجه باطراد نحو التقاصر واللاثبات .

الاستثمار العصبى

إن الأحداث تمر بنا سراعا وتضطرنا إلى أن نعيد النظر فى افتراضاتنا ، أى فى تصوراتنا السابقة للحقيقة : والبحوث تهدم مفهوماتنا القديمة عن الإنسان والطبيعة . والأفكار تقبل وتذهب بسرعة مجنونة (سرعة قدر معدلها ، على الأقل بالنسبة للعلم ، بما بين عشرين ومائة مثل السرعة التى كان يحدث بها ذلك من قرن واحد مضى) . والرسائل المفعمة بالصور تقرع حواسنا بعنف متزايد واستمرار ملح ، فى حين أن اللغة والفن — وهما الصيغتان اللتان تنتقل بهما الرسائل المفعمة بالصور بين الأفراد — تتعرضان بدورهما لعمليات تغيير مستمرة ومتزايدة .

كل هذا لا يمكن أن يمر دون أن يغير فينا شيئا . إنه يرغم الفرد على أن يزيد من السرعة التى يعدل بها تصوراته إذا ما أراد أن يتلاءم مع البيئة المتغيرة . ولا أحد يعلم سر العملية التى يتم بها تحويل الإشارات الخارجية إلى صور داخلية . ومع ذلك فإن العلوم النفسية والعلوم المختصة بالمعلومات تلقى لنا بعض الضوء على ما يحدث بمجرد أن تتولد صورة ما فى داخلنا .

وكبداية فإن هذه تقول بأن النموذج الذهنى للفرد مقسم ومرتب على هيئة بنايات صورية عديدة وشديدة التعقيد . وإن الصور الجديدة تفرز وتحفظ داخل هذه البنايات طبقا لقواعد تصنيف عديدة . وطبقا لهذه القواعد فإن الصورة المتولدة حديثا تحفظ مع غيرها من الصور المتصلة بنفس موضوعها . وتوضع الصور الأصغر والأقل شمولا فى مرتبة تلى الصور الأكبر والأكثر شمولا . ويتم فحص الصورة من حيث اتساقها مع باقى الصور المحفوظة (وهناك من القرائن ما يدل على وجود تركيب عصبى خاص يتولى عملية الفحص هذه) . . وكنتيجة لهذا الفحص فإننا نقرر ما إذا كانت الصورة تتفق مع أهدافنا ، أو أنها بعيدة عنها . ومن ثم فإنها غير هامة بالنسبة لنا . وأيضا فإن كل صورة يتم تقويمها لتقرير ما إذا كانت « جيدة » أو « سيئة » . وأخيرا فإننا نحكم على الصورة من حيث حقيقتها . إننا نقرر إلى أى حد نضع ثقتنا فيها . وهل هى انعكاس دقيق للحقيقة ؟ هل نستطيع أن نصدقها ؟ هل نستطيع أن نبنى عليها أفعالنا ؟

إن أى صورة جديدة تتطابق مع إحدى خانات البناية الصورية الخاصة بموضوعها ، وتتسق مع باقى الصورة السابق اختزانها هناك لا تشكل أى صعوبة بالنسبة لنا . ولكن إذا ما حدث — وهو يحدث فعلا الآن وبصورة متزايدة — أن كانت الصورة مبهمة أو غير متسقة مع باقى الصور ، أو إذا كانت متصادمة تماما مع التصورات السابقة ، فإن النموذج الذهنى يتعرض بالضرورة لعملية مراجعة كبيرة . وفى هذه الحالة فإن أعداداً كبيرة من الصور قد يعاد فرزها وتصنيفها وتغييرها حتى نصل إلى تكامل ملائم .

وأحيانا فإن مجموعات كاملة من البنايات الصورية يتم هدمها وإعادة بنائها . وفى الحالات القصوى فإن النموذج الذهنى بأكمله يتعرض لعملية تجديد عنيفة .

وهكذا ، فإننا لا ينبغى أن ننظر إلى النموذج الذهنى وكأنه مكتبة ثابتة من الصور ، ولكن على أنه كيان حى ، مفعم بالطاقة والنشاط . إنه ليس مجرد شئ « نتلقاه » من خارج أنفسنا — ولكن بالأحرى شيئا نبنيه نحن ونعيد بناءه من لحظة لأخرى ، فى حين أن حواسنا تجوب خلال العالم فيما حولنا فى بحث دائب عن المعلومات التى تلائم حاجاتنا ورغباتنا . إننا فى شغل دائم بعملية إعادة ترتيب وتجديد لا تتوقف .

وفى أى لحظة معينة يتأكل عديد لا يحصى من الصور ويتساقط فى جب النسيان ، فى حين أن عديداً آخر لا يحصى من الصور الجديدة يدخل إلى أذهاننا ليفحص ويفرز ويصنف ويختزن . وفى نفس الوقت فإننا نستعيد بعض مخزوننا من الصور لكى « نستخدمها » ثم نعيدها إلى الحفظ — ربما فى موضع مختلف . إننا لا نكف عن مراجعة ومقارنة وإعادة ترتيب ما لدينا من صور ، وبطرق جديدة ومتعددة . إن هذا هو ما نسميه « نشاطا ذهنيا » ، وإنما مثله فى ذلك مثل الجهد العضلى ، نوع من العمل ، إنه يحتاج إلى طاقة عالية ليستمر .

إن التغيير يمضى مدويا فى المجتمع ، موسعا فى الخرق بين ما نعتقد وبين ما هو حقيقى بالفعل . بين ما لدينا من صور وبين الحقيقة المفروض فى هذه الصور أنها انعكاس لها . وكلما ضاق هذا الخرق زادت قدرتنا على المواجهة الراشدة للتغيير ، وعلى الاستجابة العاقلة للظروف الجديدة ، وعلى إدراكنا الحقيقة . وكلما اتسع هذا الخرق تفاقم عجزنا عن المواجهة ، وكانت استجابتنا غير ملائمة ، وفقدنا فاعليتنا ، وتراجعنا مذعورين . . وفى الحالة القصوى عندما يتفاقم اتساع هذا الخرق فإننا نصاب بالعصاب ، وربما تعرضنا للموت .

وحتى نحافظ على قدرتنا على التكيف ، ونحصر الخرق فى حدود مقدور عليها ، فإننا نناضل من أجل إنعاش تصورنا وتجديده ، ومن أجل إدراك الحقيقة . وهكذا فإن دفعة التغيير المتسارعة من خارج أنفسنا تجد مقابلها من قدرة الفرد المتسارعة على التكيف . ومعنى هذا فإننا مطالبون بأن ندفع أجهزة توليد الصور بداخلنا أيا كانت هذه الأجهزة إلى العمل بسرعة أكبر فأكبر .

إن لمثل هذه العملية معقبات كثيرا ما نتغافل عنها . . إننا عندما نصف صورة ما ، أية صورة ، فإننا نستثمر فى هذه العملية قدرا معينا من الطاقة اللازمة لتشغيل المخ طبقا للنمط التنظيمى الذى تقتضيه هذه العملية . إن التعلم يحتاج إلى طاقة . وإعادة التعليم تحتاج إلى طاقة أكثر . يقول هارولد د. لاسويل ، من جامعة ييل : « لقد أكدت جميع البحوث التى أجريت فى موضوع التعلم وجهة النظر القائلة بأن « الطاقات » معتقلة للحفاظ على ما سبق تعلمه . وأن إطلاق هذه الطاقات من عقالها يحتاج إلى طاقات جديدة . . . . وعلى المستوى العصبى فإن أى نظام مستقر يبدو كأنه يحتوى على ترتيبات فائقة التعقيد لمادة الخلية ، وللشحنات الكهربية والعناصر الكيمائية . وعند أى قطاع من الزمن . . . فإن البنية الجسدية تمثل استثمارا هائلا لأشكال ثابتة من الطاقات . . . » . ومعنى هذا ببساطة واختصار ، أن عملية إعادة التعلم تحتاج إلى تكاليف ،وعملية إعادة التعلم هى ما نسميه هنا بإعادة تصنيف التصور .

وفى كل ما يقال عن الحاجة إلى التعليم المستمر ، وفى المناقشات التى تدور حول إعادة التدريب ، هناك دائما افتراض بأن قدرات الفرد على إعادة التعلم لا حدود لها . إن هذا فى أحسن الحالات مجرد افتراض وليس بحقيقة مؤكدة ، وهو أيضاً افتراض يحتاج إلى كثير من الفحص العلمى الدقيق . إن عملية تكوين وتصنيف الصور هى فى النهاية عملية جسدية تعتمد على خصائص محددة للخلايا العصبية والتركيبات الكيمائية فى الجسم . وكما هو ثابت حاليا فإن للجهاز العصبى فى كل الاحتمالات حدودا طبيعية للسرعة

التى يمكن للفرد أن يصل إليها فى عملية تكوين وفحص وتصنيف واستيعاب الصور . فإلى أى مدى من السرعة والاستمرار يستطيع الفرد أن يقوم بهذه العملية قبل أن يصطدم بتلك الحدود ؟

لا أحد يعلم فى الواقع . . قد تكون الحدود ممتدة إلى أبعد مما تتطلبه الاحتياجات الراهنة ، وإن التشاؤم بالنسبة للمستقبل ليس له ما يبرره . ولكن تبقى هناك حقيقة مؤكدة تسترعى الانتباه هى : أن تسارع التغيير فى البيئة يضطر الفرد إلى أن يعيد تعرفه إلى هذه البيئة فى كل لحظة . . وهذا يشكل فى حد ذاته عبئا ثقيلا على جهازه العصبى . إن الناس فى الماضى — فى تكيفهم مع بيئات أكثر استقراراً — كانوا يمارسون روابط أطول أمدا مع مفهوماتهم الداخلية عن « طبيعة الأشياء » . أما نحن الذين نتحرك فى إطار مجتمع يتصف بدرجة عالية من الزوالية ، فإننا مضطرون إلى اختزال هذه الروابط . إننا بمثل ما نحن مضطرون إلى اختزال علاقاتنا بالأشياء والأمكنة والناس والأنظمة ،فإننا مضطرون أيضاً إلى تغيير مفهوماتنا عن الحقيقة وصورنا الذهنية عن العالم على فترات مطردة التقاصر .

ومن ثم فإن الزوال ، أى اختزال علاقات الإنسان ، ليس مجرد وضع للعالم الخارجى ، وإنما له أيضاً ظله داخل أنفسنا . إن المكتشفات الجديدة والتكنولوجيا الجديدة والأوضاع الاجتماعية الجديدة فى العالم الخارجى تتفجر فى حياتنا فى شكل معدلات من التغيير مطردة الزيادة — فى شكل دوامية للعلاقات أقصر فأقصر . إنها تدفع خطو الحياة نحو التسارع . إنها تتطلب مستوى جديدا من القدرة على التكيف . وأخيرا فإنها تعد المسرح لذلك المرض الاجتماعى العضال المدمر — صدمة المستقبل .



القسم الثالث

الجدة



الفصل التاسع

المسار العلمى

إننا فى الواقع نصنع مجتمعاً جديداً ، لا مجتمعاً معدلا ، مجتمعاً ليس مجرد صورة مكبرة من مجتمعنا الراهن ، وإنما مجتمعاً جديداً .

هذه الفرضية المنطقية البسيطة لم يهيأ لها بعد أن تبدأ فى صبغ وعينا ، ومع ذلك فإننا ما لم نفهمها. فإننا حريون بأن ندمر أنفسنا فى محاولتنا التكيف مع الغد .

إن ما يحدث اليوم فى الأمم المتقدمة تكنولوجيا إنما هو ثورة تمزق المؤسسات وعلاقات القوى . والشرطة ، فى أحياء الفقراء فى نيويورك ، وواشنطن ، وشيكاغو ، تقف جانباً ، فى حين أن قوانين الملكية تنتهك علناً . والأعراف المصطلح عليها فى العلاقات الجنسية تنقلب رأساً على عقب . والإضرابات والشغب تشل حركة الكثير من المدن الكبرى . وأحلاف دولية تهتز . وقادة المال والسياسة يرتعدون سراً — لا خوفاً من الشيوعيين الثوريين (أو الرأسماليين) ، ولكن خشية أن يكون النظام كله ينفلت خارج إطار السيطرة .

هذه ولا شك أعراض بناء اجتماعى مريض ، ومجتمع أصبح غير قادر حتى على أداء أبسط وظائفه الأساسية بالطرق المألوفة . إنه مجتمع يعانى آلام التغيير الثورى . لقد كان الشيوعيون يتحدثون فى العشرينيات والثلاثينيات عن « الأزمة العامة للرأسمالية » . ولقد أصبح واضحاً الآن أنهم كانوا متواضعين جداً فيما يقولون . إن ما يحدث الآن ليس أزمة الرأسمالية ، ولكن أزمة المجتمع الصناعى نفسه ، بصرف النظر عن إطاره السياسى . إننا نشهد فى وقت واحد عدة ثورات متزامنة : ثورة شبابية ، ثورة جنسية ، ثورة عنصرية ، ثورة فى المستعمرات . ثورة اقتصادية ،

وأيضاً أسرع وأعمق ثورة تكنولوجية فى التاريخ . إننا نعيش الأزمة العامة للتصنيع – وفى كلمة مختصرة فإننا نعيش ثورة ما فوق التصنيع . إنه إذا كان العجز عن إدراك هذه الحقيقة حرياً بأن يفشى قدرة الإنسان على فهم الحاضر ، فهو أحرى بأن يلقى بأذكياء الرجال إلى حمأة الغباء المطبق عندما يتحدثون عن المستقبل . إنه يقودهم إلى التفكير الساذج ذى الخطوط الطولية . إنهم مثلا يرون قرينة على تضخم سطوة البيروقراطية اليوم فيفترضون ببساطة أنه سيكون هناك بيروقراطية أكثر فى المستقبل . إن مثل هذه الإسقاطات الطولية هى التى تميز معظم ما يكتب أو يقال حالياً عن المستقبل ، وهى بالتالى تدفعنا إلى أن نقلق من أجل أشياء مخالفة تماماً لما ينبغى أن نقلق بشأنه .

إن الإنسان يحتاج إلى الخيال عندما يواجه ثورة ؛ لأن الثورة لا تسير فى خطوط مستقيمة فقط . ولكنها أيضاً تلتف ، وتنثنى ، وتتراجع . إنها تقبل فى شكل قفزات كمية وانعكاسات جدلية . إننا لن نستطيع أن نفهم عصرنا ما لم نتقبل الفرضية المنطقية بأننا نندفع نحو مرحلة جديدة تماماً من التطور الاقتصادى والتكنولوجى – مرحلة ما فوق التصنيع . وبدون تقبلنا للمنطق الثورى فإننا لن نستطيع أن نحرر خيالنا لينطلق إلى آفاق المستقبل.

إن الثورة تتضمن التجديد . إنها تدفع بفيض من الجدة إلى حياة ملايين لا تحصى من الأفراد ، وتواجههم بمؤسسات غير مألوفة ، ومواقف يعاينونها لأول مرة . وعندما تصل التغيرات القادمة إلى أعماق حياتنا فإنها سوف تحدث تحولات فى بنائنا الأسرى ، وفى عاداتنا الجنسية . إنها سوف تحطم العلاقات التقليدية بين الشيوخ والشباب . إنها سوف تعصف بقيمنا عن المال والنجاح . إنها ستحدث تعديلات فى العمل ، وفى اللهو ، وفى التعليم ، إلى أبعد مما يمكن أن نتصوره الآن . وهى سوف تفعل كل ذلك فى سياق تقدم علمى باهر ورائع ، بقدر ما هو مخيف أيضاً .

وإذا كان الزوال هو أول المفاتيح لفهم المجتمع الجديد ، فإن الجدة هى المفتاح الثانى . إن المستقبل سوف يتكشف عن متوالية لاتنتهى من الحوادث العجيبة ، والاكتشافات المثيرة ، والصراعات العنيفة ، والمآزق المستحدثة .

إن هذا يعنى أن كثيرين من أفراد مجتمع ما فوق التصنيع سيحسون دائماً بأنهم « غرباء » كالرحالة الذى يسكن بلداً معادياً ، ليجد نفسه – ولما يكد يستقر – مضطراً إلى الرحيل إلى بلد ثان ، ثم ثالث ، وهكذا . إننا سوف نعانى من الإحساس بأننا « غرباء فى بلاد غريبة » .

إن ثورة ما فوق التصنيع تستطيع أن تقضى على الجوع والجهل والمرض. وفوق ذلك فإنها – بالرغم من التنبوءات المتشائمة للمفكرين فى خطوط طولية – سوف لا تحصر الفرد أو تسحقه داخل شق التقولب المؤلم . إنها على العكس من ذلك سوف تفتح أمام الفرد آفاقاً واسعة للنمو ، والمخاطرة والمتعة . إنها سوف تكون بمثابة جنة للفردية مفتحة الأبواب ، مشرقة بكل ألوان البهجة. إن المشكلة المطروحة بالنسبة للمستقبل ليست قدرة الإنسان على النجاة من التقولب والتشكل ، وإنما هى فى الواقع قدرة هذا الإنسان على النجاة من الحرية .

إن الإنسان لم يعش من قبل فى بيئة كل ما فيها جديد . إن اضطرارك للحياة تحت ظروف التغيير المتسارع مع بقاء المواقف المألوفة للحياة ، شئ يختلف تماماً عن العيش تحت نفس ظروف التغيير المتسرع مضافاً إليها مواجهة مواقف غريبة غير مألوفة ولم يسبق لها مثيل . إننا بإطلاق قوى الجدة من عقالها نضع الأفراد فى مواجهة كل ما هو غير مألوف أو متوقع . ونحن بذلك أيضاً نصعد مشكلات التكيف إلى مستوى جديد وخطر ، لأن الزوال والجدة يصنعان مزيجاً متفجراً .

وإن كان هناك شك فيما نقول ، فتعال نستعرض معاً بعض ما يدخره لنا المستقبل من كل جديد وطريف . . تعال نقفز إلى المستقبل على دعامتين من الذكاء الراشد والخيال المنضبط . ولنطرح فى قفزتنا كل خوف من الخطأ . فالخيال لا يتحرر إلا إذا اطرحنا الخوف جانباً ولو مؤقتاً . وفضلا عن ذلك فإنه من الأفضل عند التفكير فى المستقبل أن يأتى الخطأ مع الإقدام ، لا من الإحجام .

تعال نرهف السمع إلى بعض الرجال الذين يصنعون الآن فعلا هذا المستقبل . نصغى إليهم وهم يصفون لنا بعض ما يتخلق الآن فى معاملهم ومصانعهم ليتفجر مدوياً فى آفاق المستقبل .

الأطلانتيس الجديدة

يقول الدكتور ف.ن.سبيس مدير معمل الطبيعيات البحرية بمعهد سكريبس لعلوم المحيطات : « خلال خمسين عاما ، سوف يزحف الإنسان إلى سطح البحر وأعماقه ويحتله لاستغلاله كجزء لا يتجزأ من استغلاله للكوكب التى يعيش عليه . مستخدماً البحر فى استخلاص المعادن ، والأغذية ، والتخلص من النفايات ، وفى عمليات النقل ، والعمليات الحربية . وأيضاً — مع تضخم السكان — كمكان للعيش والسكن » .

إن أكثر من ثلثى مساحة الأرض تغطيها مياه البحار والمحيطات ، وحتى الآن لم يزد ما استكشف الإنسان ورسم معالمه على خمسة فى المائة من مساحة الأرض الهائلة التى تغمرها هذه المياه . ومع ذلك فمن المعروف أن هذه الأرض تضم ثروات هائلة من البترول ، والغاز ، والألماس ، والكبريت ، والكوبالت ، واليورانيوم ، والقصدير ، والفوسفات ، وغيرها من المعادن . كما أنها تزخر بالأسماك والنباتات .

هذه الثروات الضخمة توشك أن تصبح بالفعل مجالا للاستغلال والمنافسة على نطاق يتسع حالياً بمعدلات مذهلة . ففى الولايات المتحدة وحدها توجد الآن أكثر من سمائة شركة ، من بينها شركات عملاقة من أمثال ستاندرد أويل ويونيون كاربايد تعد نفسها لاقتحام ميدان المنافسة على استغلال قاع البحار .

وعاماً بعد عام ، ستشتد حدة التسابق على استغلال قاع البحار ، الأمر الذى ولا شك أنه سيحدث تأثيراته الواسعة والعميقة على المجتمع . ومن الضرورى أن تثار قضية من الذى « يملك » قاع البحر وما يغطيه من حياة بحرية ؟ إن تقدم وتطور إمكانيات الاستغلال الاقتصادى للمناجم البحرية سيترتب عليه

بالضرورة تغيرات فى موازين الموارد بين الأمم . إن اليابانيين يستخلصون حالياً ١٠,٠٠٠,٠٠٠ طن من الفحم سنوياً من مناجم تحت سطح المحيط . وماليزيا وإندونيسيا وتايلاند تستخرج بالفعل القصدير من المحيط . وأيضاً فإننا قد نشهد تغيرات كبرى فى مجال التصنيع بالنسبة للأمم التى تعانى حالياً من نقص الموارد .

وتكنولوجيا ، سوف تنبثق صناعات مستحدثة تعتمد على مستخرجات البحار والمحيطات . وصناعات أخرى لإنتاج المعدات الشديدة التعقيد والمرتفعة التكاليف اللازمة للعمل تحت سطح الماء مثل معدات الغوص العميق ، وغواصات الإنقاذ ، ومعدات تجميع السمك الإليكترونية وغيرها . ولسوف ترفع حدة التنافس من معدل السرعة التى تظهر بها المستحدثات فى هذا المجال .

وثقافياً ، فإننا نتوقع أن تتدفق الكلمات الجديدة إلى اللغة بسرعة أكبر . إن مصطلحاً مثل : « حرث البحر » الذى يعبر عن الاستغلال العلمى لموارد البحر الغذائية سوف يأخذ مكانه إلى جانب كلمة « الزراعة » . وإن كلمة « الماء » نفسها المفعمة بالعديد من الرموز والمعانى سوف تحمل المزيد من المعانى الجديدة تماماً . وإلى جانب الكلمات ، سوف تنبثق رموز فى الشعر ، والرسم ، والسينما ، وغيرها من الفنون . ولسوف تجد الأشكال المعبرة عن الحياة البحرية طريقها إلى التصميمات الصناعية والفنون التخطيطية . وستكتشف أنواع جديدة من المنسوجات واللدائن وغيرها من المواد . كما ستكتشف عقاقير جديدة لعلاج أمراض الجسم والنفس .

والأهم من كل ذلك أن تزايد الاعتماد على طعام البحر سوف يترتب عليه تعديل أصول التغذية بالنسبة للملايين – ومثل هذا التغيير فى حد ذاته يحمل فى جعبته عديداً من المفاجآت البالغة الأهمية . ترى ماذا سيحدث عندئذ لمعدلات الطاقة لدى الناس ولقدرتهم على العمل والإنجاز ؟ ناهيك بما قد يحدث لتركيبهم البيوكيميائى ، ولمتوسط أطوالهم ، وأوزانهم ، ولمعدل النضج

لديهم ، ولمدى أعمارهم ، ولأمراضهم المعروفة ، وحتى لاستجاباتهم النفسية — عندما يتحول المجتمع من الاعتماد فى غذائه من الأرض إلى البحر ؟

إن غزو البحر سوف يفتح أيضاً آفاقاً جديدة لحياة جديدة عامرة بالمغامرة ، والمخاطر ، والثراء والشهرة السريعة لرواده الأوائل . وفيما بعد ، عندما يبدأ الإنسان فى استعمار التخوم البحرية للقارات ، وربما إلى أبعاد أعمق ، سوف تلحق بالرواد أفواج المستوطنين الذين سيبنون مدناً صناعية تحت الأمواج — مدناً للعمل ومدناً علمية ، ومدناً طبيعية ومدناً للرياضة — مزودة بكل ما تحتاج إليه من منازل ومستشفيات وفنادق .

قد نتصور أن مثل هذا الحديث ليس إلا ضرباً من شطحات الخيال . ولكننا حريون بأن نراجع أنفسنا فى مثل هذا التصور عندما نعلم أن الدكتور والتر أ. روب — أحد العلماء العاملين بشركة جنرال إليكتريك — قد نجح فى الاحتفاظ بحيوان من حيوانات الهامستر القارضة حياً تحت الماء ، بوضعه داخل صندوق هو فى الواقع عبارة عن خيشوم صناعى مصنوع من أغشية صناعية لها خاصية امتصاص الهواء من الماء المحيط به دون السماح للماء بالتسرب إلى داخل الصندوق . ويتكون سقف الصندوق وقاعه وجانبان من جوانبه الأربعة من هذه الأغشية التى بدونها كان الحيوان حرياً بأن يختنق بمجرد أن يغمر الماء الصندوق . وطبقاً لدعوى شركة جنرال إليكتريك فإن مثل هذه الأغشية قد تستخدم فى توفير الهواء للعاملين فى المحطات التجريبية تحت الماء . ومن ثم فإنها قد تستخدم أيضاً فى بناء المنازل والمستشفيات والمصانع وغيرها من المبانى التى ستنشأ مستقبلا تحت سطح البحر — ومن يدرى ؟ فربما جهز الجسم البشرى ذاته بمثل هذه الأغشية .

والواقع أن ما كانت تقصه علينا القصص العلمية عن رجال ركبت لهم خياشيم بواسطة الجراحة ليستطيعوا العيش تحت الماء لم يعد مستحيل التحقيق كما كنا نتصور من قبل . إننا قد ننجح فى إعداد (وربما تنشئة) إخصائيين للعمل تحت سطح البحر . رجال ونساء معدين لا عقلياً فقط وإنما بدنياً أيضاً ،

ليعملوا ويلعبوا ، ويتحابوا ويتعاشروا تحت الماء . . إنه احتمال وارد ألا يقتصر غزو البحر على إيجاد تخصصات مهنية جديدة فقط ، وإنما أيضاً إيجاد أساليب جديدة للحياة وثقافات فرعية بحرية ، بل ربما أيضاً مذاهب وطوائف دينية جديدة تمجد البحر .

ومع ذلك فإن الإنسان ليس بحاجة إلى أن يوغل بتوقعاته إلى مثل هذا البعد ليدرك أن البيئات الجديدة التى سيدفع الإنسان إلى العيش فيها سوف تأتى معها بمدركات جديدة ومشاعر جديدة ، وإحساسات جديدة بالألوان والأشكال ، وأساليب جديدة للتفكير والإحساس . وفضلا عن ذلك فإن غزو البحر الذى سوف نشهد أولى موجاته قبل نهاية القرن العشرين بكثير ، ليس إلا واحداً من سلسلة مترابطة من الاتجاهات العلمية التكنولوجية التى تتلاحق الآن وكلها مشحونة بمضمونات اجتماعية ونفسية جديدة .

اشعة الشمس والشخصية

إن قهر البحر يرتبط بشكل مباشر بالتقدم نحو ضمان دقة التنبؤات الجوية ، ثم فى النهاية ــ التحكم فى المناخ . إن ما نسميه « طقسا » هو ظواهر تحدث كنتيجة لفعل مشترك بين الشمس والهواء والمحيطات . إننا بإحكام الرقابة على تيارات المحيطات وملوحتها ، وغير ذلك من العوامل ، وبوضع أقمار التنبؤات الجوية فى الفضاء ، سوف نزيد من قدرتنا على التنبؤ الدقيق بالأحوال الجوية . وطبقا لما يقول به الدكتور والتر أور روبرتس الرئيس السابق للاتحاد الأمريكى لتقدم العلوم : « إننا نتطلع إلى وضع كوكب الأرض كله تحت الرقابة الجوية المستمرة فى أواسط السبعينيات ، وبنفقات معقولة ، ونتوقع تبعا لذلك تحسنا هائلا فى التنبؤات بحدوث العواصف الهوائية والثلجية والرياح وموجات الضباب الدخانى ــ بما يهيىء فرصا كافية لتفادى الكوارث التى تسببها . ولكننا نرى أيضا ــ فيما وراء ما هو متاح لنا الآن من معرفة ــ إمكانيات رهيبة كافية يمكن استخدامها كسلاح فى الحرب . هى التلاعب عمدا بالجو لصالح القلة الأقوى ، ولتدمير العدو . وربما أيضا من يجاورونه » .

فى قصة علمية بعنوان : « رجل الجو » تخيل المؤلف تيودور . ل . توماس

عالمـــا تتمثل مؤسسته السياسية المركزية فى « مجلس للجو » يضم ممثلين لمختلف الأمم ، ويتولى هذا المجلس وضع السياسة الجوية ، ويتحكم من خلالهـا فى الشعوب من خلال تعديل المناخ ، وإطلاق عاصفة هنا ، وإرسال ريح هناك ، ليضطر الشعوب إلى الخضوع . قد نكون مازلنا بعيدين عن ذلك اليوم الذى يتحقق فيه مثل ذلك التحكم الدقيق ، ولكن مما لا شك فيه أنه قد مضى ذلك الزمان الذى كنا نتقبل فيه بالنسبة للجو كل ما تتفضل به علينا السماء . فى تصريح للجمعية الأمريكية للأرصاد الجوية ، وبكلمات قاطعة واضحة ، يقول التصريح : « لقد أصبح تعديل الجو اليوم حقيقة واقعة » .

إن هذه الحقيقة تمثل نقطة تحول فى التاريخ وتزود الإنسان بسلاح يمكن أن يحدث تأثيرات جذرية فى الزراعة والنقل والمواصلات وأوقات الفراغ . ومع ذلك ، فإنه مالم يستخدم مثل هذا السلاح بمنتهى الحذر ، فإن قدرة الإنسان على التحكم فى الجو قد تتحول من منحة إلى محنة . إن النظام الجوى للأرض وحدة متكاملة ، وأى تغير بسيط عند نقطة ما قد تترتب عليه آثار هائلة فى مكان آخر . وحتى بدون نوايا عدوانية ، فهناك دائما خطر ماثل فى أن تؤدى محاولة التحكم فى الريح على قارة إلى إطلاق عاصفة على قارة أخرى .

وفضلا عن ذلك فقد تكون الآثار الاجتماعية والنفسية المترتبة على التحكم فى الجو ، والتى لا نعلمها حاليا ، آثاراً هائلة . . إن الملايين منا فى حالة جوع إلى أشعة الشمس ، وهى حقيقة تؤكدها الملايين التى تهرع كل عام إلى شواطئ فلوريدا وكاليفورنيا وبلاد البحر المتوسط . . إننا أيضا قد نستطيع فى المستقبل أن ننتج أشعة الشمس أو صورة منها — حسبما نريد . إن وكالة الفضاء الأمريكية تدرس حاليا إمكان إطلاق مرآة عملاقة إلى الفضاء الخارجى قادرة على أن تعكس ضوء الشمس على أجزاء الأرض المكفنة بظلمة الليل . لقد قرر جورج . أ . ميولر — أحد المسئولين فى الوكالة أمام الكونجرس — أن الولايات المتحدة تملك القدرة على إطلاق أقمار ضخمة عاكسة لأشعة الشمس إلى الفضاء الخارجى ، فى أواسط السبعينيات (وبناء على هذه الحقيقة ، فإنه لن يكون مستحيلا أن نطلق أقماراً أخرى تحجب ضوء الشمس عن أجزاء معينة من الأرض وتسبب لهـا ، على الأقل ، حالة من الإظلام الجزئى) .

إن الدورة الطبيعية الحالية للضوء والظلام مرتبطة بالإيقاعات البيولوجية للإنسان بأساليب لم تستكشف حتى الآن . إننا نستطيع أن نتصور بسهولة ما يمكن أن يترتب على استخدام المرايا الفضائية العاكسة لأشعة الشمس من تعديل لساعات الضوء والظلمة لأسباب تتعلق بالزراعة والصناعة ، أو حتى لأسباب نفسية . وعلى سبيل المثال فإن إطالة ساعات النهار بالنسبة للبلاد الاسكندينافية سوف يحدث تأثيراته الحتمية على الأنماط الثقافية والشخصية التي يتميز بها سكان هذه المنطقة حاليا . أو إذا ما أردنا أن نضع المسألة في صورة نصف فكهة ، فإننا نتساءل : ماذا سيحدث لفن انجمار برجمان المكتئب إذا ما رفع عن ستوكولهم ظلامها الكئيب ؟ هل من الممكن مثلا أن يكون فيلم « الختم السابع » أو فيلم « ضوء الشتاء » أفلاما مقبولة ومفهومة في مناخ مخالف .

إن القدرة المتزايدة على تعديل الجو وظهور مصادر جديدة للطاقة ومواد جديدة (بعضها يكاد يكون سيرياليا في خصائصه) ووسائل نقل جديدة وأغذية جديدة (ليس من البحر فقط ، ولكن أيضا من المصانع التي تنتج الطعام من النباتات السطح مائية) ، كل هذا ما هو إلا مجرد مثال على طبيعة التغيرات المتسارعة التي تنطوي عليها جوانب المستقبل .

صـــوت الدرفيل

في روايته الرائعة : « الحرب مع السمندل » ، يروي لنا مؤلفها كاريل كابيك كيف جلب الإنسان الدمار على المدنية من خلال محاولاته لاستئناس أنواع مختلفة من سمندل البحر . أما اليوم فإن الإنسان يتعلم ، ضمن ما يتعلمه ، كيف يستغل الحيوانات والأسماك بأساليب حرية بأن تجعل كابيك يبتسم في مرارة . إن الحمائم المدربة تستخدم اليوم لفرز حبوب الدواء المعيبة من على سيور التعبئة في مصانع الأدوية . وفي أوكرانيا يستخدم العلماء السوفييت أنواعاً معينة من الأسماك لتنظيف مصافي محطات المضخات مما يعلق بها من الطحالب ، كما دربت درافيل البحر على حمل العدد والأدوات إلى (رواد الماء) الغائصين تحت مياه سواحل كاليفورنيا ولتبعد أسماك القرش عن مواقع العمل . كما دربت درافيل أخرى على نطح الألغام الغائصة ، ومن ثم

تفجيرها والانتحار ضمنا من أجل صالح الإنسان — وبالطبع لم يثر مثل هذا الاستخدام سوى استياء طفيف من وجهة نظر أخلاقيات التعامل بين الأنواع .

إن البحث فى أساليب التواصل بين الإنسان والدرفيل قد تثبت فائدته العظمى فى حالة ما إذا استطاع الإنسان أن يتصل بالحياة خارج الأرض . وهى إمكانية تكاد تكون فى اعتبار الكثيرين من علماء الفلك حتمية . وفى نفس الوقت فإن البحوث على الدرافيل قد أثمرت معلومات جديدة عن أوجه اختلاف الأجهزة الحسية فى الإنسان عن الحيوانات الأخرى . إنها تشير إلى بعض الحدود الخارجية التى يعمل الكائن البشرى فى إطارها — إن الأحاسيس والمدركات وصيغ الفعل غير المتاحة للإنسان بسبب تركيبه البيولوجى ، أصبح من الممكن على الأقل تحليلها ووصفها .

إن الأنواع الموجودة حاليا من الحيوانات ليست بأى حال كل ما علينا أى نعمل معه . لقد اقترح الكثير من الكتاب استيلاد أشكال جديدة من الحيوان من أجل أغراض خاصة . إن السير جورج طومسون يشير إلى أنه : « مع تقدم المعرفة فى مجال علم الوراثة ، فإنه من الممكن بدون أى شك إحداث تعديلات كبيرة فى أنواع الحيوانات البرية » . كما كتب آرثر كلارك عن إمكانية : « تحسين مستوى الذكاء لدى حيواناتنا المستأنسة ، أو استيلاد أنواع جديدة تماما تتمتع بمستوى من الذكاء أعلى مما هو متوافر لدى الأنواع الموجودة حاليا » . إننا أيضا ننمى من قدراتنا على التحكم فى سلوك الحيوان عن بعد . إن الدكتور جوزيه . م . ر . دلجادو من خلال سلسلة من التجارب التى تنطوى على احتمالات مفزعة من حيث إمكانية تطبيقها على الإنسان قد استطاع أن يزرع أقطابا كهربية فى جمجمة ثور . ثم لوح للثور بحرملة حمراء إلى أن استثاره للهجوم . . وعندئذ ، وبإشارة أرسلها من جهاز إرسال لاسلكى صغير فى يده ، جعل الثور ينثنى فجأة وهو فى ذروة اندفاعه ثم ينسحب وهو يخب فى خطوات مرحة .

وسواء ربينا حيوانات متخصصة لخدمتنا ، أو ابتكرنا كائنات آلية

للخدمة المنزلية ، فإن الأمر متوقف إلى حد ما على السباق غير المتكافئ بين علوم الحياة والعلوم الطبيعية . قد يكون صنع ماكينات لأداء أغراض معينة ، أرخص من تربية وتدريب حيوانات لأداء نفس الأغراض . . ومع ذلك فإن العلوم البيولوجية تتقدم بسرعة قد يترتب عليها وصولها إلى التوازن مع تقدم العلوم الطبيعية خلال فترة قصيرة نسبيا . والواقع أنه قد يأتى أيضا ذلك اليوم الذى نربى فيه ماكيناتنا .

المصنع البيولوجى

قد تكون تربية الحيوانات وتدريبها عملية باهظة التكاليف . ولكن ماذا يحدث لو هبطنا إلى قاع سلم التطور – إلى مستوى البكتيريا والفيروسات وغيرها من الكائنات الدقيقة ؟ إننا هنا نستطيع أن نروض الحياة فى أشكالها البدائية كما سبق أن روضنا الحصان . . إن علما جديدا مؤسسا على هذه القاعدة ينبثق اليوم بسرعة مبشرا بتغيير فى طبيعة الصناعة ذاتها كما نعرفها فى وقتنا الراهن .

يقول البيوكيميائى مارفن . ج . جونسون من جامعة ويسكونسن : « لقد استأنس أسلافنا أنواعا مختلفة من النبات والحيوان فى حقب ما قبل التاريخ ، ولكن الكائنات الدقيقة لم تستأنس إلا من عهد قريب ؛ لأن الإنسان لم يكن يعلم من قبل بمجرد وجودها » . أما اليوم فإنه يعلم ، بل ويستخدمها على نطاق واسع فى إنتاج الفيتامينات ، والإنزيمات والمضادات الحيوية ، وحمض الليمونيك ، وغير ذلك كثير من المركبات المفيدة . وفى غضون ما بقى من القرن الحالى ، وعندما يشتد ضغط الحاجة إلى الطعام ، سيربى البيوكيميائيون هذه الكائنات الدقيقة لاستخدامها فى تغذية الحيوان ، وبالتالى الإنسان .

لقد أتيحت لى فرصة مناقشة هذا الموضوع عند زيارتى لجامعة أوبسالا بالسويد ولقائى مع آرن تسيليوس البيوكيميائى الحائز لجائزة نوبل ، والذى يرأس حاليا مؤسسة نوبل نفسها . لقد سألته : « هل من المعقول أننا سنتمكن يوما ما من صنع ماكينات بيولوجية من أجل أغراض الإنتاج لا تتكون أجزاؤها من المعادن أو البلاستيك ولكن من كائنات حية ؟ » .

وكانت إجابة تسيليوس غير مباشرة ولكنها واضحة المعنى . لقد قال : « إننا بالفعل سائرون على هذا الدرب . إن مستقبل الصناعة العظيم سوف يقبل من ناحية البيولوجيا . والواقع أن واحدة من أكثر الحقائق إثارة عن التقدم التكنولوجى الهائل الذى حققته اليابان بعد الحرب هى : أن أبرز معالم هذا التقدم لم تكن فى ميدان بناء السفن ، إنما فى ميدان الميكروبيولوجيا. لقد أصبحت اليابان اليوم أولى دول العالم فى الصناعة المبنية على الميكروبولوجيا . إن كثيرا من صناعاتها الغذائية ترتكز على عمليات تستخدم فيها البكتيريا . إنها تنتج الآن أنواعا عديدة من المواد ذات الفائدة الجمة – كالأحماض الأمينية ، على سبيل المثال . وهنا فى السويد ، يتحدث الجميع عن ضرورة دعم مركزنا فى مجال الميكروبيولوجيا .

« إننا لسنا فى حاجة إلى أن نحصر حديثنا فى البكتيريا والفيروسات وحدها . إن العمليات الصناعية بشكل عام ترتكز على عمليات من صنع الإنسان . صناعات اللدائن والمنتجات المستخرجة من المواد البترولية . إنه بالرغم مما حققه الإنسان من التقدم المذهل فى هذه الميادين وغيرها من ميادين الكيمياء والتكنولوجيا الكيمائية ، فإنه من الواضح أننا لم نستطع حتى الآن أن ننتج صناعيا غذاء واحدا يرقى إلى مستوى ما ينبت الفلاح من الأرض . .

« إن الطبيعة فى هذا الميدان وميادين أخرى عديدة أكثر تفوقا من الإنسان ، بل أكثر من أعظم المهندسين الكيمائيين والباحثين تقدما . والآن ماذا يعنى كل هذا . . ؟ إنه يعنى أننا كلما زدنا معرفة بالأساليب التى تصنع بها الطبيعة منتجاتها ، وكلما زادت قدرتنا على تقليدها ، توصلنا إلى اكتشاف عمليات من نوع جديد تماما . عمليات ستكون بمثابة الأساس لصناعات من نوع جديد أيضا – نوع من المصانع البيوتكنيكية تعمل على أساس من التكنولوجيا البيولوجية .

« إن النباتات الخضراء تصنع النشا من ثانى أكسيد الكربون المستمد من الهواء الجوى بمساعدة الشمس . . إنها إذن ماكينات عالية الكفاية . . إن ورقة النبات الخضراء هى فى الحقيقة ماكينة عظيمة . إننا نعلم عنها اليوم

أكثر بكثير مما كنا نعلمه من عامين أو ثلاثة أعوام فقط . ولكن ليس بالقدر الكافى بعد لنستطيع تقليدها . إن لدى الطبيعة العديد من أمثال هذه الماكينة . إن مثل هذه العمليات التى تقوم بها الطبيعة سوف يتاح لنا أن نقوم بها فى المستقبل . إننا بدلا من أن نحاول تركيب المنتجات كيميائيا سنتجه إلى إنشائها إنشاء طبقا لمواصفات محـــددة .

« إن من المحتمل أن نصل حتى إلى إدخال العناصر البيولوجية فى بناء المـاكينات – فى الكومبيوتر على سبيل المثال . . فمن الواضح تماما أن الكومبيوتر لا يعدو أن يكون تقليدا سيئا للمخ البشرى . وعندما نعلم كيف يعمل المخ البشرى فسيكون من دواعى دهشتى ألا نستطيع بناء نوع من الكومبيوتر البيولوجى . . مثل هذا الكومبيوتر قد يحتوى على أجزاء إليكترونية مصنوعة على نسق الأجزاء البيولوجية للعقل البشرى . وليس من المستحيل فى مرحلة متقدمة من المستقبل أن ندخل العناصر البيولوجية نفسها فى تركيب الماكينات .

إن مثل هذه الأفكار هى ما يعبر عنه جان فوراستييه الاقتصادى وخبير التخطيط الفرنسى عندما يقول : « إن الإنسان سائر على طريق إدماج الأنسجة الحية فى العمليات الميكانيكية . . إننا سوف نشهد فى المستقبل القريب ماكينات مركبة فى نفس الوقت من المعادن والمواد الحية . . وفى ضوء هذه الحقيقة . . فإن الجسم البشرى نفسه يكتسب معنى جديداً » .

الجســم المصمم سلفا

إن الجسم البشرى ، مثله فى ذلك مثل الجغرافيا ، كان يمثل حتى الآن نقطة ثابتة فى التجربة الإنسانية ، شيئا من قبيل « المعطيات » . أما اليوم فإننا نقترب بسرعة من ذلك اليوم الذى سيعتبر فيه الجسم البشرى شيئا غير ثابت بأى حال من الأحوال . إن الإنسان سوف يصبح قادراً خلال فترة معقولة من الزمن ، لا على إعادة تصميم أجسام أفراد من البشر فحسب ، بل الجنس البشرى بأكمله .

فى سنة ١٩٦٢ نال الدكتوران ج . د . واطسون ، ف . ه . ك . كريك جائزة نوبل على بحوثهما فى وصف الجزئ (د ن أ) . ومن ذلك الحين أخذت

تتوالى بسرعة الاكتشافات المتقدمة فى علم الوراثة . إن مكتشفات هائلة فى بيولوجيا الجزيئات على وشك أن تنفجر الآن مدوية من معامل البحوث البيولوجية . إن معارف جديدة فى علم الوراثة سوف تسمح لنا بأن نعبث بالوراثة البشرية ، وأن نعالج الجينات الموروثة لخلق نسخ جديدة معدلة من الإنسان .

إن واحدة من أكثر الإمكانيات التى ستنتجها هذه المكتشفات إثارة هى أن الإنسان سيصبح فى وسعه أن ينتج بيولوجيا صورا بالكربون لنفسه . فمن خلال عملية تسمى « الاستنساخ » سيكون من المستطاع أن ننشئ من نوية مأخوذة من خلية إنسان بالغ كائنا جديدا له نفس الصفات الوراثية للشخص الذى أخذت منه نوية الخلية . إن « النسخة » البشرية الناتجة سوف تبدأ الحياة بمواهب وراثية مطابقة لنفس المواهب الوراثية للشخص الذى وهبها ، ولو أن الفروق قد تدخل فيما بعد تعديلات على شخصية هذه « النسخة » أو نموها البدنى .

إن الاستنساخ قد يتيح للناس أن يروا أنفسهم وهم يولدون من جديد ، وأن يملأوا العالم بتوائم لأنفسهم . إن الاستنساخ يمكن أن يمدنا أيضا بأدلة تجريبية صلبة تعيننا على أن نحل ، مرة واحدة وإلى الأبد ، ذلك النزاع القديم حول « الطبيعة ضد الطبيعة » ، أو « الوراثة ضد البيئة » . إن حل هذه المشكلة من خلال تحديد الدور الذى يقوم به كل منها ، سوف يكون واحدا من العلامات المميزة فى التطور الفكرى للبشرية . إن مكتبات كاملة من التأملات والتخمينات الفلسفية سوف تتحول عندئذ وبضربة واحدة ، إلى أشياء غير ذات موضوع . إن الوصول إلى إجابة عن هذه السؤال سوف تفتح الطريق أمام التقدم الكيفى السريع لعلوم النفس ، وفلسفة الأخلاق ، وعديد غير ذلك من المجالات .

ولكن الاستنساخ قد يخلق أيضا للجنس البشرى تعقيدات لم يحلم بها إنسان من قبل . إنها — على سبيل المثال — فكرة جذابة حقا أن يعمد شخص مثل ألبيرت اينشتين إلى استنساخ صور من نفسه . ولكن ماذا عن شخص مثل

أدولف هتلر ؟ هل ستكون هناك قوانين تنظم وتضبط عملية الاستنساخ ؟؟
إن عالما مثل نوبل لوربيت جوشوا ليدربرج ، والذى يأخذ مسئوليته الاجتماعية بمنتهى الجدية ، يعتقد أنه من المرجح أن يكون أكثر الناس حرصا على استنساخ أنفسهم هم أكثر الأشخاص نرجسية . . ومن ثم فإن النسخ الناتجة منهم حرية بأن تكون أشخاصا نرجسيين . . .

وحتى لو كانت النرجسية مرضا ينتقل ثقافيا أكثر منه بيولوجيا ، فما زالت هناك صعوبات مربكة يمكن أن تترتب على عملية الاستنساخ . ومن ثم فإن ليدربرج يثير سؤالا حول ما إذا كانت عملية الاستنساخ البشرى فى حالة السماح بها ، حرية بأن « تصبح حرجة » . وطبقا لما قاله لى : « إننى استخدمت هذه هى العبارة « تصبح حرجة » قاصدا إلى معنى يكاد يكون مطابقا تماما للمعنى الذى يتضمنه نفس التساؤل الذى أثير حول القوى النووية . إنها فى اعتقادى سوف تصبح حرجة إذا ما كانت هناك فوائد إيجابية لجعلها كذلك . والأمر هنا يتعلق بما إذا كانت وسائل الاتصال ، وبنوع خاص فيما يتعلق بالخطوط التعليمية ، سترتفع كفايتها إلى نفس المستوى الموجود بين البنيات الوراثية المتطابقة أم لا . إن تماثل المعدن العصبى سييسر بالنسبة للنسخ المتطابقة ، انتقال الخبرة والمعرفة من جيل إلى الجيل الذى يليه » .

أما عن مدى الشوط الذى قطعته حتى الآن عملية الاستنساخ فيقول ليدربرج : « لقد أجريت بالفعل على حيوانات برمائية ، وربما يكون هناك من يجريها فى الوقت الحالى على الثدييات . ولن يدهشنى أن أعلم فى أى يوم منذ الآن بحدوثها . أما متى ستتوافر لدى شخص ما الشجاعة لتجربتها على الإنسان فليس لدى أى فكرة عن ذلك . ولكننى أستطيع أن أضع سلما زمنيا تبدأ درجاته من الصفر ، أى منذ هذه اللحظة ، وتنتهى خلال خمسة عشر عاما ، ليحدث ذلك عند أى درجة من درجات هذا السلم . أى خلال فترة خمسة عشر عاما » .

وخلال نفس هذه الأعوام الخمسة عشر ، سوف يعرف العلماء أيضا كيف تتكون وتنمو أعضاء الجسم المختلفة ، وسوف يبدأون بلا شك ، فى

تجربة وسائل مختلفة لإدخال تعديلات عليها . وفى هذا الشأن يقول ليدربرج أيضا : « إن أشياء مثل حجم المخ ، وأنواع معينة من قدراته الإحساسية ، سوف يصبح من المستطاع التحكم المباشر فى نموها وتطورها . . وأعتقد أن ذلك سيتحقق قريباً جداً » .

ومن المهم أن يدرك الناس أن ليدربرج ليس ، بأى حال ، هو المتخوف القلق الوحيد بين مجتمع العلماء . فالواقع أن العديد من زملائه يشاركونه فى مخاوفه . إن التساؤلات التى تثيرها البيولوجيا الجديدة حول المسائل الأخلاقية والمعنوية ، والسياسية ، تتزاحم على الذهن . من ذا الذى سيعيش ؟ ومن ذا الذى سيموت ، ما هو الإنسان ؟ من سوف يسيطر على البحوث فى هذه المجالات ؟ كيف ستطبق المكتشفات الجديدة ؟ أم لعله من الأفضل ألا نطلق هذه القوى المرعبة من عقالها فى حين أن الإنسان غير مجهز للقائها ؟ الواقع أن رأى العديد من أساطين العلماء فى العالم مجمع على أن الساعة تدق مقتربة بنا من لحظة الانفجار الذى يمكن أن نسميه « هيروشيما بيولوجية » .

تصور ، على سبيل المثال ، ما يمكن أن يتضمنه هذا الزحف البيولوجى بالنسبة لما يمكن أن نسميه « تكنولوجيا النسل » . إن الدكتور سعد الدين حافظ ، وهو بيولوجى يعمل بجامعة واشنطن ويتمتع باحترام دولى كبير ، قد أعلن بناء على بحوثه المذهلة على التناسل ، أنه فى ظرف عشر سنوات فقط أو خمسة عشر على الأكثر ، سيصبح فى مقدور أى امرأة أن تبتاع جنينا دقيقا مجمدا وتأخذه إلى طبيبها ليزرعه فى رحمها لتحمله تسعة أشهر ، ثم تضعه كما لو كانت هى نفسها التى علقت به . . إن مثل هذا الجنين قد يباع فى الواقع مكفولا بضمانات . إن الطفل الناتج سوف يكون خاليا من العيوب الوراثية ، وسيحاط المشترى مقدما بلون عينى الطفل ، وشعره ، وجنسه ، وبالمعلومات الخاصة عن احتمالات حجمه ، ونضجه ، ودرجة ذكائه .

والواقع أنه سيصبح فى المستطاع بعد فترة معينة الاستغناء عن رحم الأنثى بالمرة . سوف يصبح من الممكن أن ينشأ الطفل نطفة ، فعلقة ،

فضغة ، فجنينا مخلقا ، فطفلا كاملا ، خارج الجسم البشرى . إنها ليست سوى سنوات قليلة ويتم العمل الذى بدأه الدكتور دانيل بترونشى فى بولونيا وغيره من العلماء فى الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى ، والذى سيجعل من الممكن للنساء أن يكون لهن أطفال دون معاناة لمتاعب الحمل والولادة .

إن إمكانيات تطبيق مثل هذه المكتشفات تعيد إلينا ذكريات أحداث رواية « عالم شجاع جديد » . وهكذا فإن الدكتور حافظ – فى قفزة من قفزات خياله – يقترح إمكان الاستفادة بالبويضات البشرية الملقحة فى استعمار الكواكب الأخرى . فبدلا من أن نشحن أشخاصا بالغين إلى كوكب المريخ ، نستطيع أن نرسل قدر ما يملأ علبة حذاء من هذه الخلايا لننشئ منها رجالا ونساء قدر عدد سكان مدينة كاملة . . يقول الدكتور حافظ : « عندما نضع فى اعتبارنا تكاليف الوقود اللازم لحمل كل رطل عبر المسافة بين قاعدة الإطلاق والكوكب الذى تقصده سفينة الفضاء ، فإننا حريون بأن نتساءل : « لماذا نرسل رجالا ونساء مكتملى النمو على سفن الفضاء ؟ لماذا لا نرسل بدلا من ذلك أجنة دقيقة تحت رعاية بيولوجى ماهر : إننا نبذل كل ما نستطيع لاختزال حجم ووزن كل ما تضمه سفن الفضاء . فلم لا نفعل نفس الشئ بالنسبة للركاب ؟! » .

وعلى أى حال ، فقبل أن يحدث أى شئ من ذلك القبيل بالنسبة للفضاء الخارجى بزمن طويل ، ستقرع تأثيرات تكنولوجيا النسل الجديدة وجه الأرض ممزقة معتقداتنا التقليدية عن الجنس ، والأمومة ، والحب ، وتنشئة الأطفال ، والتعليم : إن مناقشات حامية الوطيس تجرى الآن داخل المعامل بين سحرة البيولوجيا حول مستقبل الأسرة : إن الاختيارات المعنوية والعاطفية التى سيتعين علينا أن نواجهها خلال العقود القادمة حرية بأن تذهل العقل وتربكه .

لقد ثار بالفعل نزاع حاد بين البيولوجيين حول المشكلات والمسائل الأخلاقية المتصلة بموضوع تحسين النسل . هل ينبغى أن نحاول تنشئة جنس أفضل ؟ فإن كان ذلك كذلك فما هو على وجه التحديد ذلك « الأفضل »

ومن الذى يقرر هذا . . ؟ مثل هذه التساؤلات ليست جديدة تماما ؛ ولكن التكنيكات التى توشك أن تكون متاحة فى هذا المجال هى التى تعطى هذه التساؤلات أبعادا جديدة تماما . إننا نستطيع الآن أن نتصور إعادة صنع الجنس البشرى ، لا كما « يربى » الفلاح قطيعه ويتعهده بصبر ودأب ، ولكن كما يستخدم الفنان مجموعة من الألوان الزاهية غير المألوفة فى تكوين الأشكال .

فى مكان يدعى وادى تربلسوم كريك خارج مدينة هازارد بولاية كينتوكى ، تعيش أسرة ظل أفرادها لعدة أجيال يتميزون بظاهرة غريبة هى لون بشرتهم الأزرق . وطبقا لما يراه الدكتور ماديسون كاوين ، من كلية الطب بجامعة كينتوكى ، والذى قام بدراسة وافية لهذه الأسرة وتعقب أصول هذه الظاهرة ، فإن الناس ذوى البشرة الزرقاء يبدون — بالنظر لاعتبارات أخرى — أناسا طبيعيين تماما . أما سبب لونهم الغريب فيرجع إلى حالة نادرة من نقص الإنزيمات ظل أفراد الأسرة يتوارثونها جيلا بعد جيل .

إننا بما يتوافر لدينا من معرفة سريعة التراكم عن علم الوراثة ، سوف نكون قادرين على تنشئة أجناس جديدة من بشر ذوى بشرة زرقاء — أو إن شئنا — فلتكن خضراء ، أو قرمزية ، أو برتقالية . فهل نحن حقا فى حاجة إلى عالم يتشابه كل سكانه فى لون بشرتهم ؟ إن كنا حقا فى حاجة إلى ذلك فستتوافر لدينا كل الوسائل اللازمة لتحقيقه . أم أننا على العكس من ذلك ، ينبغى أن نعمل من أجل تنوع فى ألوان البشرة أكثر مما هو موجود حاليا . . ؟ وماذا سيحدث بالنسبة لكل مفهوماتنا التقليدية عن الأجناس ؟ ولمعاييرنا عن الجمال الجسدى ؟ ولمفهومات التفوق والدونية ؟

إننا نهرول سراعا نحو الوقت الذى نصبح فيه قادرين على تنشئة أجناس متفوقة وأجناس مختلفة على حد سواء . . وهنا فإننا نكرر نفس السؤال الذى طرحه ج. جوردون فى مقال له بمجلة (فيوتشر) : « إننى

أتساءل ، ترى عندما نملك القدرة على تشكيل البشر حسبما نريد ، هل سنتجه إلى صنع بشر متساوين ؟ ؟ أم أننا سنختار أن نصنع التفرقة العنصرية صنعا ؟ إن من المحتمل أن تتكون أجناس المستقبل من : مجموعة فائقة تتولى التحكم فى عملية تشكيل البشر ذاتها ، وخدم بسطاء ، ورياضيين من نوع خاص للألعاب والمباريات ، وعلماء باحثين بمقاييس ذكاء ٢٠٠ درجة وأجسام ضئيلة . . . » . إننا سوف نملك القدرة على إنتاج أجناس من البله والعباقرة ؟

وإننا أيضاً سوف نملك القدرة على تنشئة أطفال ذوى قدرة فائقة على السمع و البصر . أو قدرة فائقة على اكتشاف أقل تغير فى الرائحة ، أو مهارات عضلية وموسيقية فائقة . . . إننا سوف نتمكن من صنع رجال يتمتعون بقوة جنسية خارقة ، ونساء يتمتعن بأنوثة غير عادية ، وعدد آخر لا يحصى من نوعيات البشر المشكلة وفق ما نريد .

إن المشكلات التى ستنجم عن ذلك فى النهاية ليست مشكلات علمية ، وإنما أخلاقية وسياسية . . . سوف يكون الاختيار وقاعدة الاختيار مشكلة حرجة . لقد تناول وليام تن ذات مرة ، مازحا ، موضوع معالجة الصفات الوراثية قائلا : « لو فرضنا ، آملين ، أن الذى سيتحكم فى اختبار أنساب الأجيال القادمة لن يكون دكتاتورا ، أو مجلس تخطيط مطلق السلطات ، أو جهازا متحكما . . فسيكون على الأبوين فى هذه الحالة أن يعهدوا بالمشكلة إلى أخصائى تخطيط الأنساب المجاور . .

« ويبدو لى أنه لابد من أن ستكون هناك مدارس متنافسة من مخططى الأنساب . . . فمدرسة العمليين ستحث الآباء على إنتاج أطفال ذوى مواصفات مناسبة للاحتياجات الحالية للمجتمع . ومدرسة المستقبليين ستقترح أطفالا مؤهلين للثقافة التى ستظهر بعد عشرين عاما ، أماالرومانسيون فسوف يصرون على تنشئة أطفال يتمتع كل واحد منهم بموهبة فذة واحدة على الأقل ، فى حين سينصح الطبيعيون بإنتاج أفراد ذوى صفات وراثية متوازنة . . . . وستصبح « مودات » الأجسام البشرية مثل « مودات »

الملابس ، تأتى « مودة » وتختفى « مودة » كلما اشتهر أحد مصمميها أو تضاءلت شهرة آخر » .

إن وراء مثل هذا الكلام الساخر ، الكثير من الأمور الجادة التى يزيد من جديتها تزايد إمكانيات تحققها فى الواقع — إن بعض هـذه الإمكانيات من الغرابة بحيث تبدو لنـا وكأنها بعض لوحات هيرونيموس بوس وقد بعثت فيها الحياة فجأة . لقد تحدثنا من قبل عن فكرة تنشئة رجال لهم خياشيم ، أو زرع هذه الخياشيم فى أجسامهم ، لـكى يستطيعوا العيش فى بيئة ما تحت المـاء .

وفى لقاء تم فى لندن لمشاهير علماء البيولوجيا فى العـالم ، أسهب ح.ب.س. هالدين فى الحديث عن إمكانية خلق أنماط من البشر مهيأة لاستكشاف الفضاء ، وكان من بين ما قاله : « إن أبرز الاختلافات فى فى البيئات الفوق أرضية هى اختلافات فى الجاذبية أو الحرارة ، والضغط الجوى ، وتركيب الهواء والإشعاع . . . ومن الواضح الجلى أن الجيبون مهيأ أكثر من الإنسان للعيش فى مجال أقل جاذبية كسفينة فضاء ، أو أحد الكويكبات ، أو ربما حتى القمر . . وربما كان حيوان البلاتيرين ذو الذيل القابض أكثر حتى من الجيبون قدرة على ذلك . إن تطعيم الجينات المورثة قد يجعل من الممكن إكساب العنصر البشرى مثل هذه الصفات » .

وبينما كرس العلماء المشتركون فى هذا اللقاء الكثير من اهتمامهم لمناقشة الآثار المعنوية والمخاطر التى يمكن أن تنجم عن الثورة البيولوجية ، فإن أحداً منهم لم يتحد اقتراح هالدين بأننا سنصنع يوما من الأيام رجالا ذوى ذيول إذا كانت بنا حاجة إلى مثل هؤلاء الرجال . . . والواقع أن ليدربرج قد أبدى فقط ملاحظة بأننا قد نصل إلى نفس الغرض بوسائل أيسر . . فقد أعلن : « أننا سوف نتجه إلى تعديل صفات الكائن البشرى تجريبيا من خلال تغييرات فسيولوجية ووراثية ، وباستعاضة بعض أجزائه بالآلات ، فإذا ما احتجنا إلى رجل بلا ساقين فليس هناك ما يوجب تنشئة

مثل هذا الرجل إنشاء ، بل يكفى أن نبتر ساقيه ، أما إذا أردنا رجلا بذيل فسنجد وسيلة أو أخرى لتطعيمه بمثل هذا الذيل » .

وفى لقاء آخر للعلماء وضع العالم البيوفيزيائى — الدكتور روبرت سينشيمر — التحدى بصورة أخرى . لقد قال :

« كيف ستختارون شكل التدخل فى تكوين الطبيعة القديم للإنسان ؟ هل تحبون أن تتحكموا فى جنس مواليدكم . . ؟ سيكون لكم ذلك حسبما تشاؤون . . هل تفضلون أن يكون طول أبنائكم ستاً أو سبعاً أو ثمانى أقدام ؟ ما الذى يثير قلقكم ؟ هل هى أمراض الحساسية أم السمنة ؟ أم أوجاع المفاصل ؟ كل هذا سيكون مقدورا عليه . . كما سيكون هناك علاج وراثى للسرطان ومرضى السكر وغيرهما من الأمراض المستعصية . وسيتيسر كل ذلك بجرعة مناسبة من جزئ (دن أ) المناسب . كما سيكون من السهل اليسير التغلب على جميع الأمراض الميكروبية والفيروسية . وحتى الأنماط القديمة للنمو والنضج والشيخوخة سوف تكون تحت سيطرتنا نخططها ونتحكم فيها كيف نشاء . . إننا لا نعلم أن هناك حدودا حقيقية للعمر . فكم تحب أن تعيش ؟ . .

ولم يكن المستمعون إلى الدكتور سينشيمر قد أخطأوا السمع . فقد سمعوه يتساءل : « هل تبدو لكم هذه الأفكار وكأنها من تصورات عقار الهلوسة أو كصورة تعكسها مرآة مشوهة ؟ الواقع أن أحداً لم يتجاوز فى تصوراته حدود ما نعلم الآن بالفعل عن الإمكانيات المتاحة لتحقيق هذه التصورات . . من المحتمل ألا يكون تحققها على نفس الصور التى نتوقعها ، ولكنها ممكنة ، ومن الممكن أن تصبح حقائق واقعة وبأقرب مما نتوقع » .

بل إن كل الدلائل تشير إلى أن « تأكيد » تحققها أقوى من مجرد « احتمال » هذا التحقق . . فبالرغم من كل ما يثار من مسائل أخلاقية شائكة حول ما إذا كان ينبغى أن يحدث ذلك أو لا يحدث ؛ فإن الفضول

العلمى يمثل فى حد ذاته واحداً من أكبر القوى الدافعة فى مجتمعنا . . وكما يقول الدكتور رولين .د. هوتشكيس من معهد روكفلر : « إن كثيرا منا يحسون بنفور غريزى مما يمكن أن يترتب على التدخل فى النظم الدقيقة التوازن ، البعيدة المدى ، التى تجعل من الفرك ما هو عليه حاليا . ومع ذلك فإنى على يقين من حدوث هذا التدخل . . أو محاولته على الأقل . وسيمهد الطريق أمام هذا التدخل مزيج معقد من الرغبة فى الربح الخاص والجهل » . وفى اعتقادى أنه كان ينبغى له أن يضيف إلى هذه القائمة ما هو أسوأ . . وأعنى بذلك الصراع السياسى واللامبالاة . وهكذا نجد الدكتور أ. نيفاكش رئيس معمل بحوث معهد التطوير البيولوجى بأكاديمية العلوم بالاتحاد السوفييتى يتنبأ فى برود مخيف بأن العالم سوف يشهد عما قريب سباقا سلاليا مماثلا لسباق التسلح . ويبنى الدكتور نيفاكش وجهة نظره على اعتقاده بأن القوى الرأسمالية منشغلة حاليا فى : « الصراع على طلب العقول » ، وحتى نستعيض ما تفقده فى عملية نزح العقول — سنجد : « حكومة رجعية » أو أخرى نفسها « مضطرة » إلى استخدام وسائل تصنيع السلالات لتزيد من إنتاجها من الأفراد العباقرة والموهوبين . . وحيث إن هذا سيحدث « بصرف النظر عن نواياهم » فإنه من المحتم أن ينشأ سباق سلالى دولى . وحيث إن الأمر كذلك فإنه يرى أن يكون الاتحاد السوفييتى جاهزا لمواجهة هذه الحتمية .

وردا على النقد الذى وجهه إليه الفيلسوف السوفييتى أ. بتروبافلوفسكى— بسبب تحمسه للاشتراك فى مثل هذا السباق — أزاح نيفاكش جانبا كل الاحتمالات المرعبة التى يمكن أن تنجم عن الإسراع بوضع البيولوجيا الجديدة موضع التطبيق ، واكتفى بالرد بأن التقدم العلمى لا يمكن ولا ينبغى أن يقف شئ فى طريقه . . وإذا كان منطق نيفاكش السياسى قد ترك شيئا يمكن أن يكون مرغوبا ، فإن لجوءه إلى أهواء الحرب الباردة كمبرر للعبث بالصفات الوراثية شئ مثير حقا .

وباختصار فإنه من الممكن القول ، بأنه ما لم تتخذ إجراءات لتلافى

ذلك فإن أى شئ « يمكن » أن يحدث . فإن شخصا ما ، فى مكان ما ، « سوف » يعمله . إن طبيعة ما يمكن وما سوف يحدث ، تفوق كل ما هيء للإنسان نفسيا ومعنويا للتعايش معه .

اعضــــاء الجسم الزوالية

إننا نصر بعناد على رفض مثل هذه الحقائق . إننا نتحاشاها برفضنا العنيد للاعتراف بسرعة التغيير . إن إرجاء المستقبل يجعلنا نحس بأننا فى حال أفضل . وحتى أولئك الأقرب إلى ملمس الحد القاطع للبحث العلمى نادرا ما يصدقون . حتى أولئك يهونون من قدر السرعة التى تندفع بها أمواج المستقبل لتتكسر على شواطئنا . وهكذا نجد الدكتور ريتشارد ج . كليفلاند يتحدث فى سنة ١٩٦٧ أمام مؤتمر لأخصائيي نقل الأعضاء البشرية معلنا أن عملية نقل قلب الإنسان سوف تحدث « خلال خمس سنوات » ، ومع ذلك فقبل انتهاء ذلك العام ، نجح الدكتور كريستيان برنارد فى عملية نقل قلب إلى تاجر بقالة فى الخامسة والخمسين اسمه لويس واشكانسكى ، ثم تلاحقت بعد ذلك عمليات نقـــل القلب لتدوى فى وعى العالم كسلسلة متعاقبة من انفجارات الألعاب النارية ، وفى نفس الوقت أخذت تتزايد نسب النجاح فى عمليات نقل الكلية . كما أعلن عن إجراء عمليــــات ناجحة لنقل الكبد والبنكرياس والمبيض ! !

مثل هذا التقدم السريع والمتلاحق فى المجالات الطبية ينبغى أن يحدث تغييرات عميقة فى أساليب تفكيرنا . . وأيضا فى أسلوب عنايتنا بالمرضى . إن مثل هذا التقدم يطرح العديد من القضايا الفلسفية ، والأخلاقية ، والقانونية المثيرة . . فمثلا ما هو الموت ؟

هل يحدث الموت عندما يتوقف القلب عن النبض كما كنا نعتقد دائما ؟ أم أنه يحدث عندما يتوقف المخ عن أداء وظائفه ؟ لقد أصبحت ظاهرة مألوفة وكثيرة التكرار فى المستشفيات تلك الحالات التى تنجح فيها وسائل العلاج الحديثة فى الحفاظ على المريض حيا — ولكن مقضيا عليه بحالة من الغيبوبة التامة الدائمة وكأنه مجرد نبات أخضر لا يحس ولا يشعر ! !

فإلى أى حد يمكن أن تسمح المعايير الأخلاقية بالحكم على مثل هذا الشخص بالموت للحصول على عضو صحيح من أعضائه لإنقاذ حياة شخص آخر أكثر منه قابلية للشفاء ؟ ؟

ونظرا لافتقارنا إلى أى خطوط استرشادية ، فإننا نتخبط فى تناولنا للقضايا المعنوية والقانونية المثارة حول هذا الموضوع . إن الشائعات الرهيبة تجوس خلال الدوائر الطبية . إن جريدتى : « النيويورك تايمز » الأمريكية « والكومسومولسكايا برافدا » السوفيتية قد أشارتا إلى احتمال « قيام عصابات قتل خاصة فى المستقبل تتولى توريد الأعضاء الصحيحة لجراحى السوق السوداء ، الذين لا يرغب مرضاهم فى الانتظار حتى توفر لهم المصادر الطبيعية ما يحتاجون إليه من قلوب وأكباد وكلى » . وفى واشنطن بدأت الأكاديمية الوطنية للعلوم ، تعززها مؤسسة رسل سيج ، فى دراسة قضايا السياسة الاجتماعية التى يفجرها التقدم فى علوم الحياة . وفى ستانفورد نظمت مؤسسة رسل سيج أيضا حلقة دراسية لمناقشة موضوعات إنشاء بنوك للأعضاء البشرية ، واقتصاديات سوق هذه الأعضاء . وأى دلائل قد تكون متوافرة على وجود تفرقة عنصرية أو طبقية فى إقامتها لمن يحتاجون إليها .

إن مسألة نهش الأجساد أو الجثث للحصول على الأعضاء الصحيحة منها بما تثيره من تقزز ، سوف تساعد على الإسراع من خطى التغيير بما ستفرضه من حث للجهود المبذولة والبحوث الجارية فى مجال تعويض الأعضاء الطبيعية بأعضاء صناعية من اللدائن ، أو بأجهزة إليكترونية تقوم بوظائف القلب ، أو الكبد ، أو الطحال . (وفيما بعد قد لا يصبح هناك ضرورة لذلك عندما نتعلم كيف نعيد توليد الأعضاء التالفة أو المبتورة باستنبات بدائل لها ، كما تستنبت العظاءة « السحلية » ذيلها) .

ولسوف يسرع من مسيرة الاتجاه نحو صنع الأعضاء البديلة للجسم البشرى تزايد حدة الطلب على هذه الأعضاء . يقول البروفيسور ليدربرج : « لم يعد بيننا وبين إنتاج قلب صناعى اقتصادى سوى عدد قليل من الإخفاقات الزائلة » . ويعتقد البروفيسور ر . م . كنيدى . من مجموعة الهندسة

البيولوجية بجامعة ستراثكلايد بجلاسجو : « إنه فى سنة ١٩٨٤ قد تصبح عمليات استبدال الأنسجة والأعضاء عمليات عادية وشائعة » . والواقع أن هذا التاريخ يتسم بالتحفظ فيما يتصل ببعض الأعضاء . فهناك بالفعل أكثر من ١٣,٠٠٠ مريض بالقلب فى الولايات المتحدة – من بينهم أحد قضاة المحكمة العليا – لا يزالون أحياء بفضل « منظم سرعة » مثبت فى التجويف الصدرى ، وهو عبارة عن أداة دقيقة ترسل نبضات كهربائية إلى القلب لتنشيطه(*) .

وهناك عشرة آلاف آخرون يحملون داخل قلوبهم صمامات صناعية مصنوعة من وشائج الداكرون . وأيضا ، لأجهزة السمع المزروعة ، والكلى الصناعية ، والشرايين الصناعية ، ومفصلات الإلية ، والرئات الصناعية ، ومحاجر العين ، وغيرها الكثير من الأعضاء البديلة والمساعدة قد بلغ مراحل مختلفة من التطور المبكر . وقبل أن تمر بضع عشرات من السنين ، سوف يصبح فى وسعنا أن نزرع فى أجسامنا أجهزة إحساس فى حجم « الإسبرينة » لتراقب ضغط الدم ، والنبض ، والتنفس ، وغيرها من وظائف الجسم ، وأجهزة إرسال صغيرة لتعطى إشارة عندما يكون هناك شئ غير عادى . وسوف يستقبل هذه الإشارة مركز كومبيوتر ضخم للتشخيص من تلك المراكز التى سيرتكز عليها طب المستقبل ، وسوف يحمل البعض منا أيضا قرصا دقيقا من البلاتين ، و « منشطا » فى حجم قطعة النقود الصغيرة ملصقا بالعمود الفقرى . وبإدارة « راديو » ذى حجم متناه

(*) منذ وقت قريب ، وفى أحد المستشفيات الكبرى بوسط الغرب ، دخل إلى حجرة الطوارئ مريض انتابته « زغطة » عنيفة – ستين مرة فى الدقيقة ، ثم ما لبث أن ظهر أن المريض كان من أوائل من حملوا « منظم السرعة » داخل صدورهم . وأدرك نزيل سريع البديهة من نزلاء المستشفى حقيقة ما حدث لهذا المريض : إن أحد أسلاك منظم السرعة بدلا من تنشيطه للقلب ، قد انفلت والتصق بالحجاب الحاجز ، وكانت نبضاته الكهربائية هى التى تسببت فى « الزغطة » . وتصرف النزيل الذكى بسرعة ، فغرس إبرة فى صدر المريض بالقرب من منظم السرعة ثم مد سلكا أرضيا من الإبرة إلى إحدى أنابيب المياه بالمستشفى . وهنا توقفت « الزغطة » ، ومن ثم أتيحت للأطباء فرصة لإجراء العملية اللازمة لإعادة السلك المنظم إلى مكانه . هذه هى عينة من طب المستقبل .

فى الصغر سنثير المنشط ونستطيع بذلك أن نقتل أى ألم . إن التجارب المبدئية على مثل أجهزة التحكم فى الألم هذه تجرى بالفعل حاليا فى معهد كيس للتكنولوجيا . كما يستخدم بعض مرضى القلب فى الوقت الحاضر أنواعا من أجهزة تقضى على الألم بمجرد الضغط على أزرارها .

مثل هذه التطورات سوف تؤدى إلى قيام صناعات بيوهندسية ضخمة ، وأعداد هائلة من محطات إصلاح الأجهزة الطبية الإليكترونية ، ومهن فنية جديدة ، كما ستؤدى بالضرورة إلى إعادة بناء الأنظمة الصحية بأكملها على أسس جديدة . إنها سوف تغير من توقعات الأعمار . وتقلب جداول شركات التأمين رأسا على عقب . وتحدث تحولا هاما فى الإطلالة الإنسانية بوجه عام . سوف يتضاءل خوف الفرد من الجراحة ، ويصبح زرع الأجزاء والأجهزة المساعدة فى الحجم عملا روتينيا . فمن خلال تطبيق مبدأ التضمينية — أى الحفاظ على الكل بالاستبدال المنهجى للمكونات الجزئية — قد نستطيع أن نضيف عقدين أو ثلاثة عقود إلى متوسط أعمار الناس . ومع ذلك فما لم نستطع أن نحقق معرفة بالمخ البشرى أكثر تقدما مما هو متوافر لدينا فى الوقت الحالى ، فإن كل ذلك يمكن أن يقودنا إلى واحد من أكثر المواقف سخرية فى التاريخ . إن السير چورج بيكرينج ريجيس أستاذ الطب بجامعة أوكسفورد ، قد حذر من : « أننا مالم ننتبه جيدا ، فإن أولئك المصابين بعته الشيخوخة ستزيد باستمرار نسبتهم بين سكان الأرض ، الأمر الذى أرى فيه احتمالا مزعجا للغاية » ! ! مثل هذه الاحتمالات المزعجة هى التى ستدفعنا دون شك إلى سرعة القيام بمزيد من البحوث على المخ — والتى ستعمل بدورها على تحقيق دفع أكبر لعجلة التغيير فى المجتمع .

إننا نناضل من أجل أن نصنع صمامات للقلب ، وأوردة مقلدة لتلك التى ستحل محلها . أى إننا نبحث عن أشياء بديلة مساوية فى قدرتها الوظيفية للأعضاء والأجزاء التالفة . ولكننا حين نملك القدرة على حل المشكلات الأساسية فإننا سوف لا نكتفى ، مثلا ، بمجرد وضع شريان أورطى من البلاستيك محل الأورطى الأصلى عندما يعجز الأخير عن أداء

وظيفته . ولكننا أيضا سوف نركب أجزاء ذات تصميم خاص أكثر كفاية من الأجزاء الأصلية ، ثم سنتجه إلى تركيب أجزاء تمد مستخدمها بقدرات لم يكن يملكها من قبل . وتماما ، كما تعد الهندسة الوراثية بإنتاج « أشخاص متفوقين » ، فإن تكنولوجيا الأعضاء تطرح إمكانية إعداد أبطال عدو بقلوب ورئات أقوى ، ونحاتين بأداة عصبية تزيد من حساسيتهم بنسيج موضوعاتهم الفنية ، وعشاق بأدوات عصبية تضاعف من قدراتهم الجنسية . وباختصار ، فإننا لن نكتفى بمجرد العمل على إنقاذ الحياة ، ولكن من أجل تنشيطها أيضا — من أجل تحقيق إمكانية واكتساب قدرات ، وأمزجة ، وحالات وانتشاءات ليست فى متناولنا حاليا .

وتحت ظل مثل هذه الظروف ، ماذا سيحدث لمفهومنا القديم قدم الزمن عند « إنسانيتنا » ؟ كيف سيكون شعورنا إزاء كوننا مزيجا من البروتوبلازم والترانزستور؟ ما هى — على وجه التحديد — الإمكانيات التى سوف يفتحها ذلك أمامنا؟ وأى حدود سوف يضعها على العمل واللهو ، والجنس ، والاستجابات الفكرية والجمالية ؟ ؟ ماذا سيحدث للعقل عندما يتغير الجسم ؟ مثل هذه الأسئلة لم يعد من الممكن إرجاؤها ، فإن الإدماجات بين الإنسان والآلة والتى أطلق عليها اسم « السيبورجات Cyborgs » — أصبحت أقرب مما يتصور الكثير من الناس . .

السيبورجات بين ظهرانينا

إن الرجل الذى يحمل اليوم منظما للسرعة داخل تجويف صدره ، أو أورطيا من البلاستيك داخل قلبه ، ما زال هو نفس الرجل الذى نعرفه ، إن قطعة الجماد التى يحملها داخل جسمه ما زالت قليلة الأهمية نسبيا فيما يتصل بشخصيته ، ووعيه . ولكن عندما تتزايد حصة الآليات من جسمه ، فماذا سيحدث آنذاك لإحساسه بذاته ، ولخبرته الداخلية ؟ إننا لو افترضنا أن المخ هو مركز الوعى والذكاء ، وإنه ليس لأى جزء آخر من الجسم تأثيرات تذكر فى الشخصية أو الذات ، فإنه يمكن إذن أن نسلم بإمكانية وجود مخ بلا جسم ، مخ بلا أذرع أو سيقان ، أو حبل

شوكى ، أو غيرها من أجهزة الجسم . وأن يكون هذا المخ وحده بمثابة الذات والشخصية ووعاء الوعى . كما يصبح من الممكن أيضا – بناء على هذا المفهوم – أن نربط هذا المخ بمجموعة كاملة من الأجهزة الصناعية للإحساس والإدراك والتأثير ، وأن نسمى مثل تلك الكتلة المتشابكة من الأسلاك والبلاستيك كائنا بشريا .

قد يكون فى مثل هذا الكلام ما يحاكى تخمينات القرون الوسطى عن عدد الملائكة التى تستطيع أن تدور على رأس دبوس ، ومع ذلك فإن الخطوات الأولى نحو تشكيل مثل هذا التركيب الإنسانى – الآلى المتنافر قد اتخذت بالفعل ، وليس من جانب عالم فرد مجنون ، ولكن بواسطة آلاف من أمهر المهندسين ، والرياضيين ، والبيولوجيين ، والجراحين ، والكيميائيين ، والأخصائيين العصبيين ، وخبراء الاتصال .

إن سلاحف « الدكتور و . ج . والتر ، هى فى الواقع آليات تتصرف وكأنها مخلوقات مكيفة سيكولوجيا . لقد كانت هذه السلاحف بمثابة أنواع مبكرة من سلالة نامية من الربوطات (المخلوقات الآلية) تمتد من « المدرك » الذى يستطيع أن يتعلم إلى أحدث هذه الأنواع « الجوال » ، وهو يستطيع أن يستكشف مساحة ما ، وأن يختزن فى ذاكرته « صورة » لتضاريسها ومعالمها ، بل وأن يدخل فى عمليات معينة قريبة فى بعض حدودها على الأقل من : « التخمينات التأملية » و « الخيال » . ولقد أظهرت التجارب التى أجراها روس أشبى ، وه . د . بلوك ، وفرانك روزينبلات وغيرهم أن هذه الآليات تستطيع أن تتعلم من أخطائها ، وأن تحسن من أدائها ، وأنها فى حدود أنواع معينة من التعلم تتفوق على الدارسين من البشر . ويقول بلوك ، أستاذ الرياضيات التطبيقية بجامعة كورنل : « لا أعتقد أن هناك مهمة ما لا تستطيع الآلة – من حيث المبدأ – أن تؤديها . فإذا كنت تستطيع تحديد مهمة ما ، وكان فى استطاعة الإنسان أن يؤديها ، فإن الآلة أيضا تستطيع ، نظريا على الأقل ، أن تفعل . ولكن ، ليس العكس بصحيح » . إن الذكاء والقدرة الخلاقة لم يعودا فيما يظهر حكرا خالصا للإنسان .

وبرغم النكسات والصعوبات ، فإن بناة المخلوقات الآلية يمضون قدما إلى الأمام . ومنـــذ عهد قريب أتيح لى أن أشارك فى ضحكة جماعية على حساب واحد من أبرز ناقدى بناة المخلوقات الآلية ، وهو أخصائى كومبيوتر سابق بمؤسسة راند يدعى هيوبرت ل . دريفوس . لقد كتب دريفوس — فى إصرار على وجهة نظره فى أن الكومبيوتر لن يرقى مطلقا إلى مستوى الذكاء الإنسانى — مقالا مطولا طافحا بعبارات الاحتقـــار والنقد اللاذع ، لأولئك الذين لا يتفقون معه فى وجهة نظره . وكان من ضمن ما أعلنه : « إن أى برنامج شطرنج للكومبيـــوتر لا يستطيع أن يلعب مباراة شطرنج حتى من مستوى الهواء » . وبدا واضحا من كلامه أن ذلك لن يحدث مطلقا . ولكن قبل أن يمضى عامان على هذا الكلام ، وضع طالب حديث التخرج برنامج شطرنج للكومبيوتر ، وتحدى دريفوس إلى مباراة ، وكم شعر الباحثون فى « الذكاء المصنوع » بالارتيـــاح وهم يشهدون اكتساح الكومبيوتر لدريفوس فى المباراة ! !

وفى ميدان آخر مختلف تماما ، حقق علم المخلوقات الآلية نجاحا كبيرا . فقد استطاع الفنيون فى مدينة العجائب التى أسسها والت ديزنى باسم « ديزنى لاند » أن يصنعوا كائنات تدار بالكومبيوتر شديدة الشبه بالإنسان الحى . وتستطيع هذه الكائنات أن تحرك أذرعها وسيقانها ، وأن تعيش وتبتسم ، وأن تتظاهر بالخجل والخوف والمرح ، وكثير غير ذلك من المشاعر . وهذه المخلوقات مصنوعة من أنواع شديدة النقاء من البلاستيك ، لدرجة أن أحد مشاهديها قد وصفها بأنها : « تفعل كل شئ فيما عدا أنها لا تنزف دما » . وهذه المخلوقات تعاكس الفتيات ، وتعزف الموسيقى ، وتطلق المسدسات ، وتحاكى حركات الإنسان ، لدرجة تجعل المشاهدين يخافونها ويجفلون منها ، وكأنهم يتعاملون مع كائنات بشرية حقيقية ! ! وقد تبدو الأغراض التى صنعت من أجلها هذه المخلوقات أغراضا تافهة ، ولكن ذلك لا ينفى حقيقة أنها صنعت على أساس من تكنولوجيا عالية التقدم شديدة التعقيد . إنها تعتمد أساسا على المعرفة المتحصلة من برنامج الفضاء — وهذه المعـــرفة تتوالى بسرعة هائلة .

لست أرى أن هناك سببا معقولا يحول ، من حيث المبدأ ، دون الانطلاق من نقطة هذه المخلوقات الآلية المبتذلة نحو بناء أنماط أخرى قادرة على سلوك مختلف للغاية ، ومتنوع أيضا . وقادرة على الوقوع فى « الخط الإنسانى » واختيارات الإنسان الاعتباطية . وباختصار ، أن نجعلها من الناحية السلوكية غير قابلة للتميز من الإنسان إلا عن طريق أدق الاختبارات وأشدها تعقيدا . وحينئذ سوف نواجه تجارب إنسانية جديدة ومثيرة ، كأن نحاول مثلا أن نتأكد مما إذا كانت تلك الجالسة خلف شباك الحجز بمكتب الطيران وهى تبتسم فى ثقة ، فتاة جميلة حقا ، أم مخلوقا آليا مصنوعا بدقة من البلاستيك والأسلاك .* والاحتمال قائم بالطبع أن تكون مزيجا منهما معا . إن الاندفاع نحو صنع نمط من الكائنات الإنسانية – الآلية يضاعف من قوة تزايد براعتنا فى تحقيق الاتصال بين الإنسان والآلة . إن كثيرا من الأعمال العلمية التى أعلن عنها قد كرس لتيسير الاتصال بين الإنسان والكومبيوتر . ولكن إلى جانب ذلك ، فإن عديدا من العلماء السوفييت والأمريكيين قد أجروا تجارب على زرع أجهزة إحساس خاصة لالتقاط الإشارات من أطراف الأعصاب عند أصل الطرف المبتور ، ثم تضخيم هذه الإشارات واستخدامها لتحريك الطرف الصناعى الذى يتحول فى هذه الحالة إلى آلة حساسة تعمل من خلال الاستجابة المباشرة للجهاز العصبى للإنسان الذى لن يحتاج عندئذ إلى « إعمال الفكر » فى أنه كيف سيحرك طرفه الصناعى لأداء الحركة المطلوبة ، إذ سيتلقى هذا الطرف الأوامر مباشرة من الجهاز العصبى ، حتى أوامر

---

* هذا الموضوع يثير عدداً من الأسئلة التى يمتزج فيها الجد بالمزاح حول العلاقات بين الإنسان والآلات ، بما فيها العلاقات العاطفية وحتى الجنسية . إن البروفيسور بلوك من جامعة كورنل يخمن أن العلاقات الجنسية التى ستنشأ بين الإنسان والآلة ليست بعيدة كما نتصور . ثم يشير إلى أن الرجال غالبا ما تتربى لديهم علاقات عاطفية بالماكينات التى يستخدمونها ويرى أننا سوف نضطر إلى الاهتمام بالمشكلات « الأخلاقية » التى ستثيرها معالجتنا « لتلك الأشياء الميكانيكية التى نحبها ونهواها » ولقد ظهر بحث جاد حول هذه المسائل كتبه رونالد يوتشيتى وظهر فى « الجريدة البريطانية للفلسفة والعلوم » العدد ١٨ (١٩٦٧) ص ٣٩ – ٥١ .

الحركة اللاإرادية سيكون في قدرته أن يتلقاها من الجهاز العصبي . إن استجابة هذه الأطراف الآلية ستكون أتوماتيكية ، تماما كما تفعل يد الإنسان أو عينه ، أو رجله .

في كتاب « رحلة جوية إلى آراس » كتب أنطون دى سانت أكسبيرى — الروائى والشاعر ورائد الطيران — يصف انطباعاته وهو مثبت فى مقعد طائرة مقاتلة فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، يقول : « كل هذا التعقيد من أنابيب الأوكسجين . وأجهزة التدفئة ، وأنابيب الكلام الممتدة بين جميع أفراد الطاقم . وهذا القناع الذى أتنفس من خلاله . إننى موصول بالطائرة بواسطة أنبوب من المطاط لا غنى عنه ، تماما كالحبل السرى الذى يصل الجنين بأمه . لقد أضيفت إلى كيانى أعضاء جديدة أحس كأنها تحول بينى وبين قلبى ...» لقد مضينا فى الواقع بعيدا جدا خلال الأعوام التى انقضت على التجربة التى يصفها الكاتب . إن بيولوجيا الفضاء تغذ السير نحو اليوم الذى سيصبح فيه رائد الفضاء ليس مجرد إنسان مثبت داخل كبسولته ، ولكن يكون جزءا منها بكل ما فى العبارة من معنى .

وأحد الأهداف المتوخاة هو أن تكون سفينة الفضاء نفسها عالما مكتفيا بذاته ، يوفر لسكانه الطعام مما ينبت فيه من طحالب ، ويسترد الماء من مخلفات الأجسام ، ويتكرر تجديد هوائه بتنقيته من النشادر التى تتسرب إليه من البول .. إلى آخره . وفى هذا العالم المغلق تماما المعتمد كليا على ذاته فى تجديد حياته يصبح الإنسان جزءاً لا يتجزأ من عملية ميكروبيئية مستمرة تدور فى الفضاء اللانهائى . لقد كتب تيودور جوردون مؤلف كتاب « المستقبل » — وهو نفسه من مهندسى الفضاء البارزين يقول : « ربما كان من الأيسر توفير أسباب الحياة لرواد الفضاء فى شكل ماكينات موصولة بهم . فمن الممكن مثلا تغذيته بغذاء سائل تستمده أوردته مباشرة من صهريج منعزل فى موضع ما من السفينة . وربما أمكن استخلاص الماء من فضلات الجسم السائلة مباشرة بواسطة نوع جديد من الكلية الصناعية تبنى فى موضع آخر من السفينة . وربما تم نوم رائد الفضاء

بواسطة الحث الإلكترونى » . وهكذا تصبح وظائف الجسم ، واحدة إثر أخرى ، فى كبسولة الفضاء ، جزءا من وظائف الماكينة متشابكة معها ، ومعتمدة عليها .

وليس من المحتم أن يكون الفضاء الخارجى هو المجال الذى ستوجد فيه أبعد امتدادات هذا العمل . بل قد يصبح جزءاً من الحياة اليومية على سطح كوكبنا الأرضى . والعمل الذى نعنيه هنا هو الاتصال المباشر بين المخ البشرى – معزولا عن البنى الجثمانية المساعدة – وبين الكومبيوتر . والواقع أن الأجزاء البيولوجية التى ستدخل فى صناعة كمبيوتر المستقبل قد تكون أمخاخا بشرية مكتلة . إن إمكانية تنمية ذكاء الإنسان (والآلة أيضا) عن طريق الربط العضوى بينهما تفتح آفاقا واسعة من الاحتمالات المثيرة ، والمثيرة جدا ، لدرجة أننا نجد عالما فى مكانة الدكتور ر.م.بيدج مدير معهد بحوث الأسطول فى واشنطن يناقش علنا إمكان تنفيذ نظام تنتقل فيه الأفكار البشرية أوتوماتيكيا إلى وحدات التخزين فى الكومبيوتر لتشكل قاعدة صنع الآلة للقراءات . لقد سئل المشتركون فى دراسة أجرتها مؤسسات راند منذ سنوات عديدة عما إذا كان من الممكن حدوث ذلك ، وتراوحت الإجابات بين إمكانية حدوثه سنة ١٩٩٠ ، واستحالة حدوثه «مطلقا» . ولكن أوسط التواريخ التى افترضت كان سنة ٢٠٢٠ – أى خلال عمر الجيل المعاصر من المراهقين .

وفى نفس الوقت تسهم بحوث من مصادر لا حصر لها فى العمل من أجل هدف صنع الكائنات البشرية – الآلية . وفى واحدة من أكثر التجارب التى عرفت إثارة وترويعا ، استطاع البروفيسور روبرت هوايت رئيس قسم جراحة الأعصاب بمستشفى متروبوليتان العام بمدينة كليفلاند أن يقدم الدليل على إمكانية فصل المخ عن الجسم والاحتفاظ به حيا بعد « موت » باقى أعضاء الجسم . وفى مقال رائع عن هذه التجربة ، تصف لنا أوريانا فالاتشى كيف انتزع فريق من جراحى الأعصاب مخ قرد من نوع

الرص الهندى ، ثم وصلوا الشرايين السباتية للمخ بقرد آخر ، وظل دم هذا القرد الآخر يتدفق إلى المخ المفصول ليحفظه حيا .

لقد قال أحد أعضاء الفريق الذى أجرى التجربة — وهو الدكتور ليو ماسوبوست أخصائى الفسيولوجيا العصبية : « إن المخ يكون أنشط إلى حد كبير عندما يكون مخاً بلا جسم .... لا شك فى هذا . بل إننى أظن أنه حتى بدون حواس يستطيع أن يفكر بسرعة أكبر . . أما أى نوع من التفكير فهذا مالا أعلمه . وأغلب الظن أنه فى المقام الأول عبارة عن ذاكرة ، أى مستودع للمعلومات التى اختزنت عندما كان له جسد . وهو لم يعد يستطيع أن يضيف إليها شيئا لأنه لم يعد يملك المصدر الذى يغذى الذاكرة بالمعلومات وهو التجربة . ومع ذلك فإن هذا يعتبر فى حد ذاته تجربة جديدة » .

واستمر المخ حياً لمدة خمس ساعات . وكان من الممكن أن يستمر أكثر فيما لو احتاج البحث إلى ذلك . وقد نجح البروفيسور هوايت فى الاحتفاظ بأمخاخ أخرى حية لعدة أيام ، مستخدماً الآلات بدلا من القرود الحية فى إمداد الأمخاخ بالدم اللازم . لقد قال البروفيسور هوايت للآنسة فالاتشى كاتبة المقال : « لا أعتقد أننا قد وصلنا إلى المرحلة التى نستطيع فيها تحويل البشر إلى قطيع من المخلوقات الآلية ... ومع ذلك فليس هذا بالأمر المستحيل الحدوث . تصورى أننا نستطيع أن ننقل رأس رجل إلى جذع رجل آخر . وأننا نستطيع أن نفصل مخ إنسان ونحتفظ به حيا يعمل دون جسمه .... بالنسبة لى ، لم تعد هناك هوة تفصل بين العلم والقصص العلمى .. لقد كان من الممكن أن نحتفظ بمخ اينشتين حيا يعمل بشكل طبيعى » .

ويستطرد البروفيسور هوايت فى حديثه موضحا أننا لسنا فقط قادرين على نقل رأس رجل إلى جذع رجل آخر أو الاحتفاظ بالرأس أو بالمخ « حيا » يعمل ، بل إننا نستطيع أن نفعل ذلك « بالوسائل المتاحة حاليا » . ثم يضيف البروفيسور هوايت قائلا : « فى الحقيقة أن اليابانيين سيكونون

أول من يفعل ذلك (أى الاحتفاظ برأس آدمى مفصول حيا) . أما أنا فلن أفعل لأننى لم أستطع بعد أن أصل إلى إجابة على هذا السؤال المحير : أحق هذا أم باطل ؟! » . إن الدكتور هوايت يعانى ، ككاثوليكى مؤمن ، من المضامين الفلسفية والمعنوية لعمله .

وكلما توغل جراحو المخ وأخصائيو الأعصاب بعيدا فى بحوثهم وتجاربهم . وكلما أصبح المهندسون البيولوجيون ، والرياضيون ، وخبراء الاتصال ، وبناء المخلوقات الآلية أكثر حنكة ومهارة ، وكلما صار رجال الفضاء وكبسولاتهم أكثر تقاربا والتحاما ، وعندما تبدأ آلات تحتوى أجزاء بيولوجية ، ويزدحم جسم الإنسان بالأجهزة الآلية الحساسة ، عندئذ سيتلاقى كل ذلك العمل ويتجمع مؤذنا باقتراب مولد الكائن البشرى — الآلى ومع ذلك ، فليست عجيبة العجائب نقل الأعضاء الحية ، أو الكائنات البشرية — الآلية ، أو هندسة ما تحت الماء ، بل ليست العلم ذاته .

إن أعظم العجائب ، وأخطرها فى نفس الوقت ، هى تشبث الجنس البشرى بما ربى عليه فى الماضى ، وعدم رغبته فى مواجهة واقع التغيير المتسارع . وهكذا ينتقل الإنسان بسرعة إلى عالم مجهول ، إلى مرحلة جديدة تماما من التطوير التكنولوجى للبيئة . فى حين لا يزال متشبثا بمعتقداته فى أن : «الطبيعة الإنسانية خالدة» ، أو أن « الاستقرار سيعود » . إنه يندفع وسط أعاصير أعنف ثورة فى تاريخ الجنس البشرى متمتما بتلك الكلمات التى قالها يوما ما عالم اجتماع مشهور ، بقدر ما هو قصير النظر ، « إن عمليات التمدين قد أصبحت تقريبا (كاملة) » ، إنه يرفض ببساطة أن يتخيل المستقبل .

انكار التغيير

فى سنة ١٨٦٥ أخبر محرر جريدة يومية قراءه : « إن أناسا من ذوى المعرفة يعلمون جيدا أنه من المستحيل نقل الأصوات عبر الأسلاك ، وحتى ولو كان ذلك من الممكن ، فسيكون شيئا لا قيمة عملية له » . ولم تكد تمضى

عشر سنوات على هذا الكلام حتى خرج التليفون من معمل مستر بيل ليغير وجه العالم .

وفى اليوم الذى استطاع فيه الأخوان رايت الطيران ، رفضت الصحف نشر النبأ لأن رؤساء تحريرها العقلاء ، المتماسكين ، الواقفين فوق أرضهم بصلابة ، لم يستطيعوا ببساطة أن يحملوا أنفسهم على تصديق أن شيئا مثل هذا قد حدث حقا !! وعلى أى حال ، فلم يكن قد مضى حينذاك كثير من الوقت منذ أعلن عالم الفلك الأمريكى الشهير سيمون نيوكومب على الملأ أنه : « ليس بمقدور أى تركيبة من المواد المعروفة ، وأشكال الماكينات المعروفة ، وأشكال الطاقة المعروفة ، مجتمعة ، أن تتوحد فى ماكينة يستطيع الإنسان عمليا أن يطير بها إلى مسافات بعيدة !! » .

وبعد ذلك بقليل أعلن خبير آخر : « أن أصحاب العقول المريضة فقط هم الذين يمكن أن يتوقعوا أى نجاح لحركة العربات التى لا تجرها الخيول » . ولم تمض ست سنوات على تصريح هذا الخبير حتى كانت السيارة رقم مليون تخرج من خط التجميع بمصانع فورد !! ولقد كان روزرفورد العظيم مكتشف الذرة هو ذاته الذى صرح فى سنة ١٩٣٣ بأن الطاقة المخزونة داخل نواة الذرة لن يتاح لها مطلقا أن تخرج من عقالها !! وبعد تسع سنوات حدث ما أكده روزر فورد أنه لن يحدث على الإطلاق!!

وهكذا مرة تلو الأخرى ، يتعامى المخ البشرى (بما فى ذلك مخ أكبر العلماء) عن أن يبصر إمكانيات المستقبل ، ويحصر مجال اهتمامه فى تأمين الحاضر ، حتى تصدمه بقسوة دفعة التغيير المتسارعة !!

ولسنا نعنى أن « كل » المدركات العلمية التى ناقشناها سوف تتجسد حتما . وأيضا فإننا لم نقصد إلى القول بأنها ستحدث كلها قبل نهاية هـــذا القرن . إن بعضا منها ، لا شك ، سيولد ميتا ، وبعضاً آخر سيسفر عن طرق مسدودة . وبعضاً ثالثا سينجح داخل المعمل ثم يثبت أنه غير عملى لسبب أو لآخر . ومع ذلك فليس هذا هو المهم . لأنه حتى ولو لم يتحقق أى منها ، فإن غيرها ، وربما أكثر منها إثارة ، سوف يتحقق .

إننا لم نكد نلمس ثورة الكومبيوتر ، والتغيرات البعيدة المتشعبة التى لابد أن تتمخض عنها . وبالجهد أيضا ، تحدثنا عن غزو الفضاء ، تلك المغامرة التى قد تسفر ، قبل مطلع القرن القادم ، عن تغييرات جذرية فى حياتنا ، وأوضاعنا ومواقفنا لم يتنبأ بها أحد حتى الآن . ماذا يحدث لو عادت سفينة فضاء ، أو رائد للفضاء ، إلى الأرض ملوثة بنوع قاتل وسريع التكاثر من الميكروبات ؟ إننا أيضا لم نذكر شيئا عن أشعة الليزر ، وعن الهولوجراف ، الأداة الجديدة القوية للاتصال الشخصى والجماعى ، أو عن التكنولوجيا الجديدة للجريمة والتجسس ، ووسائل النقل والإنشاء الجديدة ، ولا عن التطورات الجديدة والمرعبة فى وسائل الحرب الكيميائية والبكتربولوجية ، أو عن الآمال الواعدة لاستخدامات الطاقة الشمسية ، ولا عن الاكتشاف المقبل للحياة داخل أنابيب الاختبار ، أو عن الوسائل والأدوات الجديدة والمذهلة للتعليم . وقائمة أخرى لا تنتهى من المجالات التى ستشملها تغييرات بعيدة المدى ، آتية لاريب فيها ، مسرعة غير متلبثة .

فى خلال العقود القادمة ، سوف يتفجر التقدم فى هذه المجالات وكأنه سلسلة من صواريخ عاتية تحملنا بعيداً عن الماضى لتقذف بنا إلى أعماق المجتمع الجديد . وحتى هذا المجتمع الجديد لن يتاح له أن يستقر سريعا على حال . إنه بدوره سوف يهتز ويتقوض ويصرخ بالمعاناة كلما تلقى صدمة تلو أخرى من قوى التغيير العارمة . وبالنسبة للفرد الذى يريد أن يعيش زمانه ، وأن يصبح جزءا من المستقبل ، فإن ثورة ما فوق التصنيع لا تعرف أى حد للتغيير . إنها لا تعرف معنى الارتداد إلى الماضى المألوف . إنها لا تعرف سوى ذلك المزيج المتفجر من الزوال والتجديد .

إن الحقن المستمر والمتزايد لنسيج المجتمع بهذا المزيج المتفجر من السرعة والجدة سوف يضطرنا لا إلى مجرد التلاؤم السريع مع مواقف وأحداث ومآزق مألوفة فحسب ، ولكن أيضا لمواجهة متزايدة السرعة لمواقف وأحداث هى على وجه التأكيد غير مألوفة لدينا غريبة عنينا ، ومفاجئة لنا فى معظم الأحيان .

ولسوف يحدث كل هذا تعديلات بارزة فى التوازن الموجود فى أى مجتمع ما بين ما هو مألوف وما هو غير مألوف من جوانب الحياة اليومية لأفراده ، بين ما هو روتينى وما هو غير روتينى ، بين المتوقع والمفاجىء ، إن العلاقة بين هذين النوعين من عناصر الحياة اليومية يمكن أن نسميها « نسبة الجدة » فى المجتمع . وكلما ارتفع مستوى الجدة فى المجتمع ، انعكس ذلك على أنماط سلوكنا فى مواجهة المواقف فتصبح أقل روتينية . وسنعانى أكثر فأكثر من الإرهاق ، والصراع والكآبة ، وباضمحلال فى شعورنا بالسيارة . وأكثر فأكثر ستبدو البيئة وكأنما قد أصبحت نهبا للفوضى وأفلت زمامهامن يد الإنسان .

وهكذا يحدث الالتحام بين اثنتين من أعظم القوى الاجتماعية : الحركة الدائبة نحو الزوالية ، يعززها ويزيد من خطورتها الارتفاع المطرد فى نسبة الجدة . وكما سوف نرى فيما بعد ، فإننا لن نجد هذه الجدة فى الترتيبات التكنولوجية للمجتمع الجديد وحدها ، ولكن أيضا فى ترتيباته الاجتماعية . وهناك فإننا نستطيع أن نتوقع كل طريف ، وغريب » وغير مألوف .

الفصل العاشر

صناع الخبرة

إن عام ٢٠٠٠ أقرب إلينا بحساب الزمن من أيام الأزمة الاقتصادية الكبرى ، ومع ذلك فما زال اقتصاديو العالم متجمدين داخل أوضاع الماضى بتأثير الجروح التى خلقتها تلك الكارثة التاريخية ، إن الاقتصاديين حتى أولئك الذين يتكلمون منهم بلغة الثورة مخلوقات محافظة بشكل غريب . فلو كان من قبيل الممكن أن نستخرج من أدمغتهم ككل ، صورة للاقتصاد فى سنة ٢٠٢٥ مثلا ، لما اختلفت هذه الصورة كثيراً عن صورة سنة ١٩٧٠ .

إن الاقتصاديين بحكم تكيف فكرهم فى خطوط مستقيمة ، يجدون صعوبة كبرى فى تصور أى بديل للشيوعية والرأسمالية . إنهم يرون فى نمو المنظمات الكبرى مجرد امتداد طولى للبيروقراطية القديمة . وهم يرون فى التقدم التكنولوجى مجرد امتداد غير ثورى لما هو معروف من قبل . وبحكم أنهم ولدوا فى زمن الندرة ، وربوا على التفكير بلغة الموارد المحدودة ، فإنهم – بالجهد – يتقبلون فكرة المجتمع الذى يمكن أن يتوافر لكل أفراده ، إشباع حاجاتهم المادية الأساسية .

وأحد أسباب افتقارهم إلى الخيال هو أنهم عندما يفكرون فى التقدم التكنولوجى فإنهم يركزون فقط على « وسائل » النشاط الاقتصادى . ومع ذلك فإن ثورة ما فوق التصنيع لا تتحدى الوسائل فقط ، ولكن «الغايات» أيضا . إنها تهدد ، لا بتعديل « كيفية » الإنتاج فحسب ، ولكن « سببية » الإنتاج كذلك . إنها ، باختصار ، سوف تحدث انقلابا فى أهداف النشاط الاقتصادى ذاتها .

ولسوف تقف كل أسلحة الاقتصاديين ، حتى أشدهم حنكة ، عاجزة أمام هذا الانقلاب . إن لوحات الدخل والخرج ، ونماذج القياس الاقتصادى،

وكل ما يستخدمه الاقتصاديون من عتاد فى عمليات التحليل والتقدير ، لن تستطيع ببساطة أن تواجه القوى الخارجية – سياسية واجتماعية ، وأخلاقية – التى سوف تعمل على قلب الحياة الاقتصادية خلال العقود القليلة القادمة .. ماذا تعنى « الإنتاجية » و « الكفاية » فى مجتمع يضع قيمة عالية للإشباع النفسى ؟ ماذا سيحدث لاقتصاد ما ، عندما يتضاءل مفهوم الملكية – وهو أمر كبير الاحتمال – حتى يصبح شيئا لا معنى له ؟ إلى أى مدى ستتأثر اقتصاديات الأمم بظهور الوكالات الفوق – قومية للتخطيط والتنظيم والضرائب ، أو بظهور نوع من العودة الجدلية إلى « صناعة كوخية » مرتكزة على أكثر تكنولوجيات السيبرانطيقا تقدما ؟ وأهم من كل هذا ، ماذا سيحدث عندما تحل « اللاتنمية » محل « التنمية » كهدف اقتصادى ؛ أى عندما يفقد الناتج القومى العام مكانته كهدف مقدس ؟

إننا بدون الانفلات من إسار الأطر التقليدية للفكر الاقتصادى ، وبدون إنعام النظر فى هذه الاحتمالات ، لن يكون فى مقدورنا أن نعد أنفسنا للغد . وليس بين الإمكانيات التى ينبغى أن ندرسها ، ما هو أكثر أهمية من النقلة الكبرى فى القيم ، والتى سوف تقبل دون شك ، فى ركاب ثورة ما فوق التصنيع .

تحت ظروف الندرة ، كان الإنسان يناضل من أجل الحصول على حاجاته الضرورية . أما اليوم ، وفى ظل ظروف أكثر وفرة ، فإننا نعيد تنظيم اقتصادنا ليقابل مستوى جديدا من الاحتياجات الإنسانية . ومن نظام مصمم لتوفير الإشباع المادى ، فإننا نتحول بسرعة إلى خلق اقتصاد يستهدف الإشباع النفسى . إن هذه العملية الأخيرة ، والتى سوف تكون من أهم معالم ثورة ما فوق التصنيع ، كانت دائما محل تجاهل تام من جانب الاقتصاديين . ومع ذلك فإنها سوف تبرز من خلال اقتصاد حافل بالمفاجآت ؛ اقتصاد لم يكن للإنسان عهد بمثله من قبل . إن القضايا التى سيطرحها سوف تخفف إلى حد كبير من حدة أعظم صراعات القرن العشرين : الصراع بين الرأسمالية والشيوعية . ولأن هذه القضايا

سوف تمتد إلى ما هو أبعد من المذاهب الاقتصادية والسياسية ، فإنها ستشمل ، كما سوف نرى ، سلامة العقل . أى قدرة الكائن البشرى على التمييز بين الحقيقة والوهم .

خليط كعكة بإضافات نفسية

كان دائما أمرا محوطا بالكثير من الإثارة أن يكتشف الناس أن مجتمعا ما قد أخذ ، بعد وصوله لمرحلة معينة من التقدم التكنولوجى ، يحول جانبا كبيرا من طاقاته من الإنتاج السلعى إلى إنتاج الخدمات . وفى رأى الكثيرين من الخبراء أن الخدمات هى موجة المستقبل ، وأن التوسع فى إنتاج الخدمات سوف يكون عما قريب سمة مميزة للأمم المتقدمة صناعيا — إن هذه النبوءة فى طريقها الآن ، فعلا ، إلى التحقيق .

أما الذى لم يفعله الاقتصاديون فهو أنهم لم يطرحوا بعد هذا السؤال الواضح : ما هى الخطوة التالية للاقتصاد ؟ ماذا بعد الخدمات ؟

إن على الأمم المتقدمة تكنولوجيا أن توجه فى السنين القادمة موارد ضخمة إلى إعادة تأهيل بيئاتها الطبيعية ، وتحسين ما اصطلح على تسميته بكيفية الحياة . إن محاربة تلوث البيئة وتشوهها والزحام والضجيج والقذارة سوف تستنفد طاقات هائلة . ولكن بالإضافة إلى هذه الخدمات العامة فإننا نتوقع أيضا تغيراً لطيفا فى طبيعة الإنتاج المخصص للاستعمال الفردى .

إن نفس الإثارة التى خلقها النمو المتصاعد لقطاع الخدمات هى التى صرفت انتباه المختصين عن ملاحظة تحول آخر سوف يكون له فى المستقبل تأثيرات عميقة فى الإنتاج السلعى وإنتاج الخدمات معا . إن هذا التحول الذى سيقود إلى الخطوة التالية فى حركة الاقتصاد هو نمو غريب وجديد يرتكز على ما يمكن أن نسميه « صناعة الخبرة » ، لأن مفتاح اقتصاد ما بعد الخدمات يكمن فى إضفاء السمة النفسية على كل الإنتاج ، ابتداء من العملية الإنتاجية ذاتها .

إن من بين الحقائق الغريبة التى يتميز بها الإنتاج حاليا فى المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا ، وبخاصة فى الولايات المتحدة ، هو أن السلع المنتجة

قد أصبحت بشكل متزايد تصمم بحيث تقدم « إضافات سيكولوجية » للمستهلك . أى إن المنتج أخذ يضيف : « شحنة نفسية » إلى السلعة الأصلية ، كما أن المستهلك أصبح يدفع عن رضا ثمن هذه الإضافات .

وكمثال نموذجى على ذلك ، ما يعمد إليه منتجو السيارات من إضافة أزرار ومقابض وأقراص إلى لوحة قيادة السيارة ، حتى ولو بدا أنها ليست بذات فائدة . لقد تعلم منتجو السيارات أن زيادة عدد هذه الأدوات إلى حد معين يعطى قائد السيارة إحساسا بأنه يتحكم فى آلة أكثر تعقيداً ، ومن ثم يتزايد إحساسه بالتسيد . إن إعطاء السائق مثل هذا الإحساس كان جزءاً من عملية تصميم السيارة .

ومن الناحية الأخرى يبذل المنتجون جهودا مضنية حتى لا يحرموا المستهلك من إشباع نفسى موجود أصلا . فنجد مثلا ، أن شركة من شركات الصناعات الغذائية الكبرى فى أميركا تخرج إلى السوق ، بمنتهى الفخر ، خليطا جديدا لكعكة يكفى لتجهيزها أن يضاف الماء إلى الخليط ثم يزج إلى الفرن . ولكن لدهشتها وجدت أن ربات البيوت لم يقبلن على الخليط الجديد وفضلن عليه الأنواع التى تتطلب عملا أكثر — إضافة بيضة مخفوقة إلى الماء . وأرادت الشركة إرضاء هذه الرغبة فأرفقت بعلبة الخليط كيسا يحتوى على مسحوق بيضة ، ولكن سرعان ما اكتشفت أنها بذلك قد بالغت فى تيسير مهمة ربة البيت التى تجد إشباعا نفسيا فى الإسهام الخلاق من جانبها فى عملية إعداد الكعكة . وهنا سارعت الشركة بسحب مسحوق البيضة وتركت لربة البيت عملية كسر وخفق البيض وفق ما تحب . وهكذا عدلت الشركة من السلعة إبقاء على عامل الإشباع النفسى .

والأمثلة من هذا القبيل متوافرة بأعداد لا حصر لها ، وتشمل كل صناعة كبرى تقريبا ، من الصابون والسجاير إلى ماكينات غسل الأطباق وأطعمة الرجيم . يقول الدكتور إيمانويل ديمبى رئيس شركة (موتيفيشنال بروجرامرز) وهى مؤسسة بحوث تستعين بها الشركات الكبرى فى أمريكا وأوروبا من أمثال شركة جنرال اليكتريك وشركة أ ب أ : « إن إدخال

العوامل النفسية فى تصميم السلع المصنعة سوف يكون العلامة المميزة فى المستقبل — ليس فقط فى السلع الاستهلاكية ، ولكن أيضا فى المعدات الصناعية . فحتى الأوناش ، والرافعات العملاقة التى تبنى اليوم ، تشتمل على هذا العامل . إن عرباتها المصقولة ذات الشكل الانسيابى تبدو كأنها شئ قادم من القرن الحادى والعشرين . كل أنواعها : كاتربيلار ، انترناشيونال هارفستر ، فيرجسون ، وغيرها لماذا ؟ إن هذه العمالقة الميكانيكية لا تحفر ولا ترفع أحسن لأن عرباتها جعلت هكذا . ولكن عميل المقاول يحبها هكذا . وإذن فإنه حتى معدات رفع التراب ، بدأت تدخل عليها هذه العوامل غير النفعية ، أى العوامل النفسية » .

بل أبعد من هذا فإن المنتجين ، كما يؤكد ديمى ، يولون اهتماما زائدا نحو تخفيف التوتر الذى يصحب استخدام سلع معينة . إن منتجى المناشف الصحية — على سبيل المثال — يعلمون أن النساء يخشين انسداد المراحيض عندما يلقين فيها بهذه المناشف بعد استعمالها . ولذا فإن المنتجين — كما يقول ديمى — : « قد ابتكروا نوعاً من هذه المناشف يذوب بمجرد ملامسة الماء له ، إن ذلك لا يجعل هذه المناشف تؤدى وظيفتها الأساسية أداء أفضل ، ولكنه يمحو شيئا من القلق المصاحب لاستخدامها . فإن كان ثمة شئ اسمه الهندسة النفسية . . فها هو ذا » .

إن مستهلكى الوفرة ، راغبون فى مثل هذا الترف ، قادرون على دفع ثمنه . وكلما ارتفع دخلهم قل اهتمامهم بمسألة السعر ، وزاد إصرارهم على طلب ما يسمونه « النوعية » . وبالنسبة لبعض المنتجات ما زالت النوعية تقاس بنفس المعايير التقليدية من دقة الصنعة ، وقوة الاحتمال ، والخامة الجيدة . ولكن بالنسبة لقائمة سريعة التضخم من المنتجات فإن إدراك أى فروق تنتمى إلى مثل هذه المعايير التقليدية أصبح فى الواقع لا وجود له . فالمستهلك ، وكأنه معصوب العينين ، لا يستطيع أن يفرق بين النوع (أ) ، والنوع (ب) ، ومع ذلك فإنه يجادل بعنف مصراً على أن هذا أفضل من ذاك .

هذه المناظر المتناقضة ، حرية بأن تتلاشى عندما يدخل العامل النفسى

فى الحساب . فحتى عندما يتشابه نوعان من المنتجات ، فهناك دائما احتمال وجود فروق نفسية بينهما . إن المعلنين يحرصون على طبع كل سلعة بصورتها المميزة ، وهذه الصور المميزة للمنتجات لها وظيفة : إنها تشبع حاجة ما لدى المستهلك ، حاجة نفسية أكثر منها نفعية بالمعنى المعتاد . وهكذا فإننا نجد أن اصطلاح « النوعية » أصبح يشير أكثر فأكثر إلى شئ ما يحيط بالسلعة ، ووضعية معينة تلازمها – أى المضامين بالنسبة لها .

« فتيات خدمة » فى الجو

ومع ذلك فليس هذا سوى مجرد خطوة أولى على طريق إسباغ السمة النفسية على النشاط الاقتصادى . أما الخطوة التالية فستكون التوسع فى إدخال العنصر النفسى إلى الخدمات .

وهنا ، وبنظرة سريعة نلقيها على ما يحدث فى مجال خدمة الطيران ، سنجد مرة أخرى أننا نسير بالفعل فى هذا الاتجاه . لقد كان الطيران يوما ما مجرد وسيلة للانتقال من مكان إلى آخر . ثم منذ عهد غير بعيد بدأت شركات الطيران فى منافسة تعتمد على المضيفات الجميلات ، والطعام الفاخر ، وإحاطة الراكب بجو مترف ، ثم بإدخال العروض السينمائية داخل طائراتها . إن شركة الخطوط الجوية العالمية قد خطت بهذه العملية مؤخرا ، خطوة واسعة إلى الأمام بتقديمها ما سمته برحلات (اللكنة الأجنبية) بين المدن الأمريكية الكبرى .

إن الراكب لطائرات شركة الخطوط الجوية العالمية يستطيع الآن أن يختار لرحلته طائرة كل ما عليها فرنسى : الطعام ، الموسيقى ، المجلات ، الأفلام ، وأيضا المضيفات . أو إذا أراد ، فيمكنه اختيار رحلة « رومانية » حيث ترتدى المضيفات زى التوجا الرومانى . أو قد يفضل رحلة « شقة بسطوح مانهاتن » أو رحلة « الإنجليز أيام زمان » حيث تسمى المضيفات « فتيات الخدمة » ، والديكور يحكى جو حانة إنجليزية قديمة .

من الواضح أن شركة الخطوط الجوية العالمية لم تعد تقدم مجرد وسيلة من وسائل الانتقال ، ولكن أيضا بضاعة نفسية مصممة ببراعة وعناية

فائقة . ويمكن أن نتوقع من شركات الطيران أن تعمد مستقبلا إلى استخدام الأضواء وشتى أنواع المؤثرات لتخلق داخل طائراتها بيئة كاملة ، وإن كانت مؤقتة ، قريبة جدا فى تأثيراتها من الخبرة المسرحية .

بل إن الخبرة التى ستقدمها شركات الطيران قد تذهب إلى ما هو أبعد من الخبرة المسرحية بكثير . لقد أعطت شركة الخطوط الجوية البريطانية لما وراء البحار لمحة من لمحات المستقبل عندما أعلنت عن خطة لإمداد الركاب الأمريكيين العزاب بمرافقات « مختارات علميا » فى أثناء وجودهم فى لندن . وفى حالة ما إذا لم تأت المرافقة التى اختيرت بواسطة الكومبيوتر فى الموعد المتفق عليه ، فإن هناك بديلات احتياطيات للحلول محلها . بل أكثر من هذا فإن المسافر فيما لو أراد ، ستعد له حفلة يدعى إليها أى عدد إضافى يجب من « اللندنيين واللندنيات من أعمار مختلفة » ، وذلك حتى لا يحس المسافر بأى نوع من الوحدة ، وهذا بالإضافة أيضا إلى ما سيعد له من جولات فى معالم لندن ومطاعمها . ولكن الشركة المملوكة للحكومة البريطانية اضطرت إلى التخلى عن هذا البرنامج الذى سمته « عزاب لندن الفاتنون » ، بعد أن تعرض لنقد شديد داخل البرلمان . ومع ذلك فنستطيع أن نتوقع محاولات أخرى كثيرة ومثيرة فى المستقبل لصبغ الخدمة المقدمة للمستهلك بألوان نفسية جذابة وفى نواح عديدة من ميدان الخدمات ، ومنها تجارة التجزئة .

إن كل من أتيحت له فرصة التجول فى محل « نيوبورت سنتر » — وهو محل تجارى جديد ، بل قصر فخم لدرجة لا تصدق ، بمدينة نيوبورت بيتش بكاليفورنيا — لابد وأن يكون قد أخذ بما بذله مصمموه من اهتمام بالعناصر الجمالية والنفسية : أقواس وأعمدة بيضاء مرتفعة ، ونافورات ، وتماثيل ، وتوزيع رائع للإضاءة ، وقاعة لفن البوب ، وناقوس هوائى يابانى ضخم ، كل هذا من أجل إحداث إحساس عرضى بالأناقة لدى المشترى . إنها ليست فخامة المحيط الذى يجد المشترى نفسه فى داخله ، ولكن لطفه الذى ينم عن جمال فى الذوق وعناية فائقة فى الإعداد ، هو

ما يجعل من زيارة هذا المحل تجربة لا تنسى . ومن الطبيعى أن نتوقع مستقبلا تطبيقات متنوعة ومتطورة على نفس القاعدة فى تصميم محلات التجزئة . إننا سوف نتجاوز أى ضرورة « وظيفية » ، ونحول الخدمات أيا كان نوعها إلى تجربة مصنعة طبقا لتصميم مسبق .

إننا سوف نشاهد أفلاما ونستمع إلى موسيقى الحجرة فى أثناء قص شعورنا . ومجفف الشعر الذى سيحيط برأس المرأة داخل صالون التجميل سيفعل أكثر من مجرد تجفيف شعرها – إنه قد يرسل أمواجــا إليكترونية إلى مخها تداعب خيــالها .

ولسوف يستخدم المصرفيون والسماسرة ، وشركات الأراضى وشركات التأمين ، ديكورات مختارة بعناية ، ودوائر تليفزيون ملون مغلقة ، ومذاقات وروائح مصنعة ، إلى جانب أكثر معدات وسائط نقل المؤثرات تقدما لرفع (أو خفض) الشحنة النفسية التى تصاحب حتى أكثر المعاملات روتينية . ولن تقدم أى خدمة هامة إلى المستهلك قبل أن تفحص وتحلل بواسطة الخبراء السلوكيين لتحسين شحنتها النفسية .

صناعات الخبرة

مثل هذه الاجتهادات المتواضعة ، التى نشهدها فى وقتنا الراهن ، سوف يعقبها توسع ثورى لصناعات معينة ، لن تنتج سلعا ، أو حتى خدمات عادية ، وإنما سيكون دورها الوحيد هو إنتاج « الخبرات » ذات التصميم المسبق . إن صناعة الخبرة قد تكون أحد العمــد الأساسية لمجتمع ما فوق التصنيع ، كما أنها ستكون بالفعل أساساً لاقتصاد ما بعد الخدمات .

إن الزوال والوفرة سوف يعملان بلا هوادة على إماتة الرغبة القديمة فى التملك . وسيبدأ المستهلكون يتجهون إلى جمع الخبرات بدلا من جمــع الأشياء كما كانوا يفعلون من قبل . إن الخبرات اليوم – كما وضح من المثل الذى قدمناه عن شركة الطيران – تباع كملحقات لخدمات تقليدية . إن الخبرة بالنسبة للخدمة هى فى وقتنا الحاضر بمثابة الزركشة بالنسبة للكعكة .

ولكن كلما تقدمنا إلى المستقبل أخذت الخبرات تباع قائمة بذاتها ، تماما كما لو كانت ضربا من الأشياء .

إن هذا ، بالضبط ، هو ما بدأ يحدث بالفعل . ويرجع الفضل فى ذلك إلى معدل النمو الواضح الارتفاع فى صناعات معينة كانت تعمل دائما ، ولو جزئيا ، على إنتاج الخبرات لصالحها الخاص . ولنأخذ الفنون كنموذج واضح لهذه الصناعات . إن جانبا كبيرا من « صناعة الثقافة » مكرس لخلق الخبرات النفسية المتخصصة . إننا نشهد اليوم « صناعات خبرة » مرتكزة على الفن تنمو وبشكل هائل فى كل المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا . ونفس الشئ بالنسبة للمؤسسات التى تقدم خدمات الاستجمام ، والتسرية الاجتماعية ، والتعليم ، وتلك التى تقدم خدمات نفسية خالصة .

إن نادى الميديترانيه عندما يبيع لعملائه رحلات جماعية شاملة من ذلك النوع الذى يأخذ سكرتيرة فرنسية مثلا ، إلى حيث تقضى أسبوعا أو أسبوعين من أشعة الشمس والجنس فى تاهيتى أو إسرائيل — فإنه إنما يصنع لهـا فى الواقع خبرة مصنعة بنفس الدقة والمنهجية التى تصنع بها مصانع رينو سياراتها . إن نفس إعلانات النادى تؤكد هذه الحقيقة . وهكذا نرى إعلانا ينشره النادى عن رحلاته يغطى صفحتين من مجلة نيويورك تايمس مجازين تقول عناوينه عن إحدى هذه الرحلات أنها : « تأخذ ٣٠٠ رجل وامرأة . وتضعهم على جزيرة رائعة . وتنزع عنهم كل أنواع الضغوط الاجتماعية » . إن نادى الميديترانيه ، ومركزه الرئيسى فى فرنسا ، يدير أربعا وثلاثين « قرية » للاجازات موزعة على أنحاء مختلفة من العالم .

وبنفس القياس ، فإنه عندما يقدم معهد إيزالين فى بيج سور بكاليفورنيا حلقات دراسية فى « الوعى الجسدى » و « التواصل بدون كلمات » لمدة يومين مقابل سبعين دولاراً للفرد ولمدة خمسة أيام مقابل ١٨٠ دولارا ، فإن المعهد هنا لا يعد دارسيه الميسورين بمجرد التعلم فحسب ، ولكن أيضا بإدخالهم فى نوع جديد « مبهج » من الخبرات الجماعية . إن العلاج الجماعى ودروس تدريب الحساسية هى فى الواقع أنواع من الخبرات المجهزة :

ونفس الشيء أيضا بالنسبة لأنواع معينة من التعليم ، إن الشاب الذى يذهب إلى ستوديو أرثر موراى أو ستوديو فريد استير ليتعلم آخر رقصة سيكتسب من ذلك مهارة قد تكون مصدر متعة له فى المستقبل ، ولكن الاستوديو سيقدم إليه ، علاوة على ذلك ، خبرة فورية وسارة فى نفس الوقت ، إن تجربة التعلم ذاتها تمثل عامل جذب قوى للزبائن .

كل هذه الأمثلة لا تعطينا ، فى الواقع ، إلا بصيصا شاحبا مما ستكون عليه صناعة الخبرة مستقبلا ، والشركات الكبرى التى ستسيطر عليها .

بيئات مزيفة

من بين أهم أنواع المنتجات التى ستقدمها صناعة الخبرة : البيئات المزيفة التى ستتيح لعميلها أن يتذوق المغامرة ، والشعور بالخطر ، والمتعة الجنسية وغيرها دون مخاطرة حقيقية بحياته أو سمعته . وهكذا سيتعاون خبراء الكومبيوتر وصناع المخلوقات الآلية ، والمصممون والمؤرخون وأخصائيو المتاحف على خلق نماذج متقنة تعيد إلى الحياة روعة روما القديمة وفخامة بلاط الملكة اليزابيث ، وشبقية منازل الجيشا اليابانية فى القرن الثامن عشر ، وعندما يدخل الزبائن إلى قباب المتعة هذه ، سيتركون وراءهم ملابس حياتهم اليوميـــة (وهمومها أيضا) ، ويرتدون الملابس الملائمة للبيئة المزيفة التى يدلفون إليها ، ويمرون بسلسلة من ألوان النشاط والأفعال التى رسمت بدقة من أجل أن تعطيهم تجربة تحكى فى مذاقها نفس التجربة التى يعطيها العيش فى البيئة الأصلية . إنهم سيدعون للعيش فى الماضى ، وربما أيضا فى المستقبل .

إن إنتاج مثل هذه الخبرات هو فى الواقع أقرب إلينا مما قد نتصور . إن نذره تلوح واضحة فيما يجرى حاليا فى مجالات الفنون من تجارب رائدة لتكتيكات المشاركة . وهكذا يمكن أن نعتبر أسلوب « الحدوث » فى الفن حيث يقوم المشاهدون بدور فى العمل الفنى بمثابة خطوة متعثرة فى اتجاه فن تزييف البيئة . ويصدق نفس الشيء أيضا بالنسبة لفنون أكثر

رسوخا . فعندما عرضت مسرحية « ديونيسيوس » فى نيويورك سنة ١٩٦٩ لخص أحد النقاد نظريات مؤلفها رينشارد سكيشنر بقوله : « لقد اعتاد المسرح أن يقول لجمهوره : اجلس ، وسوف أحكى لك قصة . فلماذا لا يقول له الآن : قف ، وتعال لنلعب لعبة ؟ » وهذا هو بالضبط ما تقوله هذه المسرحية التي كتبها سكيشنر مستندا بكثير من التحرر إلى المسرحية الأصلية ليوريبديز . لقد دعت الجمهور صراحة إلى المشاركة فى طقوس ديونيسيوس الراقصة .

لقد بدأ الفنانون أيضا يخلقون « بيئات كاملة — أعمالا فنية يستطيع الجمهور بالفعل أن يمشى بداخلها ، ويصبح جزءا مما يحدث بها من أشياء . ففى السويد عرض متحف (مودرنا موسيت) تمثالا هائلا مصنوعا من عجينة الورق أطلق عليه اسم « هون » أى « هى » ، يدلف الجمهور إلى داخله عبر مدخل مهبلى ليجد سلالم ومنحنيات ، ويرى أضواء تومض ، ويسمع أصواتا غريبة وشيئا اسمه « ماكينة تهشيم الزجاجات » . إن عشرات من المتاحف فى الولايات المتحدة وأوروبا تعرض اليوم الكثير من مثل هذه « البيئات » ، ويرى الناقد الفنى لمجلة تايم أنها تستهدف مهاجمة حواس المشاهد « بمناظر مجنونة ، وأصوات غريبة ، وأحاسيس عوالم أخرى ، من الشعور بانعدام الوزن إلى التحليق مع هلوسات السيكوديليك . إن الفنانين الذين ينتجون هذه البيئات هم فى الواقع « مهندسو تصنيع الخبرات » .

فى شارع يخدعك مظهره الرث من شوارع أسفل منهاتن تحف به من جانبيه المصانع والمخازن ، زرت « سيريبروم » وهو (استوديو اليكترونى لعمليات المشاركة) . وفى مقابل رسم محدد بالساعة يدخل الضيوف إلى قاعة بيضاء رائعة عالية السقف . وهناك يخلعون ملابسهم ويرتدون أردية شبه شفافة ثم يتمددون على الأرضية المبطنة ببطائن بيضاء وثيرة ، ويقبل « مرشدون » من الفتيات الجميلات والشبان الوسيمين عراة جميعا إلا من غلالات شفافة ، فيعطون لكل زائر سماعة ستيريوفونيك ، وقناعاً مثقباً . ثم من حين لآخر بالونات ، ومشكالات ، ودفوفا ، وخطميات ،

وشرائح وفوانيس لعرضها ، ووسائد من البلاستيك ، ومرايا ، وقطعاً من البللور . ثم تملأ الآذان ألحان موسيقية صاخبة تتخللها مقتطفات سريعة من برامج تليفزيونية ، وضجيج الشوارع ، ومحاضرة من أو عن مارشال ماكلوهان . وعندما يشتد وجيب الموسيقى يبدأ الضيوف والمرشدون فى الرقص على أرضية قاعات الاستوديو وفى الممرات الموصلة بينها ، وتتدفق الفقاعات بغزارة من ماكينات مركبة فى السقف وتخطر بين الجميع مضيفات ينثرن عبيرا من روائح مختلفة فى الجو . وألوان الإضاءة فى تبدل مستمر . وصور عشوائية بتتابع انعكاسها على الجدران وعلى أجساد الضيوف والمرشدين الذين تتبدل حالهم تدريجيا من البرود فى مبدأ الأمر ، إلى حالة من الانتعاش والألفة ، وإلى حد ما ، الشبق .

إن ستوديو سيربيروم ليس سوى نموذج أولى فقير فى إمكانياته الفنية والتكنولوجية لمشروع ضخم للتسرية البيئية سيتكلف ٢٥,٠٠٠,٠٠٠ دولار يؤكد أصحابه بحماسة وثقة أنهم لابد بانوه يوما من الأيام ، وأيا كانت القيمة الفنية لمثل هذه التجارب فإنها ولاشك مقدمات لتجارب أكثر صقلا ستجرى فى المستقبل من أجل خلق البيئيات المصطنعة . والجماعات الصغيرة من الفنانين والمقاولين التى تنفذ هذه التجارب اليوم هى الطلائع التى تمهد الطريق ، بالبحث والتطوير ، أمام شركات الصناعات النفسية الكبرى التى سيأتى بها الغد .

بيئــات حية

إن المعرفة المتحصلة من هذه البحوث سوف تجعل من الممكن بناء بيئات مزيفة رائعة . ولكنها ستقود أيضا إلى حياة بيئية مركبة لاشك أنها ستواجه الإنسان الذى يحياها بالكثير من المخاطر وأيضا المكاسب . إن مصممى الخبرات فى المستقبل سوف ينشئون ، على سبيل المثال ، نوادى للمقامرة لا يكسب الفائز فيها مالا ، بل ربما تكون جائزته مثلا ، سيدة جميلة وراغبة . كما قد تكون عقوبة الخاسر ، مثلا ، أى يقضى يوما فى الحبس الانفرادى . وكلما ارتفعت قيمة المراهنات ترتبت عليها جوائز وعقوبات أكبر .

ربما آثر الخاسر سلفا بقبوله أن يعمل « عبدا » للفائز لمدة بضعة أيام . وربما كانت جائزة الفائز عبارة عن جس مخه بموجات من المتعة الإليكترونية لمدة عشر دقائق ، وقد يخاطر المقامر بالتعرض فى حالة الخسارة ، للجلد – أو لمقابلة السيكولوجى – كأن يسمح للفائز بأن يصب على الخاسر كل ما يعن له من شتائم وإهانات .

أما كبار المقامرين فقد يلعبون من أجل الفوز بعملية نقل قلب أو رئة مجانية مستقبلا ، إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك . وقد تكون عقوبة الخاسر أن يتخلى عن إحدى كليتيه . وستظل أمثال هذه الجوائز والعقوبات فى التصاعد من حيث قيمتها وفداحتها ، كما ستتنوع إلى ما لا نهاية . وسيدرس مصممو الخبرات أعمال كرافت ايبنج والمركيز دى ساد بحثا عن الأفكار . ولن تقف الإمكانيات فى هذا المجال عند حد يمكن أن يسمح به الخيال ، والقدرات التكنولوجية ، والقيود الأخلاقية التى ستكون آنذاك متراخية بشكل عام . ولسوف نشهد قيام مدن للمقامرة على الخبرات ستغطى على لاس فيجاس ودوفيل . مدن ستجمع فى مكان واحد ملامح من ديزنى لاند ، والسوق العالمية ، ومايو كلينيك ، وكيب كنيدى وحانات وملاهى ماكاو . *

ومرة أخرى نجد فيما يحدث اليوم نذيرا بما يخبئه المستقبل ، فهناك برامج تليفزيون أمريكية معينة مثل « لعبة المواعدة » « تكافئ الفائزين فيها بأنواع معينة من الخبرات » ، كما تفعل تلك المسابقة التى ثارت حولها مؤخرا مناقشة داخل البرلمان السويدى . فى هذه المسابقة ، كافأت إحدى المجلات الإباحية الفائز بإجازة لمدة أسبوع فى ماجوركا برفقة إحدى موديلاتها العاريات . لقد تحدى أحد النواب المحافظين شرعية مثل هذه التصرفات .

(*) من أجل إحاطة أكبر وأكثر إثارة بموضوع المقامرة على الخبرات ومضامينها الفلسفية يمكن الرجوع إلى كتاب "The Lottery in Babylon" لمؤلفه جورج لويس بورجس . الكاتب والفيلسوف الأرجنتينى ، وهو ضمن مجموعة بورجس المعروفة باسم : Labyrinths. .

ولكننا نتصور أنه قد هدأ قليلا عندما أكد له وزير المالية ، جونار سترانج ، أن العملية كلها ستحصل عنها الضرائب المستحقة .

إن الخبرات المزيفة والحقيقية سوف تمتزج وتتحد فى أشكال وأساليب حرية بأن تتحدى الإنسان للواقع . فى رواية راى برادبورى الرائعة « ٤٥١ فهرنهيت » ، نرى زوجين من سكان الضواحى يفعلان المستحيل لادخار نقودهما من أجل شراء أجهزة فيديو ثلاثية أو رباعية الجدران تسمح لها بالدخول إلى نوع من الدراما النفسية التليفزيونية ثم يصبحان ممثلين ومشاركين فى المسلسلات التليفزيونية التى تستمر لأسابيع وأشهر . إننا فى الواقع بسبيل إنتاج مثل هذه الأنواع من الأفلام « التفاعلية » بمساعدة تكنولوجيا ووسائل الاتصال المتقدمة . إن المزج بين ماهو « حقيقى » وما هو زائف سوف يضاعف من أعداد وأنواع منتجات صناعة الخبرة .

ولكن شركات الصناعات النفسية الكبرى التى سيأتى بها الغد لن تبيع الخبرات الفردية المنفصلة . إنها سوف تعرض مسلسلات كاملة من الخبرات التى روعى فى تعاقبها واحدة بعد الأخرى أن تضيف إلى حياة الفرد ما تفتقر إليه من إيقاعات ، وألوان ، وتنوع ، وإثارة ، وجمال ، وإحساسات خطرة أو ممتعة . منسقة كلها ليكمل كل منها الآخر ويعززه . إن شركات الصناعات النفسية هذه (عاملة بالطبع فى تعاون وثيق مع مراكز الصحة العقلية فى المجتمع) بتقديمها هذه المسلسلات من الخبرات سوف تمد أولئك الذين يحيون حياة مضطربة أو محطمة بهياكل جزئية لإعادة بناء بعض جوانب حياتهم . إنها فى الواقع ستقول لك : « دعنا نخطط لك (جزءا) من حياتك » وفى عالم الغد الزوالى ، المفعم بالتغيير ، سوف يجد مثل هذا العرض قبولا لدى الكثيرين .

إن عروض الخبرات المجهزة سوف تفوق فى المستقبل خيال المستهلك العادى وتملأ البيئة بجدة لا تنتهى . ولسوف تنافس الشركات بعضها

بعضا فى خلق أغرب الخبرات وأكثرها إشباعا للخيال . بل إن بعض هذه الخبرات سيتجاوز فى الواقع – كما فى حالة مسابقة المجلة السويدية – الخطوط العريضة لما يمكن أن يتقبله المجتمع . إنها قد تقدم للجمهور فى السر بواسطة شركات تعمل فى الخفاء ، بلا ترخيص، ولسوف يضيف هذا الشعور الإثارة التى تصحب عادة كل ما هو « غير شرعى » إلى الخبرة نفسها . (إن الخفاء كان ولا يزال هو الصورة التقليدية لصناعة قديمة جدا من صناعات الخبرة ونعنى بها الدعارة . وكثير من ألوان النشاط غير القانونية يمكن أن يعتبر أيضا من قبيل صناعات الخبرة . ولكن هذه المناشط تتسم فى الغالب الأعم بعقم الخيال ، والافتقار إلى الإمكانيات التكنولوجية التى ستتوافر فى المستقبل . إن هذه المناشط ستبدو ضئيلة تافهة إذا ما قورنت بما يمكن أن تكون عليه فى مجتمع سنة ٢٠٠٠ المسلح بالمخلوقات الآلية وبأنواع جديدة ومتطورة من الكومبيوتر ، وبعقاقير تغيير الشخصية وبوسائل سير المتعة فى المخ . وغير ذلك من الإمكانيات التكنولوجية) .

إن العديد المتنوع من ألوان الخبرات الجديدة الذى سيقدم إلى المستهلك فى الغد سيكون من نتاج عمل مصممى الخبرات الذين سينبثقون من بين صفوف أكثر الفئات قدرة على العمل الخلاق فى المجتمع . وسيكون شعار هذه المهنة هو : « إذا لم يمكن تقديم خبرة (حقيقية) فلنجد لها بديلا ، فإن كنت بارعا حقا فلن يعرف الزبون الفرق ! » هذه التعشية للخط الفاصل بين ما هو حقيقى وما هو زائف سوف تواجه المجتمع بمشكلات خطيرة ، ولكنها سوف لا تمنع أو تؤخر ظهور « صناعات » « الخدمات النفسية » ولا « شركات الصناعات النفسية » . ولسوف يشهد الغد قيام مؤسسات ذات نشاط عالمى تتولى خلق أنماط مجسمة من مدينة « ديزنى لاند » تختلف فى أنواعها وأحجامها ، وقدراتها التأثيرية إلى حدود يصعب علينا تخيلها .

وهكذا فإننا نستطيع أن نتصور الخطوط العريضة لاقتصاد المستقبل ، اقتصاد ما فوق التصنيع وما بعد الخدمات : ستتضاءل باطراد أهمية المكانة التى تحتلها الزراعة والإنتاج السلعى فى الاقتصاد ، وستتناقص باستمرار نسبة نصيبها من القوى العاجلة ، فمع انتشار الأوتوميشن ستصبح مسألة

إنتاج السلع أسهل نسبيا . ولكن تصميم السلع الجديدة وعملية تجهيزها بعناصر سيكولوجية أقوى وأزهى سوف سيكون هو التحدى الأكبر الذى سيواجه أغنى وأمهر منتجى هذه السلع فى المستقبل .

أما قطاع الخدمات ، كما نسميه اليوم ، فسيتسع اتساعا هائلا . ومرة أخرى سنجد أن العنصر السيكولوجى هنا سوف يحتل نسبة متزايدة مما ينفق فى مجال الخدمات من وقت وجهد ومال . إن الخدمات الاستثمارية، مثل أوعية الادخار المشترك مثلا ، قد تقدم بعد عناصر المقامرة بالخبرة لتمد حاملى سنداتها بجوائز غير مالية إضافية كما تقدم شركات التأمين نوعا من البوالص لا تقتصر مزاياه على دفع التأمين فى حالة الوفاة ، ولكن أيضا على العناية بالأرملة أو الأرمل خلال الشهور التالية لوفاة المؤمن بما فى ذلك توفير العلاج النفسى ، والممرضات ، وغير ذلك من أوجه المساعدة . بل قد تقدم أيضا ، اعتمادا على أكداس البيانات المتوافرة لديها عن عميلها ، للمنتفع شريك أوشريكة ، حياة جديدة منتخبة بواسطة الكومبيوتر . وباختصار ، فإن مفهوم الخدمات سيتغير ويتطور إلى حد كبير ، وستصبح النغمة السيكولوجية هى النغمة الأساسية فى كل ما يقدم من خدمات .

وأخيرا فإننا سوف نراقب النمو الحتمى للشركات التى تعمل الآن بالفعل فى حقل إنتاج الخبرة ، وتكوين مؤسسات جديدة تماما ، تجارية وغير تجارية لتجهيز وتوزيع الخبرات المصممة، وسوف تتوسع الفنون لتصبح ، كما قال راسكين أو موريس ، بمثابة وصيفة للصناعة . إن شركات الصناعات النفسية وغيرها ستستخدم أعداداً كبيرة من الممثلين والمخرجين والموسيقيين ، والمصممين . وسوف تنمو صناعات الخدمات الاستجمامية . فى حين أنه ستعاد صياغة مفهوم الاستجمام نفسه فى مصطلحات مستمدة من صناعة الخبرة . إن التعليم الذى تضخم حجمه بالفعل سوف يصبح إحدى الصناعات الأساسية للخبرة عندما يبدأ فى استخدام تكتيكات الخبرة فى نقل المعرفة والقيم إلى الطلبة . وستجد صناعات وسائل الاتصال والكومبيوتر

فى صناعة الخبرة سوقا رائجة لماكيناتها ولمنتجاتها الأرق على حد سواء. وباختصار ، فإن تلك الصناعات التى ترتبط بشكل أو بآخر بتكنولوجيا السلوك، تلك الصناعات التى تعلو فوق إنتاج السلع المادية والخدمات التقليدية سوف تتوسع سريعا . وبالتالى فإن صناع الخبرة سوف يمثلون أحد القطاعات الأساسية للاقتصاد ، إن لم يكن أهم هذه القطاعات .

اقتصاديات الصحة العقلية

جاء فى تقرير أعده قسم التخطيط الطويل المدى بمعهد ستانفورد للبحوث : « أن جوهر اقتصاد الغد سيكون التأكيد على أهمية تلبية الحاجات النفسية والمادية على حد سواء بالنسبة للأفراد والجماعات » . وحسبما جاء بالتقرير ، فإن هذا التأكيد الجديد لم ينشأ فقط عن مطالب المستهلك ولكن من الحاجة إلى ما يحفظ للاقتصاد البقاء : « فى أمة تستطيع أن تشبع حاجات أفرادها المادية بثلاثة أرباع ، وربما بنصف طاقاتها الإنتاجية فقط ، تشتد الحاجة إلى تعديل جذرى يحفظ للاقتصاد انتعاشه » .

إن التقاء هذه الضغوط — من جانب المستهلكين ومن جانب أولئك الحريصين على انتعاش الاقتصاد — هو الذى سيدفع بالمجتمعات المتقدمة تكنولوجيا مستقبلا نحو إنتاج الخبرة .

إن الحركة فى هذا الاتجاه يمكن أن تتأخر . إن جماهير شعوب العالم التى طحنها الفقر قد لا تقف موقف المتفرج ، فى حين أن القلة المحظوظة تجتاز الطريق نحو مثل هذا الإشباع النفسى للذات . فثمة شئ غير مقبول أخلاقيا عندما نرى فئة تسعى من أجل إشباع نفسها سيكولوجيا باحثة بدأب عن ملذات جديدة ومتع نادرة لتنغمس فيها ، فى حين أن الكثرة الغالبة من أبناء الجنس البشرى تعانى الفقر والجوع . ومن ثم فإن الدول المتقدمة تكنولوجيا قد تضطر إلى إرجاء مقدم عصر تصنيع الخبرة ، وأن تحافظ لفترة ما على الاقتصاد التقليدى بالوصول بالإنتاج التقليدى إلى الحد الأقصى ، وبتوجيه موارد أكبر نحو عمليات تحسين البيئة . ثم تشن حملة ضخمة لمحاربة الفقر داخليا ، وبرامج واسعة للمعونة الخارجية .

إن نزع « فائض » الإنتاجية والتخلص منه سوف يكفل للمصانع استمرار الدوران ولفائض الإنتاج الزراعى أن يستهلك ، وأن يستمر نظر المجتمع موجها إلى إشباع الحاجات المادية . إن حملة مداها خمسون عاما من أجل القضاء على الجوع فى العـالم ، على سبيل المثال ، سوف تكون شيئا رائعا لا من ناحية معناها الأخلاقى فحسب ، بل إنها أيضا سوف تتيح للدول المتقدمة وقتا هى فى أشد الحاجة إليه لانتقال أيسر إلى اقتصادالمستقبل .

مثل هذه الفترة قد تتيح لنا وقتا نتأمل فيه التأثيرات الفلسفية والنفسية لإنتاج الخبرة . فإن كان المستهلكون سيصبحون غير قادرين على التميـيز بين الحقيقى والزائف ، وإن كان سيتاح للفرد أن يشترى صيغة جديدة لجانب من جوانب حياته مصممة ومجهزة تجاريا ، فإننا حريون دون شك أن نزج بأنفسنا داخل خضم من المشكلات النفسية والاقتصادية ذات تعقيد يقطع الأنفاس . هذه المشكلات تتحدى أقوى معتقداتنا الأساسية ، ليس فيما يخص الديموقراطية والاقتصاد فحسب ، ولكن حول طبيعة الرشـد والصحة العقلية ذاتها .

إن واحداً من أهم أسئلة عصرنا التى لم تطرح بعد ينبغى أن يكون عن التوازن بين ما هو مباشر وما هو غير مباشر من خبرات حياتنا . إن أيا من الأجيال السابقة لم يتعرض لمعشار ما نصبه نحن الآن على أنفسنا وأبنائنا من خبرات غير مباشرة ، وليس ثمة أحد فى أى مكان لديه فكرة عن مدى تأثير ذلك فى الشخصية . إن أبناءنا ينضجون جسمانيا بأسرع مما كان يحدث لنا . إن سن الحيض لدى البنات يتناقص بمعدل ستة أشهر كل عشر سنوات . والأولاد ترتفع قاماتهم أسرع . ومن الواضح أن كثيرا من شبابنا ، جيل التليفزيون والبحر الزاخر من المعلومات المتاحة فوريا ، يتميزون بالذكاء واتساع الأفق . ولكن ماذا يحدث للنمو العاطفى عندما ترتفع نسبة الخبرات غير المباشرة إلى الخبرات المباشرة أى « الحقيقية » ؟ هل تسهم زيادة الخبرات غير المباشرة فى الإسراع بالنضج العاطفى ؟ أم أنها فى الحقيقة تؤخره ؟

ثم ماذا سيحدث إذن عندما يتجه اقتصادنا ، فى بحثه عن هدف جديد ،

إلى الدخول فى إنتاج الخبرات من أجل مجرد إنتاجها – خبرات تعنى التمييز بين ما هو مباشر وما هو غير مباشر ، وبين ما هو حقيقى وما هو زائف ؟ إن أحد تعريفات الصحة العقلية هو القدرة على التمييز بين الحقيقى والزائف . هل سنحتاج إذن إلى تعريف جديد ؟

مثل هذه المشكلات ينبغى أن نكب على فحصها ودراستها . فإن لم نفعل – وربما إذا حتى فعلنا – فسوف تنتصر الخدمات فى النهاية على التصنيع ، وإنتاج الخبرة على الخدمات . ربما كان نمو قطاع إنتاج الخبرة أمرا حتميا بالنسبة لمجتمع الوفرة . حيث من المسلم به أن إشباع حاجات الإنسان المادية يفتح الطريق أمام إشباعات جديدة أكثر إرهاقا . إننا ننتقل فى الواقع من اقتصاد « البطن » إلى اقتصاد « النفس » لسبب واضح التناقض ، هو أن هناك كثيرا من البطون التى تحتاج إلى الإشباع .

وفوق كل هذا ، فإننا نتحرك نحو مجتمع ترتفع فيه زوالية الأشياء ، والبنى المادية باستمرار : ليست فقط علاقة الإنسان بهذه الأشياء ، ولكن الأشياء ذاتها أيضا : ربما كانت الخبرات هى المنتجات الوحيدة التى ما إن يقتنيها المستهلك حتى يستحيل عليه الانفصال عنها ، والتخلص منها كما يفعل بزجاجات الصودا الفارغة أو مواسى الحلاقة .

بالنسبة لنبلاء اليابان فى العصور السابقة ، كانت كل زهرة وكل طبق أو إزار ، تحمل فيضا زائدا من المعانى ، وحملا ثقيلا من الرموز والدلالات الطقوسية . إن تحركنا نحو إدخال العنصر النفسى إلى السلع المصنعة يحملنا إلى مثل هذا الاتجاه ، ولكنه يتصادم مع الاتجاه العارم القوة نحو الزوالية والذى يضفى صفة الفناء على الأشياء ذاتها . ومن ثم فإنه سيكون أيسر علينا أن نخص خدماتنا بالدلالات الرمزية من أن نضفيها على سلعنا . ثم فى النهاية سنذهب إلى ما وراء اقتصاد الخدمات ، إلى ما وراء خيال الاقتصاديين المعاصرين ، سوف نصبح أول ثقافة فى التاريخ تستخدم التكنولوجيا المتقدمة فى صناعة أكثر المنتجات زوالية وبقاء فى نفس الوقت : الخبرة الإنسانية .



الفصل الحادى عشر

الأسـرة الممـزقة

إن فيضان الجدة الذى توشك أمواجه أن تغمرنا سوف يمتـد من الجامعات ومراكز البحث إلى المصانع والمكاتب ، ومن الأسواق ووسائل الاتصال العـام إلى علاقاتنا الاجتماعية ، ومن المجتمع إلى البيت ، متغلغلا إلى أعماق حياتنا الخاصة ، مصيبا الأسرة ذاتها بتوترات لا عهد لها بمثلها من قبل .

لقد أطلقوا على الأسرة اسم « ممتص الصدمات العملاق » فى المجتمع — المكان الذى يعود إليه الأفراد ليستريحوا ويتداووا من جراحات صراعهم مع العـالم ، والموضع المستقر داخل بيئة مفعمة بالتذبذب . إن « ممتص الصدمات » سوف تأتى من ناحيته ، ومع تفجر ثورة ما فوق التصنيع ، بعض الصدمات الخاصة به .

إن لدى النقاد الاجتماعيين قائمة حافلة من الاستنتاجات المتعارضة حول مستقبل الأسرة . فهناك المتشائمون من أمثال فيرديناند ليندبرج ، مؤلف كتاب « التحول المقبل فى العـالم » الذى يقول : « إن الأسرة تقترب من نقطة الانقراض التام » ؛ وأخصائى التحليل النفسى وليام وولف الذى يؤكد : « أن الأسرة قد ماتت بالفعل ، فيما عدا العام الأول أو العامين الأولين من تنشئة الطفل » ، و « أن هذه سوف تصبح وظيفتها الوحيدة » . إن المتشائمين ينذروننا بأن الأسرة تسرع نحو الانقراض — ولكن نادرا ما يقولون لنا ماذا سيحل محلها ؟ ؟

وعلى النقيض من ذلك ، فإن المتفائلين يؤكدون أن الأسرة وقد بقيت كل هذا الزمان ، فإنها سوف تستمر فى البقاء . وبعضهم يذهب فى تفاؤله إلى حد القول بأن الأسرة مقبلة على عصر ذهبى . وفى رأيهم أنه ، مع

اتساع أوقات الفراغ ، سوف يقضى أفراد الأسرة معا وقتا أطول ، ويحصلون على متع أكبر من خلال مناشطهم المشتركة . وإن « الأسرة التى تلهو مجتمعة ، ستظل مجتمعة » إلى آخره .

وثمة نظرة أخرى أكثر تعمقا ترى أن نفس الاضطراب الذى سيتعرض له العالم فى المستقبل ، هو الذى سيدفع بالناس إلى أحضان الأسرة . يقول الدكتور إروين.م. جرينبرج ، أستاذ الأمراض العقلية بكلية ألبرت آينشتين للطب : « إن الناس سوف يتزوجون بحثا عن بناء مستقر » . وفى رأيه أيضا أن الأسرة سوف تكون للفرد بمثابة « جذور محمولة » ومرساة على شاطئ الأمان للفرد وسط عاصفة التغيير . وباختصار فكلما أصبحت البيئة أكثر زوالية وتجددا ، أمست الأسرة أكثر أهمية .

ربما كان كلا الجانبين مخطئا فى هذه المناظرة ؛ لأن المستقبل أكثر انفتاحا مما قد يبدو للكثيرين . والأسرة قد لا تختفى ، وأيضا فإنها قد لا تكون مقبلة على عصر ذهبى . إنها – وهذا هو الأرجح – قد تتفكك ، وتتشتت فقط ، لتلتئم من جديد فى أشكال أصلب وأكثر جدة .

أسطورة الأمومة

لعل أقوى ما ستتعرض له الأسرة من مؤثرات خلال بضع عشرات السنين القادمة ، هو تلك التأثيرات التى ستحدثها تكنولوجيا الإنجاب الجديدة . إن القدرة على التحكم فى جنس المولود ، بل حتى على تصميم درجة ذكائه ، وملامحه وخطوط شخصيته ، ينبغى أن تنظر إليها الآن كإمكانية واردة . إن زرع الأجنة ، وابتلاع حبة ما لضمان إنجاب توأمين أو ثلاثة وربما أكثر ، والقدرة على الدخول إلى « معرض أجنة » وشراء ما ترغب فيه منها بالفعل – كل هذه الأبعاد التى لم تقترب من مثلها أى خبرة إنسانية سابقة ، تدعو الإنسان إلى أن ينظر إلى المستقبل بعينى شاعر أو رسام ، أكثر منه بعينى عالم اجتماع أو فيلسوف تقليدى .

إن مناقشة مثل هذه الأمور ، ينظر إليها على أنها شئ غير علمى ، بل حتى ضرب من العبث . . ومع ذلك فإن التقدم العلمى ، والتكنولوجى ،

أو فى بيولوجيا التكاثر النوعى وحدها ، يمكن أن يؤدى خلال زمن قصير إلى تحطيم كل الأفكار التقليدية عن الأسرة ومسئولياتها . فعندما يصبح من الممكن ، مثلا ، تنمية طفل داخل إناء بالمعمل ، ماذا سيحدث عندئذ لمفهوم الأمومة . . ؟ وماذا سيحدث لصورة الأنثى فى المجتمعات التى نشأتها منذ بداية وجود الإنسان على فكرة أن رسالتها الأساسية فى الحياة هى حفظ وتنمية الجنس البشرى ؟

قليل هم أساتذة الإجتماع الذين شغلوا أنفسهم بمثل هذه الأسئلة ، وواحد من هذه القلة هو الدكتور هايمان .ج. وايتزن مدير قسم الأمراض العقلية والعصبية فى مستشفى البوليكلينيك بنيويورك والذى يرى : « أن دورة الولادة تشبع لدى معظم النساء حاجة من أهم الحاجات الخلاقة . . . ومعظم النساء تزدهيهن القدرة على حمل الأطفال . . . . وفى فنون آداب الشرق والغرب على حد سواء، تستطيع أن ترى بوضوح تلك الهالة الخاصة التى تحيط بالمرأة الحامل » .

ويتساءل وايتزن عن : ماذا سيحدث لمقدسى الأمومة فى حالة ما « إذا كان وليد الأم ليس ابنها فى الحقيقة وإنما نتاج بويضة ذات خصائص وراثية : « أعلى » زرعت فى رحمها بعد أخذها من رحم امرأة أخرى . . أو « عندما تربى الأجنة فى أوانى المعامل ؟ » ويرى وايتزن أنه إذا كانت ستكون للنساء مستقبلا أى أهمية، فلن يكون ذلك بسبب قدرتهن على الحمل والإنجاب . . إننا فى الواقع نهدم قدس الأمومة .

ليست الأمومة فحسب ، ولكن مفهوم الوالدية كله قد يتعرض لتعديل جذرى . . فالحقيقة أنه لم يعد بعيدا ذلك اليوم الذى قد يجد فيه الطفل أنه : « بيولوجيا » ابن لأكثر من أبوين . لقد نجحت الدكتورة بياتريس مينتز أخصائية البيولوجيا بمعهد بحوث السرطان بفيلادلفيا فى إنتاج ما أطلق عليه وصف « الفئران المتعددة الأنساب » . وهى فئران ينتمى كل منها إلى أكثر من أبوين . لقد أخذت أجنة من رحمى فأرتين حاملتين ووضعتهما فى صحفة من صحاف المعمل ، وتعهدتهما بالتغذية والعناية

حتى صارت كتلة إنجاب ، واحدة ، ثم زرعتها فى رحم فأرة ثالثة . وهكذا ولدت فئران تحمل الصفات الوراثية لكل من زوجى الفئران الواهبين . كانت للفئران الوليدة فراء وشوارب بيضاء على أحد جانبى الوجه ، وفراء وشوارب داكنة على الجانب الآخر ، بينما تغطى جسمها خطوط متبادلة من الشعر الأبيض والشعر الداكن . لقد بلغ عدد الفئران التى نشئت بهذه الطريقة ٧٠٠ فأر وفأرة . أنتجت بدورها أكثر من ٣٥,٠٠٠ . ترى هل يعنى وجود الفئران المتعددة الأنساب اليوم أن الإنسان المتعدد الأنساب قادم فى الطريق . . ؟

ومن يكون الوالد والوالدة فى مثل هذه الحالات ؟ عندما تحمل امرأة فى رحمها جنينا أخصب فى رحم امرأة أخرى ، فأيهما تكون أمه ؟ ! وأيضا من يكون أبوه ؟ ! .

إذا استطاع زوجان بالفعل أن يشتريا جنينا مخصبا فإن الوالدية تصبح هنا مسألة قانونية ، وليست مسألة بيولوجية . . مثل هذه المعاملات إن لم توضع فى إطار تحكم دقيق ، فإن الإنسان يستطيع أن يتصور حدوث أكثر الأمور غرابة ، كأن يشترى زوجان جنينا وينشأ فى إناء بمعمل ، وما إن « يولد » حتى يشتريا آخر باسم الأول كما يحدث فى شراء السندات فى هذه الحالة يصبحان جدين ، فى حين أن طفلهما الأول لم يتجاوز مرحلة الرضاعة . ولسوف نكون فى حاجة إذن إلى كلمات جديدة تماما لنصف بها صلات القربى .

بل أكثر من هذا : إذا فرضنا أن الأجنة أصبحت معروضة للبيع . فهل تستطيع شركة ما أن تشترى واحدا ؟ أو عشرة آلاف ؟ وهل تستطيع أن تبيعهم ؟ وإن لم تكن الشركة تستطيع فهل يستطيع معمل بحوث غير تجارى ؟

وإن كنا سنشترى ونبيع الأجنة الحية ، فهل نحن فى الطريق إلى استحداث شكل جديد من أشكال العبودية ؟ مثل هذه الأسئلة المزعجة حرية بأن تطرح للمناقشة عما قريب . ومن ثم فإن استمرار التفكير فى موضوع الأسرة بنفس المصطلحات التقليدية أمر يتنافى مع المنطق .

إن إنسان مجتمع ما فوق التصنيع عندما يواجه بالتغييرات الاجتماعية السريعة ، ومضمونات الثورة العلمية المذهلة قد يضطر إلى تجربة أشكال جديدة للأسرة . ويمكن أن نتوقع من القلة المجددة أن تجرب عديدا متنوعا من الترتيبات الأسرية . وهم لا شك سيبدأون من نقطة معالجة الأشكال القائمة حاليا .

الأسرة المشــذبة

ومن بين الأشياء البسيطة التى سيأخذونها فى اعتبارهم مسألة تشذيب الأسرة : إن الأسرة فى عصر ما قبل التصنيع لم تكن كثيرة الأطفال فحسب ، بل كانت أيضاً تضم الأجداد ، والأعمام ، والعمات ، وأبناء العمومة . مثل هذه الأسر « الموسعة » كانت مناسبة للحفاظ على البقاء فى المجتمعات الزراعية البطيئة الحركة . ولكن مثل هذه الأسرة يصعب نقلها أو انتقالها . . إنها بطبيعتها غير متحركة .

ثم تطلب التصنيع جموعا من العمال المستعدين والقادرين على الانتقال فى طلب العمل . ثم الانتقال مرة أخرى ومرات إذا ما دعت الضرورة . وهكذا نفضت الأسرة « الموسعة » أحمالها الزائدة على كاهلها . وبرزت إلى الوجود الأسرة « النووية » أى الأسرة المضيقة السهلة الانتقال والتى تتكون من الوالدين وعدد محدود من الأطفال ، وأصبح هذا النمط من الأسر هو النمط السائد فى كل البلاد الصناعية .

ولكن عصر ما فوق التصنيع ، المرحلة التالية فى التطور التكنولوجى للبيئة ، يتطلب قدرة أكبر على الحركة والانتقال . ومن ثم فإننا نتوقع من الكثيرين فى المستقبل أن يخطوا خطوة أبعد فى مجال تشذيب الأسرة ، وذلك بإنقاص حجم الأسرة إلى الحد الأدنى الذى دونه لا يمكن أن تسمى بأسرة ، أى إلى شخصين فقط ، رجل وامرأة . إن فردين اثنين ، ربما من نفس المهنة ، سوف يكونان أسرة ، أقدر على مواجهة عمليات التنقل المستمر من عمل إلى عمل ، ومن مكان لآخر ، من الأسرة الموقرة بالأطفال . والواقع أن عالمة الأنثروبولوجيا الشهيرة مرجريت ميد قد أشارت إلى أننا

قد نكون بدأنا بالفعل بالتحرك فى اتجاه نظام ستنحصر فى ظله الوالدية ، حسب قولها : « فى عدد محدود من الأسر التى ستكون وظيفتها الرئيسية هى إنجاب الأطفال » بينما سيترك باقى السكان « ليعملوا بحرية — ولأول مرة فى التاريخ — كأفراد » .

وكحل وسط ، قد يعمد الزوجان إلى إرجاء الإنجاب بدلا من منعه منعا باتا . إن الرجال والنساء اليوم غالبا ما يتنازعهم الولاء للمهنة والولاء للأطفال ، أما فى المستقبل فسوف يتخطى الكثير من الأزواج هذه المشكلة بإرجاء الإنجاب إلى ما بعد التقاعد .

قد يبدو مثل هذا الأمر بالمقاييس الراهنة ، شاذا ، ولكن عندما ينفصل إنجاب الأطفال عن قاعدته البيولوجية المعهودة فلن يبقى هناك ما يفرض إنجاب الأطفال فى سن مبكرة غير ما اصطلح عليه من تقاليد . فلماذا إذن لا تنتظر ، ثم تبتاع فيما بعد ما تحتاج إليه من أجنة . بعد انتهاء حياتك العملية ؟ وهكذا فإنه من المحتمل ، أن يكون عدم الإنجاب هو الظاهرة الأكثر انتشارا بين الأزواج الشباب والمتوسطى العمر فى المستقبل ، وأن يكون الأزواج ممن تعدوا الستين هم أكثر الأزواج تنشئة للأطفال . إن أسرة ما بعد التقاعد قد تصبح من بين أبرز ملامح مجتمع المستقبل .

والدان بالنسب ووالدان بالمهنة

إذا فرضنا أن مهمة تنشئة الأطفال ستنحصر فى عدد محدود من الأسر ، فهل من المحتم أن يكون هؤلاء الأطفال من إنجاب هذه الأسر بالذات ؟ ولماذا لا يقوم نظام يتولى فى ظله « أبوان محترفان » وظيفة تنشئة أطفال الآخرين ؟

إن تنشئة الأطفال ، كما نعلم ، تحتاج إلى مهارات ليست بأى حال متوافرة لدى الجميع . إننا لا نسمح « لمجرد أى فرد » بأن يجرى جراحة المخ ، أو حتى أن يبيع الأسهم والسندات . فحتى أدنى الموظفين المدنيين مرتبة لابد من أن يجتاز اختبارات معينة للتثبت من أنه كفؤ لما سيعهد به

إليه من عمل . ومع ذلك ، فإننا نسمح بالفعل لأى إنسان كائنا من كان ، وبصرف النظر عن قدراته العقلية والمعنوية ، بأن يجرب حظه ، أو حظها ، فى تنشئته كائنا بشريا ما دام هذا الكائن نتاجا بيولوجيا له . إن مهمة الوالدية ، بالرغم مما يحيط بها من تعقيد متزايد ، ما زالت أكبر المهام وقفا على الهواة .

ومع تقوض النظام الحالى : وزحف ثورة ما فوق التصنيع على أنقاضه ، ومع تضخم جيش الأحداث الجانحين ، ومئات الألوف من الشباب الذين يهربون من بيوتهم ، وتفاقم ثورة الطلبة فى جميع البلاد المتقدمة تكنولوجيا ، فإننا نتوقع أن ترتفع الصيحات المطالبة بوضع حد لهواية الوالدية .

لا جدال فى أن هناك أساليب أفضل لمعالجة مشكلات الشباب ، ولكن هذا لا يمنع من أن تكون الوالدية المحترفة من بين الأساليب المقترحة ، فهى على الأقل أسلوب ملائم تماما لاتجاه المجتمع بشكل عام إلى مزيد من التخصص . وفوق هذا فثمة حاجة اجتماعية ملحة ، طال كبتها ، إلى هذا التجديد . إن ملايين الآباء ، حتى فى وقتنا الراهن ، مستعدون فيما لو أتيحت لهم الفرصة للتخلى عن مسئولياتهم الوالدية ، ليس بالضرورة بدافع من الاستهتار أو الافتقار إلى الحب ، ولكنهم بفعل عوامل متعددة قد ثبت لديهم عدم كفايتهم لمثل هذا العمل . وكثير من هؤلاء على استعداد ، على فرض توافر اليسر المالى ، ووجود والدين محترفين مؤهلين جيدا ومعتمدين رسميا ، أن يتخليا لهما عن أطفالهما ، وأن يعتبرا مثل هذا العمل عملا دافعه الحب ، وليس النبذ .

إن الوالدين المحترفين لن يمارسا ضربا من المهن العلاجية . . بل سيكونان وحدة أسرية حقيقية مخصصة لتنشئة الأطفال ومجازاة على عملها بسخاء . مثل هذه الأسر قد تصمم بحيث تضم أجيالا مختلفة حتى تتاح للأطفال فرصة مشاهدة نماذج متنوعة من البالغين والتعلم منهم ، كما كان يحدث فى منزل الأسرة الموسعة القديمة بالمجتمع الزراعى . وعندما يجد البالغون أنهم يجازون بسخاء عن قيامهم بمهمة الوالدين المحترفين ، فلن يجدوا هناك إذن أى ضرورة للتنقل المستمر . ومثل هذه الأسر ينبغى أن تقبل بين صفوفها كلا من الأطفال

الجدد والكبار « الحريجين » لضمان التخفيف إلى أدنى حد ممكن من وطأة الإحساس بفوارق السن .

وهكذا فليس بمستبعد أن تطالعنا صحف الغد بإعلانات تخاطب الزوجين من الشباب قائلة : « لماذا تجعلان من الوالدية قيدا عليكما ؟! دعانا ننشئ طفلكما حتى يصير شابا ناجحا . أسرة محترفة من الدرجة الأولى تقدم : أبا فى سن ٣٩ وأما سن ٣٦ ، وجدة سن ٦٧ ، وعما وخالة سن ٣٠ يعيشان معها ويعملان بعض الوقت فى وظائف محلية . وجدة من أربعة أطفال بها مكان شاغر لطفل من ٦ — ٨ سنوات ، نظام تغذية أعلى من المستوى المقرر بواسطة الحكومة ، جميع البالغين حائزون على مؤهلات فى تنمية الأطفال ورعاية شئونهم . الزيارات المتكررة والمحادثات التليفونية مسموح بها للوالدين البيولوجيين ، ومسموح أيضا للطفل بقضاء إجازة الصيف معهما . ترتيبات خاصة لتشجيع النشاط الدينى والفنى . مدة التعاقد خمس سنوات . اكتب إلينا فى طلب تفاصيل أكثر » .

إن الوالدين « الحقيقيين » أو « البيولوجيين » قد يقومان — كما يقترح الإعلان — بدور الأبوين الزوجيين الذى يقوم به فى الوقت الراهن أصدقاء الأسرة المقربون . وبمثل هذا الأسلوب قد يستطيع المجتمع أن يستمر فى تنشئة أنماط متنوعة من أطفال ذوى صفات وراثية مختلفة ، وأن يعهد بهم إلى آباء وأمهات مؤهلين عقليا وعاطفيا للعناية بالأطفال .

كوميونات

إن البديل المخالف تماما للأسرة المحترفة يكمن فى الأسرة الجماعية ، أى « الكوميونية » . فنظرا لما يسببه الارتفاع المستمر للزوالية فى المجتمع من تفاقم الشعور بالعزلة والاغتراب ، فإننا نتوقع إذن زيادة فى ما يجرى من تجارب لأشكال مختلفة من الزواج الجماعى . إن الجمع بين أعداد كبيرة من البالغين والأطفال فى « أسرة » واحدة يكفل نوعا من التأمين ضد العزلة . وحتى عندما ينفصل عضو أو اثنان من الأسرة ، فإن من يبقى من أعضائها

يجدون فى أنفسهم ما يكفيهم . إن الكوميونات المكونة على النمط الذى وصفه الاخصائى النفسى ب . ف . سكينر فى كتابه « والدن الثانى » ، والروائى روبرت ريمر فى كتابه : « تجربة هاراد والاقتراح ٣١ » ينبثق فى أماكن متعددة . إن ريمر يقترح جادا فى كتابه الاعتراف بشرعية « الأسرة المندمجة » التى تتكون من ثلاثة إلى ستة من البالغين الذين يتبنون اسما واحدا ، ويعيشون وينشئون الأطفال بطريقة جماعية . ويندمجون قانونيا للحصول على المزايا الاقتصادية والضرائبية المترتبة على مثل هذا الاندماج .

وطبقا لمـــا يؤكده المراقبون فثمة مئات من الكوميونات الظاهرة والخفية تنتظم الآن خريطة الولايات المتحدة الأمريكية . وليست كل هذه الكوميونات ، بأى حال من الأحوال ، مكونة من الشباب أو من الهيبيين . فبعضها قد نظم من أجل أهداف معينة — كالمجموعة التى تمولهـا ثلاث من كليات الشاطئ الشرقى ، والتى تتولى مهمة تألف الطلاب المبتدئين ومساعدتهم على التكيف مع الحياة الجامعية . وتتنوع أهداف هذه الكوميونات . فمنها ما هو اجتماعى ، ودينى ، وسياسى ، وحتى ترفيهى . وهكذا فليس بمستبعد أن نشهد عما قريب أسرا كوميونية من هواة الانزلاق على الأمواج العالية بالقوارب المصمتة تنتشر على سواحل كاليفورنيا وجنوب فرنسا ، هذا إن لم تكن قد وجدت بالفعل . وسوف نشهد قيام كوميونات مكونة على أسس من مذاهب دينية وسياسية . لقد قدم إلى برلمـــان الدانمارك مشروع قانون يبيح الزواج الجماعى ، وبالرغم من عدم توقع الموافقة على هذا المشروع ، إلا أن مجرد التقدم به ، له فى حد ذاته دلالته القوية كمؤشر للتغيير .

وفى شيكاغو ، يعيش ٢٥٠ من البالغين والأطفال معا بالفعل فيما يمكن أن يسمى « رهبانية ذات نسق أسرى » ، وذلك تحت رعاية منظمة دينية تنمو بسرعة ؛ هى المعهد المسكونى . وأعضاء هذا الكوميون يتقاسمون العيش فى مبنى واحد . يطهون طعامهم ويأكلون معا ، ويتعبدون ويرعون أطفالهم بأسلوب جماعى ، ويجمعون دخولهم فى صندوق مشترك . لقد بلغ عدد من تلقوا برامج المعهد المسكونى ٦٠,٠٠٠ على الأقل ، كما بدأت كوميونات

أخرى على نسق كوميون شيكاغو تنبثق فى أتلانتا ، وبوسطون ، ولوس انجليس وغيرها من المدن . ويقول البروفيسور چوزيف . و . ماثيو زعيم المعهد المسكونى : « إن عالمـــا جديدا ينبثق ، ولكن الناس لا يزالون يعملون بأساليب العالم القديم . . إننا نهدف إلى إعادة تعليم الناس وبإمدادهم بالأدوات اللازمة لبناء نسيج اجتماعى جديد » .

وثمة نمط آخـــر من الوحدات الأسرية حرى بأن يجد الكثير من المشجعين فى المستقبل ، ذلكم هو ما يمكن أن نطلق عليه اسم « كوميون الشيخوخة » — وهو ضرب من الزواج الجماعى للمسنين الباحثين عن الرفقة والرعاية ، إنهم ، وقد انفصلوا عن النشاط الاقتصادى المنتج والذى يجعل من التحرك ضرورة لا غنى عنها ، سيستقرون فى مكان واحد ، مترابطين ، مسهمين بدخولهم جماعيا فى توفير ما يحتاجون إليه من خدمات أو تمريض ، محاولين — على قدر المستطاع — أن يحققوا أكبر استمتاع بحياتهم .

إن الكوميونية تسير فى الاتجاه المقابل لمـــا يولده الاندفاع نحو مجتمع ما فوق التصنيع من ضغوط طلبا لمزيد من سرعة التنقل اجتماعيا وجغرافيا . إنها تفترض سلفا وجود مجموعات من الناس الذين يفضلون أن « يبقوا حيث هم ». ومن ثم فإن التجارب الكوميونية سوف تتكاثر أولا بين أولئك المنطلقين من القيود التى يفرضها النظام الصناعى — المتقاعدين ، والشباب ، والفاشلين ، والطلبة ، وأيضا بين أصحاب المهن الحرة العاملين لحسابهم الخاص . وفيما بعد ، عندما تجعل التكنولوجيا ونظم المعلومات المتقدمة من الممكن أن تؤدى الكثير من أنواع نشاط المجتمع من المنازل عن طريق الكومبيوتر ووسائل الاتصال اللاسلكية ، فإن الكوميونية ستشمل أعدادا أكبر ، وفئات أكثر ، من السكان .

وعلى أى حال ، فإننا سوف نشهد أيضا أنماطا من الوحدات « الأسرية » المكونة من فرد أعزب وطفل أو أكثر . ولن يكون كل هؤلاء العزاب ، من النساء . فلقد أصبح ممكنا بالفعل ، فى بعض الأنحاء ، للرجل الأعزب ، أن يتبنى الأطفال . وعلى سبيل المثال ، ففى سنة ١٩٦٥ وفى ولاية أوريجون ، أصبح تونى بياتزا — وهو موسيقى فى الثامنة والثلاثين — أول رجل أعزب

يحصل على حق تبنى طفل فى هذه الولاية ــ وربما فى الولايات المتحدة بأسرها .
ولقد أصبحت المحاكم أيضا أكثر استعدادا للحكم للآباء المطلقين بحضانة أبنائهم .
فنى لندن كسب المصور الفوتوغرافى مايكل كوبر حق حضانة طفله ، وكان كوبر قد تزوج فى سن العشرين زواجا أعقب طفلا ثم انتهى بطلاق سريع .
ولم يكتف كوبر بحضانة طفله ، بل أبدى رغبة فى تبنى أطفال آخرين ، لقد عبر كوبر عن حقيقة كونه مغرماً بالأطفال ، وإن كان لا ينبغى أن يتزوج ثانية ، بأن قال صائحا يمزح : « وددت لو كان باستطاعتى أن أسأل السيدات الجميلات أن ينجبن لى أطفالا . أو أى سيدة أحس ميلا إليها أو أجد فيها شيئا يعجبنى . إننى أحب أن يكون لدى بيت كبير ملىء بالأطفال ــ من كل الألوان ، والأشكال ، والأحجام » نظرة رومانسية ؟ أم منافية للرجولة ؟ ربما . . ومع ذلك فإن مثل هذه النظرة سنجدها لدى الكثيرين من الرجال فى المستقبل . هناك حقيقتان تضغطان على ثقافتنا حتى تلين وتتقبل فكرة تبنى الرجال العزاب للأطفال : الحقيقة الأولى توافر الأطفال القابلين للتبنى فى كثير من الأنحاء ، فنى كاليفورنيا مثلا ، كثيرا ما تتخلل برامج التليفزيون إعلانات من قبيل ذلك الإعلان الذين يخاطب المشاهدين قائلا : « إن لدينا عديداً من الأطفال الرائعين من كل الأجناس والقوميات فى انتظار أن يحملوا الحب والسعادة إلى الأسر المناسبة . . . اتصل بمكتب التبنى لمنطقة لوس انجليس » . والثانية أن وسائل الاتصال العام ، وبلا سابق اتفاق بينها ، تبدو كأنها قد قررت كلها فى وقت واحد أن الجمهور يولى اهتماما خاصا بالرجال الذين ينشئون الأطفال . إن عددا من أنجح برامج التليفزيون التى ظهرت خلال المواسم الأخيرة تمجد البيوت التى لا نساء بها ، والتى يقوم الرجال فيها بالمسح والطهى ، وأهم من كل هذا ، بتربية الأطفال .
ومن الأمثلة على هذه البرامج : « أبنائى الثلاثة » و « الرامى » و « بونانزا » و « الأب الأعزب » .

ولقد نعاين أيضا تخفيفا تدريجيا للقيود المفروضة على تعدد الزوجات .
إن الأسر القائمة على تعدد الزوجات موجودة بالفعل بين ظهرانينا وبأكثر

مما قد نتصور . إن الكاتب بن ميرسون ، بعد أن زار العديد من هذه الأسر فى أوتاه ، حيث ما زال تعدد الزوجات شيئا ضرورياً لدى المتمسكين من طائفة المورمون ، قدر عدد الأشخاص الذين يعيشون ضمن وحدات أسرية خفية من هذا النوع فى الولايات المتحدة بأكثر من ٣٠,٠٠٠٠ شخص . وعندما تصبح النظرة حيال الجنس أكثر تسامحاً ، وحقوق الملكية — مع تزايد الوفرة — أقل أهمية ، فإن الحظر الاجتماعى على تعدد الزوجات قد يصبح شيئاً لا معنى له ، وقد يسهل من ذلك كثرة التنقل ذاتها ، والتى تضطر الرجال إلى قضاء فترات لا يستهان بها من الوقت بعيداً عن بيوتهم . إن حلم الرجال القديم بجنة القبطان الذى له فى كل ميناء زوجة ، قد يصبح حقيقة بالنسبة للبعض ، بالرغم من أنه فى مثل هذه الحالات قد تطالب الزوجات الوحيدات بحقوق جنسية خارج دائرة الزواج . إن قبطان الأمس لم يكن ليقبل مجرد النظر فى مثل هذه الإمكانية ، أما مزواج الغد فقد تكون له نظرة مختلفة . .

وهناك شكل آخر من أشكال الأسر ينبثق الآن بيننا ، إنه وحدة جديدة من وحدات تنشئة الأطفال أسميها أنا : « الأسرة الكلية » — أسرة قائمة على العلاقات بين أزواج من المطلقين والمتزوجين يصبح الأطفال فيها جزءاً من « أسرة كبيرة واحدة » . وبالرغم من أن الأخصائيين الاجتماعيين لم يعيروا هذه الظاهرة التفاتاً يذكر حتى وقتنا هذا ، فإنها باتت محسوسة لدرجة أنها كانت بمثابة القاعدة التى بنى عليها مشهد صاخب فى فيلم أمريكى حديث هو فيلم « الطلاق على الطريقة الأمريكية » . ومن المتوقع أن يحتل هذا النمط من الأسر مكانة متزايدة الأهمية خلال العقود القليلة القادمة .

إن الزواج العديم الأطفال ، والوالدية المحترفة ، وتنشئة الأطفال بعد التقاعد ، والأسر المندمجة ، والكوميونات ، وزواج الشيخوخة الجماعى ، وتعدد الزوجات — كل هذه ليست إلا قليلا من كثير من أشكال الأسر التى سوف تجربها الأقليات المبتدعة خلال العقود القليلة القادمة . ومن المسلم به أننا لن نكون جميعاً راغبين فى ممارسة أى من هذه التجارب ، ولكن ماذا عن الأغلبية ؟

إن الأقلية هى التى تجرب ، أما الأغلبية فتتشبث بالقديم . ويمكن أن نقول باطمئنان إن أعداداً كبيرة من الناس سوف ترفض أن تنبذ الفكرة التقليدية عن الزواج، أو الأشكال المـألوفة للأسرة . إنهم ولا شك سيستمرون فى البحث عن السعادة داخل نفس الأطر التقليدية للزواج والأسرة . ولكن حتى هؤلاء المستمسكين سوف يضطرون فى النهاية إلى الابتداع ، لأن فرصتهم فى النجاح مرجوحة ، فى حين أن فرص إخفاقهم فى الاستمساك بالقديم راجحة ، بل طاغية .

إن النمط التقليدى يفترض سلفاً أن الشاب والفتاة سوف « يعثر » أحدهما على الآخر ويتزوجان . . كما أنه يفترض سلفاً أن كلا منهما سيجد فى الآخر إشباعاً لاحتياجات نفسية معينة ، وأن شخصيتهما سوف تسيران ، متلازمتين تقريباً ، على مر السنين ، بحيث تستمر قدرة أحدهما على إشباع حاجات رفيقة . وهو أيضاً يفترض سلفاً أن هذه العملية ستدوم « حتى يفرق بيننا الموت » .

هذه التوقعات راسخة فى أعماق ثقافتنا . . إن فكرة الزواج لسبب غير الحب وحده ، لم تعد تلقى ما كانت تلقاه من قبل من احترام . إن الحب قد تحول من مجرد شئ لا يحوز سوى اهتمام سطحى من جانب الأسرة إلى الشئ الأساسى فى كيانها ذاته . والواقع أن البحث عن الحب من خلال الحياة العائلية قد أصبح لدى الكثير هدف الحياة ذاتها .

والحب ، على كل حال ، معروف بأشراط تنتمى إلى مفهوم المقاسمة هذا : منظور إليه على أنه نسيج جميل من حاجات يتم بعضها بعضاً ، تتدفق من وإلى كل من المتحابين ، مشبعة حاجة كل منهما إلى الآخر . . خالقة إحساساً بالدفء ، والحنان ، والإخلاص . إن الأزواج التعساء يشكون دائماً من أنهم « قد هجروا زوجاتهم » من أجل تحقيق نموهم الاجتماعى أو التعليمى أو الثقافى . أما الشريكان فى زواج سعيد ، فيقال عنهما إنهما قد « نموا معاً » .

وتلقى نظرية « النمو المتوازى » فى الحب تأييداً كبيراً من مستشارى الزواج وعلماء النفس والاجتماع . وهكذا نجد نلسون فوت ، عالم الاجتماع المتخصص فى شئون الأسرة ، يقول : إن نوعية العلاقة بين الزوج والزوجة تعتمد على « درجة الانسجام فى مراحل نموها المقارنة ، المتميزة فى نفس الوقت » .

فإذا كان الحب نتاجاً لتقاسم النمو ، وكنا نقيس نجاح الزواج بدرجة تناسب وانسجام ما يحدث من نمو للزوجين بالفعل ، فإننا نستطيع إذن أن نلمح نذر الشؤم التى تهدد الحب فى المستقبل .

فمن الممكن التدليل على أنه ، حتى فى المجتمعات الراكدة نسبياً ، تتراكم القرائن والمرجحات الإحصائية ضد إمكانية نجاح أى زوجين مستقبلا فى تحقيق مثل هذا النمو المتوازى المثالى . إن فرص نجاحهما تتضاءل فى الواقع كلما تسارع معدل التغيير فى المجتمع ، كما يحدث الآن . ففى مجتمع يتحرك بسرعة ، حيث كل شئ يتغير ، لا مرة واحدة ، بل مرات ومرات ، وحيث الزوج فى حركة صعود وهبوط دائمة لعديد مختلف من السلالم الاجتماعية والاقتصادية ، وحيث يتكرر انتزاع الأسرة مرة بعد مرة من موطنها وبيئتها الاجتماعية ، وحيث يتحرك الأفراد بعيداً عن أبويهم وبعيداً عن أصولهم ودياناتهم ، وبعيداً عن قيمهم التقليدية ، حيث يحدث كل هذا ستكون حقا معجزة أن يحقق الزوجان نمواً ذا معدلات متوازية .

فإذا ما ارتفع فى نفس الوقت متوسط الأعمار ، ولنقل مثلا من خمسين إلى سبعين عاماً . ومن ثم طال الأمد المفروض أن تستمر فيه هذه اللعبة البهلوانية من التوازى فى النمو ، فإن القرائن ضد النجاح سوف تنمو بمعدلات فلكية . وهكذا نجد نلسون فوت يكتب بمرارة ولكن فى لهجة مخففة : « إذا توقعنا للزواج أن يدوم فى ظل الظروف الحديثة إلى ما لا نهاية ، فإننا نكون حقاً مبالغين فى توقعاتنا » . وبديهى أن توقع دوام الحب سيكون مبالغة أكبر . إن الزوال والجدة قد تحالفا ضده .

الزواج المؤقت

إن القرائن والمرجحات الإحصائية المتراكمة ضد الحب ، هى نفسها التى تشير إلى الارتفاع الهائل فى معدلات الطلاق والانفصال فى المجتمعات المتقدمة تكنولوجياً ، فحيثما كانت معدلات التغيير أسرع ومعدل العمر أطول ، كان ارتفاع هذه القرائن إلى الأسوأ . إن شيئاً ما يوشك أن يتقوض .

والحقيقة أن شيئاً ما قد تقوض فعلا — ذلكم هو الإصرار القديم على الثبات . إن الملايين من الرجال والنساء الآن ينتهجون ما يعتبرونه استراتيجية معقولة ومحافظة . فبدلا من أن يلجأوا إلى أى من تلك الأشكال المبتدعة للأسرة ، فإنهم يتزوجون زواجاً تقليدياً ، ويحاولون أن يجعلوا منه زواجاً « ناجحاً » . وعندما تتفرق بالشريكين السبل إلى الحد الذى لا يمكن تقبله ، عندئذ يطلقان أو ينفصلان . ومعظمهم يتجه بعد ذلك إلى البحث عن شركاء آخرين تنسجم مراحل نموهم ، لحظة الطلب ، مع مراحل نمو الطالبين .

وكلما صارت العلاقات الإنسانية أكثر زوالية ، ارتفعت حمى البحث عن الحب ، ولكن توقعات دوامه سوف تتغير . وكلما ثبت تناقص قدرة الزواج التقليدى على الوفاء بما كان يعد به من حب يدوم دوام الحياة ، فإننا ، من ثم ، نستطيع أن نتوقع تقبلا عاماً لفكرة الزواج المؤقت . وبدلا من الزواج «حتى يفرق بيننا الموت » ، سيدخل الزوجان إلى حياتهما الزوجية عالمين منذ البداية أن العلاقة بينهما ستستمر على الأرجح لفترة محدودة .

ولسوف يعلمان أيضاً أنه عندما تتفرق بهما السبل ، وعندما يصبح هناك تفاوت كبير بينهما فى مراحل النمو ، فإنه سيكون عليهما آنذاك أن يفترقا — دون ما أى صدمة أو حرج ، بل حتى دون ما يكتنف الطلاق اليوم من مشاعر الألم . وإنهما عندما تسنح الفرصة سيتزوجان مرة ثانية . . . وثالثة . . . ومرات . . .

إن الزواج المتوالى — مجموعة متعاقبة من الزيجات المؤقتة — هو نمط الزواج المفصل على مقاس عصر الزواج الذى تتقلص فيه دوامية علاقة

الإنسان وروابطه بكل ما فى بيئته . إنه الثمرة الطبيعية والحتمية التى لابد وأن ينبتها نظام تستؤجر فيه السيارات ، وتقايض فيه الفتيات على عرائسها ، وتستعمل فيه الملابس مرة واحدة ثم يلقى بها فى القمامة . إنه التيار الرئيسى لأنماط الزواج فى المستقبل .

إن نمطاً قريباً من نمط الزواج المتوالى ممارس الآن بالفعل وإن كان ما زال معتبرا من الأسرار التى تحرص الأسر فى المجتمعات المتقدمة على إخفائها . وطبقاً لما أعلنه البروفيسور جيسى برنارد عالم الاجتماع ذو الصيت العالمى والمتخصص فى شئون الأسرة ، فإن : « الزواج المتعدد أصبح موجوداً فى مجتمعنا أكثر منه فى المجتمعات التى تبيح تعدد الزوجات — والفارق الرئيسى بيننا وبين هذه المجتمعات هو أن التعدد يحدث عندنا متعاقباً وليس متزايداً » . إن تكرار الزواج أصبح بالفعل ظاهرة منتشرة لدرجة أن واحداً من بين كل أربعة عرسان يقفون أمام المذبح فى أمريكا قد سبق له أن وقف مثل هذه الوقفة . ويحكى أحد مسئولى إدارة الأفراد فى شركة « أ.ب.م. » واقعة غريبة بقدر ما هى واضحة الدلالة عن سيدة مطلقة تقدمت لوظيفة بالشركة . فبينما هى تملأ طلب الوظيفة تريثت عندما وصلت إلى بند الحالة الزوجية ، لقد وضعت القلم بين شفتيها وفكرت برهة قبل أن تكتب : « غير متزوجة » .

إن الزوال يؤثر بالضرورة فى توقعات الدوامية لدى الأشخاص وهم مقدمون على وضعيات جديدة . فبينما قد تكون العلاقة الدائمة هى ما يرغبون فيه حقاً ، إذا بشئ يهجس فى صدورهم بأنهم إنما يطلبون ترفاً بعيد الاحتمال .

حتى الشباب ، أكثر الناس طلبا للانتماء وللارتباط الوثيق بالناس وبالأهداف ، قد أصبحوا يحسون وطأة الاندفاع نحو الزوال . ولنصغ على سبيل المثال ، إلى ما تقوله شابة أمريكية سوداء من مناضلى حركة الحقوق المدنية ، وهى تصف موقفها من الزواج :

« فى عالم البيض ، يعلقون على الزواج لوحة تحمل كلمة (النهاية) —

كما فى أفلام هوليود . إننى لست ممن يحبذون هذا . . إننى لا أستطيع أن أتصور نفسى وأنا أعد بأن أهب كل حياتى هكذا مرة واحدة . . إننى قد أرغب فى الزواج الآن ، ولكن ماذا عن العام القادم . . ؟ إننى لا أقول هذا بدافع من احتقار للزواج ، بل بدافع من احترامى العميق له . إنك فى الحركة (حركة الحقوق المدنية) تحس بالحاجة إلى التعاطف مع ما هو مؤقت — أن تجعل من شئ ما أحسن ما يكون مادام هو كائنا . أما فى العلاقات التقليدية فإن الزمن يصبح سجناً » .

مثل هذه المواقف لن تكون بأى حال وقفاً على الشباب ، أو على القلة ، أو على ذوى النشاط السياسى . إنها سوف تعم الأمة عندما يغمر فيضان الجدة المجتمع ، وستزداد استعاراً كلما ارتفع معدل الزوالية . وستأتى معها بزيادة حادة فى عدد الزيجات المؤقتة — ومن ثم — الزيجات المتوالية .

لقد لخصت الفكرة تلخيصاً ذكياً مجلة سويدية هى مجلة سفينسك دامتيدننج ، التى أجرت استطلاعاً شمل عددا من الأخصائيين الاجتماعيين ، ورجال القانون وغيرهم عن مستقبل العلاقة بين الرجل والمرأة . لقد قدمت المجلة النتيجة المتحصلة من استطلاعها فى خمس صور ، وفى كل صورة كانت نفس العروس الجميلة تجتاز عتبة منزل الزوجية محمولة على ذراعى عريس مختلف .

المسار الزواجى

عندما تصبح الزيجات المتوالية شيئاً مألوفاً ، فإننا سنبدأ فى توصيف الأشخاص لا فى حدود حالتهم الزوجية الراهنة ، بل فى حدود تشمل « مسارهم » الزواجى ، هذا المسار الذى ستشكله القرارات التى سيتخذونها عند نقط تحول حاسمة فى حياتهم .

ليس من المحتمل أن تستمر كل هذه الزيجات حتى الموت ، فما زالت هناك نقطة ستواجه الأسرة عندها أزمة جديدة . وسوف تأتى هذه الأزمة ، كما يحدث للكثيرين فى وقتنا الراهن ، عندما يتقاعد أحد الزوجين عن

العمل . إن التغير المحسوس الذى يحدثه مثل هذا الحدث فى مجرى الحياة اليومية يسبب للزوجين توتراً شديداً ، ومن ثم فسيسلك البعض سبيل « أسرة ما بعد التقاعد » ، مختارين هذه اللحظة بالذات للبدء فى تنشئة الأطفال . ولقد يساعد ذلك على ملء الفراغ الذى يحسه الكثيرون بعد انتهاء حياتهم العملية (كثير من نساء اليوم يبدأن العمل بعد الانتهاء من تربية الأبناء ، أما غداً فستنعكس الآية بأن يأتى العمل أولا ثم تعقبه تنشئة الأطفال) . والبعض الآخر سيتغلب على أزمة التقاعد بطرق أخرى – كأن يتبنى الزوجان معاً مجموعة من الهوايات ، والعادات ، والاهتمامات ، والمناشط . وسيبقى بعد ذلك كله آخرون سيتعذر عليهم التغلب على الأزمة ، ومن ثم سيفصم الزوجان علاقتهما وينضمان إلى الاحتياطى العائم من غير المتزوجين – بصفة مؤقتة .

وبالطبع سيكون هناك البعض ممن سيستطيعون – بشئ من الحظ ، وكثير من المهارة والذكاء – أن يجدوا السبيل إلى زواج مفرد دائم وناجح . سوف ينجح البعض كما يحدث اليوم ، فى زواج يدوم مدى الحياة ويدوم معه الحب والسعادة . ولكن هناك البعض أيضاً ممن سيفشلون حتى فى استمرار زيجاتهم المتعاقبة لوقت معقول . وهكذا قد يجرب أحدهم شريكين أو ثلاثة شركاء خلال المرحلة الأخيرة وحدها من مسارهم الزواجى . ومن ثم فإذا أخذنا الصورة بأكملها فى اعتبارنا ، فسنجد أن معدل عدد الزيجات بالنسبة للفرد سيظل فى ارتفاع بطئ ولكنه غير منقطع .

وأغلب الظن أن معظم الناس سيسلكون سبيل الزيجات المتعاقبة . ولكن مع اتساع التجارب الأسرية التى ستجرى فى المجتمع ، فإن الأكثر منهم جرأة وبأسا سوف يروغ أحياناً إلى مسالك أقل اتصافا بالتقليدية . فربما انساق عند نقطة معينة إلى تجربة الحياة الكوميونية ، أو فضل فى مرحلة ما أن يظل أعزب ، وأن يتبنى طفلا . إن المحصلة النهائية ستكون تشكيلة وفيرة من أنماط المسارات الزوجية التى سيسير فيها الناس ، ومجال اختيار أوسع لأساليب الحياة ، وفرصة دائمة للتجديد والخبرة . وبعض الأنماط ستجد إقبالا أكثر من البعض الآخر . ولكن الزواج المؤقت سيكون بمثابة

مستوى عام ومشترك بين معظم الأنماط ، بل ربما سيكون هو العلامة الرئيسية للحياة العائلية فى المستقبل .

مطالب الحرية

إن عالماً سيصبح فيه الزواج موقتاً أكثر منه دائماً ، والترتيبات الأسرية متنوعة ، وغنية بالألوان ، والمتقاعدون يبدأون حياتهم الأبوية بعد الستين – مثل هذا العالم مختلف إلى أبعد الحدود عن العالم الذى نعيش فيه . إننا اليوم ننتظر من شبابنا وفتياتنا أن يجد كل منهم شريك عمره . أما فى عالم الغد فلن تكون العزوبة الدائمة جريمة . ولن يجبر الزوجان على البقاء ، كما هو حادث الآن ، رهن قيد زواج كريه فسد مع الزمان مذاقه . وستتيسر إجراءات الطلاق ما توافرت ترتيبات رعاية الأطفال . والحقيقة أن مجرد ظهور الوالدية المحترفة سيطلق موجة متحررة من الطلاق لأنه سيضع عن كاهل مسئولية الزوجين رعاية الأطفال التى قد تكون عائقاً يجبرهما على الاستمساك بقيود زواج كريه . ومن ثم لن يبقى على رابطة الزوجية إلا الزوجان اللذان يرغبان فعلا فى أن يظلا معا . أى من يجمعهما رباط الحب ، وليس أى رباط آخر .

ولسوف نشهد ، على الأرجح ، وفى ظل مثل هذا النظام الأسرى الفضفاض ، كثيرا من الزيجات التى تجمع بين شريكين متفاوتين فى السن . سيكثر زواج الرجال المتقدمين فى السن بفتيات صغار السن ، والعكس صحيح . لن تكون السن إذن هى العامل الهام فى الجمع بين شريكى الزواج ، ولكن تماثل القيم وتناسب مستوى النمو فى الشخصية . أو بعبارة أخرى سيكون اهتمام الشريكين موجها أساسا إلى مرحلة النمو بدلا من مرحلة السن .

وسوف يترعرع الأطفال فى مجتمع ما فوق التصنيع هذا وسط دائرة مطردة الاتساع مما يمكن أن نسميه « أشباه الإخوة » – أو وسط قبيل كامل من الأولاد والبنات الناتجين من زيجات آبائهم وأمهاتهم المتعاقبة . إن ملاحظة ما سيكون من أمر مثل هذه الأسر « الكلية » حرية بأن تكون

شيئا مثيرا حقا ، قد يصبح وضع أشباه الإخوة هؤلاء بمثابة وضع أبناء العمومة اليوم . وقد يتعاونون مهنيا ، أو يساعد أحدهم الآخر فى أوقات الشدة . ولكنهم أيضا قد يواجهون مجتمعهم بمشكلات جديدة تماما ، فمثلا ، هل يمكن أن يتزوج أشباه الإخوة هؤلاء ؟

الأمر المؤكد أن علاقة الطفل بالأسرة سوف تتعرض لتغييرات درامية . ستفقد الأسرة ، ربما باستثناء الأسر الكوميونية ، القليل مما تبقى لها من قدرة على نقل قيمتها إلى الأجيال الأصغر . وسوف يزيد هذا من سرعة معدل التغيير ويفاقم من حدة ما يواكبه من مشكلات .

إن ثمة قوة غير ظاهرة تهيمن على كل مثل هذه التغييرات ، بل وتضائل بالمقارنة من أهميتها . قوة نادرا ما نناقشها ، إنها ذلكم الإيقاع الخفى الكامن فى ثنايا كل الأمور الإنسانية والذى ظل يعمل حتى الآن كواحد من أهم قوى الاستقرار فى المجتمع ، تلكم القوة هى : دورة الأسرة .

إننا نبدأ كأطفال ، ثم ننضج ، ثم نترك عش والدينا ، ثم ننجب بدورنا أطفالا لينموا بدورهم ويعيدوا ما عملنا ، وهكذا دواليك وإلى ما لا نهاية . لقد ظلت هذه الدورة تعمل منذ زمن مغرق فى القدم ، أتوماتيكيا وبانتظام ، جعل الإنسان يأخذها كقضية مسلمة . إنها جزء لا يتجزأ من المشهد الإنسانى . ويعلم الأطفال من قبل أن يبلغوا الحلم الدور المنتظر منهم أن يلعبوه لكفالة الاستمرار لهذه الدورة العظيمة . لقد أمد هذا الاستشراف المسبق لما هو آت من إحداث دورة الأسرة كل الرجال ، من كل قبيلة ومجتمع ، بمعنى الاستمرار ، بموضع ضمن الإطار الزمنى للأشياء . لقد كانت دورة الأسرة أحد العناصر الحافظة للرشد فى الوجود الإنسانى .

واليوم فإن هذه الدورة تسرع من مسيرتها . إننا ننمو أسرع . ونترك البيت مبكرا . ونتزوج مبكرا . وننجب مبكرا . إننا نضغط كل هذه المراحل وتتم فترة الوالدية بسرعة أكبر . ومن واقع كلمات الدكتور بيرنيس نيوجارتن أخصائى تطور الأسرة بجامعة شيكاغو ، فإن : « الاتجاه واضح نحو إيقاع أسرع للأحداث عبر معظم مراحل دورة الأسرة » :

ولكن إذا كان التصنيع بما أحدثه من تسارع فى خطــو الحياة قد أسرع بدورة الأسرة ، فإن ما فوق التصنيع ينذر بتحطيمها تماما . إن كل ما يقوم به علماء التناسل من محاولات لجعل الخيالات حقائق ، وما تجريه وما سوف تجريه القلة المجددة من تجارب أسرية متعددة الألوان ، وما يحتمل أن يقوم من مؤسسات من قبيل الوالدية المحترفة ، والاتجاه المتزايد إلى الزيجات المؤقتة والمتعاقبة ، كل ذلك حرى بألا يجعلنا نسرع من جريان دورة الأسرة فحسب ، بل بأن ندخل عليها الاضطراب والتوقف غير المتوقع — أو باختصار ، ندخل الجدة على ما كان من قبل منتظما انتظام فصول السنة .

عندما تضغط « أم » ما عملية الحمل والإنجاب بزيارة لمعرض من معارض الأجنة ، أو عندما تنتقل الأجنة من رحم إلى رحم ، فإننا نكون بذلك قد حطمنا حتى تلك الحقيقة الثابتة من قديم الزمان والقائلة بأن مدة الحمل هى تسعة أشهر ، وسينمو الأطفال من ثم فى عالم تتذبذب فيه حسابات دورة الأسرة التى كانت من قبل رتيبة وثابتة . وهكذا سينتزع عنصر أساسى آخر من عناصر الاستقرار الباقية من حطام النظام القديم . وسينكسر عمود آخر من عمــد الرشد .

وليس هناك بالطبع ما هو حتمى الوقوع من بين كل التطورات التى ناقشناها فى الصفحات السابقة . فنحن نملك القدرة على أن نصوغ التغيير وفق ما نريد . ولكننا ، لا نملك قــدرة الإبقاء على المــاضى . ففى أنماطنا الأسرية — كما فى اقتصادياتنا ، وفى مجالات العلم والتكنولوجيا ، وفى علاقاتنا الاجتماعية — سنكون مضطرين دائما للتعامل مع الجديد .

إن ثورة ما فوق التصنيع سوف تحرر الإنسان من كثير من الأساليب البربرية التى نمت من الأشكال المقيدة ، شبه الإجبارية ، للأنماط الأسرية فى المــاضى والحاضر ، إنها سوف تمنح كل فرد قدرا من الحرية لم يعرف مثله حتى الآن ، ولكنها سوف تقتضيه ثمنا باهظا لهذه الحرية .

وفى هروعنا نحو الغــد ، سوف يواجه ملايين الرجال والنســاء

العاديون باختيارات عاطفية غير مألوفة ، وغير مجربة ، ولن تجديهم سابق خبرتهم فى محاولة الاختيار الصائب فتيلا . سيكون على هؤلاء الملايين فى روابطهم الأسرية كما فى غيرها من عناصر حياتهم ، ألا يواجهوا عامل الزوال فحسب ، بل مضافا إليه أيضا عامل الجـــدة .

وهكذا ، ففى كل الأمور كبيرها وصغيرها ، وفى أوسع الشئون العامة وأدق الحالات الشخصية ، سوف يتعدل التوازن بين ما هو روتينى وما هو غير روتينى ، بين المتوقع واللامتوقع ، بين المعلوم والمجهول . سوف ترتفع نسبة الجدة .

وفى مثل هذه البيئة غير المـــألوفة والسريعة التغير ، سوف نضطر ونحن نشق طريقنا فى الحياة أن نقرر اختيارنا الشخصى من بين تشكيلة متنوعة من البدائل . ومن هنا ، فلا بد من إطلالة على ثالث المعالم الأساسية للغد : « التنوع » . فإن الالتحام النهائى بين هذه العناصر الثلاثة : الزوال — والجدة — والتنوع — هو الذى سيهيئ المسرح لأزمة التكيف التاريخية والتى هى موضوع هذا الكتاب : صدمة المستقبل .

القسم الرابع

التنوع

الفصل الثانى عشر

أصول فائض الاختيار

إن ثورة ما فوق التصنيع سوف تدمغ بالجهل معظم معتقداتنا الحالية عن الديموقراطية وعن مستقبل الاختيــار الإنسانى .

واليوم ، يوجد فى المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا ما يكاد يكون إجماعا على النظرة إلى مستقبل الحرية . إن تحقيق الحد الأقصى من حرية الاختيار للفرد هو فى نظر هذه المجتمعات بمثابة المثل الأعلى للديموقراطية . ومع ذلك فمعظم الكتاب يتنبأون بأننا سوف نبتعد أكثر فأكثر عن هذا المثل الأعلى . إنهم يرسمون صورة قاتمة للمستقبل ؛ صورة يبدو فيها الناس على هيئــة مستهلكين — منتجين لا عقول لهم ، محاطون بأنساق من السلع المنمطة ، ويتعلمون فى مدارس منمطة ، ويلقنون ثقافة جماعية منمطة ، ويجبرون على تبنى أساليب منمطة للحياة .

مثل هذه التنبؤات قد فرخت ، كما كان متوقعا ، جيلا من كارهى المستقبل ومبغضى التكنولوجيا . وواحد من أكثر هؤلاء تطرفا هو اللاهوتى الفرنسى جاك إليول الذى تلقى كتبه رواجا بين طلبة الجامعات . وطبقا لمــا يراه إليول ، فإن الإنسان كان أكثر حرية فى المــاضى عندما « كان الاختيار إمكانية حقيقية بالنسبة له » . أما بالمقارنة مع اليوم ، فإن « الكائن البشرى لم يعد له ، بأى معنى من المعانى ، حق الاختيار » . وأما بالنسبة للمستقبل فإنه « من الجلى أن دور الإنسان سوف يتضاءل فى المستقبل بحيث لن يعدو دور أى جهاز من أجهزة التسجيل » . ويحذر إليول من أن الإنسان بسلبه حق الاختيار فإنه لن يكون فاعلا ، وإنما سيملى عليه الفعل ، وأنه سوف يعيش فى دولة دكتاتورية يقودها جستابو بقفازات مخملية .

إن نفس النغمة — فقد الاختيار — تملأ معظم أعمال المؤرخ أرنولد

توينبي . ونفس النغمة تتردد وتتكرر على ألسنة كل واحد : من هيبيين شعث إلى قضاة بالمحكمة العليـــا ، ومن محررين صحفيـــين ، وفلاسفة وجوديين . هذه النظرية عن تلاشي الاختيار – موضوعة فى أبسط صورها – ترتكز على قياس منطقى فج مؤداه : أن العلم والتكنولوجيـــا قد أرضعا التنميط وربياه . وبما أن العلم والتكنولوجيا سوف يتقدمان أكثر فى المستقبل ، فلسوف يكون المستقبل أكثر نمطية حتى من الحاضر . والنتيجة : أنه سوف يطرد فقد الإنسان لحرية الاختيار .

لو أننا بدلا من التقبل الأعمى لمثل هذا المنطق ، توقفنا لتحليلـــه ، لاستطعنا من ثم ، تحقيق اكتشاف فريد . لأن هذا المنطق ليس خاطئا فحسب . بل إن الفكرة كلها مبنية على الجهل الواضح بطبيعة ، ومعنى ، واتجاه ثورة ما فوق التصنيع .

إن من سخرية الحقيقة أن إنسان المستقبل قد لا يعانى من انعدام الاختيار ، بل من كثرته المربكة ، إنه قد يصبح ضحية لتلك المحنة الفريدة التى سيصنعها عصر ما فوق التصنيع : فائض الاختيار .

سيارة تفصيل

لا يملك أى مسافر فى ربوع أوروبا أو الولايات المتحدة إلا أن يلحظ ذلك التشابه بين محطة خدمة سيارات وأخرى، أو بين هذا المطار وذاك . كما سيجد أى إنسان يروى ظمأه بزجاجة كوكاكولا أنها نسخة من نفس الزجاجة التى سبقتها وتلك التى ستليها . فمن الواضح الجلى أنه كنتيجة لتكنيكات الإنتاج الكبير ، فإن طابع التماثل الذى يطبع عناصر معينة من بيئتنا قد أثار غضبة المثقفين . إن بعضهم يشجب طبع فنادقنا بطابع هيلتون ، والبعض الآخر يذهب إلى أننا نطابق بين أفراد العنصر البشرى بأكمله .

ومن الصعب أن ننكر أثر التصنيع فى تسطيح المستويات . إن قدرتنا على إنتاج ملايين من الوحدات القريبة التماثل هى ذروة إنجازات عصر التصنيع ، ومن ثم فإن المثقفين عندما يندبون ما فى سلعنا المـــادية من تشابه ، فإنهم يعكسون بالضبط ، ما عليه الحال فى ظل عصر التصنيع .

ولكنهم يسفرون أيضا ، وفى ذات الوقت ، عن جهل مخيف بطبيعة عصر ما فوق التصنيع . إنهم بتركيز أنظارهم على المجتمع الذى كان ، عشوا أبصارهم عن رؤية المجتمع الذى سيكون . لأن مجتمع المستقبل لن يقدم لأهله فيضا من السلع المفيدة المنمطة ، بل أعظم توليفة منوعة من السلع والخدمات غير المنمطة شهدها أى مجتمع من قبل . إننا نسير ليس فى اتجاه مزيد من التنميط للسلع المـــادية ، بل فى اتجاه النقيض الجدلى لذلك .

إن نهاية التنميط قد لاحت بالفعل فى الأفق . وتختلف سرعة إقبال هذه النهاية من صناعة إلى صناعة ومن بلـــد إلى بلـــد . ففى أوروبا لم يصل التنميط إلى ذروته بعد (قد يستغرق هذا عشرين أو ثلاثين عاما حتى يصل إلى نهايته)، ولكن فى الولايات المتحدة فإن هناك من القرائن القوية مايدل على الدخول الفعلى إلى منحنى تاريخى هام .

فمثلا ، منذ بضع سنوات مضت اكتشف خبير تسويق أمريكى يدعى كينيث شوارتز ، اكتشافا مدهشا . لقد كتب يقول : « لا يمكن أن يوصف ما طرأ على سوق الاستهلاك العام خلال السنوات الخمس الأخيرة بأقل من أنه تحول ثورى . فمن وحدة مفردة متجانسة انفجر السوق العام وانقسم ، بل تشظى ، إلى أسواق عديدة ، لكل منها احتياجاته ، وأذواقه ، وأسلوب حياته » . لقد بدأت هذه الحقيقة تلقى بظلها على الصناعة الأمريكية وتعدل من مسارها إلى حدود يصعب تصديقها . وكانت النتيجة تغيرا مذهلا فيما تقدمه للمستهلك من سلع .

إن شركة فيليب موريس ، على سبيل المثال ، ظلت تبيع صنفا واحدا رئيسيا من السجاير على مدى واحد وعشرين عاما . ولكنها منذ سنة ١٩٥٤ قدمت ستة أصناف جديدة ، بالإضافة إلى اختيارات فرعية عديدة فيما يتصل بالحجم ، والمرشح ، والعبير ، بحيث أصبح أمام المشترى الآن فرصة الاختيار بين كل ستة عشر صنفا مختلفا . قد تكون هذه حقيقة تافهة إن لم تكن قد طبقت بالفعل فى كل حقل رئيسى من حقول الإنتاج السلعى . خذ مثلا وقود السيارات ، فإلى بضع سنوات مضت لم يكن أمام المستهلك الأمريكى

إلا أن يختار بين نوعين « العادى » « والممتاز » . أما اليوم فإنه سيجد نفسه فى أى محطة يدخلهـا مواجها بالاختيار بين ثمانية أصناف مختلفة المزج والخلط : والبقالة أيضا ، فبين سنتى ١٩٥٠ ، و ١٩٦٣ ارتفع عدد أنواع الصابون والمنظفات على رفوف محـلات البقالة فى أمريكا من ٦٥ إلى ٢٠٠ نوع ، والأطعمة المجمدة من ١٢١ إلى ٣٥٠ . وخلطات الخبيز والدقيق من ٨٤ إلى ٢٠٠ . وحتى تشكيلة أطعمة الحيوانات الأليفة قد ارتفعت من ٥٨ إلى ٨١ نوعا .

إن شركة كبرى هى شركة « كورن برودكتز » ، والتى تنتج شرابا لتحلية الفطـائر يسمى شراب « كارو » بدلا من أن تقدم نفس المنتج على المستوى القومى ، فإنها تقدم منه صنفين لأسباب إقليمية . فهى تعلم أن أهالى بنسلفانيا يفضلون الشراب أكبر كثافة مما يفضله باقى الأمريكيين . ونجد نفس العملية أيضا فى حقل ديكور وأثاث المكاتب — ويقول جون أ . سوندرز رئيس شركة « فاير بروفينج كومبانى » — وهى إحدى الشركات الكبرى العاملة فى هذا الحقل « إن المتوافر حاليا من الطراز والألوان الجديدة ، يصل إلى عشرة أمثال ما كان موجودا منها منذ عشر سنوات » . وبعبارة أخرى فإن الشركات تكتشف كل يوم تنوعا فى رغبات المستهلكين ، فتسارع إلى تلبية هذه الرغبات وتكييف إنتاجها بما يحقق ذلك .

وثمة عاملان اقتصاديان يشجعان هذا الاتجاه : أولهمـا أن المستهلكين لديهم وفرة من المـال الذى يمكن أن ينفقوه لتحقيق رغباتهم الخاصة . أمـا العامل الثانى ، وهو الأهم ، فإنه كلما تقدمت التكنولوجيا انخفضت تكاليف التنوع فى الإنتاج .

هذه هى النقطة التى عجز نقادنا الاجتماعيون — ومعظمهم لا يعلمون إلا القليل عن التكنولوجيا — عن فهمها : إن التكنولوجيا البدائية هى فقط التى تفرض تنميط الانتاج . أما الأتوميشين ، فعلى العكس من ذلك يفتح الطريق إلى تنوع يخطف الأبصار ، ويدير العقول ، ولا نهاية له .

« إن الثبات على شكل جامد ، ودورات الإنتاج الطويلة لإنتاج أعداد

كبيرة من سلع متشابهة والتى كانت طابعا مميزا لأسلوبنا التقليدى للإنتاج الكبير ، يفقد باستمرار أهميته » . هذا ما يقرره مهندس الإنتاج بور يس جافيتز ، ثم يضيف قائلا : « إن الآلات التى تعمل بالتحكم الإليكترونى وفق برامج عديدة يمكن أن تتحول بسرعة من إنتاج سلعة ذات طراز أو حجم معين إلى إنتاج سلعة أخرى مختلفة المواصفات بمجرد تغيير البرنامج العددى الذى تعمل بمقتضاه . . ومن ثم فإن دورات الإنتاج القصيرة أصبحت ممكنة اقتصاديا » . وطبقا لمـــا أعلنه البروفيسور « فإت كورت هير » من مدرسة إدارة الأعمال بجامعة كولومبيـــا فإن : « الآلات العاملة بالأتوميشين تسمح بإنتاج تشكيلة واسعة من السلع المتنوعة فى دورات قصيرة بنفس تكاليف الإنتاج الكبير تقريبا » . إن كثيرا من المهندسين وخبراء الإنتاج يتنبأون باقتراب ذلك اليوم الذى لن يتكلف التنوع فيه أكثر مما يتكلف التماثل .

إننا نستطيع إدراك حقيقة أن تكنولوجيا ما قبل الأتوميشين تنتج التماثل ،فى حين أن التكنولوجيا المتقدمة تسمح بالتنوع . يمكننا أن ندرك هذه الحقيقة من مجرد نظرة عارضة إلى ذلك الابتداع الأمريكى الذى يثور حوله الجدل ، ونعنى به متاجر الخدمة الذاتية الكبيرة . إن هذه المتاجر ، مثلها فى ذلك مثل محطات الخدمة والمطارات ، حرية بأن تبدو متشابهة سواء أكانت فى ميلانو أو فى ميلووكى . إن هذه المتاجر وقد اكتسحت الآلاف من المتاجر الصغيرة القـــديمة ، قد أسهمت بلا نزاع ، فى طابع التماثل فى البيئة المعمارية ، ولكن تشكيلة السلع التى تقدمها للمستهلك هى ، بلا نزاع أيضا ، أكثر تنوعا من أى تشكيلة يستطيع أى من تلك المتاجر القديمة استيعابها . وهكذا ففى فى نفس الوقت التى تشجع فيه هذه المتاجر التماثل المعمارى ، فإنها ترعى التنوع فى المـــآكل .

إن سر ذلك فى غاية البساطة ، إن تكنولوجيا تجهيز وتغليف الأطعمة أكثر تقدما من تكنيكات البناء . والحقيقة أن البناء لم يكد يصل إلى مستوى الإنتاج الكبير . إنه ما زال إلى حد بعيد منتسبا إلى مهارات عصر ما قبل

التصنيع . إن صناعة البناء بفعل ما تسببه لهـا قوانين البناء المحلية والمواقف المحافظة لاتحادات عمال البناء من اختناقات قد تراجعت فى تقـدمها التكنولوجى عن المستوى الذى وصلت إليه باقى الصناعات . إن التقدم التكنولوجى كقاعدة عامة ، هو الذى يكفل خفض تكلفة التنويع فيما يقدم من منتجات . ومن ثم فنستطيع القول عن ثقة بأنه عندما تصل تكنولوجيا البناء فى تقدمها إلى مستوى تكنولوجيا التصنيع فلن نعود نرى محطات الخدمة والفنادق والمتاجر تبدو كأنها صبت فى قالب واحـد . عندئذ سيتراجع التماثل مفسحا الطريق أمام التنوع * .

وبينما اليابان وأوروبا ما زالت تبنى أولى متاجر الخدمة الذاتية فيها ، ومن الطراز الشامل المعهود ، قفزت الولايات المتحدة إلى المرحلة التالية وهى المتاجر المتخصصة ، والتى توسع من مدى التنوع فى السلع المتاحة للمستهلكين إلى حد بعيد (بل الواقع إلى حد يصعب تصديقه) . فى واشنطن مثلا يخصص أحد هذه المتاجر فى بيع الأطعمة الأجنبية ، ويقدم أصنافا من مثل شرائح لحم فرس النهر (السيد قشطة)، ولحم التمساح ، وأرانب المناطق الثلجية ، وخمسة وثلاثين نوعا مختلفا من العسل .

ومما يؤكد فكرة أن التكنيكات البدائية للصناعة تنتج التماثل ، فى حين أن التكنيكات المتقدمة تشجع التنوع ، تلك الصورة الأخاذة التى تطورت إليها صناعة السيارات خـلال السنوات الأخيرة . فمنـذ أواخر الخمسينيات عندما بدأت السيارات الأوروبية واليابانية تغزو أسواق أمريكا وتنتشر فيها بسرعة ، أخذت تتزايد فرص الاختيار أمام المشترى الأمريكى من نصف دستة من الأنواع إلى ما يقرب من خمسين نوعا فى الوقت الحاضر ، وحتى هذا المدى المتسع من الاختيار أصبح يبدو اليوم أضيق مما يجب .

---

* حينما بدأت هذه العملية ، لمسنا نتائج مذهلة لمـا يمكن أن تحققه . فى واشنطن على سبيل المثال ، بنيت عمارة سكنية مصممة بواسطة الكومبيوتر هى عمارة « ووترجيت إيست » التى لا يتشابه فيها دوران . ومن بين ٢٤٠ شقة تحتويها العمارة توجد ١٦٧ شقة لكل منها تصميم مختلف . كما لا يوجد بأى مكان بالعمـارة استمرار لخطوط المستقيمة .

وعندما ووجهت صناعة السيارات الأمريكية بهذه المنافسة أعادت النظر فيما يسمى : « سوق الاستهلاك العـــام » لتكتشف أن ما يوجد فى الواقع هو جملة من أسواق صغيرة متغيرة . ووجدت أيضا ما عبر عنه أحد الكتاب بقوله : « إن المشترى يريد نوعا من السيارة (التفصيل) التى تمنحه وهما بأنه يملك سيارة وحيدة فى نوعها » ، وإمداد المشترى بمثل هذا الوهم أمر مستحيل فى حالة استخدام التكنولوجيا القديمة ، ولكن خطوط التجميع الجديدة العاملة بالكومبيوتر جعلت من المستطاع ليس إمداد المشترى بهذا الوهم فحسب ، بل أثبتت أنه من الممكن — فى وقت قريب — أن تجسد هذا الوهم إلى حقيقة .

وهكذا نرى سيارة موستانج الجميلـــة والتى تنتجها مصانع فورد تتطور لتصبح تلك السيارة « التى تصممها بنفسك » لأنها كما يوضح الناقد رينير بانهام : « لم تعـــد بعد سيارة موستانج المعتـــادة ، ولكن ركاما من اختيارات متعددة تستطيع أن تختار من بينها المزيج الذى تفضل أن تتركب سيارتك منه ، وتشمل هـــذه الاختيارات ٣ (أجسام) × ٤ (محركات) × ٣ (مجموعات نقل) × ٤ (مجموعات أساسية من تعديلات الأداء العالى للمحركات) — ١ (السيارة ٦ سلندرات الأدنى سعرا والتى لاتصلح لهذه التعديلات) + ٢ (نظام شيلبى لسيارات السباق والرحلات الصالح لطراز واحد من الأجسام ، وليس لكل تركيبات محرك — مجموعة نقل) . هذا بالإضافة إلى مجال اختيار أوسع فى الألوان والتنجيد والأجهزة المختلفة الأخـــرى .

لقد سبب تعدد الاختيارات ارتباكا شديدا لبائعى السيارات وارتباكا أشد لمشتريها . إن كل اختيار تستتبعه حاجة المشترى إلى معلومات أكثر واضطراره إلى اتخاذ قرارات أكثر : وهكذا فإن كل من حاول مؤخرا شراء سيارة ، كما فعلت أنا ، سرعان ما وجد أن عملية استيعاب المعلومات الخاصة بكل الأنواع والخطوط والطرز والاختيارات (حتى فى حدود سعر معين) تحتاج إلى عدة أيام من التجول فى المعارض والقراءة . وباختصار

فإن صناعة السيارات قد تصل قريبا إلى النقطة التى تستطيع عنده تكنولوجيتها أن تنتج اقتصاديا من التنويع بأكثر مما يطلب المستهلك أويريد .

ومع ذلك فإننا ما زلنا فى بداية الطريق نحو اللانمطية فى ثقافتنا المادية . لقد لاحظ مارشال ماكلوهان أنه « حتى فى وقتنا الراهن تعتبر السيارات فى الولايات المتحدة بمعنى ما ، سيارات « تفصيل » . فإذا أخذنا مثلا عدد التركيبات المختلفة من الطرز ، والاختيارات المتنوعة ، والألوان المتاحة بالنسبة لسيارة سبور عائلية جديدة لوجدنا — حسب ما وصل إليه أحد خبراء الكومبيوتر — أنها تصل إلى ٢٥,٠٠٠,٠٠٠ نسخة ، مختلفة التركيب . . وعندما يصل استخدام الأتوميشين فى الإنتاج إلى ذروة إمكانياته ، فسيستوى من حيث التكلفة إنتاج مليون وحدة متنوعة مع إنتاج مليون وحدة متماثلة . ولن توجد أى حدود للإنتاج والاستهلاك إلا حدود الخيال الإنسانى ، « إن الكثير من افتراضات ماكلوهان قابل للكثير من الجدل ، أما هذا بالذات فلا . إنه مصيب تماما فى تصوره للاتجاه الذى تسير فيه التكنولوجيا . إن سلع المستقبل المادية ستكون كثيرة جدا ولكنها لن تكون منمطة . إننا فى الواقع نهرول نحو « فائض الاختيار » . — نحو النقطة التى ستنمحى عندها مزايا التنوع والإفراد بما سيواجه المشترى من تعقيدات مربكة فى عملية اتخاذ قرار الاختيار » .

الكومبيوتر وحجرة الدرس

هل لأى من هذا أهمية حقا ؟ بعض الناس يرون أنه لا أهمية ألبتة لأى تنوع فى البيئة المادية ما دمنا نسير نحو التماثل الثقافى أو الروحى . ويستعيرون فى التعبير عن هذا الرأى عبارة عن إعلان عن نوع معروف من السجاير تقول : « المهم هو ما بالداخل » .

إن هذا الرأى يبخس بشكل خطير من أهمية الأشياء المادية كرموز معبرة عن الفروق فى الشخصية الإنسانية ، ويتجاهل بغباء الصلة بين داخلية الإنسان وبيئته الخارجية . إن أولئك الذين يخشون تنميط الإنسان

ينبغى أن يهشوا للنمطية فى السلع ، حيث إن زيادة التنوع فيما هو متاح للإنسان من سلع إنما يزيد من احتمالات التنوع فى الأساليب التى سيعيش بها فعلا هذا الإنسان .

ثم لننظر ، وهذا هو الأهم ، فى ذات الفرضية التى تدعى أننا سائرون فى اتجاه التماثل الثقافى . إن نظرة فاحصة إلى هذا الادعاء ستثبت لنا أن العكس هو الصحيح . إننا نسير — وقد لا يوافقنا الكثيرون على ما نقول — بسرعة نحو التشطير والتنوع ، لا فى إنتاجنا المادى فحسب ، ولكن أيضا فى الفن ، وفى التعليم ، وفى الثقافة العامة .

إن أحد الاختبارات الهامة المبينة لدى التنوع الثقافى فى أى مجتمع متعلم ، هو عدد الكتب المختلفة المنشورة بالنسبة لكل مليون من السكان . فكلما زادت نمطية الأذواق الثقافية للجمهور قل عدد عناوين الكتب المنشورة بالنسبة لكل مليون . فى حين تقل هذه النمطية وتزداد الأذواق تنوعا كلما زاد عدد هذه العناوين . كما أن زيادة أو نقص هذا العدد على مر الزمن يعتبر مؤشرا لاتجاه التغير الثقافى للمجتمع . هذه هى القياسات التى وضعتها دراسة لاتجاهات الكتاب فى العالم نشرتها منظمة اليونسكو ، وأشرف عليها روبرت إسكاربيت مدير مركز الآداب بجامعة بوردو ، والتى قدمت قرائن مثيرة على وجود تحول عالمى قوى إلى التنوع الثقافى .

وبالتالى فإن مؤشر التنوع قد ارتفع خلال الفترة من ١٩٥٢ إلى ١٩٦٢ ، فى إحدى وعشرين دولة من بين أكبر تسع وعشرين دولة إنتاجا للكتب فى العالم . وكان من بين الدول التى سجلت أعلى المستويات فى الاتجاه نحو التنوع : كندا ، والولايات المتحدة ، والسويد ، فقد سجلت كل منها زيادة فى التنوع خلال هذه الفترة بلغت ٥٠٪ فأكثر . أما الدول الثمان التى سارت فى الاتجاه العكسى ، أى زيادة النمطية فهى : الهند ، والمكسيك ، والأرجنتين ، وإيطاليا ، وبولندا ، ويوغسلافيا ،

وبلجيكا ، والنمسا ، وباختصار فإنه كلما تقدمت التكنولوجيا فى بلد ما ، زادت احتمالات اتجاهه إلى التنوع الثقافى والابتعاد عن القولية والتماثل .

وأيضا فإننا نجد نفس الاتجاه إلى التنوع بالنسبة للرسم والتصوير ، حيث نرى اتساعا لا يصدق لمدى تعدد مدارس الإنتاج الفنى وأساليبه : التمثيلية ، التعبيرية ، السيريالية ، التعبيرية ، التجريدية ، التهديدية ، البوب ، الحركية ، ومئات غيرها من الأساليب التى تصب إنتاجها معا فى المجتمع . قد يهيمن هذا الأسلوب أو ذاك على صالات العرض لفترة موقتة . ولكن ليس هناك أسلوب ، أو بضعة أساليب ، يمكن أن يشار إليها على أنها النمط المحتكر للسيادة من بين كل الأساليب .

عندما كان الفن عملا دينيا قبليا ، كان الرسام يعمل من أجل البيئة الاجتماعية كلها . ثم صار يعمل لحساب نبيل أرستقراطى فرد من القلة المتميزة . ثم من بعد أصبح جمهوره وكأنه كتلة واحدة متجانسة بلا اختلاف . أما اليوم فإنه يواجه جمهوراً قد انقسم إلى عديد من الكتل المنتمية إلى عديد من الجماعات الفرعية . وحسبما يرى چون ماك هيل فإن : « أكثر البيئات الثقافية اتساقا هى أكثر بدائية . إن أكثر ما يسترعى النظر من ملامح ثقافتنا « العامة » المعاصرة هو ذلك الاتساع الهائل لمدى التنوع فيما تنتجه من اختيارات ثقافية .. إن « الجمهور » حتى عند الفحص السريع الخاطف ينقسم إلى عديد من « الجماهير المختلفة » ؟

والحقيقة أن الفنانين لم يعودوا يعملون من أجل جمهور موحد . وحتى يتراءى لهم أنهم كذلك يفعلون ، فعادة ما يكون ذلك استجابة لأذواق وأساليب تفضلها جماعة أو أخرى من الجماعات الفرعية فى المجتمع . وكما يفعل منتجو شراب الفطائر والسيارات ، فإن الفنانين أيضا ينتجون ، لا من أجل سوق واحدة كبيرة ، ولكن من أجل عديد من الأسواق الصغيرة ، التى كلما زادت عددا زاد الإنتاج الفنى تنوعا ..

وفى نفس الوقت فإن الدفعة نحو التنوع قد فجرت صداما مريرا فى مجال التعليم . فمنذ بداية عصر التصنيع ، والتعليم فى الغرب ، وبخاصة فى

الولايات المتحدة ، موجه نحو الإنتاج الكبير لمستويات تعليمية نمطية فى الأساس . وليس من قبيل المصادفة أنه فى نفس الوقت الذى بدأ فيه المستهلك يطالب بتنوع أكثر ونمطية أقل فيما يقدم له من سلع ويحصل بالفعل على ما يطالب به ، وفى نفس الوقت الذى أصبحت فيه التكنولوجيا الجديدة تعد بمزيد من اللانمطية فى الإنتاج - ليس من قبيل المصادفة تزامن هذه الظاهرة مع موجة الثورة التى بدأت تجتاح الجامعات . وبالرغم من أن الصلة بينهما نادرا ما تلحظ ، إلا أن ثمة رباطا وثيقا بين أحداث السوق وأحداث الجامعات .

إن إحدى الشكاوى الأساسية للطالب هى أنه لا يعامل كفرد ، وأنه مكره على تجرع ما يقدم إليه سواء أساغه أم مجه . إن الطالب هنا مثله كمثل مشترى سيارة الموستانج يريد شيئا مصمما وفقا لذوقه الخاص . والفرق هنا أيضا أنه بينما نجد الصناعة سريعة الاستجابة لمطالب المستهلك، فإن المؤسسة التعليمية على العكس من ذلك قد اعتادت أن تقابل رغبات الطلبة باللامبالاة ، فى الحالة الأولى نأخذ بشعار : « المستهلك يعرف أفضل » أما فى الحالة الثانية فنأخذ بشعار مخالف هو أن : « الأب - أو بديله التعليمى - يعرف أفضل » . وإذن فإن الطالب - المستهلك مضطر إلى أن يقاتل من أجل أن تستجيب صناعة التعليم لمطالبه فى التنوع .

وعلى الرغم من أن معظم الكليات والجامعات وسعت كثيرا من تنوع المناهج التى تقدمها ، إلا أنها ما زالت مستمسكة بنظم نمطية ترتكز على الدرجات والتخصصات وما إلى ذلك ، وترسم هذه النظم مسالك أساسية تفرض على الطلبة السير على منوالها . وعلى الرغم من أن الأساتذة يضاعفون بسرعة من عدد المسالك البديلة ، إلا أن سرعة التنويع ليست على أى حال كافية بالنسبة للطلبة . ولعل هذا هو سر اتجاه الشباب إلى إنشاء ما يسمى : « شبه جامعات » - كليات تجريبية وما يدعون بالجامعات الحرة - حيث كل طالب حر فيما يختار من بين مائدة حافلة من البرامج المشتتة للعقل . والتى يتسع مداها من دراسة تكتيكات حرب العصابات وأساليب العمل فى البورصة إلى التعاليم البوذية و « المسرح السرى » .

قبل مقدم عام ٢٠٠٠ بكثير سوف يصبح كل هذا البناء العتيق من الدرجات والتخصصات وأرصدة أعمال السنة أنقاضا . ولن يكون هناك طالبان يسيران معا بالضبط فى نفس المسلك التعليمى . لأن الطلبة الذين يناضلون الآن من أجل اللانمطية فى التعليم والتحرك فى اتجاه تنوعية عصر ما فوق التصنيع سوف يكسبون معركتهم .

إن من الأمور ذات الدلالات البالغة ، أن لا مركزية النظم الجامعية كانت من بين النتائج الرئيسية التى حققها إضراب الطلبة فى فرنسا . إن اللامركزية تتيح قدرا أكبر من التنوع الإقليمى . وتمكن السلطات المحلية من تعديل المناهج ولوائح الطلبة والعمليات الإدارية .

إن ثورة مماثلة لثورة الجامعات تختمر الآن فى المدارس العامة أيضا . إن مطالعها قد بدأت بالفعل وفى صورة من العنف الصريح . وكمثال على ذلك ما حدث فى بيركلى من اضطرابات فجرت موجة عالمية من احتجاج الطلبة . لقد بدأت تلك الاضطرابات بما يبدو للوهلة الأولى وكأنها مسألة محلية .

ومثلا فى مدينة نيويورك ، التى يضم نظام التعليم بها حوالى ٩٠٠ مدرسة ، ويعتبر مسئولا عن واحد من كل أربعين تلميذا بالمدارس الأمريكية العامة ، تعرض هذا النظام لأسوأ إضراب معلمين حدث فى التاريخ ، ومن أجل مسألة اللامركزية على وجه التحديد . نطاقات المدرسين المضربين تحيط بمداخل المدارس ، والآباء يقاطعونها ، والاضطرابات القريبة من الشغب تصبح من أحداث المدينة اليومية ، والآباء الزنوج وقد أشعل غضبتهم ما رأوه من انحطاط مستوى المدارس ، وما اعتبروه بحق تمييزا عنصريا مكشوفا يطالبون ، يؤيدهم فى ذلك قوى اجتماعية مختلفة ، بتقسيم نظام التعليم كله إلى نظم أصغر تتولى إدارتها المجتمعات المحلية .

والواقع أن سكان نيويورك من السود ، وقد أعياهم طلب المساواة العنصرية وتعليم أفضل لأبنائهم ، دون جدوى ، أصبحوا يريدون الآن نظام تعليم خاصا بهم . إنهم يريدون أن يدرس أبناؤهم تاريخ الزنوج .

ويطالبون بدور للآباء فى المدارس أكبر مما يسمح به النظام البيروقراطى المتحجر الحالى . إنهم يريدون ، باختصار ، أن يكونوا مختلفين .

ومع ذلك فالمشكلة أبعد من مسألة التمييز العنصرى . لقد ظلت نظم التعليم فى المدن الأمريكية الكبرى تعمل حتى الآن كقوى تنميطية شديدة النفوذ بعيدة الأثر . إنها بتنميطها لمستويات التعليم ومناهجه ، واختيار الكتب والمدرسين على مستوى مدينة بأسرها ، قد فرضت قدرا محسوسا من النمطية والتماثل على جميع المدارس .

واليوم فإن الضغوط التى تمارس من أجل تحقيق اللامركزية والتى امتدت من نيويورك إلى ديترويت وواشنطن وميلووكى وغيرها من المدن الأمريكية الكبرى (والتى سوف تمتد أيضا وبأشكال مختلفة إلى أوروبا) ، هى بمثابة محاولة لا تستهدف مجرد تحسين ظروف التعليم بالنسبة للزنوج ، ولكن تحطيم فكرة السياسات المركزية للتعليم ذاتها . إنها محاولة لإيجاد تنوعات محلية فى التعليم العام بإيكال الإشراف على المدارس إلى السلطات المحلية . إنها باختصار جزء من نضال أكبر هدفه تنويع التعليم فى الثلث الأخير من القرن العشرين . إن ما حدث فى نيويورك من إحباط مؤقت لهذا الجهد لا يعنى أن القوى التاريخية التى تتحرك فى اتجاه اللامركزية سوف تحتوى إلى الأبد .

إن الإخفاق فى تحقيق التنوع (من داخل) النظام التعليمى سوف يؤدى ، ببساطة ، إلى نمو فرص تعليمية بديلة « خارج » هذا النظام ، ومن هنا كان مانشهد اليوم من بروز اقتراحات أساتذة كبار من بينهم كينيث.ب.كلارك وكريستوفر جينكس بضرورة إيجاد مدارس جديدة خارج نظم التعليم العامة ومنافسة لها . إن كلارك يدعو إلى إنشاء مدارس مستقلة على مستوى المناطق ، والولايات ، والاتحاد ، ومدارس تديرها النقابات والشركات وحتى الوحدات العسكرية ، إن مثل هذه المدارس المنافسة فى رأى كلارك سوف تساعد على خلق التنوع الذى يعانى التعليم من الحاجة الماسة إليه . وفى نفس الوقت فلقد ظهرت بالفعل أشكال مختلفة من « أشباه المدارس »

أنشأتها كوميونات الهيبيين وغيرهم من الجماعات التى رأت أن التيار الرئيسى لنظم التعليم العام أكثر نمطية مما يجب .

وهكذا ، نرى هنا ، إحدى القوى الثقافية الكبرى فى المجتمع - التعليم - تدفع دفعا نحو تنويع تاريخها . بالضبط كما يفعل الاقتصاد ، وهنا أيضا نجد أن التكنولوجيا الجديدة ، فى عالم البناء الثقافى كما فى دنيا الإنتاج المادى على السواء ، لاترعى مزيدا من النمطية ، وإنما تحملنا إلى تنوع عصر ما فوق التصنيع .

إن الكومبيوتر مثلا ، سوف يتيح لأى مدرسة كبيرة مرونة أكبر فى وضع جداولها ، ويسهل عليها النجاح فى تقديم دراسةمستقلة ذات مناهج أكثر تنوعا ، ومناشط أكثر تعددا . وأهم من هذا فإن التعليم بمساعدة الكومبيوتر والدروس المبرمجة إليكترونيا وغير ذلك من تكتيكات التعليم الحديثة تساعد - على عكس الخطأ الشائع - على تعزيز إمكانية التنوع داخل فصول الدرس . إنها تسمح لكل طالب أن يتقدم فى دراسته وفق السرعة التى يرى أنها مناسبة له شخصيا . إنها تسمح له أن يشق طريقه الخاص نحو المعرفة بدلا من أن يحمل حملا عبر المسلك الضيق الجامد التقليدى الذى تتميز به فصول الدرس فى عصر التصنيع .

وزيادة على ذلك ، فإنه فى عالم الغد ستتضاءل أهمية مخلفات عصر الإنتاج الكبير المتمثلة فى مركزة العمل . فكما كانت اقتصاديات الإنتاج الكبير تقتضى تجميع أعداد كبيرة من العمال داخل المصانع ، كذلك كان الإنتاج التعليمى الكبير يتطلب تجميع أعداد كبيرة من الطلبة داخل المدارس . إن مثل هذا التنظيم ، بما يتطلبه من نظم موحدة ، وساعات عمل منتظمة ، ورقابة على الحضور والانصراف ، وما إلى ذلك ، كان فى حد ذاته بمثابة قوة تنميطية كبرى ، إن تكنولوجيا الغد المتقدمة سوف تلغى ضرورة الكثير من ذلك . إن جانبا كبيرا من العملية التعليمية سيتم داخل حجرة الطالب فى منزله ، وفى أوقات من اختياره هو . فيما ستتيحه هذه المكاتب الضخمة الحافلة بنظم استرجاع المعلومات المعدة بواسطة

الكومبيوتر ، وبمجموعته الخاصة من أشرطة التسجيل والفيديو ، وبمعمل اللغات الخاص به ، وداخل مقصورته الخاصة المجهزة بمعدات التعليم الإليكترونية ، سوف يتحرر من الكثير من قيود الزمان والمكان وغيرها من المضايقات التى تفرضها عليه حجرة الدرس المغلقة .

إن التكنولوجيا التى ستتأسس عليها مثل هذه الحريات سوف تنتشر ، لا محالة ، فى المدارس خلال السنوات القادمة . وسيساعد على انتشارها ، دون شك ، دفعات قوية ستأتى من جانب شركات كبرى من أمثال ا.ب.م. و ر.س .ا . وأكسيروكس .وفى خلال ثلاثين عاما سوف تنخلع نظم التعليم فى الولايات المتحدة وكثير من البلاد الأوروبية من قيود بيداجوجية الإنتاج الكبير العتيقة . وستدخل بخطى واثقة إلى عصر من التنوع التعليمى مؤسس على القوى التحريرية التى تتيحها الآلات الجديدة .

وهكذا ، فى حقل التعليم كما فى مجالات إنتاج السلع ، يسير المجتمع قدما نحو التنوع ، لا نحو التنميط . إن المسألة ليست ببساطة مجرد تنوع فى طراز السيارات أو أصناف المنظفات والسجاير . إن المسيرة الاجتماعية نحو التنوع وتوسيع مجال الاختيار الفردى تشمل آفاقنا الذهنية وبيئتنا المادية جميعا .

أفلام حسب الطلب

قليل من القوى المتهمة بتنميط العقل المعاصر لقى مثل ما لقيته وسائل الاتصال العام من هجوم متواصل ونقد مرير . لقد دمغ المثقفون فى أمريكا وأوروبا التليفزيون خاصة بتهمة التنميط للكلام ، والعادات والأذواق . لقد صوروه فى صورة آلة هائلة من آلات تسوية الحشائش تدور مسوية كل فروقنا الإقليمية ، ساحقة كل أثر لتنوعنا الثقافى . كما وجهت اتهامات مماثلة إلى المجلات والأفلام .

ومع ما تتضمنه هذه الاتهامات من بعض الحقيقة ، إلا أنها أغفلت الجانب المقابل من عمل هذه الوسائل على أهميته . ذلك الجانب الذى يولد التنوع لا التنميط .

إن التليفزيون — نظرا لتكاليف إنتاجه العالية ، وعدد قنواته المحدودة — ما زال يعتمد بالضرورة على الجماهير الكبيرة جدا . ولكن بالنسبة لكل وسائل الاتصال الأخرى تقريبا ، فإننا نستطيع أن نستشف آثار تناقص الاعتماد على الجماهير الكبيرة . إن عملية « تفصيص السوق » تجرى على قدم وساق فى كل مكان .

فإلى جيل مضى ، كان رواد السينما لا يكادون يشاهدون سوى أفلام هوليوود المصنوعة من أجل اجتذاب ما يسمى بالجمهور الكبير . أما اليوم ، وفى كل المدن عبر البلاد ، فقد انضمت إلى « التيار الرئيسى » الذى تمثله هذه الأفلام تيارات أخرى تحمل موجات من الأفلام الأجنبية . وأفلام الفن ، وأفلام الجنس ، وموجات أخرى من الأفلام المتخصصة ، والمصممة أساسا من أجل أسواق محدودة جدا كأفلام هواة التزحلق على الأمواج ، وهواة الموتوسيكلات وما إلى ذلك . لقد وصل الإنتاج السينمائى من التخصص لدرجة أنك تستطيع فى نيويورك مثلا أن تدخل إلى دار عرض كل جمهورها من المصابين بالشذوذ الجنسى ، لتشاهد أنواعا غريبة من الأفلام التى صنعت خصيصا من أجل هؤلاء الشواذ .

ولقد ترتب على ذلك غلبة الاتجاه إلى إقامة دور العرض الصغيرة فى أمريكا وأوروبا . وحسبما ما ورد فى مجلة الإيكونوميست : « لقد مضت أيام دور العرض ذات الأربعة آلاف مقعد .. وصار الجمهور الكبير من الرواد الأسبوعيين للسينما ذكرى من ذكريات ماض ذهب إلى غير رجعة » . وبدلا من هذا الجمهور الكبير ، أصبح يوجد الآن عديد من الجماهير الصغيرة التى تتركز اهتمامات كل منها فى نوع معين من الأفلام . ومن هنا نجد أن شركة سينسينتا لدور العرض قد افتتحت مؤخرا مجموعة كاملة من دور العرض التى تسع كل منها ١٥٠ مقعدا فى موقع واحد بلندن ، كما يخطط كثير من العارضين لإنشاء دور عرض على هذا المنوال . ومرة أخرى تثبت التكنولوجيا المتقدمة أنها عامل فعال من عوامل التنوع : فقد قاد التوسع فى تقديم العروض السينمائية بالطائرات إلى ابتكار نوع

رخيص التكلفة من آلات العرض مقاس ١٦ مللى الأتوماتيكية التى لا تحتاج إلى عامل خاص لتشغيلها ، كما تكفى آلة واحدة منها لتقديم العرض بدلا من آلتين كما كانت عليه الحال من قبل . وقد أخذت شركة يونيتد ارتستس امتياز تسويق هذا النوع من الآلات .

والراديو أيضا ، فبالرغم من أنه ما زال إلى حد كبير وسيلة اتصال موجهة أساسا إلى الجمهور الكبير ، إلا أن هناك مؤشرات تنويع لا يمكن إغفالها . فثمة محطات إذاعة أمريكية تقصر بثها على الموسيقى الكلاسيكية لأجل المستمعين من المثقفين وذوى الدخول العالية . فى حين أن محطات أخرى تتخصص فى الأخبار ، ومحطات تختص بموسيقى الروك . (ومحطات الروك تنقسم الآن بسرعة إلى مستويات ذات حدود أضيق من التخصص . فهناك محطات لمن هم تحت سن ١٨ ، ومحطات لمن هم أكبر . ومحطات للزنوج) . بل إن هناك محاولات الآن لإنشاء محطات ذات برامج موجهة إلى مهنة واحدة كالأطباء مثلا . ويمكن أن نتوقع فى المستقبل شبكة كاملة من الإذاعات الموجهة إلى مجموعات مهنية متخصصة كالمهندسين والمحاسبين والمحامين . ثم من بعد إلى مجموعات ليست مقسمة على أساس مهنى ، وإنما على أسس اجتماعية — اقتصادية ، أو نفسية — اجتماعية أيضا .

أما فى مجال النشر ، فإن مؤشرات التنويع هنا أوضح وأبرز من أن يخطئها البصر . فقبل انتشار التليفزيون كانت المجلات الكبرى تحتل المركز الأول كأداة تنميط بين وسائل الاتصال فى معظم الدول . لقد كانت بما تحمله من نفس القصص ، ونفس المقالات ، ونفس الإعلانات إلى مئات الألوف بين الملايين من البيوت تنشر الموضات والآراء السياسية وغيرها بسرعة . ولقد كان ناشرو المجلات يسعون دائما . كما تفعل محطات الإذاعة وشركات السينما ، إلى أكبر جمهور موحد ممكن .

لقد قتلت منافسة التليفزيون عددا من كبرى المجلات الأمريكية مثل مجلة « كوليرز » ، ومجلة « وومانزهوم كومبانيون » . أما المجلات الكبرى

التى استطاعت أن تحافظ على بقائها بعد صدمة التليفزيون فقد كان من بين الأسباب الذى ساعدتها على البقاء أنها تحولت إلى مجموعة من التقسيمات والطبعات الإقليمية . ففى خلال الفترة من سنة ١٩٥٩ إلى سنة ١٩٦٩ قفز عدد المجلات الأمريكية التى تقدم طبعات متخصصة من ١٢٦ إلى ٢٣٥ . وهكذا فإن كل مجلة واسعة الانتشار فى الولايات المتحدة تطبع الآن طبعات مختلفة إلى حد ما لكل منطقة من مناطق البلاد — وبعض الناشرين يصل إلى حد تقديم مائة طبعة مختلفة بدرجات متفاوتة . وثمة طبعات خاصة توجه إلى المجموعات المهنية وغيرها . إن الثمانين ألف طبيب الذى يتسلمون نسخهم الأسبوعية من مجلة « تايم » . يتسلمون فى الواقع طبعة تختلف عن تلك التى ترسل إلى المعلمين والتى تختلف بدورها عن الطبعة التى ترسل إلى طلبة الجامعات . ومازالت مثل هذه « الطبعات الديموجرافية » تتجه باستمرار نحو مزيد من التقسيم والتخصص . وبإيجاز ، فإن ناشرى المجلات الكبرى يعملون بجد على تنويع منتجاتهم ، كما يفعل صانعو السيارات وغيرها من السلع .

وبالإضافة إلى ذلك ، فقد زاد معدل مواليد المجلات الجديدة زيادة كبرى . فطبقا لما أعلنه اتحاد ناشرى المجلات ، ظهرت أربع مجلات جديدة فى مقابل كل مجلة ماتت خلال فترة السنوات العشر الأخيرة . وفى كل أسبوع تظهر فى « أكشاك » بيع الصحف ، أو يحمل البريد مجلة جديدة محدودة التوزيع موجهة إلى جماعات محدودة من أصحاب مختلف الهوايات والاهتمامات . لقد ظهرت مجموعة كبيرة ومنوعة من مجلات المراهقين . ومن قريب جدا حدث ما لم يكن يجرؤ أى ناشر على التنبؤ به منذ سنوات قليلة : ذلكم هو عودة ظهور المجلات الشهرية المحلية : إن عشرات من المدن الأمريكية من مثل فينكس ، وفيلادلفيا ، وسان دييجو ، وأتلانتا تفخر بما تصدر من هذه المجلات الدسمة الأنيقة الطبع ، والمكرسة تماما للشئون المحلية . لست أعتقد أن فى كل ذلك تعرية للفروق أو تسطيحا للاختلافات ، بل على العكس من ذلك فإن المتاح لنا من المجلات الآن هو تنوع أغنى وأوفر ، ومجال اختيار أوسع وأكبر من أى

وقت مضى . وكما سنرى من الدراسة التى أجرتها منظمة اليونسكو فإن نفس الشئ يمكن أن يقال فيما يختص بالكتب .

لقد تصاعد عدد عناوين الكتب المنشورة كل عام تصاعدا حادا . لقد بلغ حاليا من الضخامة حدا (أكثر من ٣٠,٠٠٠ فى الولايات المتحدة) جعل إحدى سيدات المجتمع تشكو قائلة : « لقد أصبح من الصعب أن تجد شخصا قرأ نفس الكتاب الذى قرأته . كيف بالله إذن يستطيع الإنسان أن يدير مناقشة حول القراءة ؟ » قد تكون هذه السيدة مبالغة فى تعبيرها ، ولكن الواقع أن نوادى الكتاب أصبحت تجد صعوبة كبيرة فى انتقاء مختاراتها الشهرية بما يكفل إرضاء أذواق أعضائها المختلفة .

إن عملية التنوع ليست بأى حال مقصورة على النشر التجارى فحسب . فالمجلات الأدبية غير التجارية تتوالد هى الأخرى بكثرة . وطبقا لما أعلنته مجلة نيويورك تايمس بوك ريفيو : « لم يحدث فى تاريخ أمريكا أن وجد من مثل هذه المجلات مثل العدد الموجود حاليا » . ونفس الشئ أيضا يمكن أن يقال عن « الصحف التحتية » التى صارت تظهر بالعشرات فى أمريكا وأوروبا . إن ما يوجد بالولايات المتحدة وحدها من هذه الصحف لا يقل عن مائتين ، كثير منها يلقى عونا كبيرا فى شكل إعلانات من شركات صناعة الأسطوانات الكبرى . وهذه الصحف الموجهة أساسا إلى الهيبيين ، وطلبة الجامعة الثائرين ، وجمهور موسيقى الروك ، قد أصبحت قوة ملموسة فى تكوين آراء الشباب . إن هذه الصحف من « إت » فى لندن إلى « أيست فيلدج آذر » فى نيويورك ، و « كودزو » فى مدينة جاكسون بولاية المسيسبى ، صحف مصورة غالبا بالألوان ، وحافلة بإعلانات عن « أطعمة السيكوديليك » وخدمات التعارف . إن الصحف التحتية تصدر حتى فى المدارس الثانوية . إن من يرى كل هذا المرعى الخصب الزاخر بكل هذه الألوان من المنشورات ثم يتحدث عن ثقافة منمطة فإنما يتعامى فى الواقع عن الحقائق الجديدة .

وجدير بالإشارة والتسجيل ، أن هذا الاندفاع نحو التنويع فى وسائل

ومواد الاتصال لا يرجع إلى الوفرة وحدها ، ولكن كما رأينا ، إلى التكنولوجيا الجديدة . أى إلى نفس الماكينات التى قيل بأنها حرية بأن تجانس بيننا وأن تسحق كل أثر للتنوع والاختلاف . إن التقدم الذى تحقق لطباعة الأوفست والتصوير الجاف قد خفض بشكل ثورى من تكاليف النشر المحدود التكاليف العدد إلى حد أن تلاميذ بعض المدارس الثانوية يعتمدون على مصروفهم الخاص فى تمويل وطبع صحيفتهم . والواقع أن ماكينات النسخ المكتبية ، وهناك طرز جديدة منها تباع الآن بما لا يزيد على ثلاثين دولارا ، قد جعلت من الممكن إصدار طبعات محدودة لدرجة أن كل رجل يستطيع الآن ، كما يقول ماك لوهان ، أن يصبح ناشرا ذاتيا لنفسه . إن الارتفاع الصاروخى لعدد الدوريات التى يجد القارئ نفسه حيالها لخير شاهد على سهولة النشر .

وفى الوقت نفسه ، فإن الكاميرات الصغيرة ومعدات التسجيل والفيديو تحدث ثورة فى القواعد المألوفة للإنتاج السينمائى . لقد وضعت التكنولوجيا الجديدة كاميرات السينما فى أيدى الألوف من الطلبة ، والهواة . كما جعلت صناعة الأفلام التحتية تزدهر بأكثر مما ازدهرت به حتى الصحافة التحتية .

ولقد أحدث التقدم التكنولوجى تطورات هامة أيضا فى وسائل الاتصال السمعية حيث أتاح انتشار أجهزة التسجيل لأى إنسان أن تكون له : « إذاعته » الخاصة . ويقرر أندريه موسمان — خبير أوروبا الشرقية بالإذاعة والتليفزيون الفرنسى — أنه يوجد فى روسيا وبولندا مغنون لأغانى البوب يتمتعون بشهرة واسعة بالرغم من أن أحدهم لم يسبق له الظهور بالراديو أو التليفزيون ، وإنما انتشرت أغانيهم من خلال أشرطة التسجيل وحدها . فأشرطة أغانى بولات أكودزافا مثلا تنتقل من يد إلى يد وكل مستمع يسجلها بدوره على شريطه الخاص ، وهكذا دواليك . وهى عملية يصعب على السلطات ، لو أرادت ، أن تمنعها ، وهى أيضا تنمو بسرعة وكما يقول موسمان : « إذا سجل رجل شريطا ثم سجل صديقه اثنين ، وهكذا ، فإن معدل الزيادة فى عدد الأشرطة يتضاعف سريعا » .

طالما شكا المتطرفون من أن وسائل الإتصال محتكرة بواسطة القلة . وإن لم تخنى الذاكرة ، فلقد ذهب عالم الإجتماع س . رايت ميلز إلى حد تحريض المشتغلين بالثقافة على الإستيلاء على وسائل الاتصال . لقد تطورت الأمور بحيث لم تعد هناك ضرورة لمثل هذا الإجراء العنيف . إن تطور تكنولوجيا الإتصال يتولى الآن فى هدوء وسرعة عملية تفتيت احتكار وسائل الإتصال دون إطلاق رصاصة واحدة ، ويكفل تنوعا أغنى وأوفر فيما تقدمه هذه الوسائل من ناتج ثقافى .

ربما كان التليفزيون ما زال باقيا حيث هو كأداة لتنميط الأذواق . ولكن باقى الوسائل الأخرى قد اجتازت بالفعل تلك المرحلة التى كان التنميط فيها ضرورة تكنولوجية . وعندما يستطيع التطور التكنولوجى تعديل اقتصاديات التليفزيون بإتاحة قنوات أكثر وخفض تكاليف الإنتاج ، فإننا نتوقع للتليفزيون أيضا أن يبدأ فى تنويع وتقسيم ما يقدمه بما يناسب التنوع المتزايد فى أذواق جماهيره . والواقع أن طوالع مثل هذه التطورات قد بدت بالفعل فى الأفق . إن اختراع تسجيل الفيديو الإليكترونى وانتشار التليفزيون السلكى وإمكانية البث المباشر من الأقمار الصناعية إلى النظم السلكية ، كلها مؤشرات تبشر بإمكانيات تنوع ضخمة . وحيث إنه أصبح من الواضح الجلى أن الاتجاه إلى التمطية إنما يمثل مرحلة واحدة من مراحل تطور أى تكنولوجيا . وأن جدلية التطور مازالت مستمرة فى عملها ، فإننا ولا شك على شفا قفزة لم يسبق لها مثيل نحو التنوع الثقافى .

لم يعد بعيدا ذلك اليوم الذى تقدم فيه الكتب والمجلات والصحف والأفلام وغيرها من وسائل الاتصال إلى المستهلك على قاعدة « صممها بنفسك » كما هى الحال فى سيارة الموستانج التى تحدثنا عنها آنفا . وهنا نذكر كيف اقترح جوزيف ناوتون ، الرياضى وخبير الكومبيوتر ، فى أواسط الستينيات نظاما لاختزان المعلومات الجانبية عن مهنة المستهلك واهتماماته بواسطة كومبيوتر مركزى ، ثم تقوم الآلات بعمل مسح للصحف والمجلات والأشرطة والأفلام وغيرها من المواد لتنتقى منها ما يتجانس مع اهتماماته ثم تخطره فور ظهور أى شئ يهمه من هذه المواد . إن مثل هذا

النظام قد يمكن توصيله بماكينات الإرسال اللاسلكى للصور والمواد المطبوعة وبأجهزة الإرسال التليفزيونى التى تمكن أن تبعث بالمـادة المناسبة ، معروضة أو مطبوعة ، إلى حجـرة الجلوس بمنزل المستهلك ، فى سنة ١٩٦٩ كانت صحيفة « أشاهى شيمبن » اليابانية تعرض على الملأ نظام « تلينيوز » رخيص التكاليف لطبع الصحف فى المنزل ، وفى نفس الوقت كانت مصانع ماتسوشيتا بأوزاكا تعرض نظاما منافسا . هذه هى الخطوات الأولى على طريق صحيفة المستقبل — صحيفة عجيبة حقا ، لا تقدم نفس المحتويات لاثنين من المشاهدين — القراء . إن الاتصال « العام » فى ظل نظام هكذا لا يصبح عاما وإنما يتجزأ ويتفتت . إننا فى الواقع نتحول من التماثل إلى الاختلاف .

إنه محض هراء إذن ، ذلك الإصرار على أن ماكينات المستقبل سوف تحولنا إلى مخلوقات آلية . وتسلبنا فرديتنا . وتمحو فروقنا الثقافية . و . . و . . . إلى آخره . فكون الإنتاج الكبير قد فرض فى مرحلتـه البدائية تجانسات معينة لا يعنى بحال من الأحوال أن ماكينات عصر ما فوق التصنيع سوف تفعل نفس الشئ . . فالحقيقة هى أن كل دفعتنا نحو المستقبل إنما تحملنا بعيدا عن التنميط ، بعيدا عن السلع المتجانسة وعن التماثل فى الفن ، وعن أسلوب الإنتاج الكبير فى التعليم والثقافة . إننا قد وصلنا إلى مفترق جدلى هام فى التطور التكنولوجى للمجتمع . فالتكنولوجيا بدلا من أن تفرض قيوداً على فرديتنا ، سوف تضاعف آسيا من مجالات اختيارنا ومن آفاق حريتنا .

أما إذا كان الإنسان مهيأ لمواجهة ما سيعرض له من اختبارات متعددة مادية وثقافية ، فهذه على أيه حال مسألة أخرى مختلفة تماما . فقد يجئ الوقت الذى يتعقد فيه الاختيار إلى الحد الذى يتحول فيه من عامل تحرير للإنسان إلى عكس ذلك تماما . أو بعبارة أخرى ، فقد يأتى الوقت الذى يتحول فيه « الاختيار » إلى « فائض اختيار » . ومن حرية إلى قيد .

وحتى نفهم كيف يمكن أن يحدث هذا ، لابد وأن نذهب إلى أبعد من استعراض التوسع فى اختياراتنا المادية والثقافية .. لابد من إطلالة على ما يحدث أيضا لاختياراتنا الاجتماعية .

الفصل الثالث عشر

طوفان من الطوائف

على بعد ثلاثين ميلا شمال نيويورك ، وعلى مرمى البصر من ناطحات سحابها ، وصخب مواصلاتها ومغرياتها المدنية العديدة ، يعيش جندى سابق يعمل حاليا سائقا لسيارة أجرة ، ويباهى بسبعمائة غرزة فى جسمه . هذه الغرز لم تنتج من معالجة جروحه فى المعارك الحربية ولا من حوادث وقعت لسيارته ، ولكن من هوايته المحببة : رياضة رعاة البقر (الروديو) .

وبالرغم من مرتبه المتواضع فإن هذا الرجل ينفق سنويا ما يزيد على ١٢٠٠ دولار ليقتنى حصاناً خاصاً ، ويؤويه ويوفر له العناية اللازمة . وفى أوقات معينة ، يردف مقطورة الحصان بسيارته ويقودها لمسافة تربو على المـــائة ميل حتى يصل إلى مكان خارج مدينة فيلادلفيا يسمى « مدينة البقر » ، وهناك يدخل مع أقران له فى مسابقات تقييد وكبح ومصارعة العجول وغيرها من المسابقات المرهقة التى تكون أحسن جوائزها عادة هى الزيارات المتكررة لجناح الإسعاف بالمستشفى .

هذا الشاب لا يجد فى نيويورك برغم كل عظمتها ما يجذبه إليها . وعندما التقيت به كان فى الثالثة والعشرين ، وبالرغم من ذلك لم يزرها سوى مرة أو مرتين فى حياته .

إن كل اهتمامه منصب على حلقة الروديو . وهو فرد من جماعات صغيرة من مهووسى الروديو تشكل طائفة محدودة الشهرة من الطوائف الغريبة المنتشرة فى الولايات المتحدة . إنهم ليسوا محترفين يكتسبون عيشهم من هذه الرياضة الخطرة ، كما أنهم ليسوا مجرد أناس يخلب لبهم الطراز الفريد لملابس رعاة البقر . إنهم طائفة صغيرة ولكن أصيلة ضائعة وسط ضخامة وتعقيد أكبر حضارة تكنولوجية عرفها التاريخ .

هذه الجماعة الغريبة لا تستحوذ على اهتمام سائق السيارة الأجرة هذا فحسب ، ولكنها أيضا تستنفد وقته وماله ، وتؤثر فى أسرته ، وأصدقائه ، وأفكاره : إنها تمده بمجموعة معينة من المعايير التى يقيس عليها ذاته . إنها باختصار تمنحه شيئا ما قد يجد الكثيرون منا صعوبة فى العثور عليه : تمنحه ذاتية .

إن المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا هى فى الواقع أبعد ما تكون عن الرتابة والتماثل . فكيانها ينتظمه العديد من جماعات غنية بالألوان مثل جماعات الهيبيين ، وهواة السرعة ، والمتصوفين ، وأصدقاء الأطباق الطائرة ، وهواة الغطس ، وهواة القفز الجوى ، وبناة الأجسام ، والنباتيين ، وأنصار الكومبيوتر ، والمسلمين السود .

إن ضربات مطارق ثورة ما فوق التصنيع تنهال اليوم على المجتمع فتشظيه وتقسمه إلى أجزاء وتفاريق . إن هذه القبائل والبطون والطوائف الصغيرة تنمو وتكثر بين ظهرانينا بنفس الأسلوب الذى تنمو وتتكاثر به اختياراتنا المادية والثقافية . إن نفس قوى التنويع التى تعمل من أجل توسيع مجال الاختيار الفردى للسلع وللمواد الثقافية ، تعمل أيضا على محو النمطية والتماثل فى بنانا الإجتماعية . وهذا هو السر فيما نعانيه اليوم من انبثاق مفاجئ ومتكرر لطوائف فرعية جديدة مثل جماعات الهيبيين العديدة التى تبرز إلى الوجود ما بين يوم وليلة . إننا نعيش فى الواقع وسط « انفجار طائفى » .

إن من المحال أن نكون مبالغين فى إضفاء الأهمية على هذه الظاهرة ، لأننا جميعا متأثرون إلى أبعد حد فى سلوكنا ومواقفنا ، وفى صياغة ذاتيتنا ، بالطائفة التى تختار بالوعى أو بلا وعى ، الانتماء إليها . إنه لأمر يسير أن نسخر من هيبى ، أو من رجل غير متعلم يقبل عن طواعية معاناة سبعمائة غرزة جراحية فى محاولة لاختيار و « إيجاد » ذاته . إننا جميعا ، بمعنى أو بآخر ، ذلكم الهيبى أو هاوى الروديو اللذان قد نسخر منهما . إننا مثلهما نسعى إلى تعريف ذاتنا من خلال انتمائنا إلى طوائف

وقبائل أو جماعات مختلفة وغير رسمية . وكلما تعددت الاختيارات عز الطلب .

علماء وسماسرة

إن تكاثر الطوائف الفرعية يبدو فى أحلى صوره فى دنيا العمل . فكثير من هذه الطوائف تنبت حول التخصصات المهنية ، وبالتالى فإن المجتمع يسير فى اتجاه المزيد من التخصص ويولد تنوعا أكثر فأكثر فى الثقافات الفرعية .

فمجتمع العلماء على سبيل المثال ، تتوالى انقساماته إلى جزيئات أدق فأدق ، وتتصالب عليه خطـوط متقاطعة لشبكة كاملة من المنظمات والاتحادات التى تتضاعف باستمرار أعداد ما تصدره من مجلات وما تعقده من اجتماعات ومؤتمرات . ولكن هـذا التمايز « الظاهر » لقطاعات هذا المجتمع له أيضا من الناحية الموضوعية صنوه الآخر من التمايز « الخفى » بين هذه القطاعات . إن البحاثة فى مرض السرطان والفلكى لا يقومان فقط بعملين مختلفين ، ولكنهم أيضا حريصون بأن يكون لكل منهما نموذج من الشخصية مختلف من نموذج لآخر . إنهما يتكلمان لغتين مختلفتين ويفكران ويلبسان ويعيشان بأسلوبين مختلفين (هذا التمايز من الوضوح لدرجة أنه كثيرا ما يؤثر فى العلاقات الشخصية المتبادلة . تقول إحدى السيدات العالمات : « إن زوجى أخصائى فى علم الميكروبات ، أما تخصصى أنا ففى الفيزياء النظرية . إننى أحيانا أتساءل عما إذا كان هناك وجود مشترك بيننا ») .

إن العلماء داخل إطار تخصص معين يميلون إلى التلاقى مع من هم على شاكلتهم ، وأن يترابطوا معا مكونين خلية صغيرة ضيقة لثقافة فرعية ، إليها يسعون فى طلب القبول والمكانة ، وأيضا للاسترشاد فى أمور مثل الملابس والآراء السياسية وأسلوب الحياة .

وكلما اتسع العلم وكثر أهله ، ظهرت تخصصات جديدة وأنبتت تنوعا أكثر على هذا المستوى « الخفى » أو غير الرسمى . وبعبارة موجزة فإن التخصص ينمى الطوائف الفرعية .

وفى عالم المال ، نرى صورة درامية لهذا الانقسام الخلوى داخل المهنة . لقد كان وال ستريت فى وقت من الأوقات مجتمعا متجانسا نسبيا . وكما قال أحد المراقبين الثقات : «كان العرف المألوف هو أنك تأتى إلى هنا من سانت بول وتجمع ثورة طائلة ، وتشترك فى نادى راكيت ، وأن يكون لك أرض ومنزل على الشاطئ الشمالى ، وأن تظهر بناتك فى المجتمع — وأن تحصل على كل هذا من بيع الأسهم والسندات إلى زملائك فى الدراسة » . ربما تكون هذه الملاحظة متسمة بشئ من المبالغة . ولكن الحقيقة أن وال ستريت كان بالفعل بمثابة طائفة واحدة كبيرة من البيض الأنجلوسكسونيين البروتستانت ، وكان أفرادها ينزعون إلى الالتحاق بنفس النوادى وممارسة نفس الرياضات (التنس ، والجولف ، والاسكواش) ، والتردد على نفس الكنائس (المشيخية والأسقفية) ، والتصويت لنفس الحزب (الجمهورى) .

إن أى إنسان مازال يتصور وال ستريت على هذه الصورة ، فإنما يستمد أفكاره من روايات أوكينكلوس وماركاند أكثر مما يستمدها من الواقع السريع . لقد صار مجتمع وال ستريت اليوم مفتتا . وأصبح أمام أى شاب يريد أن يدخل ميدان العمل به عديدا منوعا من الطوائف الفرعية ليختار من بينها الطائفة التى يجب أن ينتمى إليها . صحيح أن جماعة بنوك الاستثمار القديمة المحافظة « واسب » مازالت موجودة . وأنه مازالت هناك بعض المؤسسات المتشبثة بنظرة التعصب العتيقة التى يكفى لها بنعت : « الحذاء الأبيض » والتى يقال عنها : « إنها ستقبل شريكا أسود قبل أن تستخدم يهوديا » ، ولكن فى مجال الودائع المشتركة ، وهو قطاع متخصص وجديد نسبيا فى صناعة « المال » ، برزت أسماء عديدة ليونانيين ويهود وصينيين وزنوج . وهنا نجد جماعة مختلفة تماما فى أسلوب حياتها وفى قيمها . إن رجال الودائع المشتركة يكونون قبيلة متميزة فى مجتمع وال ستريت .

وكما يقول أحد الكتاب المتخصصين : « لم يعد حتى الانضمام إلى «الواسب» رغبة عامة لكل العاملين فى « وال ستريت » . والواقع أن كثيرين

من شباب وال ستريت المكافحين ، حتى لو كانوا من حيث المنبت والأصل منتمين إلى « الواسب » ، ينبذون فكرة الانضمام إلى هذه الجماعة التقليدية ويفضلون الانتماء إلى غيرها من بين الطوائف الاجتماعية العديدة التى تعج بها شوارع أسفل منهاتن .

وكلما مضينا نحو مزيد من التخصص ، وكلما امتد البحث إلى اكتشاف ميادين جديدة وسبر أغوار القديمة ، وكلما استمر النشاط الاقتصادى فى خلق تكنولوجيات وخدمات جديدة ، فسوف تستمر أعداد الطوائف الفرعية فى التضاعف . إن أولئك النقاد الاجتماعيين الذين ينددون بفكرة « مجتمع الكتلة الواحدة » فى نفس ، ويستنكرون فكرة «المزيد من التخصص» فى النفس التالى ، إنما يمارســون فى الواقع نوعا من شقشقة اللسان . إن التخصص يعنى البعد عن التماثل .

وبالرغم من كل الثرثرة عن الحاجة إلى أشخاص «شموليين» ، فليس هناك دليل مقنع على أن تكنولوجيا الغد يمكن أن تطبق دون جيوش من المتخصصين المدربين على أعلى مستوى ممكن . إننا نغير باستمرار من نماذج الخبراء المطلوبين . إننا فى حاجة أكثر إلى أشخاص من « متعددى التخصص » أى أشخاص ذوى تخصص عال فى حقل معين ، ولـكنهم يستطيعون أن يتخطوه إلى ما عداه أيضا ، وذلك أكثر من حاجتنا إلى أشخاص متجمدين من « وحيدى التخصص » . ولـكن سوف تستمر أيضا حاجتنا إلى إيجاد المزيد من التخصصات الأكثر صقلا كلما زاد تعقد القاعدة الفنية للمجتمع . ولهذا السبب وحده فإن لنا أن نتوقع زيادة مستمرة فى عدد الطوائف الفرعية بالمجتمع .

اخصائيون فى اللهو

وحتى فيما لو حررت التكنولوجيا ملايين الناس من الحاجة إلى العمل فى المستقبل ، فإننا سنجد نفس الحاجة إلى التنوع تفرض نفسها على أولئك الذين تفرغوا للهو . حيث إننا بالفعل نخلق أعداداً كبيرة من « اخصائى اللهو » . إننا لا نضاعف من أنماط العمل فحسب . ولـكن من أنماط اللهو أيضا .

إن عدد المتع المقبولة ، والهوايات ، والألعاب ، والرياضيات ، والترفيهات يتصاعد بسرعة . وهناك أكثر من دليل على إمكانية قيام طوائف فرعية متميزة على أساس من صلات تزجية الفراغ . ويمكن أن نأخذ هواة الانزلاق على الأمواج كمثال للتدليل على أن صلات تزجية الفراغ يمكن أن تعنى ، على الأقل بالنسبة للبعض ، أساسا لأسلوب كامل للحياة . إن الطائفة الفرعية لهواة الانزلاق على الأمواج علامة طريق تشير إلى المستقبل .

لقد كتب ريمى ناداو يقول : « لقد أوجد الانزلاق على الأمواج بالفعل نوعا من الرمزية التى تعطى سمة الإخاء السرى أو التنظيم الدينى . علامته المميزة : سن سمكة قرش ، أو ميدالية سانت كريستوفر ، أو صليب مالطى يتدلى من عنق العضو . ووسيلة الانتقال المفضلة منذ زمن بعيد هى سيارة فورد ستيشن واجن ، مكسوة بالخشب ومن طراز عتيق » . إن المنزلقين على الأمواج يتباهون بما يرصع ركبهم وأقدامهم من قروح وكدمات كبرهان على انتمائهم . ولون البشرة البرونزية المكتسبة من أشعة الشمس علامة مسجلة . والشعر مقصوص بأسلوب مميز . وأفراد القبيلة يمضون ساعات طويلة فى المناظرة بين قوة الأبطال من داخل الجماعة من أمثال ج.ج . مون الذى يشترى أنصاره قمصانا وألواح انزلاق تحمل اسمه ويكونون نوادى للمعجبين به .

إن المنزلقين على الأمواج ليسوا سوى واحدة من عديد من الطوائف الفرعية المؤسسة على اللهو . وعلى سبيل المثال فإن اسم ج . ج . مون لايكاد يكون معروفا بين أفراد طائفة هواة القفز الجوى . وأيضا فلا وجود بينهم لطقوس ومودات المنزلقين على الأمواج . ولكن هواة القفز الجوى يتحدثون بمثل هذه الحرارة عن عظمة رود باك الذى قفز منذ وقت غير بعيد من طائرة بدون مظلة ، وإنما أخذ المظلة من زميل له معلق بمظلته بين السماء والأرض ، ثم ارتداها وفتحها وهبط بها سالما إلى الأرض . إن لهواة القفز الجوى عالمهم الصغير الخاص ، مثلهم فى ذلك مثل هواة الطيران

الشراعى ، والقيادة السريعة ، وسباق الزحافات ، وركوب الموتوسيكلات وغيرهم . إن كلا من هؤلاء يمثل طائفة فرعية مؤسسة على صلات تزجية الفراغ . ومنظمة حول أداة تكنولوجية معينة . وكلما أنتجت التكنولوجيا أدوات لرياضاتٍ جديدة ، فلنا أن نتوقع قيام المزيد من هذه الطوائف .

إن أساليب تزجية الفراغ سوف تتزايد أهميتها كأساس للفروق بين الناس ، كلما تحول المجتمع أكثر عن التكيف من أجل العمل إلى توجيه اهتمام أكبر لأوقات الفراغ . فنى الولايات المتحدة ، منذ مطلع القرن الحالى حتى الآن ، انكمش ما يوجهه المجتمع ككل من وقت العمل بمقدار الثلث ، الأمر الذى يعتبر بمثابة عملية إعادة توزيع ضخمة لوقت المجتمع وطاقاته . وكلما زاد فى المستقبل حجم الوقت الموجه إلى العمل انكماشا ، فإننا سندخل إلى عصر من التخصص الأخاذ فى اللهو — معظمه مؤسس على التكنولوجيا المتطورة .

ونستطيع أن نتوقع تكون طوائف فرعية حول أنشطة الفضاء ، والمخطوطات ، والتحكم الذهنى ، والغوص العميق ، وألعاب الكومبيوتر ، والكثير من أمثال ذلك . إننا حتى نستطيع أن نلمح فى الأفق خلق طوائف هوايتها المناهضة الاجتماعية — جماعات معينة تشغل أوقات فراغها بتعويق أنشطة المجتمع ، لا بحثا وراء كسب مادى ، ولكن كمجرد نوع من رياضة « قهر المجتمع » — وهى إمكانية حملت نذرها أفلام سينمائية من أمثال فيلم « دافى » ، وفيلم « قضية توماس كراون » . مثل هذه الجماعات قد تحاول التلاعب فى برامج الكومبيوتر الخاصة بالحكومة والشركات ، أو التدخل فى خط سير البريد ، أو استقبال برامج الإذاعة والتليفزيون وإعادة بثها بعد تعديلها ، أو إعداد خدع مسرحية ماهرة ، أو التلاعب فى البورصة أو الإفساد المتعمد للعينات العشوائية التى تجرى عليها الاستطلاعات السياسية ، أو حتى ربما وصلت إلى ارتكاب جرائم سرقة واغتيال مدبرة بإحكام وتعقيد . لقد وصف الروائى توماس بينشون فى روايته : « تذمر المجموعة رقم ٤٩ » جماعة سرية وضعت نظامها الخاص للبريد واستمرت تديره

لعدة أجيال . أما روبرت شيكيلي كاتب القصص العلمى فقد ذهب فى قصته القصيرة المخيفة « الضحية السابقة » إلى حد افتراض إمكانية تقنين المجتمع لمشروعية جريمة القتل بين عناصر محددة من « اللاعبين » الذين يتعقبون بعضهم بعضا بالقتل . وإن هذه اللعبة ستمكن أولئك الذين يتصفون بدرجة خطيرة من الميل إلى العنف أن يمارسوا ميولهم العدوانية داخل إطار شرعى منظم .

وبالرغم مما يبدو فى بعض هذه الاحتمالات من غرابة فإنه، من المستحسن ألا نسقط من اعتبارنا كل ما يبدو بعيداً عن الاحتمال ، لأن عالم الفراغ على خلاف دنيا العمل قليل التقيد بالاعتبارات العملية ، فهنا يطلق للخيال عنانه ، والعقل البشرى يستطيع أن يبتكر ألوانا من « اللهو » لا يصدقها العقل . ورجال الغد بما سيتاح لهم من وقت ، ومال ، ومهارة فنية يستطيعون أن يمارسوا أشكالا من اللهو لم يحلم بها إنسان من قبل . سوف يلعبون ألعابا جنسية غريبة . وألعابا بالعقول . مع المجتمع . وهم إذ يفعلون وبما سينتقون من بين ما سيتاح لهم من اختيارات واسعة بما يفوق التصور ، سوف يشكلون طوائفهم الفرعية الخاصة . محدثين بذلك انقسامات أكثر وأبعد .

« جيتو » الشباب

إن الطوائف الفرعية تتضاعف ، والمجتمع يتزايد انقساما على أساس من مستوى السن أيضا . إننا سائرون نحو « تخصصات السن » بمثل ما نحن سائرون إلى تخصصات اللهو والعمل . لقد جاء وقت كان الناس مقسمين فيه إلى أطفال ، « وأشخاص صغار » ، وبالغين . ولم يحدث قبل حلول الأربعينيات من هذا القرن أن استبدل اصطلاح « الأشخاص الصغار » الفضفاض باصطلاح أكثر تحديدا هو اصطلاح « المراهقين » الذى يشير إلى المرحلة ما بين سن الثالثة عشرة والتاسعة عشرة .

أما اليوم فلم يعد هذا التقسيم الثلاثى الفج كافيا ، وأصبحنا منشغلين باختراع مستويات أخرى أكثر تحديدا . فلدينا الآن توصيف (تحت

المراهقة) الذى يشير إلى المرحلة ما بين الطفولة والمراهقة . وبدأنا أيضا فى استخدام اصطلاح « ما بعد المراهقة » ثم « شباب المتزوجين » . إن كلا من هذه الاصطلاحات يمثل اعترافا لغويا بحقيقة أنه لم يعد فى استطاعتنا من الناحية العملية أن نجمع بين كل «الأشخاص الصغار » فى كتلة معا. إن ثمة أخاديد متزايدة العمق تفصل بين كل جماعة سنية والأخرى . هذه الفروق التى بلغت من الحدة درجة جعلت جون لوفلاند أخصائى علم الاجتماع بجامعة ميتشيجان يتنبأ بأنها سوف تتحول إلى « نزاع مساو للنزاع بين الشماليين والجنوبيين ، والرأسماليين والعمال ، والمهاجرين والمستوطنين ، والذكر والأنثى ، والبيض والزنوج » .

ويعزز لوفلاند نبوءته بوثائق تشير إلى تصاعد ظاهرة ما أسماه « جيتو الشباب » مجتمعات كبيرة تكاد تكون مأهولة تماما بطلبة الجامعات . وجيتو الشباب ، مثله فى ذلك مثل جيتو الزنوج ، يتميز برداءة المساكن والأسعار والإيجارات الابتزازية والحركة السريعة جدا ، والتوتر ، ويعج بعديد من الطوائف الفرعية التى تتنافس على اجتذاب اهتمام سكان الجيتو وولائهم .

إن أطفال أسر عصر الذرة المشذبة وقد حرموا أمثلة البطولة والنموذج المحتذى من البالغين فيما عدا والديهم يهرعون بأعداد متزايدة إلى أحضان النوع الوحيد الآخر من البشر المتاح لهم – الأطفال الآخرين . إنهم يقضون وقتا أكثر معا ، ويصبحون أكثر استجابة بتأثير نظرائهم من أى وقت مضى . وبدلا من أن يمجدوا عملا من أعمالهم مثلا ، فإنهم يمجدون بوب ديلان ، أو دونوفان ، أو أيا من تعتبره جماعة الأقران نموذجا لأسلوب الحياة . وهكذا فإننا لم نبدأ فى تكوين جيتو طلبة الجامعات فحسب ، بل أيضا أشباه – جيتو للمراهقين ولمن هم دون المراهقة ، كل له ملامحه القبلية المتميزة ، وأنصاره ، و« موداته » ، وأبطاله ، وشروره .

وفى نفس الوقت فإننا أيضا نعمل بمهمة على تفصيص مجتمعات البالغين على نفس قاعدة السن . فثمة ضواح مأهولة أساسا بأزواج من الشباب وأطفالهم الصغار ، وضواح أخرى بمتوسطى السن وأبنائهم المراهقين ،

وثالثة بكبار السن ممن هجر أبناؤهم البيت . ولدينا مجتمعات مصممة خصيصا للمتقاعدين . إن البروفيسور لوفلاند يحذر من « أنه قد يأتى يوم تجد فيه بعض المدن عجلة نشاطها السياسى وهى تدور حول محور من قوة أصوات أنواع من الجيتو المؤسسة على مستويات مختلفة من السن ، بنفس الأسلوب الذى ظلت فيه عجلة النشاط السياسى فى مدينة شيكاغو دائرة لزمن طويل حول محور الجماعات المنتمية إلى أصل واحد ، والتجمعات العنصرية » .

إن انبثاق مثل هذه الثقافات الفرعية المؤسسة على قاعدة السن يمثل جزءاً من تحول تاريخى مذهل فى قاعدة التمايز الاجتماعى . إن أهمية الزمان كمصدر للفوراق بين الناس تتزايد . فى حين أن أهمية المكان تتناقص .

ويشير جيمس . و . كارى . أستاذ نظريات الاتصال بجامعة إلينوى إلى هذه النقطة بقوله : فى المجتمعات البدائية وفى المراحل المبكرة من تاريخ الغرب . كانت الفواصل المكانية الصغيرة نسبيا تؤدى إلى اختلافات ثقافية واسعة ... إن فواصل لا تزيد على المائة ميل بين المجتمعات القبلية التى كانت تعنى فروقا هائلة فى التعبيرات الرمزية وفى الأساطير وفى الطقوس . ومع ذلك فقد كان ثمة استطرادية كبيرة داخل نفس هذه المجتمعات . كانت هناك استطرادية كبيرة .. عبر الأجيال .. فروق هائلة بين المجتمعات . ولكن اختلافات ضئيلة جدا بين الأجيال فى أى مجتمع بعينه » .

« أما اليوم فإن المكان يختفى تدريجيا كعامل من عوامل التمايز » . ولكن كان تأثير المكان فى التمايز يتناقص . فإن البروفيسور كارى يبذل جهده ليوضح أنه : « لا ينبغى أن يفترض أحد أن الفروق بين الجماعات تنمحى كما يفترض بعض النظريين الاجتماعيين ، بل الأحرى أن نقول بأن محور التنوع يتحول من أبعاد مكانية إلى أبعاد زمانية » .

وهكذا تزداد الهوة بين الأجيال عمقا . تلك الهوة التى عبر عنها ماريو سافيو بإيجاز فى ذلك الشعار الثورى : « لا تثق فى أحد فوق الثلاثين » . إن مثل هذا الشعار لم يكن حريا بأن يلقى فى أى مجتمع سابق مثله مالقيه من تأييد سريع فى مجتمعنا الراهن .

ويوضح كارى هذا التحول من التمايز المكانى إلى التمايز الزمانى بلفت النظر إلى تقدم تكنولوجيا وسائل النقل والاتصال الذى أدى ، من الناحية العملية ، إلى إلغاء المسافات . ولكن ثمة عاملا آخر كثيرا ما نغفله ، يؤدى دورا فعالا فى التمايز بين الأجيال : ذلكم هو تسارع التغيير . فكلما تسارعت خطى التغيير فى البيئة الخارجية انعكس ذلك فى صورة فروق داخلية أعمق بين الشباب. والواقع أن سرعة التغيير قد وصلت بالفعل إلى معدل يخطف الأبصار بحيث قد تكفى سنوات قليلة لتصنع فروقا هائلة فى تجربة الحياة بالنسبة للفرد . وهذا هو السر فى أن إخوة وأخوات تفصلهم فروق فى السن لا تزيد على ثلاث أو أربع سنوات يعتبرون أنفسهم منتمين إلى « أجيال » مختلفة تماما . وهذا أيضا هو السر فى أنه فى أثناء إضراب الطلبة الثوريين بجامعة كولومبيا تحدث طلبة السنوات النهائية عن « هوة الأجيال » التى تفصل بينهم وبين طلبة السنة الثانية .

قبائل مؤسسة على الحالة الزوجية

إلى جانب ما يحدث للمجتمع من انقسامات على أسس من المهنة وأسلوب اللهو ، والسن ، تحدث له انقسامات أخرى على أساس جنسى — أسرى . فحتى فى وقتنا الراهن ، توجد طوائف فرعية جديدة متميزة مؤسسة على الحالة الزوجية . لقد كان الناس من قبل يصنفون تصنيفا فضفاضا كعزاب أو متزوجين أو مترملين . أما اليوم فلم يعد مثل هذا التقسيم الثلاثى كافيا . لقد ارتفعت معدلات الطلاق عاليا فى معظم المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا بحيث برزت فئات اجتماعية جديدة متميزة — أولئك الذين أصبحوا غير متزوجين ، أو أولئك المتريثون بين زواجين . ويصف مورتون هنت ، أحد الثقات المتخصصين فى هذا الموضوع ، ما يطلق عليه اصطلاح « عالم المتزوجين السابقين » بقوله : « إن هذه الفئة تمثل ثقافة فرعية مميزة .. فلها أساليبها الخاصة فى المجتمع بين الناس ، وأنماطها الخاصة فى تكييف حياة ما بعد الطلاق أو الانفصال ، وفرصها الخاصة فى الصداقة والحياة الاجتماعية ، والحب . وعندما ينفصل أفراد هذه الفئة عن أصدقائهم المتزوجين يصبحون فى عزلة متزايدة عن هؤلاء الذين لا يزالون مستمرين

فى « الحياة الزوجية » وينزعون إلى تشكيل تكويناتهم الاجتماعية الخاصة ، بأماكن لقاءاتهم المفضلة الخاصة ، ونظرتهم الخاصة تجاه الزمن ، وقوانينهم ومعتقداتهم الخاصة فيما يتعلق بالجنس .

وهناك قرائن قوية ترجح اتساع هذه الفئة الاجتماعية فى المستقبل . وعندما يحدث هذا فإن عالم المتزوجين السابقين سينقسم بدوره إلى عوالم متعددة ، أى إلى عديد متزايد من الطوائف الفرعية . فالقاعدة العامة هى أنه كلما تضخم حجم طائفة فرعية ما ، فإنها حرية بأن تنقسم وتلد طوائف فرعية جديدة .

فإن كانت أولى ملامح منظمة المستقبل الاجتماعية كامنة فى فكرة تكاثر الطوائف الفرعية فثانى هذه الملامح هو صغر حجمها . هذه القاعدة الأساسية كثيراً ما يغفلها أولئك الذين أضنوا أنفسهم بالحديث عن « مجتمع الكتلة الواحدة » . ولعل إغفالهم لهذه القاعدة يفسر ذلك الإصرار من جانبهم فى المطالبة بالتنوع حتى تحت أقوى الضغوط التى تفرض النمطية . إن قصور حدود الفواصل ذاتها هى التى تجعل من الحجم عاملا ضاغطا من أجل التنوع فى المنظمات . وعلى سبيل المثال ، فكلما تضخم حجم سكان أى مدينة عصرية ، زادت طوائفهم الفرعية عددا وتنوعا ، وتطبيقا على نفس القاعدة ، فإنه كلما اتسع حجم أى من هذه الطوائف الفرعية رجحت احتمالات انقسامها وتنوعها . وطائفة الهيبيين تقدم لنا أوضح مثال على ذلك .

هيبيون وشركات كبرى

فى أواسط الخمسينيات ، تآلفت جماعة قليلة العدد من الكتاب والفنانين وتشكيلة من المتعلقين بأذيالهم ، وبدأت تظهر فى سان فرانسيسكو وحول مدينتى كارمل وبيج صور على شاطئ كاليفورنيا . وسرعان ما أطلق على هذه الجماعة التى اختطت لنفسها مسلكا متميزا فى الحياة اسم « البيتس » و «البيتنكس » .

وكان أبرز عناصر حياتهم هو تمجيدهم للفقر — ارتداء : الجينز ، والصنادل ، واللباد ، وسكنى الأكواخ . كما كانوا يبدون شغفا زائدا

بموسيقى الجاز الزنجية ، وولعاً بأساطير الشرق ، وأفكار الوجودية الفرنسية ، وعداء واضحا نحو المجتمعات المؤسسة على التكنولوجيا .

وبرغم كل ما أثارته الصحافة حولهم ، ظل البيتس مجرد طائفة صغيرة الحجم إلى أن ظهر على المسرح أحد المبتكرات الجديدة للتكنولوجيا — هو حمض الليسيرجيك ، وهو عقار الهلوسة المعروف باسم ل س د . وبفضل ما لقيه هذا العقار من دعاية تبشيرية على لسان تيموثى لارى ، وألن جينزبرج ، وكين كيس ، وتوزيعه بالمجان على ألوف الشباب بواسطة المتحمسين له — انتشر استعماله انتشارا واسعا بين طلبة الجامعات الأمريكية وسرعان ما امتد هذا الانتشار إلى أوروبا أيضا . وقد صحب الافتتان بعقار الهلوسة تزايد فى الاهتمام بالماراجوانا أيضا ، وهو مخدر كان البيتس قد دأبوا على تعاطيه منذ زمن طويل . ومن كلا المنبعين : طائفة البيتس التى ظهرت فى أواسط الخمسينيات ، وطائفة « الحامض » التى ظهرت فى أوائل الستينيات ، انبثقت طائفة أكبر — طائفة فرعية جديدة يمكن أن توصف بأنها تمثل اندماجا بين الطائفتين الأصليتين — هى حركة الهيبيين . وأصبحت طائفة الهيبيين الجديدة التى جمعت فى زيها بين ملابس طائفة « البيتس » المصنوعة من الجينز الأزرق ، والخرز الملون ، والأساور ، والخلاخيل ، التى كانت من المعالم المميزة لطائفة « الحامض » ، أصبحت هذه الطائفة أكثر الطوائف حظا من الدعاية والشهرة على مسرح المجتمع الأمريكى .

وسرعان ما أثبتت ضغوط النمو أنها فوق احتمال الحركة الجديدة . لقد انضم ألوف المراهقين إلى صفوفها ، كما أقبل ملايين ممن هم دون المراهقة بشغف وإعجاب على قراءة كل ما ينشر عنها فى المجلات ومشاهدة كل ما يظهر عنها على شاشة التليفزيون ، بل إن بعض البالغين قد أصبحوا ما أطلق عليهم اصطلاح « البلاستيك » أى هيبى ، فترة العطلة الأسبوعية . وحدث ما كان متوقعا ، لقد اضطرت طائفة الهيبيين إزاء ضغوط النمو إلى الانقسام والتشرذم إلى عدد من الطوائف الفرعية — تماما كما حدث لشركات جنرال موتورز وجنرال إليكتريك — وهكذا اندفع من رحم

حركة الهيبيين سيل من الذرارى والمواليد فى صورة أعداد كبيرة من الطوائف الفرعية .

إن كل الشباب من ذوى الشعور المستطيلة يبدون لذى الفطرة السطحية وكأنهم متماثلون . ولكن الواقع أن الحركة تعج من داخلها بعديد من الوحدات الفرعية . وطبقا لما يقرره دافيد أندروسيلى ، وهو شاب يعد من ثقات المراقبين لتطور حركة الهيبيين ، فإنه « يوجد الآن على قمة الحركة . ربما عشرون أو أكثر ، من المجموعات المتمايزة » . وتختلف هذه المجموعات فيما بينها ، لا من حيث الملامح الثانوية كالأزياء فحسب ، ولكن أيضا من حيث الاهتمامات . ويقرر سيلى أن اهتمامات هذه المجموعات المختلفة : « تمتد من حفلات البيرة إلى قراءة الشعر ، ومن تدخين الحشيش إلى الرقص الحديث . وغالبا ما تجد أن المنغمسين فى أى من هذه الممارسات لا يمس ماعداها » . ويستمر سيلى فى إيضاح الفروق التى تفصل بين الجماعات من أمثال « تينى — بوبرز » و « فولك بيتنكس » ، و«جماعات البيتنكس» ذات المناشط السياسية المختلفة ، ثم أخيرا — وأخيرا فقط — بين كل هؤلاء والهيبيين الأصليين . فيبين أن أعضاء هذه الطوائف الفرعية يحملون شارات مميزة تتضمن معنى خاصا بالنسبة لأعضاء كل طائفة . وأيضا من حيث المظهر ، فإن « التينى بويرز » على سبيل المثال حليقو اللحى . والواقع أن كثيرا منهم أصغر من أن تكون له لحية ليحلقها — وبينما نجد أن الصندل يعتبر شيئا أساسيا بالنسبة لجماعة « الفولك بيتنكس » ، فإنه ليس كذلك بالنسبة لجماعات أخرى ، كما أن درجة ضيق السراويل تختلف أيضا باختلاف الجماعات .

أما على مستوى الأفكار : فثمة عديد من الاعتراضات المشتركة بين هذه الجماعات على الثقافة السائدة فى المجتمع . ولكن هناك كثيرا من الفروق الحادة فيما يختص بالعمل السياسى والاجتماعى . وتتراوح المواقف بين الانسحاب الواعى لهيبى الحامض » عبر اللامبالاة الجاهلة للتينى بوبرز ، إلى المشاركة العنيفة فى النشاط السياسى لأولئك المنتمين إلى اليسار الجديد ، وألوان النشاط السياسى المتسم بالحمق التى تمارسها جماعات من أمثال : « دتش بروفوس » و « الكريزيس » ، وجماهير مسرح الجيريللا .

إن حركة « الهيبيين » قد نمت إلى الحد الذى لم يكن من المستطاع معه أن تعمل بأسلوب نمطى موحد . لقد اضطرت وهكذا فعلت ، إلى الانقسام والتنوع وأنجبت حشدا عرمرما من الطوائف الفرعية .

دورة التغيير بين القبائل

وحتى فى غضون ذلك ، فإن الحركة نفسها على أية حال أخذت تذوى وتموت .. إن أكثر المشجعين حماسة لعقار الهلوسة قد بدأوا يعترفون بأن « الحامض كان مشهداً سيئا حقا » . كما بدأت بعض الصحف التحتية تحذر الأنصار من الانزلاق إلى مشاركة « الساقطين » . وفى سان فرانسيسكو نظمت جنازة صورية « لدفن » طائفة « الهيبيين » ، وأصبحت أماكنها المفضلة فى هايت – اشبرى ، وايست فيلدج ، مزارا للسائحين ، فى حين أن الحركة الأصلية نفسها تترنح وتمزق أوصالها مشكلة طوائف فرعية وقبائل صغيرة جديدة أغرب ، ولكنها أصغر وأضعف ، ثم – وكأنما ستعيد العملية نفسها كرة أخرى – برزت إلى السطح طائفة فرعية جديدة هى طائفة « سكينهدز » . والسكينهدز لهم مظهرهم المميز – الحمالات ، والأحذية الطويلة ، وقصة الشعر القصيرة . كما أن بهم ولعاً لايهدأ بالعنف .

إن موت حركة الهيبيين وظهور حركة السكينهدز يلقى ضوءا هاما على رؤية مستقبل بنية الثقافة الفرعية بالنسبة لمجتمع الغد . لأننا لسنا فقط نضاعف من أعداد الطوائف الفرعية ، ولكننا أيضا نغير ونبدل فيها بسرعة . إن مبدأ الزوال يفعل فعله هنا أيضا . وكلما تسارع معدل التغيير فى عناصر المجتمع الأخرى ، أصبحت الطوائف والثقافات الفرعية بدورها أكثر زوالية .

وثمة قرينة أخرى على تقاصر أعمار الطوائف الفرعية تكمن فى اختفاء تلك الطائفة من ممارسى العنف فى الشوارع والتى ظهرت فى الخمسينيات . فعلى امتداد العقد كانت شوارع معينة فى مدينة نيويورك تروع بانتظام بنوع غريب من قتال المدن يسمى «الدمدمة» ، حيث كان العشرات ، إن لم يكن المئات ، من الشباب يهاجمون بعضهم بعضاً بالسلاسل ، والسكاكين والخناجر ، والزجاجات المكسورة ، وبنادق الرش . وأيضا ، فلقد روعت

مثل هذه الدمدمات شوارع شيكاغو وفيلاديلفيا ، بل وامتدت إلى شوارع لندن وطوكيو .

وبالرغم من أنه لم تكن هناك صلة مباشرة تربط بين هذه الانفجارات الواسعة النطاق ، إلا أنها لم تكن بأى حال من الأحوال مجرد أحداث عارضة . لقد كانت تخطط وتنفذ بدقة شبيهة بتلك التى تميز المعارك الحربية ، وبواسطة عصابات على مستوى عال من التنظيم . وفى نيويورك كانت مثـــل هذه العصابات تتخذ لنفسها أسماء براقة مثل : سادة القرصان ، أفاعى الكوبرا ، الأباش ، الملوك المصريين ، وما إلى ذلك . وكانت هذه العصابات تتقاتل من أجل السيادة على منطقة جغرافية معينة داخل المدينة رسمت حدودها كل عصابة على أنها منطقة نفوذها وأطلقت عليها اصطلاح « المرج » .

وفى ذروة الحركة ، وصل عدد هذه العصابات إلى حوالى المـائتين فى مدينة نيويورك وحدها . وخلال عام واحد هو عام ١٩٥٨ بلغت حصيلتها من حوادث القتل أحد عشر حادثا على الأقل . ولـكن فى سنة ١٩٦٦ وطبقا لـما قرره المسئولون فى «الشرطة» كانت هذه العصابات قد اختفت من مدينة نيويورك فيما عدا عصابة واحدة . وكما ذكرت جريدة نيويورك تايمس : « لا أحد يعرف فى أى شارع من الشوارع المكتظة بأكداس القمامة وقعت آخر معارك الدمدمة ... ولكنها وقعت منذ أربع أو خمس سنوات مضت (ويعنى هذا أن معارك الدمدمة قد ماتت بعد عامين أو ثلاثة أعوام من وصولهـا إلى الذروة فى سنة ١٩٥٨) . ثم فجأة وبعد عشر سنوات من العنف المتصاعد وصل عصر العصابات المتقاتلة فى نيويورك إلى نهايته » . ويبدو أن نفس الشئ قد حدث أيضا فى واشنطن . ونيوآرك وفيلادلفيا وغيرها من المدن .

وبالطبع فإن انتهاء عصر عصابات الشوارع المتقاتلة لا يعنى مقدم عصر من الهدوء والسكينة إلى المدن . إن الميول العـــدوانية التى دفعت شباب البورتوريكيين والزنوج إلى أن يقاتل بعضهم بعضا ، قد أصبحت الآن موجهة ضد النظام الاجتماعى ذاته ، وبالتالى فقد برزت إلى الوجود أنواع جديدة

تماما من المنظمات الاجتماعية والطوائف الفرعية ، وأساليب الحياة – نابعة من جيتو الأقليات ومكرسة من أجل هذا الصراع .

إن ما نشهده ونحسه إذن ، هو فى الحقيقة عملية تتضاعف فيها أعداد الطوائف الفرعية بمعدلات متزايدة من السرعة ، ثم بالتالى تموت لتخلى السبيل أمام طوائف أحدث وأكثر . عملية من نوع الهدم والتجدد المستمرين للخلايا تجرى داخل جسم المجتمع ، وتتسارع كلما تسارعت عناصر التفاعل الاجتماعى الأخرى .

وبالنسبة للفرد فإن هذه العملية تزيد من تفاقم مشكلة الاختيار وتصل بها إلى مستوى جديد تماما . ليست المشكلة فقط هى أن أعداد هذه الطوائف تتضاعف بسرعة ، وليست حتى فى أن هذه الطوائف ينبثق بعضها من بعض وتتحول سريعا مغيرة من علاقات بعضها ببعض ؛ ولكن المشكلة أيضا هى أن كثيرا من هذه الطوائف لا يبقى طويلا بالقدر الذى يتيح للفرد تحرى مزايا ومحاذير الانضمام إلى أى منها .

إن الفرد الباحث عن معنى من معانى الانتماء ، وعن نوع من الرابطة الاجتماعية التى تمنحه شعور تحقيق الذات وتحدد هويته . هذا الفرد سيجد نفسه سائرا وسط ضباب يتحرك فيه أى هدف يسعى إليه بسرعة فائقة . وسيجد أن عليه أن يختار من بين عدد متزايد من الأهداف المتحركة . وسيتضاعف حجم مشكلته من ثم ، لا على قاعدة حسابية ، ولكن على قاعدة هندسية .

فى نفس اللحظة التى تتضاعف فيها اختياراته من بين السلع المادية ، والمضامين التعليمية والثقافية ، وأساليب اللهو وتزجية الفراغ ، سيجد نفسه أيضا مواجها بتشكيلة مزعجة من الاختيارات الاجتماعية . وبالضبط فكما أن هناك حدا لما قد يرغب الفرد أن يمارسه من اختيارات عند شرائه لسيارة – أى النقطة التى تصبح عندها إضافة أى اختيارات داعية إلى مزيد لا تستحقه من اتخاذ القرارات – كذلك أيضا فإننا قد نقترب سريعا من اللحظة التى سنواجه فيها بفائض الاختيار الاجتماعى .

إن الحد الذى وصلنا إليه بالفعـــل فى مجتمعنا الراهن من حالات اضطراب الشخصية ، والأمراض العصبية ، وحالات الاكتئاب النفسى يشى بما أصبح الفرد يعانيه بالفعل من صعوبة فى أن يخلق لنفسه نموذجا معقولا متكاملا ، ومتوازيا من الشخصية . ومع ذلك فكل الدلائل تشير إلى أن الاندفاع نحو التنوع الاجتماعى الموازى لذلك التنوع فى السلع والثقافة ما زال فى بدايته . إننا فى الحقيقة نواجه اتساعا فى الحرية مغريا ومزعجا فى نفس الوقت .

الهمجى ينخلع من اصوله

تزداد حرية الاختيار المتاحة للفرد على قدر تزايد عدد الثقافات الفرعية وتجمعاتها فى المجتمع ، من أجل ذلك كان إنسان عصر ما قبل التصنيع ، برغم كل الأساطير الرومانتيكية التى تزعم العكس ، يعانى بمرارة من قلة ما كان يتاح له من اختيار .

وبينما يهرف العاطفيون بما كان الإنسان البدائى يتمتع به من حرية مطلقة مزعومة ، نجد أن كل ما تجمع لدى علماء الأنثروبولوجيا والمؤرخين يؤكد العكس . لقد أوضح جون جاردنر هذه الحقيقة بإيجاز وإحكام عندما قال : « لقد كانت القبيلة البدائية أو مجتمع ما قبل التصنيع يطالبان الفرد عادة بقدر من الخضوع للجماعة أكبر وأبعد مما فعل أو يفعل أى مجتمع حديث » . أو كما قال أحد رجال قبيلة « تيمن » بسيراليون لعالم اجتماع استرالى : « عندما يقرر رجال القبيلة أمرا . فلابد من أن نوافق جميعا على القرار — وهذا ما نسميه تعاونا » . وهذا هو ما نسميه نحن ، بالطبع تطابقا .

إن السبب فيما كان إنسان ما قبل التصنيع مطالبا به من خضوع وامتثال ، والسبب فيما فرض على رجل قبيلة « تيمن » من اضطرار إلى أن يساير الجماعة ، هو أنه لم يكن لديه وجهة أخرى يسير إليها . كان مجتمعه ما زال واحديا ، ولم يعرف بعد ذلك الانقسام المحرر إلى وحدات متعددة .

وكما تحطم الرصاصة لوحا من الزجاج ، فرق التصنيع واحدية هذه المجتمعات ، وقسمها إلى آلاف من المنظمات — مدارس ، وإدارات

حكومية ، وكنائس ، وشركات ، وجيوش – ينقسم كل منها بدوره إلى وحدات فرعية متخصصة أصغر . ثم أصغر وأكثر تخصصا . وعلى المستوى غير الرسمى كان يحدث نفس الانقسام موجدا حشدا من الطوائف الفرعية .

هذا الانقسام فى النظام الاجتماعى مطابق بالضبط لعملية النمو فى البيولوجيا . إن الأجنة تتخلق فى أثناء نموها مكونة أعضاء أكثر تخصصا . ومسار التطور كله ، من الفيروس إلى الإنسان ، أخذ صورة التقدم بلا توقف نحو درجات أعلى فأعلى من التمايز والتفاضل ، ويبدو أن حركة الكائنات الحية والتكوينات الاجتماعية الدائبة من الأشكال الأقل إلى الأكثر تمايزا هى بمثابة طبيعة كامنة لا تقاوم .

وبالتالى فإنه ليس من قبيل المصادفة أن نعاين تلك الاتجاهات المتوازية إلى التنوع – فى الاقتصاد ، وفى الفن ، وفى التعليم والثقافة العامة ، وفى النظام الاجتماعى نفسه . هذه الاتجاهات تلتئم معا مكونة جزءا من عملية تاريخية أكبر . إن ثورة ما فوق التصنيع يمكن أن ينظر إليها الآن على أنها تقدم المجتمع الإنسانى ، على قياس أكبر ، نحو مرحلة تالية من تمايز وتنوع أعلى .

هذا هو السر فيما يتراءى لنا فى معظم الأحيان من أن مجتمعنا يتفسخ عند خطوط التحامه . وهذا حقيقى . كما أن هذا أيضا هو السر فى أن كل شىء يزداد تعقدا . فحيثما كان يوجد من قبل ألف كيان تنظيمى يوجد اليوم عشرة آلاف من هذه الكيانات – موصل بعضها لبعض ، بروابط تزداد زوالية وتستدق من يوم لآخر . وحيثما كان يوجد من قبل عدد قليل من الطوائف الفرعية الثابتة نسبيا والتى يمكن للفرد أن ينتمى إليها ، توجد الآن آلاف من الطوائف الفرعية المؤقتة ، الدوارة ، المتصادمة ، المتضاعفة ، إن الرباطات التى وحدت مجتمع التصنيع – رباطات القانون ، والقيم العامة – ومركزية التعليم والثقافة ونمطيتهما – كلها تتمزق .

وكل هذا يفسر لنا لماذا أصبحت المدن فجأة « مستعصية الحكم ، والجامعات مستعصية الإدارة » . لأن الأساليب القديمة لتوحيد المجتمع ، الأساليب المؤسسة على الامتثال والبساطة والثبات ، لم تعد لها نفس فعاليتها

القديمة . إن نظاما اجتماعيا جديدا أكثر استدقاقا فى تقسيماته — نظام مجتمع ما فوق التصنيع — ينبثق الآن . إنه نظام مؤسس على مكونات أكثر تنوعا وعددا وأقل بقاء مما عرف عن أى نظام اجتماعى سابق — ولم نتعلم بعد كيف نربط بين هذه المكونات لنجعل منها كلا متكاملا .

وبالنسبة للفرد فإن هذه القفزة إلى مستوى جديد من التنوع والتمايز تشتمل على مضمونات مخيفة ، ولكنها ليست بتلك التى يخشاها معظم الناس . لقد قيل لنا كثيرا إننا سائرون نحو تماثل شائه حتى عجزنا عن رؤية الفرص الخيالية التى ستتيحها ثورة ما فوق التصنيع للفردية . وأيضا فإننا بالجهد بدأنا نفكر فى مخاطر « الفردية المفرطة » التى تتضمنها .

إن النظريين المتشائمين المنذرين بمجتمع الكتلة الواحدة هم فى الحقيقة قوم قد استبد بهم واقع بدأنا نتجاوزه ، والكارهون للتكنولوجيا كراهية عمياء من المتنبئين للمستقبل بمجتمع النمل هم أناس ما زالوا يستجيبون على طريقة « محلك سر » لظروف مجتمع التصنيع ، ولكن هذا النظام يضمحل الآن وسائر فى طريقه إلى البطلان .

إن شجب الظروف التى تسجن العامل الصناعى اليوم أمر جدير حقا بالإعجاب . بيد أن إسقاط مثل هذه الظروف على المستقبل ، و التنبؤ بموت الفردية والتنوع والاختيار ، أمر لايعدو أن يكون إطلاقا لشعارات مصكوكة خطرة . إن أناس الماضى والحاضر مازالوا حبيسى أساليب حياة عديمة الاختيار نسبيا — أما أناس المستقبل الذين يتزايدون عددا كل يوم فأمامهم ليس فقط الاختيار ، بل فائض الاختيار ، وثمة اتساع متفجر للحرية فى الطريق إليهم .

وهذه الحرية ليست قادمة على الرغم من التكنولوجيا الجديدة ، بل إلى حد كبير ، بفضلها . لأنه إن كانت تكنولوجيا التصنيع قد تطلبت رجالا بلا عقول أشبه بالمخلوقات الآلية ليؤدوا أعمالا تكرارية بلا نهاية ، فإن تكنولوجيا الغد ستتولى هذه الأعمال على وجه التحديد ، تاركة للرجال تلك الوظائف التى تتطلب تقديرا وحكما ، ومهارات متبادلة ، وقوة فى التخيل .

إن ثورة ما فوق التصنيع تحتاج وسوف تخلق ، لا نسخا متشابهة من الرجال ، ولكن رجالا أغنياء باختلاف أحدهم عن الآخر ، أفرادا لا مخلوقات آلية .

إن الجنس البشرى – بعيدا عن أن يسطح فى رتابه وتماثل – سوف يصبح أغنى فى تنوعه الاجتماعى مما كان فى أى وقت مضى . إن المجتمع الجديد – مجتمع مافوق التصنيع – الذى بدأ الآن فى التشكيل ، سوف يحبذ نسيجا معقداً لطرز من الأساليب المتجددة المتغيرة للحياة .



الفصل الرابع عشر

تنوع في أساليب الحياة

فى سان فرانسيسكو يتناول المديرون وكبار الموظفين الغداء فى مطاعم تقوم بالخدمة فيها فتيات عاريات النهود ، ومع ذلك فقد ألقى القبض على عازفة تشيلو فى نيويورك ، لأنها عزفت أمام المشاهدين مقطوعة من الموسيقى وهى ترتدى ثوبا عارى الصدر . وفى سانت لويس يستأجر العلماء مومسات وآخرين لأداء العملية الجنسية تحت الكاميرا كجزء من دراسة لفسيولوجية القذف ، أما فى كولومبوس فقد ثارت ثائرة الناس على بيع نوع من العرائس تسمى « الأخ الصغير » ، التى خرجت من المصنع مجهزة بأعضاء الذكورة . وفى مدينة كانساس عقد مؤتمر للمصابين بالشذوذ الجنسى أعلن القيام بحملة ضد القيود التى يفرضها البنتاجون على قبول الشواذ جنسيا فى القوات المسلحة — والحقيقة أن البنتاجون قد رفع فعلا هذه القيود بطريقة غير معلنة ، ومع ذلك فإن السجون الأمريكية مكتظة برجال حكم عليهم بالسجن لارتكاب جريمة الشذوذ الجنسى .

ونادرا ما نجد أى أمة بعينها قد عانت مثل ما تعانيه الأمة الأمريكية من تخبط حول قيمها الجنسية . ويمكن أن يقال نفس الشئ أيضا عن أنواع القيم الأخرى . فأمريكا يمزقها الشك فيما يتعلق بالمال والملكية ، والقانون والنظام ، والعنصر ، والديانة ، والله ، والأسرة ، والذات . وليست أمريكا هى وحدها التى تعانى من دوامة القيم . فكل المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا تعانى نفس الاضطراب . ولا يمكن القول بأن هذا السقوط لقيم الماضى قد حدث دون أن يلحظه أحد . لقد كان مدويا لدرجة جعلت كل قسيس أو سياسى يهز الرأس قلقا . ومع ذلك فكل المناقشات التى دارت حول تغير القيم قاصرة ، لأنها أغفلت نقطتين أساسيتين . وأولى هاتين النقطتين هى التسارع .

إن تغير القيم يحدث الآن بأسرع مما حدث فى أى فترة سابقة من التاريخ . فبينما كان الرجل فى الماضى يشب فى مجتمع ما وهو يتوقع أن نظام القيم فى ذلك المجتمع سوف يبقى طوال فترة عمره دون تغير يذكر ، فإننا لا نجد اليوم لمثل هذا المبدأ المضمر وجودا إلا فى أشد المجتمعات عزلة وأكثرها تخلفا من الناحية التكنولوجية .

ومعنى هذا أن اللاثبات والتغير الدائم فى البنية قد أصبح سمة غالبة لكل نظم القيم لدى الأفراد والجماعات . وأنه أيا كان مضمون القيم التى ستصعد لتحل محل قيم عصر التصنيع ، فإنها ستكون أقصر عمرا وأسرع زوالا من قيم الماضى . وليس هناك أى دليل على أن عصر ما فوق التصنيع يمكن أن يعود إلى « حالة الثبات » فيما يخص القيم . بل على العكس فإننا نستطيع أن نتوقع فى المستقبل تغيراً أسرع فى القيم .

أما النقطة الثانية فهى أنه من داخل المحيط العام لهذا التغير المتسارع يتفجر اتجاه آخر قوى . فسوف يأتى انقسام وتفتت المجتمعات معه بتنوع كبير فى القيم . لقد أصبح تقوض الإجماع سمة من السمات الأساسية لما نشهده من تطورات فى المجتمع .

لقد كانت معظم مجتمعات الماضى تعمل ضمن إطار مجموعة من القيم العامة السائدة . هذا الإطار العام ينكمش الآن . وليس هناك ما يعزز احتمال تكوين إطار واسع جديد من القيم المجمع عليها خلال العقود القادمة . إن كل الضغوط تتخذ اتجاها إلى الخارج نحو مزيد من التنوع وليس إلى الداخل طلبا لمزيد من التوحيد .

ومن الشواهد الدالة على هذه الحقيقة ذلك الخليط العجيب المتنافر الأنغام من الدعايات الذى يهاجم العقول بعنف فى المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا . فالبيوت ، والشركات ، والمدارس ، والكنائس ، والجماعات ووسائل الأعلام العام ، والطوائف الفرعية ، كلها تروج لمجموعات متنوعة من القيم . والنتيجة المتحصلة من ذلك بالنسبة للكثيرين أصبحت موقفا من قبيل : « كله ماشى » . وهو يعتبر فى حد ذاته موقفا معينا من القيم . وتعلن

مجلة نيوزويك : « نحن مجتمع فقد وحدته وإجماعه ... مجتمع لا يستطيع أن يتفق على معايير للسلوك ، واللغة والأخلاق ، أو على ما ينبغى أن يسمع ويرى » .

ويزيد صورة تقوض الإجماع وضوحا ما توصل إليه والتر جروين منسق بحوث علم الاجتماع بمستشفى رود أيلاند ، والذى أشرف على سلسلة من الدراسات الإحصائية حول ما سماه « جوهر الثقافة الأمريكية » . وبدلا من أن يجد ذلك النظام الموحد من المعتقدات الذى عزاه الباحثون السابقون إلى الطبقة الوسطى ، فقد وجد جروين — لدهشته — « أن التنوع فى المعتقدات أكثر وضوحا من ذلك التماثل الذى أبدته الإحصاءات السابقة » . وينتهى جروين إلى نتيجة عبر عنها بقوله : « ربما أصبح بالفعل شيئا مضللا أن نتحدث عن « مركب ثقافة أمريكى » .

ويرى جروين أن الاجماع ، وبخاصة بين الميسورين والمتعلمين ، قد أخلى السبيل لما أسماه «جيوبا» من القيم . ونحن نتوقع مع استمرار التوسع فى نوعيات الطوائف الفرعية ، أن تتكاثر بالتالى هذه الجيوب .

وعندما يواجه أهل المستقبل بنظم متصادمة من القيم ، وبتشكيلة تبهر الأبصار من الاختيارات المتعددة للسلع الاستهلاكية ، والخدمات ، والتعليم والثقافة ، والمهن ، وأساليب اللهو ، فإنهم سيضطرون إلى اتباع أسلوب جديد فى الاختيار . إنهم سوف « يستهلكون » أساليب الحياة على النحو الذى كان أهل من سبقهم من أزمان ، لم يتح لها كل هذا الاختيار ، يستهلكون السلع العادية .

مثقفون وراكبو موتوسيكلات

فى عصر الملكة إليزابيث ، كان اصطلاح « جنتلمان » يشير إلى أسلوب كامل للحياة وليس إلى مجرد المنبت . قد تكون عراقة المنبت أمراً مرغوبا فيه . ولكن ليصبح الرجل جنتلمانا حقا ، كان عليه أن يعيش بأسلوب معين : أن يتعلم جيدا ، وأن يكون مهذبا ، وأن يرتدى ملابس أفضل مما يرتديه عامة الناس ، وأن يشترك فى ألوان معينة من اللهو (وأن ينأى عن ألوان أخرى ، وأن يعيش فى منزل كبير جيد التأثيث ، وأن

يمارس نوعا من التعالى على من هم دونه فى المنزلة ـ وباختصار ، ألا يغيب عن ذهنه لحظة « امتيازه » الطبقى .

وكان لطبقة التجار أسلوبها الخاص المفضل للحياة ، كما كان لطبقة الفلاحين أيضا أسلوبها الخاص . وكان كل من هذين « الأسلوبين » ، مثله فى ذلك مثل أسلوب حياة الجنتلمان ، يجمع عديدا من المكونات المختلفة تمتد من المسكن والعمل والملبس ، إلى اللهجة والإشارات والديانة .

إننا ما زلنا حتى اليوم نخلق أساليبنا فى الحياة من تشكيلة متعددة العناصر ، ولكن مع الفارق الكبير . فلم تعد أساليب الحياة معبرة عن مجرد وضع طبقى معين ، إن الطبقات نفسها صارت تنقسم إلى وحدات أصغر . كما تناقصت أهمية العوامل الاقتصادية فى تحديد أسلوب الحياة . وبالتالى فإن انتماء الفرد اليوم إلى طائفة فرعية معينة يقرر أسلوب حياته بأكثر مما يفعل أصله الطبقى : إن الهيبى المنحدر من الطبقة العاملة ، والهيبى من طلبة كلية إكستر أو كلية ايتون يتقاسمان نفس أسلوب الحياة ، ولكنهما لاينتميان إلى نفس الطبقة .

ولما كان أسلوب الحياة قد أصبح هو الوسيلة التى يعبر بها الفرد عن انتمائه إلى واحدة أو أخرى من الطوائف الفرعية ، فإن التكاثر الانفجارى لهذه الطوائف فى المجتمع قد جاء معه بتكاثر انفجارى مشابه فى أساليب الحياة . ومن ثم فإن الغريب الوافد على المجتمع الأمريكى ، أو الإنجليزى ، أو اليابانى ، أو السويدى اليوم لن ينحصر اختياره فى أربعة أو خمسة من أساليب الحياة القائمة على التقسيم الطبقى ، وإنما سيتفتح بالفعل على مئات من الإمكانيات المتنوعة . وغدا ، عندما يزداد توالد الطوائف الفرعية ، ستتزايد هذه الإمكانيات أكثر فأكثر .

إن كيفية اختيار الفرد لأسلوب حياته . وماذا يعنى هذا الأمر بالنسبة إليه ، مسألة تلوح وكأنها ستكون من الموضوعات المحورية لسيكولوجية الغد ، لأن اختيار أسلوب ما للحياة ، وسواء تم ذلك شعوريا أولا شعوريا ، سوف يؤثر تأثيرا قويا فى صياغة مستقبله . فسيفرض عليه هذا الاختيار

الأساسي نظاما - أي مجموعة من المبادئ ،أو المعايير التي ستتحكم فيما يصنع من اختيارات أخرى في حياته اليومية .

وستتضح لنا هذه الحقيقة إذا ما فحصنا الكيفية التي تتم بها أمثال هذه الاختيارات في واقع حياتنا اليومية . إن زوجين شابين بسبيل تأثيث مسكنهما قد يواجهان ، مثلا ، بضرورة الاختيار من بين مئات مختلفة من المصابيح- سكندنافية ، يابانية ، أمريكية ، من طراز عصر الاحتلال ، مصابيح تيفاني ، مصابيح هاريكان ، عشرات من الطرز ، وعشرات من الأحجام ، وعشرات من النماذج ، وعشرات من الأشكال قبل أن يقررا أن يختارا طراز تيفاني مثلا ، أي بعد أن استعرضا « عالما » كاملا من الإمكانيات استقرا في النهاية على واحدة : وفي قسم الأثاث سيستعرضان مرة أخرى مجموعة ضخمة من البدائل قبل أن يستقر رأيهما على منضدة بعينها . ثم ستكرر نفس العملية بالنسبة للسجاجيد والستائر ، ومقاعد حجرة المائدة ، إلى آخره . والحقيقة أن أمثال هذه العملية لا تحدث عند تأثيثهما لمسكنهما فحسب ، ولكن أيضا في تبنيهما للأفكار ، واختيارهما للأصدقاء . وحتى بالنسبة لمفردات اللغة التي يتحادثان بها ، وللقيم التي يتقاسمانها .

وبينما يحيط المجتمع الفرد بهذه الدوامة من البدائل المتنافرة ، فإن الانتقاء الذي يتم بالفعل أبعد ما يكون عن العشوائية . إن المستهلك (سواء للمناضد أو للأفكار) يقدم على الاختيار مسلحا بمجموعة سابقة التكوين من الأذواق والأفضليات . وزيادة على ذلك فإن أي اختيار يقرره لايتم بمعزل عن باقي الاختيارات . فكل منها متأثر بما سبقه . لقد تأثر اختيار الزوجين للمنضدة باختيارهما السابق للمصباح . وباختصار ، فثمة تناغم معين ، ومحاولة لانتهاج أسلوب شخصي في كل ما نفعل ، سواء أدركنا ذلك شعوريا أم لا .

إن الرجل الأمريكي الذي يرتدي قميصا بأزرار في أسفل البنيقة « الياقة » ، وجوارب طويلة ، سوف يرتدي أيضا ، على الأرجح ، حذاء جناحي الطرف ويحمل حقيبة أوراق . ولو نظرنا إليه عن كثب ، فأغلب

الظن أننا سنلمح فى تعبيرات وجهه ، وفى حركته النشطة ، تلك الملامح التى أصبحت طابعا مميزا لكبار الموظفين التنفيذيين . وكل الاحتمالات تشير إلى أنه لن يترك شعره ينمو بلا تشذيب كما يفعل موسيقى الروك جيمى هندريكس . إنه يعرف ، كما نعرف نحن أيضا ، أن هناك صلة تربط بين أنواع معينة من الملابس والتصرفات ، وأسلوب الحديث ، والآراء ، والإشارات ، فى حين أن هناك أنواعا أخرى من كل هذه لا يناسب بعضها بعضا . ربما يكون قد عرف هذا عن طريق « الإحساس » أو « الحدس » أو عن طريق ملاحظته للآخرين . ولكن هذه المعرفة ، أيا كان مصدرها ، قد أثرت فى صياغة أفعاله وحركاته .

أما الموتوسيكليست الذى يرتدى سترة جلدية سوداء ، وقفازات سابغة ومرصعة بأزرار من الصلب ، ويتدلى من عنقه صليب معقوف كريه ، فإنه يستكمل زيه بحذاء طويل غليط ، وليس بحذاء قصير أو جناحى الطرف . وهو حرى أيضا بأن يختال فى مشيته ، وأن ينخر وهو يلوك عباراته المصكوكة . إنه بدوره يحرص على التناغم ، ويعرف أن أى أثر للتهذيب أو الرقة سوف يعصف بتكامل أسلوبه .

خالقو نماذج وانصاف ابطال

لماذا يرتدى الموتوسيكليست سترة سوداء ؟ ولماذا لا تكون بنية أو زرقاء ؟ لماذا يفضل كبار الموظفين فى أمريكا حقيبة الأوراق على الحافظة الجلدية التقليدية ؟ إن الأمر يبدو وكأنهم يحتذون نموذجا ما ، ويحاولون أن يحققوا المثل الذى يقدمه هذا النموذج .

إننا لا نعرف إلا القليل عن النماذج الأصلية لأساليب الحياة . ولكننا نعرف مع ذلك أن الأبطال المحبوبين ، بما فيهم الشخصيات الخيالية (جيمس بوند مثلا) لهم دور فى ذلك .

إن مارلون براندو بمشيته المختالة وسترته السوداء ، فى الدور الذى لعبه كموتوسيكليست فى أحد أفلامه ، ربما يكون هو الذى أوجد النموذج لأسلوب حياة الموتوسيكليست ، وعلى وجه التأكيد فقد روج له . وتيموثى ليرى

بأحباله وخرزاته ، وبما كان يتمتم به من تعاويذ ذات عمق زائف عن الحب وعقار الهلوسة ، قد مد آلاف الشباب بنموذج يحتذى . مثل هؤلاء الأبطال – كما يقول عالم الاجتماع أورين كلاب : « يساعدون على بلورة نموذج اجتماعى » . ويشير إلى المرحوم جيمس بوند الذى لعب دور المراهق المتمرد فى فيلم « ثورة بلا هدف » ، أو ألفيس بريسلى الذى ثبت صورة راقص الروك آند رول حامل الجيتارة لدى الشباب . ثم من بعد ذلك جاء الخنافس بشعورهم المنافية للمألوف (فى ذلك الوقت) وملابسهم الغريبة . ويقول كلاب : « إن من أهم الأدوار التى يلعبها الأبطال المحبوبون هو أنهم يجعلون النماذج ظاهرة ، وذلك بدوره يجعل أساليب الحياة الجديدة والأذواق الجديدة ظاهرة » .

إن موجد الأسلوب لا يحتاج بالضرورة أن يكون من نجوم وسائل الإعلام العام . إنه يمكن أن يكون شخصا مجهولا تقريبا خارج حدود طائفته الفرعية . وهكذا أصبح ليونيل تريلينج – وهو أستاذ إنجليزى بجامعة كولومبيا ، ولعدة سنوات – الأب الرمزى لجماعة مثقفى الحى الغربى – وهى طائفة من طوائف نيويورك الفرعية معروفة جيدا فى الأوساط الأدبية والأكاديمية فى كل الولايات المتحدة – أما الأم الرمزية فكانت مارى ماكارثى ، وذلك قبل أن تشتهر بزمن طويل .

فى مقال ذكى نشره جون سبيشر فى مجلة للشباب تسمى (تشيتاه) ، أورد قائمة نماذج أساليب الحياة التى تجاوب معها الشباب فى أواخر الستينيات ، وكانت هذه النماذج تمتد من شى جيفارا إلى وليام بكلى ، ومن بوب ديلان وجوان بياز إلى روبرت كينيدى ، ويقول سبيشر : « إن جمعية الشباب الأمريكى مزدحمة بالأبطال » . ثم يضيف : « وحيثما وجد الأبطال وجد التابعون والمتشيعون » .

إن الأبطال هم الذين يمدون عضو الطائفة الفرعية بما يسميه سبيشر : « ضرورة وجود حيوية للذاتية السيكولوجية » . وليس هذا طبعا بالجديد ، فقد سبقت أجيال حققت ذاتها من خلال نماذج من أمثال شارلس لندنبرج

وتيدا بارا . أما الجديد شكلا ومغزى فهو تلك الكثرة المتكاثرة من الأبطال وأنصاف الأبطال . فكلما تضاعفت الطوائف الفرعية وتنوعت القيم ، وجدنا على حد قول سبيشر : « شعورا قوميا بالذات مفتتا إلى حد لا يرجى معه التئام » .

وهذا يعنى بالنسبة للفرد ، كما يقول ، مجالا أوسع للاختيار : « هنالك مجال واسع التعدد من الطوائف وعديد متزايد من الأبطال ، ولك أن تقارن قبل أن تختار » .

مصانع لأساليب الحياة

قد تخلق الشخصيات المحبوبة أساليب الحياة ، ولكن الطوائف الفرعية هى التى تجسدها وتروجها بين الناس . إنها تأخذ مادتها الرمزية الخام من وسائل الإعلام . فتجمع بين نتف من الأزياء والآراء والتعبيرات وتشكل منها تركيبة متماسكة تمثل نموذجا من أساليب الحياة . وما إن يتموا صنع نموذج ما حتى يعملوا بهمة على ترويجه — كما تفعل أى شركة نشطة فى تسويق منتجاتها — وبالطبع يجدون من يقبل على بضاعتهم .

ويستطيع كل من يشك فى ذلك أن يرجع إلى الخطابات التى أرسلها ألين جينسبرج إلى تيموثى ليرى ، وهما الرجلان اللذان يتحملان أكبر مسئولية عن خلق أسلوب حياة الهيبيين بما يتميز به من إقبال شديد على تعاطى المخدرات .

ففى خطاب من هذه الخطابات كتب جينسبرج الشاعر إلى زميله يقول : « ظهرت أمس على شاشة التليفزيون مع ن. ميلر واشلى مونتاجو وألقيت خطبة مطولة ... ونصحت كل إنسان بأن « يحلق » ... اتصلت بكل المتحررين من أنصار المخدرات الذين أعرفهم للعمل على نشر وتوزيع (تقرير معين لصالح فكرة تعاطى المخدرات) .. لقد كتبت تلخيصا للموقف فى خمس صفحات للصديق كينى لوف بجريدة نيويورك تايمس الذى قال إنه ربما كتب عن الموضوع .. ويمكن حينئذ أن يتلقفه صديقنا باليونيتد برس ليذيعه بالراديو . وقد سلمت نسخة أيضا لكل من أل أرنوفيتز بمجلة

نيويورك بوست وروزاليند كونستابل بمجلة تايم وبوب سيلفر بمجلة هاربر ..

فلا غرو إذن أن أحاطت بعقار الهلوسة وظاهرة الهيبيين بأكملها كل هذه الدعاية الضخمة . إن هذه القطعة التى اقتبسناها من خطاب جينسبرج تشبه وتقف على نفس مستوى أى مذكرة صادرة من مدير وكالة من وكالات الدعاية الكبرى بشارع ماديسون ، تلك الوكالات التى تعرضت لأقسى هجمات الهيبيين الذين يتهمونها بالتلاعب بالرأى العام : إن نجاح عملية «بيع» أسلوب حياة الهيبيين إلى شباب المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا ، ليعتبر إحدى القصص الكلاسيكية لعمليات التسويق الناجحة فى عصرنا .

وليست كل الطوائف الفرعية على أية حال ، بمثل هذا النشاط والموهبة فى الترويج لأسلوبها . ولكن قواها المتراكمة فى المجتمع قد بلغت حدا هائلا من الضخامة . وهذه القوى تنبع أساسا من بحثنا اليائس ، والذى يكاد يكون عاما ، عن « الانتماء » . إن رجل القبيلة البدائية يعرف أنه « ينتمى » إليها ، وقد يجد صعوبة فى مجرد تصور نفسه منفصلا عنها . ولكن المجتمعات التكنولوجية كبيرة جدا ، وتعقدها أكبر وأبعد من أن يستوعبه أى فرد ، ومن ثم فإننا فقط عن طريق الاندماج فى واحدة أو أكثر من طوائفها الفرعية نستطيع الحصول على الإحساس بالذاتية والاتصال بالكل . وإخفاقنا فى أن نعرف ذاتنا من خلال الانتماء إلى مثل هذه الجماعات يدفع بنا إلى الشعور بالعزلة والاغتراب ، وعدم الفعالية . وعندئذ سنبدأ نسائل أنفسنا : « من نحن ؟ »

وعلى النقيض من ذلك فإن الشعور بالانتماء ، بأننا جزء من خلية اجتماعية أكبر من ذواتنا (ولكن أصغر من أن تكون شمولية) غالبا ما يكون باعثا على الرضا لدرجة أننا ننجذب ، حتى على الرغم من وجهة نظرنا الخاصة فى بعض الأحيان ، إلى قيم ومواقف الجماعة وأسلوبها المفضل للحياة .

وعلى أى حال ، فإننا ندفع ثمن ما نحصل عليه . لأنه ما إن نمتزج سيكولوجيا بطائفة فرعية ما حتى تبدأ فى ممارسة ضغوطها علينا . إننا نجد

أنه من الصالح لنا أن « نساير » الجماعة . إن التزامنا بأسلوب حياتها يجزينا شعورا بالدفء والصداقة والقبول . ولكنه سوف يعاقبنا بقسوة بمشاعر الاستهجان والنبذ ، وغيرها فيما لو انحرفنا عنه .

ومن أجل تصيد التابعين لأسلوب حياتها ، تعمل الطوائف الفرعية على جذب اهتمامنا . وهي إذ تفعل توجه هجومها إلى أكثر خواصنا السيكولوجية حساسية وأضعفها مقاومة – إلى صورة الذات . إنها تهمس لنا : « انضم إلينا ، وستصبح شخصا أعظم ، وأفضل . وأكثر فعالية واحتراما . وأقل عزلة وانطواء » . وفي اختيارنا بين الطوائف السريعة التكاثر قد لا نحس سوى إحساس طفيف بأن القرار الذي سنتخذه سوف يصوغ ذاتيتنا . ولكننا نحس بالرغبة الحارة التي تحركها فينا النداءات والنداءات المضادة التي تمطرنا بها مختلف الطوائف . ونظل فترة متذبذبين تتنازعنا وعودها السيكولوجية المختلفة .

وعند لحظة الاختيار فيما بينها فإننا نكون أشبه بالسائح عندما ينزل إلى شارع بوربون في مدينة نيو أورليانز . فعندما يمر السائح بمحال اللهو التي يكتظ بها هذا الشارع ينقض عليه بوابو المحال المختلفة ، واحدا بعد الآخر يجذبونه من ذراعه ، ويدورون به كالمنحلة ، ويفتحون له الباب ليلقي نظرة على اللحم العاري للفتيات المتجردات اللاتي يتثنين ويلتوين على المسرح القائم خلف البار . إن الطوائف الفرعية تحاول اقتناصنا باستثارة أكثر تخيلاتنا خصوصية ، وبأساليب أقوى وأقدر على التسلل إلى نفوسنا من كل ما ابتكرته حتى الآن وكالات الدعاية بشارع ماديسون .

إن ما تقدمه ليس مجرد عرض عار ، أو نوع جديد من الصابون ، أو المنظفات . إن ما تقدمه أكبر وأخطر من أن يكون مجرد سلعة حقيقة . إنها تقدم لنا وعدا بالدفء « الإنساني » والزمالة والاحترام ، وشعورا بالانتماء . ولكن كذلك أيضا يفعل المعلنون عن منتجات إزالة الروائح والبيرة . أما المقوم المعجز ، أما المكون النادر ، أما الشيء الذي تقدمه الطوائف الفرعية ولا يستطيع غيرها من الصائدين تقديمه – فهو الراحة

من العناء والتوتر اللذين يسببهما فائض الاختيار . لأنها لا تقدم سلعة أو فكرة مفردة ، ولكن أسلوبا لتنظيم كل السلع والأفكار ، ومجموعة من الخطوط الإرشادية التى تساعد الفرد على اختصار التعقد المتزايد للاختيار إلى أبعاد مقدور عليها .

إن معظمنا يشعر بحاجة ماسة إلى مثل هذه الخطوط الإرشادية . فوسط فوضى المعنويات المتضاربة ، والارتباك الناشئ عن فائض الاختيار ، تصبح أعظم وأقوى وأكثر المنتجات فائدة هى تلك « السلعة الفائقة » ، أى الأساس المنظم لحياة الفرد . وهذا هو ما يقدمه أسلوب الحياة .

سلطان الأسلوب

وبالطبع ليس مجرد أى أسلوب سنجد فيه ما نطلب . إننا نعيش وسط سوق مزدحم بالنماذج . ومن داخل هذا المشهد السيكولوجى الدائم التغير نبحث عن أسلوب ، وعن سبيل لتنظيم وجودنا يناسب مزاجنا الخاص وظروفنا . إننا نبحث عن أبطال أو أنصاف أبطال لنحاكيهم . والباحث عن أسلوب لحياته يفعل كما تفعل امرأة تقلب صفحات مجلة من مجلات الأزياء بحثا عن تصميم لرداء يناسبها . إنها تدرس وتفحص التصميمات واحدا بعد الآخر إلى أن تستقر فى النهاية على واحد منها . ثم تبدأ بعد ذلك فى تجميع المواد اللازمة — القماش والخيط والكلف ، والأزرار إلى آخره . ونفس الشئ بالضبط يفعله من يصنع لنفسه أسلوب الحياة الذى اختاره. إنه يبدأ فى الحصول على مقومات النموذج الذى استقر عليه قراره — فيبدأ مثلا فى إطلاق شعره وشراء نسخ من لوحات الفن الجديد وكتاب يجمع كتابات جيفارا. إنه أيضا يتعلم كيف يناقش كتابات ماركيوز وفرانز فانون ، ويكتسب لهجة خاصة فى الكلام مستخدما تعبيرات وكلمات من أمثال : « وثاقة الصلة بالموضوع » و « المنشأة » .

ولا يعنى هذا بأى حال من الأحوال أن أعماله السياسية لا مغزى لها ، أو أن آراءه خاطئة أو سخيفة . إنه قد يكون مصيبا تماما فى آرائه عن المجتمع (وقد لا يكون) . ولكن الذى نعنيه هو أن الطريقة الخاصة الذى اختارها للتعبير عن هذه الآراء هى جزء لا يتجزأ من بحثه عن أسلوب شخصى .

إن السيدة التى فصلت ثوبها قد أدخلت عليه تعديلات هنا أو هناك متجاوزة التصميم الأصلى قليلا لتجعل الثوب مناسبا أكثر لها . إن المنتج النهائى حقيقة مفصل عليها . ومع ذلك فإنه يشبه إلى درجة كبيرة العديد من الأثواب التى أخذت من نفس التصميم . وعلى نفس المنوال ، فإننا نحاول ما استطعنا أن نجعل من أسلوب حياتنا أسلوبا فرديا ثم يظهر فى النهاية أنه يحمل ملامح مميزة لنموذج ما من أساليب الحياة التى صنعتها وروجتها إحدى الطوائف الفرعية .

إننا فى معظم الأحيان لا نكون متنبهين إلى اللحظة التى نلتزم فيها بأسلوب معين دون غيره من أساليب الحياة . إن اتخاذك لقرار بأن « تكون » مناضلا من أجل حقوق السود ، أو موظفا تنفيذياً ، أو مثقفا من مثقفى الحى الغربى ؛ نادرا ما يأتى نتيجة للتحليل المنطقى الخالص . ونادرا أيضا ما يكون القرار واضح الأسباب والاتجاهات لحظة اتخاذه . إن عالم البحوث التى يتحول من تدخين السجاير إلى تدخين الغليون قد يفعل ذلك لأسباب صحية دون أن يدرى أن تدخين الغليون جزء من أسلوب حياة كامل يجد نفسه منجذبا إليه . والزوجان اللذان اختارا مصباح تيفانى كان تفكيرهما منحصرا فى أنهما يؤثثان مسكنا ، وليس هناك ضرورة تحتم إحساسهما بأن عملهما هذا كان محاولة لتجسيد أسلوب كامل للحياة .

والواقع أن معظمنا لا يفكر فى حياته الخاصة باصطلاحات من أسلوب الحياة ، وإننا غالبا ما نجد صعوبة فى أن نتحدث عنه بطريقة موضوعية ، ونواجه متاعب أكبر عندما نعالج بنية القيم المتضمنة فى أسلوب حياتنا . ولقد ضاعف من صعوبة الأمر أن كثيرين منا لا يتبنون أسلوبا منفردا متكاملا ، وإنما تركيبة من عناصر مستمدة من عديد مختلف من النماذج . إننا قد نحاكى كلا من الهيبى وهاوى الانزلاق على الأمواج . إننا أيضا قد نختار مزيجا يجمع بين مثقف الحى الغربى والموظف التنفيذى — وهو مزيج مفضل بالفعل لدى الكثيرين من العاملين فى صناعة النشر بنيويورك . وعندما يكون الأسلوب الشخصى للفرد مهجنا ، فإنه غالبا ما يكون من الصعب فك النماذج المتعددة التى أسس عليها .

وعلى أى حال ، فإننا عندما نهب أنفسنا لنموذج بعينه ، فإننا نناضل بحماسة من أجل أن نبنيه ونناضل ، وربما أكثر ، من أجل الحفاظ عليه ضد أى تحد ، لأن الأسلوب يكتسب عندئذ أهمية كبرى بالنسبة لنا . ويصدق هذا أكثر على رجال المستقبل الذين يعتبر الاهتمام بالأسلوب بالنسبة لهم عاطفة مشبوبة بكل ما فى الكلمة من معنى . وهذا الاهتمام الزائد بالأسلوب ليس بأى حال ما يسميه النقاد الأدبيون بالشكلية ، لأنه ليس مجرد اهتمام بالمظهر الخارجى . فأسلوب الحياة لا يشمل الأشكال الخارجية للسلوك فقط ، ولكن القيم التى يتضمنها هذا السلوك أيضا . ولا يستطيع أحد أن يغير أسلوب حياة فرد دون أن يحدث بعض التغيير فى صورة ذاته . إن رجال الغد ليسوا مجرد « متحمسين للأسلوب » ولكن « متحمسين لأسلوب الحياة » .

وهذا هو السر فى أنه غالبا ما تعنى أشياء صغيرة الكثير بالنسبة لهم . إن تفصيلا صغيرا واحدا فى حياة أحدهم قد يشحن بطاقة عاطفية ضخمة . إذا ما كان يمثل تحديا لأسلوب الحياة اكتسب بصعوبة ، أو إذا كان يهدد تكامل هذا الأسلوب . فقد تقدم إلينا العمة إيثيل ، مثلا ، هدية زواج فتسبب لنا ارتباكا ، لأن ذوق الهدية ينتمى لأسلوب مخالف لأسلوبنا . إنها تثير غضبنا بالرغم من أننا نعرف أن العمة ايثيل لم تقصد إلا خيرا ، وسرعان ما تقذف بالهدية على ظهر الدولاب .

إن هدية العمة إيثيل ، سواء كانت محمصة خبز أو مفرشا ، لا أهمية لها فى حد ذاتها ، ولكنها رسالة آتية من دنيا طائفة فرعية مختلفة ، وما لم نكن ما زلنا فى مرحلة الانتقال بين أسلوبين فإنها تمثل تهديدا خطيرا . لقد صاغ العالم النفسى ليون فيستنجر اصطلاح « التنافر الإدراكى » ليعبر به عن ميل الشخص إلى رفض أو إنكار المعلومات التى تتحدى مدركاته السابقة . إننا لا ينبغى أن نسمع الأشياء التى تهز بنية معتقداتنا التى بنيناها بعناية . وبنفس المعنى فإن هدية العمة إيثيل تمثل نوعا من « التنافر الأسلوبى » . إنها تهدد بزعزعة بنيان أسلوب حياتنا الذى تعبنا فى بنائه .

لماذا يملك أسلوب الحياة كل هذه القوة للحفاظ على نفسه ؟ وما هو منبع كل هذا الولاء من جانبنا له ؟ إن أسلوب الحياة وسيلة نعبر من خلالها عن ذواتنا ، وطريقة نعلن بها إلى الناس أية طائفة أو طوائف فرعية بعينها ننتمى إليها . ولكن ليس هذا هو كل مبلغ أهميته لنا . إن السبب الحقيقى فى تعاظم أهمية أساليب الحياة هو ، فوق كل شئ ، أن اختيارنا لنموذج ما من أساليب الحياة نحاكيه يعد بمثابة استراتيجية حيوية فى حربنا ضد الضغوط المتجمعة لفائض الاختيار .

فعندما نقرر شعوريا أو لا شعوريا أن نكون « مثل » وليام بكلى أو جوان بياز ، أو ليونيل تريللينج أو ج .ج . مون ، فإن هذا القرار يدفع عنا عبء الحاجة إلى اتخاذ ملايين من القرارات الصغيرة فى حياتنا . بمجرد أن نهب أنفسنا لأسلوب حياة معين ، نصبح قادرين على حذف عديد من أشكال الملابس ، والسلوك ، والأفكار ، والمواقف غير المتلائمة مع الأسلوب الذى تبنيناه . إن طالب الجامعة الذى يختار نموذج الطالب الثائر لا يرهق نفسه مثيرا بالتفكير فيما إذا كان سيعطى صوته لووالاس ، أو يحمل حقيبة أوراق ، أو أن يسهم فى الأرصدة المشتركة .

إننا باستقرارنا على أسلوب معين للحياة نسقط من حسابنا عددا هائلا من البدائل . إن الشاب الذى يختار نموذج الموتوسيكليست لا تعنيه مئات الطرز من القفازات المتوافرة فى السوق ما دامت متنافرة مع روح أسلوبه . إنه يحتاج فقط إلى الاختيار من بين تشكيلة أصغر بكثير من التشكيلة الأولى ، ولكنها تضم طرز القفازات المناسبة لهذا الأسلوب ، وما يصح على القفازات يصح أيضا على أفكاره وعلاقاته الاجتماعية .

وإذن ، فالالتزام بأسلوب واحد من أساليب الحياة يعتبر قرارا حاسما يفوق فى أهميته ومستواه ، القرارات العادية التى نتخذها خلال حياتنا اليومية . إنه قرار يضيق من مجال البدائل التى سيكون علينا أن نختار من بينها فى المستقبل . وما دمنا سنعمل فى حدود إطار الأسلوب الذى اخترناه فإن اختياراتنا الأخرى ستكون أسهل نسبيا ، وخطوطنا الإرشادية

واضحة . وستساعد طائفتنا الفرعية فى الإجابة على أى أسئلة لأنها ستحافظ على بقاء الخطوط الإرشادية فى مكانها .

ولكن عندما يواجه أسلوبنا فجأة بتحديات خطيرة . عندما نضطر إلى إعادة النظر فيه ، فسنجد أنفسنا إذن مسوقين إلى اتخاذ قرار خطير آخر . إننا سنواجه الحاجة المؤلمة ، لا إلى التحول عن هذا الأسلوب فحسب ، ولكن أيضا إلى تعديل صورة ذاتنا .

إنه لأمر مؤلم ، لأنه بانخلاعنا عن الالتزام بأسلوب معين وانفصالنا عن الطائفة الفرعية التى أوجدته نصبح غير « منتمين » ، ولكن الأسوأ من هذا هو أننا سنضطر مرة أخرى إلى مواجهة كل قرار جديد من قرارات حياتنا وحيدين ، مجردين من شعور الأمن الذى توفره سياسة محددة ثابتة . وباختصار ، فإنه سيكون علينا أن نواجه من جديد بكل الثقل الساحق لفائض الاختيار .

وفرة وافرة من صور الذات

إن فترة الانتقال بين أسلوبين وطائفتين فترة متأزمة . وأهل المستقبل يقضون على هذه الحال وقتا أطول مما يقضيه أهل الحاضر . فرجل المستقبل سيمضى معدلا فى هويته ، راسما مساره الخاص خلال عالم من الطوائف الفرعية المتصادمة . وعلى هذا المنوال ستكون الحركة الاجتماعية فى المستقبل ليس مجرد انتقال من طبقة اقتصادية إلى أخرى ، ولكن من تجمع قبلى إلى آخر . إن الانتقال المستمر من طائفة فرعية إلى طائفة هو الذى سيرسم قوس حياة إنسان المستقبل .

وثمة أسباب عديدة لعدم الاستقرار هذا ، فليست الاحتياجات السيكولوجية للفرد هى التى تتغير أكثر مما كانت تفعل فى الماضى فحسب ، ولكن الطوائف الفرعية أيضا . وعندما تصبح عضوية الطائفة الفرعية لهذه الأسباب وغيرها ، أقل استقرارا ، فإن البحث عن أسلوب شخصى سيصبح عملية متزايدة الحدة ، بل مسعورة خلال العقود القادمة . ومرة بعد أخرى سنعانى السأم والمرارة وعدم الرضا عن الأحوال — أو بعبارة

أخرى ، سنجد أنفسنا قلقين إزاء أسلوب حياتنا الحالى ، وعندئذ سنبدأ مرة أخرى فى البحث عن مبدأ جديد ننظم من حوله اختياراتنا ، لنصل مرة أخرى إلى لحظة اتخاذ قرار خطير .

وفى هذه اللحظة ، إذا ما أتيح لأحد أن يرقب سلوكنا عن قرب ، فسيلاحظ زيادة حادة فيما يمكن أن نسميه بمؤشر الزوال . سوف تقفز معدلات التغيير فى الأشياء ، والأمكنة ، والناس ، وفى علاقاتنا التنظيمية والثقافية . سوف نتخلص من ذلك الثوب الحريرى ، ومن مصباح تيفانى العتيق ، ومن تلك المنضدة البشعة بأرجلها الشبيهة بالمخالب ، ومن كل ما يرمز ويرتبط بأسلوب الطائفة الفرعية التى انفصمنا عنها . ثم نبدأ شيئا فشيئا فى أن نحل محلها عناصر تناسب ذاتيتنا الجديدة ، وتحدث نفس العملية فى حياتنا الاجتماعية ، فيتسارع معدل تغيير علاقاتنا بالناس ، ونبدأ فى رفض أفكار كنا نعتنقها (أو نفسرها تفسيرات جديدة) . إننا نتحرر فجأة من كل القيود التى فرضتها علينا الطائفة الفرعية ، أو أسلوبها فى الحياة . إن مؤشر الزوال سوف يثبت أنه مؤشر حساس لتلك اللحظات من حياتنا التى نكون فيها أكثر حرية — ولكن أكثر ضياعا فى نفس الوقت .

وفى فترة الانتقال هذه ، تظهر علينا أعراض التذبذب العنيف . إننا نكون آنذاك أهدافا سهلة الاختراق أمام نداءات الطوائف الفرعية الجديدة وادعاءاتها التى تملأ الجو . إننا نميل مرة هنا ومرة هناك . وثمة صديق قوى جديد ، وفكرة أو بدعة « تقليعة » جديدة ، وحركة سياسية جديدة ، وبطل ما جديد ينبعث من أعمال وسائل الإعلام العام — كل هذا يهاجمنا بعنف غريب فى مثل هذه اللحظة . إننا نكون آنذاك أشد « انفتاحا » وأقل ثقة ، وأكثر استعدادا لأن نصغى إلى إنسان ما أو جماعة ما ، عندما يقول لنا : كيف نسلك ؟

والقرارات — حتى الصغير منها — تصبح أصعب . وليس هذا من قبيل المصادفة . ففى مواجهة ضغط الحياة اليومية ، نحتاج إلى مزيد من

المعلومات عن مزيد من الأشياء الصغيرة يفوق بمراحل ما نحتاج إليه عندما نتحرك ضمن إطار محكم لأسلوب حياة محدد . ومن ثم فإننا سنشعر بالقلق والتوتر والوحدة حتى نختار – أو نمتص – طائفة فرعية جديدة ، ونكتسب أسلوبا جديدا للحياة .

وفى اندفاعنا نحو عصر ما فوق التصنيع – سوف نجد الناس يتبنون وينبذون أساليب الحياة بمعدل حرى بأن يصيب أفراد أى جيل سابق بالذهول . حيث ستصبح أساليب الحياة ذاتها من قبيل السلع السريعة الاستهلاك .

وليس هذا بالأمر البسيط أو السهل . إنه يزيد من تفاقم ما ننعاه على أنفسنا من « فقد الانتماء » الذى أصبح من بين الملامح المميزة لوقتنا الراهن . وبينما يتحول الناس من طائفة فرعية إلى أخرى ، ومن أسلوب حياة إلى آخر فإنهم يحاولون التكيف ضد ما يصاحب الانفصال من آلام لا مناص منها . إنهم يتعلمون كيف يحصنون أنفسهم ضد أحزان الفراق ، إن الكاثوليكى المتفانى الذى يطرح ديانته جانبا ليلقى بنفسه بين أحضان حركة اليسار الجديد ، ثم يزج بنفسه مرة أخرى فى حركة أو طائفة فرعية أخرى ، أو يعتنق مبدأ آخر ، هذا الرجل لا يستطيع أن يستمر هكذا إلى ما لا نهاية ، إنه يصبح حسب تعبير جراهام جرين « حالة محترقة » . إنه يتعلم من الإحباطات السابقة ألا يضحى بالكثير من ذاته القديمة فى سبيل خطه الجديد .

وبالتالى ، فحتى عندما يبدو أنه قد تبنى طائفة أو أسلوبا جديدا ، يظل محتفظا بجزء من ذاته القديمة . إنه يمتثل لمطالب الجماعة الجديدة ويلبس ثوب الانتماء الذى منحته إياه : ولكن قوة انتمائه لا يمكن مطلقا أن تكون بمثل ما كانت عليه من قبل . وفى قرارة نفسه سيظل مستعدا دائما للانخلاع الفورى من انتمائه الجديد . ومعنى هذا أنه بينما يبدو ظاهرا وكأنه مندمج قلبا وقالبا فى القبيلة أو الجماعة ، فإنه يرهف سمعه فى ظلمة الليل إلى ما ترسله القبائل الأخرى من إشارات .

وبهذا المعنى تكون عضويته للجماعة سطحية . إنه يظل دائما فى وضع من عدم الالتزام . ودون التزام قوى بقيم وأساليب جماعة ما ، سيفتقر إلى مجموعة من المعايير الواضحة التى يحتاج إليها لشق طريقه وسط الأدغال الكثيفة المتشابكة لفائض الاختيار .

وبالتالى ، فإن ثورة ما فوق التصنيع سوف تدفع بمشكلة فائض الاختيار إلى مستوى كيفى جديد . إنها لا تضطرنا إلى الانتقاء بين عديد من أنواع السلع فقط ، ولا بين أجزاء من أساليب الحياة فحسب ، بل بين أساليب حياة بأكملها .

هذه المشكلة المتفاقمة لفائض الاختيار تدفع بنا نحو الانغماس فى امتحان الذات ، وافتقاد الروح ، والانطواء . إنها تعرضنا لذلك المرض المعاصر المعروف : « أزمة الذاتية » . لم يحدث مطلقا من قبل أن ووجه مثل هذا العديد من الرجال بمثل هذا الفائض المعقد من الاختيار . إن افتقاد الذات هنا لا يرجع إلى عدم الاختيار المزعوم ، ولكن على وجه التحديد ، إلى تعدد وتعقد اختياراتنا .

فى كل مرة نختار فيها أسلوبا لحياتنا ، وفى كل مرة نقرر فيها الارتباط بجماعة أو جماعات معينة ، فإننا نحدث من خلال ذلك تغييرا فى صورة ذاتنا . إننا نصبح ، بمعنى من المعانى ، أشخاصا مختلفين ونبدو كذلك فعلا ، إن أصدقاءنا السابقين ممن عرفونا على صورتنا السابقة ، يرفعون حواجبهم فى دهشة . ويجدون صعوبة أكثر وأكثر فى التعرف إلينا ، والواقع أننا أيضا سنجد صعوبة فى تعريف أنفسنا بذواتنا القديمة ، أو حتى التعاطف معها .

إن الهيبى يصبح موظفا تنفيذيا مهندما ، والموظف التنفيذى يصبح قافزا جويا دون أن يلاحظ بدقة خطوات الانتقال . إنه خلال عملية الانتقال يتخلص ليس من مظاهر أسلوبه الخارجية فحسب ، ولكن أيضا من كثير من مواقفه الكامنة . ثم فى يوم من الأيام سيصدمه هذا السؤال كما يصفع الماء البارد وجه النائم الوسنان : « ماذا تبقى » ؟ ما الذى بقى

هناك من « الذات » و « الشخصية » بمفهوم البنية الداخلية ، القوية الاحتمال الباقية ؟ وبالنسبة للكثيرين لن تكون هناك إجابة شافية ، لإنهم لم يعودوا بعد يتعاملون مع « ذات » ، وإنما مع « سلسلة من الذوات » .

وهكذا ، فإن ثورة ما فوق التصنيع تتطلب تغييرا فى مفهوم الإنسان عن ذاته، أى تتطلب نظرية جديدة فى الشخصية تأخذ فى اعتبارها الانقطاعات إلى جانب الاستمرارات فى حياة الإنسان .

وثورة ما فوق التصنيع تتطلب أيضا مفهوما جديدا للحرية —مفهوما يعترف بأن الحرية عندما تدفع إلى ذروتها فإنها تنفى نفسها . إن قفزة المجتمع إلى مستوى جديد من التنوع سوف يجلب بالضرورة فرصا جديدة للفردية، وأيضا فإن التكنولوجيا الجديدة والأشكال التنظيمية المؤقتة الجديدة تحتاج إلى نوعيات جديدة من البشر . وهذا هو السر فى أنه برغم التراجعات المؤقتة ، ومحاولات التعويق ، فإن مسيرة التقدم الاجتماعى تمضى قدما نحو تسامح أوسع ، وتقبل أكثر ، لنماذج بشرية أكثر تنوعا .

إن ما لقيه شعار « تول أمرك بنفسك » من شعبية سريعة ، ما هو إلا انعكاس لهذه الحركة التاريخية . لأنه كلما زاد المجتمع تقسيما وتنوعا ، رفع ذلك من تعدد وتنوع أساليب الحياة. وكلما زاد ناتج المجتمع من أساليب الحياة المقبولة ، اقتربنا من الحالة التى يصبح فيها كل إنسان ، فى الواقع، وقد تولى أمره بنفسه :

وبالتالى ، وعلى الرغم من كل فصاحة وبلاغة معارضى التكنولوجيا ، أمثال : أيليول ، وفروم ، وما مفورد ، وماركيوز — فإنه بالذات وعلى وجه التحديد ، مجتمع ما فوق التصنيع ، أكثر المجتمعات تقدما تكنولوجيا هو الذى سيمد من آفاق الحرية . إن أهل المستقبل سيستمتعون بفرص لتحقيق الذات أكبر مما أتيح لأى جماعة سابقة فى التاريخ .

إن المجتمع الجديد لا يقدم إلا القليل من الجذور بمفهوم العلاقات الدائمة . ولكنه يقدم مواضع للحياة أكثر تنوعا . وحرية أكبر فى الانتقال من وإلى هذه المواضع تفوق كل ما قدمته المجتمعات السابقة مجتمعة .

إنه أيضا يقدم البهجة القصوى لامتطاء موجة التغيير ، والارتفاع فوق متنها ، متغيرا وناميا معها – وهى عملية بالتأكيد أمتع وأكثر إثارة من ركوب أمواج المحيط ، أو مصارعة عجلة القيادة فى سيارة منطلقة بسرعة العاصفة على طريق السباق ، أو البحث عن النشوة فى العقاقير المختلفة . إنه يقدم للفرد مسابقة تحتاج إلى قدر عال من الذكاء والتسيد على النفس . وبالنسبة للفرد الذى سيأتى مسلحا بهذه القدرات ، والذى يبذل الجهد الضرورى لفهم البناء الاجتماعى السريع الانبثاق لثورة ما فوق التصنيع ، وبالنسبة للشخص الذى يجد الإيقاع « الصحيح » لخطو حياته ، والمجموعة « الصحيحة » من الطوائف الفرعية التى ينضم إليها وأساليب الحياة التى ينتهجها – فإن الفوز سيكون رائعا .

ولسنا ننكر أن هذه الكلمات الضخمة لا تنطبق على غالبية الناس . فمعظم أهل الماضى والحاضر يظلون محبوسين داخل مواضع من الحياة لم يصنعوها ، وليس لديهم أمل ما فى ظل الظروف الراهنة ، أن يغيروا منها كثيرا . إن مجال الاختيار بالنسبة لمعظم البشر ما زال محدودا جدا .

هذا الحبس سوف ينكسر . ولكنه لن ينكسر بالحملات الموجهة ضد التكنولوجيا ، ولا بالنداءات الداعية إلى السلبية أو الغيبيات . كما أنه لن ينكسر بتحسس ، أو تخمين طريقنا إلى المستقبل ، فى حين نحط من قيمة الدراسة التجريبية ، والتحليل والجهود العقلية . وحرى بأولئك الذين يريدون تحطيم سجن الماضى والحاضر أن يستحثوا مقدم تكنولوجيات الغد المنتقاة المحكومة بدلا من أن ينفقوا جهدهم فى الهجوم على الآلة . إن التخمين و « « الحدس الغيبى » لا يجديان فتيلا فى الوصول إلى هذا الهدف . إنه يحتاج إلى المعرفة العلمية الدقيقة ، المطبقة بحذق ومهارة على أكثر نقط الوضع الاجتماعى حساسية وحرجا .

وأيضاً فلن يساعدنا على التحرر أن نضاعف من فرص الاختيار إلى حدودها القصوى كمفتاح للحرية . فيجب أن نضع فى اعتبارنا إمكان تحول الاختيار إلى فائض اختيار ، والحرية إلى نقيضها .

برغم كل العبارات الرومانسية البليغة فإن الحرية لا يمكن أن تكون مطلقة . والقول باختيار مطلق أو فردية مطلقة يعنى نفى وجود أى شكل من أشكال المجتمعات أو التكوينات الاجتماعية نفيا كاملا . فلو انهمك كل شخص فى تولى أمر نفسه وصار مختلفا تماما عن كل الآخرين ، لما وجدت شخصين اثنين يملكان أى قاعدة للتواصل . وإنه لمن دواعى السخرية أن الأشخاص الذين ترتفع أصواتهم بالشكوى من أن الناس قد أصبحوا غير قادرين على أن « ينتسب » أحدهم إلى الآخر ، أو أن« يتواصل » معه ، هم نفس الأشخاص الذين يطالبون بمزيد من الفردية ، وقد لاحظ عالم الاجتماع كارل مانهايم هذا التناقض عندما كتب يقول : « كلما زاد نزوع الناس إلى الفردية ، صعب عليهم تحقيق ذاتيتهم » .

وما لم نكن على استعداد للرجوع القهقرى إلى بدائية ما قبل التكنولوجيا وتقبل كل عواقب ذلك – حياة أقصر وأقسى ومرض وألم وجوع وخوف وخرافات وأوهام وتعصب – فلا مناص من أن نستمر فى الاتجاه نحو مجتمعات أكثر تنوعا . وسيثير هذا بالتالى مشكلات حادة فيما يتصل بالتكامل الاجتماعى . أى نوع من الروابط التعليمية والسياسية والثقافية ينبغى أن نصوغ لنجمع بها نظام ما فوق التصنيع فى وحدة عاملة ؟ وهل هذا من قبيل المستطاع ؟ مثل هذا « التكامل » فى رأى برترام .م. جروس من جامعة واين : « يجب أن يكون مؤسسا على القبول العام لقيم معينة ، أو التعارف على درجة ما من الاتكال المتبادل ، إن لم يكن القبول بأهداف مشتركة » .

إن مجتمعنا يتسم بالانقسامات السريعة فيما يتصل بالقيم وأساليب الحياة ، يتحدى كل ميكانيكيات التكامل القديمة ، ويصرخ فى طلب أساسى جديد تماما للتماسك . ونحن لم نستطع حتى الآن أن نجد هذا الأساس . ثم إننا لو كنا سنواجه مشكلات مزعجة فيما يتصل بالتكامل الاجتماعى ، فإننا سنواجه بمشكلات أشد إيلاما فيما يختص بالتكامل الفردى . . لأن الكثرة المتضاعفة لأساليب الحياة تتحدى قدرتنا على الاحتفاظ بتماسك الذات .

أى من الذوات الممكنة سوف نختار ؟ بل بأى سلسلة من الذوات سوف نتصف ؟ وباختصار ، كيف ينبغى لنا أن نعالج مسألة فائض الاختيار عند هذا المستوى الشخصى المفعم أكثر من غيره بالمشاعر ؟ إننا فى اندفاعنا نحو التنوع وبالاختيار والحرية لم نبدأ بعد فى فحص المضامين المروعة للتنوع .

ومن ناحية أخرى ، فعندما يتحد التنوع مع الزوال والجدة ، فإننا سنصعد بالمجتمع نحو أزمة التكيف التاريخية . إننا نخلق بيئة متحولة ، وغير مألوفة ، ومعقدة ، إلى الدرجة التى تهدد الملايين بالانهيار التكيفى ، ذلكم الانهيار الذى نسميه صدمة المستقبل .

القسم الخامس

حدود القدرة على التكيف

الفصل الخامس عشر

صدمة المستقبل : الأبعاد البدنية

منذ دهور مضت ، قذفت البحار المنحسرة ، بملايين من المخلوقات المائية إلى الشواطئ الجديدة التكوين . هذه المخلوقات ، وقد حرمت من بيئاتها المألوفة ، أخذت تموت ، وهى تلهث من أجل كل لحظة تستطيع أن تمد بها من بقائها . ولكن القلة المحظوظة فقط من المخلوقات المهيأة للحياة البرمائية هى التى استطاعت أن تنجو من صدمة التغيير . واليوم ، فإننا — كما يقول عالم الاجتماع لورنس سوم ، من جامعة ويسكونسن — : « نمر بفترة تشبه من حيث تأثيراتها الصدمية تطور أسلاف الإنسان من مخلوقات بحرية إلى مخلوقات برية . . فأولئك الذين سيستطيعون التكيف سوف يتطورون ، أما أولئك الذين لن يستطيعوا فإما أن يبقوا عند مستوى أقل من التطور ، وإما أن ينقرضوا ويدركهم الفناء » .

إن التأكيد على أن الإنسان يجب أن يتكيف ، يبدو كأنه شئ من قبيل التزيد ، أو من نافلة القول . فالإنسان قد أثبت بالفعل أنه من أقدر الكائنات الحية على التكيف . لقد تحمل صيف خط الاستواء وشتاء القطب ، ومعسكرات اعتقال النازى ، ومشى على سطح القمر . مثل هذه الإنجازات هى التى خلقت الفكرة السطحية بأن قدرة الإنسان على التكيف قدرة « لا متناهية » . ولكن تلك فكرة أبعد ما تكون عن الحقيقة ؛ لأنه بالرغم من كل بطولته وصموده ، فإن الإنسان لايعدو أن يكون كائنا بيولوجيا ، أى « نظاما بيولوجيا » ، وكل مثل هذه النظم تعمل ضمن حدود لايمكن تخطيها .

إن الحرارة ، والضغط ، ومأخذ السعرات ، ومستويات الأوكسجين وديوكسيد الكربون ، كلها تضع حدودا لا يستطيع الإنسان ، بتركيبه الحالى ، أن يتخطاها . وبالتالى فإننا عندما نبعث بإنسان إلى الفضاء الخارجى

فإننا نحيطه ببيئة مصممة بدقة وعناية للحفاظ على هذه العناصر فى الحدود التى تضمن استمرار حياته . فكم يكون غريبا إذن ، أن نقذف بالإنسان إلى المستقبل دون أن نكلف أنفسنا مشقة حمايته من صدمة التغيير — كما لو أن وكالة الفضاء قد عمدت إلى قذف أرمسترونج وألدرين عاريين إلى الفضاء .

إن الفرضية التى يطرحها هذا الكتاب هى أن ثمة حدودا قابلة للاكتشاف لكمية التغيير التى يستطيع أن يمتصها الكائن البشرى ، وإننا بحثنا لتسارع التغيير إلى ما لا نهاية ، دون تعيين هذه الحدود ، فإننا نفرض بذلك على ملايين من البشر مطالب لا قبل لهم بها . إننا بذلك نقدم على المخاطرة البالغة بالوصول بهم إلى تلك الحالة الغريبة التى سميتها صدمة المستقبل .

إننا نستطيع أن نعرف صدمة المستقبل بأنها المحنة البدنية والنفسية التى تنجم عن تحميل كل من نظم التكييف البدنى ، وعمليات صنع القرارات فى الكائن البشرى فوق طاقتها . وبصيغة أكثر بساطة : صدمة المستقبل هى الاستجابة البشرية لفرط التنبيه .

وتختلف طرق الاستجابة لصدمة المستقبل باختلاف الأشخاص ، وتختلف أعراضها أيضاً تبعا للمرحلة التى وصل إليها المرض وحدة الإصابة به . وهذه الأعراض تمتد على طول الطريق من القلق ، ومعاداة السلطة أيا كانت ، والعنف الذى يبدو بلا معنى ، إلى المرض البدنى ، والكآبة ، وفتور الشعور . كما يبدى ضحاياها تذبذبا غريبا بين مختلف الاهتمامات وأساليب الحياة يتبعه نزوع إلى التقوقع من خلال الانسحاب الاجتماعى ، والثقافى ، والعاطفى . إنهم أيضاً يشعرون بحالة مستمرة من الضيق والانزعاج وبرغبة ملحة فى إنقاص عدد ما ينبغى لهم أن يتخذوه من قرارات .

وحتى نفهم هذه المجموعة من الأعراض المتزامنة ، يجب أن نستمد من مجالات متفرقة للمعرفة مثل علم النفس ، وعلم الأعصاب ، ونظرية التواصل ، وعلم الغدد الصماء ، ما يمكن أن يخبرنا به العلم عن التكيف . فليس هناك حتى الآن علم للتكيف قائم بذاته . كما أنه ليست هناك قائمة

منهجية بأمراض التكيف . ومع ذلك فإن القرائن التى تتدفق الآن من فروع مختلفة من المعرفة ، تجعل من الممكن رسم الخطوط العريضة لنظرية فى التكيف . لأنه بينما يعمل الباحثون فى هذه الفروع كل فى مجاله بعيدا عن العالم بما يفعل الآخرون ، فإن أعمالهم مجتمعة تشكل نسقا منسجما متناغما ، وتصنع نسيجا متميزا ومثيرا ، يمكن أن يمدنا بقاعدة صلبة لمفهوم صدمة المستقبل .

تغييرات الحياة والمرض

ماذا يحدث للناس فعلا عندما يطلب إليهم أن يتغيروا مرة بعد أخرى ؟ لنفهم الإجابة على هذا السؤال ، ينبغى أن نبدأ بالجسم ، بالكيان البدنى نفسه . ولحسن الحظ أن سلسلة من التجارب المثيرة ، وإن كانت لم يعلن عنها على نطاق واسع بعد ، قد ألقت مؤخرا كثيرا من الضوء الكاشف على العلاقة بين التغيير والصحة البدنية .

لقد نبتت هذه التجارب ثم نمت من أعمال المرحوم الدكتور هارولد.ج . وولف بمركز كورنيل الطبى بمدينة نيويورك . لقد أكد وولف باستمرار على أن هناك روابط وثيقة بين صحة الفرد ومطالب التكيف التى تفرضها عليه البيئة المحيطة به . ثم جاء أحد السائرين على نهج وولف — وهو الدكتور لورنس. أ. هينكل (الابن) — ليطلق على هذه النظرية اصطلاح مقترب « الإيكولوجيا البشرية » إلى الطب ، مؤكدا بحماسه أن المرض لا يحدث بالضرورة كنتيجة لعامل مفرد كجرثومة أو فيروس ، ولكن كنتيجة لعوامل متعددة من بينها طبيعة البيئة المحيطة بالجسم . واستمر هينكل يعمل لسنوات عديدة على جذب اهتمام الدوائر الطبية إلى أهمية العوامل البيئية بالنسبة للطب .

واليوم ، وبعد أن تزايد الإحساس بأخطار تلوث الهواء ، وتلوث الماء ، وكثافة السكان بالمدن ، وغير ذلك من مثل هذه العوامل ، بدأت أعداد متزايدة من ثقات الأطباء تنجذب إلى النظرية الإيكولوجية القائلة بضرورة النظر إلى الفرد باعتباره جزءا من نظام كلى ، وأن صحته تعتمد على كثير من العوامل الخارجية .

ومرة أخرى يأتى زميل آخر من زملاء وولف هو الدكتور توماس.هـ. هولمز ، ليطرح فكرة أن التغيير فى حد ذاته – لا تغييرا بعينه ، ولكن المعدل العام للتغيير فى حياة الشخص – يمكن أن يكون من بين أهم العوامل البيئية كلها .

والدكتور هولمز ، وهو أصلا من كورنيل ، يعمل حاليا بمدرسة الطب التابعة لجامعة واشنطن ، حيث تمكن بمساعدة طبيب أعصاب شاب يدعى ريتشارد راى أن يبتكر أداة بحث بارعة ، أطلق عليها اسم « قياس وحدات التغيير فى الحياة » . وهى عبارة عن وسيلة لقياس مدى ما يمر بالفرد من تغييرات خلال فترة معينة من الزمن . لقد كان تكوين هذه الأداة بمثابة فتح منهجى هام ؛ فقد جعلت من الممكن لأول مرة تقويم معدل التغيير فى حياة الفرد ، ولو بطريقة فجة .

وإدراكا من هولمز وراى لحقيقة أن أنواع التغيير المختلفة فى الحياة تؤثر فينا بدرجات مختلفة من القوة ، بدآ فى وضع قائمة تشمل كل ما استطاعا حصره من أمثال هذه التغييرات ، واضعين فى اعتبارهما أن أحداثا مثل الطلاق ، والزواج ، وتغيير السكن تؤثر فى كل منا بدرجة مختلفة ، كما أن بعض هذه التغييرات يحدث آثارا أكبر مما يحدثه البعض الآخر . وعلى سبيل المثال ، فإن القيام برحلة فى أثناء الإجازة قد يمثل كسرا ممتعا لروتينية الحياة ، ولكنه لا يمكن مقارنته من حيث الأثر بوفاة أحد الوالدين مثلا .

ثم حمل هولمز وراى قائمتهما بتغييرات الحياة إلى آلاف من الرجال والنساء المنتشرين فى عديد من مسالك الحياة بالولايات المتحدة واليابان . وكان المطلوب من كل فرد أن يعيد ترتيب القائمة تبعا لما يراه من قوة تأثير بنودها المختلفة . ما هى التغييرات التى تتطلب قدرا كبيرا من المواجهة والتكيف ؟ وما هى تلك التى تعتبر بسيطة نسبيا ؟

وكم كانت دهشة هولمز وراى عندما أسفر الاستطلاع عن أن ثمة اتفاقا واسع المدى بين الناس حول أى التغييرات فى حياتهم تتطلب قدرا

كبيرا من التكيف ؟ وأيها يعتبر ، بالمقارنة ، أقل أهمية ؟ هذا الاتفاق على قوة تأثير أحداث الحياة المختلفة قد امتد حتى عبر حواجز القومية واللغة(*)، ليكشف عن أن الناس يعرفون ويتفقون على أى التغييرات تهاجمهم بعنف أكبر .

وبحصولهما على هذه المعلومات استطاع هولمز وراى أن يعطيا ثقلا عدديا لكل نوع من تغييرات الحياة . بالتالى فإن كل بند بقائمتهما قد وضع فى مرتبة تناسب أهميته ، وأعطى من ثم وزنا عدديا يناسب هذه الأهمية . وعلى سبيل المثال فقد أعطى موت أحد الزوجين مائة نقطة ، أما الانتقال إلى مسكن جديد فقد كان فى نظر معظم الناس يستحق عشرين نقطة ، والإجازة ثلاث عشرة نقطة . (وبالمناسبة ، فإن موت أحد الزوجين ، قد اعتبر فى نظر الجميع تقريبا ، من حيث قوة تأثيره ، أهم تغيير مفرد يمكن أن يعترض سير الحياة الطبيعية) .

والآن ، أصبح هولمز وراى مستعدين للخطوة التالية . وبدآ ، مستعينين بقياس وحدات التغييرات فى الحياة ، يسألان الناس عن التغييرات التى حدثت بالفعل فى حياتهم . وبواسطة القياس أصبح من الممكن مقارنة « معدل التغيير » فى حياة شخص ما ، بذلك المعدل فى حياة شخص آخر . فهل من الممكن الآن – بدراسة كمية التغيير فى حياة شخص ما – أن تعرف شيئا عن مدى تأثير التغيير ذاته فى صحة الفرد ؟

وبحثا عن إجابة لهذا السؤال جمع هولمز وراى وغيرهما من الباحثين « قياسات التغيير فى الحياة » لآلاف من الأفراد ، وبدأوا فى عملية شاقة ومرهقة هى مقارنة هذه القياسات بالتواريخ الطبية لكل من هؤلاء الأفراد . لم يحدث من قبل أن كان ثمة سبيل للربط بين التغيير والصحة ، كما لم يحدث من قبل أن توافرت مثل هذه البيانات التفصيلية عن نماذج التغيير فى حياة الأفراد ، ونادرا ما كانت نتائج أى تجربة أقل غموضا

---

* هذا العمل الذى تم فى الولايات المتحدة واليابان قد أتبع بدراسات تجرى الآن فى فرنسا ، وبلجيكا ، وهولندا .

والتباسا . ففى الولايات المتحدة واليابان ، بين رجال القوات المسلحة والمدنيين ، وبين النساء الحوامل وعائلات ضحايا سرطان الدم ، وبين أبطال الرياضة بالجامعات والمتقاعدين ، كان هناك دائما نفس النموذج اللافت للنظر : لقد كان أولئك الذين تميزوا بمعدل عال من التغيير أكثر تعرضا من زملائهم للمرض فى العام التالى . لقد أصبح ممكنا لأول مرة وبشكل درامى تبيان أن معدل التغيير فى حياة الفرد — أى سرعة خطو حياته — مرتبط ارتباطا وثيقا بحالته الصحية .

ويقول الدكتور هولمز : « لقد كانت النتائج مذهلة لدرجة أننا ترددنا فى نشرها فى بادئ الأمر ، ولم نعلن أولى النتائج التى توصلنا إليها إلا فى سنة ١٩٦٧ » .

ومنذ ذلك الحين وقياس وحدات التغيير فى الحياة ، واستفتاءات تغييرات الحياة ، تطبق على عديد من مختلف من الجماعات . من المتعطلين السود فى واتس إلى ضباط الأسطول فى عرض البحر . وفى كل حالة كانت تبرز بوضوح العلاقة بين التغيير والمرض . كما ثبت أن « تغيير أسلوب الحياة » الذى يتطلب قدرا كبيراً من التكيف له علاقة بالمرض — سواء كانت هذه التغييرات تحت السيطرة المباشرة للفرد أم لا ، وسواء رآها شيئا مرغوبا فيه من عدمه . وفضلا عن ذلك ، فكلما ارتفعت درجة التغيير ، زادت المخاطرة بأن يكون المرض الذى سيعقبها حادا . لقد كانت القرائن من القوة بحيث قربت إمكانية التنبؤ بمستويات المرض بين مختلف السكان من خلال دراسة معدلات التغيير فى حياتهم .

وهكذا ، وفى أغسطس سنة ١٩٦٧ بدأ الكوماندر رانسوم ج. أرثر رئيس وحدة بحوث طب الأعصاب التابعة للأسطول الأمريكى بسان دييجو ، وريتشارد راى الذى أصبح الآن يحمل رتبة الكابتن ويعمل ضمن مجموعة الكوماندر أرثر — بدآ فى عمل دراسة للتنبؤ بالنماذج المرضية لمجموعة عددها ثلاثة آلاف من رجال الأسطول . . لقد بدأ الدكتوران آرثر وراى بتوزيع أسئلة الاستفتاء على بحارة ثلاثة طرادات راسية فى

ميناء سان دييجو . وكانت الطرادات على وشك الإبحار والبقاء فى عرض البحر لحوالى ستة أشهر . وخلال هذه المدة كان من المستطاع الحصول على تسجيل طبي كامل ودقيق لكل فرد من أفراد الطاقم . فهل تستطيع البيانات المتوافرة عن معدل التغيير فى حياة هؤلاء الأفراد أن تخبرنا مقدما عن احتمالات إصابته بالمرض خلال الرحلة ؟

لقد سئل كل واحد من أفراد الطاقم عن التغييرات التى حدثت فى حياته خلال السنة السابقة على الرحلة . وقد غطت الأسئلة مدى فائق الاتساع من الموضوعات . ومن ثم فقد سألته عما إذا كانت قد حدثت له متاعب مع رؤسائه أقل أو أكثر خلال الاثنى عشر شهرا السابقة للمرحلة. كما سألته عن التغييرات فى عادات أكله ونومه ، وعن التغييرات فى دائرة أصدقائه ، وفى ملابسه ، وفى تمضية أوقات فراغه . وأيضاً فقد سألته عما إذا كانت قد حدثت تغيرات فى مناشطه الاجتماعية ، وفى اجتماعات الأسرة ، وفى حالته المالية . هل تعرض لمتاعب أكثر أو أقل مع أنسبائه ؟ ومشادات أكثر أم أقل مع زوجته ؟ هل حصل على طفل بالولادة أم عن طريق التبنى ؟ هل قاسى من وفاة زوجته ، أو أحد أصدقائه أو أقاربه ؟

واستمرت الأسئلة تسبر غور موضوعات مثل عدد المرات التى غير فيها مسكنه . وهل تعرض لمتاعب مع القانون من جراء مخالفة مرور أو غيرها من المخالفات الصغيرة ؟ هل قضى وقتا طويلا بعيداً عن زوجته بسبب الأسفار المتصلة بالعمل ، أو بسبب خلافات زوجية ؟ هل بدأت زوجته تعمل أم توقفت عن العمل ؟ هل تغيرت أحوال معيشته كنتيجة لإعادة تصميم البيت ؟ أم بسبب تدهور جيرته ؟ كم مرة حصل على إجازة ؟ هل حدث تغيير كبير فى علاقاته بوالديه كنتيجة للوفاة ، أو الطلاق ، أو الزواج مرة ثانية ، إلى آخره ؟

وباختصار ، لقد حاولت الأسئلة أن تصل إلى الأشياء التى تعتبر جزءا من الوجود الطبيعى . فلم تسأل عما إذا كان تغيير ما يعتبر « طيبا » أو« سيئا » ، وإنما مجرد : هل حدث أم لم يحدث ؟

وظلت الطرادات الثلاثة فى عرض البحر لمدة ستة أشهر . . وقبيل الموعد المحدد لعودتها بعث الدكتور ان آرثر وراى بفرق بحث أخرى للانضمام إلى السفن الثلاث . وبدأت هذه الفرق فى عمل مسح دقيق وشامل للسجلات الطبية للسفن . من من الرجال مرض ؟ وأى نوع من الأمراض ؟ وكم عدد أيام الإجازات المرضية التى حصل عليها ؟

وعندما أكمل الكومبيوتر آخـــر دوراته كانت العلاقة بين التغيير والمرض قد أصبحت أكثر ثبوتا مما كانت عليه من قبل . . إن الرجال الذين يحتلون مراتب تقع ضمن أعلى عشرة فى المائة من وحدات التغيير — أى أولئك الذين كان عليهم أن يتكيفوا مع أقصى درجات التغيير خلال العام السابق — ظهر أنهم قاسوا من الأمراض مثل ونصف مثل إلى مثلى ما قاساه الرجال الذين يحتلون مراتب تقع ضمن أسفل عشرة فى المائة من وحدات التغيير . وفضلا عن ذلك فقد ثبت مرة أخرى أنه كلما ارتفعت درجة التغيير فى الحياة زادت احتمالات حدة ما يعقبه من مرض . إن دراسة نماذج التغيير فى الحياة — أى التغيير كأحد العوامل البيئية — قد أسهمت إسهاما بالغا فى نجاح التنبؤ بحجم وشدة المرض فى خيط واسع الاختلاف من السكان .

ويعبر الدكتور آرثر عن بالغ تقديره للبحث فى تغييرات الحياة بقوله : « للمرة الأولى يصبح لدينا مؤشر عن التغيير . فإن كنت قد تعرضت لتغييرات كثيرة فى حياتك خلال فترة قصيرة ، فإن ذلك سيشكل تحديا خطيرا لبدنك . . فإن وقوع عدد هائل من التغييرات خلال فترة قصيرة قد يكتسح قدرتك على التكيف » .

ثم يستطرد قائلا : « من الواضح أن هناك ارتباطا بين قدرة مقاومة الجسم ومطالب التغيير التى يفرضها المجتمع . إننا فى حالة دائمة من التوازن الديناميكى . . وثمة عناصر « هدامة » داخلية وخارجية موجودة دائما . ومتطلعة باستمرار إلى الانفجار على شكل مرضى . وعلى سبيل المثال ، فهناك أنواع من الفيروسات تسكن الجسم ولا تسبب مرضا إلاعندما تضعف مقاومة الجسم . وقد تكون هناك نظم مقاومة عامة فى الجسم لا تستطيع الثبات أمام سيل مطالب التغيير التى تأتى خافقة من خلال الجهاز العصبى والغدد الصماء » .

إن التطلعات المنوطة بحدوث تغييرات الحياة تطلعات طموحة حقا ، ليس فيما يخص المرضى فقط . بل إن الموت ذاته يمكن أن يثبت وجود علاقة بينه وبين حدة مطالب التكيف التي تفرض على البدن . وهكذا نجد تقريرا للدكتور راى وزميل له هو الدكتور جوزيف . د . ماكين (الابن) يبدأ بهذا الاقتباس من الكتاب الذى كتبه سومرست موم عن تاريخ حياته الأدبية « الخلاصة » :

(وذهب والدى إلى باريس حيث أصبح محامى السفارة البريطانية . . وبعد موت أمى أصبحت خادمتها مربية لى . . فى اعتقادى أن والدى كان ذا عقلية رومانسية . فقد صح عزمه على أن يبنى بيتا لنقضى فيه شهور الصيف . فاشترى قطعة من الأرض تقع على قمة تل فى سورسنس . . كان البيت أشبه « بفيلا » على ضفاف البوسفور تحيط بطابقه الأعلى أروقة ذات عقود « بواكى » . . لقد كان بيتا أبيض بنوافذ وأبواب طليت باللون الأحمر ، ثم خططت الحديقة وأثثت الحجرات . وعندئذ مات أبى .

وكتب راى وماكين يقولان : « إن موت والد سومرست موم يبدو لأول وهلة وكأنه حادث مفاجئ وغير متوقع . ومع ذلك فإن تقويما دقيقا للأحداث التى وقعت خلال العامين السابقين لوفاته ، يكشف عن تغييرات حدثت فى وظيفته . وسكنه ، وعاداته الشخصية . وأحواله المالية ، ودائرة أسرته » . ثم يريان أن هذه التغييرات قد تكون أحداثا عجلت بموته .

إن هذا التفسير منسجم مع التقارير التى توضح أن معدلات الوفاة بين الأرامل والمترملين خلال العام التالى لفقدهم لشركاء حياتهم أعلى من المعتاد . وتؤكد سلسلة من الدراسات البريطانية بقوة أن صدمة الترمل تضعف من مقاومة الجسم للأمراض وتعجل بالشيخوخة . لقد أعلن علماء معهد الدراسات الاجتماعية بلندن بعد مراجعة القرائن المتحصلة من دراسة أجريت على ٤٫٤٨٦ من المترملين أن : « زيادة حالات الوفاة خلال الستة الأشهر الأولى حقيقة مؤكدة . . ويبدو أن الترمل يأتى معه بارتفاع مفاجئ فى معدلات الوفاة يصل إلى حوالى ٤٠ فى المائة خلال الأشهر الستة الأولى » .

ما السر فى هذه الحقيقة ؟ من المعروف أن الحزن فى حد ذاته يؤدى إلى المرض . ومع ذلك فقد لا تكمن الإجابة فى حالة الحزن على الإطلاق ، ولكن فى ذات التأثير الشديد الذى يحدثه فقد شريك الحياة بإجباره الشريك الباقى على إجراء تغييرات كبرى فى حياته خلال الفترة القصيرة التالية للوفاة .

إن أعمال هينكل ، وآرثر ، وهولمز ، وراى ، وماكين وغيرهم فى سبر غور العلاقة بين التغيير والمرض ما زالت فى مراحلها المبكرة ، ومع ذلك فإنها تضع أمام أعيننا درسا بالغ الوضوح مؤداه : « أن التغيير يقتضينا ثمنا فسيولوجيا ، وأنه كلما كان التغيير عميقا ارتفع الثمن » .

الاستجابة للجـدة

يقول الدكتور هينكل : « إن الحياة تفرض تفاعلا مستمرا بين الكائن الحى والبيئة » . وعندما نتحدث عن التغيير الذى يأتى من جراء الطلاق أو من حالة وفاة فى الأسرة ، أو الانتقال إلى عمل جديد ، أو حتى القيام بإجازة ، فإننا نتحدث عندئذ عن حدث كبير . ولكن ، وكما يعرف الجميع ، فإن الحياة تشتمل على أحداث صغار أيضا . فثمة تيار مستمر يحمل فيضا من هذه الأحداث من وإلى مجرى حياتنا . إن تغييراً كبيراً فى حياتنا يستمد صفة كبره من أنه يضطرنا إلى إجراء عديد من التغييرات الصغيرة أيضا ، وهذه بدورها تتضمن تغييرات أصغر . وحتى نمسك بتلابيب معنى الحياة فى مجتمع متسارع التغيير ، فإننا نحتاج إلى إلقاء نظرة فاحصة على ما يحدث عند مستوى هذه التغيرات الصغيرة .

ماذا يحدث عندما يتعدل شئ ما فى بيئتنا ؟ إننا جميعا نتلقى سيلا مستمرا من الإشارات الصادرة من بيئتنا — إشارات بصرية ، وسمعية ، وملموسة ، إلى آخره . ومعظم هذه الإشارة تأتى بأشكال روتينية وتكرارية . وعندما يتغير شئ ما فى محيط حواسنا ، يتعدل شكل الإشارات المنصبة فى قنواتنا الحسية ومنها إلى جهازنا العصبى . لقد تعرضت الأشكال الروتينية للمقاطعة — ونحن نستجيب لهذه المقاطعة بطريقة مرهفة وحادة .

وجدير بالذكر أننا عندما نتلقى مجموعة من المنبهات الجديدة فإن الجسم

والمخ يعرفان كلاهما فورا أنها جديدة . وقد لا يعدو التغيير أن يكون ومضة لون نلمحها بطرف العين . فأيا كان التغيير تافها فإنه يحفز آلية بدنية ضخمة إلى العمل .

عندما يسمع كلب ضجة غريبة ، تنتصب أذناه ويستدير رأسه — ونحن نفعل الكثير من مثل هذا . فتغير المنبه يثير ما يسميه علماء النفس التجريبيون : « الاستجابة التوجيهية » . والاستجابة التوجيهية عملية عضوية معقدة وضخمة — فيدور إنسانا العينين فى محجريهما وتحدث تغيرات ضوئيكماوية فى الشبكية ، ويكتسب سمعنا حدة فورية ، ونستخدم عضلاتنا لا شعوريا لتوجيه أعضائنا الحسية نحو المنبه القادم — فنميل ، على سبيل المثال ، نحو مصدر الصوت ، أو نحدق بعينينا لنرى أفضل . ويزداد نشاطنا العضلى بوجه عام . وتحدث تغييرات فى أشكال موجاتنا المخية ، ونحس ببرودة فى أطراف أصابع يدينا وقدمينا عندما تتقلص الشرايين والأوردة فيها . ويعرق باطن كفينا . ويندفع الدم إلى الرأس ، ويتغير إيقاع تنفسنا ونبضنا .

فى أحوال معينة قد نفعل كل هذا وأكثر منه — وبطريقة واضحة — مظهرين ما يسمى « رد فعل الإجفال » . ولكن حتى عندما لا نكون مدركين لما يحدث ، فإن هذه التغييرات تحدث فى كل مرة نستشعر الجدة فى بيئاتنا .

والسر فى هذا ، أننا على مايبدو قد بنينا فى أدمغتنا جهازاً خاصا لاستشعار الجدة ؛ هو ذلك الجهاز الذى استرعى مؤخرا اهتمام أخصائى الأعصاب . إن العالم السوفييتى أ . ن . سوكولوف الذى قدم أوفى وأشمل شرح لكيفية عمل الاستجابة التوجيهية ، يرى أن الخلايا العصبية فى المخ تختزن معلومات عن شدة ، ودوامية ، ونوعية ، وسياق كل منبه تتلقاه . وعندما تأتى منبهات جديدة فإنها تقارن بالنماذج العصبية المختزنة فى اللحاء الخارجى . فإن كانت المنبهات مستجدة ، فإنها لا تتطابق مع النماذج العصبية الموجودة — وهنا تبدأ الاستجابة للتوجيه فى العمل . أما لو حدث أن أظهرت المقارنة تطابق المنبهات القادمة مع النماذج المختزنة ، فإن اللحاء الخارجى للمخ يرسل إشارات إلى جهاز التنشيط المعقد بأن يثبت على ما هو عليه .

وهكذا يكون لمستوى الجدة فى بيئتنا تأثيراته البدنية المباشرة . وفضلا عن ذلك فمن الأهمية بمكان أن نعرف أن الاستجابة التوجيهية ليست أمراً نادر الحدوث . بل إنها تحدث آلاف المرات خلال يوم واحد عندما تقع التغييرات المختلفة فى البيئة المحيطة بنا ، وحتى فى أثناء النوم .

يقول الأخصائى النفسى اردى لوبين ، وهو خبير فى ميكانيكا النوم : « إن الاستجابة التوجيهية عملية كبيرة تشمل الجسم كله . وعندما تزيد الحدة فى البيئة — أى كثرة التغييرات — سترهق بدنك موجة مستمرة من هذه الاستجابات التى تشكل عبئا ثقيلا ومضنيا للبدن .

إنك إذا حملت البيئة بحمل زائد من الجدة فستحصل على ما يقابله من الأشخاص المصابين بالقلق العصبى — أولئك الذين يتدفق الأدرينالين فى أجهزة أجسامهم بشكل مستمر ، وتخفق قلوبهم باستمرار ، وتبرد أيديهم ، ويزيد اختلاج عضلاتهم — فذلك كله من خصائص الاستجابة للتوجيه » .

إن الاستجابة التوجيهية ليست محنة فى حد ذاتها . . إنها منحة الطبيعة للإنسان ، وواحدة من أهم آلياته التى تساعده على التكيف . إنها تزيد من حساسيته ليتلقى معلومات أكثر ، ويسمع ويرى أفضل . وهى أيضا تهيئ عضلاته لأى جهد مفاجئ إذا دعت الحاجة إليه . وباختصار ، فإنها تهيئه للقتال أو الهروب . ولكن ، كما يقول لوبين ، فإن كل استجابة توجيهية تتقاضى نصيبها على حساب بدنك ، لأنها تمتص منه الطاقة اللازمة لعملها .

ومن هنا فإن من بين نتائج الاستجابة التوجيهية إرسال موجة من الطاقة المتحفزة خلال الجسم . فثمة طاقة مختزنة بمواضع مثل العضلات والغدد العرقية . وعندما ينبض الجهاز العصبى كاستجابة للجدة تفرز حويصلاته المتشابكة كميات صغيرة من الأدرينالين والنورأدرينالين ، وهذه بدورها تطلق جزءا من الطاقة المختزنة . وباختصار ، فإن الاستجابة التوجيهية لا تمتص فقط مدد الجسم المحدود من الطاقة المتحفزة ، بل أيضا من مدده المحدود جدا من مطلقات الطاقة (كالأدرينالين والنورأدرينالين) .

وفضلا عن ذلك ، ينبغى أن نشير هنا إلى أن الاستجابة التوجيهية لا تقع

فقط كاستجابة لما تستقبله الحواس ، ولكنها تحدث أيضا عندما تقابلنا أفكار أو معلومات مستجدة ، مثلها فى ذلك تماما مثل الأصوات والرؤى المستجدة . إن إشاعة طازجة نسمعها فى المكتب ، أو مفهوم جديد ، أو حتى نكتة جديدة كفيلة بتحريك الاستجابة التوجيهية .

وتكون عملية الاستجابة التوجيهية مرهفة بنوع خاص عندما تستجد أحداث أو حقائق تتحدى وجهات نظرنا المكتسبة . إن الفرد عندما يكون مسلحا بأيديولوجية محكمة كالكاثوليكية ، أو الماركسية ، أو أى أيديولوجية من هذا القبيل ، فإنه سرعان ما يتعرف (أو يظن أنه تعرف) عناصر مألوفه فى المنبهات المستجدة فيهدأ روعه . والواقع أننا يمكن أن نعتبر الأيديولوجيات بمثابة أرشيف عقلى كبير به كثير من الأدراج والخانات المستعدة لتقبل المعلومات الجديدة . ومن أجل هذا فإن الأيديولوجيات تساعد على تخفيف حدة وتكرار عملية الاستجابة للتوجيه .

فقط عندما لا يكون الجديد ملائما ، عندما يستعصى على الأيديولوجية تقبله ، فهنا تقع الاستجابة التوجيهية . وكمثال نموذجى على ذلك ، حالة الشخص المتدين الذى نشأ على الاعتقاد بأن الله خير لا يقضى إلا خيرا ، ثم إذا به يصطدم بحالة من شر طاغ مكتسح لا معنى له . فما لم تسو هذه الحالة أو تتعدل نظرته هو إلى العالم ، فسيظل يعانى من الانفعال الحاد والقلق العصيب .

إن الاستجابة التوجيهية مرهقة بطبيعتها لدرجة أننا نحس بارتياح عميق عندما تنتهى وعلى مستوى الأفكار أو المدركات ، تكون علامة هذا الارتياح هى ذلك الصوت الذى ينطلق من حناجرنا مرددا : « آه ها » كرد فعل فورى لحظة الانجلاء ، أى عندما نفهم أخيرا شيئا ما كنا فى حيرة من أمره . وقد لا نكون واعين لهذه « الآه ها » إلا فى حالات نادرة ، ولكن الاستجابات التوجيهية و « الآه هات » تحدث باستمرار تحت مستوى الوعى .

وإذن فإن الجدة — كل المستجدات المدركة حسيا — تشعل نشاطا متفجرا داخل الجسم وبخاصة فى الجهاز العصبى . وتجعل الاستجابات

التوجيهية تنطلق داخل كياننا كالمصابيح الوامضة ، وبمعدل يتناسب مع مايحدث فيما حولنا . . فالإنسان والبيئة فى حالة دائمة من التفاعل المختلج .

رد الفعل التكييفى

بينما الحدة فى البيئة ترفع أو تخفض من المعدل الذى تقع به الاستجابات التوجيهية ، فإن بعض الحالات المستجدة تستدعى استجابات أقوى . فهذا الرجل الذى يتهادى بسيارته على أحد الطرق الرئيسية مصغيا إلى الأنغام المنبعثة من الراديو مسلما خياله لمداعبات أحلام اليقظة ، ثم فجأة تقبل سيارة مندفعة فتجبره على أن ينحرف بسيارته عن خط سيرها . لقد كان رد الفعل لديه أوتوماتيكيا وفوريا والاستجابة التوجيهية فى ذروتها . إنه يستطيع أن يحس وجيب قلبه ، وارتعاش يديه ، ويمر بعض الوقت قبل أن يزول عنه توتره .

ولكن ماذا يحدث إذا لم يزل هذا التوتر ؟ ماذا يحدث عندما نوضع فى موقف يتطلب مجموعة مربكة من ردود الفعل البدنية والنفسية لامتصاص ضغط هذا الموقف ؟ ماذا يحدث ، مثلا ، عندما يتعرض الفرد يوما بعد يوم لتعنت رئيسه ومضايقاته ؟ ماذا يحدث عندما يعانى أحد أطفالنا من مرض خطير ؟ أو من ناحية أخرى ، عندما نتطلع بشغف إلى « موعد هام » أو إلى إتمام صفقة هامة ؟

مثل هذه المواقف لا تجدى فى معالجتها الطاقة المتحفزة التى تطلقها بسرعة عملية الاستجابة التوجيهية ، وإنما تحتاج إلى ما يمكن أن نطلق عليه اصطلاح : « رد الفعل التكيفى » . ورد الفعل التكيفى وثيق الصلة بالاستجابة التوجيهية . والواقع أن كلتا العمليتين متضافرتان ، لدرجة أن الاستجابة التوجيهية يمكن أن تعتبر جزءا من عملية رد الفعل التكيفى الأكبر والأشمل ، أو بمثابة المرحلة الأولية منها . ولكن بينما الاستجابة التوجيهية ترتكز أساسا على الجهاز العصبى ، نجد أن رد الفعل التكيفى يعتمد إلى حد كبير على الغدد الصماء وما تفرزه من هرمونات فى مجرى الدم . أى أن خط الدفاع الأول عصبى ، والخط الثانى هرمونى .

وعندما يضطر الأفراد إلى تكرار عملية التكيف مع الجدة ، وبخاصة عندما يكون عملهم أن يتكيفوا مع مواقف معينة تنطوى على التعارض والشك ، فإن غدة فى حجم حبة الفاصوليا هى الغدة النخامية تفرز عددا من المواد . وإحدى هذه المواد – وهى مادة ACTH – تذهب إلى غدتى فوق الكلية دافعة هاتين الغدتين بدورهما إلى إنتـاج مـواد كماوية معينة تسمى الكورتيكوسترويدات . ويزيد انطلاق هذه الكماويات من عمليات التمثيل داخل الجسم . فهى ترفع ضغط الدم . وترسل من خلال الدم بمواد مضادة للالتهابات لتقاوم التلوث فى مناطق الجروح – إن وجدت . ثم تبدأ هذه الكماويات أيضا فى تحويل الدهن والبروتين من طاقة كامنة إلى قوة عاملة مستهلكة بذلك جزءا من مخزون الطاقة الاحتياطى للجسم . ومن ثم فإن رد الفعل التكيفى يطلق ويمتص قدرا أكبر وأفعل من الطاقة من ذلك الذى تطلقه أو تمصه الاستجابة التوجيهية .

ومثل الاستجابة التوجيهية ، فإن رد الفعل التكيفى بدوره ليس أمرا نادر الحدوث . إن تنبيهه يحتاج إلى وقت أطول . كما أنه يدوم لفترة أطول ، ولكنه يحدث مرات لا حصر لها خلال يوم واحد ، مستجيبا للتغييرات التى تقع فى بيئتنا المادية والاجتماعية . ورد الفعل التكيفى ، الذى يطلق عليه فى بعض الأحيان اصطلاح درامى هو اصطلاح « الإرهاق » . يمكن أن ينطلق بفعل التحولات والتغيرات التى تقع فى المناخ النفسى المحيط بنا . فالقلق والتوتر والصراع ، والشك ، وحتى التوقعات السعيدة والجدل والمرح ، كلها تحرك مصنع الـ ACTH إلى العمل والإنتاج . ومجرد توقع انتظار التغيير يمكن أيضا أن ينبه رد الفعل الإدراكى . إن رغبة الفرد فى أن يعدل أسلوب حياته ، أو فى استبدال عمله بعمل آخر ، والضغوط الاجتماعية ، وعدم ثبات الأوضاع ، وتعديلات أسلوب الحياة ، وفى الحقيقة أى شئ يضطرنا إلى مواجهة المجهول يمكن أن يثير رد الفعل التكيفى .

لقد أثبت الدكتور لينارت ليفى ، مدير معمل الإرهاق فى مستشفى كارولينسكا بستوكهولم ، مثلا ، أنه حتى التغييرات الصغيرة فى المناخ

العاطفى ، أو العلاقات المتبادلة ، يمكن أن تنتج تغييرات ملحوظة فى كيمياء الجسم . فالإرهاق كان يقاس عادة بكمية الكورتيكوستر ويدات والكاتيكولامينات (كالأردينالين والنورأدرينالين مثلا) التى توجد فى الدم والبول . وفى سلسلة من التجارب استخدم ليفى الأفلام لإحداث الإثارة العاطفية . ثم سجل التغييرات الكيمائية .

لقد عرضت على مجموعة من طلبة الطب السويديين الذكور مقتطفات فيلمية تمثل جرائم قتل ، ومعارك ، وتعذيب ، وإعدام ، وقسوة على الحيوانات . وبفحص بولهم قبل وبعد المشاهدة اتضح أن نسبة الأدرينالين فيه قد ارتفعت بمتوسط سبعين فى المائة ، والنورأدرينالين بمتوسط خمسة وثلاثين فى المائة . أما المجموعة الثانية فكانت من موظفات المكاتب الشابات . وقد عرض عليهن أربعة أفلام مختلفة فى أربع ليال متتالية . وكان الفيلم الأول فيلما رقيقا من أفلام الرحلات ، وكانت النتيجة أنهن أظهرن إحساسا بالهدوء والاتزان وهبط إفراز الكاتيكولامينات لديهن . وفى الليلة الثانية شاهدن فيلم ستانلى كوبريك « مسالك المجد » ، فلوحظ عليهن الإثارة الحادة والغضب وارتفاع فى إفراز الأدرينالين . وفى الليلة الثالثة شاهدن فيلم « عمة شارلى » فأغرقن فى الضحك . وبرغم مشاعر الابتهاج والمرح ، وخلو الفيلم من أى مشاهد للقسوة أو العدوان ، فقد ارتفع إفراز الكاتيكولامينات لديهن مرة أخرى . وفى الليلة الرابعة عرض عليهن فيلم « قناع الشيطان » وهو فيلم مثير صرخن بالفعل فزعا وهن يشهدنه . وكما كان متوقعا فقد ارتفع إفراز الكاتيكولامينات ارتفاعا كبيرا . وباختصار ، فإن الاستجابة العاطفية — بصرف النظر عن نوعيتها — يصحبها (أو بالأصح تعكس) إثارة لنشاط غدة فوق الكلية .

وقد تكرر الوصول إلى نتائج مماثلة فى عدد من التجارب التى أجريت على رجال ونساء ، ناهيك بالفئران والكلاب والغزلان وغيرها من حيوانات التجارب والتى أجريت عليها تجارب « حقيقية » . ولقد تشابهت النتائج المتحصلة من التجارب التى أجريت على أشخاص مختلفين وفى

ظروف متباينة : بحارة فى أثناء التدريب على النسف تحت الماء ، ورجال يعملون بالمحطات النائية بالقطب الجنوبى ، ورواد فضاء ، وعمال مصانع ، ومديرين — فقد أظهر الجميع نفس الاستجابة الكيميائية للتغيير فى البيئة الخارجية .

وبالرغم من أن المتضمنات الكاملة لهذا لم تكد تستقر بعد ، إلا أن هناك قرائن متزايدة على أن التنبيه التكيفى يمكن أن يكون شيئا مدمرا ، وأن التنشيط الزائد للغدد الصماء يؤدى إلى « بلى بالاستعمال » لا يسترد أو يستعاض . وبالتالى فإن الدكتور رينيه دوبو مؤلف كتاب (الإنسان والتكيف) يحذرنا من أن الظروف المشحونة بالتغيير من مثل : « مواقف المنافسة ، والعمل وسط بيئات مزدحمة ، تغير بشكل واضح من إفراز الهرمونات . ويستطيع الإنسان أن يرى ذلك بوضوح فى البول والدم . إن مجرد الاحتكاك بموقف إنسانى معقد ينبه ، بشكل يكاد يكون أتوماتيكيا كل نظام الغدد الصماء » .

ثم ماذا ؟

إن دوبو يعلنها واضحة صريحة : « ليس ثمة شك على الإطلاق فى أن الإنسان يمكن أن يسرف فى استثارة نظام الغدد الصماء ، ولا فى أن لذلك آثاره الفسيولوجية التى تستمر بطول عمر الأعضاء » .

منذ سنوات مضت ، قرر الدكتور هانز سيلى — وهو من الرواد الباحثين فى الاستجابات التكيفية للجسم — : « أن الحيوانات التى تتعرض لإرهاق حاد طويل المدى ، أيا كانت مسبباته ، تعانى من الاضطراب الجنسى .. وقد أثبتت الدراسات الكلينيكية حقيقة أن الناس الذين يتعرضون للإرهاق يحدث لديهم نفس ردود الفعل التى تحدث لدى حيوانات التجارب فى هذا الخصوص . فى النساء تضطرب مواعيد الحيض أو ينقطع نهائيا . وفى فترات الإرضاع قد لا يكفى إفراز اللبن حاجة الطفل . وفى الرجال يضعف الحافز الجنسى وتكوين الخلايا المنوية » ..

ومنذ ذلك الحين ، وخبراء مشكلات السكان ، وأخصائيو البيئات ،

يكدسون القرائن القوية الدالة على أن التجمعات التى تتعرض للإرهاق الشديد ، سواء كانت من الفئران ، أو الغزلان ، أو البشر ، يكون مستوى الإخصاب لديها أقل من مستواه لدى الجماعات الأقل إرهاقا . فالازدحام على سبيل المثال – والذى يتضمن مستوى دائما ومرتفعا من التفاعلات المتبادلة ، ويضطر الفرد إلى زيادة هائلة فى تكرار عمليات رد الفعل التكيفى – قد ثبت ، على الأقل بالنسبة للحيوانات أنه يسبب تضخما فى غدتى فوق الكلية ، وانخفاضا ملحوظا فى الخصب .

إن الإطلاق المتكرر لعمليات الاستجابة التوجيهية ، ورد الفعل التكيفى بما يسببه من زيادة العبء على الجهاز العصبى ، ونظام الغدد الصماء ، مرتبط أيضا بأمراض واضطرابات بدنية أخرى . فالتغيير السريع فى البيئة يؤدى إلى عمليات سحب متكررة من موارد الطاقة فى الجسم ، وبالتالى إلى زيادة فى تمثيل الدهن ، وهذا بدوره يخلق صعوبات خطيرة لبعض مرضى السكر . وحتى البرد العادى ، ثبت أنه يتأثر بمعدل التغيير فى البيئة . فقد قرر الدكتور هينكل – بعد دراسات أجراها – أن تكرار الإصابة بالبرد بالنسبة لعينة من النساء نيويورك العاملات كان متلازما مع « التغييرات فى مزاج المرأة وفى أشكال نشاطها ، كاستجابة لعلاقاتها المتغيرة مع الناس المحيطين بها ، والأحداث التى عاينتها » .

وباختصار ، لو فهمنا سلسلة الأحداث البيولوجية التى يثيرها ما نبذل من جهد فى التكيف مع التغيير والجدة ، فسنبدأ فى تفهم سر الارتباط الوثيق بين التغيير والصحة . إن مكتشفات هولمز ، وراى ، وآرثر ، وغيرهم من المشتغلين ببحوث التغيير فى الحياة ، منسجمة ومتناغمة تماما مع ما يجرى من بحوث فى علم الغدد وعلم النفس التجريبى ، وواضح جدا أنه من المستحيل أن نسارع من معدل التغيير فى المجتمع ، أو نرفع نسبة الجدة فيه ، دون أن نثير تغييرات هامة فى كيمياء الجسم لدى السكان . إننا بالتعجيل من خطى التغيير فى المجالات العلمية والتكنولوجية والاجتماعية ، إنما نعبث فى نفس الوقت بالاستقرار الكيميائى والبيولوجى للجنس البشرى .

وهنا يجب أن نضيف فورا أن ذلك ليس بالضرورة أمراً سيئاً . فالدكتور هولمز يذكرنا بأن « هناك أشياء أسوأ من المرض » . كما يقول الدكتور سيلى : « لا يستطيع الإنسان أن يعيش دون معاناة لدرجة ما من الإرهاق طول الوقت » . إن إزالة عمليات الاستجابة التوجيهية ورد الفعل التكيفى معناها إزالة كل تغيير بما فى ذلك النمو ، والتطور ، والنضج ، وتفترض سلفا حالة من الجمود الكامل . إن التغيير ليس ضروريا للحياة فحسب ، بل إنه الحياة ذاتها . وبنفس المعنى فإن التكيف هو الحياة .

ومع ذلك فثمة حدود للقدرة على التكيف . فعندما نعدل من أسلوب حياتنا ، وعندما نقيم ونقطع علاقاتنا بالأشياء ، والأمكنة والناس ، وعندما نكون فى حركة تنقل لا تهدأ بين معالم الجغرافيا التنظيمية للمجتمع ، وعندما نتعلم الجديد من الأفكار ونستوعب الجديد من المعلومات ، فإننا نتكيف ، أى نعيش . ولكن هناك حدودا لكل ذلك . فلسنا بمرنين إلى ما لا نهاية . إن كل استجابة توجيهيه ، وكل رد فعل تكيفى ، يقتضينا ثمنا . إنها تبلى آليات الجسم شيئا فشيئا إلى أن تحدث دمارا واضحا فى أنسجتها .

وهكذا يظل الإنسان كما كان دائما : كائنا بيولوجيا ذا قدرة محددة على التغير . وعندما تحمل قدرته بما لا قبل لها به ، فإن النتيجة هى صدمة المستقبل .

الفصل السادس عشر

صدمة المستقبل : الأبعاد النفسية

لو كانت صدمة المستقبل مرضا بدنيا فقط لسهل أمر الوقاية منه وعلاجه . ولكن صدمة المستقبل تهاجم النفس كما تهاجم الجسم . وكما يتصدع الجسم تحت ضغط زيادة المنبهات البيئية . كذلك « العقل » وما يقوم به من عمليات يتوه ويشرد عندما يحمـــل بما فوق طاقته . وعندما نعمل بلا تمييز على الإسراع بآلة التغيير ، فإننا لا نخرب فقط صحة أولئك الأقل قدرة على التكيف ، بل أيضا قدرتهم على التصرف فى شئونهم برشد .

إن ما نشهده فيما حولنا من تفاقم لحالات الانهيار والاضطراب النفسى — كانتشار المخدرات ، والخرافة ، والانفجارات العفوية المتكررة للعنف والتخريب ، والتيارات السياسية العدمية والارتكاسية ، والملايين من ضحايا التبلد المرضى — نستطيع أن نفهمه فهما أحسن إذا ما تعرفنا إلى العلاقة بين كل هذه الظواهـــر وبين صـــدمة المستقبل . فكل هذه الأشكال من اللاعقلانية الاجتماعية قد تكون انعكاسا لتدهور قدرة الفرد على اتخاذ القرارات تحت ظروف فرط التنبيه فى بيئته .

لقد دلل أخصائيو الطب النفسى ، من الدارسين لتأثير التغيير فى أعضاء الجسم المختلفة ، على أن التكيف الناجح يحدث فقط عندما يكون مستوى التنبيه — كمية التغيير والجدة فى البيئة — غير شديد الارتفاع أو الانخفاض . فيقول البروفيسور د . أ . بيرلين من جـــامعة تورنتو : « إن الجهاز العصبى المركزى فى الحيوانات العليا مصمم للتكيف مع بيئة تنتج معدلا معينا من التنبيه . . . وهو بالطبع لن يقدر على أداء وظيفته على خير وجه فى بيئة تحمله فوق جهده » . ثم يقول نفس الشئ عن البيئة التى لا تمد الجهاز العصبى المركزى إلا بأقل القليل من التنبيه . والواقع أن كل التجارب التى

أجريت على الغزلان والكلاب ، والفئران والرجال ، تشير بشكل قاطع إلى وجود ما يمكن أن نسميه « المدى التكيفى » . وفوق هذا المدى أو تحته تتفكك قدرة الفرد على التكيف .

وصدمة المستقبل ، ما هى إلا استجابة لفرط التنبيه . وهى تقع عندما يضطر الفرد إلى أن يعمل بما يفوق مداه التكيفى . لقد كرست بحوث كثيرة لدراسة تأثير التغيير والجدة غير الكافيين على الأداء الإنسانى . فأجريت دراسات على الرجال الذين يعيشون فى المحطات القطبية المنعزلة وتجارب على فساد الحساسية وفحوص لمستوى الأداء فى المصانع ، أسفرت كلها عن تدهور القدرات العقلية والبدنية كاستجابة لنقص التنبيه . أما المتوافر لدينا من البيانات المباشرة ، عن تأثير فرط الاستثارة ، فأقل . ولكن القرائن الموجودة بالفعل مثيرة ومقلقة .

عندما يتعرض الفرد لفرط التنبيه

عالبا ما يجد الجنود فى أثناء المعركة أنفسهم حبيسى بيئات سريعة التغيير وغير مألوفة ، ولا يمكن التنبؤ بما هو آت . وتتنازع الجندى عوامل تنبيه عديدة . فالقنابل تنفجر فى كل مكان ، وأزيز الرصاص يصفر فى أذنيه ووهج القذائف المضيئة يملأ السماء ، والصرخات وآهات الألم ، وأصوات الانفجارات تملأ سمعيه ، والظروف تتغير من لحظة لأخرى . وحتى ينجـــو الجندى من مثل هذه البيئات المفرطة التنبيه ، فإنه يضطر إلى العمل بأقصى ما يمكن أن يصل إليه مـــداه التكيفى . وفى بعض الأحيان يدفع دفعا إلى تجاوز هذا المدى .

خلال الحرب العالمية الثانية ، وفى أثناء إحدى المعارك التى خاضتها قوات الجنرال ونجيت التى كانت تعمل خلف خطوط اليابانيين فى بورما ، إذا بجندى ملتح من الشنديت يقع فى سبات عميق ، وعاصفة من رصاص المدافع الرشاشة تدوى من حوله ! ! وقد كشف الفحص والتحرى فيما

بعد أن هذا الجندى لم يسقط نائما بفعل الإرهاق البدنى ، أو الحاجة إلى النوم فحسب ، وإنما استسلاما لشعور قاهر طاغ من التبلد . . ! !

والواقع ، أن حالات الكلال المحبذة للموت كانت شائعة بين قوات العصابات المتغلغلة خلف خطوط العدو ، لدرجة أن الأطباء العسكريين البريطانيين وضعوا لها اصطلاحا هو « إجهاد التغلغل البعيد المدى » . وحسبما وصف به هؤلاء الأطباء هذه الحالة فإن الجندى الذى يعانى منها يصبح : « غير قادر على القيام بأبسط الأشياء لنفسه . ويبدو عليه أن له عقلية طفل » . ولم تكن هذه الحالات من البلادة المميتة وقفا على قوات العصابات ، فبعد عام واحد من حادثة جندى الشينديت التى أشرنا إليها ظهرت أعراض مشابهة على آلاف من قوات الحلفاء التى غزت نورماندى وقرر الباحثون البريطانيون، بعد دراسة ٥٠٠٠ حالة بين أفراد القوات الأمريكية والبريطانية، أن هذه البلاد الغريبة كانت بمثابة المرحلة النهائية من عملية انهيار نفسى مركبة .

فالتدهور النفسى بدأ بالتعب . ثم تبعه الاضطراب والتوتر العصبى ، وأصبح الرجل شديد الحساسية لأى منبه فيما حوله مهما كانت ضآلته ، وظهرت عليه علامات الذهول ، وبدا غير قادر على التمييز بين صوت نيران العدو وبين غيره من الأصوات الأقل خطرا ، وصار متوترا قلقا ، سريع الغضب ، لا يعلم رفاقه مطلقا متى سينفجر غضبه أو عنفه استجابة لأتفه الأسباب .

وعندئذ تبدأ المرحلة النهائية للإنهاك العاطفى . فيظهر على الجندى أنه فقد مجرد الرغبة فى الحياة ! ! . لقد كف عن أى محاولة لحماية نفسه أو السلوك برشد إبان المعركة . لقد أصبح — حسب تعبير ر . ل . سوانك رئيس فريق الباحثين البريطانيين الذى قام بالدراسة — : « بليداً فاتر الهمة ... متخلفا عقليا وبدنيا ، شاردا » وحتى وجهه أصبح متبلدا غبيا . لقد انتهى النضال من أجل التكيف بالهزيمة ، ووصل إلى مرحلة الانسحاب الكامل .

ومثل حالة هؤلاء الرجال الذين يتصرفون بغير رشد ، ويعملون ضد مصلحتهم الواضحة الجلية عندما يلقى بهم وسط ظروف التغير السريع والجدة الزائدة — كشفت الدراسات التى أجريت على السلوك البشرى فى أثناء الحرائق والفيضانات والزلازل وغيرها من الكوارث عن وجودها أيضا فى أثناء هذه الكوارث . حتى أكثر الناس توازنا واستقرارا ، ودون أى إصابة بدنية ، يمكن أن يدفع بهم إلى حالات من العجز عن التكيف يتحولون فيها إلى مخلوقات مضطربة لا عقل لهـــا ، وغير قادرة على اتخاذ قرار رشيد حتى فى أبسط الأمور .

وفى دراسة عن الاستجابات لأعاصير التورنادو فى تكساس ، كتب ه . أ . مور يقول : « قد يكون رد الفعل الأول هو حالة من الذهـــول وأحيانا من عدم التصديق أو على الأقل عدم تقبل الحقيقة . ويبدو أن هذا هو السر فيما لوحظ على سلوك الأفراد والجماعات فى مدينة واكو عندما دهمها الإعصار فى سنة ١٩٥٣ . . . فهو — على المستوى الشخصى — يفسر لمـــاذا دخلت فتاة إلى محل للموسيقى من خلال واجهة « فترينة » العرض المحطمة ، وبمنتهى الهدوء اشترت أسطوانة وخرجت ثانية ، بالرغم أن الواجهة الزجاجية للمبنى كانت تتحطم وقطع الزجاج تتطاير إلى داخل المبنى !! » .

وفى دراسة عن أحد إعصارات التورنادو التى دهمت مدينة أودال فى ولاية كانساس ، جاء على لسان إحدى ربات البيوت ما يلى : — « بعد أن انتهى الإعصار نهضت أنا وزوجى وقفزنا من النافذة وأطلقنا سيقاننا للريح . . . ، لم أعلم إلى أين نجرى . . . ولكنى لم أعر ذلك اهتماما . . . فقط أردت أن أجرى ! ! أما الصورة الكلاسيكية للكارثة فترينا أما تحتضن طفلا جريحا أو ميتا ووجها جامداً وخالياً من أى تعبير كما لو كانت قد فقدت الإحساس بالواقع فيما حولهـــا . وفى بعض الأحيان تكون الصورة لأم جالسة تتأرجح فى شرفة بيتها فى هدوء على مقعدها ، وقد احتضنت دمية بدلا من الطفل .

إذن ، ففى الكوارث ، كما فى المعارك ، يتعرض الأفراد للانهيار النفسى . ومرة أخرى نستطيع أن نرجع السبب فى ذلك إلى فرط التنبيهات البيئية . إن ضحية الكارثة يجد نفسه فجأة وسط موقف تغيرت فيه الأشياء والعلاقات المألوفة . إن ما كان بالأمس بيته قد يصبح الآن مجرد أنقاض يتصاعد منها الدخان . وقد يمر به كوخ اقتلعه الفيضان وحمله تياره أو يرى قارب تجديف طائرا فى الهواء . لقد امتلأت البيئة بالتغيير والجدة . ومرة أخرى نرى نفس الطابع المتميز للاستجابة : « الاضطراب والقلق والتوتر والانسحاب إلى حالة التبلد » .

إن صدمة الثقافة – وهى الشعور القوى بالضياع الذى يعانى منه المسافر الذى يزج بنفسه دون استعداد كاف وسط ثقافة غريبة – تعطينا مثالا ثالثا على الانهيار التكيفى . وهنا لن نجد مثل تلك العناصر التى رأيناها فى حالات المعارك الحربية والكوارث ، فقد يكون المشهد كله سلميا ولا يتضمن أى مخاطرة .

ومع ذلك فإن الموقف يتطلب سلسلة متكررة من عمليات التكيف مع الظروف المستجدة بالنسبة للمسافر . إن صدمة الثقافة هى ، كما يقول الاخصائى النفسى سفين لوندستد : « شكل من سوء التوافق فى الشخصية يحدث كرد فعل للفشل المؤقت فى محاولة التوافق مع ما يحيط بالمرء من ظروف جديدة وأشخاص جدد » .

إن الشخص المصاب بصدمة الثقافة ، مثله فى ذلك كمثل الجندى ، أو ضحية الكارثة ، يجد نفسه مضطرا إلى مواجهة أحداث وأشياء وعلاقات غير مألوفة أو متوقعة . وإن أساليبه المعتادة فى معالجة الأمور – حتى البسيط منها كإجراء محادثة تليفونية – لم تعد أساليب مجدية . إن المجتمع الغريب نفسه قد يكون مجتمعا جامدا أو بطئ التغيير ، ولكن كل ما فيه جديد بالنسبة للوافد . إن الإشارات والأصوات وغيرها من المشعرات السيكولوجية تمر به قبل أن يتمكن من إدراك معانيها . وتأخذ التجربة كلها جواً سيرياليا . وكل كلمة ، وكل حركة تنطلق ، محملة بالشك .

وفى مثل هذا المناخ ، يحل التعب بأسرع مما هو معتاد . ومع التعب يعانى الوافد ما وصفه لوندستد بأنه : « إحساس ذاتى بالضياع ، وشعور بالعزلة والوحدة » .

إن شعور الفجأة الناتج من الجدة يتعدى على إحساسه بالواقع ، ومن ثم فإنه – كما يقول البروفيسور لوندستد – : « يحترق شوقا إلى بيئة يكون فيها إشباع حاجاته المادية والنفسية متوقعا وأكثر وثوقا » . ثم بعد ذلك يصبح : « قلقا ، ومضطربا ، وتغلب عليه مظاهر البلادة » . ثم يختتم لوندستد قائلا : « يمكننا أن نصف صدمة الثقافة بأنها استجابة للإرهاق بالانسحاب العاطفى والفكرى » . من الصعب أن نقرأ كل هذه الأوصاف (وغيرها) لانهيار السلوك تحت ضغوط متنوعة للإرهاق دون أن يسترعى انتباهنا ما بينها من تماثل . ومع التسليم بما هنالك من فروق بين الجندى فى المعركة وضحية الكارثة والمصاب بصدمة الثقافة ، فإن كلا من الثلاثة قد واجه التغيير السريع ، أو الجدة الزائدة ، أو كليهما . كما كان الثلاثة جميعا مطالبين بالتكيف السريع والمتكرر مع منبهات غير متوقعة . ثم إن هناك توازيا واضحاً بين السبل التى سلكها كل منهم فى الاستجابة لهذا التنبيه الزائد .

فأولا ، نجد نفس أعراض الاضطراب ، وسوء التوافق ، وتشويه الواقع . وثانيا ، نلاحظ نفس علائم التعب ، والقلق ، والتوتر ، وثالثا ، يبدو فى كل الحالات أن هناك نقطة للاعودة – نقطة يحل عندها التبلد والانسحاب العاطفى .

وباختصار ، فإن كل القرائن المتوافرة توحى إيحاء قويا بأن فرط التنبيه قد يؤدى إلى تصرفات شاذة نتيجة للعجز عن التكيف .

الهجوم على الحواس

مازال ما نعلمه عن هذه الظاهرة أقل من أن يعطينا الحق فى القول الفصل عن السر فيما يبدو من أن فرط التنبيه ينتج ذلك السلوك الدال على العجز عن التكيف . ومع ذلك فإننا نلتقط بعض القرائن الهامة إذا ما أدركنا أن

فرط التنبيه يقع على ثلاثة مستويات ، على الأقل ، هى : المستوى الحسى ، والمستوى الإدراكى ، ومستوى الحسم أو القرار* .

وأقرب هذه المستويات إلى الفهم هو المستوى الحسى ؛ فقد أوضحت تجارب التجريد من الحس ، التى يعزل فيها المتطوعون عن المنبهات الطبيعية لحواسهم ، أن غياب المنبه الحسى المستجد يمكن أن يؤدى إلى الذهول وإفساد العمل الذهنى . وعلى أساس من نفس القاعدة ، فإن تلقى الكثير من المنبهات الحسية غير المنسقة ، والمشوشة قد يحدث تأثيرات مماثلة . ومن هنا كان اتجاه الممارسين لعمليات غسيل المخ السياسية أو الدينية إلى عدم استخدام التجريد الحسى وحده (كالعزل الانفرادى مثلا) وإنما أيضا إلى مهاجمة الحواس بوسائل تشمل الأضواء الوامضة والتغيير السريع للأشكال والألوان ، والمؤثرات الصوتية المشوشة — وكل ترسانة السيكوديليك المشكالية .

إن ما نلحظه من هوس دينى وسلوك شاذ على بعض طوائف الهيبيين قد لا يكون من نتائج تعاطى المخدرات فحسب ، بل أيضا من تجارب الجماعة فى ممارسة أساليب التجريد الحسى ومهاجمة الحواس . إن الترتيل الرتيب للترانيم ، ومحاولة تركيز فكر الفرد على مشاعره الداخلية لعزله عن المنبهات الخارجية ، كل هذه من قبيل محاولات إحداث التأثيرات الغريبة لنقص التنبيه ، والتى تصل أحيانا إلى الهلوسة .

وعند الطرف الآخر للسلم ، نلاحظ تلك النظرات الزجاجية والوجوه المتبلدة الخالية من التعبير للراقصين من الشباب فى قاعات موسيقى الروك الكبيرة حيث الأضواء المتغيرة ، وشاشات السينما المجزأة ، والصرخات الحادة ، والنداءات المدوية ، والتأوهات ، والأزياء العجيبة المتنوعة ، والأجسام التى تصبح بشرتها رسوما من كل شكل ولون ، تلف وتدور وتختلج ليخلق كل هذا بيئة حسية تتسم بزاد وفير من الجدة والفجأة .

---

* إن الخطوط الفاصلة بين هذه المستويات الثلاثة ليست واضحة تماما حتى لدى الأخصائيين النفسيين . ولكننا نستطيع أن نتحاشى الكثير من الخلط إذا ما عادلنا — بأسلوب المعنى العام — المستوى الحسى بعملية الوعى ، والمستوى الإدراكى بعملية التفكير ، ومستوى الحسم بعملية صنع القرار .

إن قدرة أى كائن عضوى على مواجهة الزائد الحسى تتوقف على بنائه الفسيولوجى . إن طبيعة أعضائه الحسية والسرعة التى تتدفق بها النبضات خلال جهازه العصبى تفرض حدودا بيولوجية على كمية المعطيات الحسية التى تستطيع تقبلها . فلو فحصنا سرعة انتقال الإشارة داخل الكائنات المختلفة لوجدنا أنه كلما هبط مستوى التطور أبطأت حركة الإشارة . وهكذا نجد ، على سبيل المثال ، أنه فى بيضة قنفذ البحر ، التى تفتقر إلى جهاز عصبى بالمفهوم المعروف ، تنتقل الإشارة خلال عظمة غشائية بسرعة سنتيمتر واحد فى الساعة . وواضح أنه بمثل هذا المعدل لا يستطيع الكائن أن يستجيب إلا لجزء محدود جدا من بيئته . فإذا ما صعدنا سلم التطور إلى السمك الهلامى بجهازه العصبى البدائى ، ارتفعت سرعة الإشارة ٣٦,٠٠٠ مرة ، ووصلت إلى عشرة سنتيمترات ، فى الثانية . أما فى الدودة فتبلغ السرعة ١٠٠ سم فى الثانية ، وبين الحشرات والقشريات ١٠٠٠ سم فى الثانية ، أما بين القردة العليا فتصل سرعة الإشارة إلى ١٠,٠٠٠ سم فى الثانية . وبالرغم من أن هذه الأرقام ليست دقيقة إلا أنها تفسر لماذا كان الإنسان بلا جدال من أقدر المخلوقات على التكيف .

ومع ذلك ، وحتى بالنسبة للإنسان الذى تصل سرعة انتقال الإشارات فى جهازه العصبى إلى ٣٠,٠٠٠ سم فى الثانية ، فإن النظام البيولوجى يفرض حدوده (الإشارات الكهربية فى الكومبيوتر على سبيل المقارنة أسرع من ذلك ببلايين المرات) . إن قصور قدرة أعضاء الحس والجهاز العصبى يعنى أن الكثير من الأحداث البيئية يقع بمعدلات أسرع من أن نستطيع تتبعها . ومن ثم فإن خبرتنا فى أحسن حالاتها لا تعدو أن تكون عينات مما يقع فى البيئة . وعندما تكون الإشارات التى تصل إلينا منتظمة وتكرارية ، فإن عملية انتقاء العينات هذه تستطيع أن تعطى صورة ذهنية لا بأس بها للواقع . ولكن عندما تكون على درجة عالية من عدم الانتظام ، عندما تكون مستجدة وغير متوقعة ، فإن دقة تصورنا بالضرورة سوف تتناقص ، وتتشوه صورة الواقع فى أذهاننا . ولعل فى هذا ما يفسر لماذا عندما نتعرض لفرط التنبيه ، فإننا نعانى الاضطراب وتمويه الخط الفاصل بين الحقيقة والوهم .

إذا كان فرط التنبيه عند المستوى الحسى يزيد من تشويه وعينا للواقع ، فإن فرط التنبيه عند المستوى الإدراكى يتدخل فى قدرتنا على « التفكير » . وبينما تكون بعض الاستجابات البشرية للجدة تلقائية ، فإن البعض الآخر يكون مسبوقا بالتفكير الواعى . ويتوقف هذا على قدرتنا على امتصاص المعلومات ومعالجتها ، وتقويمها « تقييمها » والاحتفاظ بها .

إن السلوك الراشد ، بنوع خاص ، يعتمد على التدفق المستمر لمعطيات البيئة . إنه يعتمد على قدرة الفرد على التنبؤ الصحيح ، على الأقل لدرجة مقبولة ، بمعقبات أفعاله . وحتى يقدر على ذلك فلابد بالتالى من أن يكون قادرا على التنبؤ بما ستستجيب به البيئة لهذه الأفعال . إن سلامة العقل ذاتها معلقة بقدرة الإنسان على التنبؤ بمستقبله الشخصى القريب على أساس من المعلومات التى تغذيه بها البيئة .

عندما يزج بالفرد فى موقف سريع وغير منتظم التغيير أو فى بيئة مفعمة بالجدة ، فإن قدرته على التنبؤ الدقيق تهبط ، ولا يعد يستطيع عمل التقديرات السليمة التى يعتمد عليها السلوك الراشد .

ومن أجل استعواض هذا ، والارتفاع بدقة تنبوءه مرة أخرى إلى المستوى المعتاد ، ينبغى أن يغترف ويعالج المعلومات بأكثر مما كان يفعل من قبل . كما ينبغى أن يفعل ذلك بمعدلات فائقة من السرعة . وباختصار كلما زادت معدلات الجدة وسرعة التغيير فى البيئة، زاد بالتالى ما يحتاج الفرد إلى معالجته من المعلومات حتى يستطيع أن يتخذ قرارات راشدة وفعالة .

ولكن ، كما أن ثمة حدودا لما نقدر على تقبله من زاد حسى ، كذلك فإن هناك قيودا مفروضة على قدرتنا على معالجة المعلومات . وتنص كلمات الاخصائى النفسى چورچ أ . ميللر ، من جامعة روكفلر : « هناك قيود شديدة على مانستطيع استقباله ومعالجته، وتذكره من المعلومات » . وقد نستطيع من خلال تصنيف المعلومات وتلخيصها ووضعها فى صيغ رمزية بأساليب مختلفة ، أن نمط هذه القيود ، ولكن هناك أدلة قاطعة على أن قدراتنا على ذلك محدودة .

ولاكتشاف هذه الحدود ، شرع أخصائيو علم النفس ونظريات الاتصال فى اختبار ما سموه : « قدرة القناة » فى الكائن البشرى . ومن أجل هذه التجارب اعتبروا الإنسان بمثابة « قناة » تدخل إليها المعلومات من الخارج ، وبعد أن تعالج تخرج فى شكل أفعال مؤسسة على قرارات . وتقاس سرعة ودقة ومعالجة المعلومات بمقارنة سرعة المعلومات الداخلة بسرعة ، ودقة الأفعال والقرارات الناتجة .

ثم عينوا المعلومات فنيا وقسموها إلى وحدات أطلقوا عليها اسم « القطع »* وحتى الآن استطاعت التجارب أن تضع معدلات لمعالجة المعلومات فى محيط واسع التنوع من الأفعال : من القراءة ، والكتابة على الآلة الكاتبة ، والعزف على البيانو ، إلى إجراء عمليات الحساب العقلية . وبينما يختلف الباحثون من حيث دقة الأرقام ، إلا أنهم يتفقون بشدة على مبدأين أساسيين : الأول : أن للإنسان قدرة محدودة . والثانى أن زيادة الحمل على الجهاز العصبى تؤدى إلى تدهور خطير فى الأداء .

تخيل مثلا عاملا على خط تجميع بمصنع ينتج لعب البناء للأطفال ، عمله أن يضغط على زر ما كلما مر مكعب أحمر على السير الناقل الذى أمامه . فمادام السير يتحرك بسرعة معقولة فلن يلاقى هذا العامل أى صعوبة فى عمله . وسوف تقترب دقته إلى مائه فى المائة . إننا نعرف أنه لو كانت حركة السير بطيئة جدا ، فإن فكره سيتشتت وسيتدهور أداؤه . ونعرف أيضا أنه إذا تحرك السير سريعا جدا فسوف يتردد ويخطئ ويضطرب ويفقد تماسكه ، كما سيصبح على الأرجح متوترا مهتاجا . وقد يضرب الماكينة بدافع من الإحباط الخالص . وأخيرا سيكف عن محاولة متابعة السير فى سرعة حركته .

فى المثال السابق ، كانت المعلومات المطلوبة متسمة بالبساطة ، ولكن فلنتصور مهمة أكثر تعقيدا : فالمكعبات المتدفقة على السير الآن متعددة

---

* القطعة هى كمية المعلومات اللازمة لاتخاذ قرار من بين بديلين متساويين من حيث الاحتمال . ويزيد عدد القطع بالواحد فى حين أن عدد البدائل يتضاعف .

الألوان، والتعليمات المعطاة للعامل هى الضغط على الزر عندما يظهر نسق معين من الألوان – مثلا مكعب أصفر متبوعا بمكعبين أحمرين ثم بمكعب أخضر . فى هذه الحالة سيتلقى ويعالج معلومات أكثر من قبل أن يقرر هل يضغط على الزر أم لا ؟ فى هذه الحالة لوزادت سرعة السير فسيعانى صعوبة أكبر مما عاناه فى الحالة الأولى .

فلو زدنا المهمة صعوبة بأن فرضنا على العامل ليس مجرد معالجة كمية أكبر من المعلومات قبل أن يقرر هل يضغط الزر أم لا ؟ وإنما أيضا أن يقرر أى زر من بين عدة أزرار سيضغط عليه . وقد نخالف أيضا بين عدد المرات التى سيضغط فيها على كل زر – لقد أصبحت التعليمات المعطاة له الآن تقول : بالنسبة للنسق أصفر – أحمر – أحمر – أخضر . اضغط على الزر رقم اثنين مرة واحدة . وبالنسبة للنسق أخضر – أزرق – أصفر – أخضر – اضغط على الزر رقم ستة ثلاث مرات ، وهكذا . . مثل هذه المهام تتطلب من العامل معالجة كمية ضخمة من المعلومات حتى يستطيع أداء عمله ، وفى هذه الحالة لو زادت سرعة السير ، فستتدهور دقة أدائه بأكثر وأسرع مما حدث فى المثلين السابقين .

لقد صعدت مثل هذه التجارب حتى وصلت إلى مستويات مفزعة من التعقيد . فشملت الاختبارات الأضواء الوامضة ، والأنغام الموسيقية ، والحروف ، والنماذج ، والكلمات المنطوقة ، وتشكيلة واسعة من المنبهات الأخرى . . إن الذين طلب إليهم ممن أجريت عليهم الاختبارات أن ينقروا بأطراف أصابعهم ، والنطق بعبارات ، وحل ألغاز ، وأداء طائفة منوعة من غير ذلك من المهام ، قد تضاءلوا فى أثناء الاختبارات إلى حالات يرثى لها من الحمق والتخبط .

لقد أسفرت النتائج ، بجلاء لا لبس فيه ، عن أنه أيا كان نوع العمل فثمة سرعة لا يمكن تجاوزها فى أدائه – ليس لمجرد عدم كفاية المهارة العضلية ، فالحد الأقصى للسرعة تفرضه فى الغالب حدود القدرة الذهنية أكثر مما تفرضه حدود القدرة العضلية . كما أسفرت هذه التجارب أيضا أنه كلما زاد عدد الأفعال البديلة أمام الشخص الذى يجرى عليه الاختبار اقتضاه ذلك وقتا أطول للوصول إلى قرار وتنفيذه .

وواضح أن هذه الاكتشافات يمكن أن تساعدنا على تفهم أشكال معينة من الاضطراب النفسى . فالمديرون المبتلون بمطالب اتخاذ سيل لا ينقطع من القرارات السريعة المعقدة ، والتلاميذ المغرقون بفيضان من المعلومات والحقائق المروعون بالامتحانات المتكررة ، وربات البيوت المفروض عليهن المواجهة المستمرة بصراخ الأطفال ، ورنين التليفونات والغسالات المعطلة ، وضجيج الروك آند رول فى حجرة استقبال المراهقين ، وغواء التليفزيون فى البهو — كل هؤلاء قد يجدون أن قدرتهم على التفكير بجلاء والتصرف برشد وقد أصابها الوهن والفساد بفعل موجات المعلومات المتدافعة إلى حواسهم . إن بعض الأعراض التى لوحظت على الجنود المرهقين بالمعركة ، وضحايا الكوارث ، والمصابين بصدمة الثقافة يمكن أن نعزوها إلى مثل هذا الحمل الزائد من المعلومات .

إن أحد رواد الدراسات التى أجريت عن المعلومات — وهو الدكتور جيمس . ج . ميللر مدير معهد بحوث الصحة العقلية بجامعة متشيجان — قد وضعها هكذا صريحة واضحة عندما قال : « إن إتخام المرء بأكثر مما يستطيع معالجته من معلومات — يؤدى إلى اضطرابه » ، وفى رأيه أن زيادة التحميل بالمعلومات قد تكون لها صلة وثيقة بأشكال مختلفة من المرض العقلى .

إن من أبرز أعراض مرض الشيزوفرانيا (الانفصام العقلى) على سبيل المثال هو : « تداعى الاستجابات الخاطئة » حيث تنعدم الصلة الصحيحة بين الأفكار والكلمات فى ذهن المريض . إن المريض بالانفصام العقلى يفكر بمعايير اعتباطية ، أو خاصة به وحده . إن الشخص السليم عندما يواجه بمجموعة مختلفة الأنواع من المجسمات — مثلثات ، مكعبات ، مخروطات ، إلى آخر ، فإنه يصنفها طبقا لمعايير هندسية . أما إذا سئل المريض بالفصام العقلى أن يصنفها فمن المحتمل أن يقول : « إنهم جميعا جنود » ، أو « إنهم جميعا يثيرون الحزن فى نفسى » .

ويصف ميللر فى كتابه : « اضطرابات الاتصال » تجارب استخدمت فيها اختبارات تداعى الكلمة للمقارنة بين الأشخاص الطبيعيين وبين

المصابين بالانفصام العقلى . لقد قسم من أجريت عليهم التجارب من الأشخاص الطبيعيين إلى مجموعتين ، وطلب منهم أن يربطوا بين كلمات مختلفة وكلمات أو مفهومات أخرى . وترك لإحدى المجموعتين حرية إتمام المهمة فى الوقت الذى يناسبها ، فى حين عملت المجموعة الأخرى تحت ضغط وقت محدود . وكانت النتيجة أن أولئك الذين عملـــوا تحت ظروف التلقى السريع للمعلومات ، بفعل الضغط الذى يسببه الوقت المحدود ، قد جاءوا باستجابات أقرب شبها باستجابات مرضى الانفصام من تلك التى جاء بها الذين عملـــوا بعيدا من مثل هذا الضغط .

وقد أجريت تجارب مماثلة تحت إشراف الأخصائيين النفسيين ج . أوزدانسكى ول . ج . تشابمان مكنت من عمل تحليل أدق لنماذج الأخطاء التى يقع فيها أولئك الذين يعملون تحت ظروف سرعة مفروضة فرضا ، ومعدلات عالية ، من تلقى المعلومات ، وقد أسفرت هذه التجارب بدورها عن أن زيادة سرعة الاستجابة تنتج عنه أشكال من الأخطاء بين الأشخاص الطبيعيين تتشابه — بدرجة عجيبة — بأخطاء المرضى بالفصام العقلى .

ويرى ميللـــر : « أن المرء يستطيع أن يخمن أن الانفصام العقلى (من خلال عملية غير معروفة حتى الآن ربما كان خطأ فى عمليات التمثيل يزيد من « الضوضاء » العصبية) يهبط بكفاية القنوات التى تحدث بها عمليات المعالجة الإدراكية للمعلومات . فالمرضى بالانفصام يلاقون صعوبات فى معالجة المعدل العادى لزاد المعلومات تماثل الصعوبات التى يعانيها المرضى الأشخاص الطبيعيون فى معالجة المعدلات السريعة ، والنتيجة أن المرضى بالانفصام يرتكبون أخطاء عنـــد المعدل المعتاد شبيهة بتلك التى يرتكبها الأشخاص العاديون تحت ظروف المعدلات السريعة والمفروضة فرضا » .

وباختصار ، فإن ميللـــر يطرح فكرة أن انهيار القدرة على الأداء لدى البشر تحت وطأة التحميل الزائد بالمعلومات ، قد يكون مرتبطـــا بالأمراض العقلية بأسباب لم نبدأ بعد فى استكشافها . ومع ذلك فإننا نعجل بتسارع المعدل العام للتغيير فى المجتمع دون فهم منا لتأثيراته . إننا نضطر الناس إلى التكيف مع خطو أسرع للحياة ، ومواجهة مواقف مستجدة

والسيطرة عليها خلال وقت دائم التقاصر . إننا نضطرهم إلى الانتقاء بين اختيارات تتضاعف بسرعة . إننا ، بعبارة أخرى ، نجبرهم على معالجة المعلومات بسرعة أكبر مما كان ضروريا فى المجتمعات الأقل تحركا . ومن ثم فإننا نجعل من بعضهم على الأقل عرضة لفرط التنبيه الإدراكى . أما ما هى الآثار التى يمكن أن يتركها هذا فى الصحة العقلية فى مجتمع ما فوق التصنيع ، فأمر ما زال إلى الآن فى حاجة إلى أن يحدد .

الارهاق بالقرارات

وسواء أكنا نعرض جموعا من الناس لأحمال زائدة من المعلومات أم لا ، إلا أننا ولاشك نؤثر سلبيا فى سلوكهم بما نفرضه عليهم من ذلك الشكل الثالث من أشكال فرط التنبيه — ضغط عملية الحسم أو القرار . إن كثيرا من الأفراد المحاصرين داخل بيئات بطيئة التغيير يتحرقون شوقا إلى الانعتاق والانطلاق إلى حيث الأعمال والأدوار التى تتطلب منهم اتخاذ قرارات أسرع وأكثر تعقيدا . ولكن المشكلة تأخذ وضعا عكسيا بين أهل المستقبل . هؤلاء الذين يهرولون بل يعدون ، من عمل إلى عمل وهم يغمغمون : « قرارات . . . قرارات . . . » . إن السر فيما يحسونه من عجلة وانفعال هو أن الزوال والحدة والتنوع تفرض مطالب متناقضة ومن ثم تضعهم رهن قيد موجع ومزدوج .

إن دفعة التغيير المتسارعة ومقابلها السيكولوجى — الزوال — يدفعان بنا دفعا إلى الإسراع فيما نتخذه من قرارات خاصة وعامة . إن الاحتياجات الجديدة والطوارئ والأزمات المستجدة تتطلب استجابة سريعة .

ثم إن جدة الظروف فى حد ذاتها تأتى معها بتغيير ثورى فى طبيعة القرارات التى ينبغى أن تتخذ . إن الحقن السريع للبيئة بالجدة يزعزع التوازن الحساس بين القرارات « المنهجية » و « اللامنهجية » فى منظماتنا وفى حياتنا الخاصة على حد سواء .

فالقرار المنهجى هو ذلك القرار الروتينى التكرارى السهل الاتخاذ . إن الراكب الواقف على حافة الرصيف حيث قطار الساعة ٨,٠٥ يخشخش

قبل أن يتوقف ، يصعد إلى القطار كما ظل يفعل لشهور وسنوات . لقد قرر منذ زمن أن قطار الساعة ٨,٠٥ هو أنسب مواصلة متاحة له ضمن جدول القطارات . وبالتالى فإن القرار الفعلى بالصعود إلى القطار قرار منهجى . إنه أقرب* إلى الفعل المنعكس منه إلى القرار . فالمعيار المـــائل ، والذى سيؤسس عليه القرار بسيط وواضح . ولأن كل الظروف المحيطة به ظروف مألوفة ، فإن صاحبنا يفكر جاهدا قبل أن يتخذ مثل هذا القرار . إنه ليس مطالبا بمعالجة الكثير من المعلومات . وبهذا المعنى فالقرارات المنهجية لا تكلف العقل كثيرا .

قارن بين هذا القرار ونوع القرارات التى يفكر فيهـا نفس الراكب وهو فى طريقه إلى المدينة ، هل يقبل الوظيفة التى عرضتهـا عليه شركة س.؟ هل ينبغى له أن يشترى منزلا جديداً ؟ هل ينشئ علاقة خاصة بينه وبين سكرتيرته ؟ كيف يستطيع أن يقنع اللجنة الإدارية بالموافقة على اقتراحاته الخاصة بالحملة الإعلانية الجديدة ؟ مثل هذه الأسئلة تتطلب إجابات لا روتينية . إنهـا تضطره إلى اتخاذ قرارات من نوع قرارات المرة الوحيدة ، أو من نوع قرارات المرة الأولى التى ستنشئ عادات جديدة وإجراءات سلوكية جديدة . وثمة عوامل عديدة يجب أن تدرس وتوزن ، وكمية ضخمة من المعلومات يجب أن تعالج ، والقرارات قرارات لا منهجية ، إنها تقتضى العقل ثمناً باهظاً .

والحياة بالنسبة لـكل منا مزيج من الاثنين معاً . فإن كانت نسبة القرارات المنهجية فى المزيج هى الأعلى ، وجدنا الحياة سخيفة ومملة . فنبدأ أحياناً – لا شعورياً – فى البحث عن سبل لإدخال الجدة على حياتنا ، ومن ثم تعديل « خلطة » القرارات . ولـكن عندما تكون نسبة القرارات اللامنهجية فى المزيج أعلى مما ينبغى ، وإذا ما قوبلنا بمواقف مستجدة من الـكثرة بحيث تصبح المنهجة أمراً مستحيلا ، تصبح حياتنا بالتالى مشوشة إلى حد مؤلم ، ومرهقة ومفعمة بالقلق ، ومسوقة نحو النهـاية – نحو الاضطراب العقلى .

لقد كتب برترام.م.جروس أستاذ نظرية التنظيم يقول : « إن السلوك الراشد يتضمن تركيباً معقداً من الروتينية والابتكار . والروتين لا غنى عنه . .

لأنه يوفر الطاقات الخلاقة للتعامل مع التشكيلة الأكثر إرباكاً من المشكلات الجديدة والتي سيكون المقترب الروتيني بالنسبة لها مقترباً لا عقلانياً » .

ونحن إن لم نستطع أن « نمهج » الكثير من حياتنا فإننا حريون بأن نقاسي ونتعذب . وكما كتب وليام جيمس يقول : « ليس هناك أشد بؤساً من رجل يكون إشعال كل سيجار بالنسبة له ، واحتساء كل قدح ، وبداية كل نتفة من عمل ، هي محل ترو ، ودراسة ، وتفكير » . لأننا إن لم نمهج إلى حد كبير من سلوكنا ، أضعنا الكثير من قدرتنا على معالجة المعلومات في سبيل توافه الأمور .

من أجل هذا نكون عاداتنا . . لاحظ لجنة ما وقد عادت لاستئناف اجتماعها بعد فترة الغداء ، فستجد أن كل عضو تقريباً من أعضائها يتجه إلى نفس المقعد الذى كان يجلس عليه من قبل . إن بعض الأنثروبولوجيين ينقبون في نظرية« الإقليمية » بحثاً عن تفسير لهذا السلوك . نظرية أن كل إنسان يظل إلى الأبد يحاول أن ينحت لنفسه « مرجاً » مقدساً . ولكن ثمة تفسيراً أبسط يكمن في حقيقة أن المنهجة توفر فاقداً لا مبرر له من قدرتنا على معالجة المعلومات ، واختيار نفس المقعد يوفر علينا مؤونة دراسة وتقييم الاحتمالات البديلة .

وفي البيئة المألوفة نستطيع أن نعالج الكثير من مشكلات حياتنا بقرارات منهجية لا تكلف كثيراً . ولكن التغيير والجدة يرفعان من الثمن العقلي الذى ندفعه في صنع القرارات . فعندما ننتقل إلى جيرة جديدة مثلا ، فإننا نضطر إلى تعديل علاقاتنا القديمة وإنشاء عادات روتينية جديدة . ولن نستطيع أن نفعل ذلك بدون إلغاء آلاف القرارات المنهجية السابقة ، وصناعة سلسلة كاملة غالية الكلفة من قرارات المرة الأولى اللامنهجية . والواقع أننا سنكون آنذاك مطالبين بإعادة منهجة أنفسنا .

ويصدق نفس الشيء تماماً على الوافد دون استعداد على ثقافة غريبة ، وبنفس الدرجة أيضاً يصدق على الرجل الذى مازال يعيش في مجتمعه ثم يقذف به إلى المستقبل دون سابق إنذار . إن مقدم المستقبل في شكل من الجدة والتغيير يعفي على كل ما تعب في بنائه وتجميعه من روتينات سلوكية.

إنه يكتشف فجأة — لدهشته وفزعه — أن هذه الروتينات القديمة تعقد من مشكلاته بدلا من أن تحلها . فالمطلوب قرارات جديدة لم « تمهج » بعد . وبإيجاز ، فإن الجدة تقلب ميزان مزيجه لصالح القرارات الأصعب والأغلى .

حقيقة إن بعض الناس أقدر على تقبل الجديد أكثر من البعض الآخر . وإن المزيج الأمثل لكل منا يختلف من فرد لآخر . ولكن عدد ونوع القرارات المطلوبة من أينا لا يقع تحت سيطرته الفردية المطلقة . إن المجتمع هو الذى يحدد أساساً مزيج القرارات التى ينبغى لنا أن نصنع ، والسرعة التى يجب علينا أن نفعل بها ذلك . إن ثمة صراعاً خفياً يدور فى حياتنا اليوم بين ضغوط التسارع وضغوط الجدة . إن أحدهما يرغمنا على أن نتخذ قرارات أسرع ، فى حين أن الآخر يجبرنا على اتخاذ القرارات الأصعب والأحوج بالتالى إلى وقت أطول .

إن القلق الناتج من هذا التصادم تزداد أيضاً حدته بفعل اتساع التنوع . . فثمة أدلة لا مراء فيها على أن زيادة عدد الاختيارات المتاحة أمام الفرد ترفع من كمية المعلومات التى ينبغى له أن يعالجها إذا ما كان سيمارس الانتقاء من بين هذه الاختيارات . لقد أثبتت الاختيارات المعملية على الإنسان والحيوانات أنه كلما زادت الاختيارات أبطأ زمن رد الفعل .

إن تصادم هذه المطالب الثلاثة المتضاربة هو الذى تنتج عنه الآن أزمة صنع القرار فى المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا . وباجتماع هذه الضغوط الثلاثة تنشأ حالة حادة من فرط التنبيه عند مستوى صنع القرار . هذه الحالة تفسر إلى حد كبير لماذا تشعر كتل هائلة من الناس فى هذه المجتمعات بأنهم مسوقون لا حول لهم ، وغير قادرين على صنع مستقبلهم الخاص . والنتيجة الحتمية لتصادم هذه القوى هو تعميق الاعتقاد بأن سباق الجرذان قد صار أشد قسوة ، وأن الأمور قد انفلت عيارها وأصبحت خارج نطاق التحكم ؛ وذلك لأن التسارع المطلق العنان للتغيير العلمى والتكنولوجى والاجتماعى يدمر قدرة الفرد على اتخاذ قرارات معقولة وفعالة فيما يتصل بمصيره ومستقبله .

ضحايا صدمة المستقبل

عندما نجمع بين تأثيرات صعوبة اتخاذ القرار وزيادة التحميل الحسى والإدراكى ، فإننا نحصل من ذلك على أشكال متعددة عن عجز الفرد عن التكيف ، وعلى سبيل المثال فإن من بين الاستجابات الواسعة الانتشار للتغيير السريع – الإنكار الكلى للتغيير . واستراتيجية المنكرين هى : «حجب» الحقيقة غير المرغوب فيها . إن أحدهم عندما يواجه بمطالب اتخاذ القرار وقد وصلت إلى ذروتها يرفض بلا مواربة تقبل أى معلومات جديدة . وكما يفعل ضحية الكارثة الذى انطبعت على وجهه أمارات عدم التصديق ، فكذلك المنكر أيضاً لا يستطيع تقبل ما تدله عليه حواسه . وهكذا يوطن النفس على أن كل شئ باق على ماهو عليه ، وأن دلائل التغيير لا تعدو أن تكون أشياء سطحية . إنه يشعر بارتياح إزاء العبارات المصكوكة من مثل : « إن الشباب متمردون دائماً » ، أو : « ليس هناك من جديد على سطح الأرض » ، أو : « كلما تغيرت الأشياء بقيت على ماهى عليه » .

إن المنكر ، الضحية المجهولة لصدمة المستقبل ، مصمم على أن يلقى بنفسه إلى التهلكة . إن استراتيجيته فى المواجهة ترجح من احتمال أنه عندما سيضطر إلى التكيف ، فإن التقاءه بالتغيير سوف يأتى على شكل أزمة كلية لحياته ، وليس على شكل مجموعة من المشكلات القابلة للحل .

أما الاستراتيجية الثانية لضحية صدمة المستقبل فهى التخصصية . إن التخصص لا يحجب « كل » الأفكار أو المعلومات المستجدة ، بل يحاول بكل ما فى وسعه أن يواكب التغيير – ولكن فى قطاع ضيق معين فقط من قطاعات الحياة . وهكذا نرى ذلك الطبيب أو المالى الذى يعمل على الاستفادة الكاملة من كل المستحدثات فيما يتصل بمهنته ، فى حين أنه يقف موقف المتصلب ، الرافض لأى فكرة تجديد سياسية كانت أم اجتماعية ، أو اقتصادية : وكلما تزايدت انفجارات الاحتجاج فى الجامعات ، وزادت أحداث جيتو الأقليات اشتعالا ، ازداد هو رغبة فى تجاهل ما يحدث ، وفى تضييق الشق الذى يطل منه على العالم .

إنه ، سطحياً ، متكيف جيداً مع التغيير . . ولكنه أيضاً يراهن ضد

نفسه . إنه قد يصحو يوماً ليجد أن تخصصه قد عفى عليه الزمن ، أو تغيرت ملامحه تماماً بفعل الأحداث المتفجرة خارج نطاق رؤيته .

وثمة نوع ثالث من أنواع الاستجابة لصدمة المستقبل يتمثل فى الرجوع الملح إلى روتينات فى التكيف سبق نجاحها من قبل ، ولكنها أصبحت الآن غير صالحة أو كافية . إن الرجوعى يتشبث بقراراته المنهجية وعاداته السابقة باستماتة مذهبية غريبة . فكلما ارتفعت تهديدات التغيير فيما حوله كرر حرفياً أساليب العمل الماضية . إن موقفه الاجتماعى موقف تراجعى . إنه — وقد صدمه مقدم المستقبل — يؤيد بتهوس الإبقاء على الأمر الواقع الذى لم يعد واقعاً ، أو يطالب تحت قناع أو آخر بالعودة إلى أمجاد الماضى .

إنه منجذب بأعصابه المرتعدة إلى الساسة من أمثال جولد ووتر ، وهنرى والاس ، من خلال ما ينادون به من سياسة العودة إلى الماضى . . لقد كان الشرطة هو الذى يحفظ النظام فى الماضى ، إذن فلكى تحفظ النظام فلسنا فى حاجة إلا إلى مزيد من الشرطة . والمعاملة الحازمة للأطفال نجحت فى الماضى ، إذن فإن متاعب اليوم ليست إلا نتيجة للتسامح . إن اليمين المتقدم السن من الرجوعيين يتحرق شوقاً إلى مجتمع المدينة الصغير البسيط المنضبط ، إلى البيئة البطيئة التحرك التى تجدى فيها روتيناته القديمة . وبدلا من التكيف مع الجديد ، فإنه يستمر أتوماتيكياً فى تطبيق الحلول القديمة منفصلا بذلك أكثر فأكثر عن الواقع .

وإن كان كبار السن من الرجوعيين يحلمون بعودة مجتمع المدينة الصغيرة ، فإن اليسار الشاب من الرجوعيين يحلم بإحياء نظام اجتماعى أقدم . يدل على ذلك بعض الافتتان بالكوميونات الريفية ، والرومانسية الرعوية التى تملأ ملصقات وأشعار الثقافات الفرعية للهيبيين ومن تلاهم ، والصورة الناقصة والمشوهة لشى جيفارا (التى تربط بينه وبين الجبال والأدغال وليس بينه وبين البيئات المدنية) والمبالغة فى احتقار التكنولوجيا وتبجيل المجتمعات السابقة عليها . ومع كل مطالباتهم الحادة بالتغيير ، فإن بعض قطاعات هذا اليسار على الأقل تشارك أنصار جولد ووتر ووالاس حنينا خفياً إلى الماضى . . .

وكما تمثل عصابات رأسهم الهندية ، وقلنسواتهم الادواردية ، وأحذية صائدى الأيائل الطويلة التى يرتدونها ، والأكواب المذهبة الأطراف التى يستعملونها ، بعض أحقاب الماضى ، كذلك فإن بعض أفكارهم تنتمى إلى ذلك الماضى . . إن إرهابية حركة العلم الأسود الفوضوية التى شهدها مطلع هذا القرن قدعادت فجأة إلى الظهور . وانتعشت من جديد الصورة التى رسمها روسو للهمجى النبيل . وبعض الأفكار الماركسية العتيقة التى لا تصلح للتطبيق على أحسن تقدير إلا فى المجتمع الصناعىالقديم ، قد أصبحت تتردد كإجابات لمشكلات مجتمع عصر ما فوق التصنيع القادم . . إن الرجوعية أيضاً تتنكر فى ثياب الثورة .

وأخيراً : هناك طراز رابع من ضحايا صدمة المستقبل هو ذلك المبسط المبالغ فى تبسيط الأمور إلى درجة التشويه . فإزاء سقوط الأبطال ، وتقوض المؤسسات ، ودوى الإضرابات ، والشغب ، والمظاهرات فى وعيه ، يبحث المبسط عن معادلة واحدة محكمة تفسر كل المستحدثات المعقدة التى تهدد بمحاصرته . وهو فى بحثه يمسك بتلابيب هذه الفكرة أو تلك ليصبح مؤمناً مؤقتاً بها إلى أن تجذبه فكرة أخرى . .

ولعل هذا يساعد على تفسير ظاهرة تفشى البدع فى عالم الأفكار بشكل ينافس تفشيها فى عالم البدعة « المودة » ! ماك لوهان ؟ نبى عصر الكهرباء ؟ ليفى شتراوس ؟ يا سلام ! ماركيوز ؟ الآن وضح كل شئ . . ما هاريشى من واتشماكليت ؟ رائع . . التنجيم ؟ بصيرة الدهر . .

إن المبسط فى تلمسه اليائس لمخرج من أزمته ، يستثمر أى فكرة يصادفها بتعميم غالباً ما يربك صانع الفكرة نفسه . وللأسف فليس ثمة فكرة ، لا عندى ولا عندك ، تتصف بنفاذ البصيرة الكلى . أما المبسط فلا يرضى بشئ أقل من شمولية الصلة بالموضوع : أمريكا هى مضاعفة الأرباح . « التآمر » هو السر وراء الاضطرابات العنصرية . . ديموقراطية المشاركة هى الحل . التسامح هو أصل الشر .

وهذا البحث عن حل واحدى على المستوى الفكرى ، له أيضاً ما يوازيه على مستوى الفعل . . وهكذا فإن الطالب المروع ، القلق ، المتألم من ضغوط

والديه ، غير الواثق من موقفه بالنسبة للتجنيد ، المنسحق بنظام تعليمى ينكشف تخلفه المروع يوماً بعد يوم ، المضطر إلى اتخاذ قرار باختيار مستقبله ، وبالاستقرار على مجموعة من القيم وانتهاج أسلوب ملائم للحياة — مثل هذا الطالب يبحث كالمسعور عن طريق لتبسيط وجوده . وباتجاهه إلى تعاطى عقار الهلوسة ، أو المثيرديين ، أو الهيرويين ، فإنه يرتكب عملا مخالفاً للقانون ولكنه على الأقل يملك فضيلة توحيد أحزانه . إنه يقايض على حشد من المتاعب المؤلمة التى تبدو مستعصية على الحل بمشكلة كبيرة واحدة ، وبالتالى فإنه يبسط من وجوده بشكل جذرى ، وإن كان مؤقتاً .

والفتاة المراهقة التى لا تقدر على مواجهة الضغوط المتشابكة والمتصاعدة يوما بعد يوم قد تختار سبيلا دراميا آخــر من سبل التبسيط : الحمل . إن الحمل — شأنه فى ذلك شأن المخدرات — قد يزيد من تعقيد حياتها فيما بعد ، ولكنه يحول كل مشكلاتها الأخرى فوريا إلى أشياء أقل أهمية نسبيا .

والعنف أيضا يقدم سبيلا « بسيطا » للخروج من مأزق تعقد الاختيار وفرط التنبيه بوجه عام . وبالنسبة للجيل القديم وللمؤسسات السياسية تعتبر هراوات الشرطة وحراب الجنود كوسائل علاج جذابة وطريقة للقضاء على المعارضة مرة واحدة وإلى الأبد . إن هؤلاء البيض من الحريصين على الأمن والنظام يشاركون المتطرفين السود فى نفس النظرة إلى العنف كسبيل إلى حصر مجال اختياراتهم وتنقية حياتهم . فأولئك الذين يفتقرون إلى منهج شامل واضح ، والذين لا يستطيعون التكيف مع مركبات الجدة والتغيير ، يجدون فى الإرهاب بديلا للفكر . والإرهاب قد لا يسقط النظم ، ولكنه يزيل الشكوك . .

يستطيع معظمنا أن يلحظ هذه الأنماط من السلوك على الآخرين — وحتى على نفسه —دون أن يفهم مسبباتها— ولكن علماء المعلومات يستطيعون التعرف لأول وهلة على الإنكار ، والتخصصية ، والرجوعية ، والتبسيط الفائق ، كأساليب كلاسيكية لمواجهة الحمل الزائد من المعلومات .

وأصحاب هذه الأساليب جميعا يهربون من التركيب الغنى للواقع ، ويخلقون لأنفسهم صورا مشوهة للحقيقة . كلما أمعن الفرد فى الإنكار ، أو فى التخصص

على حساب الاهتمامات الأوسع ، أو فى الارتكاس إلى عادات الماضى وسياساته ، أو فى الاتجاه اليائس إلى التبسيط الفائق ، أصبحت استجاباته للجدة والاختيارات المتدفقة فى حياته حمقاء وغير ملائمة . وكلما لجأ إلى هذه الاستراتيجيات . اتسم سلوكه بالتذبذب والشذوذ والاختلال العام .

وكل عالم فى المعلومات يدرك أن بعضا من هذه الاستراتيجيات قد يكون فى الحقيقة ضروريا فى حالات التحميل الزائد بالمعلومات ، ولكن ما لم يبدأ الفرد بإدراك واضح للواقع ، ومالم يكن منطلقه من قيم وأولويات دقيقة التحديد ، فإن اعتماده على مثل هذه الأساليب لن يؤدى إلا إلى تفاقم متاعبه التكيفية .

ولكن توفير مثل هذه الضمانات أمر متزايد الصعوبة . وبالتالى فإن ضحية صدمة المستقبل الذى يستخدم أيا من هذه الاستراتيجبات يعانى إحساسا متفاقما بالاضطراب والشك . إنه ، وقد أحاطت به دوامة التغيير وفرضت عليه أن يتخذ قرارات هامة بسرعة البرق ، لن يروع فكره فحسب ، بل ستهتز الشخصية أيضا . وكلما أسرعت عجلة التغيير امتزج اضطرابه بالشك.فى النفس والقلق والخوف ، ويصبح متوترا سريع التعب . وقد يسقط مريضا . وعندما تتراكم الضغوط وتتصاعد يتحول التوتر إلى هياج ، وغضب ، وأحيانا إلى عنف أحمق . ويواجه الأحداث التافهة باستجابات هائلة ، والأحداث الكبيرة باستجابات غير كافية .

لقد أشار بافلوف منذ سنوات عديدة إلى هذه الظاهرة على أنها « المرحلة الظاهرية التناقض » من انهيار الكلاب التى أجرى عليها تجاربه فى الأشراط . وقد أوضحت التجارب التى أجريت فيما بعد أن الإنسان أيضا يمر بهذه المرحلة كنتيجة لفرط التنبيه . ولعل فى ذلك مايفسر لمـــاذا تقع أحداث الشغب فى بعض الأحيان دون وجود استفزاز يذكر ؟ ولمـــاذا ينفجر اهتياج آلاف المراهقين فجأة ، وبلا سبب ظاهر ، فى أثناء وجودهم فى المصيف فيحطمون النوافذ ويقذفون بالزجاجات والأحجار ويحطمون السيارات ؟ . إنها قد تفسر أيضا لمـــاذا أصبح التخريب بلا هدف مشكلة فى كل المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا لدرجة أن أحد محررى جريدة جابان تيمز اليابانية كتب يقول :

« لم يحدث قط من قبل أن رأينا هذا المدى المتسع من هذه الأفعال الجنونية التى تقع فى وقتنا الراهن » .

وأخيرا فقد يفسر الاضطراب والشك الناجمان عن الزوال والجدة والتنوع ذلك التبلد الشديد الذى يعزل الملايين من الشيوخ والشباب عن مجتمعاتهم . ولسنا نعنى هنا ذلك الانسحاب المؤقت المدروس الذى يعمد إليه الإنسان المتزن ليسترخى قليلا قبل أن يبدأ من جديد فى مواجهة مشكلاته ، ولكن ما نعنيه هو ذلك الاستسلام الكامل أمام ضغط اتخاذ القرارات فى ظروف من التشكك وفائض الاختيار .

لقد مكنت الوفرة ، ولأول مرة فى التاريخ ، أعداداً كبيرة من الناس من أن يجعلوا انسحابهم كاملا . إن رب الأسرة الذى يتراجع فى أمسياته مستعينا ببضع كؤوس من المارتينى ، ثم يدع التليفزيون يخدر حواسه – مثل هذا الرجل على الأقل يعمل فى أثناء النهار ويؤدى وظيفة اجتماعية يحتاج إليها الآخرون ، ومن ثم فإن انسحابه مؤقت . أما بالنسبة للبعض (وليس الكل) من الهيبيين الفاشلين ، والمنزلقين على الأمواج ، وآكلى زهور اللوتس ، فإن الانسحاب كامل وممتد بطول الوقت ، وقد يكون الصك « الشيك » الذى يتلقاه أحدهم من حين لآخر من والد عطوف هو الصلة الوحيدة التى تربطه بالمجتمع الأكبر .

على شاطئ البحر عند قرية ماتالا – وهى قرية مشمسة فى جزيرة كريت – يوجد أربعون أو خمسون كهفا يسكنها أمريكيون منسحبون – معظمهم من الشبان والشابات ممن كفوا أخيرا عن مواصلة أى جهد للتكيف مع تعقيدات الحياة السريعة التفجر . . فهنا القرارات قليلة ، والوقت منفسح . وهنا مجال الاختيارات أضيق . ولا وجود لمشكلة فرط التنبيه . وليس ثمة حاجة إلى الاستيعاب أو حتى للحس . لقد زارهم مراسل صحفى سنة ١٩٦٨ وأنهى إليهم نبأ أغتيال روبرت كنيدى ، ثم كتب يصف رد فعل هذا النبأ لديهم : « لا أثر لصدمة ، أو غضب ، أو دموع . . هل هذه هى الظاهرة الجديدة ؟ الهروب من أمريكا ، والهروب من المشاعر . . ؟ أستطيع أن أفهم عدم التورط ، وعدم الارتباط ، وحتى عدم الالتزام ، ولكن أين ذهبت كل المشاعر والأحاسيس ؟ ! »

إن صاحبنا الصحفى يستطيع أن يفهم أين ذهبت كل الأحاسيس والمشاعر إذا فهم تأثير فرط التنبيه وتبلد أحاسيس الجندى الذى نام وسط المعركة ، وتجمد ملامح ضحية الكارثة ، والانسحاب العاطفى لضحية صدمة الثقافة . . لأن هؤلاء الشباب ، وملايين غيرهم — من المضطربين وممارسى العنف والمتبلدين — ليسوا إلا حالات واضحة لأعراض صدمة المستقبل . . إنهم أول ضحاياها . .

صدمة المستقبل على مستوى المجتمع

من المستحيل أن تصاب أعداد غفيرة من الأفراد بصدمة المستقبل دون أن يؤثر هذا فى عقلانية المجتمع ككل . إن الولايات المتحدة اليوم — كما يقول دانييل . ب . موينيهان كبير مستشارى البيت الأبيض فى الشئون المدنية : « تبدو عليها أعراض شخص على وشك الإصابة بالانهيار العصبى » . ذلك أن التأثيرات التراكمية لفرط التنبيه على مستويات الحس والإدراك واتخاذ القرار ، ناهيك بالتأثيرات البدنية لزيادة الحمل على الجهاز العصبى والغدد الصماء ، لابد وأن تخلق المرض فى المجتمع .

هذا المرض أخذ ينعكس بشكل متزايد على ثقافتنا وفلسفتنا ، وموقفنا إزاء الحقيقة . فلا غرو إذن أن نرى كثيرا من الناس العاديين يشيرون إلى العالم بأنه : « سراى مجاذيب » . أو أن موضوع الجنون قد أصبح من الموضوعات الرئيسية فى الأدب والفن ، والمسرح والسينما ، إن بيتر ويس فى مسرحيته « مارا ـ ساد » يرسم صورة لعالم مائج مضطرب كما يراه نزيل من نزلاء مستشفى شارنتون للأمراض العقلية .. وفى أفلام من مثل فيلم « مورجان » صورت الحياة داخل مستشفى للمجانين على أنها أفضل من الحياة خارجها ! ! ويصل فيلم « انفجار » إلى ذروته بانضمام البطل إلى مباراة تنس يتقاذف اللاعبون فيها كرة وهمية لا وجود لها — كرمز لتقبله لما هو غير حقيقى ولا عقلانى ، واعترافه بأنه لم يعد قادرا على التمييز بين الحقيقة والوهم . لقد رأى الملايين من المشاهدين أنفسهم فى صورة بطل الفيلم فى تلك اللحظة .

إن التأكيد بإصرار على أن العالم « قد أصابه المس » ، والاهتمام بعقارات الهلوسة ، والتحمس للتنجيم والسحر ، والبحث عن الحقيقة فى

الإثارة ، والنشوة ، و « ذروة التجربة » ، والاتجاه إلى أقصى حدود الذاتية ، والهجوم على العلم ، والتفشى السريع للاعتقاد بأن العقل قد خان الإنسان – كل هذا يعكس تجربة الحياة اليومية للملايين من الناس العاديين ممن وجدوا أنفسهم عاجزين عن التكيف مع التغيير .

إن الملايين يحسون بالمرض الذى يملأ الجو ، ولكنهم أخفقوا فى فهم جذوره ، إن جذوره لا تكمن فى هذا المذهب السياسى أو ذاك ، ولا فى الجوهر الخفى لليأس والعزلة الذى يقال إنه جزء من « الحالة الإنسانية » . كما أنها ليست كامنة فى العلم ، والتكنولوجيا ، والمطالب المشروعة للتغيير الاجتماعى . إنها على الأصح كامنة فى اندفاعنا ، بلا ضابط ، ودون انتقاء ، إلى المستقبل . . إنها كامنة فى إخفاقنا أن نوجه بوعى ، وقوه تخيل ، مسيرتنا إلى عصر ما فوق التصنيع .

وهكذا ، فإن الولايات المتحدة بالرغم من كل إنجازاتها الكبرى فى الفن ، والعلم ، والفكر ، وفى الحياة المعنوية والسياسية – بالرغم من كل هذا فإن الولايات المتحدة أمة يهرب عشرات الألوف من شبابها من الواقع بإدمان المخدرات ، ويتراجع ملايين من آبائهم إلى ضبابية الكحول . . أمة يعيش عشرات الألوف من أبنائها المسنين فى خمول ويموتون وحيدين ، وأصبح فيها الهروب من الأسرة والمسئوليات المدنية نوعاً من الهجرة الجماعية . أمة لا يجد الملايين فيها من سبيل إلى ترويض قلقهم واضطرابهم إلا باللجوء إلى عشرات الأنواع من العقارات المهدئة ، مثل هذه الأمة ، وسواء كانت تعرف أو لا تعرف ، تعانى من صدمة المستقبل .

« لن أعود إلى أمريكا » . هكذا قالها واضحة قاطعة رونالد بيرل المغترب الأمريكى فى تركيا . ثم أضاف : « إذا كنت تستطيع إنقاذ عقلك فليس ثمة ما يدعوك إلى القلق على عقول الآخرين . وكثير جداً من الأمريكيين سائرون إلى الجنون المطبق » . إن الملايين يشاركون هذا الشاب فى رأيه البعيد عن الإطراء فى الواقع الأمريكى . وما لم يظل الأوربيون أو اليابانيون أو الروس محتفظين بما هو مفترض فيهم من عقل ، لحق لنا إذن أن نتساءل عما إذا لم تكن

قد ظهرت لديهم بالفعل أعراض مشابهة لمـــا ظهر على المجتمع الأمريكى . هل الأمريكيون فريدون فى هذا الخصوص ؟ ، أم أنهم فقط أول من تلقى صدمة هجوم على العقل لن تلبث أن تمتد إلى الأمم الأخرى . . ؟

إن الرشد الاجتماعى يفترض مقدماً الرشد الفردى . وهذا بدوره لا يعتمد على أداة بيولوجية فحسب ، بل أيضاً على الاطراد والانضباط والانتظام فى البيئة . إنه يرتكز على التناسب بين سرعة وتعقيد التغيير ، وبين قدرات الإنسان على صنع القرارات . ونحن باندفاعنا ، فى غير مابصيرة ، نحو الإسراع بمعدل التغيير ومستوى الجدة وتوسيع مدى الاختيار إلى حدوده القصوى — إنما نعبث بغباء بتلك الضمانات البيئية للرشد . ومن ثم ندفع بالملايين إلى صدمة المستقبل .

القسم السادس

استراتيچيات من أجل البقاء

الفصل السابع عشر

فى مواجهة الغد

فى جنوب المحيط الهادى ، وإلى الشمال من غينيا الجديدة ، تقع جزيرة مانوس التى يعرف كل طالب أنثروبولوجيا أن سكانها انتقلوا من العصر الحجرى إلى القرن العشرين فى جيل واحد . وتروى مارجريت ميد فى كتابها : « حياة جديدة فى مقابل القديمة » قصة هذا التحول الذى يبدو كمعجزة فى التكيف الثقافى . وهى ترى أن تقبل أى شعب بدائى لفتات من ثقافة الغرب التكنولوجية أصعب عليه بكثير من تبنيه لأسلوب كامل جديد للحياة دفعة واحدة .

لقد كتبت مرجريت ميد تقول : « إن أى ثقافة إنسانية ، كأى لغة ، كل لا يتجزأ . والتغيير ضرورة بالنسبة للأفراد والجماعات . . .وأهم شئ أنهم ينبغى أن يتغيروا من نمط كامل للحياة إلى نمط كامل آخر » .

والواقع أن هذا رأى معقول ؛ لأنه من الواضح أن الجمع بين المتنافرات من العناصر الثقافية والحضارية لا ينتج عنه إلا التوترات الحادة . . فإنشاء المدن بدون مجار ، وتقديم الأدوية المضادة للملاريا بدون تنظيم النسل ، هو بمثابة تمزيق لثقافة ما ، وتعريض أهلها لمشكلات عويصة غالباً ما تستعصى على الحل .

ولكن ليس هذا سوى جزء من القصة ؛ لأن هناك حدوداً لحجم الجدة التى يستطيع فرد أو جماعة ما امتصاصه فى مدى قصير من الزمن ، وبصرف النظر عن مستوى التكامل المتوافر فى الثقافة ككل ؛ فليس ثمة أحد — سواء كان من مانوس أو موسكو — يمكن أن يدفع إلى تجاوز مداه التكيفى دون أن يعانى من الاضطراب والتفسخ . وفضلا عن ذلك فإنه من الخطورة أن نجعل من تجربة سكان تلك الجزيرة الصغيرة فى جنوبى الباسفيك قاعدة عامة .

إن قصة النجاح الذى تم فى جزيرة مانوس قد رويت وتكررت روايتها ومازالت تتكرر وكأنها نوع من القصص الشعبى الحديث . مطروحة فى معظم الأحيان كدليل على أننا فى المجتمعات المتقدمة تكنولوجياً نستطيع أن نقفز إلى مرحلة جديدة من التطور دون أى مصاعب . ومع ذلك فإن موقفنا ونحن نسرع إلى عصر ما فوق التصنيع مختلف اختلافاً جذرياً عن موقف سكان تلك الجزيرة .

إننا لسنا ، كما كانوا هم ، فى وضع يسمح لنا باستيراد ثقافة كلية متكاملة وناضجة ومجزية فى جزء آخر من العالم . إن علينا أن نخلق ثقافة ما فوق التصنيع خلقاً ، لا أن نستوردها . وينبغى أن نتوقع خلال الثلاثين أو الأربعين السنة المقبلة ، لا مجرد موجة واحدة من أمواج التغيير ، بل سلسلة من الهزات والانتفاضات المروعة . إن أجزاء المجتمع الجديد بدلا من أن تكون منسجمة ومتناسقة بعضها مع بعض ، ستكون على الأرجح متنافرة لحد مذهل ، ومفتقدة للروابط وحافلة بالتناقضات . فليس ثمة « نموذج كلى » أمامنا لنتبناه.

وأهم من هذا ، أن مستوى الزوال قد ارتفع ، وسرعته قد بلغت الآن حداً فرض علينا موقفاً تاريخياً لم يسبق له مثيل . ليس المطلوب منا كما طلب من سكان مانوس أن نتكيف مع ثقافة جديدة ، بل مع سلسلة سريعة التتابع من الثقافات الجديدة المؤقتة . ولعل هذا هو السر فى أننا نقترب الآن من الحدود القصوى للمدى التكيفى . وهو أمر لم يواجهه أى جيل سابق .

ومن ثم فإنه الآن فقط ، فى فترة عمرنا الحالى ، وفى المجتمعات المتقدمة تكنولوجياً فقط ، تبلورت احتمالات صدمة المستقبل على مستوى المجتمع ككل .

ومع ذلك ، فإنى أعلم أنى إذ أقول هذا ، أفتح الباب أمام سوء فهم خطير . أولا ، لأن أى مؤلف يلفت النظر إلى مشكلة اجتماعية يخاطر بتعميق التشاؤم القوى الذى يغلف الآن بالفعل المجتمعات المتقدمة تكنولوجياً . إن إطلاق العنان لليأس سلعة أدبية رائجة فى وقتنا الراهن . ولكن اليأس ليس فحسب هروباً من المسئولية ، ولكن أيضاً ليس له ما يبرره . إن معظم

المشكلات التى تحاصرنا ، ومن بينها صدمة المستقبل ، لم تنبثق من قوى طبيعية خارقة لا قبل لنا بها ، ولكن من عمليات من صنع الإنسان قابلة على الأقل لأن توضع فى نطاق تحكمنا .

ثانياً ، ثمة خطر بالغ فى أن أولئك المروجين للحفاظ على الأمر الواقع قد يرون فى مفهوم صدمة المستقبل مبرراً للمطالبة بفرض الحجر على التغيير . إن أية محاولة من هذا القبيل لكبت التغيير لن تؤدى فحسب إلى تفجير تغييرات أكبر وأعنف وأهوج من كل ما رأيناه من قبل ، ولكنها أيضاً ستكون نوعاً من الجنون المعنوى . وطبقاً لأى معايير إنسانية ، هناك تغييرات اجتماعية جذرية معينة تأخر وصولها بأكثر مما يجب أو يحتمل . إن الرد على صدمة المستقبل لا يمكن أن يكون بمحاولة وقف التغيير ، ولكن بنوع مختلف من التغيير .

إن السبيل الوحيد للحفاظ على ما يشبه التوازن خلال ثورة ما فوق التصنيع هو مقابلة الاختراع بالاختراع — بتصميم (ضوابط تغيير) جديدة ، شخصية واجتماعية . وبالتالى فإن ما نحن فى حاجة إليه ليس التقبل الأعمى لمقاومة التغيير ، ولكن مجموعة من الاستراتيجيات الخلاقة لصياغة ، وتوجيه ، وتعجيل التغيير أو إبطائه على أساس انتقائى . فالفرد فى حاجة إلى مبادئ جديدة يخطط على أساسها حياته ، بالإضافة إلى نوع جديد تماماً من التعليم . كما قد يحتاج أيضاً إلى أنواع جديدة معينة من العون التكنولوجى ليزيد من قدرته على التكيف . وفى نفس الوقت فإن المجتمع فى حاجة إلى مؤسسات جديدة وأشكال تنظيمية جديدة ، وإلى مخففات صدمة وعجلات توازن جديدة .

وسيفرض كل هذا تغييراً أكثر على وجه التأكيد — ولكن تغييراً من طراز مصمم منذ البداية للتحكم فى زمام سرعته واتجاهه . وليس هذا بالأمر السهل ؛ فنحن نتحرك بسرعة إلى أرض لم ترسم معالمها ، وليس بين أيدينا تكتيكات مجربة ملائمة ، ولا تصميمات جاهزة . ومن ثم فإن علينا أن نجرب أساليب عديدة لتنظيم وضبط التغيير ، مبتكرين لهذا الأسلوب ، ومطرحين لذاك على امتداد مسيرتنا . وبهذه الروح التجريبية سيكون طرحنا

لما سيلى من تكتيكات واستراتيجيات مقترحة ، لا كوصفات تشفى جميع الأمراض ، ولكن كنماذج لمنطلقات جديدة تحتاج إلى أن تجرب وتقوم . وبعض هذه الاقتراحات خاص بالمستوى الشخصى ، والبعض الآخر على المستويين التكنولوجى والاجتماعى ، لأن نضالنا من أجل قيادة التغيير يجب أن يتم على كل هذه المستويات فى وقت واحد معاً .

إننا نستطيع من خلال فهم أوضح للمشكلات ، وتحكم أذكى فى عمليات رئيسية معينة ، أن نحول المحنة إلى منحة ، وأن نساعد الناس ، لا على مجرد البقاء ولكن على اعتلاء أمواج التغيير ، وعلى النمو واكتساب معنى جديد لامتلاك زمام مصائرهم .

المواجهة المباشرة

نستطيع أن نبدأ معركتنا لتفادى صدمة المستقبل على أكثر المستويات اتساماً بالشخصية . فمن الواضح ، سواء علمنا بذلك أم لم نعلم ، أن كثيراً من مسلكنا اليومى ليس فى الواقع إلا محاولة لتفادى صدمة المستقبل . إننا نستخدم تكتيكات متنوعة لخفض مستويات التنبيه عندما تهدد بدفعنا إلى ما وراء مدانا التكيفى . ولكننا نستخدم معظم هذه التكتيكات لا شعورياً . ونحن نستطيع أن نزيد من فعاليتها إذا ما رفعناها إلى مستوى الشعور .

إننا نستطيع ، على سبيل المثال ، أن نلجأ من حين لآخر إلى فحص ردود فعلنا البدنية إزاء التغيير ، وأن نضبط لفترة وجيزة تناغم بيئتنا الخارجية . ولسنا نعنى بهذا : الإغراق فى الذاتية ، وإنما التقويم الهادئ لأدائنا الشخصى . وبنص كلمات هانز سيلى — الذى فتحت بحوثه على الإرهاق آفاقاً جديدة فى البيولوجيا والطب العقلى — فإن الفرد يستطيع « أن يدرك شعورياً العلامات الدالة على ما إذا كان قد حمل بأكثر مما يجب » .

إن خفقان القلب ، والارتعاشات ، والأرق ، والتعب ، دون سبب واضح ؛ قد تكون كلها علامات لفرط التنبيه — تماماً ، كما أن الاضطراب ، والتهيج ، والتراخى الشديد ، والشعور المفزع بأن زمام الأمور ينفلت ، تعتبر من المؤشرات النفسية . وبملاحظتنا الواعية لأنفسنا ، واستعراض ما حدث

من تغييرات فى ماضينا القريب ، نستطيع أن نحدد ما إذا كنا قد عملنا فى الحدود المريحة لمدانا التكيفى ، أم ضغطنا على أقصى حدوده الخارجية ، إننا باختصار ، نستطيع أن نعين بوعى سرعة خطونا فى الحياة .

فإذا ما فعلنا ذلك ، استطعنا أن نشرع فى التحكم الواعى فيها — رفعها وخفضها — بادئين أولا بالأشياء الصغيرة ، أى البيئات الضئيلة ، ثم بعد ذلك بالأشكال البنائية الأكبر للخبرة . ويمكننا أن نتعلم كيف نفعل ذلك إذا ما دققنا فى فحص استجاباتنا التلقائية لفرط التنبيه .

إننا نستخدم تكتيكات عديدة للتخفيف من حدة التنبيه . وعلى سبيل المثال ، فعندما نندفع إلى حجرة الأولاد لنغلق جهاز الراديو الستريو الذى كان يقرع أسماعنا بأصوات مزعجة وغير مرغوبة ، فإننا نتنفس الصعداء بالفعل ، ونحس بنوع من الراحة عندما تخفت الضوضاء . وثمة أساليب أخرى عديدة نعمد من خلالها أيضاً إلى تخفيف حدة الغارات الموجهة إلى حسنا — عندما نرخى الستائر لتعتيم الحجرة ، أو نطلب الهدوء فى نقطة نائية على الشاطئ . إننا قد ندير جهاز التكيف ، لا من أجل تخفيف الحرارة ، ولكن على الأحرى لنغطى على الأصوات المستجدة وغير المتوقعة المتصاعدة من الطريق بالأزيز الرتيب لجهاز التكييف .

إننا نغلق الأبواب ، ونلبس النظارات الشمسية ، ونتفادى الأماكن التى تتصاعد منها الروائح النفاذة ، ونتحاشى لمس الأشياء الغريبة عندما نريد أن نقلل من تلقينا للجديد من الزاد الحسى . ولنفس السبب فإننا نختار طريقاً مألوفاً نسلكه فى غدونا ورواحنا بين البيت والمكتب بدلا من التحول إلى طريق جديد ، مؤثرين بذلك المألوف على المستجد من الزاد الحسى . وباختصار ، فإننا نستخدم نوعاً من « الحجب الحسى » على هيئة آلاف من الحيل السلوكية الخفية لتوقف المنبهات الحسية عندما تقترب من الحد الأعلى لقدرتنا التكييفية .

وأيضاً فإننا نستخدم تكتيكات مماثلة على مستوى التنبيه الإدراكى .

فحتى أحسن الطلبة يتطلع من حين إلى آخر عبر النافذة صارفاً ذهنه عن المدرس ، وموقفاً إلى حين تدفق المعلومات الجديدة فى قناة إدراكه . وحتى أكثر الناس شغفاً بالقراءة يمرون بفترات لا يستطيع أحدهم خلالها أن يمد يده ليلتقط كتاباً أو مجلة .

لماذا فى أثناء سهرة ممتعة فى بيت أحد الأصدقاء ترفض واحدة من المجموعة أن تتعلم لعبة جديدة بالورق بالرغم من إلحاح الآخرين عليها ؟ هناك عوامل كثيرة تلعب دورها فى مثل هذا الموقف : اعتداد الفرد بنفسه ، وخوفه من أن يبدو غبياً ، إلى آخره . ولكن ثمة عاملا آخر لم يلتفت إليه قد يكون وراء هذا العزوف عن التعلم ، ذلكم هو المستوى العام للتنبيه الإدراكى فى حياة الفرد فى ذلك الوقت . إن عبارة « لا تزعجنى بحقائق جديدة » عبارة نطلقها عادة كدعاية أو نكتة ، ولكنها نكتة تخفى وراءها رغبة حقيقية فى تحاشى التعرض لضغط المزيد من المعلومات الجديدة .

ويعلل هذا أيضاً ، وإلى حد ما ، اختياراتنا فيما يتعلق بالتسرية وتزجية الفراغ : المطالعة ، السينما ، برامج التليفزيون : فأحياناً نبحث عن نسبة عالية من الجدة وفيض غنى من المعلومات . وفى أحيان أخرى نقاوم التنبيه الإدراكى بشدة ، ونفضل أنواعاً « خفيفة » من التسرية . إن الحبكة النموذجية للقصص البوليسية ، على سبيل المثال ، تحتوى أثراً ضئيلا مما يستعصى على التنبؤ — من الجانى ؟ — وسط إطار محكم البناء من الأحداث والعلاقات غير المستجدة ، ومن ثم القابلة للتنبؤ ، وبهذه الطريقة نستخدم التسرية كأداة لرفع أو خفض التنبيه ، وتعديل معدلات التلقى بما لايشكل حملا زائداً على قدراتنا .

فإذا ما استخدمنا مثل هذه التكتيكات بوعى أكثر ، نستطيع « ضبط نغمة » بيئاتنا الصغيرة ، كما يمكننا أيضاً أن نقلل من المنبهات غير المرغوب فيها من خلال العمل على تخفيف أعبائنا الإدراكية . لقد كتب سيلى يقول : « إن محاولة تذكر العديد الوافر من الأشياء ، هى على وجه التأكيد ، من بين

المنابع الرئيسية للإرهاق النفسى . . وأنا شخصياً أبذل جهداً واعياً لأنسى فوراً كل ما هو غير مهم ، حاصراً قدرتى فى تذكر ما يمكن أن يكون ذا قيمة . . . إن هذا الأسلوب يمكن أن يساعد أى إنسان على تحقيق أكبر حد من البساطة يمكن أن يتحقق فى ظروف مستوى التركيب الذى بلغته حياته الفكرية » .

ونحن أيضاً نعمل على تنظيم تدفق صنع القرارات . . إننا نؤجل اتخاذ القرارات ، أو نوكل أمرها إلى الآخرين عندما نعانى من شدة ضغطها علينا . وأحياناً « نتجمد » من هذه الناحية . لقد رأيت بنفسى أخصائية نفسية إثر عودتها من مؤتمر مهنى مزدحم مثير ، وقد جلست فى مطعم ورفضت كلية أن تتخذ قراراً فيما ستأكل !؟ لقد سألها زوجها : « ماذا تأكلين ؟ » فأجابت : « قرر أنت بالنيابة عنى .. » . وعندما سألها أن تختار بين أصناف معينة رفضت أيضاً وأصرت على أنها لا تملك «الطاقة» الكافية لإصدار قرار بهذا الشأن .

من خلال أمثال هذه الأساليب نحاول أن ننظم ونضبط تدفق المنبهات على المستوى الحسى ، والمستوى الإدراكى ، ومستوى اتخاذ القرارات . وربما أيضاً نحاول بطريقة ما معقدة وغير معروفة بعد أن نوازن بينها . ولكننا نستخدم أساليب أقوى لمواجهة التهديد بفرط التنبيه . وتشمل هذه الأخيرة محاولاتنا للتحكم فى معدلات الزوال والجدة والتنوع فى محيطنا .

مناطق الاستقرار الشخصى

إن معدل التغيير فى حياتنا ، على سبيل المثال ، يمكن أن نتحكم فيه بقرارات واعية . . نستطيع مثلا أن نقلل من معدل التغيير وحدة التنبيه بأن نحتفظ عن قصد بعلاقات أطول أمداً مع عناصر بيئتنا المادية ، وبالتالى نستطيع أن نرفض شراء المنتجات السريعة الاستهلاك . نستطيع أن نحتفظ بنفس السترة القديمة لفصل آخر ، ونرفض بإصرار أن نتتبع آخر خطوط المودة ، وأن نصم آذاننا عن محاولات البائع لإقناعنا بمزايا المقايضة على السيارة

القديمة بأخرى جديدة . وبهذه الطريقة نقلل من حاجتنا إلى إنشاء وفصم علاقاتنا بالأشياء المادية المختلفة فى بيئتنا .

ونستطيع أيضاً أن نستخدم نفس التكتيك فيما يتصل بالناس وغير ذلك من أبعاد الخبرة . فثمة أوقات تأتى على أشد الأشخاص حباً للحياة الاجتماعية يحس فيها بانعدام الرغبة فى أى مشاركة ، فيرفض الدعوات إلى الحفلات وغيرها من المناسبات التى تتضمن نوعاً من التفاعل الاجتماعى . ونستطيع أن نقلل من أسفارنا إلى أكبر حد ممكن . . ونستطيع أن نقاوم محاولات إعادة التنظيم العديمة الهدف فى الشركة ، والكنيسة ، والجماعات المحلية . وعند اتخاذ القرارات الهامة . إننا نستطيع أن نوازن موازنة واعية بين تكاليف التغيير فى مقابل مزاياه .

وليس من بين كل ما ذكرنا ما يفترض إمكان أو وجوب وقف التغيير . ولست أعتقد أن هناك أسخف من نصيحة دوق كمبردج الذى نسب إليه أنه قال : « أى تغير ، فى أى وقت ولأى سبب ، سيكون أمراً محزناً » . إن نظرية المدى التكيفى تفترض أنه ، بالرغم من كل التكاليف البدنية ، فإن مستوى معيناً من التغيير يعتبر ضرورة حيوية للصحة بقدر ما يعتبر التغيير الزائد عن الحد مضراً بها .

إن بعض الناس ، ولأسباب لم تتضح بعد ، مهيأون لتلقى مستوى أعلى من المنبهات بأكثر مما يفعل الآخرون . . أولئك الذين تستبد بهم الرغبة فى التغيير حتى عندما يهرب منه الآخرون — بيت جديد ، وسيارة جديدة ، ورحلة جديدة ، وأزمة جديدة فى العمل ، وضيوف أكثر ، وزيارات أكثر ، ومغامرات مالية أكثر — إنهم يبدون وكأنهم يتقبلون كل هذا دون أن تظهر عليهم أية آثار سيئة .

ومع ذلك فإن التحليل الدقيق لمثل هؤلاء الأشخاص غالباً ما يسفر عن وجود ما يمكن أن يسمى : « مناطق الاستقرار » فى حياتهم — علاقات دائمة معينة محافظ غليها بعناية بالرغم من كل التغييرات الأخرى .

وثمة رجل أعرفه شخصياً مر بسلسلة من العلاقات الغرامية والطلاق وإعادة الزواج — كل ذلك خلال فترة قصيرة من الزمن . وهو شديد الميل إلى التغيير ، ويحب السفر ، والأطعمة الجديدة ، والأفكار الجديدة ، والأفلام ، والمسرحيات ، والكتب الجديدة . وهو يتمتع أيضاً بقدر كبير من الذكاء والثقافة ، سريع السأم ، لا يطيق التقاليد ، تواق دائماً إلى كل ما هو جديد . إنه بإيجاز مثال حى للتغيير .

ولكن عندما ندقق النظر عن قرب فسنجد أنه ظل فى نفس الوظيفة لمدة عشر سنوات ، ويقود سيارة بالية عمرها سبع سنوات ، وملابسه تنتمى إلى « مودة » انقضت عليها سنوات عديدة ، وأقرب الأصدقاء إليه زملاء قدامى فى المهنة ، وحتى بعض زملائه فى الدراسة .

وهناك حالة أخرى لرجل غير وظيفته بمعدل يخطف البصر ، وتنقل بأسرته بين ثلاثة عشر منزلا خلال ثمانية عشر عاماً ، كثير الأسفار ، يستأجر السيارات ، ويستخدم المنتجات السريعة الاستهلاك ، ويفخر بأنه يقود جيرانه إلى تجربة كل أداة جديدة ، ويعيش بشكل عام وسط دوامة من الزوال والجدة والتنوع . ومع ذلك ، ومرة أخرى ، فإن النظرة الفاحصة تكشف عن مناطق استقرار هامة فى حياة هذا الرجل : علاقة جديدة ووثيقة تربط بينه وبين زوجته منذ تسعة عشر عاماً ، وروابط مستمرة بينه وبين والديه ، وأصدقائه وزملائه القدامى ، تتخللها علاقات بمعارف جدد .

وثمة شكل آخر من أشكال مناطق الاستقرار يتمثل فى نمط العادات التى تلازم الشخص أينما ذهب ، ومهما طرأ على حياته من تغييرات . هناك مثلا ذلك الأستاذ الذى غير سكنه سبع مرات فى عشر سنوات ، والدائم الأسفار فى أرجاء الولايات المتحدة وأمريكا الجنوبية وأوربا وأفريقيا ، والذى غير عمله بشكل متكرر ، وبالرغم من ذلك فإنه مداوم فى كل الأحوال على روتينه اليومى . إنه يقرأ فيما بين الثامنة والتاسعة من كل صباح ، ويمارس التمرينات الرياضية لمدة ٤٥ دقيقة قبل الغداء ، ثم إغفاءة مدتها نصف ساعة بعد الغداء قبل أن ينغمس فى عمله الذى يستمر فيه إلى الساعة العاشرة مساء .

ومن ثم فإن المشكلة ليست وقف التغيير ، وهو أمر مستحيل فى حد ذاته ، ولكن المشكلة هى كيف نقوده . فإن كنا نؤثر التغيير السريع فى قطاعات معينة من الحياة فإننا نستطيع القيام بمحاولة واعية لبناء الاستقرار فى قطاعات أخرى . فلا ينبغى ، على سبيل المثال ، أن نتبع الطلاق بتغيير فى العمل . ولما كان مولد طفل يعدل من كل الروابط الإنسانية فى محيط الأسرة ، فربما كان من غير المناسب أن نتبع ذلك الحدث الهام بالانتقال بعد فترة وجيزة إلى جيرة جديدة ، وبالتالى تغيير هائل فى روابطنا الإنسانية خارج نطاق الأسرة أيضاً . والمرأة الحديثة الترمل قد لا يجدر بها أن تبادر ببيع منزلها .

ولكن من أجل أن نصمم مناطق استقرار فعالة ، ومن أجل أن نعدل الأشكال الأكبر فى حياتنا ، فإننا نحتاج إلى أدوات أقوى من ذلك بكثير . إننا نحتاج قبل كل شئ إلى توجيه جديد تماماً نحو المستقبل . .

وأخيراً فإننا — كى نستطيع التحكم فى التغيير — يجب أن نحسب توقعاته . . إن فكرة أن مستقبل المرء يمكن إلى حد ما توقعه تصدم المعتقدات العامة الراسخة . فمعظم الناس يعتقدون فى أعماقهم أن المستقبل صفحة بيضاء . . ولكن الحقيقة تؤكد أننا نستطيع أن نحدد احتمالات بعض التغييرات التى تنتظرنا ، وبخاصة فيما يتصل بأنواع معينة من التغييرات البنائية الكبرى . وثمة سبل لاستخدام هذه المعرفة فى تصميم مناطق الاستقرار الشخصى .

إننا نستطيع ، على سبيل المثال ، أن نتنبأ على وجه اليقين بأننا ما لم يتدخل الموت فإننا سنتقدم فى السن ، وكذلك أبناؤنا ، وأقرباؤنا ، وأصدقاؤنا ، ستتقدم السن بهم أيضاً ، وأننا بعد نقطة معينة ستتدهور صحتنا . وواضح أننا — كنتيجة لهذه الحقيقة البسيطة — نستطيع أن نستنتج الكثير عن حياتنا خلال العام القادم أو الخمسة أو العشرة الأعوام التالية ، وعن حجم التغييرات التى سيكون علينا أن نمتصها خلال هذه الفترة .

إن القليل من الأفراد والأسر فقط هم الذين يخططون لمقبل الأيام بطريقة منتظمة . وهم إذ يفعلون فعادة ما يكون التخطيط فى صيغة ميزانية . ولكننا نستطيع أن نتنبأ بما سننفقه من وقتنا ومشاعرنا كما نتنبأ بما سننفقه من مال .

ومن ثم فإنه من الممكن أن يفوز المرء بلمحات كاشفة عن مستقبله وأن يقدر المستوى العام للتغيير الكامن فى مستقبل أيامه ، وذلك من خلال إعداد بشكل دورى لما يمكن أن نسميه « التنبؤ الخاص بالزمن والمشاعر » . وهى محاولة لتحديد النسبة المئوية للزمن وللطاقة العاطفية المستثمرين فى مختلف نواحى الحياة – ليرى كيف يمكن أن تتغير هذه النسبة على مر السنين .

يستطيع المرء ، على سبيل المثال ، أن يضع قائمة رأسية لقطاعات الحياة التى نرى أنها الأهم بالنسبة لنا : الصحة ، الوظيفة ، وقت الفراغ ، العلاقات الزوجية ، العلاقات الأبوية ، العلاقات البنوية ، إلى آخره . . ويمكن بعد ذلك أن نضع قرين كل قطاع تقديراً تقريبياً لحجم الوقت الذى نكرسه حالياً له . وحتى نوضح الصورة أكثر : إذا فرضنا أن الرجل يعمل من الساعة التاسعة صباحاً إلى الخامسة مساء ، وينفق نصف ساعة فى الذهاب والعودة ، ووضع فى الحساب أيام الراحة والإجازات المعتادة ، فإن الرجل الذى يستخدم هذه الطريقة سيجد أنه يخصص ٢٥٪ تقريباً من وقته للعمل . ويستطيع أيضا ، بالرغم مما فى ذلك من صعوبة ، أن يضع تقديراً ذاتياً لنسبة الطاقة العاطفية التى يستثمرها فى عمله . فإن كان عمله رتيباً ومؤمناً فهو حرى إذن بأن يستثمر فيه قليلا جداً من هذه الطاقة . فليس ثمة علاقة ضرورية بين حجم الوقت المكرس والطاقة العاطفية المستثمرة .

فإذا مافعل نفس الشئ بالنسبة لكل القطاعات الهامة فى حياته . وحمل نفسه على أن يسجل النسبة المئوية حتى ولو لم تكن أكثر من مجرد تقدير فج ، وراعى فى تقديره ألا يتجاوز المجموع الكلى للأرقام ١٠٠٪ فإنه سوف يكافأ على تعبه باكتشافات مدهشة ؛ لأن طريقة توزيعه لوقته وطاقته العاطفية تعد قرينة مباشرة على قيمته وشخصيته .

أما الثمار الحقيقية لهذه العملية فستبدأ فى الظهور عندما ينظر إلى الأمام مسائلا نفسه ، بأمانة وبالتفصيل ، عن عمله أو زواجه ، أو علاقته بوالديه ، وأولاده من زاوية توقعاته لما سيطرأ عليها من تغييرات خلال السنوات القادمة »

فلو كان صاحبنا ، على سبيل المثال ، رجلا فى الأربعين من عمره يشغل منصباً فى الإدارة الوسطى ، وله ولدان مراهقان ، ووالدان أو حموان على قيد الحياة ، ومصاباً حديثاً بقرحة فى الاثنى عشر ، فيستطيع أن يتوقع أنه فى خلال السنوات الخمس القادمة سيذهب ولداه إلى الجامعة ، أو يغادران البيت . وأن الوقت المكرس للوالدين سيتناقص على الأرجح . وأيضاً يستطيع أن يتوقع تناقصا فى الطاقة العاطفية المستثمرة فى دوره كأب . ومن ناحية أخرى ، ومع تقدم والديه وحمويه فى السن ، فقد يكرس وقتاً وطاقة عاطفية أكثر لرعايتهم . فإن كانت الإحصاءات ترجح وفاتهم خلال الفترة الموضوعة تحت الدراسة ، فإنه يحتاج إلى أن يواجه هذه الحقيقة . إنها حرية بأن تسفر عن تغيير كبير فى التزاماته . وفى نفس الوقت ، فإن صحته لن تكون بأى حال أفضل مما هى عليه الآن . وبنفس الطريقة يستطيع أن يخاطر ببعض التخمينات المتصلة بعمله — فرصة فى الترقية ، إمكانية إعادة التنظيم ، والنقل ، وإعادة التدريب ، إلى آخره .

كل هذا صعب بطبيعة الحال ولا يعطيه « معرفة بالمستقبل » ، بل بالأحرى يساعده على تكوين بعض الفروض الواضحة حول المستقبل . وعندما يستمر مقدراً نبوءاته بالنسبة للعام القادم والذى يليه ، والعام الخامس فالعاشر ، فإن أشكال التغيير سوف تبدأ فى الظهور . وسيرى أن أعواماً معينة ستتميز على الأرجح بتحولات وإعادة توزيع أكثر من غيرها . وسيستطيع — اعتماداً على قوة هذه الفروض المنهجية — أن يقرر كيف سيعالج القرارات الهامة فى الوقت الراهن .

هل تغير الأسرة مسكنها فى العام القادم ؟ أم سيكون لديها الكفاية من التغييرات المرهقة دون حاجة إلى هذه الإضافة ؟ هل يترك عمله ؟ هل يشترى سيارة جديدة ؟ أو يقوم برحلة مكلفة ؟ هل يضع حمويه المسنين فى منزل للمسنين ؟ هل ينشئ علاقة غرامية ؟ هل يحتمل اهتزاز زواجه أو تغيير مهنته ؟ هل ينبغى له أن يبقى على التزامات معينة دون تغيير ؟

ليست هذه فى الواقع سوى أدوات فجة إلى حد بعيد . وربما استطاع

اخصائيو علم النفس وعلم النفس الاجتماعى أن يصمموا أدوات أكثر صقلا وأشد حساسية لفروق الاحتمالات وأدق فيما تعطيه من تنبوءات . ولكن إذا كان ما نبحث عنه هو مجـــرد قرائن لا تنبوءات يقينية ، فحتى مثل هذه الأدوات البدائية يمكن أن تساعدنا على ترويض وتوجيه تدفق التغييرات فى حياتنا . لأنها كما تساعدنا على تعرف مناطق التغيير السريع ، تساعدنا أيضا على التعرف إلى – أو إيجاد – مناطق الاستقرار ، أى أشكال الثبات النسبى وسط تيار التقلب الجارف . إنها على الأقل ستعزز من احتمالات انتصار الفرد فى نضاله من أجل توجيه التغيير .

وليست هذه بأى حال عملية سلبية – ليست محاولة لوقف التغيير ، أو فرض الحواجز عليه . إن القضية بالنسبة لأى فرد فى محاولته لمواجهة التغيير السريع هى كيف يبقى على نفسه داخل نطاق مداه التكيفى ، وأكثر من هذا ، كيف يجد تلك النقطة التى يستطيع أن يعيش عندها فى الذروة من فعاليته . لقد قام الدكتور جون . ل . فوللر – كبير العلماء المشتغلين بمعمل جاكسون ، وهو مركز للبحوث البيولوجية والطبية فى بارهاربور بولاية مين – قام بالإشراف على تجارب حول تأثير كل من زيادة التحميل والتجريد فى خبرات الأفراد . وكان من بين ما أسفرت عنه هذه التجارب ما عبر عنه بقوله : « بعض الناس يحافظون على صفاتهم وهدوئهم حتى وسط أشد الظروف اضطرابا ، ليس لأنهم محصنون ضد المشاعر ، ولكن لأنهم قد وجدوا طرقا للحصول على الحجم « المناسب » تماما من التغيير فى حياتهم » . إن البحث عن ذلك الهدف قد يمثل الجانب الأكبر مما يطلق عليه اصطلاح « البحث عن السعادة » .

إننا قد حوصرنا ، ولو مؤقتا ، داخل إطار القدرات المحدودة لجهازنا العصبى والغدى ، ينبغى لنا أن نبتكر تكتيكات جديدة تساعدنا على تنظيم وضبط ما نتعرض له من تنبيه .

التصنيف المرحلي

إن مشكلة هذه التكتيكات الشخصية أنها تفقد فعاليتها يوما بعد يوم . فكلما ارتفع معدل التغيير صعب على الفـــرد إيجاد مناطق الاستقرار الشخصى التى يحتاج إليها . وبالتالى ترتفع تكاليف الاستقرار .

قد نظل مقيمين بنفس البيت القديم – فقط لنرى جيرتنا وقد تحولت وتبدلت . وقد نحتفظ بالسيارة القديمة – فقط لنرى « فواتير » الإصلاح والصيانة ترتفع إلى مالا يمكن احتماله . . وقد نرفض النقل إلى موقع جديد – فقط لنفقد عملنا كنتيجة لهذا الرفض . ذلك أنه بينما توجد طرق لتخفيف تأثير التغيير فى حياتنا الشخصية ، فإن المشكلة الحقيقية تكمن خارج ذواتنا .

وحتى نخلق البيئة التى يصبح التغيير فيها مصدر حيوية وإثراء للفرد ، ينبغى لنـــا ألا نقتصر على استخدام تكتيكات شخصية فحسب ، وإنما استراتيجيات اجتماعية أيضا . فإن كنا نريد للناس أن يجتازوا بسلام فترة التغيير المتسارع ، فيجب أن نبدأ من الآن فى بناء « ممتصات صدمة المستقبل » داخل نسيج مجتمع ما فوق التصنيع ذاته . وهذا يتطلب منا أسلوبا جديدا للتفكير حول التغيير والاستقرار فى حياتنا .

إننا اليوم ننحو فى تصنيفنا للأفراد منحى لا يأخذ فى اعتباره حالة التغيير التى يمر بها الفرد لحظة التصنيف ، ولـكن حالة وضعه بين تغييرين . فنحن نعتبر الرجل نقابيا لأنه انضم إلى النقابة ولم يتركها بعد . إن توصيفنا له هنا لا يشير إلى أى من حالتى الانضمام والانفصال . ولـكن إلى حالة « الاستقرار » الواقعة بينهما . وعلى نفس القياس فإن توصيفنا لفلان من الناس بأنه طالب بالجامعة ، أو موظف إدارى ، أو عضو بكنيسة كذا – إنما يشير إلى حالة الشخص المـاثلة بين تغييرين .

ولـكن ثمة سبيلا آخر مختلفا تماماً فى النظرة إلى الناس . وعلى سبيل المثال ، فإن إشارتنا إلى شخص ما بأنه « شخص ينتقل إلى مسكن جديد » يضعه ضمن تصنيف يضم أكثر من مائة ألف أمريكى فى أى يوم من الأيام ، وإن كان من النادر أن ننظر إليهم باعتبارهم يكونون جماعة ما ، وأيضا فإن تصنيفات « الشخص الذى يغير عمله » أو « الشخص الذى ينضم إلى كنيسة ،

أو « الشخص الذى يسعى للحصول على طلاق ، كلها مؤسسة على حالة زوالية مؤقتة أكثر منها على حالات مستقرة بين تغييرين .

هذا التحول المفاجئ من النظرة إلى الناس باعتبارهم « قد أصبحوا » إلى النظرة إليهم على أنهم « بسبيل أن يصبحوا » ، يقترح مقتربات جديدة تماما من مسألة التكيف .

ومن بين أبسط هذه المقتربات وأخصبها خيالا ما اقترحه الدكتور هربرت جيرجوى الأخصائى النفسى بمنظمة البحوث الخاصة بالطاقات الإنسانية . لقد أطلق الدكتور جيرجوى على فكرته اصطلاح : « التصنيف المرحلى » . وككل الأفكار الجيدة ، فإنها سرعان ما تبدو واضحة جلية بمجرد أن تشرح ، وإن كانت لم تتح لها حتى الآن فرصة التطبيق بشكل منهجى . ومع ذلك فقد يصبح التصنيف المرحلى إحدى الخدمات الاجتماعية الرئيسية فى المستقبل .

وتتلخص فكرة الدكتور جيرجوى فى أنه علينا أن نهيئ منظمات مؤقتة — « جماعات مرحلية » — للناس الذين يتصادف أنهم يمرون فى نفس الوقت بنفس المرحلةمن مراحل الانتقال فى الحياة . ويقترح جيرجوى أن تنشأ مثل هذه المنظمات « للأسرة التى تعانى من تغيير موقع إقامتها ، وللرجال والنساء الوشيكى الطلاق ، وللأشخاص ممن هم على وشك فقد أحد الوالدين أو شريك الحياة ، ولأولئك الذين ينتظرون وليدا ، وللرجال ممن يستعدون للانتقال إلى وظيفة جديدة ، وللأسر التى وفدت فورا على المجتمع المحلى ، ولأولئك الذين هم بسبيل أن يزوجوا آخر أبنائهم ، ولمن هم على وشك التقاعد — وبعبارة أخرى لكل إنسان يواجه تغييرا كبيرا فى حياته .

« وبطبيعة الحال ستكون العضوية فى هذه الجماعات مؤقتة — فقط للمدة الكافية لمساعدة شخص على اجتياز صعوبات الانتقال . قد يلتئم شمل بعض الجماعات لبضعة أشهر ، وقد لا تلتقى جماعات أخرى إلا مرة واحدة » .

ويرى جيرجوى أننا بتجميع الناس الذين يتقاسمون ، أو على وشك أن يتقاسموا ، نفس التجربة التكييفية ، فإننا بذلك نسلحهم بما يعينهم على اجتياز التجربة : « إن الرجل المطالب بأن يتكيف مع وضع جديد فى حياته يفقد بعض اعتداده بنفسه . إنه يبدأ يشك فى قدراته . فإن جمعنا بينه وبين الآخرين ممن يمرون بنفس التجربة ، بأشخاص يحترمهم ويجد فيهم مرآة لنفسه ، فإننا بذلك نمنحه قوة على المواجهة . وسيجد أعضاء الجماعة أنفسهم ، ولو لفترة وجيزة ، شركاء فى معنى ما من معانى الهوية . وسينظرون إلى مشكلاتهم بموضوعية أكثر . ويتبادلون الأفكار والآراء العملية . وأهم من كل شىء فإنهم سيتبادلون الاقتراحات فيما يتصل باختيارات المستقبل .

هذا التركيز على المستقبل ، كما يقول جيرجوى ، له أهمية قصوى . فعلى عكس ما تلجأ إليه بعض جلسات العلاج الجماعى ، لن تكرس لقاءات الجماعات المرحلية لاجترار الماضى أو التعلق بأذياله ، أو امتحان الضمير من خلال البوح الذاتى ، بل من أجل مناقشة أهداف شخصية وتخطيط استراتيجيات عملية لاستخدامها فى المرحلة الجديدة من حياتهم . وقد يشهد الأعضاء أفلاما لجماعات مماثلة ، وهى تعالج نفس النوع من المشكلات ، وقد يستمعون إلى غيرهم ممن قطعوا شوطا أطول فى مرحلة الانتقال . وباختصار ، فإنهم يمنحون الفرصة لتجميع خبراتهم وأفكارهم الشخصية قبل أن تدركهم لحظة التغيير .

ومن حيث الجوهر ، لا يوجد ثمة جديد حول هذا المقترب : فحتى فى وقتنا الراهن تقوم تنظيمات معينة على أسس من المرحلية . إن جماعة من فيلق السلام تستعد للسفر إلى الخارج ليست فى الواقع سوى جماعة مرحلية ، وكثير من المدن الأمريكية بها ما يسمى « نادى الوافدين الجدد » ، الذى يدعوهم إلى حفلات العشاء المشتركة وغيرها من المناشط الاجتماعية التى تهيئ لهم فرصة التعارف ، وتبادل وجهات النظر حول مشكلاتهم وخططهم للمستقبل . وربما كان من الواجب أن يكون هناك « ناد للمغادرين » أيضا . أما الجديد فى الاقتراح فهو أن نملأ المجتمع ، وبطريقة منهجية ، بمثل هذه المنظمات التى تعتبر بمثابة « فصول تدريب على المواجهة » .

ومن غير الممكن ، أو الضرورى ، أن تأتى كل المساعدات التى يحتاج إليها الفرد من قبل الجماعات ، ففى كثير من الحالات يكون الفرد الواقع تحت ضغط التغيير أشد حاجة إلى الاستشارة المباشرة فى أثناء أزمة التكييف . و « الأزمة » فى لغة الطب النفسى تعبير عن أى مرحلة انتقال هامة . وهى مرادف تقريبى لمعنى « التغيير الكبير فى الحياة » :

واليوم يلجأ الأشخاص الذين يعانون من أزمة انتقالية إلى خبراء مختلفين ــ أطباء ، مستشارى زواج ، أطباء نفسيين ، أخصائيين فى الشئون المهنية ، وغيرهم ــ فى طلب النصيحة الفردية . ولكن بالنسبة لأنواع كثيرة من الأزمات لا يوجد خبراء مناسبون . من الذى يقدم العون لأسرة أو لفرد مواجه بالحاجة إلى الانتقال إلى مدينة جديدة للمرة الثالثة خلال خمس سنوات ؟ ولمن يلجأ ذلك القيادى الذى رفع أو أنزل السلم القيادى لناديه أو لمنظمته المحلية ؟ من هناك ليقدم المشورة إلى تلك السكرتيرة التى أعيدت فجأة إلى مجمع الآلات الكاتبة ؟

مثل هؤلاء الأشخاص ليسوا من قبيل المرضى ، وليسوا فى حاجة إلى علاج نفسى ، ومع ذلك فليس ثمة جهات استشارية يمكنهم أن يلجأوا إليها .

وليت الأمر اقتصر على الأنواع الموجودة اليوم من حالات الانتقال التى لا يجد أصحابها من يقدم لهم المشورة . ولكن الجدة التى تغزو حياتنا سوف تدفع بالأفراد مستقبلا إلى مواجهة أزمات شخصية من أنواع جديدة. ونظراً لأن المجتمع يتجه مسرعا نحو التنوع ، فستزداد بالتالى المشكلات تنوعا . ففى المجتمعات الجامدة ، والبطيئة التغير ، تتماثل طرز الأزمات التى تواجه الأفراد ، ومن السهل إدراك المصدر الذى تستمد منه النصيحة بشأنها ، حيث يذهب الشخص الذى تواجهه الأزمة إلى القسيس ، أو الساحر ، أو الرئيس المحلى . واليوم أصبحت خدمات الاستشارة الشخصية فى المجتمعات

المتقدمة تكنولوجيا من التخصص ، لدرجة أننا قد أوجدنا طبقة ثانية من المستشارين الذين لا يفعلون أكثر من أن يشيروا على الفرد بأين يلتمس النصيحة ؟

هذه الخدمات التحويلية تفرض إجراءات إضافية ، وتأخيراً أكثر فى تلقى الفرد للمساعدة التى يحتاج إليها . وعندما يصله العون قد يكون قد خطا بالفعل الخطوة الهامة واتخذ القرار — وفعل ذلك بشكل سيء . ومادام العرف قد جرى بيننا على أن النصيحة لابد وأن تأتى من أخصائى محترف ، وفى تخصص بعينه من التخصصات الدائمة التعدد والزيادة ، فنستطيع إذن أن نتوقع تفاقم متاعب الفرد فى الحصول على النصيحة المناسبة . وفضلا عن ذلك فما دمنا نؤسس هذه التخصصات على اعتبار ما « قد أصبح» عليه الناس بدلا مما هم « بسبيل أن يصبحوا » عليه ، فإننا سنغفل بذلك الكثير من مشكلات التكيف الحقيقية إغفالا تاما . إن خدمات الاستشارة التقليدية لن تستطيع مطلقا الوفاء بما تحتاج إليه مشكلات التكيف .

والحل ماثل فى شيء من نظير نظام التصنيف المرحلى — بنية استشارية لا تقتصر على المستشارين المحترفين فقط ، بل على أعداد ضخمة من الخبراء العاديين أيضا . يجب أن ندرك أن التعليم الرسمى ليس هو بالضرورة ما يجعل المرء خبيرا فى طراز معين من الأزمات ، وإنما يكفى أنه يكون هو ذاته قد اجتاز مثل هذه الأزمة من قبل .

وحتى نساعد الملايين على التغلب على أزمة الانتقال التى ستواجههم سوف نضطر إلى « انتداب » أعداد كبيرة من غير المحترفين فى المجتمع — رجال أعمال وطلبة ، ومعلمين ، وعمال ، وغيرهم — للعمل بصفة « مستشارى أزمات » . إن مستشارى أزمات الغد لن يكونوا خبراء فى فروع تقليدية من المعرفة كعلم النفس أو الصحة ، ولكن فى حالات انتقال معينة من مثل تغيير محل الإقامة ، وترقيات العمل ، والطلاق ، وغيرها ، وستكون مؤهلاتهم لهذا العمل خبرتهم الذاتية الحديثة ، كل فى نوع بعينه من حالات

الانتقال . وسيعملون لبعض الوقت ، إما على أساس تطوعى ، أو لقاء أتعاب رمزية . وسينصت هؤلاء للآخرين من الناس العاديين وهم يحدثونهم عن مشكلاتهم ، ومخاوفهم وخططهم ، وبالمقابل فإن هؤلاء المستشارين سيكون لهم الحق بدورهم فى أن يتلقوا عونا مماثلا من الآخرين عندما تواجههم مشاكلهم الخاصة بالتكيف .

ومرة أخرى فليس هناك من جديد فى لجوء الناس بعضهم إلى بعض طلبا للعون . أما الجديد فهو قدرتنا ، من خلال استخدام نظم الكومبيوتر ، على تشكيل الجماعات المرحلة بسرعة ، وأن نقرن الأفراد بالمستشارين المناسبين ، وأن نراعى فى كلا الأمرين القدر المناسب من السرية .

إننا نستطيع أن نرى حاليا بالفعل دلائل التحرك فى هذا الاتجاه فى انتشار خدمات « الاستماع » و « العناية » . ففى مدينة دافينبورت بولاية أيوا يستطيع الإنسان الذى يعيش وحيداً أن يدير رقم تليفون معين فيوصل بـ « مستمع » — وهو واحد من مجموعة كبيرة من المتطوعين تعمل بالتناوب على مدى أربع وعشرين ساعة يوميا . وهذا البرنامج الذى نفذ بمبادرة من اللجنة المحلية لشئون المتقدمين فى السن يشبه من بعض الوجوه خدمة «العناية» فى مدينة نيويورك وإن كان يختلف عنها ، فالأخيرة تتقاضى من المشتركين فيها أتعابا مقابل مكالمتين يتلقاهما المشترك يوميا للاطمئنان عليه . وكل مشترك يعطى للخدمة عنوان ورقم تليفون طبيبه وأحد جيرانه ، وملاحظ العمارة ، وقريب له . وفى حالة عدم رد المشترك على المكالمة تداوم الخدمة على الاتصال لمدة نصف ساعة قبل أن تخطر الطبيب وترسل بممرضة إلى المشترك. وخدمات العناية تنتشر الآن فى كثير من المدن . إننا نرى فى هاتين الخدمتين طلائع نظام الخدمات الاستشارية للأزمات فى المستقبل :

وفى ظل ذلك النظام لن يكون إعطاء وتلقى النصيحة « خدمة اجتماعية » بالمعنى البيروقراطى ، اللاشخصى المعتاد . بل عملية تتسم بقدر عال جدا من الصفة الشخصية لن تساعد الأفراد على اعتلاء موجات التغيير فى حياتهم

فحسب ، ولكن ستساعد أيضا على تلاحم المجتمع فى نوع من « نسيج المحبة » ، أى فى نظام متكامل مؤسس على مبدأ : « أنا فى حاجة إليك كما أنك فى حاجة إلى » . إن التصنيف المرحلى والاستشارة الشخصية فى الأزمات سيصبحان على الأرجح جزءا من الحياة اليومية لكل فرد منا فى أثناء مسيرتنا معا نحو مجهولات المستقبل .

المنازل الوسيطة

ثمة نوع آخر مختلف من « ممتصات صدمة المستقبل » ماثل فى فكرة « المنزل الوسيط » التى استخدمت بالفعل بواسطة سلطات السجون المتطورة لتيسير عودة السجين إلى الحياة الطبيعية . وطبقاً لما يراه دانييل جليسر أستاذ علم الجريمة ، فإن السمة المميزة للمؤسسات الإصلاحية فى المستقبل ستكون فكرة « الإفراج التدريجى » .

فبدلا من أخذ السجين مباشرة من حياة السجن الصارمة الرتيبة المفتقرة إلى الإثارة والزج به بقسوة وبلا إعداد إلى دوامة المجتمع ، فإنه ينقل أولا إلى مؤسسة وسيطة حيث يسمح له بالعمل فى المجتمع فى أثناء النهار والعودة إلى المؤسسة والبقاء فيها فى أثناء الليل . ثم تدريجياً ترفع عنه القيود حتى يتلاءم تماماً مع العالم الخارجي . وقد طبق نفس المبدأ بواسطة مؤسسات مختلفة للعلاج العقلى .

ومن نفس المنطلق برزت اقتراحات ترى أن مشكلات السكان الريفيين الذين ينتقلون فجأة إلى المدن يمكن أن تخفف إلى حد بعيد إذا ما استخدمنا نفس مبدأ « المنزل الوسيط » لتيسير دخولهم إلى أسلوب حياتهم الجديد . وما تحتاج إليه المدن طبقاً لهذه النظرية هو تسهيلات استقبال تهيئ للقادمين الجدد نوعاً من الحياة الوسط بين مجتمع الريف الذى تركوه ومجتمع المدينة المقبلين عليه . فلو أننا بدلا من أن نعامل المهاجرين الجدد إلى المدينة بازدراء وندعهم للبحث عن طريقهم بأنفسهم ، هيأنا لهم فرصة التأقلم مع المجتمع الجديد منذ البداية ، لضمنا لهم نجاحاً أكبر فى التكيف مع هذا المجتمع .

وقد تسربت فكرة مماثلة من خلال العلماء المهتمين بموضوع « الإسكان

بوضع اليد » فى المدن الكبرى بالبلاد المتخلفة تكنولوجياً . فخارج مدينة الخرطوم عاصمة السودان خلق آلاف من البدو السابقين حلقة من المستوطنات المتمركزة حول المدينة . وتختلف مساكن هؤلاء باختلاف درجة قربهم من المدينة ، فأكثرهم بعداً يسكنون الخيام ، والذين يلونهم يسكنون أكواخاً جدرانها من طين وسقفها سقف خيمة ، أما الأشد قرباً من المدينة فيسكنون أكواخاً صنعت جدرانها من طين وسقفها من صفيح .

وعندما شرع الشرطة فى هدم هذه الخيام أوصى خبير تخطيط المدن قسطنطين دوكسياديس ، ليس فقط بتركها دون هدم ، وإنما أيضاً بتوفير خدمات بلدية معينة لقاطنيها . وكانت وجهة نظره أنه يجب النظر إلى هذه المستوطنات على أنها أداة تعليم ضخمة تهيئ الأفراد والأسر من سكانها تدريجياً للحياة المدنية .

إن تطبيق هذا المبدأ لا ينبغى بأى حال أن يقتصر على الفقراء والمجانين والمجرمين . لأن الفكرة الأساسية فى تهيئة التغيير على شكل مراحل متدرجة ومحكومة ، بدلا من الانتقالات الحادة المفاجئة ، أمر بالغ الأهمية بالنسبة للمجتمعات التى ترغب فى التكيف مع الانتفاضات الاجتماعية والتكنولوجية السريعة . إن المجند ، على سبيل المثال ، يمكن أن يسرح من الخدمة تدريجياً. والطالب القادم من منطقة ريفية يمكن أن يقضى بضعة أسابيع فى كلية بإحدى المدن المتوسطة قبل أن يدخل جامعة المدينة الكبيرة . ونزيل المستشفى المزمن يمكن أن يشجع على الذهاب مرة أو مرتين إلى بيته قبيل خروجه نهائياً من المستشفى .

لقد بدأنا بالفعل فى تجربة هذه الاستراتيجيات . ولكن ثمة استراتيجيات أخرى ممكنة .إن التقاعد مثلا لا ينبغى أن يتم كما يحدث الآن ، من كل شئ إلى لا شئ دفعة واحدة ، الأمر الذى يعتبر محطماً للنفس بالنسبة لمعظم الناس وليس هناك من سبب معقول يدعو إلى عدم تدرجه . والتدريب العسكرى الذى ينتزع الشاب من أسرته بشكل مفاجئ يكاد يبلغ مرتبة القسوة يمكن أيضاً أن يتم بصورة تدريجية . والانفصال القانونى المفروض فيه أنه يخدم

كمنزل وسيط على الطريق إلى الطلاق ، يمكن أن نخفف كثيراً من تعقيداته القانونية وتكاليفه النفسية . وباختصار ، فحيثما كانت هناك حالة تغيير تحتاج إلى معالجة ، ينبغى أن نضع فى الاعتبار إمكانية التدرج فى استيعاب هذا التغيير .

بؤر من الماضى

لن يستغنى أى مجتمع يسرع نحو مضطرب العقود التالية عن مراكز متخصصة يتم فيها خفض معدل التغيير صناعياً . وبعبارة أخرى فإننا سنحتاج إلى بؤر من الماضى — مجتمعات صغيرة توضع فيها عن عمد حدود لمعدلات التغيير والجدة والاختيار .

قد تكون هذه مجتمعات يجمد فيها التاريخ جزئياً ، كما هى الحال فى قرى اميش بولاية بنسلفانيا ، أو أماكن يقلد فيها الماضى فنياً ، كما فى ويليامزبورج بولاية فيرجينيا ، أو ميستيك بولاية كونيكتكت . ولكن على العكس من ويليامزبورج وميستيك حيث يمر بهما الزوار مراً سريعاً ، يجب أن تعد بؤر الماضى فى الغد لاستقبال المصابين بصدمة المستقبل لأسابيع وشهور ، بل حتى لأعوام إذا ما أرادوا .

وفى مثل هذه المجتمعات البطيئة الحركة سيجد الأفراد الباحثون عن حياة أهدأ وأقل إثارة بغيتهم . كما يجب أن تكون هذه المجتمعات الصغيرة بمعزل عن المجتمع الكبير المحيط بها . وأن يخفض عدد العربات المسموح بها إلى أقصى حد . وأن تكون الصحف أسبوعية وليست يومية . وإن كان سيسمح أصلا بوجود الراديو والتليفزيون فينبغى أن يحصر الإرسال فى عدد قليل من الساعات . وأن تكون خدمات الطوارئ فقط — الخدمات الصحية مثلا — هى وحدها الشئ الذى يتم بأقصى سرعة تتيحها التكنولوجيا المتقدمة .

ولا ينبغى أن ينظر المجتمع الكبير إلى مثل هذه المجتمعات الصغيرة نظرة هزؤ وازدراء ، بل أن ينظر إليها كنوع من التأمين الاجتماعى والعقلى له . ففى أوقات التغيير الفائق السرعة يمكن أن يرتكب المجتمع الكبير أخطاء غير قابلة للإصلاح ومسببة للكوارث . وتصور على سبيل المثال لو انتشر

استخدام مادة تضاف إلى الطعام ، ثم تصادف أن كان لهذه المادة تأثيرات تشبه تأثيرات الثاليدوميد – ستكون النتيجة إذن تعقيم كل أو معظم السكان . إن احتمال حدوث مثل هذه الأخطاء التى تؤدى إلى تعقيم ، أو حتى إبادة السكان احتمال وارد .

وبالإكثار من هذه البؤر الاجتماعية التى تمثل الماضى سنزيد من فرص وجود من يلم شعث الحطام فى حالة الكوارث . ومثل هذه المجتمعات قد يخدم أيضاً كوسائل تعليم تجريبية . فقد يأتى الأطفال لقضاء بضعة أشهر فى قرية تحاكى القرى الإقطاعية ، حيث يعيشون ويعملون كما كان يعيش ويعمل الأطفال منذ قرون مضت . وقد يطلب من المراهقين أن يعيشوا بعض الوقت معيشة تحكى الحياة النموذجية للمجتمع الصناعى القديم ، وأن يعملوا فى مصانع تمثل صورة طبق الأصل من مصانعه . إن مثل هذه الدراسة الحية قد تهيئ للشباب فهماً للتاريخ لا يستطيع أن يقدمه أى كتاب .

وفى مثل هذه المجتمعات ستهيأ الفرصة للرجال والنساء ممن يرغبون فى حياة أبطأ أن يتخذوا مهنة من محاكاة الشخصيات التاريخية من أمثال : شكسبير ، ونابليون ، وبنيامين فرانكلين ، لا بمجرد تمثيلها على المسرح ، ولكن بأن « يعيشوا » هذه الشخصيات – فيأكلوا ويلبسوا ويغامروا كما كانت تأكل وتلبس وتنام . ولا شك أن مهنة « المحاكاة التاريخية » سوف تجتذب الكثيرين ممن يتمتعون بمواهب تمثيلية .

وباختصار ، فإن كل مجتمع سوف يكون فى حاجة إلى مجتمعات فرعية يعيش أعضاؤها بمعزل عن آخر البدع والتقاليع . إننا حتى قد نلجأ إلى مكافأة الناس نظير عدم استخدامهم لآخر السلع ، أو استمتاعهم بأحدث التسهيلات .

وبؤر مستقبلة

ولنفس السبب ، وكما نهيئ لبعض الناس العيش فى جو الحياة البطيئة للماضى ، ينبغى أيضاً أن نتيح للأفراد فرصة تذوق حياتهم فى المستقبل مقدماً . وبالتالى فسيكون علينا أن نخلق بؤرا للمستقبل .

ونحن نفعل ذلك حالياً وإن كان بشكل محدود . فرجال الفضاء والطيارون وغيرهم من الأخصائيين يدربون بوضعهم فى بيئات معدة بإتقان لتحاكى تلك البيئات التى سيعيشون فيها عند قيامهم بمهامهم . فبصنع صورة طبق الأصل من كابينة قيادة الطائرة أو كبسولة الفضاء ، ندرب الطيار أو رجل الفضاء تدريجياً على العيش فى بيئة شبيهة بتلك التى سيوضع فيها عند قيامه برحلته الحقيقية . ومخبرو الشرطة « البوليس » والجواسيس وجنود الكوماندوز وغيرهم من الأخصائيين العسكريين يتلقون تدريباً مسبقاً من خلال مشاهدتهم لأفلام تصور الناس الذين سيتعاملون معهم ، والمصانع التى سيتسللون إليها والأرض التى سيسيرون عليها . وبهذه الطريقة يهيئون للتكيف مع الظروف التى ستواجههم مستقبلا .

ولست أجد سبباً معقولا يمنع من تطبيق نفس المبدأ على نطاق أوسع . فقبل أن نرسل بعامل إلى موقع جديد ، يجب أن نعرض عليه وعلى أسرته أفلاماً تبين بالتفصيل الجيرة التى سيعيشون فيها ، والمدرسة التى سيلتحق بها الأبناء ، والمحلات التى ستشترى منها الأسرة ما تحتاج إليه ، وربما أيضاً المدرسين والبائعين والجيران الذين سيقابلونهم . وبمثل هذا الإعداد المسبق سنخفف كثيراً من قلقهم حيال المجهول ، ونساعدهم على حمل مايحتمل أن يواجههم من مشكلات .

وغداً ، ومع تقدم تكنولوجيا المحاكاة التجريبية ، سيمكننا أن نذهب إلى أبعد من هذا . سيستطيع الفرد فى أثناء إعداده المسبق للتكيف ، لا أن يرى ويسمع فحسب ، بل أن يلمس أيضاً ويتذوق ويشم البيئة التى يعد للدخول إليها . سوف يمكنه أن يتفاعل بطريق غير مباشر مع أهل مستقبله ، وأن يمد بخبرات مستنبطة ومصممة بدقة فترفع من قدراته على المواجهة والتكيف .

وستجد « شركات الصناعات النفسية » فى المستقبل سوقاً رائجة لتصميم وتنفيذ مثل هذه التسهيلات التكيفية . وقد تذهب الأسر مستقبلا لقضاء بعض الوقت فى واحدة من هذه البؤر المستقبلية حيث « تعمل وتتعلم وتلهو » بما يهيئها للتكيف مع غدها .

يقول جون جاردنر فى كتابه « التجديد الذاتى » : « ينبغى لنا وقد فتنا بمجرد فكرة التغيير ، أن نحذر الانزلاق إلى الاعتقاد بأن عنصر الاطراد فى التاريخ عنصر يمكن إهماله أو شجبه . فالحقيقة أنه عنصر حيوى وهام فى حياة الأفراد والمنظمات والمجتمعات » .

وفى ضوء نظرية المدى التكيفى يظهر جليا أن الإصرار على الاطراد فى خبرتنا ليس بالضرورة « رجعية » ، كما أن المطالبة بالتغيير الفجائى ليست بالضرورة « تقدمية » . فثمة حاجة نفسية ملحة إلى الجدة والإثارة فى المجتمعات البطيئة التغيير ، ومن الناحية المقابلة نجد أن الحاجة فى المجتمعات المتسارعة التغيير قد تكون فى حاجة إلى الحفاظ على أشكال معينة من الاطراد .

فى الماضى كانت الطقوس تمد الفرد بنوع من مخففات صدمة التغيير . فيروى لنا علماء الأنثروبولوجيا كيف كانت أشكال معينة ومتكررة من الطقوس — طقوس تقام بمناسبات الميلاد والموت والبلوغ والزواج وغيرها — تساعد الأفراد فى المجتمعات البدائية على استعادة التوازن بعد وقوع الأحداث الهامة التى تحتاج إلى التكيف .

لقد كتب س . ت . كيمبال يقول : « ليس ثمة دليل على أن المدنية العلمانية قد قللت من الحاجة إلى التعبيرات الطقوسية » . كما يقول كارلتون : « إن المجتمعات ككل ، وأيا كان حجمها أو درجة تركيبها ، تحتاج إلى ضوابط تكفل الحفاظ على التوازن . وتأتى هذه الضوابط فى أشكال متعددة ومن بينها الطقوس » . ثم يشير إلى الطقوس التى ما زالت باقية فى وقتنا الراهن فى مظهر رؤساء الدول ، وفى الديانات ، وفى الأعمال .

ومع ذلك فليست هذه سوى قطرات من بحر الطقوس الممارسة فى المجتمع . ففى المجتمعات الغربية ، على سبيل المثال ، يعتبر إرسال بطاقات عيد الميلاد من الطقوس السنوية التى لا تمثل نوعا من الاطراد فى حد ذاتها فحسب ، بل تساعد أيضا على مد أجل صلات الصداقة والمعرفة . والاحتفال بأعياد الميلاد ، والإجازات والمناسبات السنوية أمثلة أخرى نضيفها إلى ما تقدم . إن صناعة

بطاقات التهنئة السريعة النمو – ٢,٢٤٨,٠٠٠,٠٠٠ بطاقة عيد ميلاد تباع سنويا فى الولايات المتحدة فقط – تعتبر رمزا اقتصاديا لاستمرار حاجة المجتمع إلى ما يشبه الطقوس .

إن السلوك التكرارى أيا كانت وظائفه الأخرى يساعد على إعطاء معنى للأحداث الغير متكررة من خلال قيامه بدور الستارة التى ترتسم عليها الصورة الظلية للجدة . لقد قام الأخصائيان الاجتماعيان جيمس بوسارد وإليانور بول بدراسة مائة كتاب من كتب المذكرات الشخصية المنشورة ، فوجدا الكاتب فى ثلاثة وسبعين منها يصف إجراءات تعتبر « بما لا يقبل الجدل ، نوعا من الطقوس العائلية » . وأن هذه الطقوس قد نبعت من « بعض التفاعلات العائلية البسيطة أو العفوية ، ثم بدأت تستقر لأنها نجحت فى إرضاء أفراد الأسرة ، ثم من خلال التكرار تبلورت فى صيغ محددة » .

ومع تسارع التغيير ، فإن كثيرا من هذه الطقوس يخرق أو تتبدل طبيعته . ومع ذلك فإننا نناضل من أجل الإبقاء عليها ، فثمة أسرة غير متدينة تتلو على المائدة من حين لآخر نوعا من الصلاة العلمانية كتحية لأولئك الذين خدموا الجنس البشرى من أمثال جوهان سباستيان باخ ، ومارتن لوثر كينج . والأزواج والزوجات يتحدثون عن « أغنيتنا » ويقومون بزيارات دورية « لأول مكان التقينا فيه » . ونستطيع أن نتوقع فى المستقبل تنوعا أكثر فى الطقوس الخاصة بالحياة الأسرية .

وبينما نسرع بالتغيير وننتج أعداداً متضاعفة من الأشكال والأنماط ، فإننا نحتاج إلى أن نعين بعض الاطرادات التى ينبغى أن نحافظ عليها فى حياتنا . تماما كما نحدد غابات وآثارا تاريخية ، وأنواعا معينة من الطيور بقصد حمايتها والحفاظ عليها . وأيضا فإننا قد نحتاج إلى اختراع طقوس جديدة .

ولأننا لم نعد بعد تحت رحمة العناصر كما كنا من قبل ، ولم نعد محكوما علينا بالبقاء فى الظلام ليلا أو الارتعاد بردا فى الصباح ، ولم يعد مفروضا علينا أن نعيش وسط بيئة مادية غير متغيرة ، فإن ثمة اطرادات اجتماعية معينة ، وليست مادية ، هى التى تساعدنا على توجيه أنفسنا فى الزمان والمكان .

فى الولايات المتحدة لم يعد مقدم الربيع بالنسبة لمعظم سكان المدن مرتبطا بظهور الخضرة ، ولكن بافتتاح موسم البيسبول حيث يقذف رئيس الجمهورية أو من ينوب عنه بأول كرة ، ثم يتبعه الملايين يوما بعد يوم .

وحتى أولئك الذين لا يهتمون بالرياضة لا يمكن ألا أن يحسوا بهذه الأحداث البهيجة والمتوقعة ،فالراديو والتليفزيون ينقلان مباريات البيسبول إلى كل بيت ، والجرائد غاصة بالأخبار الرياضية . وصور البيسبول تشكل خلفية لكل الأحداث ، نوعا من اللحن المصاحب يتسلل إلى وعينا .

ومهما حدث لسوق الأوراق المالية ، أو للسياسات العالمية ، أو للحياة الأسرية ، يظل فريقا الرابطة الأمريكية والرابطة القومية فى مبارياتهما المتوقعة . ونتائج المباريات الفردية تتنوع . وموقف الفرق يعلو ويهبط — ولكن المشهد يستمر فى نفس الإطار الثابت من القواعد الراسخة المستديمة .

وكذلك فإن افتتاح دورة الكونجرس فى يناير ، وظهور طرز السيارات الجديدة فى الخريف ، و ١٥ أبريل المحدد كآخر موعد لتقديم إقرار الضرائب ، وقدوم عيد الميلاد ، وحفلة رأس السنة ، والأعياد القومية الثابتة ؛ كل هذه الأحداث علامات زمنية متوقعة تنتظم وقتنا ،وتمدنا بخلفية من الاطراد الزمنى ضرورية (وإن كانت غير كافية) لصحتنا العقلية .

ولكن ضغط التغيير يهدد بانتزاع هذه العلامات من تقويمنا الزمنى ، أو يجعلها متخلخلة وغير منتظمة ، وغالبا ما يوفر علينا هذا بعض النفقات المالية . ولكن قد يكون هناك تكاليف غير ظاهرة ينطوى عليها فقدنا للنقط الزمنية المستقرة التى ما زالت تمد حياتنا اليومية بشكل من أشكال الاطراد . وبدلا من أن نستأصل هذه النقط نهائيا ، فإننا قد نرغب فى الإبقاء على بعضها ، بل إننا فى الحقيقة نحب أن نوجد بعض أشكال الاطراد حيث لا توجد (مباريات بطولة العالم فى الملاكمة مثلا تقام فى مواعيد غير منتظمة ، وربما كان من الأفضل أن تقام هذه المباريات ذات الطبيعة الطقوسية العالية فى فترات منتظمة كالألعاب الأولمبية) .

وكلما اتسعت أوقات الفراغ أتيحت لنا فرصة أكبر لتقديم نقط استقرار وطقوس أخرى إلى المجتمع ، كمناسبات احتفالية جديدة ، ومهرجانات ، وألعاب . فمثل هذه الأدوات لا يقتصر دورها على تكوين خلفية اطرادية لأحداث حياتنا اليومية ، بل إنها أيضا تعمل على تكامل المجتمعات ، وتقيها تأثيرات التفتت والتشظى التى تسببها ثورة ما فوق التصنيع . إننا – على سبيل المثال – قد نخلق أعيادا لتكريم ذكرى جاليليو ، أو موزار ، أو اينشتين ، أو سيزان . وقد نخلق مهرجانات عالمية مؤسسة على قهر الإنسان للفضاء .

وحتى فى وقتنا الراهن أصبحت عمليات إطلاق واستعادة كبسولات الفضاء تتم على شكل طقوس درامية ، حيث يقف الملايين موقف السكون والترقب عندما يبدأ العد التنازلى وتأخذ البعثة طريقها إلى الفضاء الخارجى ، ولمدى لحظة عابرة على الأقل يتقاسمون شعورا بتحقق وحدة الإنسانية وقدراتها فى مواجهة الكون .

وبجعل هذه الأحداث اطرادية ومنتظمة ، وبإضافة الكثير إلى المهرجانات التى تحيط بها نستطيع أن ندخلها ضمن نسيج الطقوس فى المجتمع الجديد، وأن نستخدمها كنقط زمنية مستقرة تساعد على حفظ صحتنا العقلية . وعلى وجه التأكيد فإن يوم ٢٠ يوليو – وهو اليوم الذى خطا فيه أرمسترونج « خطوة صغيرة لرجل وقفزة عملاقة للجنس البشرى » ينبغى أن يكون يوم احتفال سنوى عالمى من أجل وحدة النوع الإنسانى .

وبهذه الطريقة ، باستخدام المادة الجديدة إلى جانب الطقوس الموجودة ، وبتقديم التغيير فى شكل متوقع كلما أمكن ذلك بدلا من أن يحدث على صورة سلسلة من الأحداث الشاردة ، يمكننا أن نساعد على توفير عناصر الاطراد حتى وسط الانتفاضات الاجتماعية .

إن التحول الثقافى لسكان جزيرة مانوس يعتبر شيئا فى منتهى البساطة إذا ما قورن بالتحول الذى نواجهه . ولن نجتازه سالمين إلا إذا تجاوزنا التكتيكات الشخصية إلى الاستراتيجيات الاجتماعية – أى بتوفير خدمات المعونة للأفراد

الذين يعانون ضغوط التغيير الساحقة وبناء الاطراد ومخففات صدمة التغيير فى كيان مجتمع الغد .

كل هذا من أجل تخفيف خسائر الإنسان التى يسببها التغيير السريع . ولكن ثمة طريقة أخرى للهجوم على المشكلة أيضا . هذه الطريقة هى توسيع القدرات التكيفية للإنسان — وتلك هى المهمة المحورية للتعليم فى أثناء ثورة ما فوق التصنيع .

الفصل الثامن عشر

التعليم فى صيغة المستقبل

فى السباق من أجل وضع رجال وماكينات على سطح الكواكب ، تكرس موارد هائلة من أجل ضمان « الهبوط برفق » . وكل جهاز فرعى فى المركبة الهابطة مصمم تصميما متقنا لاستيعاب صدمة الوصول . إن جيوشا من المهندسين ، والجيولوجيين ، والفيزيائيين ، وخبراء المعادن ، وغيرهم من الأخصائيين تركز عملهم على امتداد سنوات من أجل حل مشكلة الهبوط . إن إخفاق أى جهاز فرعى فى تأدية عمله كنتيجة لتأثير لحظة ملامسة المركبة لسطح الكوكب قد يؤدى إلى ضياع أرواح بشرية . ناهيك ببلايين الدولارات التى أنفقت على الأجهزة وعمل سنين لعشرات الألوف من الرجال .

إن بليونا من البشر يمثلون مجموع السكان فى الدول المتقدمة تكنولوجيا يغذون الخطى نحو موعدهم مع مصر ما فوق التصنيع . فهل نحن بسبيل التعرض لصدمة مستقبل جماعية شاملة ؟ أم أننا نستطيع نحن أيضا أن نحقق « الهبوط برفق » ؟ إننا نعجل بسرعة اقترابنا ، والتخوم الشديدة الانحدار تبرز من بين غيوم الغد . ومع ذلك ، وبينما نقترب بسرعة مخيفة من لحظة الوصول ، تتجمع الأدلة على أن جهازا من أخطر أجهزتنا الفرعية - التعليم - مصاب بأعطال خطيرة .

إن ما نسميه تعليما اليوم ، حتى فى « أفضل » مدارسنا وكلياتنا ، ليس إلا مفارقة تاريخية ميئوساً منها . إن الآباء يتطلعون إلى التعليم ليهيئ أبناءهم للمستقبل . والمعلمون يحذرون من أن الافتقار إلى التعليم سوف يشل من فرص الأولاد فى عالم الغد . والوزارات والكنائس ، ووسائل الإعلام - كلها تحث الشباب على البقاء فى المدارس مصرة على أنه اليوم أكثر من أى وقت مضى ، يكاد يكون مستقبل الفرد كله متوقفا على التعليم .

ولكن برغم كل هذه العبارات البليغة عن المستقبل . فإن مدارسنا تتراجع فى اتجاه نظام يحتضر أكثر من اتجاهها نحو المجتمع الجديد الذى ينبثق . إن طاقاتها الهائلة ما زالت موجهة لصياغة رجال من طراز عصر التصنيع - رجال مسلحين من أجل البقاء فى ظل نظام سيموت هو ذاته قبل أن تدركهم الوفاة .

ومن أجل تفادى صدمة المستقبل ، يجب أن نخلق نظام تعليم يناسب عصر ما فوق التصنيع . وحتى نفعل ، ينبغى لنا أن نبحث عن وسائلنا وغاياتنا فى المستقبل بدلا من أن نبحث عنها فى الماضى .

مدرسة عصر التصنيع

لكل مجتمع موقفه المتميز حيال الماضى ، والحاضر ، والمستقبل . إن هذا الانحياز الزمنى الذى يأخذ شكل الاستجابة لمعدل التغيير ، والذى نادراً ما يلاحظ ، يعتبر من أقوى عوامل تحديد السلوك الاجتماعى ، وهو ينعكس بوضوح من خلال الأسلوب الذى يعد به المجتمع أطفاله لمرحلة البلوغ .

فى المجتمعات الجامدة ، يزحف الماضى إلى الحاضر ، ويعيد نفسه فى المستقبل . وفى مثل هذا المجتمع تكون الطريقة المثلى لإعداد الطفل هى تزويده بمهارات الماضى - لأنها نفس المهارات التى سيحتاج إليها فى المستقبل. « لأنه مع القديم تكون الحكمة » كما يقول الإنجيل .

وهكذا ، يسلم الأب إلى ولده كل أنواع التكتيكات الأبوية إلى جانب مجموعة تقليدية جلية التحديد من القيم . كانت المعرفة تنتقل ، لا بواسطة إخصائيين مركزين فى مدارس ، ولكن من خلال الأسرة ، والمؤسسات الدينية ، ونظام التلمذة المهنية . كان المعلمون والمتعلمون جميعاً مفرقين على طول المجتمع وعرضه . وكان منهج التعليم فى الماضى هو الماضى ذاته .

ثم حطم عصر الآلة كل هذا ، لأن التصنيع كان فى حاجة إلى طراز آخر من الرجال . لقد تطلب مهارات لا تستطيع الأسرة والكنيسة وحدهما أن تقدمها . كما أحدث هزة فى القيم . وفوق كل هذا تطلب من الإنسان أن يكون إحساساً جديداً بالزمن .

كانت جماعية التعليم هى الأداة التى أوجدها التصنيع من أجل أن تنتج له طراز البالغين الذى يحتاج إليه . كانت المشكلة هى كيف يعد الأطفال إعداداً مسبقاً للتكيف مع عالم جديد — عالم من العمل التكرارى داخل أربعة جدران ، والدخان ، والضجيج ، والآلات ، والعيش فى ظروف الزحام ، والانضباط الجماعى ، عالم لا تنظم الزمن فيه دورة الشمس والقمر ، وإنما صفارة المصنع وساعته .

وكان الحل هو نظام تعليم يحاكى فى بنائه هذا العالم الجديد . ولم ينبثق هذا النظام مرة واحدة ، فمازال حتى الآن يحتفظ ببعض عناصر مجتمع ما قبل التصنيع . ولكن الفكرة بأكملها من تجميع كتل من التلاميذ (المواد الخام) لتعالج بواسطة مدرسين (العمال) فى مدرسة تحتل موقعاً مركزياً (المصنع) كان لمحة من عبقرية التنظيم الصناعى . وكانت المراتب الإدارية لعملية التعليم ككل تتبع فى نموها نموذج البيروقراطية الصناعية . وكان تنظيم المعرفة على شكل نظم ثابتة فى حد ذاته مؤسساً على مفهومات صناعية . كان التلاميذ يسيرون من مكان إلى مكان فى صفوف منظمة ، ثم يجلسون حيث قرر لهم أن يجلسوا . وكانت الأجراس تقرع معلنة تغيير الوقت .

وهكذا صارت الحياة الداخلية للمدرسة بمثابة مرآة توقعية ، ومدخلا مثالياً إلى المجتمع الصناعى . إن معظم أوجه النقد الموجه إلى التعليم اليوم — النظام الصارم ، والافتقار إلى الفردية ، والنظم الجامدة للجلوس ، والتصنيف ، والتقويم « التقييم » ، والتقدير ، والدور التحكمى للمدرس — كل هذا هو ، على وجه التحديد ، ما جعل التعليم الجماعى العام أداة تكيف فعالة بالنسبة لزمانه ومكانه .

كان الشباب الخارجون من هذه الآلة التعليمية يدخلون إلى مجتمع من البالغين يشبه فى بنائه ، وأعماله ، وأدواره ، ومؤسساته ، المدرسة ذاتها . إن التلميذ بالمدرسة لم يكن يتعلم مجرد مجموعة من الحقائق التى يستخدمها فيما بعد ، بل إنه كان يعيش ويتعلم أسلوباً للحياة صنع على منوال أسلوب الحياة الذى عليه أن ينتهجه فى المستقبل .

وعلى سبيل المثال ؛ فقد غرست المدارس بلباقة فى تلاميذها الانحياز الزمنى الجديد الذى فرض التصنيع ضرورته . فنى مواجهة ظروف لا عهد لهم بمثلها من قبل ، اضطر الرجال إلى تكريس قدر متزايد من طاقاتهم لفهم الحاضر . وهكذا بدأ اتجاه نظر التعليم نفسه يتحول بطيئاً من الماضى إلى الحاضر .

إن ما قام به جون ديوى وتابعوه من نضال تاريخى من أجل إدخال معايير « تقدمية » على التعليم الأمريكى كان ، فى جزء منه ، بمثابة محاولة مستميتة لتعديل الانحياز الزمنى القديم . لقد كافح ديوى ضد صبغ التعليم بصيغة الماضى محاولا شد اتجاه التعليم نحو الحاضر ،معلناً « أن الأساليب البالية للنظم التعليمية التى تجعل من الماضى غاية فى حد ذاته يجب أن تتعرف الماضى كوسيلة فقط لفهم الحاضر » .

وبالرغم من ذلك ، وبعد أن مضت بضع عشرات من السنين على صرخات ديوى ، نجد التقليديين من أمثال جاك ماريتين ، والأرسطوطاليين الجدد من أمثال روبرت هتشنس ، يتصدون بعنف لكل من تسول له نفسه تحويل ميزان التعليم لصالح الحاضر . لقد اتهم هتشنس — المدير السابق لجامعة شيكاغو ، والمدير الحالى لمركز دراسات المؤسسات الديموقراطية — اتهم رجال التعليم الذين يريدون لتلاميذهم أن يتعلموا عن المجتمع الحديث بأنهم أعضاء « طائفة الفورية » . لقد اتهم التقدميون إذن بجريمة خسيسة بشعة هى « المعاصرة » .

ومازالت أصداء هذا الصراع حول الانحياز الزمنى تتردد حتى الآن فى كتابات جاك بارزون ، مثلا ، الذى يصر على « أنه من الغريب أن نحاول التعليم « من أجل حاضر يستعصى على التعريف » . وهكذا فإن نظمنا التعليمية لم تتكيف حتى الآن تكيفاً كاملا مع عصر التصنيع ، فى حين أن الحاجة إلى ثورة جديدة — ثورة ما فوق التصنيع — تفرض نفسها عليها . وكما كان التقدميون فى الماضى توجه إليهم تهمة « المعاصرة » ،فإن العاملين على إصلاح التعليم فى الغد ستوجه إليهم على الأرجح تهمة « المستقبلية » .

إننا سوف نتيقن من أن إيجاد نظام تعليم يناسب عصر ما فوق التصنيع حقاً لن يكون ممكناً إلا إذا حولنا مرة أخرى الانحياز الزمنى فى اتجاه المستقبل .

الثورة التعليمية الجديدة

فى النظم التكنولوجية للغد ، سوف تتعامل الماكينات السريعة ، المرنة ، الذاتية ، التنظيم مع الأشياء المادية . أما الرجال فسيعالجون الأفكار والبصائر . وسيتزايد باستمرار أداء الماكينات للمهام الروتينية ، والرجال للمهام الفكرية والخلاقة . وبدلا من أن يتكدس الرجال والماكينات معاً فى مصانع عملاقة ومدن صناعية ، سيتفرقون على سطح الكرة الأرضية ، وتربط بينهم وسائل اتصال حساسة وفورية لدرجة مذهلة . وسيتحرك العمل البشرى من المصانع والمكاتب الحاشدة إلى المجتمع المحلى والبيت .

وسوف تزامن الماكينات ، كما حدث لبعضها بالفعل ، إلى أجزاء من بليون من الثانية ، أما الرجال فلا . سوف تختفى صفارة المصنع ، وحتى الساعة ، « الماكينة الرئيسية لعصر التصنع الحديث » كما سماها لويس ممفورد منذ جيل مضى ، سوف تفقد الكثير من سيطرتها على الشئون الإنسانية — كعناصر متميزة عن العناصر التكنولوجية الخالصة . وفى نفس الوقت ستتحول المنظمات اللازمة لإدارة التكنولوجيا من البيروقراطية إلى الأدهوقراطية . من الثبات إلى الزوال ، ومن الاهتمام بالحاضر إلى التركيز على المستقبل .

وفى مثل هذا العالم تتحول أكبر تسهيلات عصر التصنيع قيمة إلى معوقات : إن تكنولوجيا الغد لا تتطلب ملايين الرجال السطحيي التعليم المستعدين للعمل المتساوق فى أعمال لا نهائية التكرار ، ولا تتطلب رجالا يتلقون الأوامر دون طرفة عين ، مقدرين أن ثمن الخبز هو الخضوع الآلى للسلطة . ولكن تتطلب رجالا قادرين على إصدار أحكام حاسمة . رجالا يستطيعون أن يشقوا طريقهم وسط البيئات الجديدة . ويستطيعون أن يحددوا موقع العلاقات الجديدة فى الواقع السريع التغير . إنها تتطلب رجالا من ذلك النوع الذى وصفه س.ب.سنو بأنهم « يحملون المستقبل فى عظامهم » .

وأخيراً ، فما لم نملك السيطرة على دفعة التغيير المتسارعة – الأمر الذى لم تتوافر بعد سوى علامات قليلة على أننا سنفعله – سيكون على الفرد فى الغد أن يواجه تغييراً أكثر إرباكاً مما نواجهه اليوم . والدرس الذى يجب أن يأخذه التعليم من هذه الحقيقة واضح جلى ، هو : « أن الهدف الأول للتعليم ينبغى أن يكون رفع « قدرة التكيف » لدى الفرد – أى السرعة والاقتصاد فى القوى اللذين يستطيع بهما أن يتكيف مع التغيير المستمر . وكلما ارتفع معدل التغيير ، وجب أن يكرس اهتمام أكثر لتمييز أحداث المستقبل .

لم يعد يكفى الفرد ما أن يفهم الماضى . وحتى لم يعد كافياً له أن يفهم الحاضر ، لأن بيئة الحاضر سرعان ما ستتلاشى . إنه يجب أن يتعلم كيف يتحسب اتجاه معدل التغيير وأن يتوقعه . إنه ، حسب التعبير الفنى ، يجب أن يكرر من وضع الفروض الاحتمالية البعيدة المدى حول المستقبل . وهذا ما يجب على معلمه أيضاً أن يفعله .

ومن أجل إيجاد تعليم ما فوق التصنيع ، سوف نحتاج إلى خلق صور متتابعة وتبادلية للمستقبل ، أى افتراضات حول أنواع الأعمال ، والمهن ، والحرف التى قد نحتاج إليها خلال العشرين إلى الخمسين عاماً القادمة ، وافتراضات عن أشكال الأسر والعلاقات الإنسانية التى ستبرز ، وأنواع المشكلات الأخلاقية والمعنوية التى ستثور ، وأنواع التكنولوجيا التى ستحيط بنا ، والبنى التنظيمية التى سينبغى لنا أن نبنيها .

وبوضع مثل هذه الفروض ، وتحديدها ، ومناقشتها ، ومنهجتها ، وتطويرها باستمرار ، سيمكننا أن نستنتج طبيعة المهارات الإدراكية والفعالة التى سيحتاج إليها أهل المستقبل لاجتياز أزمة التغيير المتسارع بسلام .

يوجد حالياً بالولايات المتحدة مركزان لبحوث السياسة التعليمية تمولهما الحكومة الاتحادية – أحدهما فى جامعة سيراكيوز ، والثانى بمعهد بحوث ستانفورد – أوكلت إليهما مهمة استطلاع آفاق التعليم مع وضع هذه الأغراض فى الاعتبار . وفى باريس أنشئت منظمة التعاون الاقتصادى والتطور

مؤخراً فرعاً أوكلت إليه مهمة مماثلة . كما بدأ عدد قليل من المشتركين فى حركة الطلبة يوجهون اهتماماتهم إلى المستقبل . ولكن كل هذه الجهود تعتبر ضئيلة جداً إذا ما قيست بالصعوبة البالغة لعملية تحويل الانحياز الزمنى للتعليم . إن ما نحتاج إليه فى الواقع هو حركة جماعية ضخمة مستجيبة للمستقبل .

يجب أن يوجد « مجلس للمستقبل » فى كل مدرسة ومجتمع محلى : فرق من الرجال والنساء مكرسة لسير المستقبل فى اهتمامات الحاضر . ومن خلال اختطاط « أشكال مفترضة للمستقبل » وتحديد استجابات تعليمية متماسكة لهذه الأشكال وطرحها للمناقشة العامة النشيطة ، تستطيع هذه المجالس — الشبيهة من بعض الوجوه بـ « الخلايا التنبوئية » التى اقترحها روبرت يونك من المدرسة العليا للتكنولوجيا ببرلين — أن يكون لها تأثير قوى فى التعليم .

وحيث إنه لا توجد جماعة ما تستطيع أن تدعى لنفسها حق احتكار الرؤية المستقبلية ، فإن هذه المجالس يجب أن تعمل بأسلوب ديموقراطى . صحيح أن هذه المجالس لن تستغنى عن المتخصصين ، ولكن مجالس المستقبل لن تنتج إذا ما استولى عليها المعلمون والمخططون المحترفون أو أى فئة أخرى غير مختارة ديموقراطياً . وبالتالى فإن الطلبة يجب أن يشتركوا فيها منذ البداية — ولكن ليس تمثيلا شكلياً كل مهمته البصمة بالموافقة على آراء الكبار . يجب أن يشترك الطلبة فى قيادة هذه المجالس ، إن لم يكن المبادرة أصلا بإنشائها ، وذلك حتى تناقش وتصاغ « المستقبلات المفترضة » بواسطة أولئك المفروض فيهم أنهم سيخلقونها ويعيشونها .

إن حركة مجالس المستقبل تقدم مخرجاً من الجمود الذى تعانى منه مدارسنا وكلياتنا . إن طلبة اليوم — وقد وقعوا فى شراك نظام تعليمى يصر على أن يجعل منهم مفارقات تاريخية — لهم كل الحق فى أن يثوروا . ولكن محاولات الطلبة الثوريين أن يضعوا برنامجاً اجتماعياً مؤسساً على خليط من ماركسية القرن التاسع عشر وفرويدية مطلع القرن العشرين ، يجعلهم يبدون مربوطين إلى الماضى مثل من يثورون عليهم من الكبار . إن خلق فرق عمل مشبعة بروح المستقبل وصائغة له قد يعطى ثورة الشباب مضموناً ثورياً حقيقياً .

وبالنسبة لأولئك المعلمين ممن أدركوا إفلاس النظام الحالى ، وإن كانوا غير واثقين من الخطوات التالية ، فإنهم سيجدون فى حركة هذه المجالس الهدف والقوة جميعاً ، ومن خلال التحالف مع الشباب لا من خلال عدائه. وبقدرة الحركة على اجتذاب أوسع دائرة من المشاركة — من المجتمعات المحلية ، والآباء ، ورجال الأعمال ، والاتحادات العمالية ، والعلماء وغيرهم — سوف تستطيع أن تحصل على دعم سياسى قوى لتعليم ثورة ما فوق التصنيع.

وإنه لخطأ بالغ أن نتصور أن نظام التعليم الحالى لا يتغير ، بل إنه على العكس من ذلك يتغير بسرعة . ولكن معظم هذا التغيير لايعدو أن يكون محاولة لصقل الوسائل الموجودة لجعلها أكثر قدرة على إحراز نفس الأهداف القديمة ، والباقى مجرد نوع من الحركة البراونية تتسم بإلغاء الذات ، وعدم التماسك وانعدام الاتجاه . إن ما يفتقر إليه التغيير الجارى فى نظام التعليم، هو اتجاه مستقيم ونقطة بداية منطقية .

وحركة المجالس قد تستطيع أن توفر الاثنين . فالاتجاه هو ثورة ما فوق التصنيع ، ونقطة البداية هى المستقبل .

الهجوم التنظيمى

وسيكون على مثل هذه الحركة أن تسعى إلى أغراض ثلاثة — تغيير البناء التنظيمى لنظامنا التعليمى ، وتثوير المناهج ، وتشجيع التوجيه المستقبلى . وهى يجب أن تبدأ بطرح بعض التساؤلات الجذرية حول الوضع الراهن .

لقد أشرنا من قبل ، على سبيل المثال ، إلى أن التنظيم الأساسى الحالى للمدارس مواز لتنظيم المصانع . وعلى مدى أجيال ، افترضنا ببساطة أن أنسب تعليم هو ذلك الذى يقع داخل مدرسة . ولكن إذا كان التعليم الجديد سيحاكى مجتمع الغد ، فهل ينبغى أن يتم فى مدرسة أصلا ؟

فمع ارتفاع مستوى التعليم،سيتزايد باستمرار عدد الآباء والأمهات المؤهلين فكرياً لتولى بعض المسئوليات الموكولة الآن إلى المدارس . فبالقرب من سانتا مونيكا بكاليفورنيا ، حيث يقع المركز الرئيسى لمؤسسة

راند ، وفى مراكز البحث المحيطة بكمبريدج بولاية ماساشوستس ، وفى المدن العلمية من أمثال أوك ريدج ، ولوس ألاموس ، وهنتسفيل ، يوجد الكثير من الآباء القادرين على تعليم مواد معينة لأبنائهم بأفضل مما يقدر عليه مدرسو المدارس المحلية . ومع الاتجاه إلى الصناعة المرتكزة على المعرفة وزيادةأوقات الفراغ ،فإن لنا أن نتوقع اتجاهاً هاماً،وإن كان محدوداً، من الآباء والأمهات ذوى المستوى العالى من التعليم إلى جذب أبنائهم ولو جزئياً خارج نظام التعليم العام ، وتولى تعليمهم فى البيت .

وسوف يشجع من نمو هذا الاتجاه تحسين الوسائل التعليمية التى تعتمد على الكومبيوتر ، وتسجيلات الفيديو الإليكتروتية وغيرها . وقد يعقد الآباء والطلبة عقوداً قصيرة الأجل مع المدارس القريبة لتلقى برامج أو أجزاء من برامج معينة . وقد يستمر الطلبة فى الذهاب إلى المدرسة من أجل النشاط الاجتماعى والرياضى إلى جانب تعلم المواد التى لا يستطيعون أن يتعلموها اعتماداً على أنفسهم ، أو بمساعدة ذويهم ، أو بمساعدة أصدقاء الأسرة . وستتزايد الضغوط فى هذا الاتجاه ما ظلت المدارس على ما هى عليه الآن ، وسوف تغص المحاكم بالقضايا التى تهاجم قوانين الحضور الإجبارى العتيقة . إننا ، باختصار ، قد نشهد عودة جدلية محدودة إلى نظام التعليم فى البيت .

لقد اقترح فريدريك ج.مكدونالد ، أستاذ نظرية التعليم بجامعة ستانفورد نوعاً من « التعليم المتحرك » الذى يأخذ الطالب خارج حجرة الدرس ليشترك اشتراكاً فعلياً فى نشاط المجتمع ، وليس الاكتفاء بمجرد المشاهدة .

وفى حى بيدفورد – ستيفيسانت بنيويورك ، وهو حى من أحياء السود الفقيرة المزدحمة ، وضع مشروع كلية ستوزع تسهيلاتها لتشمل المربعات السكنية للحى البالغ عددها ٤٥ مربعاً بمحلاتها ، ومكاتبها ومنازلها، بحيث سيصعب تحديد أين تنتهى الكلية وأين يبدأ المجتمع . وسوف يتعلم الطلبة المهارات المختلفة على أيدى البالغين من السكان ، وبواسطة الكلية على حد سواء . أما مناهج الدراسة فسيشترك فى صياغتها الطلبة ، والجماعات العاملة فى المجتمع والمدرسون المحترفون . وقد اقترح هارولد هاو ، أحد المسئولين

السابقين عن التعليم فى الولايات المتحدة ، اقتراحاً عكسياً مؤداه إدخال المجتمع إلى المدرسة بأن تمنح المحلات والورش المختلفة فى المنطقة أماكن مجانية بالمدارس مقابل دروس مجانية يقدمها الذين يديرون هذه المحلات للطلبة . إن هذه الخطة المصممة أساساً لمدارس جيتو المدن يمكن أن يوسع مجال تطبيقها بما يناسب طبيعة المؤسسات المدعوة إلى المدرسة : مكاتب خدمة الكومبيوتر على سبيل المثال ومكاتب التصميمات المعمارية ، وربما حتى المعامل الطبية ومحطات الإذاعة ووكالات الإعلان .

وفى أماكن أخرى ، تدور المناقشات حول التخطيط للدراسة الثانوية والعليا التى تستخدم « الموجهين » المستعارين من السكان البالغين . ومثل هؤلاء الموجهين لن تقتصر مهمتهم على نقل المهارات فحسب ، بل أيضاً على إيضاح كيف تطبق تجريدات الكتب النظرية فى واقع الحياة . وقد يصبح المحاسبون ، والأطباء ، والمهندسون ، ورجال الأعمال ، والنجارون ، والبناؤون والمخططون جميعاً جزءاً من « كلية خارجية » فى عودة جدلية إلى نوع من التلمذة المهنية ، ولكن من نوع مختلف هذه المرة .

وثمة تغييرات عديدة مماثلة تلوح فى الأفق ، وكلها تشير ولو فى شئ من التردد ، إلى انهيار نموذج المدرسة ــ المصنع الذى تأخر أكثر مما يجب .

هذا التوزيع للعملية التعليمية على الحيزين الجغرافى والاجتماعى يجب أن يصاحبه توزيع آخر على الحيز الزمنى . إن التقادم السريع للمعرفة والزيادة المستمرة لمتوسط الأعمار يقللان من احتمال صلاحية المهارات المكتسبة فى الصغر عندما يتقدم السن بالفرد ، وبالتالى فإن سياسة التعليم لعصر ما فوق التصنيع ،يجب أن تضع فى حسابها استمرار عملية التعليم بامتداد عمر الفرد على قاعدة من الحذف والإضافة المستمرين .

وإن كان التعليم سيمتد بامتداد العمر ، فليس ثمة مبرر قوى لإجبار الأولاد على الالتحاق بالمدرسة على أساس من الوقت الكامل . إن تقسيم وقت الشباب بين المدرسة وبين العمل فى المناشط المختلفة للمجتمع ، بأجر أو بدونه ، سوف يكون أفيد لهم عملياً وتعليمياً على حد سواء .

مثل هذه التجديدات تفرض تغييرات هائلة فى الأساليب والوسائل التعليمية أيضاً . إن المحاضرات هى الأسلوب الغالب اليوم على حجرات الدرس . إنها الأسلوب المعبر عن فلسفة المراتب التنازلية من أعلى إلى أسفل فى البناء البيروقراطى للصناعة . ولكن بينما مازال أسلوب المحاضرة محتفظاً بفائدته بالنسبة لأغراض محدودة ، فقد أخلى الطريق أمام حشد كامل من الأساليب التعليمية يمتد من المشاركة والألعاب إلى الحلقات الدراسية التى تستخدم الكومبيوتر ، وإدخال الطلبة فيما يمكن أن نسميه « الخبرات المستنبطة» . إن الأساليب المعتمدة على برمجة الخبرات المستمدة من أنشطة العمل والفراغ ، والتى ستتولى تطويرها شركات الصناعات النفسية فى المستقبل ، سوف تحل محل المحاضرة المعتادة ، المتكررة ، والمستنزفة للعقل . وأيضاً فإن رفع القدرة على التعلم قد يتحقق من خلال نظم دقيقة ومحكومة لرفع مستوى الذكاء ، وسرعة القراءة ، ودرجة الانتباه من خلال التغذية واستخدام عقاقير نفسية معينة . إن مثل هذه التغييرات وما تعتمد عليه من تكنولوجيات ،سوف تسهل التغيير الأساسى فى النمط التنظيمى للمؤسسة التعليمية .

إن البنى الإدارية الحالية للتعليم والمرتكزةعلىأسس البيروقراطية الصناعية ، سوف تكون عاجزة عن مواجهة تعقيدات ومعدلات التغيير الملازمة بالضرورة لمثل هذا النظام الذى وصفناه . وبالتالى فسوف يتحتم عليها الاتجاه إلى أشكال أدهوقراطية من التنظيم إذا ما أرادت الاحتفاظ ولو بنوع من السيطرة الشكلية . ولكن أهم من هذا ما سيتطلبه مثل هذا النظام من أشكال تنظيمية داخل حجرات الدرس ذاتها .

لقد تولت المدارس صياغة إنسان عصر التصنيع بحيث يملأ خانة محددة وثابتة نسبياً داخل النظام الاجتماعى والاقتصادى . أما تعليم عصر ما فوق التصنيع فمطلوب منه أن يعد الناس ليعملوا فى إطار تنظيمات الغد الأدهوقراطية المؤقتة .

عندما يدخل أطفال اليوم إلى المدرسة فسرعان مايجدون أنفسهم وقد أصبحوا جزءا من بنية تنظيمية ذات معايير أساسية ثابتة لا تكاد تتغير

تتلخص فى : فصل يقوده مدرس — فرد بالغ وعدد معين من التابعين الصغار يجلسون عادة فى صفوف ثابتة تتجه إلى الأمام ، ويمثلون معا الوحدة الأساسية لمدرسة عصر التصنيع . وعندما ينتقلون عاما بعد آخر ، ومن فصل إلى فصل أعلى ، فإنهم يظلون ثابتين داخل نفس الإطار التنظيمى . ومن هنا فإنهم لا يجنون أى خبرة بأى شكل آخر من أشكال التنظيم . ولا يمرون بمشكلة التحول من شكل تنظيمى إلى آخر . وبالتالى لا يحصلون على أى تدريب على تعدد الأدوار .

وليس ثمة شىء أوضح من هذا فى إثارة السلبية على التكيف ، ومدارس الغد إذا ما أرادت أن تساعد الشباب على التكيف مع ظروف حياتهم المقبلة ، لابد وأن تجرب أشكالا متنوعة من الترتيبات التنظيمية : فصولا يتلقى فيها طالب واحد من عدة مدرسين ، وفصولا تضم جماعة من الطلبة وعدة مدرسين ، وطلبة ينتظمون فى مجموعات عمل مؤقتة ومجموعات مشروع ، وطلبة يتنقلون بين العمل ضمن جماعة والعمل الفردى ، المستقل — كل هذه الترتيبات وغيرها من نفس القبيل ، سوف يكون استخدامها ضروريا من أجل أن تعطى الطالب مقدما جرعة من مذاق الخبرة التى سيتعين عليه أن يمر بها عندما يخوض غمار حياته العملية ، متنقلا بين المعالم المتغيرة للجغرافيا التنظيمية لعصر ما فوق التصنيع .

ومن هنا تتضح الأهداف التنظيمية لحركة مجالس المستقبل : التوزيع ، واللامركزية ، والالتحام المتبادل مع المجتمع ، والإدارة الأدهوقراطية ، وتحطيم النظام الجامد للجدولة والتصنيف . وعندما تتحقق هذه الأهداف فإن أى تشابه تنظيمى بين التعليم ومصانع عصر التصنيع لن يكون إلا من قبيل المصادفة البحتة .

مناهج الأمس واليوم

أما فيما يتعلق بمناهج الدراسة ، فينبغى لمجالس المستقبل ألا تفترض أن كل مادة تدرس اليوم إنما تدرس لأسباب ضرورية ، بل يجب ، بدلا من ذلك أن تبدأ من نقطة عكسية هى : أنه لا ينبغى أن يتضمن المنهج

المطلوب أى مادة ، مالم تبرر احتياجات المستقبل ضرورتها تبريرا قويا . فإن كان سيترتب على ذلك حذف جانب كبير من المنهج فليكن .

ولسنا نقصد من وراء هذا القول أى نوع من « العداء للثقافة » ، أو دعوة إلى تحطيم الماضى كلية . كما أنه لا يقترح تجاهل المواد الأساسية كالقراءة والكتابة والرياضيات . إنما الذى نعنيه هو أن عشرات الملايين من الأطفال يجبرون اليوم بحكم القانون على إنفاق ساعات عديدة وثمينة من حياتهم فى طحن واجترار مواد مشكوك إلى أبعد حد فى أن تكون لها أى منفعة فى المستقبل (بل ليس هناك من يدعى أنها ذات نفع يذكر فى الحاضر) . هل هناك ما يوجب أن ينفقوا كل هذا الوقت فى تعلم الفرنسية ، أو الأسبانية ، أو الألمانية ؟ هل هناك فائدة من الوقت الضائع فى الدراسة المتقعرة للغة الإنجليزية ؟ هل ثمة ما يحتم أن يدرس كل الأطفال الجبر ؟ هل يكون من الأجدى أن يدرسوا بدلا من ذلك نظرية الاحتمالات ؟ أو المنطق ؟ أو برمجة الكومبيوتر ؟ أو الفلسفة ؟ أو الجماليات ؟ أو وسائل الاتصال العام ؟

إننا ندعو أى إنسان يعتقد فى عقلانية المناهج الحالية أن يشرح لتلميذ ذكى فى الرابعة عشرة : لماذا تمثل دراسة الجبر أو اللغة الفرنسية ضرورة حيوية بالنسبة له ؟ إن إجابات البالغين فى هذا الخصوص مراوغة دائما وغامضة . والسبب واضح بسيط : إن المناهج الحالية ليست إلا تشبثا غبيا بالماضى . .

لماذا على سبيل المثال ، يجب أن ينتظم معظم التعليم حول موضوعات ثابتة مثل اللغة الانجليزية ، والاقتصاد ، والرياضيات ، أو البيولوجيا ؟ ولم لا يكون حول مراحل دورة الحياة الإنسانية : الولادة والطفولة ، المراهقة ، الزواج ، المهنة ، التقاعد ، الموت . أو حول المشكلات الاجتماعية المعاصرة ؟ أو حول التكنولوجيات الهامة فى الماضى والمستقبل ؟ أو حول غير ذلك من الموضوعات التى لا تقع تحت حصر ؟ ؟

إن المناهج الحالية وتقسيماتها الضيقة ليست مؤسسة على أى تفكير عميق أو مفهوم واضح للاحتياجات الإنسانية المعاصرة ، وهى أقل ارتكازاً

على أى فهم للمستقبل ، أو تفهم للمهارات التى سيحتاج لها الفرد ليعيش وسط إعصار التغيير . إنما فى الواقع مبنية على القصور الذاتى ، وعلى الصراعات المريرة بين طوائف الأكاديميين التى لاهم لكل منهم إلا تضخيم الميزانية ورفع مستويات المرتبات والارتقاء فى سلم المناصب .

وفضلا عن ذلك ، فإن هذه المناهج المتخلفة تفرض التنميط فرضا على مدارس المرحلة الأولى والمرحلة الثانوية . إنها لا تتيح للأولاد إلا أضيق الفرص لاختيار ما يرغبون فى تعلمه . والفروق بين مدرسة وأخرى لا تكاد تذكر . والمناهج مسمرة حيث هى بحكم متطلبات الالتحاق بالكليات التى تعكس بدورها احتياجات مهنية واجتماعية لمجتمع يتلاشى .

إن مجالس المستقبل ، الخلايا التنبوئية لثورة ما فوق التصنيع ، ينبغى لها فى نضالها من أجل الارتقاء بالتعليم ، أن تقيم من نفسها لجانا لمراجعة المناهج ، إن المحاولات المبذولة حاليا بواسطة سلطات التعليم لتعديل منهج الفيزياء ، أو تحسين وسائل تعليم اللغة الانجليزية أو الرياضيات ، لا تعدو — على أكثر تقدير — أن تكون فتاتا . فبينما قد يكون من المهم الحفاظ على عناصر من المناهج الحالية وإدخال التغيير تدريجيا ، فإن ما نحن فى حاجة إليه حقيقة ليس مجرد محاولات عفوية للتطوير . إن مقتربا منهجيا من المشكلة ككل هو ما نحن فى حاجة ماسة إليه .

ولا ينبغى بأى حال من الأحوال أن تشرع هذه اللجان الثورية فى وضع منهج موحد جديد وثابت لكل الأغراض ، بل على العكس يجب أن تبتكر مجموعة من المناهج المؤقتة والمصحوبة بالإجراءات الكفيلة بإعادة تقويمها وتجديدها مع مرور الوقت . فيجب أن تكون هناك طريقة لما يجعل المناهج تتغير دون حاجة إلى تفجير صراعات مريرة فى كل مرة .

وأيضا فلابد من النضال من أجل تعديل ميزان النمطية والتنوع فى مناهج التعليم . إن الوصول بالتنوع إلى أقصى مداه قد يؤدى بنا إلى مجتمع متفسخ يجعل افتقاره إلى أطر إسناد عامة عملية التواصل بين الناس أصعب حتى

مما هى عليه الآن . ولكن الخوف من أخطار التفسخ لا ينبغى أن يقابل بنظام تعليم مغرق فى النمطية ، بينما المجتمع كله يتسابق نحو التنوع .

وثمة طريقة لحل التناقض بين الحاجة إلى التنوع والحاجة إلى نقط الإسناد العام ، هى أن نميز فى التعليم بين « المعطيات » على ما كانت عليه وبين « المهارات » .

التنوع فى المعطيات

من طبيعة المجتمع أن يختلف ويتغير . وأكثر من هذا ، فهما أوتينا من قدرة على البصيرة والتنبؤ ، فلن نستطيع أن نتنبأ بالضبط بما ستكون عليه الأوضاع المتعاقبة للمجتمع فى المستقبل . وفى هذه الحالة ، سيكون من الأصوب أن نتحوط فى مراهناتنا التعليمية . وكما يعمل التنوع السلالى على حفظ الأنواع ، كذلك فإن التنوع التعليمى يزيد من فرص البقاء للمجتمعات .

وبدلا من تنميط التعليم فى المرحلتين الأولى والثانوية ، والتى تفرض فيهما على التلميذ نفس قاعدة المعطيات — فى التاريخ ، والرياضة والبيولوجيا والأدب ، والأجرومية ، واللغات الأجنبية ، إلى آخره — يجب أن تحاول الحركة المستقبلية فى التعليم إيجاد مجال اختيار واسع التنوع من المعطيات . يجب أن يسمح للأطفال باختيار أرحب مما هو متاح لهم الآن . ويجب أن يشجعوا على تذوق واختبار تشكيلة من البرامج القصيرة الأجل (ربما لمدة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع) قبل أن يستقروا على اختيار المنهج الطويل المدى . كما ينبغى أن تقدم كل مدرسة عشرات من المواد الاختيارية المرتكزة كلها على الحاجات المفترضة للمستقبل .

ويجب أن يتسع مدى الموضوعات ليشمل إلى جانب معالجة « المعلوم » و « القوى الاحتمال » من عناصر مستقبل ما فوق التصنيع ، عناصر أخرى تعالج المجهول وغير المتوقع ، والممكن ، وقد يجدر بنا أن نفعل ذلك بتخطيط نوع من « مناهج الاحتمالات » — أى برامج تعليمية تستهدف تدريب الناس على تناول مشكلات ليس لها وجود فحسب ، بل أغلب الظن أنها لن توجد

أيضا . إننا نحتاج على سبيل المثال — إلى أخصائيين فى مجالات رحبة التنوع من التخصصات لمواجهة احتمالات رهيبة ، وإن كانت غير مرجحة مثل : احتمال تلوث الكرة الأرضية بميكروبات قد تأتى بها رحلات الفضاء من الكواكب والنجوم ، أو نشوء الحاجة إلى الاتصال بالحياة الفوق أرضية ، أو المخلوقات الرهيبة التى يمكن أن تنتج عن التجارب التى تجرى على السلالات والوراثة .

وكان من الواجب أن نكون قد شرعنا الآن بالفعل فى تدريب «كوادر» من الشباب على العيش فى بيئات تحت الماء . فقد يجد جزء من الجيل القادم نفسه يعيش ويعمل تحت مياه المحيطات ، وبالتالى كان ينبغى أن نأخذ جماعات من الطلبة لرحلات تحت الماء ، وأن نعلمهم الغوص ، ونطلعهم على مواد البناء تحت الماء ، ونعرفهم بالطاقات المطلوبة والمخاطر المحتملة لغزو البحر بواسطة الإنسان ، وألا نقصر هذا التدريب على الطلبة الكبار ، بل أيضا على أطفال المدارس ، وحتى الأطفال الرضع .

وفى نفس الوقت يجب أن نعرف الشباب بعجائب الفضاء الخارجى ، وأن نمكن جماعات منه من العيش مع أو بقرب رواد الفضاء ، وأن يتعلموا عن البيئات الكوكبية ، وأن يتعرفوا تكنولوجيات الفضاء ، كما يفعلون الآن بالنسبة لتكنولوجيا السيارات ؛ وأيضا ينبغى أن يشجع آخرون على تجربة العيش ضمن الأسر الكوميونية وغيرها من الأشكال الأسرية للمستقبل . إن مثل هذه التجارب إذا وضعت تحت الإشراف المسئول ، والإرشاد البناء ، يمكن أن تكون جزءا من تعليم مناسب ، وليست نفيا أو قطعا لعملية التعلم .

إن مبدأ التنوع سوف يفرض عدداً أقل من البرامج ، وسيزيد من الاختيار بين التخصصات الضيقة . وبالتحرك فى هذا الاتجاه ، وبإيجاد مناهج الاحتمالات ، ستتوافر للمجتمع ثورة هائلة من المهارات الرحبة التنوع بما فيها المهارات التى قد لا يستخدمها مطلقا ، ولكن من الأصوب إعدادها حتى تكون جاهزة للاستخدام الفورى فى حالة ما إذا أسفر المستقبل عن خطأ فى تقديرنا لاحتمالاته .

إن مثل هذه السياسة خيمه بأن تنتج آدميين أكثر تفرداً ، وفروقاً أكثر بين الناس،وتنوعا أكبر فى الأفكار ، وفى النظم السياسية والاجتماعية الفرعية .

نظام من المهارات

ولسوء الحظ ، إن هذا التنوع فى المعطيات التعليمية المتاحة سوف يزيد من تفاقم مشكلة فائض الاختيار فى حياتنا . ومن ثم فإن أى برنامج للتنويع يجب أن يكون مصحوبا بجهود قوية لخلق نقط إسناد عامة بين الناس من خلال نظام مهارات موحد . فبينما لا ينبغى أن يدرس كل الطلبة نفس البرامج ، أو يتشربوا نفس الحقائق ، أو يختزنوا نفس مجموعة المعطيات ، ينبغى من الناحية الأخرى أن يسلحوا جميعا بمهارات عامة معينة لا غنى عنها للتواصل الإنسانى ، والتكامل الاجتماعى .

فلو افترضنا استمرار ارتفاع معدلات : الزوال ، والجدة ، والتنوع ، اتضحت لنا طبيعة بعض هذه المهارات السلوكية المطلوبة . فعلى سبيل المثال ، نستطيع القول عن يقين ، بأن الناس الذين سيعيشون فى مجتمعات ما فوق التصنيع ،سوف يحتاجون إلى مهارات جديدة فى ثلاثة مجالات ذات أهمية قصوى ، هى : التعلم ، والارتباط ، والاختيار .

التعلم : نستطيع فى ضوء تسارع التغيير أن نستنتج أن المعرفة ستزداد زوالية وقابلية للفناء . إن « حقائق » اليوم قد تصبح « ضلالات » الغد . ولا يحمل هذا القول أى دعوى ضد تعلم « الحقائق والمعطيات » . ولكن المجتمع الذى لا يكف الفرد فيه عن تغيير عمله ، ومحل سكنه ، وعلاقاته الاجتماعية إلى آخره – مثل هذا المجتمع يفرض أثقل الأعباء على طاقة التعلم لدى الفرد . ومن ثم فإن مدارس الغد لا ينبغى أن تكتفى بمجرد تعليم المعطيات ، ولكن أيضا طرق معالجتها . يجب أن يتعلم الطلاب كيف ينسخون الأفكار البالية وكيف ومتى يحلون أخرى محلها . وباختصار ، يجب أن يتعلم الطالب كيف يتعلم .

كان الكومبيوتر فى أول عهده يتكون من « ذاكرة » ، أى كمية من

المعلومات، و« برنامج » ، أى مجموعة من التعليمات التى ترشد الماكينة إلى كيف تعالج هذه المعلومات . أما الكومبيوتر من الجيل الأكبر والأحدث فليس فقط يختزن كميات هائلة من المعلومات ، ولكن أيضا برامج متعددة . ومن ثم فإن مشغل الكومبيوتر يستطيع أن يطبق عدة برامج مختلفة على نفس القاعدة من المعلومات . وهذا النوع من الكومبيوتر يتطلب أيضا « برنامجا رئيسيا » يوجه الماكينة إلى أى البرامج تطبق ومتى تفعل . إن تعدد البرامج وإضافة برنامج رئيسى رفع إلى حد كبير من قدرة الكومبيوتر .

ويمكن استخدام استراتيجية مماثلة لدعم قدرة الإنسان على التكيف . فإذا وجهنا الطالب إلى كيف يتعلم ثم ينسخ بعض ما تعلمه ليتعلم من جديد ، أضفنا بذلك بعداً هاما جديدا إلى التعليم .

ويصوغ هربرت جيرجوى ، الأخصائى النفسى بمنظمة البحوث الخاصة بالطاقات الإنسانية ، هذه الفكرة فى عبارات سهلة واضحة عندما يقول : « إن التعليم الجديد يجب أن يعلم الفرد كيف يصنف ثم يعيد تصنيف المعلومات ، وكيف يقيم صحتها . وكيف يغير من المقولات إذا لزم الأمر . وكيف ينتقل من الواقع إلى المجرد وبالعكس . وكيف ينظر إلى المشكلات من زاوية جديدة — كيف يعلم نفسه . إن الأمى فى الغد لن يكون ذلك الرجل الذى لا يقرأ ولا يكتب ، وإنما سيكون ذلك الرجل الذى لم يتعلم كيف يتعلم » .

الارتباط : نستطيع أيضا أن نتوقع صعوبة متزايدة فى إنشاء الروابط الإنسانية والحفاظ عليها إذا ما استمرت الحياة فى تسارعها .

عندما نصغى باهتمام إلى ما يقوله الشباب ، سندرك بوضوح كيف أصبحت عملية إنشاء صداقات حقيقية مسألة صعبة ومعقدة بالنسبة لهم . عندما يشكو الشباب ، مثلا ، من أن « الناس غير قادرين على التواصل » فإنهم لا يشيرون بذلك إلى مجرد عبور فواصل الأجيال ، ولكن أيضا إلى وجود نفس المشكلة فيما بينهم . وكمثال على ذلك ما كتبه رود ماكوين ، وهو شاعر وكاتب أغان يتمتع حاليا بشعبية ملحوظة بين الشباب ، لقد كتب ماكوين

يقول : « لست أذكر من بين من التقيت بهم من الأشخاص الجدد إلا أولئك الذين التقيت بهم فى الأيام الأربعة الأخيرة » .

ونستطيع أن نتفهم بعض مايبدو سطحيا أنه محير من سلوك الشباب ، عندما ندرك أن الزوال يمثل أحد عوامل الاغتراب . إن بعضهم على سبيل المثال ينظر إلى الجنس باعتباره طريقة سريعة « للتعرف إلى شخص ما » . فبدلا من النظر إلى الاتصال بالجنس كشىء يأتى بعد عملية طويلة من بناء الصداقة ، ينظرون إليه ، صوابا أو خطأ ، كطريق مباشر إلى تفاهم إنسانى أعمق .

وتفسر نسبة الرغبة فى التعجيـــل بالصداقة تعلق الشباب بتكنيكات سيكولوجية معينة مثل : « تدريب الحساسية » وألعاب « اللمس والتحسس » الخالية من أى كلمات ، وغيرها من الأساليب التى تشكل ظاهرة ديناميكيات الجماعة بشكل عام . وأيضا فإن تحمسهم للمعيشة الكوميونية يشى بإحساس كامن بالوحدة وعدم القدرة على « الانفتاح » على الآخرين .

كل هذه المناشط تتيح للمشتركين فيها اتصالا نفسيا دون إعداد طويل ، وغالبا دون أى تعارف سابق . وفى كثير من الحالات تكون العلاقة قصيرة العمر عن قصد مسبق . فالغرض من اللعبة هو تكثيف عاطفية العلاقة بصرف النظر عن قصر مداها .

إننا بزيادة معدل الأشخاص الذين نلتقى بهم فى حياتنا ، لانتيح وقتا كافيا للثقة أن تنمو وللصداقة أن تنضج . وبالتالى فإننا نشهد ذلك البحث عن طرق تتجاوز السلوك « العام » المهـــذب ، وتتجه مباشرة إلى المشاركة الودية جـــدا .

إن المرء قد يشك فى فاعلية مثل هذه التكنيكات التجريبية لقطع الشك والتخلى عن التحفظ ، ولـكن مالم تفتر سرعة تقلب الأشخاص فى حياتنا ، فإن على التعليم أن يساعد الناس على تقبل اختفاء الصداقات العميقة وتقبل الوحدة وفقدان الثقة بالناس ، أو أن يوجد سبلا جديدة للتعجيل بتكوين الصداقة . إن التعليم مطالب بأن يعلمنا كيف نرتبط بالغير ، سواء أكان ذلك

من خلال تصور أخصب لأساليب تصنيف وتجميع الطلبة ، أو بتنظيم أنواع جديدة من فرق العمل ، أو من خلال أشكال مختلفة من مثل التكنيكات التى ناقشناها فيما تقدم .

الاختيار : إذا ما افترضنا أيضا أن التحول نحو مجتمع ما فوق التصنيع سوف يضاعف من أنواع وتعقيدات القرارات التى ستواجه الفرد ، اتضحت لنا ضرورة معالجة التعليم لمشكلة فائض الاختيار معالجة مباشرة .

إن التكيف يتضمن عمليات اختيار متعاقبة . وعندما يواجه الفرد ببدائل متعددة ، فإنه يختار من بينها الأكثر انسجاما مع قيمه . وعندما يتفاقم فائض الاختيار ، فإن الشخص الذى يفتقر إلى إدراك واضح بقيمه الذاتية (أيا كانت هذه القيم) حرى بأن يتزايد عجزه وارتباكه . ومع ذلك فكلما زادت قضية القيم حرجا ، قل اهتمام مدارسنا الحاضرة بمعالجتها . فلاغرو إذن أن نرى ملايين الشباب يتخبطون فى مسيرتهم إلى المستقبل ، نابين عن هذا الطريق إلى ذاك كقذيفة بلا توجيه .

فى مجتمعات ما قبل التصنيع ، عندما كانت القيم ثابتة نسبيا ، لم يكن ثمة نزاع يذكر حول حق الجيل الأقدم فى فرض قيمة على الشباب . وكان التعليم مهتما بغرس القيم اهتمامه بنقل المهارات ، وحتى فى أول العهد بالتصنيع نجد هربرت سبنسر يؤكد على أن « هدف التعليم هو صياغة الشخصية » ، أو بمعنى آخر إغراء الشباب أو حملهم حملا على اعتناق قيم الكبار .

وعندما تصدع بناء القيم القديم تحت ضربات أمواج ثورة التصنيع العاتية ، وتطلبت الظروف الجديدة قيما جديدة ، تراجع المعلمون . وكرد فعل ضد التعليم الدينى ، أصبح تعليم الحقائق ثم « ترك الطالب يحزم أمره » معتبرا فضيلة تقدمية . وحلت النسبية فى الثقافة والحياد العلمى الظاهر محل الإصرار على القيم التقليدية . لقد تشبث التعليم بعبارات صياغة الشخصية الرنانة ، ولكن المعلمين تخلوا عن فكرة غرس القيم ذاتها مضللين أنفسهم بالاعتقاد بأنه لا شأن لهم ألبتة بمسألة القيم .

إن كثيرا من المعلمين يصابون بالدهشة اليوم عندما يقال إن كل أنواع القيم تنتقل إلى الطلبة ، إن لم يكن بواسطة الكتب الدراسية فبواسطة المنهج غير الرسمى – ترتيبات الجلوس ، وجرس المدرسة ، والتفرقة السنية ، والتمايز الاجتماعى ، وسلطة المدرس ، وحقيقة أن الطلبة فى مدرسة بدلا من أن يكونوا فى المجتمع ذاته . كل أمثال هذه الترتيبات تبث فى عقل الطالب رسائل غير منطوقة وتصوغ مواقفه ووجهات نظره . ومع ذلك يستمر تقديم المنهج الرسمى وكأنه خال من القيم . فالأفكار والأحداث مجردة من أى مضمونات للقيم ، معزولة عن الواقع المعنوى .

وأسوأ من هذا ، أن الطلبة نادرا ما يشجعون على تحليل قيمهم الذاتية وقيم مدرسيهم وأندادهم . ويقطع الملايين منهم كل مراحل الدراسة دون أن يضطروا مرة واحـــدة إلى النظر فيما يقـــومهم هم أنفسهم من تناقضات أو إلى سبر غور أهدافهم الذاتية فى الحياة ، أو حتى لمناقشة هذه المسائل مناقشة خاطفة مع نظرائهم . الطلبة يلهثون صعودا من فصل إلى فصل – والمعلمون يدفعون دفعا إلى مزيد من العزلة . وحتى المناقشات الخارجة عن المنهج والتى تتناول موضوعات الجنس والسياسة والدين والتى تتيح للطالب التعبير عن ذاته وإيضاح قيمه ، أخذت بدورها تتناقص عددا وتقل ألفة كلما ارتفع الزوال .

ولم يكن من الممكن أن تتضافر ظروف أنسب من هذه لتخرج أناسا أكثر شكا فى أهدافهم ، أو أكثر عجزا عن اتخاذ القرارات تحت ضغط فائض الاختيار . ومن ثم فإن معلمى عصر ما فوق التصنيع لا يجب بأى حال من الأحوال أن يحاولوا فرض قيم جامدة على الطلبة ، بل يجب أن ينظموا ، وبطريقة منهجية ، ألوانا مختلفة من المناشط الرسمية وغير الرسمية التى تساعد الطالب على أن يحدد ، ويحلل ، ويختبر قيمه ، أيا كانت هذه القيم . وستظل مدارسنا تخرج رجالا ينتمون إلى عصر التصنيع ، إلى أن نبدأ فى تعليم الشباب المهارات الضرورية للتعرف على أبعاد التناقض فى قيمهم واستجلائها ، إن لم يكن لتصفية هذا التناقض .

إن مناهج الدراسة فى الغد يجب من ثم ألا تشمل مدى واسع التنوع من برامج المعطيات فحسب ، بل أن تركز أيضا على المهارات السلوكية الملائمة للمستقبل . يجب أن تمزج بين التنوع فى محتواها من المعرفة العلمية وبين التعميم فيما يمكن أن نسميه « المعرفة العملية بالحياة ».وعليها أن توجد الأساليب الكفيلة لنفعل الأمرين معاً فى نفس الوقت ومعالجة أحدهما بأسلوب يساعد على خلق الآخر .

وهكذا ، عن طريق وضع فروض محددة عن المستقبل وتخطيط المناهج والترتيبات التنظيمية المرتكزة عليها ، تستطيع مجالس المستقبل أن تبدأ فى صياغة سياسة تعليمية مناسبة بحق لعصر ما فوق التصنيع . ولكن تبقى بعد ذلك خطوة حاسمة أخيرة . لانه لا يكفى أن نوجه « النظام » نحو المستقبل ، بل أن نحول الانحياز الزمنى للفرد أيضاً .

استراتيجية المستقبلية

برغم مرور ثلاثمائة وخمسين عاما على وفاة سيرفانتس ، لا يزال العلماء يجدون من الأدلة ما يؤيد وجهةنظره الثاقبة فى سيكولوجية التكيف ، والتى أوجزها فى هذه العبارة البليغة : « إنذار مسبق — استعداد مسبق ». هذه حقيقة دالة على ذاتها كما تبدو ولا تحتاج فى إثباتها إلى كبير عناء . فى معظم الحالات يمكن أن نساعد الأفراد على تكيف أفضل إذا ما أحطناهم مقدما ببعض المعلومات عما ينتظرهم .

لقد أسفرت الدراسات التى أجريت على ردود الفعل لدى رواد الفضاء ، والأسر التى غيرت مواطنها ، وعمال الصناعة ، عن نتيجة تكاد تكون متطابقة فى جميع الحالات ،هذه النتيجة هى التى عبر عنها الأخصائى النفسى هيو بوين بقوله : « إن المعلومات التوقعية تتيح تغيرا دراميا فى الأداء » . فسواء أكانت المشكلة هى قيادة سيارة فى شارع مزدحم ، أم قيادة طائرة ، أم حل ألغاز فكرية ، أم العزف علىالتشيللو ، أم معالجة لما ينشأ من متاعب بين الأفراد ، فإن الأداء يكون أفضل بكثير فى حالة معرفة الفرد بما هو متوقع أن يحدث » .

« إن من المسلم به أن المعالجة الذهنية للمعلومات المتوافرة مقدما عن أى مسألة تختصر من حجم المعالجة ، ومن الوقت اللازم لرد الفعل فى أثناء فترة التكيف الفعلى . لقد كان فرويد ، على ما أعتقد ، هو الذى قال إن « الفكر هو عبارة عن فعل فى مرحلة الإعداد » .

ومع ذلك فإن عادة التوقع فى حد ذاتها ، أهم بكثير من أى نتف معينة من المعلومات المسبقة . إن هذه القدرة المهيئة للنظر إلى الأمام تلعب دورا رئيسيا فى التكيف . والواقع أن إحساس الفرد بالمستقبل قد يكون من بين أهم الأسباب الكامنة الموصلة إلى التكيف الناجح . ونستطيع أن نرى من بين من حولنا من الناس ، أن أولئك الذين يواكبون التغيير والقادرين على التكيف الأفضل ، هم أولئك الذين تربى لديهم إحساس أغنى وأفضل بما هو مقبل،من أولئك الذين يفتقرون إلى القدرة على التكيف . لقد أصبح توقع المستقبل عادة بالنسبة إليهم.فلاعب الشطرنج الذى يتوقع نقلات خصمه مقدما ، والمدير الذى يمد فكره إلى المدى البعيد ، والطالب الذى يلم بفهرس محتويات الكاتب قبل أن يقرأ الصفحة الأولى ، كل أولئك يبدو واضحا أنهم يحرزون نجاحا أكبر .

ويختلف الناس إلى أبعد المدى من حيث حجم ما يكرسه كل منهم من فكره للمستقبل كشئ متميز عن الماضى والحاضر . فالبعض يستثمر من الطاقات فى تصور أنفسهم فى المستقبل بأكثر مما يفعل البعض الآخر . إنهم يتخيلون ، ويحللون ، ويقيمون إمكانيات المستقبل واحتمالاته . وهم أيضاً يختلفون من حيث بعد المدى الذى يذهبون إليه فى تصوراتهم . فالبعض يتغلغلون بفكرهم إلى « المستقبل العميق » ، فى حين يكتفى البعض الآخر بمجرد اختراق « المستقبل الضحل » .

وهكذا فإن لدينا الآن بعدين من أبعاد « المستقبلية » — كم ، وإلى أى مدى . وثمة دلائل على أن مرحلة النضج بين المراهقين الطبيعيين تكون مصحوبة بما وصفه ستيفن .ل. كلينبرج — الأخصائى النفسى بجامعة برنستون — بأنه : « اهتمام متزايد بأحداث المستقبل البعيد » . وهذا يفترض

علاقة مميزة بين اختلاف مراحل السن واختلاف حجم الاهتمام المكرس للمستقبل ، وأيضاً فإن « الآفاق الزمنية » قد تختلف فيما بينهم . ولكن ليست السن هى المؤثر الوحيد فى نظرتنا المستقبلية ، فالتكييف الثقافى يؤثر فيها أيضاً ، ويعتبر معدل التغيير فى البيئة من بين أهم المؤثرات الثقافية كلها .

من أجل ذلك اكتسب إحساس الفرد تلك الأهمية القصوى كجزء من قدرته على المواجهة والتكيف . فكلما أسرعت الحياة فى خطوها تسارع انحسار بيئة الحاضر مما حولنا ، وتسارع بالتالى تحول احتمالات المستقبل إلى حاضر واقع . وعندما تتمخض البيئة عن تغيرات أسرع ، فإننا لا نضطر حينئذ فقط إلى تكريس طاقات ذهنية أكبر للتفكير فى المستقبل ، بل أيضاً إلى توسيع أفقنا الزمنى أى إلى التغلغل أبعد فأبعد فى أعماق المستقبل . إن السائق الذى يتهادى بسيارته على طريق رئيسى بسرعة عشرين ميلا فى الساعة ، يستطيع أن يتحول بسهولة إلى مخرج جانبى فى الطريق ، حتى ولو كانت الإشارة المنبهة قريبة من موضع القطع ، وكلما ازدادت سرعته احتاج إلى أن تكون الإشارة أبعد عن موضع القطع ، حتى يتاح له وقت أرحب للقراءة ثم الاستجابة . وبنفس القياس فإن التسارع العام للحياة يفرض علينا أن نمد من أفقنا الزمنى ، أو المخاطرة بأن تفاجئنا وتكتسحنا الأحداث . فمع تسارع التغيير تزداد حاجتنا إلى المستقبلية .

وبالطبع فإن بعض الأفراد يمدون نظرتهم إلى المستقبل إلى آماد من البعد ، بحيث تتحول توقعاتهم إلى خيالات هروبية . ولكن هؤلاء أقل بكثير من أولئك الذين تتسم توقعاتهم بالضآلة وقرب المدى ، إلى الحد الذى يجعلهم باستمرار عرضة لمفاجآت التغيير وإرباكاته .

ويبدو أن الفرد القادر على التكيف هو ذلك الذى يطلق تصوراته إلى المدى « المناسب » تماما من الزمن ، والذى يختبر ويقيم ويفاضل بين أكثر من سبيل من سبل التحرك المفتوحة أمامه قبل أن يستقر على قراره النهائى ، وأن يتخذ مقدما قرارات تجريبية ومؤقتة .

لقد أثبتت الدراسات التى قام بها علماء اجتماع ، مثل : لويد وارنر من الولايات المتحدة وإليوت جاك من بريطانيا أهمية هذا العنصر الزمنى فى القدرة على صنع القرار . فالعامل الذى يشتغل على خط التجميع ، يتطلب منه عمله أن يحصر اهتمامه فى أحداث ذات موقع قريب منه فى الزمن . أما الرجال الذين يرتقون فى مناصب الإدارة ، فمتوقع منهم أن يهتموا بأحداث تزداد بعدا فى الزمن مع كل مرحلة من مراحل الترقى .

أما عالم الاجتماع بنيامين .د. سينجر — من جامعة ويسترن إنتاريو والمتخصص فى علم النفس الاجتماعى — فقد ذهب إلى أبعد من هذا . فهو يرى أن المستقبل يلعب دورا ضخما ، وغير مستحب إلى حد كبير ، فى سلوكنا فى الحاضر . فمن رأيه ، على سبيل المثال ، أن « ذات الطفل تعتبر جزئيا بمثابة تغذية مرتدة مما هو بسبيل أن يكونه » . وأن الهدف الذى يتحرك إليه الطفل هو « صورة دوره فى المستقبل » — تصوره لما يجب أن يكون عليه فى مراحل مختلفة من المستقبل .

ويقول سينجر : « هذه الصورة عن دوره فى المستقبل ، تساعد الطفل على تكوين وإضفاء معنى على نموذج الحياة المتوقع منه أن يحتذيه . ولكن ، عندما لا يكون ثمة وجود عملى لهذا الدور ، أو عندما لا يكون هناك سوى صورة ضبابية التحديد له ، يصبح عندئذ لا وجود لأى معنى مرتبط بما يضفيه المجتمع الكبير من قيمة على السلوك : فتصبح دروس المدرسة بلا معنى ، وكذلك قواعد مجتمع الطبقة المتوسطة وسلطة الوالدين » .

وحتى نضع رأى سينجر فى صورة أبسط ، فإنه يرى أن كل فرد لا يحمل فى ذهنه صورة ذاتية لنفسه فى الحاضر فقط ، ولكن أيضا مجموعة صور لنفسه ، كما يحب أن يكون فى المستقبل . « هذا الشخص الذى يرى فيه الطفل نفسه فى المستقبل ، هو منه بمثابة البؤرة التى يرتكز عليها نظره ، والمغناطيس الذى ينجذب إليه . ومن ثم نستطيع القول بأن المستقبل هو الذى يخلق إطار الحاضر » .

ويستطيع المرء أن يتصور مدى الأهمية القصوى لما ينبغى أن يبذله

التعليم من جهود لتنمية الفرد ودعم قدرته على التكيف ، واضعاً كل قوته فى مساعدة الأطفال على انتهاج الانحياز الزمنى المناسب ، والأخذ بقدر مناسب من المستقبلية . فلا شئ يمكن أن يكون زيفه أشد خطورة من هذا .

خذ مثلا المفارقة بين الطريقة التى تعالج بها المدارس اليوم الزمان وتلك التى تعالج بها المكان . إن كل تلميذ فى كل مدرسة يساعد بعناية فائقة على تحديد موقعه من المكان . فمن المطلوب منه أن يدرس الجغرافيا . والخرائط تساعده على تحديد موقعه المكانى . ليس فقط بالنسبة لمدينته أو مقاطعته ، أو لبلاده ، بل إننا أيضاً نحاول أن نشرح له العلاقة المكانية لكوكب الأرض بالمجموعة الشمسية وحتى بالكون كله .

ولكن عندما نأتى إلى تحديد موضعه من الزمان ، فإنناحينئذ نخدعه خدعة قاسية ومدمرة . إننا نغرقه إلى أبعد حد ممكن فى ماضى أمته ، وماضى العالم أجمع . إنه يدرس عن اليونان وروما القديمتين ، وعن ظهور الإقطاع ، وعن الثورة الفرنسية ، وهلم جرا . إننا أيضاً نقدم له قصص التوراة والأساطير الوطنية ، ونمطره بوابل من محصلات الحروب ، والثورات والانتفاضات ، كل منها مزود بعناية بالتاريخ المناسب الذى يحدد موضعه من الماضى .

وعند نقطة ما نقدمه إلى « الأحداث الجارية » . فقد يطلب إليه أن يحضر قصاصات من الجرائد ، وقد يذهب مدرس متحمس إلى حد أن يكلفه بمشاهدة نشرة الأخبار المسائية فى التليفزيون . إننا باختصار نقدم إليه جرعة خفيفة من الحاضر .

ثم عندئذ تقف عجلة الزمن . وتلتزم المدارس الصمت حيال الغد . لقد كتب البروفيسور أوسيب فيلتشيم منذ جيل مضى يقول : « ليست فقط برامج دراستنا للتاريخ هى التى تنتهى عند السنة التى تدرس فيها ، ولكننا نجد نفس الشئ أيضاً بالنسبة لبرامج الاقتصاد والتربية الوطنية ، وعلم النفس ، والبيولوجيا » . وهكذ يسرع الزمن حتى يأتى إلى وقفة مفاجئة . ويشد انتباه الطالب إلى الوراء بدلا من الأمام . والمستقبل الذى

حيل بينه وبين حجرة الدرس قد حيل بينه وبين وعيه أيضاً ، وكأنه ليس ثمة شيء اسمه المستقبل . . .

إن هذا التشويه المريع للزمن فى إحساس الطالب تكشف لنا أبعاده تجربة أشرف عليها جون كوندرى ، أستاذ علم النفس بقسم التطور الإنسانى بجامعة كورنيل . . فى دراسات منفصلة أعطى كوندرى لجماعات من الطلبة فقرة افتتاحية من قصة ، وتصف هذه الفقرة شخصية خيالية لرجل اسمه « البروفيسور هوفمان » وزوجته وابنتهما الكورية المتبناة . وقد وجدت الابنة تبكى وقد تمزقت ملابسها ، فى حين أن جماعة من الأطفال الآخرين تقف متطلعة إليها . ثم طلب من الطلبة إكمال القصة .

أما الشيء الذى لم يعرفه الطلبة الذين أجريت عليهم التجربة فهو أنهم قد قسموا إلى جماعتين . فبالنسبة للمجموعة الأولى وضعت القصة فى صيغة الماضى . فالشخصيات فيها قد « سمعت » و « رأت » و « جرت » . وكان المطلوب من الطلبة أن « يحكوا ماذا فعل مستر ومسز هوفمان . وماذا قال الأطفال » . أما بالنسبة للمجموعة الثانية فقد وضعت الفقرة بالكامل فى صيغة المستقبل . وطلب من أفراد المجموعة أن « يحكوا ماذا سيفعل المستر ومسز هوفمان وماذا سوف يقول الأطفال» . وفيما عدا هذا الاختلاف فى صيغة الفعل ، كانت الفقرتان متماثلتين ، وكذلك التعليمات الخاصة بهما .

وكانت نتائج التجربة بالغة الدلالة والوضوح . لقد كتبت المجموعة الأولى نهايات غنية نسبيا للقصة ، مالئة أحداثها بشخصيات عديدة ، مضيفة إضافة خلاقة لمواقف جديدة وحوار جيد . أما المجموعة الأخرى فقد أنتجت نهايات مفككة ، ضعيفة ، غير واقعية ، ومفتعلة . لقد عبر عن الماضى تعبيراً خصبا غنيا ، أما المستقبل فظل خاويا . لقد علق البروفيسور كوندرى على هذه النتائج بقوله : « إن الأمر يبدو كأننا نجيد الحديث عن الماضى بأسهل من الحديث عن المستقبل » .

هذا التشويه للزمن يجب أن توضع له نهاية إذا أردنا لأبنائنا أن ينجحوا

فى التكيف مع التغيير . يجب أن نقوى إحساسهم بإمكانيات واحتمالات الغد . يجب أن نجعلهم يحسون أكثر بالمستقبل .

إن لدى المجتمع الكثير من الجسور الزمنية التى تربط الجيل الحاضر بالماضى . فإحساسنا بالماضى ينمو من خلال احتكاكنا بالجيل الأكبر ، وبمعرفتنا بالتاريخ ، وبتراثنا المتراكم من الفن ، والموسيقى ، والأدب ، والعلم المنتقل إلينا عبر السنين . وهو يقوى باحتكاكنا المباشر بكل ما حولنا من الأشياء التى لكل منها جذور ممتدة فى الماضى والتى تمدنا بأثر من الانتماء إلى المـــاضى .

ولكن ليس ثمة جسور زمنية من مثل هذه تقوى من إحساسنا بالمستقبل . فليس لدينا أشياء ، أو أصدقاء ، أو أقارب ، ولا عمل من أعمال الفن أو الموسيقى أو الأدب نبت فى المستقبل . وبعبارة أخرى ، فإننا لا نملك تراثا ينتمى إلى المستقبل .

وبالرغم من ذلك فهناك سبل نستطيع من خلالها أن نطلق عقولنا إلى الأمام كما أطلقناها إلى الخلف . إننا نحتاج إلى خلق وعى قوى بالمستقبل بين الجماهير ، ولكن ليس بمجرد وسائل من مثل كوميديات بلك روجرز أو أفلام من مثل فيلم بارباريلا ، أو مقالات عن عجائب السفر فى الفضاء أو البحوث الطبية . إن مثل هذه الوسائل تسهم إلى حد ما فى خلق هذا الوعى . ولكن ما نحتاج إليه حقيقة هو التركيز على إثارة الاهتمام بالمضامين الاجتماعية والشخصية للمستقبل ، وليس فقط بقسماته التكنولوجية .

فإذا كان الفرد المعاصر سوف يضطر إلى التكيف مع ما يساوى ألف سنة من التغيير خلال فترة عمر واحد ، فإن عليه أن يحمل فى رأسه صورة دقيقة إلى حد معقول للمستقبل .

لقد كان رجال العصور الوسطى يحملون فى رؤوسهم صورة الحياة الآخرة ، كاملة بالمشاهد الحية للجنة والجحيم . ونحن نحتاج الآن إلى أن نكون صورا دينامكية لاميتافيزيقية لما ستكون عليه الحياة الزمنية ، وكيف ستكون صوتها ، ورائحتها ، ومذاقها وملمسها فى المستقبل المسرع إلينا .

ومن أجل خلق مثل هذه الصور ، وبالتالى تخفيف وقع صدمة المستقبل ، يجب أن نبدأ بأن ننظر باحترام إلى عملية التأمل فيما يخص المستقبل . وبدلا من أن نسخر من ذوى الرؤية المستقبلية ، ونسميهم بالمحدقين فى الكرة السحرية ، ينبغى أن نشجع الناس منذ طفولتهم على التأمل الحر ، ليس فقط عما يخبئه لنا الأسبوع القادم ، ولكن أيضا عما يخبئه الجيل القادم للجنس البشرى . إننا نعطى أولادنا دراسات فى التاريخ ، فلماذا لا نعطيهم أيضا دراسات عن المستقبل نستكشف فيها إمكانيات المستقبل واحتمالاته بطريقة منهجية ، كما نستكشف اليوم النظام الاجتماعى عند الرومان وظهور النظام الإقطاعى .

يقول روبرت يونك ، وهو من أبرز فلاسفة أوروبا المستقبليين : « فى وقتنا الراهن يكاد يكون التعليم مركزا تركيزا تاما على ماذا حدث وما صنع ؟ أما فى الغد فلابد من أن يخصص ثلث المحاضرات والتدريبات على الأقل للاهتمام بالأعمال الجارية فى المجالات العلمية ، والتكنولوجية ، والفن ، والفلسفة ، ومناقشة الأزمات المتوقعة والحلول الممكنة مستقبلا لمواجهة تحدياتها » .

إننا لا نملك أدبا عن المستقبل لنستخدمه فى هذه البرامج ، ولكن لدينا أدب حول المستقبل لا يتألف فقط من الطوباويات الكبرى ، ولكن أيضا من القصص العلمى المعاصر . ويحتل القصص العلمى مرتبة دنيا كفرع من فروع الأدب ، وربما كان يستحق هذا الازدراء . ولكن إذا نظرنا إليه على أنه مادة اجتماعية عن المستقبل أكثر من كونه أدبا ، فسنجد فيه عاملا فعالا فى دعم قوى التخيل اللازمة لخلق عادة التوقع . ومن ثم فإن أطفالنا يجب أن يدرسوا أعمال أرثر . سى . كلارك ، ووليـــام تن ، وروبرت هانيلين ، وراى برادبورى ، وروبرت شيكلى ، لا لأن هؤلاء الكتاب يستطيعون أن يحكوا لهم عن السفن الصاروخية ، أو عن ماكينات الزمن ، ولكن أهم من هذا لأنهم يستطيعون أن يشدوا أذهان الشباب إلى الاستكشاف التخيلى لأدغال القضايا السياسية ، والاجتماعية ، والنفسية ، والأخلاقية التى ستواجههم عندما يكبرون .

ولكن لا ينبغى أن يكتفى بالقراءة فحسب . فثمة ألعاب كثيرة مصممة

لتعلم الشباب والكبار أيضا حول إمكانيات المستقبل واحتمالاته . فهناك على سبيل المثال لعبة « المستقبل » التى وزعتها شركة كايزر للألومنيوم والصناعات الكيماوية بمناسبة عيدها العشرينى ، والتى تقدم إلى اللاعبين بدائل تكنولوجية واجتماعية مختلفة من المستقبل وتجبرهم على الاختيار بينها . وتكشف هذه اللعبة عن مدى الارتباط بين الأحداث التكنولوجية والاجتماعية ، كما تشجع اللاعب على التفكير بصيغة الاحتمالات ، وبتعديلات مختلفة تستطيع أيضا أن تساعد على إيضاح دور القيم فى عملية صنع القرار . وفى جامعة كورنيل استطاع البروفيسور جوزيه فيلجاس من قسم التصميم والتحليل البيئى بمساعدة جماعة من الطلبة أن يبتكر عددا من الألعاب التى تتناول أعمال الإسكان والمجتمع فى المستقبل . كما صنعت لعبة أخرى تحت إشرافه مكرسة لإيضاح السبل التى ستتفاعل بها التكنولوجيا مع القيم فى عالم الغد .

ويمكن استخدام تدريبات أخرى بالنسبة لصغار التلاميذ ؛ فمن أجل إيضاح تصوراتهم لدورهم فى المستقبل ، يمكن أن يطلب منهم كتابة « تواريخ حياتهم فى المستقبل » بحيث يرسمون فيها صورا لأنفسهم بعد خمس أو عشر أو عشرين سنة مستقبلا . وعن طريق طرح ما يكتبون للمناقشة فى الفصل ، والمقارنة بين افتراضاتهم المختلفة ، يمكن تحديد وفحص التناقضات فى تصورات الطفل نفسه . ففى الوقت الذى تكون فيه الذات في حالة من الانقسامات المتعاقبة إلى ذوات متعددة ، يمكن أن يفيد هذا التكنيك فى إمداد الفرد بنوع من الاطراد . فإذا قدمنا ، على سبيل المثال ، للأطفال عندما يبلغون الخامسة عشرة ماكتبوه أنفسهم عندما كانوا فى الثانية عشرة ، فسيستطيعون أن يروا كيف أثر النضج فى تعديل صورهم الذاتية فى المستقبل . كما سيساعدهم هذا أيضا على أن يفهموا كيف صاغت قيمهم ومواهبهم ، ومهاراتهم ، ومعرفتهم إمكانياتهم الذاتيه .

ويمكن أن نذكر الطلبة عندما نطلب إليهم تصور أنفسهم لسنوات قادمة أن إخوتهم وآباءهم وأصدقاءهم سوف يكبرون أيضا ، وأن يطلب منهم أن يتصوروا كيف سيصبح هؤلاء «المهمون الآخرون» بدورهم فى المستقبل .

مثل هذه التدريبات إذا ما ربطت بدراسة الاحتمالات ، وبطرق مبسطة للتنبؤ مما يمكن استخدامها فيما يخص حياة الفرد الشخصية ، تستطيع أن تساعد على توضيح وصقل مفهوم الفرد عن المستقبل اجتماعيا وشخصيا . إنها يمكن أيضا أن تخلق لدى الفرد انحيازا زمنيا جديدا ، وإحساسا جديدا بالغد سوف تثبت فائدته فى مواجهة مطالب الحاضر .

إن أكثر الأفراد قدرة على التكيف هم أولئك الرجال والنساء الذين يستجيبون لزمانهم ويعيشونه حقا ، ويحسون تشوقا وحنينا حقيقيا إلى المستقبل ، ليس قبولا استسلاميا لكل أهوال الغد المحتملة ، ولا إيمانا أعمى بالتغيير من أجل التغيير فى حد ذاته ، وإنما فضولا قويا ، واندفاعا نحو معرفة ماذا سيحدث .

هذا الاندفاع يصنع أشياء عجيبة ورائعة ، فذات ليلة من ليالى الشتاء شهدت هزة تسرى بين الحاضرين فى قاعة الحلقة الدراسية عندما وقف رجل أبيض الشعر يشرح لجماعة من الغرباء الأسباب التى حدت به إلى الالتحاق بالبرنامج الذى كنت أتولى تدريسه عن علم الاجتماع فى المستقبل . لقد كانت المجموعة تضم خبراء فى التخطيط البعيد المدى ، ومسئولين فى مؤسسات كبرى ، ودورا للنشر ، ومراكز بحوث . لقد أوضح كل منهم سبب التحاقه بالبرنامج حتى جاء الدور أخيرا على ذلك الرجل الدقيق الجسم الجالس فى الركن فوقف ليتكلم فى انجليزية رائعة . برغم نطقه المتكسر ، فقال :

« اسمى شارلس ستين . اشتغلت طول حياتى عامل إبرة . سنى الآن سبعة وسبعون عاما ، وأريد أن أحصل على ما لم أحصل عليه فى شبابى . . إننى أريد أن أعلم عن المستقبل . إننى أريد أن أموت رجلا متعلما . . »

إن الصمت المفاجئ الذى حيا به الحاضرون هذه الحجة البسيطة مازال يرن فى آذانهم . وأمام هذه البساطة البليغة ، سقطت كل دروع الدرجات العلمية وألقاب الإدارة ، والمراكز العليا . إننى أتمنى أن يكون المستر ستين مازال حيا يستمتع بمستقبله ويعلم الآخرين ما تعلمناه منه فى تلك الليلة .

وعندما يعم الملايين هذا التحمس للمستقبل سيكون لدينا ولا شك مجتمع أفضل إعداداً لمواجهة تأثيرات التغيير . وخلق مثل هذا التطلع والوعى يعتبر من أكبر وأخطر المهام الملقاة على عاتق التعليم . وخلق التعليم الذى يستطيع أن يخلق هذا التطلع هو الرسالة الثالثة ، وربما الرسالة المحورية ، لثورة ما فوق التصنيع فى المدارس .

إن التعليم يجب أن يتحول إلى صيغة المستقبل .

الفصل التاسع عشر

ترويض التكنولوجيا

من الممكن تفادى صدمة المستقبل – مرض التغيير – ولكن سيقتضى ذلك منا عملا اجتماعيا ، وحتى سياسيا ، عنيفا . فمهما يحاول الأفراد أن يضبطوا سرعة حياتهم ، ومهما نقدم إليهم من متكآت نفسية ، ومهما نعدل فى التعليم ، فسيظل المجتمع ككل معلقا بعجلة منفلتة إلى أن نستطيع التحكم فى دفعة التغيير المتسارعة ذاتها .

من الممكن تعقب أسباب السرعة العالية للتغيير إلى عوامل عديدة . إن نمو السكان ، وزيادة نسبة سكان المدن ، وتغير نسبة الشباب إلى المتقدمين فى السن – كل من هذه العوامل له دوره . ولكن من الواضح أن التقدم التكنولوجى هو بمثابة العقدة الحرجة فى نسيج شبكة الأسباب ، بل قد يكون فى الحقيقة هو العقدة التى تحرك الشبكة كلها إلى العمل . ومن ثم فإن أى استراتيجية فعالة لتفادى صدمة المستقبل العامة لابد وأن تتضمن التنظيم الواعى للتقدم التكنولوجى .

إننا لا نستطيع ، ولا ينبغى أن نوقف التقدم التكنولوجى . . إن المغفلين الرومانسيين هم فقط الذين يتشدقون بالعودة إلى « حالة الطبيعة » . حالة يذوى فيها الأطفال ويموتون لعدم توافر الضرورى من الرعاية الصحية ، وحيث فقر التغذية يفسد المخ ، وحيث يكون الطابع الغالب للحياة هو تلك الحياة التى يذكرنا هوبز بأنها كانت « بائسة كئيبة ، وحشية ، وقصيرة » . إن النكوص عن التكنولوجيا لن يكون غباء فحسب ، وإنما يكون عملا لا أخلاقيا وغير إنسانى . . .

وعندما تكون غالبية البشر لا يزالون يعيشون فى ظروف القرن الثانى عشر ، فمن نحن لنقرر ، أو حتى نفكر ، فى نبذ مفتاح التقدم الاقتصادى ؟ !

إن أولئك الذين يهرفون فى عـــدائهم للتكنولوجيا باسم بعض « القيم الإنسانية » الغامضة فى حاجة إلى أن يوجه إليهم هذا السؤال : « أى إنسانية هذه . . ؟ » إن إرجاع عقارب الساعة عن عمد إلى الوراء يعنى الحكم على بلايين البشر بأن يظلوا فى بؤس دائم فى نفس اللحظة التاريخية التى وضح فيها أن تحريرهم ممكن . إننا على وجه التأكيد فى حاجة إلى مزيد من التكنولوجيا وليس العكس بصحيح .

وفى نفس الوقت فإننا لا ننكر حقيقة أننا كثيرا ما نطبق التكنولوجيا الجديدة بغباء وأنانية . ففى تسرعنا إلى احتلاب التكنولوجيا من أجل الربح الاقتصادى العاجل ، حولنا بيئتنا إلى خليط مادى واجتماعى سريع الالتهاب .

إن سرعة الانتشار ، وطبيعة الدعم الذاتى التى يتميز بها التقدم التكنولوجى ، حيث تسهل كل خطوة إلى الأمام ، لا الخطوة التى تليها فحسب ، بل عديدا من الخطوات الإضافية ، والعلاقة الوثيقة بين التكنولوجيا والترتيبات الاجتماعية — كل هذا يخلق نوعا من التلوث السيكولوجى ، تسارعاً فى خطو الحياة يبدو وكأنه لا يكبح له جماح . .

هذا التلوث السيكولوجى يشبه القئ الصناعى الذى يملأ الهواء والمـــاء المحيط بنا ، والمبيدات الحشرية ، ومبيدات الأعشاب التى ترشح فى طعامنا ، وأكداس هياكل السيارات القديمة ، والعلب والزجاجات الفارغة ، والبلاستيك ، التى تشكل مزبلة هائلة بين ظهرانينا ، فى حين أن حطام مقاومتنا يتأكل أكثر فأكثر . إننا حتى لم نبدأ بعد فى معرفة ماذا نفعل بمخلفاتنا من المواد المشعة ؛ وهل ندفنها فى باطن الأرض ، أم نقذف بها إلى الفضاء الخارجى ، أم نصبها فى المحيطات ؟؟

إن قوانا التكنولوجية تتزايد ، ولكن التأثيرات الجانبية الضارة واحتمالات الخطر تتصاعد أيضا . إننا نخاطر بتلويث المحيطات نفسها بالإشعاع ، وبتسخين مياهها ، وتدمير كميات لا تقدر من الحياة البحرية ، وربما أيضا بإذابة قمم الجليد القطبية . وعلى الأرض نكدس كتلا سكانية هائلة فى مدن صناعية صغيرة لدرجة تهدد بأننا سنستهلك الأكسجين من الهواء بأسرع مما نستطيع

استعاضته ، مستحضرين بذلك إمكان تحول المدن الحالية إلى صحراوات . ومن خلال مثل هذه التمزيقات للإيكولوجيا الطبيعية ، فإننا قد نكون بسبيل أن ننفذ حرفيا كلمات العالم البيولوجى بارى كومونر بأننا : « ندمر هذا الكوكب كمكان صالح للحياة البشرية » .

الارتكاس التكنولوجى

كلما أصبحت الآثار المترتبة على التطبيق غير المسئول للتكنولوجيا أكثر وضوحا ، تصاعد تيار التراجعية السياسية . إن حادثا وقع فى أثناء التنقيب عن البترول تحت سطح الماء وأدى إلى تلويث ٨٠٠ ميل مربع من مياه المحيط الهادى ، فجر موجة عارمة من السخط فى طول الولايات المتحدة وعرضها . وفى نيفادا يستعد رجل الصناعة المليونير هوارد هيوز لإقامة دعوى قضائية لمنع لجنة الطاقة الذرية من إجراء تجاربها تحت سطح الأرض . وفى سياتل تواجه شركة بوينج تذمرا متناهياً من الأهالى ضد خططها لبناء طائرات ركاب أسرع من الصوت . وفى واشنطن أجبرت مشاعر الجماهير الحكومة على إعادة النظر فى سياسة بناء الصواريخ . وفى جامعات ميتشجان ، وكورنيل ، وويسكونسن ، وغيرها ، نحى العلماء جانبا أنابيب الاختبار ومساطرهم الحاسبة فى أثناء « مهلة توقف عن البحث » دعوا إليها لمناقشة المضمونات الاجتماعية لعملهم . والطلبة ينظمون حلقات دراسية لمناقشة مشكلات تلوث البيئة . ورئيس الجمهورية يتحدث إلى الأمة عن الخطر الايكولوجى . وثمة دلائل أخرى على عمق ما نحسه من انزعاج حول مسارنا التكنولوجى تبرز فى بريطانيا وفرنسا وغيرهما من الأمم .

إن ما نراه هنا ليس إلا الومضات الأولى من ثورة دولية سوف تهز البرلمانات والمجالس خلال العقود القادمة . إن الاحتجاج على ما يحدثه الاستخدام غير المسئول للتكنولوجيا من تخريب وإتلاف قد يتبلور فى شكل مرضى — فاشية جديدة معادية للمستقبل تضع العلماء فى معسكرات الاعتقال. إن المجتمعات المريضة تبحث دائما عن كباش للفداء . وكلما زادت ضغوط التغيير من وطأتها على الفرد ، وزادت أعراض صدمة المستقبل تفشيا ،

حازت مثل هذا التطورات المزعجة قبولا لدى الناس . وإنه لأمر بالغ الدلالة أن يكتب الطلبة المضربون فى باريس على الجدران شعاراً يقول : « الموت للتكنوقراطيين » .

ولكن الحركة العالمية الوليدة من أجل التحكم فى التكنولوجيا لا ينبغى أن تترك فى أيدى المتخوفين من التكنولوجيا ، أو العدميين ، أو الرومانسيين . فديناميكية التكنولوجيا أقوى من أن توقفها مثل هذه النوبات الجامحة . وأسوأ من هذا ، فإن المحاولات المتهورة لوقف التكنولوجيا سوف تنجم عنها نتائج تماثل فى آثارها التخريبية نفس نتائج المحاولات المتهورة لدفع تقدمها على غير هــدى .

إننا ، وقد حوصرنا بين هذين الخطرين ، فى حاجة ماسة إلى حركة من أجل تكنولوجيا مسئولة . إننا فى حاجة إلى تجمع سياسى واسع ملتزم التزاما راشدا بدفع عجلة البحث العلمى والتقدم التكنولوجى — ولكن على أساس انتقائى فقط . تجمع يضع مجموعة من الأهداف التكنولوجية الإيجابية للمستقبل ، بدلا من أن يبدد طاقاته فى شجب الماكينة والانتقاد السلبى لبرامج الفضاء .

مثل هذه المجموعة من الأهداف إذا ما كانت شاملة وموضوعة بدقة وعناية ، يمكن أن تجلب النظام إلى حقل ليس الآن سوى مجموعة من الخرائب والأنقاض . وطبقا لمـا يراه أوريليو بوتشى الاقتصادى ورجل الصناعة الإيطالى ، سيصل مجموع الإنفاق السنوى على البحوث والتطور فى الولايات المتحدة وأوروبا سنة ١٩٨٠ إلى ٧٣ بليون دولار سنويا ، أى حوالى ثلاثة أرباع تريليون دولار فى بحر عشر سنوات . وإزاء ضخامة هذه المبالغ المتاحة ، من حق المرء أن يتصور أن هذه الحكومات حرية بأن تخطط بعناية لتطورها التكنولوجى ، وأن تربطه بأهداف اجتماعية عريضة ، وأن تصر على المحاسبة الحازمة . ولكن للأسف ليس ثمة تصور أبعد من هذا عن الحقيقة .

« ليس هناك من أحد — حتى أذكى وأعظم عالم من الأحياء — يعرف حقيقة إلى أين يقودنا العلم » . هكذا يقول رالف لاب ، وهو نفسه عالم قبل

أن يصبح كاتبا . ثم يستطرد لاب قائلا : « مثلنا مثل من استقلوا قطارا يندفع بسرعة متزايدة على خط ينتظمه عدد غير معروف من مفاتيح التحويلات التى تؤدى إلى وجهات غير معلومة . . وليس ثمة عالم واحد فى « كابينة » القاطرة ، فى حين قد يوجد شياطين عند مفاتيح التحويلات . أما غالبية المجتمع ففى عربة السبنسة ينظرون إلى الوراء » .

ولست أعتقد أنه مما يبعث على الاطمئنان أن نعلم أنه عندما وضعت منظمة التعاون الاقتصادى والتطوير تقريرها المطول عن العلم فى الولايات المتحدة ، أدلى أحد كاتبى التقرير وهو رئيس وزراء بلچيكى سابق بهذا الاعتراف : « لقد انتهينا إلى نتيجة هى أننا كنا نبحث عن شئ لم يكن له وجود « سياسة علمية » . وقد كان من الممكن للجنة أن تبحث حتى بعناية أكبر ، وبنجاح أقل أيضا ، عن أى شئ يشبه سياسة تكنولوجية واعية .

إن الثوريين يتهمون عادة « الطبقة الحاكمة » أو « المؤسسة » أو ببساطة « هم » بأنهم يتحكمون فى المجتمع بأساليب تتنافى مع مصالح الجماهير . مثل هذه الاتهامات قد يكون لها أحيانا ما يبررها . ولكننا اليوم نواجه حقيقة قد تكون أشد خطراً هى : أن كثيرا من الأمراض الاجتماعية الراهنة تعود إلى النقص الجائر فى التحكم بأكثر مما تعود إلى التحكم الجائر . وإن الحقيقة المفزعة هى أنه حيث يكون الأمر متعلقا بالتكنولوجيا فليس ثمة من يتولى مسئولية القيادة .

انتقاء الأساليب الثقافية

مادامت الأمة الآخذة فى التصنيع فقيرة ، فإنها تميل إلى الترحيب بلا نقاش بأى تجديد فنى يعد بتحسين الناتج الاقتصادى والرخاء المادى . هذه فى الحقيقة سياسة تكنولوجية صامتة ، وتستطيع أن تساعد على تحقيق نمو اقتصادى سريع . ومع ذلك فإنها سياسة غير محنكة ، والنتيجة المتحصلة منها هى تناثر كل أنواع الماكينات والعمليات فى المجتمع دون نظر إلى تأثيراتها الثانوية أو فى المدى البعيد .

أما عندما يبدأ المجتمع صعوده إلى مافوق التصنيع ، فتصبح سياسة « كله ماشى » هذه خطرة وغير صالحة مطلقا . فبصرف النظر عن تعاظم قوة التكنولوجيا واتساع مجالها ، هناك أيضا تضاعف الاختيارات . فالتكنولوجيا المتقدمة تساعد على فائض الاختيار فى السلع المتاحة ، وفى المنتجات الثقافية ، والخدمات ، والطوائف الفرعية ، وأساليب الحياة ، وفى نفس الوقت أصبح فائض الاختيار سمة لاصقة بالتكنولوجيا نفسها .

فالمستحدثات فى التكنولوجيا فى تزايد وتنوع مستمرين ، ومشكلات الانتقاء تتفاقم أمام المجتمع . إن السياسة القديمة البسيطة التى كان عامل الربح السريع يحكم الاختيار فيها أصبحت الآن خطرة ومربكة .

إننا اليوم فى حاجة إلى معايير أكثر تعقيداً للاختيار بين التكنولوجيات . ولسنا نحتاج إلى هذه المعايير لدرء الكوارث فقط ، ولكن أيضا لتساعدنا على اكتشاف فرص الغد . وعلى المجتمع وهو يواجه لأول مرة بفائض الاختيار التكنولوجى أن ينتقى ماكيناته ، وعملياته ، وتكتيكاته ، ونظمه بالجملة ، وليس بالمفرد . أى يجب أن يختار بنفس الطريقة التى يختار بها الفرد أسلوب حياته . يجب أن يتخذ قرارات رئيسية فيما يتعلق بمستقبله .

وفضلا عن ذلك ، فكما يستطيع الفرد أن يمارس الاختيار الواعى بين بدائل متعددة لأساليب الحياة ، كذلك يستطيع المجتمع أن يمارس الانتقاء الواعى بين بدائل عديدة من الأساليب الثقافية . هذه حقيقة جديدة على تاريخ البشرية . . فى الماضى كانت الثقافة تنبثق عن غير عمد . أما اليوم ، ولأول مرة ، نستطيع أن نرفع العملية إلى مستوى الوعى . فبتطبيق سياسة تكنولوجية واعية – إلى جانب إجراءات أخرى – نستطيع أن نرسم معالم ثقافة الغد .

فى كتابهما « سنة ٢٠٠٠ » أورد المؤلفان : هيرمان كان ، وأنتونى وينر ، قائمة بمائة من المستحدثات التكنيكية « المرجح ظهورها خلال الثلث الأخير من القرن العشرين » ،وتمتد هذه القائمة من الاستخدامات العديدة لأشعة الليزر إلى المواد الجديد ، ومصادر الطاقة الجديدة ، ومركبات

جديدة للطيران وللغوص ، والتصوير الفوتوغرافى المجسم . وثمة قوائم مماثلة يمكن أن نجدها هنا وهناك . فى النقل ، وفى الاتصال ، وفى كل ميدان يمكن تصوره ، بل وفى ميادين تكاد تكون بعيدة عن التصور ، يواجهنا فيض غامر من المستحدثات . والنتيجة تعقيدات مذهلة فى الاختيار .

ونجد صورة واضحة لهذا فى الاختراعات والاكتشافات الجديدة المتصلة مباشرة بموضوع قدرة الإنسان على التكيف . ونشير هنا كمثال على هذه المخترعات ، إلى فكرة ما أطلق عليه الاسم الرمزى « أوليفر OLIVER(*) » والتى يعكف بعض خبراء الكومبيوتر على تطويرها لتساعدنا على معالجة الحمل الزائد من القرارات . و « أوليفر » فى أبسط أشكاله سيكون مجرد كومبيوتر شخصى مبرمج لإمداد الفرد بالمعلومات وصنع القرارات البسيطة . وفى هذا المستوى يستطيع الفرد أن يختزن المعلومات عن الأشياء المفضلة لدى أصدقائه ، وبيانات عن طرق المواصلات ، والجو ، إلى آخره . ويمكن أن تعد هذه الأداة بحيث تذكر الفرد بعيد ميلاد زوجته — أو لطلب الزهور أتوماتيكيا . كما تستطيع أن تجدد اشتراكه فى المجلات ودفع الإيجار فى حينه ، وطلب مواسى الحلاقة وما شابه ذلك .

وفضلا عن هذا ، ومع تشعب وانتشار نظم المعلومات المختزنة بواسطة الكومبيوتر ، يمكن توصيل « أوليفر » بمجمع عالمى الاتساع يحتوى على المعلومات المختزنة فى المكتبات وملفات الشركات ، والمستشفيات ، والمحلات والبنوك ، والوكالات الحكومية والجامعات . وهكذا يمكن أن يصبح « أوليفر » بالنسبة للفرد بمثابة جعبة إجابات على ما يعن له من أسئلة .

ولكن بعض علماء الكومبيوتر يتطلعون إلى ما هو أبعد من هذا . فمن الممكن نظريا بناء « أوليفر » يستطيع تحليل كلمات صاحبه ، وفحص

(*) اختصار لكلمات
On - line, Interactive, Vicarious, Expediter and Responder.

وهى تعنى : المستعد ، المتفاعل ، المنوب ، المعجل ، المستجيب ، وقد اختير الاسم الرمزى أوليفر تكريما لصاحب الفكرة أوليفر سيلفريدج .

اختياراته ، واستنتاج نظام قيمه . وأن يعدل برنامجه بحيث يعكس أى تغييرات فى هذه القيم ، وفى النهاية معالجة قرارات أكبر فأكبر لحساب صاحبه .

وبالتالى فإن « أوليفر » سوف يعرف ، على الأرجح ، كيف سيكون رد فعل صاحبه إزاء مختلف الاقتراحات التى قد تطرح فى اجتماع لجنة ما . (يمكن تعقد الاجتماعات بين مجموعة من «الأوليفرات» يمثل كل منها صاحبه دون حاجة إلى حضور أصحابها بأنفسهم . والواقع أن ثمة مؤتمرات من هذا القبيل قد عقدها المختبرون بالفعل مستخدمين الكومبيوتر كوسيط اتصال).

يستطيع « أوليفر » على سبيل المثال أن يعرف ما إذا كان يجب على صاحبه أن يعطى صوته للمرشح «س» . أو أن يسهم فى المشروع الخيرى «ص» ، أو أن يقبل دعوة إلى العشاء من « د » .

ومن واقع كلمات أحد المتحمسين لفكرة « أوليفر » — وهو أخصائى نفسى مدرب على الكومبيوتر : « إذا كنت جلفا غير مهذب فسيعرف (أوليفر) هذا ويتصرف بمقتضاه . وإذا كنت زوجا خائنا فسيعرف (أوليفر) ذلك أيضاً ويقدم لك مساعدته . لأن (أوليفر) لن يكون بالنسبة لك شيئا أقل من ذات ثانية ميكانيكية لك » . إن المرء ، إذا ما دفع إلى تطرف القصص العلمى ، يستطيع حتى أن يتخيل زرع أنواع دقيقة الحجم من هذا « الأوليفر » . . فى أدمغة الأطفال ، وأن تستخدم منضمة إلى عملية الاستنساخ فى خلق — لا مجرد ذوات ثانية ميكانيكية — وإنما ذوات ثانية حيـة .

وثمة تقدم تكنولوجى آخر يمكن أن يوسع من المدى التكيفى للفرد يتصل بدرجة الذكاء . فقد أعلن عن تجارب أجريت فى الولايات المتحدة والسويد وأماكن أخرى ترجح بشدة أننا قد نستطيع فى المستقبل القريب أن نزيد من ذكاء الإنسان وقدراته على معالجة المعلومات . فبحوث الكيمياء البيولوجية والتغذية تشير إلى أن البروتين وال (رن أ) وغيرهما من العناصر القابلة للمعالجة العلمية مرتبطة بطريقة مازالت غامضة بالذاكرة والتعلم .

إن تكريس جهود ضخمة لتحطيم حواجز الذكاء قد يجزى بنتائج خيالية فى تحسين قدرة الإنسان على التكيف .

قد تكون اللحظة التاريخية مناسبة لمثل هذه المحاولات الهادفة إلى دعم قدرات الكائن البشرى ، وللقفز به نحو مستوى جديد من الإنسان الفائق . ولكن ما هى معقبات ذلك ؟ وما هى البدائل ؟ هل نريد عالما مأهولا بكائنات من نوع « أوليڤر » ؟ ومتى ؟ وتحت أى شروط ؟ ومن سيعطى الحق فيها ؟ ومن سوف يحال بينه وبين ذلك ؟ هل تستخدم المعالجة بالبيوكيماويات لرفع المتخلفين ذهنيا إلى المستوى العادى ؟ أم لرفع المستوى العام ؟ أم نركز على محاولة تنشئة فئة من العباقرة الممتازين ؟

وفى ميادين مختلفة تماما ، تواجهنا نفس الاختبارات المعقدة . هل نلقى بمواردنا فى جهد مضاعف وعاجل من أجل الحصول على طاقة نووية رخيصة ؟ أم نبذل جهدا مماثلا فى محاولة تحديد الأساس البيوكيمائى للعدوان ؟ هل ننفق بلايين الدولارات على طائرات الركاب الأسرع من الصوت ، أم ينبغى أن نوجه هذه المبالغ لتطوير القلوب الصناعية ؟ هل ينبغى أن نتلاعب بالوراثة البشرية ؟ أم ينبغى ، كما يقترح البعض جادين ، أن نغمر المنطقة الوسطى من البرازيل بالمياه لنخلق بحرا داخليا فى مساحة ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية مجتمعتين ؟ ! إننا سنصبح دون شك قادرين قريبا على أن نضع فى طعامنا نوعا متطورا من عقار الهلوسة ، أو إضافات مضادة للعدوانية ، أو أى نوع آخر من المؤثرات الجسدية . وسوف نصبح قريبا قادرين على توطين أناس فى الكواكب ، وزرع مسيرات المتعة فى جماجم الأطفال الحديثى الولادة . ولكن هل نفعل ؟ ومن الذى يقرر ؟ وبأى معيار إنسانى يجب أن تتخذ مثل هذه القرارات . ؟

من الواضح أن المجتمع الذى سيختار « أوليڤر » والطاقة النووية ، والطائرات التى تفوق سرعتها سرعة الصوت ، والمشروعات الهندسية الكبرى على مستوى القارة ، بالإضافة إلى عقار الهلوسة ومسيرات المتعة — مثل هذا المجتمع خليق بأن ينتهج ثقافة مختلفة اختلافا دراميا عن ثقافة المجتمع

الذى سيفضل أن يتجه إلى رفع مستوى الذكاء ، وتوزيع العقاقير المضادة للعدوان ، وتوفير القلوب الصناعية .

وستبرز فروق حادة بين المجتمع الذى يدفع التقدم التكنولوجى على أساس انتقائى ، وبين ذلك الذى يتشبث تشبثاً أعمى بأية فرصة عابرة . . وستظهر فروق أكثر حدة بين المجتمع الذى يروض تقدمه التكنولوجى ويوجهه لتفادى صدمة المستقبل ، وبين ذلك الذى تصاب فيه جماهير الناس العاديين بالعجز عن اتخاذ القرارات الراشدة . . فى الأول سيكون ممكنا تطبيق الديموقراطية السياسية وتحقيق مدى واسع من المشاركة . أما فى الآخر فسوف تؤدى الضغوط إلى تركيز السلطة فى أيدى قلة من التكنولوجيين . وباختصار ، فإن اختيارنا للتكنولوجيات سوف يصوغ بشكل حاسم الأنماط الثقافية فى المستقبل .

من أجل هذا ، لم يعد يكفى أن نرد على الأسئلة المتعلقة بالتكنولوجيا بلغة تكنولوجية خالصة ، فهى أيضاً أسئلة سياسية . بل إنها فى الحقيقة تؤثر فينا تأثيرات أعمق مما تحدثه الموضوعات السياسية السطحية التى نشغل أنفسنا بها اليوم . لذا لم يعد ممكنا أن نمضى فى اتخاذ القرارات التكنولوجية بنفس الأسلوب القديم . ولم يعد من الممكن أن نسمح بصنع هذه القرارات بطريقة عفوية ، أو مستقلا كل منها عن الآخر . ولا نستطيع أن نسمح لاعتبارات الربح الاقتصادى السريع وحدها أن تفرضها علينا فرضاً . ولا نستطيع أن ندعها تتخذ فى غيبة سياسية شاملة . وأيضا لا نستطيع أن نوكل مسئوليات مثل هذه القرارات إلى رجال أعمال ، أو علماء ، أو مهندسين ، أو مديرين غير واعين بالآثار الخطيرة لتصرفاتهم .

الترانزستور والجنس

كى نستطيع أن نمسك بزمام التكنولوجيا ، وأن نملك من خلال ذلك بعض النفوذ المؤثر على دفعة التغيير المتسارعة بشكل عام ، ينبغى أن نضع أى تكنولوجيا جديدة موضع اختبارات دقيقة قبل أن نطلق سراحها لتعيش بيننا . يجب أن نطرح سلسلة كاملة من الأسئلة غير المعتادة حول أى مستحدث قبل أن نرخص ببيعه .

أولا : يجب أن نكون قد تعلمنا من التجربة المريرة أن ننظر بعناية إلى التأثيرات المادية الجانبية المحتملة لأى تكنولوجيا جديدة . وسواء كانت التكنولوجيا المقترحة هى استخدام نوع جديد من الطاقة ، أو مادة جديدة أو كيماويات صناعية جديدة ، يجب أن نحاول تحديد مدى تأثيرها فى تعديل التوازن الأيكولوجى الحساس الذى نعتمد عليه فى بقائنا . وأيضا يجب أن نحسب احتمالات تأثيراتها غير المباشرة على مسافات بعيدة فى الزمان والمكان . إن المخلفات الصناعية الملقاة فى النهر قد تظهر على بعد مئات ، بل آلاف الأميال داخل المحيط . وتأثيرات الـ ددت قد لا تظهر إلا بعد سنوات من استعماله . لقد كتب الكثير عن هذه الموضوعات بحيث لا يبدو أن ثمة ضرورة للإطالة فيها أكثر من هذا .

وثانيا : وهذا أصعب بكثير يجب أن نتحرى تأثيرات كل مستحدث تكنيكى فى البيئة الاجتماعية والثقافية والنفسية فى المدى البعيد . إن هناك اعتقادا سائداً بأن السيارة قد غيرت شكل مدننا ، وحولت من أشكال ملكية البيوت وتجارة التجزئة ، وعدلت العادات الجنسية وفككت الروابط الأسرية . وفى الشرق الأوسط كان للانتشار السريع لأجهزة الراديو الترانزيستور دور هام فى إحياء القومية العربية . وحبوب منع الحمل والكومبيوتر ، وجهود الفضاء ، وأيضا اختراع وانتشار التكنولوجيات « الرقيقة » مثل تحليل النظم ، كلها حملت فى ركابها تغييرات اجتماعية هامة .

لم يعد فى وسعنا أن ندع مثل هذه التأثيرات الاجتماعية والثقافية حتى « تحدث » . بل يجب أن نحتسبها مقدما ، وأن نقدر بأقصى دقة ممكنة طبيعتها وقوتها وتوقيتها . وحيثما رجحت الاحتمالات الضارة لهذه التأثيرات يجب أن نكون مستعدين للحجر على التكنولوجيا الجديدة المقترحة .

إن المسألة هى بمنتهى البساطة : أن أى تكنولوجيا جديدة لا يمكن أن يسمح لها بأن تمضى معربدة مدمرة فى المجتمع .

حقيقة إننا لا يمكن مطلقا أن نعرف مقدما كل التأثيرات التى يمكن

أن تترتب على أى عمل تكنولوچياً كان أو غيره . ولـكن ليس صحيحا أننا عاجزون تماما فى هذا الشأن . وعلى سبيل المثال ، من الممكن أحيانا أن نختبر تكنولوجيا جديدة فى مناطق محدودة ، ووسط جماعات محدودة ، وأن ندرس تأثيراتها الثانوية قبل أن نسمح باستخدامها . وكنا نستطيع لو أوتينا قوة التخيل ، أن نبتكر تجارب حية ، أوْ حتى بيئات اجتماعية تطوعية ، لتساعدنا على صنع قراراتنا التكنولوجية . وكما قد نرغب فى خلق بؤر من الماضى حيث تتم تهدئة سرعة التغيير صناعيا ، أو بؤر من المستقبل حيث يعرف الأفراد عينات مبكرة من بيئة المستقبل ، كذلك أيضاً قد نرغب فى أن ننشئ بيئات اجتماعية جانبية تتوافر فيها أعلى نسبة من الجدة ، حيث نستخدم ونفحص تجريبياً كل جديد متقدم من العقاقير ، ومصادر الطاقة ، والمركبات ، ومستحضرات التجميل ، إلى آخره .

إن شركة اليوم تقوم روتينيا باختبار منتجاتها ميدانيا للتأكد من أنها تؤدى وظائفها الأساسية بكفاية . ونفس الشركة أيضاً تقوم بتجربة تسويق المنتج للتأكد من تقدير مبيعاته . ولـكن فيما عدا النادر، لم يحاول أحد بعد ذلك أن يختبر التأثيرات الجانبية لذلك المنتج فى المستهلك وفى البيئة . إن بقاءنا قد يتوقف فى المستقبل على أن نفعل ذلك .

وحتى عندما يتعذر عمليا إجراء الاختبارات الحية ، يظل فى وسعنا أن نتوقع بطريقة منهجية التأثيرات البعيدة المدى للتكنولوجيات المختلفة . إن العلماء المختصين بالمسائل السلوكية عاكفون على ابتكار وتطوير أدوات جديدة من النماذج الرياضية ، والمحاكاة إلى ما يسمى بتحليلات «دلفى»، والتى ستساعد على تكوين أحكام أصوب حول آثار أفعالنا . إننا نجمع المواد المفاهيمية الصلبة التى نحتاج إليها فى التقويم الاجتماعى للتكنولوجيا ، ونحن فى حاجة فقط إلى أن نستفيد منها .

ثالثا : وربما أصعب من كل ما تقدم ، ثمة سؤال مباشر يطرح نفسه : بصرف النظر عن التغييرات الفعلية فى البناء الاجتماعى ، كيف يمكن أن تؤثر أى تكنولوجيا جديدة مقترحة فى نظام القيم بالمجتمع ؟ . :

إن ما نعلمه قليل عن بناء القيم وكيف يعمل . ولكن هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن القيم أيضاً تتأثر إلى حد بعيد بالتكنولوجيا . لقد اقترحت فى موضع آخر من هذا الكتاب أن ننشئ مهنة جديدة من « المتنبئين بتأثير القيم » — رجال ونساء مدربون على استخدام أكثر تكنيكات العلوم السلوكية تقدما لتقدير ما تنطوى عليه التكنولوجيا المقترحة من قيم .

فى سنة ١٩٦٧ . وفى جامعة بيتسبرج ، التقت جماعة تضم : اقتصاديين ، وعلماء ، ومهندسين معماريين ، ومخططين ، وكتابا ، وفلاسفة ، كلهم من المبرزين فى ميادينهم . وظلت الجماعة على امتداد يوم كامل مشتركة فى محاكاة رتبت بهدف تطوير فن التنبؤ فيما يتصل بالقيم . وفى جامعة هارفارد اشتمل برنامج دراسة التكنولوجيا والمجتمع على أعمال تتصل بنفس الموضوع . وفى جامعة كورنيل ، وفى معهد دراسة دور العلم فى المسائل الإنسانية بجامعة كولومبيا ، تجرى محاولة لبناء نموذج للعلاقة بين التكنولوجيا والقيم وتصميم لعبة تفيد فى تحليل تأثير كل منهما فى الآخر . كل هذه المبادرات ، بالرغم من أنها مازالت بدائية ، إلا أنها تعطينا أملا فى عون أكبر على تقويم التكنولوجيا الجديدة تقويماً أدق مما كنا نفعل من قبل .

ورابعا : وأخيرا ، يجب أن نطرح سؤالا لم يكد يتعرض أحد حتى الآن لمناقشته ، بالرغم من أهميته القصوى لنجاحنا فى الحيلولة دون انتشار صدمة المستقبل . فبالنسبة لأى مستحدث تكنولوجى رئيسى ، يجب أن نطرح هذا السؤال : ما هى مضموناته التسارعية ؟

إن مشكلات التكيف قد تخطت بالفعل حدود الصعوبات المتصلة بمواجهة هذا أو ذاك من المخترعات والتكنيكات . فلم تعد مشكلتنا مجرد مستحدث ما ، بل سلسلة كاملة من المستحدثات . ليست هى طائرة الركاب الأسرع من الصوت ، ولا المفاعل المولد ، ولاماكينة التأثيرات الأرضية ، ولكن متتالية كاملة ومتصلة من هذه المستحدثات وما تدفع به من تيارات الحدة فى المجتمع .

هل سيساعدنا المستحدث المقترح على التحكم فى معدل واتجاه التقدم المتتالى ؟ أم أنه سينزع إلى تسارع حشد من العمليات التى لا نستطيع أن نتحكم فيها ؟ ما هو مدى تأثيره فى مستوى الزوال ، ونسبة الجدة وتنوع الاختيار ؟ وإلى أن نسبر منهجيا غور هذه الأسئلة ، ستظل محاولاتنا لترويض التكنولوجيا وتوجيهها إلى غايات اجتماعية — ولامتلاك زمام التحكم فى تسارع التغيير بوجه عام — محاولات واهنة وغير مثمرة .

وإذن، فإن أمام العلوم المادية والاجتماعية أجندة فكرية حافلة بالقضايا التى تبحث عن حلول . لقد علمنا أنفسنا كيف نوحد بين أقوى التكنولوجيات ، ولكننا لم نجشم أنفسنا أى عناء لنتعلم عن آثارها . واليوم فإن هذه الآثار تهددنا بالدمار . ومن ثم فيجب أن نتعلم ، وأن نتعلم بسرعة .

مجلس الحسبة التكنولوجى

إن التحدى ليس فكريا فحسب . ولكنه سياسى أيضا . فبالإضافة إلى تصميم أدوات بحث جديدة — أساليب جديدة لفهم بيئتنا — يجب أيضا أن نخطط لمؤسسات سياسية جديدة وخلاقة لضمان أن مثل هذه الأسئلة سوف تبحث حقيقة ، وتشجيع وتثبيط (وحتى منع) تكنولوجيات معينة . إننا فى حاجة فعلية إلى جهاز لغربلة الماكينات .

وسيكون خلق هذا الجهاز من بين المهام السياسية الرئيسية خلال السنوات العشر القادمة . يجب أن نكف عن الخوف من فرض التوجيه الاجتماعى المنظم على التكنولوجيا ، كما يجب أن تتقاسم مسئوليات هذا التوجيه المنظمات العامة والشركات والمعامل التى تفرخ فيها المستحدثات التكنولوجية .

إن أى اقتراح بتوجيه التكنولوجيا يجعل الحواجب العلمية ترتفع فورا فى دهشة واستنكار . وحالا ، يستحضر شبح يد التدخل الحكومى الثقيلة . ولكن توجيه التكنولوجيا لا يتطلب فرض أى قيود على حرية البحث . إن القضية ليست قضية استكشاف ، وإنما قضية استخدام ، قضية التطبيق ، وليست قضية الاختراع . إن من دواعى السخرية — كما يقول اميتاى

ايتزيونى ، العالم الاجتماعى - « أن كثيرا من الليبراليين ، ممن تقبلوا تقبلا تاما نظريات كينزى فى التوجيه الاقتصادى ، يتبنون نظرة الاقتصاد الحر فيما يتصل بالتكنولوجيا ، ويستخدمون نفس الحجة التى استخدمت من قبل دفاعا عن الاقتصاد الحر : إن أى محاولة لتوجيه التكنولوجيا سوف يعوق التجديد ويخنق المبادرة » .

ولا ينبغى أن نتجاهل التحذيرات من زيادة التحكم . ولكن آثار نقص التحكم قد تكون أسوأ بكثير . وثمة حقيقة ينبغى أن نشير إليها ، هى أن العلم والتكنولوجيا لم يكونا فى أى وقت حرين بالمعنى المطلق للحرية . فالاختراعات ، ومعدل تطبيقها ، محكومة إلى حد كبير بقيم ومؤسسات المجتمع التى تظهر فيه . فكل مجتمع يقوم بالفعل بغربلة المستحدثات التكنيكية قبل أن يضعها فى مجال الاستخدام الواسع .

إن الطريقة العفوية التى يحدث بها ذلك الآن . والمعايير التى يرتكز عليها الانتقاء ، هى التى تحتاج إلى أن تتغير . إن المعيار الأساسى فى الغرب لنبذ مستحدثات تكنيكية معينة، وتطبيق مستحدثات أخرى مازال هو الربح الاقتصادى . وفى البلاد الشيوعية يتصل الاختبار الجوهرى بما إذا كان المستحدث سوف يسهم فى النمو الاقتصادى العام وفى دعم القوى القومية . وفى الحالة الأولى تكون القرارات خاصة ولا مركزية إلى أبعد حد . أما فى الحالة الثانية فالقرارات عامة ومركزية إلى حد كبير .

إن كلا النظامين عتيق ، لا يصلح للتعامل مع تعقيدات مجتمع ما فوق التصنيع . وكلاهما ينزع إلى تجاهل كل شئ ، ما عدا الآثار الفورية والماثلة للتكنولوجيا . ولكن الآثار غير الفورية ، وغير الماثلة ، هى التى يجب أن يتزايد اهتمامنا بها . وكما يقول أ . م . سولاندت رئيس المجلس العلمى فى كندا : « يجب أن يرتب المجتمع نفسه على أن يولى جانب من أكفأ علمائه وأكثرهم قدرة على التخيل اهتمامهم بصفة مستمرة إلى محاولة استشراف التأثيرات البعيدة المدى للتكنولوجيا الجديدة . إن أسلوبنا فى الاعتماد على مبادرة الأفراد إلى التنبؤ بالخطر وتشكيل جماعات الضغط لتصحيح الأخطاء لن يصلح للمستقبل » .

وكخطوة فى الاتجاه الصحيح ينبغى أن يخلق مجلس حسبة تكنولوجى — وكالة عامة تتولى تلقى ، والتحقيق ، والتصرف فى الشكاوى المتصلة بالتطبيق غير المسئول للتكنولوجيا .

من الذى يجب أن يتحمل مسئولية تصحيح الآثار الضارة للتكنولوجيا ؟ إن الانتشار السريع للمنظفات التى تستعمل فى غسالات الملابس والأطباق قد زاد من حدة مشكلات تنقية المياه فى الولايات المتحدة كلها . إن قرارات إغراق المجتمع بهذه المنظفات كانت كلها قرارات خاصة . ولكن التأثيرات الجانبية لها ألقت عبء تكاليفها على دافعى الضرائب (فى شكل مياه أقل نقاوة) والمستهلكين بوجه عام .

وتكاليف تلوث الهواء أيضا يتحملها دافعو الضرائب والمجتمع ، بالرغم من أن أسبابه يمكن تعقبها فى معظم الحالات إلى شركات وصناعات خاصة ومنشآت حكومية . ربما كان من المعقول أن يتحمل الشعب بشكل عام تكاليف تنقية الهواء كنوع من الإنفاق الاجتماعى ، بدلا من أن تتحملها صناعات بعينها . فثمة طرق عديدة لتوزيع التكاليف . ولكن أيما طريقة اخترنا ، يجب أن نراعى الأهمية القصوى للتحديد الواضح لخطوط المسئولية . فغالبا مالا تكون مسئولية أى وكالة ، أو مؤسسة ، أو جماعة واضحة .

إن مجلس الحسبة التكنولوجى يمكن أن يخدم كمجلس رسمى لاستطلاع ورصد وسبر الشكاوى ، ويلفت أنظار الصحافة إلى الشركات والوكالات الحكومية التى طبقت تكنولوجيا جديدة تطبيقا غير مسئول ، أو دون تقدير سليم . يستطيع مثل هذا المجلس أن يفرض ضغوطا من أجل استخدام أذكى وأسلم للتكنولوجيا الجديدة . ومادام سيكون مزودا بسلطة رفع قضايا التعويض عند الضرورة ، فإنه يمكن أن يكون رادعا قويا للاستهتار التكنولوجى .

الغربال البيئى

ولكن مجرد التحقيق وتحديد المسئولية بعد وقوع الضرر لا يكفى . إننا يجب أن نخلق غربالا بيئيا لحماية أنفسنا ضد التطفل الخطر ، وأيضا نظاما للحوافز العامة لتشجيع التكنولوجيات التى تتوافر فيها النظافة والمنفعة

الاجتماعية . ويعنى هذا إنشاء أجهزة حكومية وخاصة لمراجعة التكنولوجيات الهامة قبل إطلاقها على المجتمع .

وقد يطلب إلى الشركات أن تنظم « هيئات تحليل الآثار » الخاصة بها لتتولى دراسة احتمالات تأثيرات المستحدثات التى تريد أن تنتجها . وقد يطلب إليها فى بعض الحالات ، لا مجرد اختيار التكنولوجيا الجديدة فى مناطق التجربة فحسب ، ولكن أن تنشر تقريرا عن تأثيراتها قبل السماح لها بتسويق المستحدث فى المجتمع . يجب أن يوكل بجانب كبير من المسئولية إلى الصناعات نفسها . فكلما كان التحكم لا مركزيا كان ذلك أفضل ، إن الرقابة الذاتية ، فيما لو ثبتت كفايتها ، فإنها تكون مستحبة على التحكم السياسى من الخارج .

ولكن عندما يفشل التنظيم والرقابة الذاتيين ، كما يحدث فى الغالب ، فهنا يكون تدخل المنظمات العامة ضروريا ولا ينبغى بأى حال أن نهرب من المسئولية . لقد اقترح اميليو . ك . داداريو ، عضو الكونجرس الأمريكى ورئيس لجنة العلوم والبحوث والتطوير بالمجلس، إنشاء مجلس تقويم تكنولوجى على مستوى الحكومة الاتحادية . وأجريت دراسات بواسطة الأكاديمية القومية للعلوم ، والأكاديمية القومية للهندسة ، ومركز الخدمات التشريعية بمكتبة الكونجرس ، وبرنامج العلم والتكنولوچيا بجامعة جورج واشنطون ، وكان هدف هذه الدراسات كلها هو تحديد الطبيعة الملائمة لمثل هذه الوكالة . قد نحب أن نناقش شكلها ، ولكن الحاجة إليها ليست محل جدال .

ولعل المجتمع يضع أيضا مبادئ عامة معينة للتقدم التكنولوجى . وحيثما كان تقديم مستحدث ما . على سبيل المثال ، يستتبع مخاطر آجلة ، فقد يتطلب الأمر رصد مبالغ معينة تدفعها الجهة المسئولة لتستخدم فى معالجة الآثار الضارة فى حالة وقوعها . وقد ننشئ أيضا « مجتمع تأمين تكنولوجى » تودع فيه الشركات التأمينات المناسبة ضد أخطار ما تقدمه من مستحدثات .

وهناك تدخلات كبيرة معينة فى البيئة الطبيعية قد تؤجل أو تحظر نهائيا . ربما أخذاً بنفس المبدأ المعمول به فى حالة ما إذا كان التغيير فى الطبيعة ضخما ومفاجئا بحيث لا يمكن مراقبة آثاره وإصلاحها ، فلا ينبغى أن يحدث أصلا . وعلى سبيل المثال ، فقد كان من رأى البعض أن سد أسوان العالى قد يتسبب فى المدى البعيد فى ملوحة الأرض الزراعية ، ولكن مثل هذا لو حدث فلن يحدث بين يوم وليلة ، ومن ثم فيمكن مراقبته وتفاديه . وعلى النقيض من ذلك ، فإن مشروع غمر داخل البرازيل بمياه البحر ينطوى على تأثيرات إيكولوجية ضخمة وفورية بحيث لا يمكن التحكم فيها ، ومن ثم فإن المشروع كله لا ينبغى أن يسمح بتنفيذه إلا إذا توافرت وسائل المراقبة والإصلاح العاجل لأى تأثيرات ضارة تقع .

أما على مستوى الآثار الاجتماعية ، فقد تعرض التكنولوجيا الجديدة على هيئة من العلماء المختصين بالعلوم السلوكية — علماء النفس ، والاجتماع ، والاقتصاد ، والعلوم السياسية ، لتقرر ، ما وسعها ذلك ، قوة تأثيراتها الاجتماعية المحتملة على امتداد فترات زمنية مختلفة . وحيثما رجح احتمال أن يستتبع انتشار مستحدث ما آثاراً اجتماعية ممزقة ، أو أن يولد ضغوطا تسارعية لا يمكن كبح جماحها ، فهنا ينبغى أن توزن هذه الحقائق بميزان اجتماعى دقيق يقرن بين الفوائد والأضرار . وفى حالة بعض المستحدثات العالية التأثير ، ينبغى أن تزود هيئات التقييم التكنولوجى بصلاحيات طلب الحظر القانونى أو التوصية بفرض التأخير إلى أن تتم المناقشة العامة والدراسة . وفى حالات أخرى قد يسمح باستمرار استخدام وتوزيع مثل هذه المستحدثات ، بشرط اتخاذ إجراءات قوية مقدما لمعادلة آثارها السلبية . وبهذه الطريقة لن يحتاج المجتمع إلى الانتظار حتى تقع الكارثة قبل أن يعالج مسبباتها التكنولوجية .

وإذا لم نقصر اهتمامنا على تكنولوجيات معينة ، بل أخذنا فى الاعتبار أيضا علاقة كل منها بالأخرى . والفترة الزمنية بينها ، والسرعة المفترضة

لانتشارها ، وغير ذلك من العوامل المماثلة ، فإننا قد نستطيع حقا أن نملك التحكم فى زمام سرعة التغيير واتجاهه .

ولسنا فى حاجة إلى القول بأن هذه الاقتراحات نفسها محملة بآثار اجتماعية متفجرة ، وتحتاج إلى تقويم دقيق . وقد يكون هناك طرق أفضل لبلوغ الغايات المطلوبة، ولكن الوقت متأخر . ونحن ، ببساطة ، لا نستطيع تحمل الاندفاع معصوبى الأعين إلى عصر ما فوق التصنيع ، إن قضية التحكم فى التكنولوجيا سوف تفجر صدامات سياسية مريرة فى السنوات القادمة . ولكن صدامات ، أو لا صدامات ، فلابد من ترويض التكنولوجيا إذا ما أردنا أن نمسك بزمام دفعة التغيير المتسارعة . ودفعة التغيير المتسارعة يجب أن توضع فى زمام التحكم إذا كنا نريد أن نتفادى صدمة المستقبل .

الفصل العشرون

استراتيجية المستقبلية الاجتماعية

هل يستطيع الإنسان أن يعيش فى مجتمع منفلت الزمام ؟ هذا هو السؤال الذى يطرحه علينا مفهوم صدمة المستقبل . لأن هذا هو الموقف الذى نجد أنفسنا فيه : لو أن التكنولوجيا وحدها هى التى انفلت زمامها لكان فى ذلك ما يكفينا من المشكلات وأكثر . ولكن الحقيقة القاتلة هى أن الكثير من العمليات الاجتماعية بدأت بدورها تنطلق على هواها ، متذبذبة بعنف جامح ، مقاومة كل جهد لتوجيهها .

تضخم المدن ، الصدامات العنصرية ، الهجرة ، السكان ، الجريمة — وألف مثل ومثل آخر يقفز إلى الذهن من الميادين التى تبدو كل الجهود التى بذلناها لصياغة التغيير فيها سخيفة وعقيمة . وبعض هذه الظواهر شديدة الارتباط ، بالانطلاق الجامح للتكنولوجيا ، والبعض الآخر مرتبط بذلك جزئيا . إن الاندفاع الصاروخى غير المتوازن لمعدلات التغيير ، والتحولات والتقلبات التشنجية فى الاتجاه ، تفرض علينا أن نتساءل عما إذا كانت المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا ، حتى الصغيرة منها نسبيا كالسويد وبلجيكا ، قد أصبحت من التعقيد والسرعة بحيث لا يمكن أن تساس ؟

كيف نستطيع أن نتفادى صدمة المستقبل العامة ، وأن ننظم إيقاعات سرعة التغيير ، وأن نرفع أو نخفض مستويات التنبيه . فى حين أن الحكومات — بما فيها تلك التى تضمر أطيب النوايا — تبدو عاجزة حتى عن توجيه التغيير الوجهة الصحيحة ؟

وهكذا نجد أحد الخبراء الأمريكيين البارزين فى شئون المدن يكتب باشمئزاز لم يحاول إخفاءه —: « بتكاليف بلغت أكثر من ثلاثة بلايين دولار نجحت وكالة تجديد المدن فعلا فى تخفيض عدد الاسكان الاقتصادى فى المدن الأمريكية ».

ونستطيع أن نشير إلى كوارث مماثلة فى ميادين عديدة . لماذا تعجز برامج الضمان الاجتماعى اليوم زبائنها بأكثر مما تساعدهم ؟ لماذا يثور طلبة الجامعات ويتمردون ، وهم المفروض فيهم أنهم فئة مدللة ؟ لماذا زدات الطرق السريعة من ازدحام المرور وقد كان المفروض أن تخففه ؟ وباختصار ، ما السبب فى أن كثيرا من البرامج الليبرالية الحسنة القصد قد أصابها الفساد السريع ، وأنتجت من الآثار الجانبية السيئة ما غطى على آثارها الطيبة ومحاها ؟ ولاعجب إذن أن نسمع رايموند فليتشر ، عضو البرلمان البريطانى . وهو يشكو فى خيبة أمل من أن : « المجتمع قد صار يخبط خبط عشواء » .

إن كان فليتشر يعنى بالعشوائية الغيبة الفعلية والكاملة للنموذج ، فإنه بالطبع يكون قد بالغ فى تصوير الحالة . أما إن كان يعنى بالعشوائية أن حاصل السياسة الاجتماعية قد أصبح شاردا ومن الصعب التنبؤ به ، فقد أصاب الهدف . وها هو إذن المعنى السياسى لصدمة المستقبل . لأنه كما أن صدمة المستقبل لدى الفرد تأتى كنتيجة لعدم قدرته على ملاحقة معدل التغيير ، فكذلك الحكومات أيضا تعانى من نوع من صدمة المستقبل الجماعية — أى بانهيار فى عمليات صنعها للقرارات .

إن السير جيوفرى فيكرز — عالم الاجتماع البريطانى — يصور القضية فى وضوح بالغ بقوله : « إن معدل التغيير يتزايد بسرعة متسارعة دون تسارع مقابل فى زيادة معدل الاستجابات التى يمكن أن نقابله بها . وهذا يدفعنا قريبا من الحدود التى بعدها سنفقد القدرة على التحكم فيه » .

نهاية التكنوقراطية

إن ما نشهده اليوم هو بداية النهاية لعصر التصنيع ومعها انهيار التخطيط التكنوقراطى . ولست أعنى فقط بالتخطيط التكنوقراطى ذلك التخطيط القومى المركزى الذى كان إلى عهد قريب سمة مميزة للاتحاد السوفيتى ، بل أيضا المحاولات الأقل رسمية والأكثر توزعا للتحكم فى التغيير والتى حدثت فى كل الدول المتقدمة تكنولوجيا ، بصرف النظر عن معتقداتها السياسية .

إن الناقد الاجتماعي مايكل هارينجتون يرى أننا وقد نبذنا التخطيط فقد دمغنا قرننا الحالي بأنه : « قرن عفوى » . ولكن كما يوضح جالبريث ، فإنه حتى فى إطار الاقتصاد الرأسمالى قطعت الشركات الكبرى مسافات طويلة نحو ترشيد الإنتاج والتوزيع ، وتخطيط مستقبلهما على قدر ماتستطيع. والحكومات أيضاً مستغرقة فى عمليات التخطيط . قد تكون المعالجة الكينزية لاقتصاد ما بعد الحرب غير كاملة ، ولكنها لم تكن من قبيل المصادفة . وفى فرنسا أصبحت كلمة « الخطة » من الملامح الدائمة للحياة القومية . وفى السويد ، وإيطاليا ، وألمانيا ، واليابان، نشطت الحكومات إلى التدخل فى القطاع الاقتصادى لحماية صناعات معينة ، ولتنمية صناعات أخرى ، وللإسراع بالنمو . وفى الولايات المتحدة وبريطانيا ، نجد أنه حتى الحكومات المحلية قد زودت نفسها بما « يسمى » على الأقل إدارات للتخطيط .

لماذا إذن ، وبرغم كل هذه الجهود ، ينتقل النظام هاربا من دائرة التحكم ؟ إن المشكلة ليست فقط أننا نخطط قليلا ، بل أيضا نخطط تخطيطاً سيئاً . إن جزءاً من المتاعب يمكن أن نرجعها إلى صلب تخطيطنا ذاته .

أولا : لأن التخطيط التكنوقراطى — وهو نفسه من ناتج عصر التصنيع ، يعكس قيم ذلك العصر الذى يختفى الآن بسرعة ؛ وفى كلا النظامين : الرأسمالى والشيوعى ، كان النظام مركزا اتجاهه على تحقيق أقصى مدى من الرخاء المادى . ومن ثم فإنه بالنسبة للتكنوقراطيين ، سواء كانوا فى ديترويت أو فى كييف ، كان التقدم الاقتصادى هو الهدف الأساسى ، والتكنولوجيا هى الوسيلة الرئيسية . أما حقيقة أن عائد التقدم فى إحدى الحالتين يذهب لصالح أفراد ، وفى الحالة الأخرى يعود نظريا على الصالح العام ، فلا تغير من جوهر الفرضية المشتركة بينهما ، فالتخطيط التكنوقراطى هو بطبيعته تخطيط « اقتصادى المركز » .

ثانيا : لأن التخطيط التكنوقراطى يعكس الانحياز الزمنى لعصر التصنيع . إن مجتمع التصنيع فى نضاله للتحرر من الرواسب المعوقة المتخلفة من

المجتمعات السابقة قد ركز بكل ثقله على الحاضر . وهذا يعنى من الناحية العملية أنه يعالج فى تخطيطه المستقبل القريب . لقد صعق العالم لفكرة الخطة الخمسية واعتبرها جنونا مستقبليا عندما قدمت لأول مرة بواسطة السوفييت فى العشرينيات من هذا القرن . وحتى اليوم ، وفيما عدا أكثر المنظمات تقدما على جانبى الحاجز الأيديولوجى ، يعتبر التخطيط لسنة أو سنتين « تخطيطا بعيد المدى » . لقد بدأت حفنة قليلة من الشركات والوكالات الحكومية تهتم بآفاق تمتد إلى عشرة أو عشرين ، وحتى خمسين عاما كما سوف نرى ، أما الغالبية العظمى فما زالت منحازة انحيازا أعمى إلى الأسبوع المقبل . فالتخطيط للتكنوقراطى تخطيط « قصير المدى » .

ثالثا : لأن التخطيط التكنوقراطى يعكس التنظيم البيروقراطى لعصر التصنيع ، فإنه يرتكز فى بنائه على نظام سلم المراتب . فقسم الناس إلى مديرين وعمال . ومخططين ومخطط لهم ، مع قرارات يصنعها واحد من أجل الآخر . هذا النظام الذى كان مناسباً عندما كان التغيير ينتشر بسرعة عصر التصنيع ، حرى بأن ينهار عندما يصل التغيير إلى سرعة عصر ما فوق التصنيع . إن البيئة السريعة التحرك وغير المستقرة ، تحتاج إلى مزيد متزايد من القرارات اللامنهجية والفورية . والحاجة إلى التصرف الفورى تموه التمايز بين القائد والمقود ، وسلم المراتب يترنح . والمخططون منعزلون جدا ، جاهلون جداً بالظروف المحلية ، بطيئون جداً فى الاستجابة للتغيير . وعندما ينتشر الشك فى فاعلية نظام التحكم من أعلى إلى أسفل ، يبدأ المخطط لهم فى التذمر مطالبين بحق المشاركة فى صنع القرارات ، ولكن المخططين يقاومون . ذلك أن التخطيط التكنوقراطى ، مثله فى ذلك مثل التنظيم البيروقراطى الذى يعكس صورته ، وهو بالضرورة تخطيط « لا ديموقراطى ».

هذه الأساليب المفلسة المتخلفة من عصر التصنيع لم تعد كافية أو ملائمة لتدفق القوى التى تدفعنا نحو عصر ما فوق التصنيع . قد تظل صالحة لبعض الوقت للصناعات والمجتمعات المتخلفة البطيئة التحرك . ولكن تطبيقها فى الصناعات والمواقع ، والجامعات المتقدمة — وحيثما كان التغيير أسرع —

لا يمكن إلا أن يزيد الاضطراب حدة وأن يؤدى إلى اهتزازات وتقلبات أكثر جموحا وتهورا . وفضلا عن ذلك ، فكلما تراكم الفشل ، انطلقت تيارات سياسية ، وثقافية ، ونفسية خطرة من عقالها .

إن رد الفعل المعادى للعقل هو ، على سبيل المثال ، من بين الاستجابات لفقد التحكم . فى البداية مكن العلم الإنسان من السيطرة على بيئته ، ومن ثم على المستقبل . ويجعله المستقبل يبدو مطواعا لا مستعصيا . واليوم ، فإن تراكم الأدلة على انفلات زمام المجتمع يولد خيبة الأمل فى العلم . ففجأة أصبح التنجيم هو البدعة المفضلة ، والزن Zen ، واليوجا ، وتحضير الأرواح تسلية شعبية محبوبة . والطوائف تتكون حول البحث عن الخبرة الديونيسية ، والتواصل بلا كلمات . ويقال لنا إن من الأفضل أن « نحس » بدلا من أن « نفكر » وكأن ثمة تناقضا بين الاثنين . ومتكهنون وجوديون ، وغيبيون كاثوليكيون ، ومحللون نفسيون من أتباع يونج ، ومتحمسون للهندوكية ، يلتقون جميعا على تحبيذ كل ما هو غيبي وعاطفى ضد كل ما هو علمى وعقلانى .

هذا الارتكاس إلى مواقف ما قبل العلم واكبته ، ولا عجب ، موجة عارمة من الحنين إلى الماضى تغمر المجتمع ، الأثاث القديم ، وملصقات من عصور غبرت ، وألعاب مبنية على تفاهات من الماضى ، وانتشار طرز العصر الادواردى ، وإعادة اكتشاف طوائف البوب لمشاهير غابرين من أمثال همفرى بوجارت أو و . ب . فيلدز ، كل هذه تعكس تشوقا نفسيا إلى الماضى الأبسط والأقل تقلبا . ومصانع التقاليع تنشط إلى الإثراء على حساب هذا الجوع النفسى . لقد أصبح الاتجار بالحنين إلى الماضى صناعة رائجة .

إن إخفاق التخطيط التكنوقراطى وما استتبعه من فقد الزمام قد هيأ مرعى خصيبا لفلسفة « الآنية » : إن الأغانى والإعلانات تهتف لظهور « الجيل الآنى » ، وثمة أطباء نفسيون يحاضرون عن الأخطار المسلم بها للكبت ، ويحذروننا من إرجاء إشباع رغباتنا . وثمة تشجيع قوى للعمل من أجل العائد الفورى : « إننا مكيفون أكثر للحاضر » . هكذا قالت فتاة مراهقة لمراسل

صحفى بعد مهرجان وودستوك الهائل لموسيقى الروك ، ثم أضافت : « بمعنى أن تفعل ما تريد أن تفعله الآن . . إنك إن مكثت فى مكان ما طويلا وجدت نفسك متورطا فى شئ مخطط . . ولـذا تحرك دائما » . إن التلقائية — وهى المرادف الشخصى للاتخطيط — قد رفعت إلى مستوى الفضائل النفسية الكبرى .

ولكل هذا نظيره السياسى المتمثل فى انبثاق الائتلاف بين اليمين واليسار الجديد فى تأييد ما لا يمكن أن يسمى إلا بأنه مقترب متحلل من المستقبل . وهكذا فإننا نسمع صيحات متزايدة تدعو إلى اللاتخطيط أو « النمو العضوى » كما يسميه البعض أحيانا بقصد التلطيف . وتأخذ هذه الدعوة لونا فوضويا بين بعض الثوريين . فهذا البعض لا يعتبر فقط أنه أمر غير ضرورى أو حكيم أن نضع خططا طويلة المدى لمستقبل المؤسسة أو المجتمع الذى يرغبون فى تقويضه ، بل إنهم أحيانا يرون من سقم الذوق أن يخطط للساعة التالية أو لنصف اجتماع . وهكذا تمجد العفوية .

وأعداء التخطيط ، إذ يحتجون بأن التخطيط يفرض القيم على المستقبل ، يتجاهلون حقيقة أن اللاتخطيط يفعل ذلك أيضا — وغالبا بعواقب أسوأ بكثير . وهم ، وقد أهاج غضبهم الطابع الضيق ، الاقتصادى المركز للتخطيط التكنوقراطى ، راحوا يصبون جام غضبهم على تحليل النظم ، وحساب الأرباح والتكاليف ، وما شابه ذلك من أساليب ، متجاهلين أو جاهلين أن هذه الأدوات لو استخدمت بشكل مختلف فإنها يمكن أن تتحول إلى تكنيكات قوية لإسباغ السمة الإنسانية على المستقبل .

عندما يتهم النقاد التخطيط التكنوقراطى باللاإنسانية ، بمعنى أنه يهمل القيم الاجتماعية والثقافية والنفسية فى اندفاعه نحو أقصى حد من العائد الاقتصادى ، فإنهم يكونون عادة على حق . وعندما يتهمونه بقصر النظر واللاديموقراطية ، فإنهم يكونون عادة على حق أيضا . وعندما يتهمونه بأنه سخيف وغير ملائم فإنهم يكونون عادة على حق .

ولكنهم عندما يتراجعون إلى حالة من اللاعقلانية المضادة للعلم ، وإلى نوع من الحنين المرضى إلى الماضى ، وإلى تحبيذ الآنية ، فإنهم عندئذ

لا يكونون مخطئين فحسب وإنما خطرون أيضا . من مثل ذلك دعوى بعضهم بأن يكون البديل لمؤسسات عصر التصنيع هو العودة إلى مؤسسات ما قبل التصنيع . وأن يكون بديل التكنوقراطية ليس هو ما بعد التكنوقراطية ، وإنما ما قبل التكنوقراطية .

وليس ثمة شيء أخطر من هذا ، ولا أدعى إلى العجز عن التكيف . وأيا كانت الحاجة النظرية ، فإن القوى الغاشمة طليقة فى عالمنا . وسواء أردنا أن نتفادى صدمةالمستقبل أو سياسة السكان . أو رغبنا فى القضاء على تلوث البيئة أو وقف سباق التسلح ، فإننا لا يمكن أن نسمح بأن تتخذ القرارات الحيوية بلا مبالاة ، وبلا تمحيص ، وبلا تخطيط . إن التراخى تجاه المستقبل لن يكون إلا نوعا من الانتحار الجماعى .

لسنا فى حاجة إلى الارتكاس إلى لا عقلانية الماضى ، ولا إلى التقبل السلبى للتغيير ، ولا إلى اليأس أو العدمية . إننا فى حاجة بدلا من ذلك إلى استراتيجية جديدة قوية . ولأسباب سوف تتضح ، فإنى أطلق على هذه الاستراتيجية اصطلاح « المستقبلية الاجتماعية » . وإنى لعلى ثقة من أننا لو تسلحنا بهذه الاستراتيجية فإننا سنستطيع أن نصل إلى مستوى جديد من القدرة على أن نسوس التغيير . إننا نستطيع أن نبتكر شكلا من التخطيط ، أكثر إنسانية ، وأكثر تبصرا ، وأكثر ديموقراطية من أى شكل سبق . وباختصار ، فإننا نستطيع أن نتخطى حدود التكنوقراطية .

انسانية المخططين

يعانى التكنوقراطيون من تسلط الاقتصاد على فكرهم . وهم — فيما عدا فترات الحرب والكوارث — ينطلقون من فرضية منطقية مؤداها أنه حتى المشكلات غير الاقتصادية يمكن أن تعالج بحلول اقتصادية بحتة .

إن المستقبلية الاجتماعية تتحدى هذه الفرضية الجذرية لدى المديرين الماركسيين والكينزيين على حد سواء . إن مجتمع التصنيع ، فى زمانه ومكانه ، قد أدى للبشرية خدمات جليلة . ولكن ، ونحن نهرول نحو عصر ما فوق

التصنيع ، فإن روحا جديدة تنبثق حيث بدأت أهدافاً آخر تتساوى ، وحتى تفوق ، تلك التى تتصل بالرخاء الاقتصادى . فهناك على المستوى الشخصى : تحقيق الذات ، والمسئولية الاجتماعية ، والإشباع الجمالى ، والفردية الممتعة ، وتنويعة أخرى من الأهداف التى تنافس ، وغالبا ما تحجب ، الاندفاع الجاف نحو النجاح المادى . وسوف تخدم الوفرة كقاعدة ينطلق منها الأفراد إلى النزوع نحو غايات أسمى .

وفى نفس الوقت ، وفى المجتمعات المنطلقة نحو ما فوق التصنيع ، تكتسب المتغيرات الاقتصادية — الأجور ، ميزان المدفوعات ، والإنتاجية — حساسية متزايدة للتغييرات فى البيئة اللا اقتصادية . إن المشكلات الاقتصادية كثيرة . ولكن ثمة عديدا من القضايا الأخرى التى لا يحتل العامل الاقتصادى منها سوى جانب ثانوى قد اكتسب مكانة بالغة الأهمية . إن العنصرية ، والصراع بين الأجيال ، والجريمة ، والاستقلال الثقافى ، والعنف — كل هذه ظواهر لها أبعادها الاقتصادية ، ولكن ليس من بينها ما يمكن أن يعالج بالإجراءات الاقتصادية وحدها .

إن التحرك من الإنتاج السلعى ، إلى إنتاج الخدمات ، إلى إسباغ السمة النفسية على كل من السلع والخدمات ، وفى النهاية إلى إنتاج الخبرة ، تربط كلها القطاع الاقتصادى بشدة إلى قوى لااقتصادية . إن الأفضليات لدى المستهلك تتغير تبعا للتغييرات السريعة فى أساليب الحياة ، ومن ثم فإن ظهور واختفاء الطوائف الفرعية ينعكس على النشاط الاقتصادى . إن إنتاج ما فوق التصنيع يحتاج إلى عمال مدربين على معالجة الرموز ، ولذا فإن ما يدور فى رؤوسهم سيصبح أهم بكثير مما كان فى أى وقت مضى ، وأكثر اعتمادا على العوامل الثقافية .

وهناك أدلة على أنه حتى نظام التمويل قد أخذ يصبح أكثر استجابة للضغوط الاجتماعية والنفسية . فى مجتمع الوفرة المتجه إلى ما فوق التصنيع فقط يستطيع المرء أن يشهد اختراع أجهزة استثمار جديدة من مثل الأرصدة المشتركة والتى تعمل بوعى بدافع من اعتبارات لا اقتصادية . إن صندوق

فاندربلت للأرصدة المشتركة وصندوق بروفيدنت يرفضان الاستثمار فى أسهم صناعات الخمور والتبغ . وصندوق ميتس العملاق ، يرفض أسهم أى شركة تعمل فى صناعة الذخائر ، فى حين أن صندوق فانتاج الصغير يستثمر جزءا من موجوداته فى صناعات تعمل على تخفيف مشكلات التغذية والإسكان فى البلاد النامية ، وهناك صناديق تستثمر موجوداتها فقط ، أو بصفة أساسية ، فى مشروعات الإسكان التى تأخذ بمبدأ المساواة العنصرية . ومنشأة فورد والكنيسة المشيخية تستخدمان جزءا من سنداتهما الضخمة فى شركات منتقاة ، لا على أساس ربحيتها فحسب ، ولكن لإسهامها الفعال فى حل مشكلات المدن . مثل هذه التطورات ما زالت ضئيلة العدد ، ولكنها بكل تأكيد مؤشر على اتجاه التغيير .

وفى نفس الوقت فإن الشركات الأمريكية الكبرى التى لها استثمارات ثابتة فى المدن تنجذب ، على الرغم منها فى غالب الأحيان ، إلى دوامة التغيير الاجتماعى الملتوية ، وهناك مئات الشركات المتورطة الآن فى تقديم أعمال إلى المتعطلين ، وتنظيم برامج للتدريب ومحو الأمية ، وعشرات من ألوان النشاط المماثلة التى لا عهد لها بها من قبل . وكمثال على حجم وأهمية هذا التورط نذكر أن أكبر شركة فى العالم — وهى الشركة الأمريكية للتليفون والبرق — قد أنشأت مؤخرا إدارة خاصة للشئون البيئية . وتتولى هذه الإدارة مجموعة من المهام تتضمن الاهتمام بمشكلة تلوث المياه والهواء وتحسين المظهر الجمالى لعربات الشركة ومعداتها ، ورعاية البرامج التجريبية للتعليم قبل المدرسة فى أحياء الجيتو . وليس فى كل هذا ما يعنى بالضرورة أن الشركات الكبرى قد تحولت فجأة إلى الإيثار « الغيرية » وحب الخير ، وإنما هى مجرد إشارة إلى الروابط التى تزداد وثوقا بين القطاع الاقتصادى والقوى الثقافية والنفسية والاجتماعية .

ولكن بينما تقرع هذه القوى أبوابنا ، يتصرف معظم المخططين والمديرين التكنوقراطيين وكأن شيئا لم يكن . ويظلون يعملون وكأنما القطاع الاقتصادى يعيش فى عزلة تامة عن المؤثرات الاجتماعية والثقافية والنفسية . والواقع

أن الفرضيات الاقتصادية المركز متغلغلة بعمق فى كل من البلاد الرأسمالية والشيوعية ، لدرجة أنها تشوه نفس نظم المعلومات الحيوية لتوجيه التغيير .

وعلى سبيل المثال ، فإن كل الأمم المتقدمة لديها أجهزة عالية الكفاية لقياس النشاط الاقتصادى . ونحن نعلم يوما بيوم ، اتجاه التغيير فيما يتعلق بالإنتاجية والأسعار ، والاستثمار ، وما شابه ذلك . ومن خلال مجموعة من « المؤشرات الاقتصادية » نستطيع أن نقيس قوة الاقتصاد ، والسرعة التى يتغير بها ، والاتجاهات العامة للتغيير . وبدون هذه المقاييس تصبح إدارتنا للاقتصاد أقل كفاية .

وعلى النقيض من ذلك ، فإننا لا نملك مثل هذه المقاييس فيما يتصل بالتغييرات الاجتماعية ، ولا مجموعة مماثلة من « المؤشرات الاجتماعية » لتوضح لنا ما إذا كان المجتمع ، كشئ متميز عن الاقتصاد ، سليما معافى . وليس لدينا مقاييس لتقدير « نوعية الحياة » . وليس تحت أيدينا دلالات منهجية تنبئنا عما إذا كان الناس قد أصبحوا أكثر أم أقل اغترابا أحدهم عن الآخر ، أو ما إذا كان التعليم أكثر فاعلية ، أو ما إذا كان الفن والموسيقى والأدب فى حالة ازدهار . أو ما إذا كان الناس قد صاروا أكيس وأكرم وأطيب . يقول ستيوارت يودال وزير الداخلية الأمريكى السابق : « إن الناتج القومى هو بغيتنا المقدسة . . ولكننا لا نملك أى مؤشر بيئى . . ولا إحصائيات معتمدة لقياس ما إذا كانت حياة البلاد أخصب من عام إلى آخر » .

وقد يبدو هذا على السطح مجرد مسألة فنية — موضوع ليناقشه خبراء الإحصاء ، ولكنها فى الواقع مسألة لها أهميتها السياسية القصوى ؛ لأن الافتقار إلى مثل هذه القياسات يجعل من الصعب ربط السياسات القومية أو المحلية بأهداف بعيدة المدى ومناسبة . إن غياب مثل هذه المؤشرات يزيد من فظاظة التكنوقراطية .

وقد لا يعلم الكثيرون أن معركة ، وإن كانت مهذبة ، إلا إنها تزداد حرارة قد نشبت حول هذه المسألة فى واشنطون . فالمخططون التكنوقراطيون

والاقتصاديون يرون فى فكرة المؤشرات الاجتماعية تهديدا لمواقعهم كقوة مؤثرة فى واضعى السياسات من المسئولين السياسيين . وفى المقابل وجدت الحاجة إلى هذه المؤشرات الاجتماعية تحبيذاً بالغ الحجة من علماء اجتماع ذوى مكانة بارزة مثل برترام . م . جروس من جامعة واين ، واليانور شيلدون ، وويلبرت مور من منشأة راسيل سيج . ودانييل بيل ورايموند باور من جامعة هارفارد . ويقول جروس : « إننا نشهد تمردا واسع الانتشار ضد ما أطلق عليه اسم (الجاهلية الاقتصادية) للجهاز الإحصائى الحالى لحكومة الولايات المتحدة » .

ولقد استطاعت هذه الثورة أن تجتذب تأييداً قوياً من جماعة محدودة من السياسيين والمسئولين الحكوميين ممن أدركوا حاجتنا الماسة إلى جهاز معلومات اجتماعية يتجاوز الحدود الضيقة للتكنوقراطية . وتضم هذه المجموعة دانييل . ب . موينيهان — أحد المستشارين الرئيسيين للبيت الأبيض ، والسناتور والتر موندال — من منيسوتا ، والسناتور فريد هاريس — من أوكلاهوما ، وعديداً من الوزراء السابقين . ونستطيع أن نتوقع فى القريب العاجل أن تقوم نفس الثورة فى عواصم أخرى من العالم ، راسمة مرة أخرى خطاً فاصلا بين التكنوقراطيين وما بعد التكنوقراطيين .

إن خطر صدمة المستقبل فى حد ذاته يشير إلى الحاجة الماسة إلى قياسات اجتماعية جديدة لم تذكر بعد حتى فى الأدبيات السريعة النمو والانتشار حول مسألة المؤشرات الاجتماعية . إننا نحتاج على وجه السرعة ، مثلا ، إلى تكنيكات لقياس مستوى الزوال فى مختلف المجتمعات المحلية ، ومختلف الجماعات السكانية ، وفى الخبرة الفردية . ومن الممكن من حيث المبدأ أن يصمم « مؤشر زوال » يستطيع أن يكشف عن المعدل الذى ننشئ ونفصم به علاقاتنا بالأشياء ، والأمكنة ، والناس ، والمنظمات ، وما فى بيئتنا من بنى للمعرفة .

مثل هذا المؤشر يمكن أن يكشف ، من بين أشياء أخرى ، عن الاختلافات المثيرة فى خبرات الجماعات المختلفة فى المجتمع — عن سمة الثبات والاستقرار فى حياة أعداد كبيرة من الناس ، والتغيير المحموم فى

حياة البعض الآخر . إن سياسات الحكومة التى تحاول أن تتعامل مع كلا النوعين بنفس الطريقة ، سوف تلقى مقاومة غاضبة من أحدهما — أو منهما معاً .

وكذلك فإننا فى حاجة إلى مؤشرات للجدة فى البيئة ، إلى أى مدى تضطر المجتمعات المحلية ، أو المنظمات أو الأفراد إلى مواجهة مواقف جديدة تماماً ؟ كم عدد الأدوات « الجديدة » فعلا من حيث الوظيفة فى منزل الأسرة من أواسط الطبقة العاملة ، وكم عدد الأدوات التقليدية ؟ ما هو مستوى الجدة — من حيث الأشياء — والناس أو كل ما يمثل بعداً هاماً — المطلوب لإحداث التنبيه دون فرط التنبيه ؟ إلى أى حد يستطيع الصغار استيعاب الجدة بأكثر مما يفعل والداهم — إذا كانوا حقا يستطيعون أن يستوعبوا أكثر ؟ كيف يرتبط عامل التقدم فى السن بانخفاض مستوى تقبل الجدة ، وما صلة هذه الفروق بالصراعات السياسية والتصادم بين الأجيال التى تمزق المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا ؟ إننا عن طريق قياس آثار غزو الجدة لحياتنا ربما استطعنا أن نبدأ فى التحكم فى تدفق التغيير فى بنائنا الاجتماعى وحياتنا الشخصية .

وماذا عن الاختيار وفائض الاختيار ؟ هل نستطيع أن نضع قياسات لدرجة أهمية الاختيار فى حياة البشر ؟ هل يمكن لأى حكومة أن تتظاهر بالديموقراطية لا تهتم بمثل هذه القضية ؟ فبرغم كل الكلمات البليغة عن حرية الاختيار ، لا توجد أى هيئة حكومية فى العالم تستطيع الادعاء بأنها حاولت قياسها . إن الافتراض السائد هو أن مجرد زيادة الدخل ، أو الرخاء تعنى اختياراً أكثر ، وأن الاختيار الأكثر بدوره يعنى الحرية . فهل آن الأوان لأن نعيد النظر فى هذه الافتراضات الأساسية لنظمنا السياسية ؟ إن تخطيط ما بعد التكنوقراطية ينبغى أن يعالج مثل هذه القضايا إن كنا حقة سنتفادى صدمة المستقبل ، ونبنى مجتمعا إنسانيا لعصر ما فوق التصنيع .

إن نظاما حساسا للمؤشرات مجهزا لقياس الإنجاز فى الأهداف الاجتماعية والثقافية ، ومتكاملا مع المؤشرات الاقتصادية ، هو جزء من المعدات التى يحتاج إليها أى مجتمع قبل أن يصل بنجاح إلى المرحلة التالية من التطور

البيئى والتكنولوجى . إنه شرط مسبق ومطلق لتخطيط ما بعد التكنوقراطيين ولسياسة التغيير .

مثل هذا الاتجاه إلى إضفاء السمة الإنسانية على التخطيط يجب أن ينعكس أيضا على بنائنا السياسى . فحتى نربط بين نظام المعلومات الاجتماعية فى مجتمع ما فوق التصنيع وبين مراكز صنع القرارات فى المجتمع ، ينبغى أن نؤسس ونرسخ الاهتمام بنوعية الحياة . ومن أجل هذا كان اقتراح برترام جروس وآخرين من المشتركين فى حركة المؤشرات الاجتماعية بخلق « مجلس المستشارين الاجتماعيين لرئيس الجمهورية » . وفى رأيهم أن ينشأ هذا المجلس على غرار مجلس المستشارين الاقتصاديين القائم حاليا وأن يؤدى وظيفة موازية له فى الميادين الاجتماعية . والمفروض أن يقوم المجلس الجديد بمراقبة المؤشرات الاجتماعية تماما كما يفعل مجلس المستشارين الاقتصاديين بالنسبة للمؤشرات الاقتصادية ، وأن ينقل صورة التغييرات إلى رئيس الجمهورية . وقد ينشر المجلس تقريراً سنوياً عن نوعية الحياة ، مترجما بوضوح عن تقدمنا الاجتماعى (أو عن العكس) بالنسبة لأهداف محددة . وسوف يكمل هذا التقرير ويوازن ، التقرير الاقتصادى السنوى الذى يعده مجلس المستشارين الاقتصاديين . وبتقديم بيانات مفيدة ، وموثوق بها عن أحوالنا الاجتماعية ، سوف يبدأ مجلس المستشارين الاجتماعيين فى التأثير فى التخطيط بوجه عام ، وأن يجعله أكثر إحساسا بالأرباح والتكاليف الاجتماعية ، وأقل بروداً تكنوقراطياً . وأقل دوراناً حول المحـــور الاقتصادى(*) .

إن إنشاء مثل هذه المجالس ، لا على المستوى الفيدرالى فقط ، ولكن على مستوى الولايات والمدن أيضا لن يحل كل مشكلاتنا ، ولن يستأصل الصراعات ،ولن يضمن استخدام المؤشرات الاجتماعية على الوجه السليم . إنه باختصار ، لن يلغى الصراع السياسى من الحياة السياسية . ولكنه سوف

* تختلف الآراء حول ما إذا كان يجب أن يكون مجلس المستشارين الاجتماعيين مستقلا تنظيميا أو جزءا من مجلس أكبر للمستشارين الاقتصاديين والاجتماعيين . ولكن كل الآراء متفقة على الحاجة إلى تحقيق التكامل بين المعلـــومات الاقتصادية والمعلومات الاجتماعية .

يمنح اعترافا – وقوة سياسية – لفكرة أن أهداف التقدم تتجاوز الحدود الاقتصادية . إن تخصيص هيئات لمراقبة مؤشرات التغيير فى نوعية الحياة سوف يحملنا مسافة طويلة على طريق إضفاء السمة الإنسانية على المخططين والذى يعتبر أولى المراحل الجوهرية لاستراتيجية المستقبلية الاجتماعية .

الآفاق الزمنية

يعانى التكنوقراطيون من قصر النظر . سليقتهم التفكير فى العوائد الفورية والآثار الفورية ، أنهم أعضاء مبكرو النضج فى الجيل الآنى .

عندما تحتاج منطقة ما إلى الكهرباء ، يبحثون فى إنشاء محطة قوى بها . أما حقيقة أن مثل هذه المحطة قد تحدث تعديلا حاداً فى أنماط العمل ، وأنها قد تلقى خلال عشر سنوات بأعداد من الرجال خارج العمل ، أو أن تفرض إعادة التدريب على نطاق واسع للعمال ، أو أن ترفع من تكاليف الخدمات الاجتماعية فى مدينة قريبة – مثل هذه الاعتبارات أبعد فى الزمن من أن تثير اهتمامهم . وأما حقيقة أن هذه المحطة قد تفجر خلال جيل تال آثاراً أيكولوجية مدمرة ، فهى ببساطة لا محل لها فى إطارهم الزمنى .

فى عالم التغيير المتسارع ، يكون العام القادم أقرب من الشهر التالى فى عصر أكثر استرخاء . هذه الحقيقة من حقائق التغير الثورى للحياة ينبغى أن تستوعب من جانب صانعى القرارات فى الصناعة ، وفى الحكومة ، وحيثما وجدوا . إن آفاقهم الزمنية يجب أن تتعدل .

إن التخطيط لمدى بعيد من الزمن لا يعنى أن يربط الإنسان نفسه ببرامج مذهبية جامدة . فالخطط يمكن أن تكون تجريبية ، ومرنة ، وقابلة للمراجعة المستمرة . ولكن المرونة لا تعنى قصر النظر . وحتى تتجاوز التكنوقراطية ، يجب أن تصل آفاقنا الزمنية إلى عقود ، وحتى إلى أجيال فى المستقبل . وهذا يحتاج إلى أكثر من مجرد إطالة خططنا الرسمية . إنه يعنى حقن المجتمع بأكمله من القمة إلى القاع بوعى مستقبلى اجتماعى جديد .

إن واحدة من أهم الظواهر الصحية التى برزت خلال الأعوام الأخيرة هى ذلك التكاثر المفاجئ للمنظمات المكرسة لدراسة المستقبل . هذا التطور هو فى حد ذاته استجابة توازنية من المجتمع لتسارع التغيير . فى خلال سنوات قليلة شهدنا قيام مواقع للفكر المستقبلى مثل « معهد المستقبل » ، وتكوين جماعات دراسة أكاديمية مثل « لجنة سنة ٢٠٠٠ » و « برنامج هارفارد للتكنولوجيا والمجتمع » ، وظهور صحافة مستقبلية فى بريطانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، وألمـــانيا ، والولايات المتحدة ، وانتشار البرامج الجامعية عن التنبؤ والموضوعات المرتبطة به ، وتنظيم لقاءات دولية للمستقبلين فى أوسلو ، وبرلين ، وكيوتو ، وائتلاف جماعات مثل « المستقبليون » و « أوربا سنة ٢٠٠٠ » و « الجنس البشرى سنة ٢٠٠٠ » و « المجتمع العالمى فى المستقبل » .

وتوجد مراكز للمستقبليين فى برلين الغربية،وفى براغ ، وفى لندن ، وفى موسكو ، وفى روما ، وفى واشنطون ، وفى كاراكاس ، وحتى فى مناطق من أدغال البرازيل مثل بيليم ، وبيلى هوريزونتى . وعلى عكس المخططين التكنوقراطيين التقليديين الذين لا تتجاوز آفاقهم الزمنية بضع سنوات فى المستقبل ، تهتم هذه الجماعات بالتغيير خلال خمسة عشر ، وخمسة وعشرين ، بل وخمسين عاما فى المستقبل .

إن كل مجتمع مواجه ليس فقط بمتوالية من المستقبلات « المحتملة » ، بل أيضا بتصنيفة من المستقبلات « الممكنة » ، ويتضارب بين المستقبلات « المفضلة » . وقيادة التغيير هى الاجتهاد فى تحويل محتملات معينة إلى ممكنات سعياً إلى مفضلات متفق عليها . وتحديد المحتمل يحتاج إلى علم مستقبلى . وتوصيف الممكن يحتاج إلى فن مستقبلى ، وتوضيح المفضل يحتاج إلى سياسة مستقبلية .

وحركة المستقبليين العالمية لا تفرق اليوم تفريقا واضحا بين هذه الوظائف . فثقل تركيزها منصب حاليا على تقدير الاحتمالات . وبالتالى فى كثير من هذه المراكز يعمل اقتصاديون ، واجتماعيون ، ورياضيون ، وبيولوجيون ،

وفيزيائيون ، وباحثون فى العمليات ، وغيرهم – يعملون جميعا فى ابتكار وتطبيق أساليب للتنبؤ باحتمالات المستقبل . متى سيمكن للزراعة البحرية أن تطعم نصف سكان الأرض ؟ ما هى القرائن التى ترجح حلول السيارة الكهربية محل السيارة التى تعمل بالبترول خلال الأعوام الخمسين القادمة ؟ ما هى احتمالات تسوية النزاع الصينى السوفييتى فى حدود سنة ١٩٨٠ ؟ ما هى أرجح احتمالات التغيير فى أشكال الفراغ ، وفى الحكومات المحلية ، وفى العلاقات العنصرية ؟

وتركيزا على الارتباطات المشتركة بين أحداث واتجاهات متباينة ، يكرس العلماء المستقبليون اهتماماً متزايدا بالآثار الاجتماعية للتكنولوجيا . فمعهد المستقبل يبحث ، من بين أشياء أخرى ، فى التأثيرات الاجتماعية والثقافية المحتملة للتكنولوجيا الاتصال المتقدمة . وجماعة هارفارد مهتمة بالمشكلات الاجتماعية المحتمل أن تنشأ نتيجة للتقدم فى بيولوجيا الطب . والمستقبليون فى البرازيل يختبرون النتائج المحتملة لسياسات تطوير اقتصادى مختلفة .

إن منطق دراسة احتمالات المستقبل أمر يفرض نفسه . فمن المستحيل على أى فرد أن يعيش خلال عمل يوم واحد دون أن يفترض ألف افتراض حول المستقبل المحتمل . إن الراكب الذى يقول : « سأكون فى البيت فى الساعة السادسة »، بنى تنبؤه على افتراضات حول احتمالات أن يصل القطار فى موعده المحدد . والأم التى تبعث بابنها إلى المدرسة تفترض ضمنا أن المدرسة ستكون هناك عندما يصل . وكما لا يستطيع الملاح أن يوجه سفينة دون تصور مسارها ، فكذلك نحن لا نستطيع أن نوجه حياتنا الشخصية دون أن نفترض بشكل دائم مثل هذه الافتراضات ، سواء بالوعى أو باللاوعى .

والمجتمعات أيضاً تنشئ بنيانا من الفرضيات حول الغد . إن صانعى القرارات فى الصناعة والحكومة والسياسة وغير ذلك من قطاعات الحياة لا يستطيعون أن يعملوا بدونها . ولكن فى فترات التغيير المتقلب تصبح

هذه الصور المصوغة اجتماعيا أقل دقة . وانفلات الزمام فى المجتمع اليوم له صلة مباشرة بعدم وضوح ما لدينا من صور عن المستقبلات المحتملة .

وبالطبع لا يستطيع أحد أن « يعرف » المستقبل بأى معنى مطلق . إننا نستطيع فقط أن نمهج ونعمق افتراضاتنا ، وأن نحاول أن نقرن بها الاحتمالات . وحتى هذا ليس بالأمر السهل . فمحاولات التنبؤ بالمستقبل ستعدل منها حتما . وأيضاً فإنها ما إن تنتشر حتى تؤدى عملية الانتشار (كعملية متميزة عن عملية البحث والاستقصاء) ، إلى التشوش . فالتنبؤات تنزع إلى أن تصبح محققة لذاتها أو محيطة لذاتها . وكلما امتد أفق الزمن فى المستقبل ، اضطررنا إلى الاعتماد على الحدس والتخمين المرتكزين على المعلومات ، وفضلا عن ذلك فإن بعض الحوادث الفريدة — كالاغتيالات مثلا — غير قابلة للتنبؤ فى الحاضر (بالرغم من أننا نستطيع التنبؤ بأنواع من مثل مستوى هذه الأحداث) .

وبالرغم من كل ذلك ، فإننا يجب أن نمحو مرة واحدة وإلى الأبد الأسطورة الشائعة بأن المستقبل « مجهول تماما » . فالصعوبات يجب أن تحفزنا إلى التحدى ، لا أن تصيبنا بالشلل . لقد كتب وليام .ف. أوجبورن ، وهو واحد من عظماء دارسى التغيير الاجتماعى فى العالم ذات مرة يقول : « يجب أن ندخل إلى تفكيرنا فكرة التقدير التقريبى . فثمة درجات مختلفة من الدقة وعدم الدقة فى التقدير . إن فكرة تقريبية عما ينتظرنا أفضل من لا شئ . وبالنسبة لكثير من الأشياء لا تعتبر الدقة المتناهية ضرورية على الإطلاق » .

ومن ثم فإننا لسنا بعاجزين عن معالجة احتمالات المستقبل كما يعتقد غالبية الناس . لقد كان عالم الاجتماع البريطانى دونالد.ج. ماكرى مصيبا فى تأكيده على أن « الاجتماعيين العصريين يستطيعون فى الحقيقة أن يصنعوا عدداً كبيراً من النبوءات القريبة المدى نسبيا والمحدودة بقدر كبير من الثقة والتأكيد » . وإلى جانب الأساليب القياسية المعهودة لعلم الاجتماع ، فإننا نجرب حاليا أدوات جديدة وقوية لسبر غور المستقبل . وتمتد هذه

الأدوات من استقراء الاتجاهات القائمة إلى بناء نماذج ، وألعاب ، وبيئات مقلدة شديدة التعقيد ، وإعداد سيناريوهات تأملية مفصلة ، والدراسة المنهجية للتاريخ بحثا عن نظائر مناسبة ، والبحوث المورفولوجية ،والتحليل الموضوعى ورسم الخرائط البيئية وما شابه ذلك . وفى استقصاء شامل عن التنبؤ التكنولوجى أجراه الدكتور إيريخ يانتش ، من جامعة ميتشجان ، أشار إلى عشرات من التكنيكات الجديدة المتميزة سواء ما يستخدم منها حاليا بالفعل أو ما لا يزال فى مرحلة التجربة .

ويعتبر معهد المستقبل فى ميدلتون بولاية كونيكتكت ، وهو نموذج لمواقع الفكر المستقبلى ، رائداً فى ميدان تصميم أدوات التنبؤ الجديدة . وآخر هذه الأدوات هى « دلفى » — وهى طريقة يرجع الفضل الأول الأكبر فى تطويرها إلى الدكتور أولاف هيلمر ، الفيلسوف والرياضى وأحد مؤسسى معهد المستقبل . وطريقة « دلفى » تحاول معالجة المستقبلات البعيدة بالاستخدام المنهجى للتخمينات « الحدسية » لعدد كبير من الخبراء . وقد قاد العمل فى طريقة « دلفى » إلى طريقة أحدث وذات أهمية خاصة فى تفادى صدمة المستقبل عن طريق ضبط سرعة التغيير . وكان رائد هذه الطريقة التى سميت « تحليل التأثير المتقاطع للمنشأ » هوتيودور .ج. جوردون من معهد المستقبل . وتتعقب هذه الطريقة تأثير مستحدث ما فى مستحدث آخر ، جاعلة بذلك من الممكن ، لأول مرة ، التحليل التوقعى لسلاسل حركية من الأحداث الاجتماعية والتكنولوجية وغيرها — والمعدلات المرجح أن تحدث بها .

إننا ، باختصار ، نشهد دفعة غير عادية نحو التقويم العلمى لاحتمالات المستقبل ، وهى خميرة سيكون لها فى حد ذاتها ، على الأرجح ، تأثير قوى فى المستقبل . وسيكون من الغباء الادعاء بقدرة العلم ، حتى الآن ، على أن يتنبأ بأحداث معقدة تنبؤاً دقيقا . ولكن الخطر اليوم ليس فى المبالغة فى تقدير قوتنا ، بل الخطر الحقيقى هو فى عدم استخدامها على الوجه الأكمل . لأنه حتى لو أسفرت محاولاتنا للتنبؤ العلمى عن أخطاء ،

فإن المحاولة فى حد ذاتها ستساعدنا فى معرفة التقلبات الهامة للتغيير . وتساعدنا على استيضاح الأهـداف ، وتفرض تقويما أكثر عناية للبدائل فى أى خطة أو سياسة ترسم . ومن ثم فإن سبرغور المستقبل يعطى ثماره ، على الأقل ، فى الحاضر .

ولـكن التنبؤ بالمستقبلات المحتملة ليس إلا جزءاً مما نحتاج إليه لتحويل الأفق الزمنى للمخططين وحقن المجتمع كله بجرعات أقوى من الإحساس بالغد . وذلك أننا يجب أيضاً أن نوسع كثيراً من مفهومنا للمستقبلات الممكنة . يجب أن نضيف الخيال الملتهب للفن إلى الانضباط الصارم للعلم .

إننا فى حاجة اليوم أكثر من أى وقت مضى إلى مزيد مضاعف من الرؤى ، والأحلام ،والنبوءات — صور لممكنات الغد . وقبل أن نستطيع أن نقرربرشد أى طريق نسلك ، وأى أسلوب ثقافى ننتهج ، ينبغى أن نستوثق أولا من أيهما الممكن . وهكذا يصبح الحدس والتنبؤ والرؤى التخيلية ضرورة عملية مثلما كانت « الواقعية » فى زمن مضى .

من أجل هذا نجد بعضا من أكبر الشركات فى العالم ، والتى كانت تعتبر تجسيداً حيا للتفكير العملى والالتصاق بالحاضر ، قد صارت اليوم تستخدم مستقبليين حدسيين وكتاب قصص علمى ، وحالمين كمستشارين ، وشركة كيماويات أوروبية عملاقة تستخدم مستقبليا يجمع بين الخلفية العلمية والدراسة اللاهوتية ، وامبراطورية إعلامية فى أمريكا تستعين بناقد اجتماعى ذى عقلية مستقبلية ، وشركة لصناعة الزجاج تبحث عن كاتب قصص علمى ليتخيل الأشكال الممكنة للشركات المندمجة فى المستقبل إن الشركات التى تلجأ إلى هؤلاء « الملحقين » و « الطيور البرية » لا من أجل التنبؤ العلمى باحتمالات المستقبل ، ولـكن من أجل الحدس الموسع للذهن حول الممكنات .

ولا ينبغى أن تظل الشركات هى الهيئات الوحيدة التى تستفيد بمثـل هذه الخدمات . فالحكومات المحلية ، والمدارس ، والاتحادات ،وغيرها

تحتاج أيضاً إلى استطلاع إمكانيات مستقبلها بطريق تخيلي . وقد يكون مما يسر لهم هذه الخدمات أن تنشأ « مراكز تخيلية » مكرسة للتخيل المستعين بالوسائل الفنية . وستكون هذه أماكن يستدعى منها الناس للتخيل الخلاق أكثر منهم للخبرة التكنيكية ، فيجتمعون معا لدراسة الأزمات الحاضرة وتوقع الأزمات المستقبلة ، والحدس بحرية حول المستقبلات الممكنة .

ما هى ، مثلا ، المستقبلات الممكنة للمواصلات داخل المدن ؟ إن مشكلة المرور تشمل المكان ، كيف يمكن أن تواجه مدينة المستقبل حركة الناس والأشياء عبر المكان ؟ للحدس حول هذا السؤال قد يجند المركز التخيلي : فنانين ، ونحاتين ، وراقصين ، ومصممى أثاث ، وملاحظى مواقف سيارات ، وتشكيلة أخرى من الأشخاص الذى يعالجون المكان بأسلوب تخيلي . مثل هؤلاء الأشخاص إذا ما جمعوا تحت الظروف المناسبة سوف يأتون حتما بأفكار لم يحلم بها من قبل مخططو المدينة التكنوقراطيون ، ولا مهندسو الطرق أو سلطات النقل والمرور .

والموسيقيون ، والناس الذين يعيشون قريبا من المطارات ، وعمال ثقب الصخور ، ومحصلو « كمسارية » مترو الأنفاق ، يمكن أن يتخيلوا وسائل للتحكم فى الضجيج ، أو حجبه ، أو تخفيفه . وقد تدعى جماعات من الشباب ليعملوا أذهانهم فى مقتربات لم تختبر بعد لتطوير المرافق الصحية للمدن ، ولمشكلة الزحام ، والصراعات العنصرية ، والعناية بالمسنين ، وألف مشكلة أخرى من مشكلات الحاضر والمستقبل .

وفى مثل هذه المحاولات ستكون الغالبية العظمى من الأفكار المقدمة غريبة ومضحكة أو مستحيلة عمليا . ولكن جوهر التفكير الخلاق هو الاستعداد لمداعبة ومعالجة أى فكرة مهما كانت غريبة أو سخيفة ، ثم فقط فى النهاية وضع تيار الأفكار المتدفقة محل اختبار دقيق وحكم صارم . وبالتالى فإن استخدام الخيال بالنسبة للمستقبل يتطلب بيئة يتوافر له فيها حق الخطأ ، والتعبير الحر عن الأفكار الجديدة قبل أن تغربل وتمحص ، إننا فى حاجة إلى ملاذات أمينة للتخيل الاجتماعى .

وبينما كل الناس من ذوى القدرة على التخيل الخلاق مدعوون إلى الإسهام فى التخمين حول المستقبلات المحتملة ، يجب أن ييسر لهم الاتصال الفورى – الشخصى ، أو عن طريق المواصلات اللاسلكية – بالأخصائيين التكنيكيين فى جميع المجالات ،والذين سيشيرون بما إذا كان اقتراح ما ممكن التنفيذ من الناحية التكنيكية (مع ملاحظة أنه غالبا ما يكون المستحيل مجرد حالة مؤقتة) .

والخبراء العلميون أيضاً يمكن أن يلعبوا دوراً مشجعا أكثر منه مثبطا فى العملية التخيلية . فيستطيع الأخصائيون المهرة أن يبنوا نماذج تساعد المتخيلين على استعراض كل التعديلات والاستبدالات الممكنة فى أى مجموعة معينة من العلاقات . فهذه النماذج تمثل ظروف الحياة الحقيقية . والغرض منها كما يقول كريستوف برترام من معهد الدراسات الاستراتيجية بلندن : « ليس التنبؤ بالمستقبل بقدر ما هو فحص للمستقبلات البديلة ، وعرض للاختيارات المفتوحة » .

وعلى سبيل المثال ، فإن نموذجا مناسبا يمكن أن يساعد جماعة من المتخيلين على تصور ما يحدث من آثار فى مدينة ما ، فى حالة تقلب ميزانيتها التعليمية – كيف سيؤثر هذا مثلا ، فى جهاز النقل ، فى المسارح ، وفى التركيب المهنى والصحى لمجتمع المدينة . وبالمقابل ماذا يمكن أن تحدثه التغييرات فى هذه القطاعات من آثار فى التعليم .

إن التيار الجامح ، المتحرر ، الغريب ، والمتعدد الألوان من الأفكار التى تتولد فى مراكز التخيل الاجتماعى هذه ، يجب بعد التعبير عنها أن تتعرض لعملية غربلة لا هوادة فيها . ولن يبقى بعد هذه الغربلة سوى جزء ضئيل من هذه الأفكار . ولكن هذا العدد القليل قد تكون له أهمية قصوى فى لفت النظر إلى ممكنات جديدة كان من الممكن أن تغيب عن الملاحظة لولا هذه الأفكار . ومع انتقالنا من الفقر إلى الوفرة تتغير السياسات مما يسميه الرياضيون لعبة الكم الصغرى إلى لعبة الكم اللاصغرى . . فى الأولى عندما يكسب لاعب فلابد أن يخسر الآخر . أما فى الثانية فيمكن

أن يكسب الجميع . وإيجاد حلول لا صفرية لمشكلاتنا الاجتماعية يتطلب كل ما نقدر عليه من تخيل . إن نظاما لتوليد الأفكار التخيلية قد يساعدنا عند وضع سياساتنا على تحقيق أقصى استفادة من الفرص اللاصفرية التى ينطوى عليها الغد .

لكن بينما تركز المراكز التخيلية على صور جزئية للغد ، محددة الملامح الممكنة لصناعة واحدة ، أو منظمة بعينها ، أو مدينة ما ، فإننا فى حاجة أيضاً إلى أفكار تخيلية شاملة حول المجتمع ككل . إن مضاعفة صورنا عن المستقبلات الممكنة أمر هام . ولكن هذه الصور فى حاجة إلى أن تنظم وتبلور فى أشكال مبنية . هذاهو ما فعلته لنا الأدبيات الطوباوية فى الماضى . لقد لعبت دوراً عمليا وحاسما فى تنظيم أحلام الإنسان حول مستقبلات بديلة ، أما اليوم فإننا نعانى فقراً فى الأفكار الطوباوية التى يمكن أن ننظم حولها صورا متنافسة للمستقبلات الممكنة .

إن معظم الطوبيات التقليدية تصور مجتمعات بسيطة وراكدة — مجتمعات ليس بينها وبين مجتمع ما فوق التصنيع أى شئ مشترك . فطوبيا ب.ف. سكينر « والدن الثانى »،التى تعتبر نموذجا لعدد من الكوميونات التجريبية الموجودة حاليا ، تصور أسلوبا لحياة ما قبل التصنيع — مجتمعا صغيراً ملتصقا بالأرض، ومبنيا على الزراعة والحرف اليدوية . بل إن العملين الرائعين والمضادين للطوباوية : « عالم جديد وشجاع » و «١٩٨٤» يبدوان الآن متناهيين فى البساطة . فكلاهما يصف مجتمعات مبنية على تكنولوجيا أعلى ، وتعقيد أقل : الماكينات معقدة ولكن العلاقات الاجتماعية والثقافية ثابتة ومبسطة عن عمد .

إننا فى حاجة اليوم إلى أفكار جديدة قوية ، طوباوية ومضادةللطوباوية على حد سواء ، مفهومات تتجه إلى الأمام نحو عصر ما فوق التصنيع وليس إلى الخلف نحو مجتمعات أبسط . ولكن هذه المفهومات لم يعد من الممكن أن تنتج بالطريقة القديمة .

أولا : لأنه ليس ثمة كتاب بكاف وحده لوصف مستقبل ما فوق التصنيع فى صيغة تستحوذ على العاطفة . إن كل مفهوم طوباوى أو لا طوباوى عن عصر ما فوق التصنيع يحتاج إلى التجسيد فى أشكال متعددة — أفلام ، مسرحيات ، روايات ، وأعمال فنية — وليس إلى عمل قصصى مفرد . وثانيا ، قد يكون من الصعب والعسير الآن على أى كاتب فرد مهما أوتى من موهبة ، أن يصف مستقبلا لا شك فى تعقده . ومن ثم فنحن فى حاجة إلى ثورة فى إنتاج الطوبيات : الإنتاج الطوباوى المشترك . إننا فى حاجة إلى « مصانع للطوبيات » .

قد يكون أحد السبل إلى ذلك هو أن ننظم جماعة صغيرة من خيرة العلماء المتخصصين فى مختلف العلوم الاجتماعية — تضم مثلا عالما فى الاقتصاد، وآخر فى الاجتماع ، وثالثا فى الأنثربولوجيا ، إلى آخره — ثم نطلب منهم أن يعملوا معا ، بل أن يعيشوا معا لفترة كافية ليصوغوا فيما بينهم مجموعة من القيم الواضحة التحديد،والتى يعتقدون أن مجتمع ما فوق التصنيع يجب أن ينبنى عليها حقا .

ثم بعد ذلك ، يحاول كل منهم أن يصف بشكل غير روائى قطاعا من المجتمع المتخيل بناؤه على هذه القيم . كيف ستكون بنية الأسرة فيه ؟ وماذا عن اقتصاده ، وقوانينه ، وديانته ، وعن السلوك الجنسى ، وثقافة الشباب ، والموسيقى ، والفن ، وإحساسه بالزمن ، ودرجة التنوع فيه ، ومشاكله النفسية ؟ وبالعمل معاً على قدر الإمكان لإزالة ما قد يكون هناك من تنافر أو تناقض ، قد يستطيعون أن يرسموا صورة شاملة ومركبة ، مؤقتة وغير ملتحمة بعد لمجتمع ما فوق التصنيع .

وفى نفس الوقت يمكن أن تكون جماعات أخرى عاكفة على رسم صور لطوبيات متعارضة، فبينما قد تركن (الطوبيا « أ ») على قيم النجاح المادى ، فإن (الطوبيا «ب») قد تنحاز نُفيم الملذات الحسية ، وتعطى (الطوبيا « ج ») أولوية للقيم الجمالية ، وتحبذ (الطوبيا « د ») الفردية ،

بينما (الطوبيا «هـ») تفضل الجماعية وهلم جرا . وفى النهاية سيتدفق سيل من الكتب ، والمسرحيات والأفلام ، والبرامج التليفزيونية مستمد من هذا التعاون المشترك بين الفن ، والعلوم الاجتماعية ، والمستقبلية ، ومن ثم تعليم أعداد كبيرة من الناس حول تكاليف ومنافع الطوبيات المختلفة المقترحة.

وأخيرا ، فإن كنا نعانى نقصا فى التخيل الاجتماعى ، فإننا أيضاً أشد افتقارا إلى الأشخاص المستعدين لأن يضعوا الأفكار الطوباوية محل تجربة منهجية . إن أعداداً متزايدة من الشباب فى سخطهم على حياة مجتمع التصنيع يخوضون تجارب بحياتهم الخاصة ، فيكونون الكوميونات الطوباوية ويجربون ترتيبات اجتماعية جديدة : من الزواج الجماعى إلى كوميونات المعيشة والتعلم ، فاليوم كما فى الماضى ، أصبح ضغط المجتمع القائم ثقيلا على الحالم الذى يريد أن يمارس ما يبشر به . فالأحرى بنا — بدلا من نبذ الطوباويين — أن نستفيد من استعدادهم للتجربة ، وأن نشجعهم بالمال والتسامح إن لم يكن بالاحترام .

إن معظم ما يوجد اليوم من « مجتمعات هدفية » أو مستعمرات طوباوية تبدى تفضيلا شديدا للماضى . قد يكون لمثل هذه المجتمعات قيمة بالنسبة للأفراد الذين يعيشون فيها . ولكن المجتمع الكبير ككل ستهيأ له خدمة أفضل بواسطة التجارب الطوباوية المبنية على أشكال عصر ما فوق ، لا ما قبل التصنيع . فبدلا من مزرعة كوميونية لماذا لا تكون شركة كومبيوتر يعيش كاتبو برامجها ويعملون كوميونيا ؟ أو لماذا لا تكون شركة لتكنولوجيا التعليم يخلط أفرادها نقودهم ويدمجون أسرهم ؟ وبدلا من زراعة الفجل وصناعة الصنادل لماذا لا تكون منشأة لبحوث علوم البحار منظمة طبقا لخطوط طوباوية ؟ ولماذا لا تكون عيادة طبية جماعية تستفيد من أحدث تكنولوجيا طبية ، ولكن أعضاءها يتقاضون أتعابا زهيدة ، ويجمعون أرباحهم لإدارة مدرسة طب من طراز جديد تماما ؟ لماذا لا نجند جماعات لتجربة الاقتراحات الخاصة بمصانع الطوبيات ؟

وباختصار ، فإننا نستطيع أن نستخدم الطوباوية كأداة لخدمة المجتمع أكثر منها كوسيلة للهرب منه ، وذلك إذا ما بنينا تجاربنا على تكنولوجيا ومجتمع الغد بدلا من الأمس . فإذا ما فعلنا ، فلماذا لا نضع النتائج موضع التحليل العلمى الدقيق ؟ إن ما سنكتشفه من تحليل هذه النتائج قد يكون مما لا يقدر بثمن ، سواء جنبتنا هذه المكتشفات الوقوع فى الأخطاء ، أو قادتنا إلى أشكال تنظيمية أكثر فعالية للصناعة والتعليم والأسرة والسياسة .

مثل هذه الاستكشافات التخيلية للمستقبلات الممكنة سوف تثرى وتعمق من دراستنا للمستقبلات المحتملة . إنها سترسى قاعدة للتوسع الثورى فى الآفاق الزمنية للمجتمع . إنها قد تساعدنا على تطبيق التخيل الاجتماعى على مستقبل المستقبلية ذاتها .

والواقع أننا ، مستندون إلى هذه التجارب الرائدة كخلفية ، يجب أن نشرع بجد فى مضاعفة أعضاء الحس العلمى المستقبلى فى المجتمع . إن المعاهد والمنشآت المستقبلية العلمية يجب أن تنتشر كعقد فى نسيج شبكى فضفاض على امتداد البناء الحكومى بأكمله فى المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا ، بحيث يكون فى كل إدارة على المستوى القومى أو المستويات المحلية هيئة تكرس نفسها للاستطلاع المنهجى لاحتمالات المستقبل البعيد المادى فى المجال الذى يخصها . ويجب أن يلحق المستقبليون بكل حزب سياسى ، وجامعة ، وشركة ، واتحاد مهنى ، ونقابة ، ومنظمة طلابية .

إننا فى حاجة إلى تدريب آلاف الشباب فى مشروعات وتكنيكات المستقبلية العلمية ، وأن ندعوهم إلى المشاركة فى المحاولة المثيرة لرسم خطوط المستقبلات المحتملة ، ونحتاج أيضاً إلى وكالات قومية لتمد المجتمعات المحلية بالمساعدة الفنية اللازمة لإنشاء جماعاتها المستقبلية . ونحتاج إلى مركز مماثل ، ربما تشترك المنشآت الأمريكية والأوروبية فى تمويله ، لمساندة المراكز المستقبلية فى آسيا وأفريقيا ، وأمريكا اللاتينية .

إننا فى سباق بين المعدلات المرتفعة للشك الناتجة من تسارع التغيير ، وبين الحاجة إلى صور معقولة الدقة لما يمكن أن يصبح فى أى لحظة المستقبل

الأعظم احتمالا . ومن ثم فإن تكوين صور يعتمد عليها لذلك المستقبل يصبح ضرورة قومية ، بل دولية ، ملحة .

وعندما يرصع مستطلعو المستقبل وجه الكرة الأرضية ، قد نبدأ فى النظر فى خلق معهد دولى ضخم للمستقبل يكون بمثابة بنك عالمى للمعلومات المستقبلية . مثل هذا المعهد المزود بأعلى مستوى من الرجال والنساء المتخصصين فى جميع العلوم ، سوف تكون مهمته أن يجمع ويكامل بطريقة منهجية التقارير التنبؤية للعلماء والمفكرين التخيليين من مختلف مجالات المعرفة فى جميع أنحاء العالم .

وبالطبع لن يغيب عن العاملين فى مثل هذا المعهد أنهم لن يستطيعوا مطلقا أن يرسموا صورة واحدة للمستقبل ، بل سيكون ناتج جهودهم هو التغيير المستمر لجغرافية المستقبل – أى صورة دائمة التجدد مؤسسة على أفضل الأعمال التنبؤية المتاحة . وينبغى أن يعلم الرجال والنساء المشتغلون بهذا العمل أنه ليس ثمة شئ يقينى ، وأنهم يجب أن يعملوا بمعلومات غير كافية ، وأن يرحبوا بالصعوبات الكامنة فى استكشاف أرض الغد المجهولة . ولكن الإنسان يعلم بالفعل عن المستقبل أكثر مما حاول أن يستنبطه ، ويكامل بينه بأى طريقة علمية ومنهجية . والمحاولات التى ينبغى أن تبذل لتجميع معرفته سوف تكون من أعظم الجهود الفكرية شأنا فى التاريخ – ومن أحقها بما يبذل فى سبيلها من عناء .

وعندما يتسلح صانعو القرارات بروئى أفضل لأحداث المستقبل ، وعندما نزيد من دقة التنبؤ من خلال عمليات التقدير التقريبى المتوالية ، عندئذ ستكتسب محاولاتنا للتحكم فى التغيير تحسنا ملحوظا . ذلك أن الافتراضات الدقيقة إلى درجة معقولة عن المستقبل هى شرط مسبق لتفهم الآثار المرجحة لأعمالنا . وبدون مثل هذا يصبح التحكم فى التغيير مستحيلا .

إذا كان إسباغ السمة الإنسانية على المخططين هو المرحلة الأولى من استراتيجية المستقبلية الاجتماعية ، فمد الأفق الزمنى هو المرحلة الثانية .

فمن أجل أن نتجاوز حدود التكنوقراطية لا نحتاج فقط إلى تخطى جاهليتنا الاقتصادية ، بل أيضاً إلى انفتاح عقولنا على مستقبلات أبعد ، محتملة وممكنة .

الديموقراطية التوقعية

ولكن فى النهاية ، يجب على المستقبلية الاجتماعية أن تذهب إلى ما هو أبعد وأعمق . إن التكنوقراطيين يعانون مما هو أكثر من تسلط الفكرة الاقتصادية وقصر النظر . إنهم أيضاً مصابون بفيروس الاستعلائية . ومن أجل أن نملك زمام التغيير فسوف نحتاج إلى خطوة أخيرة ، وأكثر ثورية ، نحو نبذ التقاليد التكنوقراطية : إننا بحاجة إلى ثورة فى ذات الطريقة التى نصوغ بها أهدافنا الاجتماعية .

إن تصاعد الحدة فى حياتنا يجعل الأهداف التقليدية لمؤسساتنا الرئيسية— الدولة ، والكنيسة ، والشركة ، والجيش ، والجامعة — غير ذات موضوع . إن التسارع ينتج معدلات أسرع لتغيير الأهداف وزوالا أكبر للأغراض . والتنوع يقود إلى تضاعف لا يتوقف للأهداف . ونحن وقد أخذت بخناقنا هذه البيئة المضطربة وما تراكم فيها من أهداف ، وأصابتنا صدمة المستقبل ، نترنح من أزمة إلى أزمة وراء مضطرب من الأغراض المتصادمة والمبطلة لذاتها .

ويبدو هذا أكثر ما يكون وضوحا فى محاولاتنا المتبلدة لحكم مدننا . إن سكان نيويورك قد تعرضوا خلال فترة قصيرة من الزمن لأزمات مزعجة متوالية تكاد تقرب من الكوارث : نقص المياه ، وإضراب عمال مترو الأنفاق ، والاضطرابات العنصرية العنيفة فى المدارس ، وتعطل الخدمة التليفونية ، وعصيان طلبة جامعة كولومبيا ، وإضراب عمال القمامة ، وأزمة المساكن ، وإضراب عمال محطات الوقود ، وإضراب المدرسين ، وانقطاع الكهرباء — وليس هذا كله سوى قليل من كثير . وفى مجلس المدينة ، كما فى ألف مجلس مدينة آخر فى الدول المتقدمة تكنولوجيا ،

يهرول التكنوقراطيون حاملين دلاء المـاء من حريق إلى حريق دون أى شئ يشبه ، ولو إلى أدنى حد ، خطة أو سياسة متماسكة لمستقبل المدن .

ولسنا نعنى بذلك أنه لا أحد يخطط ، بل على العكس تماما ، فخطط التكنوقراطيين ، وخططهم الفرعية ، وخططهم المضادة ، لا تكف عن التدفق فى هذا المختمر الاجتماعى المزبد . خطط تتضمن طرقا وشوارع جديدة ، ومحطات قوى جديدة ، ومدارس جديدة . وتعد بمستشفيات أفضل ، ومساكن أحسن ، ومراكز للطب العقلى أفضل ، وبرامج ضمان اجتماعى أحسن . ولـكن الخطط تلغى ، وتناقض ، وتدعم إحداها الأخرى بطريق المصادفة ، وقليل منها ما هو مرتبط منطقيا بالآخر . وليس ثمـة صورة كلية لمدينة المستقبــل المفضلة . لا رؤية هنـاك – طوباوية أو غيرها – تمد جهودنا بالطاقة . ولا أهداف عقلانية متكاملة تحل النظام محل الفوضى . وغيبة السياسة المتماسكة على المستويين القومى والدولى ، واضحة نفس الوضوح ، وخطرة ضعف الخطر .

والقضية ليست مجرد أننا لا نعرف إلى أى الأهداف نسعى ، كمدينة أو كأمة . إن المشكلة أعمق من هذا بكثير . ذلك أن التغيير المتسارع قد عفى على الأساليب التى نستخدمها فى الوصول إلى الأهداف الاجتماعية . هذه حقيقة لم يعرفها التكنوقراطيون بعد ، ومن ثم فإنهم يتصرفون فى أزمة الأهداف بطريقة (محلك سر) – ويلجأون إلى نفس أساليب الماضى المجربة .

وبالتالى ، ومن حين لآخر ، تحاول حكومة ما – وقد انبهرت بالتغيير – أن تحدد أهدافها بطريقة علنية ، وبحكم الغريزة تشكل لجنة : فى سنة ١٩٦٠ شكل الرئيس أيزنهاور لجنة وضع فيها ، من بين آخرين ، جنرالا ، وقاضيا ، واثنين من رجال الصناعة ، وبعض عمداء الكليات ، وقائدا عماليا ، وذلك من أجل « وضع الخطوط العريضة لسياسات وبرامج قومية متناسقة » ومن أجل « تحديد سلسلة من الأهداف فى المجالات المختلفة للنشاط القومى » . وبعد فترة مناسبة ظهر كتاب بغلاف من الورق المطبوع

بألوان ثلاثة هى : الأبيض ، والأحمر ، والأزرق ، يضم بين دفتيه تقرير اللجنة الذى حمل عنوان « أهداف من أجل الأمريكيين » . ولكن الذىحدث هو أنه لم يكن للجنة ولا لأهدافها أقل أثر ، لافى الجمهور، ولا فى السياسة . واستمرت قوى التغيير الماحقة تزحف على أمريكا دون أن تمسها يد من توجيه ذكى .

ثم بذلت جهود أهم ، بادر بها الرئيس جونسون ، لتنسيق الأولويات الحكومية فى محاولته لتطبيق « نظام التخطيط والبرمجة ووضع الميزانيات » على كل المؤسسات الفيدرالية . وهذا النظام عبارة عن أسلوب لربط أوثق وأرشد للبرامج بالأهداف التنظيمية . وعلى سبيل المثال ، فإنه بتطبيقه على وزارة الصحة والتعليم والضمان الاجتماعى تستطيع الوزارة أن تقيم تكاليف وعوائد برامج بديلة لتحقيق أهداف معينة . ولكن من ذا الذى يحدد هذه الأهداف الأكبر والأهم ؟ إن تطبيق هذا النظام يعتبر إنجازا حكوميا ضخما ،وله أهميته القصوى فى توجيه الجهود التنظيمية الكبيرة . ولكنه يدع نفس السؤال السياسى العويص قائما لم يمس ، وهو : كيف تختار الأهداف الكلية للحكومة والمجتمع فى المقام الأول ؟

ثم جاء الرئيس نيكسون ليعانى بدوره أزمة الأهداف المعقدة ويحاول محاولة ثالثة . لقد أعلن أنه : « قد حان الوقت لنسائل أنفسنا بوعى ومنهجية أى نوع من الأمم نريد أن نكونه » . لقد وضع من ثم إصبعه على السؤال الجوهرى . ولكن مرة أخرى أثبت الأسلوب الذى اختير للإجابة عليه أنه غير ملائم « لقد أمرت اليوم بأن تنشأ داخل البيت الأبيض (هيئة بحث الأهداف القومية) »، هكذا أعلن الرئيس ثم أضاف : « ستكون هذه هيئة صغيرة وفنية على أعلى مستوى ، ومكونة من خبراء فى تجميع ومعالجة المعلومات المتصلة بالاحتياجات الاجتماعية وفى تخطيط الاتجاهات الاجتماعية».

هذه الهيئة التى يقع مقرها على مرمى حجر من مقر الرئاسة،يمكن أن تكون ذات فائدة كبرى فى تجميع الاقتراحات بالأهداف،وفى أن تسوى

(على الأقل على الورق) الصدامات بين الوكالات المختلفة . وفى اقتراح أولويات جديدة . وهى قد زودت بعلماء اجتماع ممتازين وبمستقبليين تستطيع أن تكسب عيشها عن جدارة إذا لم تفعل شيئا سوى حمل كبار المسئولين على فحص أهدافهم الأساسية .

ولكن حتى هذه الخطوة، مثل سابقتيها، تحمل طابع العقلية التكنوقراطية . ذلك أنها أيضا تروغ من اللب السياسى للموضوع ، كيف يمكن تحديد المستقبلات المحتملة ؟ وبواسطة من ؟ ومن الذى يضع الأهداف من أجل المستقبل ؟

وخلف كل هذه الجهود يمكن الاعتقاد بأن الأهداف القومية (وبالتالى المحلية) لمستقبل المجتمع يجب أن تصاغ عند القمة . هذه الفرضية التكنوقراطية تعكس تماما الأشكال البيروقراطية القديمة للمنظمة حيث تنفصل القاعدة عن القمة ، وحيث سلم المراتب الجامد يميز بين القائد والمقود ، وبين المدير والعاملين ، وبين المخططين والمخطط لهم .

ولكن الأهداف الحقيقية (كشئ متميز عن تلك التى لا تعدو أن تكون ألفاظا خاوية) لأى مجتمع يسير نحو عصر ما فوق التصنيع قد أصبحت بالفعل شديدة التعقيد ، وشديدة الزوالية ، وشديدة الاعتماد فى إنجازها على رغبة المحكومين فى الإسهام عن طواعية فى تحقيقها — الأمر الذى يقتضى بالضرورة أن تكون ميسرة الفهم سهلة التحديد . إننا لا يمكن أن نأمل فى تلجيم قوى التغيير الجامحة بتجميع طائفة من الكهول لتصنع لنا أهدافنا ، أو بأن نعهد بهذه المهمة إلى « هيئة فنية على أعلى مستوى » . إننا فى حاجة إلى مقترب ثورى جديد من عملية وضع الأهداف.

وأيضا فليس ثمة احتمال فى أن يأتى مثل هذا المقترب من قبل أولئك الذين ينتحلون صفة الثورية . إن جماعة ثورية ترى أن أصل كل المشكلات هو « السعى إلى الحد الأعلى من الأرباح » إنما تعبر عن نظرة اقتصادية ضيقة مثل نظرة التكنوقراطيين . وجماعة أخرى تأمل فى أن تدفعنا ببلاهة

إلى الوراء ، إلى ماضى ما قبل التصنيع . وثمة ثالثة تنظر إلى الثورة نظرة ذاتية وسيكولوجية خالصة . ليس من بين هذه الجماعات من تملك القدرة على أن تقودنا إلى أشكال ما بعد التكنوقراطية من قيادة التغيير .

إن شباب اليوم الثائرين يؤدون لنا جميعا خدمة جليلة بلفتهم الأنظار إلى عجز التكنوقراطيين ، وبتحديهم الصريح ليس فقط لوسائل عصر التصنيع ، بل لأهدافه أيضا ، ولكنهم لا يعرفون كيف يواجهون أزمة الأهداف بأكثر مما يعرف التكنوقراطيون الذين يحتقرونهم . وهم تماما كالسادة أيزنهاور وجونسون ونيكسون ، ثبت بوضوح أنهم غير قادرين على أن يقدموا أى صورة إيجابية للمستقبل تستحق النضال من أجلها .

وهكذا يوضح تود جيتلين وهو من شباب أمريكا الثوريين والرئيس السابق لحركة « الطلبة من أجل مجتمع ديموقراطى » أنه بينما « كان التوجيه نحو المستقبل سمة مميزة لكل حركة ثورية — وليبرالية أيضا — خلال القرن والنصف قرن الماضيين ، نجد أن (اليسار الجديد) يعانى من عدم الإيمان بالمستقبل » . وبعد استعراض كل الأسباب الظاهرية لعدم استطاعة (اليسار الجديد) حتى الآن أن يقدم رؤية متماسكة للمستقبل ، اعترف فى إيجاز بليغ : « لقد وجدنا أنفسنا غير قادرين على صياغة المستقبل » .

ويتناول يساريون جدد آخرون المشكلة بطريقة مبهمة ، إذ يحثون تابعيهم على إدماج المستقبل فى الحاضر عمليا عن طريق العيش اليوم بأساليب حياة الغد . ولكن لم يؤد هذا حتى الآن إلا إلى لغز محير — فالتعاونيات و « المجتمعات الحرة » وكوميونات ما قبل التصنيع » ، قليل منها هو الذى له أى علاقة بالمستقبل ، ومعظمها لا يكشف بدلا من ذلك إلا عن تشبث بالماضى .

ويضاعف من سخرية الحقيقة أن نرى بعض (وليس كل) شباب اليوم الثوريين يشاركون التكنوقراطيين مسحة من الاستعلائية الخبيثة — فبينما يشجبون البيروقراطية ويطالبون بـ « ديموقراطية المشاركة » ، فإنهم أنفسهم

كثيرا ما يحاولون التلاعب بذات الجماعات من العمال والسود والطلاب التى يطالبون لصالحها بالمشاركة .

إن الجماهير العاملة فى المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا تقف موقف اللامبالاة التامة من الدعوة إلى ثورة سياسية تهدف إلى تغيير شكل الملكية . فبالنسبة لمعظم الناس يعتبر تزايد الوفرة شيئا مستحبا ، وهم ينظرون إلى ما ينعى عليهم من « حياة الطبقة المتوسطة فى الضواحى » نظرة مختلفة ، إذ يرون فيها إشباعا لا حرمانا .

وفى مواجهة هذا الواقع العنيد، تقفز العناصر اللاديموقراطية فى (اليسار الجديد) إلى المقولة الماركيوزية بأن الجماهير قد تبرجزت وأفسدتها إعلانات شارع ماديسون ، بحيث أصبحت لا تعرف صالحها . ومن ثم فإن النخبة الثورية يجب أن تبنى مستقبلا أكثر إنسانية وديموقراطية ، حتى ولو اقتضى الأمر أن تجرعه قسراً لأولئك الذين أصبحوا من الغباء بحيث صاروا لا يعرفون مصالحهم . ويعنى هذا باختصار ، أن أهداف المجتمع ينبغى أن توضع بواسطة نخبة ممتازة . إن التكنوقراطيين وخصوم التكنوقراطية كثيراً ما يتضح أنهم فيما تحت جلودهم إخوة فى الاستعلائية .

ولكن نظم صياغة الأهداف المبنية على فرضيات استعلائية لم تعد صالحة بأى حال . وهى تزداد عمقا فى النضال من أجل الإمساك بزمام التحكم فى التغيير . ذلك أن الديموقراطية فى مجتمع ما فوق التصنيع لن تصبح ترفا سياسيا ، وإنما ضرورة أولية .

إن أشكال الديموقراطية السياسية التى ظهرت فى الغرب لم تظهر ، لأن قلة من العباقرة قد أرادوا لها أن توجد ، أو لأن الإنسان قد أظهر « غريزة لا تخمد إلى الحرية » ، بل إنها ظهرت لأن الضغط التاريخى فى اتجاه التنوع الاجتماعى ونحو نظم أسرع قد تطلب (تغذية مرتدة) اجتماعية حساسة . فى المجتمعات الشديدة التنوع والتركيب، تتدفق كميات كبيرة من المعلومات بسرعات دائمة التزايد بين المنظمات الرسمية والثقافات الفرعية التى يتكون

منها المجتمع ككل، وبين هذه الأخيرة وما تشتمل عليه من شرائح وبنى فرعية .

والديموقراطية السياسية بإشراكها أعداداً أكبر فأكبر فى صنع القرارات الاجتماعية،تيسر هذه التغذية المرتدة . وهذه التغذية المرتدة هى على وجه التحديد ، العامل الحيوى فى سياسة الأمور . وحتى نمسك بزمام التغيير المتسارع سوف نحتاج إلى ترتيبات أكثر تقدما – وأكثر ديموقراطية – لتوفر تدفقا أيسر ، ودوراً أكبر ، لهذه التغذية المرتدة فى صنع القرارات .

ولكن التكنوقراطى ما زال يفكر بلغة من أعلى إلى أسفل ، ومازال يضع الخطط دون الترتيب لتغذية مرتدة مناسبة وفورية تأتى من الميدان الذى يخطط له ، ولذا فإنه قلما يعرف كيف تعمل خططه . وعندما يرتب للحصول على أى مدد من هذه التغذية المرتدة ، فإن ما يطلبه عادة ويحصل عليه يكون ذا طابع اقتصادى صارخ،تتضاءل فيه إلى أبعد حد الجوانب الاجتماعية والنفسية والثقافية ، والأدهى من هذا أنه يضع هذه الخطط دون كبير اعتبار للاحتياجات والرغبات السريعة التغيير لأولئك الذين لن تحقق خططه تماما دون مساهمتهم . إنه يدعى لنفسه الحق فى أن يضع بنفسه الأهداف الاجتماعية أو يتقبلها تقبلا أعمى عندما تأتى من سلطة أعلى .

وهو عاجز عن أن يدرك أن المسيرة الأسرع للتغيير تتطلب – وتخلق – نوعا جديدا من نظام المعلومات فى المجتمع : نظاما أشبه بالحلقة منه بالسلم .

والمعلومات يجب أن تنبض خلال هذه الحلقة بسرعة متزايدة ، وبحيث يصبح (إخراج) جماعة ما،هو (إدخال) جماعات أخرى عديدة ، ومن ثم فلا تستطيع أى جماعة مهما بدت قوتها السياسية أن تضع وحدها الأهداف للمجتمع ككل .

كلما تضاعف عدد العناصر الاجتماعية المكونة للمجتمع ، وتلاحقت صدمات التغيير لتزعزع النظام ككل ، تضاعفت بالتالى قدرة الجماعات الفرعية على إنزال الدمار بالكل . ومن واقع كلمات و . روس أشبى ،

عالم السبرانطيقا اللامع ، فإن ثمة قانونا رياضيا ثابت البرهان على أنه : « عندما يكون نظام كلى مكونا من عدد من النظم الفرعية ، فإن أقل هذه النظم استقرارا هو الذى ينزع إلى السيطرة على الكل » .

وبعبارة أخرى فإنه كلما نما عدد العناصر الاجتماعية ، وأصبح النظام يفعل التغيير أقل استقرارا ، تزايدت استحالة تجاهل مطالب الأقليات السياسية — الهيبيين والسود ، والطبقة المتوسطة الصغيرة ، والولاسيين ، ومعلمى المدارس ، إلى آخره . فى بيئة عصر التصنيع البطيئة الحركة . كان فى استطاعة أمريكا أن تدير ظهرها لحاجات أقليتها السوداء ، أما فى مجتمع السبرانطقيا الجديد السريع الحركة فإن هذه الأقلية تستطيع بالتخريب ، والإضراب ، وبألف وسيلة أخرى ، أن تمزق النظام بأكمله — فكلما زاد الاعتماد المتبادل بين عناصر المجتمع اكتسبت بالتالى الجماعات الأصغر فالأصغر قدرة أخطر على إحداث التمزق . وفضلا عن ذلك فكلما زادت سرعة التغيير ، انكمش بالتالى الوقت الذى يمكن أن تستمر فيه على تجاهلها حتى يصبح عدما . ومن ثم فلابد من : « الحرية الآن » .

وبمقتضى هذا فإن أفضل السبل للتعامل مع الأقليات الغاضبة والمتمردة هو أن ينفتح النظام أكثر ليدخلوا فيه كشركاء كاملين ، وأن يسمح لهم بالمشاركة فى وضع الأهداف الاجتماعية ، بدلا من محاولة عزلهم أو نبذهم . إن الصين المعزولة عن الأمم المتحدة والمجتمع الدولى الأكبر ،حرية بأن تهدد استقرار العالم بأكثر من الصين المقبولة داخل نظامه . والشباب الذين فرضت عليهم فترة مراهقة أطول وحرموا من حق المشاركة فى وضع الأهداف الاجتماعية ،سوف يتزايدقلقهم حتى يهددوا النظام كله ، وباختصار ، فنى السياسة ، كما فى الصناعة ، وفى التعليم ، سوف تتزايد صعوبة تحقيق أى أهداف لم يسهم فى وضعها أولئك الذين يتأثرون بها . واستمرار وضع الأهداف التكنوقراطية من أعلى إلى أسفل سوف يؤدى إلى استمرار تفاقم عدم الاستقرار الاجتماعى ، وتقلص القدرة على التحكم فى التغيير ، ويقرب من خطر انفجار طوفانى مدمر للإنسان .

ومن ثم فمن أجل أن نتحكم فى التغيير ، فإننا نحتاج إلى وضوح الأهداف الاجتماعية الهامة البعيدة المدى ، وإلى ديموقراطية الطريق الذى نصل من خلاله إليها . ولا يعنى هذا شيئا أقل من ثورة سياسية فى المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا – ثورة هدفها تأكيد وترسيخ الديموقراطية الشعبية .

لقد آن الأوان لإعادة درامية لتقدير اتجاهات التغيير ، إعادة تقدير لا يقوم بها السياسيون ، أو علماء الاجتماع ، أو رجال الكنيسة ، أو ثوريو النخبة الممتازة ، ولا الفنيون ، أو عمداء الكليات ، وإنما يقوم بها الناس أنفسهم . إننا فى حاجة إلى المعنى الحرفى لعبارة « الذهاب إلى الناس » ، وأن نذهب إليهم بسؤال لم يسألوه من قبل : « أى عالم تريدون بعد عشر ، وعشرين ، وثلاثين سنة من الآن ؟ » إننا باختصار ، فى حاجة إلى البدء فى استفتاء مستمر عن المستقبل .

لقد حان الوقت المناسب لأن تقوم فى كل بلد من البلاد المتقدمة تكنولوجيا حركة كلية للتنقيح الذاتى ، أى حركة شعبية للفحص الذاتى موجهة نحو توسيع وتحديد أهداف « التقدم » بمعناها الاجتماعى والاقتصادى معا . إننا نقترب من حافة ألف جديدة من السنين ، ونقف على حافة مرحلة جديدة فى التطور الإنسانى ، ونسرع معصوبى الأعين إلى المستقبل . ولكن إلى أين نريد أن نذهب ؟

ماذا يحدث لو أننا حاولنا حقا أن نجيب عن هذا السؤال ؟

تصور الدراما التاريخية والأثر التطورى البالغ لما يمكن أن يحدث فيما لو خصصت كل أمة من الأمم المتقدمة تكنولوجيا السنوات الخمس القادمة كفترة للتقدير الذاتى الجاد ، ثم لو خرجت بعد هذه السنوات الخمس ببرنامجها التجريبى للمستقبل متضمنا ، ليس فقط الأهداف الاقتصادية ، ولكن أيضا – وبمساواة فى الأهمية – الأهداف الاجتماعية لكل أمة ، لو أن كل أمة أعلنت للعالم ماذا ترغب فى تحقيقه لشعبها وللجنس البشرى بشكل عام خلال الربع الباقى من القرن العشرين .

فلندع فى كل أمة ، وكل مدينة وكل حى إلى تكوين مجالس ديموقراطية من الناخبين تكلف بالجرد الاجتماعى وبتحديد وتوصيف أولويات لأهداف اجتماعية معينة للفترة المتبقية من القرن الحالى .

ومثل هذه « المجالس الاجتماعية للمستقبل » ينبغى ألا تمثل مناطق جغرافية فحسب ، بل أيضا وحدات اجتماعية ، ومنظمات عمالية ، وكنائس ، وجماعات مثقفين ، والفنون ، والنساء ، وجماعات عرقية ودينية ، وطلبة ، وبتمثيل منظم للفئات غير المنظمة أيضا . ليست هناك تكنيكات محكمة لضمان التمثيل المتساوى للكل ، أو للتعبير عن رغبات الفقراء والعاجزين عن التعبير ، والمعزولين . ولكن ما أن ندرك الحاجة إلى ضمهم فسوف نجد السبل إلى ذلك . والواقع أن مشكلة الإسهام فى تحديد المستقبل ليست مشكلة الفقراء والعاجزين والمعزولين فحسب . فهناك مديرون من ذوى المرتبات العالية ، ومهنيون أغنياء ، ومثقفون وطلبة فصحاء — كلهم يحسون من وقت لآخر بأنهم لا حول لهم وقوة فى التأثير فى اتجاهات وسرعة التغيير . وربط هؤلاء جميعا بالنظام وجعلهم جزءاً من أداة توجيه المجتمع ، هو أخطر مهمة سياسية أمام الجيل القادم . وتخيل التأثير الذى يحدث لو أنه فى مستوى ما أو غيره توافر موضع لكل من سيعيش فى المستقبل للتعبير عن رغباته حياله . وباختصار ، تخيل ممارسة شاملة وعالمية للديموقراطية التوقعية .

والمجالس الاجتماعية للمستقبل لا تحتاج — ولا تستطيع بحكم الزوال — أن تكون مؤسسات راسخة وثابتة ، وقد تأخذ بدلا من ذلك شكلا قريبا من شكل المجموعات الأدهوقراطية ، وربما دعيت للانعقاد فى فترات منتظمة بممثلين مختلفين فى كل مرة . هناك مواطنون يدعون اليوم للخدمة كمحلفين عندما يحتاج إليهم فيعطون أياما أو أسابيع قليلة من وقتهم لهذه الخدمة ، مدركين أن نظام المحلفين هو أحد ضمانات الديموقراطية ، وأنه حتى لو كانت الخدمة غير مشجعة إلا أن أحدا ما لابد وأن يؤديها . إن المجالس الاجتماعية للمستقبل يمكن أن تنظم طبقا لخطوط مماثلة ، بتيار دائم التدفق من المشاركين الجدد يدعون معا لفترة قصيرة ليخدموا المجتمع بصفة « مستشارين عن المستقبل » .

مثل هذه الكيانات الدائمة التغيير للتعبير عن إرادة أعداد ضخمة من الناس الذين لم يستشرهم أحد حتى اليوم قد تصبح من حيث التأثير ، مجالس مدن المستقبل حيث يساعد الملايين فى صياغة مستقبلهم البعيد .

بالنسبة للبعض ، ستبدو هذه الدعوة إلى شكل من الجماهيرية الجديدة دعوة ساذجة . ولكن الواقع أنه لا شئ أكثر سذاجة من الاعتقاد بأننا نستطيع أن نستمر سياسيا فى إدارة المجتمع على النحو الذى نسير عليه فى الحاضر . وبالنسبة لبعض آخر ، ستبدو الدعوة غير عملية — ولكن لا شئ أحق بهذه الصفة من محاولة فرض المستقبل الإنسانى من أعلى . إن ما كان ساذجا فى ظروف مجتمع التصنيع قد يصبح عمليا فى عصر ما فوق التصنيع ، وما كان معتبرا عمليا قد يصبح سخيفا ومنافيا للعقل .

والحقيقة المشجعة هى أننا نملك الآن القدرة على تحقيق اقتحامات هائلة فى ميدان صنع القرارات ديموقراطيا ، وذلك إذا ما استخدمنا التكنولوجيات الجديدة المناسبة — سواء ما كان منها « خشنا » أو «رقيقا» — استخداما ذكيا خصبا . فوسائل الاتصال اللاسلكى المتقدمة تلغى ضرورة أن يجتمع المشتركون فى مجلس اجتماعى للمستقبل داخل قاعة واحدة ، بل يمكن أن يستخدموا شبكة اتصالات تغطى وجه الكرة الأرضية . واجتماع العلماء لمناقشة أهداف البحث العلمى للمستقبل أو أهداف نوعية البيئة يمكن أن يسهم فيه علماء من جميع أطراف العالم دون أن يبرح أحدهم مكانه . ومؤتمر لعمال الصلب والمديرين منعقد لمناقشة أهداف الأتوميشن وتحسين ظروف العمل يمكن أن يتم من خلال شبكة اتصال تربط عديدا من المصانع والمكاتب والمخازن مهما تكن متناثرة أو بعيدة .

واجتماع ما للمجتمع الثقافى فى نيويورك أو باريس — الفنانين ورواد المعارض ، الكتاب والقراء ، فنانى المسرح والجمهور — لمناقشة الأهداف البعيدة المدى للتطور الثقافى للمدينة يمكن أن يعرض عليه من خلال تسجيلات الفيديو وغيرها من التكنيكات عينات فعلية من أنواع الإنتاج الفنى المطروح للمناقشة ، والتصميمات المعمارية للتسهيلات الجديدة ،وعينات من الوسائط

الفنية التى أتاحها التقدم التكنولوجى ، إلى آخره . ما نوع الحياة الثقافية التى ينبغى أن تستمتع بها مدينة كبرى فى المستقبل ؟ ما هى الموارد التى سيحتاج إليها تحقيق مجموعة من الأهداف ؟

حتى يمكن الرد على مثل هذه الأسئلة ، ينبغى أن تعزز المجالس الاجتماعية للمستقبل بهيئة فنية لتقدم بيانات عن التكاليف الاجتماعية والاقتصادية للأهداف المختلفة ، وتعرض تكاليف وأرباح الأشياء المقترح التخلص منها ، وذلك حتى يكون المسهمون فى المناقشة فى وضع يمكنهم من عمل اختيارات علمية معقولة بين المستقبلات البديلة . ومن هذا الطريق يستطيع كل مجلس أن يصل فى النهاية ، لا إلى مجرد آمال متفرقة وغامضة ، ولكن إلى بيانات متماسكة بأولويات الغد — مصبوغة بشكل يجعل من الممكن مقارنتها ببيانات الجماعات الأخرى .

وليست هذه المجالس بحاجة أيضا إلى أن تكون « مهرجانات كلام » . إننا نطور بسرعة تدريبات ألعاب ومحاكاة ، أجمل ما فيها أنها تساعد اللاعبين على استيضاح قيمهم الخاصة . ففى « مشروع أفلاطون » بجامعة الينوى ، يقوم شارلس أوسجود بتجارب بالكومبيوتر وماكينات للتعلم تستطيع أن تشرك قطاعات، كبيرة من الجمهور فى تخطيط مستقبلات مفضلة متخيلة وذلك من خلال الاشتراك فى ألعاب معينة .

وفى جامعة كورنيل بدا جوزيه فيلجاس —وهو — أستاذ بقسم التصميم وتحليل البيئة — مستعينا بطلاب من السود والبيض فى بناء تشكيلة من « ألعاب الجيتو » التى تكشف للاعبين آثار مجموعة مختلفة من الأفعال المقترحة ، ومن ثم مساعدتهم على استيضاح الأهداف . فمثلا عرض « جيتو ١٩٨٤ » ماذا سيحدث لو تمت الموافقة على توصيات لجنة كيرنر — اللجنة القومية الاستشارية فى شئون الاضطرابات المدنية — وعرض التسلسل الذى نفذت به هذه التوصيات ، وآثارها الكلية ،فى الجيتو . لقد ساعد اللاعبين من السود والبيض فى التعرف على أهدافهم المشتركة وصداماتهم التى لم تحل . وفى ألعاب مثل « بيرو ٢٠٠٠ » و « مدينة المتعدين ٢٠٠٠ » يصمم اللاعبون مجتمعات محلية للمستقبل .

وفى لعبة « أسفل الحى الشرقى » ، وهى لعبة يأمل فيلجاس أن تلعب فى الحى الذى يحمل نفس الاسم فى نيويورك ، لن يكون اللاعبون من الطلبة بل من سكان الحى أنفسهم - عمال فقراء ، وبيض من الطبقة المتوسطة ، وتجار بورتوريكيون صغار ، وشباب ، وسود متعطلون ، ورجال بوليس ، وملاك منازل ، ومسئولون بالمدينة .

وفى ربيع ١٩٦٨ اشترك ٥٠,٠٠٠ طالب بالمدارس العليا فى بوسطن وفيلادلفيا وسيراكيوز ونيويورك فى لعبة تليفزيونية تضمنت محاكاة لحرب فى الكونغو سنة ١٩٧٥ ، وبينما كانت فرق اللاعبين تحاكى مجالس وزراء روسيا والصين والولايات المتحدة ، ويصارعون مشكلات الدبلوماسية وتخطيط السياسة ، كان الطلبة والمدرسون يشاهدون ويتناقشون بدورهم ويقدمون نصائحهم للاعبين بالتليفون .

إن ألعابا مشابهة تضم ، لا عشرات ، بل مئات وآلاف أو ملايين الأشخاص ، يمكن أن تبتكر لتساعد على صياغة أهداف المستقبل . وكما رأينا فى اللعبة التليفزيونية السابقة اللاعبين وهم يلعبون أدوار كبار المسئولين الحكوميين فى محاولاتهم لحل أزمة دولية ، كذلك يمكن أن نرى ألعابا تحاكى اجتماعات تعالج مختلف الأزمات - كارثة إيكولوجية مثلا - وتشمل اجتماعات لنقابات العمال وللأندية النسائية ، والجماعات الكنائسية والمنظمات الطلابية ، وغيرهما ، حيث تشاهد البرنامج أعداد كبيرة من الناس ، ويصلون إلى أحكام جماعية حول الاختيارات المطلوبة ويرسلونها إلى اللاعبين الأصليين . وبواسطة الكومبيوتر ولوحة توزيع خاصة يمكن نقل النصائح وجدولة أصوات المشاهدين بالموافقة أو عدم الموافقة على رأى ما ونقلها إلى « صانعى القرارات » . كما يمكن أن تشترك أعداد أكبر من الناس فى هذه الألعاب من داخل بيوتهم ، وبذلك تتاح الفرصة للملايين من غير المنظمين للمساهمة فى العملية . وباستخدام الخيال الخصب فى ابتكار وبناء العديد المتنوع من هذه الألعاب ، يصبح من الممكن عمليا أن يعبر الملايين ممن كانوا لا يستشارون عن آرائهم فى أهداف المستقبل .

مثل هذه التكنيكات التى مازالت بدائية سوف تتطور إلى حدود خيالية خلال السنوات القلية القادمة ، متيحة لنا طريقة منهجية للتجميع والتوفيق بين الصور المتضاربة عن المستقبل المفضل لدى كل أنواع الناس ، حتى أولئك الذين لا خبرة لهم بالمناقشات الأكاديمية أو الإجراءات البرلمانية .

وسوف يكون من الخطأ أن نتوقع من مثل مجالس مدن المستقبل هذه أن تكون أشياء رتيبة ، أو متوافقة ، أو أنها ستنظم على نمط واحد فى كل مكان ، فى بعض الأماكن قد تنشأ المجالس الاجتماعية للمستقبل بمبادرة من المنظمات الاجتماعية ، أو مجالس التخطيط ، أو الوكالات الحكومية . وفى أماكن أخرى قد تتكون برعاية نقابات العمال ، أو جماعات الشباب أو القادة السياسيين المكيفين نحو المستقبل . وقد تأتى المبادرة فى مكان ما بواسطة الكنائس ، أو المنشآت ، أو المنظمات التطوعية . بل قد تقوم فى بعض المواقع بطريقة تلقائية كاستجابة للأزمات .

وسيكون من الخطأ أيضا أن نتصور الأهداف التى سترسمها هذه المجالس فى صورة مثاليات أفلاطونية ثابتة تحوم فى عالم ميتافيزيقى لا وجود له . بل الأحرى أن ننظر إليها كمؤشرات مؤقتة إلى الاتجاه ، وأهداف عريضة صالحة لزمن محدود فقط ، القصد منها تقديم النصح والمشورة لممثلى الشعب السياسيين فى المجتمع المحلى ، أو على مستوى الأمة .

ومع ذلك ، فإن مثل هذه الأحداث المتعلقة بالمستقبل والمشكلة له قد يكون لها تأثيرات سياسية ضخمة . والحقيقة أنها قد تسفر عن كونها أداة خلاص وإنقاذ للنظام السياسى القائم على التمثيل كله — وهو نظام يعانى الآن من أزمة طاحنة .

إن جماهير الناخبين اليوم فى عزلة بعيدة عن الاتصال بممثليهم المنتخبين ، والموضوعات التى تعالج فنية لدرجة أنه حتى المواطنون المتعلمون من الطبقة الوسطى يشعرون بأنهم مبعدون برغمهم عن عملية وضع الأهداف . وبسبب التسارع العام للحياة ، فإن كثيرا من التغييرات يقع فيما بين انتخاب والانتخاب

الذى يليه ، لدرجة أن السياسى المنتخب يصبح بصفة متزايدة غير قابل للمحاسبة من قبل ناخبيه . وزيادة على ذلك فإن هؤلاء الناخبين يتغيرون باستمرار . فمن الناحية النظرية يستطيع الناخب الذى لا يرضى عن أداء ممثله أن يصوت ضده فى المرة التالية ، ولكن من الناحية العملية يستحيل على ملايين من الناس أن يفعلوا حتى ذلك . فحركة التنقل الهائلة تحملهم بعيدا عن المنطقة ، وأحيانا تحرمهم من التصويت مطلقا ، والوافدون الجدد يتدفقون إلى المنطقة ، وفى كل مرة يتزايد عدد الوجوه الجديدة التى يتحدث إليها السياسى . إنه قد لا يدعى أبدا لتقديم حساب عن أعماله ، أو عن الوعود التى قدمها إلى آخر مجموعة من الناخبين .

وأيضا ، يسبب الانحياز الزمنى للسياسة أضرارا بالغة للديموقراطية . فعادة لا يتجاوز الأفق الزمنى للسياسى الانتخابات التالية . إن المؤتمرات والمجالس التشريعية ، والبرلمانات ، ومجالس المدن — الهيئات التشريعية بوجه عام — تفتقر إلى الوقت والموارد والأشكال التنظيمية اللازمة للتفكير بجد حول المستقبل البعيد . أما بالنسبة للمواطن فإن آخر ما يستشار فيه هو الأهداف الأكبر والأبعد لمجتمعه المحلى أو لولايته ، أو للأمة .

قد يستفتى الناخب حول قضايا معينة . ولكنه لا يستفتى مطلقا حول الصيغة العامة للمستقبل المفضل . والواقع أنه ليس ثمة مؤسسة سياسية يستطيع الفرد العادى من خلالها أن يعبر عن أفكاره حول ما يجب أن يكون عليه المستقبل البعيد شكلا وموضوعا .إنه لم يسأل قط أن يفكر فى هذا ، وفى المرات النادرة التى يفعل ، فإنه لا يجد سبيلا منظما لنقل أفكاره إلى ساحة السياسة ، إنه وقد حيل بينه وبين المستقبل أصبح خصيا سياسيا .

إننا لهذا ، ولأسباب أخرى ، مندفعون نحو انهيار مميت لنظام التمثيل السياسى بأكمله . ومن أجل أن تبقى الهيئات التشريعية فإنها فى حاجة إلى روابط جديدة تصلها بقواعدها من الناخبين وبالمستقبل . والمجالس الاجتماعية للمستقبل تستطيع أن تقدم الوسائل التى تعيد ربط النائب بقاعدته من الناخبين ، كما تربط الحاضر بالمستقبل .

إن هذه المجالس بانعقادها المتكرر والمنتظم تستطيع أن تعطى قياسا للإدارة الشعبية أشد حساسية من أى قياس موجود حاليا . إن مجرد الدعوة إلى مثل هذه المجالس سوف يجتذب الملايين إلى تيار الحياة السياسية التى يتجاهلونها الآن . وبمواجهة الرجال والنساء بالمستقبل ومطالبتهم بأن يفكروا بعمق حول مصائرهم أنفسهم ، بالإضافة إلى مساراتنا العامة المتسارعة ، سوف نطرح قضايا أخلاقية كبرى .

إن مجرد طرح مثل هذه الأسئلة على الناس سوف يثبت أنه فى حد ذاته عملية تحريرية . وعملية التقويم الشعبى فى حد ذاتها سوف تنعش وتطهر السكان المرهقين حتى الموت بمناقشات فنية حول كيف يصلون إلى حيث هم غير واثقين من أنهم حقا يرغبون . إن المجالس الاجتماعية للمستقبل سوف تساعد على توضيح الفروق التى تفصل بيننا فى مجتمعاتنا السريعة الانقسام والتشظى ، ومن الناحية المقابلة فإنها أيضا ستساعدنا على تعرف حاجاتنا الاجتماعية المشتركة ، أى الأرضيات الممكنة لقيام وحدات موقتة . ومن هنا فإنها حرية بأن تجمع أشكال الحكم المختلفة فى إطار جديد ستنبثق منه حتما أجهزة سياسية جديدة .

وأهم من كل شئ ، أن المجالس الاجتماعية للمستقبل سوف تساعد على تحويل الثقافة نحو انحياز زمنى أكثر ميلا إلى عصر ما فوق التصنيع . فيشد انتباه الناس مرة إلى الأهداف البعيدة المدى بدلا من الاستغراق الكامل فى البرامج الفورية وحدها ، وبسؤال الناس أن يختاروا مستقبلا مفضلا من بين عديد من المستقبلات البديلة ، تستطيع هذه المجالس أن تعزز بشكل مثير من الإمكانيات التى تضمن إنسانية المستقبل — إمكانيات يعتبرها الكثيرون بالفعل فى حكم المفقودة ، وبذلك تستطيع المجالس الاجتماعية للمستقبل ، أن تطلق قوى بناءة عارمة — قوى التطور الواعى .

إن الدفعة التسارعية التى أطلقها الإنسان قد أصبحت الآن مفتاح العملية التطورية على كوكبنا بأكملها . إن معدل واتجاه التطور للأنواع الأخرى

ولبقائها ذاته يعتمد على القرارات التى يتخذها الإنسان . ولكن ليس ثمة شىء فى صلب العملية التطورية يضمن بقاء الإنسان ذاته .

فى الماضى ، وعبر مراحل التطور الاجتماعى المتعاقبة ، كان وعى الإنسان يعقب الحدث أكثر مما يسبقه . ولأن التغيير كان بطيئا ، فقد استطاع أن يتكيف بلاوعى « عضويا » . أما اليوم فلم يعد التكيف اللاواعى كافيا . إن الإنسان وقد ووجه بالقدرة على تعديل الوراثة ، وخلق أنواع جديدة ، وإسكان الكواكب ، وإفناء سكان الأرض ، يجب أن يمسك الآن بزمام التحكم فى التطور ، ذاته . وبتفاديه صدمة المستقبل عندما يركب أمواج التغيير ، ينبغى أن يتحكم فى التطور ويصوغ الغد بما يلائم الحاجات الإنسانية . وبدلا من أن يثور ضد المستقبل ، ينبغى له منذ هذه اللحظة التاريخية فصاعدا أن يتوقع له وأن يصممه .

ومن ثم فإن الهدف النهائى للمستقبلية الاجتماعية ليس مجرد تجاوز التكنوقراطية واستبدالها بتخطيط أكثر إنسانية ، وأبعد نظرا ، وأكثر ديموقراطية ، ولكن إخضاع عملية التطور ذاتها للتوجيه الإنسانى الواعى — ذلك أن هذه هى اللحظة الكبرى ، نقطة المنحنى التاريخى الذى سيتعين على الإنسان عندها ، إما أن يقهر عمليات التغيير ، وإما أن ينمحق ، والتى عندها سيتحول من دمية لا واعية فى يد التطور إلى سيد لهذا التطور ، أو ضحية له .

إن تحديا بمثل هذه الضخامة يتطلب منا استجابة درامية فى جدتها وفى عمق عقلانيتها تجاه التغيير . لقد كان التغيير هو الشخصية الرئيسية فى هذا الكتاب — أولا باحتمال أن يكون شريرا ، ثم كما قد يبدو — باحتمال أن يكون بطلا ، ففى دعوته إلى تهدئة التغيير وضبطه ، دعا إلى تغييرات ثورية إضافية . وليس فى هذا من التناقض بمثل ما قد يبدو ظاهريا — فالتغيير شىء حيوى بالنسبة للإنسان ، وهو حيوى الآن فى عمرنا رقم ٨٠٠ ، بقدر ما كان حيويا فى عمرنا الأول . فالتغيير هو الحياة ذاتها . ولكن التغيير الجامح ، غير الموجه ، أو المحكوم ، التغيير المتسارع الذى لا يكتسح

مقاومة الإنسان البدنية فحسب ، بل قدراته العقلية أيضا – مثل هذا التغيير عدو للحياة .

ومن ثم فإن أولى احتياجاتنا وأشدها إلحاحا هى أننا قبل أن نستطيع أن نبدأ بلطف فى توجيه مصيرنا الثورى ، وقبل أن نستطيع بناء مستقبل إنسانى ، هى أن نكبح جماح التسارع الذى يعرض الملايين لتهديد صدمة المستقبل ، فى حين يزيد فى نفس الوقت من حدة المشاكل التى يجب أن يعالجوها – الحرب ، فساد البيئة الأيكولوجية ، العنصرية ، التفاوت الفاحش بين الأغنياء والفقراء ، ثورة الشباب ، وظهور وتفشى خطر اللاعقلانية المميت .

وليس ثمة طريق سهل لمعالجة هذا النمو الورمى ، هذا السرطان فى التاريخ . ليس هناك دواء سحرى أيضا لشفاء المرض الجديد الذى يحمله فى أردانه : صدمة المستقبل . لقد اقترحت مسكنات للفرد المنسحق تحت ضغط التغيير وإجراءات شافية أكثر ثورية بالنسبة للمجتمع – خدمات اجتماعية جديدة ، وتعليم موجه إلى المستقبل ، وطرق جديدة لضبط وتنظيم التكنولوجيا ، واستراتيجية للتحكم فى التغيير . ولابد من إيجاد سبل أخرى . ولكن الهدف الأساسى لهذا الكتاب هو التشخيص . ذلك أن التشخيص لابد وأن يسبق العلاج ، ولن نستطيع أن نبدأ فى مساعدتنا أنفسنا قبل أن نحس المشكلة ونعيها .

وستكون هذه الصفحات قد خدمت الغرض منها إذا ما ساعدت ، لحد ما ، على خلق الوعى اللازم للإنسان ليشرع فى الإمساك بزمام التغيير ، وتوجيه تطوره . ذلك أننا باستخدامنا الذكى الخصب للتغيير فى ضبط وتوجيه التغيير ، لن ننجح فقط فى أن نقى أنفسنا رضوض صدمة المستقبل ، بل أيضا سنستطيع أن نصل إلى غدنا البعيد ، وأن نجعل منه غدا إنسانيا .

تـقـديـر وعرفان

من بين أبرز الأخطاء فى زماننا ذلك الاعتقاد بأن حياة المؤلف حياة وحيدة ، وأن أفكاره تنبثق من نبع داخلى غامض ، وأنه يكتب تحت تأثير من الوحى والإلهام ؛ وإن كان معظم المؤلفين المحترفين يعرفون أفضل من هذا . ولكن أيا كان انطباق هذه الأوصاف على مؤلفين أخر وكتب أخرى ، فإنها على وجه القطع لا تنطبق على هذا الكتاب . إن « صدمة المستقبل » هو محصلة اتصال اجتماعى وجها لوجه ، وعقلا لعقل ، مع مئات من الناس ، أشخاص من الكثرة وتعدد المواقع بين مختلف الجامعات ومراكز البحث والمكاتب ، بحيث يستحيل على ، فى الواقع ، أن أورد قائمة بهم .

وباستثناء جهدى شخصيا ، فإن أكبر وأهم جهد مفرد له أثر الفضل على الكتاب كان جهد زوجتى هيدى ، التى لم تكن تلك الزوجة التى جرت الأمثال على وصفها بأنها : « الزوجة الصابرة التى أبعدت الأطفال عن خلوة التأليف » ، ولكن بالأحرى الشريكة الذكية فى العمل ، والمجادلة بعمق من نقطة إلى نقطة ، حاملة إياى على إيضاح وتكامل المفهوم الذى بنى عليه الكتاب . وكما فعلت فى الماضى ، فقد خدمت كمحرر مقيم ، مطالعة ومصغية إلى كل فصل ، مقترحة حذفا هنا ، وإضافة هناك ، ورؤى جديدة . إنه إلى حد كبير كتابها ، كما هو كتابى .

وكثير من الأصدقاء أيضا قرأوا كل أو بعض أجزاء مسودة الكتاب ، مقدمين ملاحظات ثمينة . فالدكتور دونالد . ف . كلاين . مدير أبحاث الطب العقلى فى مستشفى هيلسيد بنيويورك ، والدكتور هربرت سيرجوى ، الأخصائى النفسى ، والدكتور بنيامين سينجر ، الأخصائى الاجتماعى . وهارولد لى ستدلر — قدموا جميعا مساعدة مشكورة فى هذا المجال .

وينبغى أيضا أن أوجه الشكر للآنسة يونى برور التى عملت كمساعدة بحث خلال المراحل الأولى من المشروع ، وساعدتنى راضية ومرحبة فى غربلة وتصفية أكداس المواد التى تراكمت على مكتبي فى بعض الأوقات بشكل يثبط الهمم .

وإنى لمدين بالعرفان بنوع خاص للبروفيسور إيليس . ل . فيليبس من مدرسة القانون بجامعة كولومبيا، ولمنشأة إيليس . ل . فيليبس للصبر الذى يفوق احتمال البشر ، والسماح لى مرة بعد أخرى فى إرجاء التزاماتى قبل المنشأة فى فترة إكمالى لهذا الكتاب .

رقم الإيداع : ١٩٩٠/١٧٦٥
الترقيم الدولى : ١ - ٠٣٤٢ - ٠٨ - ٩٧٧ ISBN

مطابع نهضة مصر